

تاريخ مصر الحديث

مع فذلكت في تاريخ مصر القديم

المجلد الأول

تأليف

جرجي زيدان

الناشر: مكتبة مدبولي - القاهرة

صَفَحَاتٌ مِنْ تَارِيخِ مِصْرَ

⑪

تَارِيخُ مِصْرَ الْحَدِيثِ

من الفتح الاسلامي الى الآن

مع

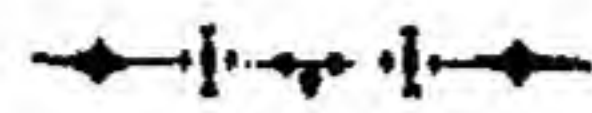
نذلكة في تاريخ مصر القديم



تأليف

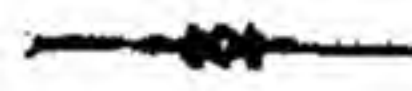
عمرجي زيدان

منشأة الهلال



الجزء الاول

من الفتح الاسلامي الى آخر دولة المماليك الثانية
وفي اوله فذلكة التاريخ القديم



الناشر

مكتبة مدبولي

١٩٩٩

جميع الحقوق محفوظة

١٤١٩ هـ - ١٩٩٩ م

مكتبة مدبولي - ٦ ميدان طلعت حرب القاهرة
ت: ٥٧٥٦٤٢١ - تليفاكس: ٥٧٥٢٨٥٤

فاتحة الكتاب

للطبعة الاولى

حمداً لمن جعل اقااصيص الاواين عبرة للآخرين . أما بعد فلا ازيد اقمارى
 علماً بحد التاريخ ولا بما له من المنزلة الرفيعة بين سائر العلوم ولا بما يترتب على الاقبال
 عليه من اصلاح الشؤون . وانما اکتني بكونه اكثر ارتباطاً بمصالح خاصة الناس منه
 بمصالح عامتهم . فقادة التمدن ورجال السياسة وكبار المصالحين اخرج الى معرفته من
 سائر افراد الامة . ولذلك رأينا ولادة الامور على اختلاف الازمان والاحوال يصرفون
 العناية في مطالعته وتفهم خفاياه ويبدلون النفيس في استطلاع مكنوناته وجمع شظاياه
 فتكاد لا ترى مؤرخاً من القدماء الا وقد أوعز اليه ولي الامر او من جرى مجراه
 ان يضع في التاريخ كتاباً . بل كثيراً ما رأينا من ولادة الامور انفسهم من ألف فيه كتاباً
 غير مبال بما يقتضيه ذلك من تجشم المشاق ولا مستنكف من ان يقول الناس انه اعتنى
 بما هو دون مقامه

ذلك كان شأن هذا العلم في الازمنة الخالية يوم لم يكن يتيسر لضعيف مثلي ان
 يطرق بابه او يخوض عبابه لقصر بابه عما يحتاج اليه في ذلك من المادة التي تمتنع الا
 على الملوك او المقرّبين منهم

أما الان فما يتباحث فيه الملوك صباحاً في مؤتمراتهم السرية باقاصي المغرب لا يأتي
 عاينه الضحى حتى يذيع بين الصانع والتاجر في اقاصي المشرق . والفضل في ذلك لاسلاك
 البرق وصحف الاخبار التي لم تغادر بين الخاصة والعامة حجراً . فلا غرو والحالة هذه
 اذا تجرأ من كان عاجزاً مثلي على ان يضع في مثل ذلك كتاباً

ولما كانت المملكة المصرية من اقدم الممالك تمدناً واكثرها حوادث وطوارىء

ومحناً لكثرة ما تداول عليها من الدول المتباينة نزعة ولغة ووطناً كانت اجدرها بتدوين تاريخها عبرة للذين يعتبرون

وبما ان تاريخها بعد الفتح الاسلامي اكثر ارتباطاً بحالتها الحاضرة من تاريخها قبله كان اكثر فائدة واحوج الى التدوين وهذا ما ندعوه بتاريخ مصر الحديث وقد قام من كتبة العرب وافاضلهم كثيرون اعتنوا بالكتابة عن مصر وتاريخها القديم ، الحديث وسيأتي ذكرهم وذكر مؤلفاتهم في الجزء الاول من هذا الكتاب عند الكلام عن مصادر تاريخ مصر الحديث . واحداث هذه المؤلفات « الخطاط التوفيقية الجديدة لمصر القاهرة ومدنها وبلادها القديمة والشهيرة » تأليف العلامة الفاضل صاحب السعادة علي باشا مبارك ناظر عموم المعارف جملة عشرين جزءاً كبيراً وهو من التأليف التي لا يقدم على كتابتها الا اصحاب الهمم العالية والمعارف الواسعة . وقد كان عليه معتمدي واليه مرجعي في كثير من المواضيع ولا سيما فيما يتعلق بالشوارع والجوامع

ومن الغريب اني لم ار بين المؤرخين الذين كتبوا عن مصر من اعتنى بوضع تاريخ لها مستوف على اسلوب قريب من فهم العامة ورضى الخاصة تتعاقب فيه الحوادث بتعاقب السنين مع علاقة كل ذلك بالدولة الاسلامية عموماً وسائر الدول المعاصرة . واغرب من ذلك اني لم ار بين مدارس القطر السعيد من اميرية وغير اميرية مدرسة تعني بتدريس هذا التاريخ الذي هو تاريخ بلادها . ولعل السبب في ذلك عدم وجود الكتب الموضوعية على اسلوب مناسب للتدريس

وقد رأيت الناس يلهجون باحتياج البلاد الى مثل هذا التاريخ . فاخذت على نفسي مع علمي بعجزني ان ابذل الجهد في سد هذا العوز معتمداً على اصح الروايات واصدق الكتبة من ثقات المشرق والمغرب ملتزماً في كل ذلك صحة النقل وانتقاء اصح الروايات وتطبيق كل ذلك على الاحكام العقلية واغفال كل ما هو مقول بغير قياس من التقاليد والخرافات

وقد عنيت اتماماً لمعدات التأليف بتفقد الآثار العربية بنفسني باذن من نظارة الاوقاف الجليلة . فزرت معظم جوامع القاهرة وضواحيها ولا سيما ما كان منها قديماً

كجامع عمرو وجامع ابن طولون والجامع الازهر وجامع السلطان حسن وجامع السلطان برقوق وجامع قايت باي وجامع الغوري وغيرها . وزرت ما هنالك من البنايات القديمة كالقاعة وما جرى مجراها وتسقلت ما صعب مسلكه منها ولا سيما اسوار القاهرة القديمة وابوابها كباب النصر وباب الفتوح وباب الشعيرة وغيرها . ومن هذه الاماكن ما قد تداعت اركانها وصعب الصعود اليه الا بالمخاطرة . فكثيراً ما كنت اخاطر بحياتي لهذه الغاية . ومن الآثار العربية التي تفقدتها ما عدا الجوامع والمشاهد والتكيات والشوارع قصر الشمع او دير النصارى في مصر القديمة ودار التحف العربية في جامع الحاكم بشارع النحاسين وغير هذه من الاماكن في القاهرة وضواحيها كالعناطر الخيرية وغيرها

اما الآثار المصرية القديمة فقد تفقدتها كلها ايضاً ولا سيما ما هو منها في مصر العليا مبتدئاً من اهرام الجيزة بجوار القاهرة الى ما وراء وادي حلفا آخر حدود مصر فزرت خرائب سقارة واسنا وطيبة والكرنك وبيبان الملوك وجبل السلسلة وانس الوجود واباسنبل وغيرها . ومثل ذلك آثار مصر السفلى مبتدئاً بالمطرية فانريب وغيرها . وفي مصر العليا فضلاً عن الآثار المصرية القديمة آثار استحكامات وبنيات بناها المماليك أو غيرهم في حال محاربتهم حكومة البلاد او دفاعهم عنها

كل هذه الاماكن تفقدتها جيداً تماماً لمعدات التأليف . ولما توفرت لدي المواد اللازمة باشرت تأليف هذا الكتاب ودعوته « تاريخ مصر الحديث » من الفتح الاسلامي الى هذه الايام . ثم رأيت ان الفائدة لا تتم الا اذا جعلت في مقدمته ما يخص تاريخ مصر القديم ربطاً للحوادث بعضها ببعض وبتزيينه بالرسوم والخرائط وايضاحات اخرى . فجاء بحمد الله كتاباً في جزئين كبيرين وهما ما تضمنه :

- ١ فذلكة في تاريخ مصر القديم من أول عهدها الى الفتح الاسلامي
- ٢ تاريخ مصر الحديث من الفتح الاسلامي الى هذه الايام وهو مقسوم الى دول تحتها خلافت او سلطنات أو امارات مرتبة حسب ازمان حكمها فيبدأ بدولة الخلفاء الراشدين فبنو امية فالعباسيين وهكذا حتى المائلة المحمدية العلوية الحاضرة
- ٣ وفي الكتاب زهاء مائة رسم بينها رسوم الجناح العالي والمغفور له محمد علي

باشا والخديوي السابق و بونا برت ورعسيس الثاني وتحتس الثالث وامنوفيس الثالث وغيرهم . وبين هذه الرسوم أيضا معظم النقود الاسلامية ولا سيما المضروبة في مصر منذ صدر الاسلام الى اليوم . ورسوم اخرى كحجر رشيد وآلة المصريين وخرائب المطرية وانس الوجود وادفو وغيرها

٤ وفي ذيل الكتاب جدول عام لاسماء الذين تولوا مصر من الامراء والخلفاء والسلاطين والباشوات من الفتح الاسلامي الى اليوم مرتبة حسب ازمان حكمهم وبجانب ذلك عدد الصفحة التي ذكرت فيها تولياتهم من هذا الكتاب . ثم اذا كانوا امراء أو ولاية يذكر بازاء ذلك اسماء الخلفاء أو السلاطين الذين تولوا البلاد باسمهم

٥ في خاتمة الكتاب فهرس ابجدي عام لكل ما ورد في هذا الكتاب من المواضيع المهمة كالفتوحات والمحاربات والبنائات والتقلبات واسماء الخلفاء والسلاطين والامراء والباشوات وغيرهم ممن حكموا مصر . هذا فضلاً عن فهرس خاص لكل من جزئي الكتاب

٦ قد جعلت للكتاب فضلاً عن الرسوم المتقدم ذكرها اربع خارطات وهي :
اولاً خارطة مدينة القاهرة كما هي الان . ثانياً خارطة مصر السفلى . ثالثاً خارطة مصر العليا . رابعاً خارطة القطر المصري قبل الفتح الاسلامي

وقد عنيت في ضبط هذا التاريخ وربط حوادثه جهد الطاقة مغفلاً كثيراً من الروايات التي ترجح فسادها بعد النظر والتروي متحاشياً الالفاظ المستهجنة والتعابير المعقدة ما امكن متخذاً افضل اسلوب تفهيمه العامة وترضاه الخاصة بنير اخلال ولا املال . راجياً من اصحاب النقد ان ينظروا اليه بعين الرضى اذ العصمة لله وحده سبحانه وتعالى

يقال في الامثال د من الف فقد استهدف فان احسن فقد استعطف وان اساء فقد استقذف ه اما انا فان احسنت فان الفضل لافضل الكتبة وثقات الرواة الذين سبقوني لاني لم آت بشيء من عند نفسي ما خلا الحوادث التي قدر لي ان اكون فيها شاهد عين وما تفقدته بنفسي من الاثار العربية والمصرية . وان اسأت فذلك دأب العاجز . وليكني ارغب الي من يعثر لي على خطأ ان ينهني اليه فاشكر سعيه واثني عليه

لاني استحيي من الحق اذا عرفته ان لا ارجع اليه . او يعذرني فان اعقل الناس اعذرهم للناس . ولا اقول ان كل خطيئ سهو جري به القلم بل اعترف ان ما اجهل اكثر مما اعلم . وما تمام العلم الا لمن علم الانسان ما لم يعلم

هذا وارجو ان تصادف خدمتي هذه لدى اخواني ابناء هذا القطر السعيد قبولاً واقبالاً واتقدم الى رجال العلم منهم ان يتحفونا من نفثات اقلامهم بما هو أوفر مادة واجزل نفعا . لاني اعلم ان بين ظهرائهم رجالاً لهم من العلم وسعة المعرفة ما يوهلهم لما هو افضل من ذلك كثيراً . فتم سعادة البلاد ونكون قد قمنا ببعض الواجب علينا نحوها ونحو اميرها الخطير سمو خديونا المعظم محمد توفيق باشا الاخفم ادام الله ايامه باسمه الثغور في ظل صاحب الخلافة العظمى مولانا السلطان الغازي عبد الحميد خان ايد الله ايام دولته بالعرز والاقبال وادام شوكته واقتداره ما تكرر الجديدان

مقدمة الطبعة الثانية

صدرت الطبعة الاولى من هذا الكتاب سنة ١٨٨٩ فلاقى اقبالاً حسناً نشطنا على المثابرة في خدمة العلم . وما زلنا من ذلك الحين ونحن نزداد معرفة في احوال مصر ونتبع تاريخها . فلما عزمنا على اعادة الطبع اضفنا الى الطبعة الاولى زيادات هامة في مواده ورسومه فضلاً عن زيادة التدقيق والتحري وهاك مزيات هذه الطبعة

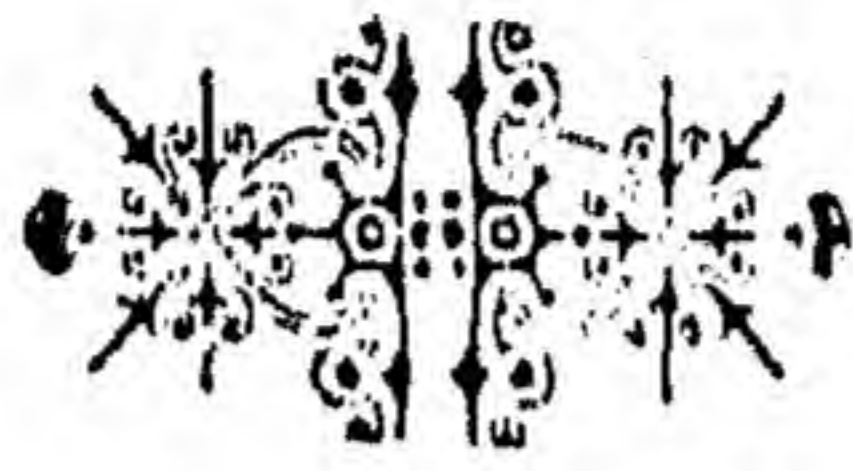
١ انها اقرب الى الدقة والتحقيق

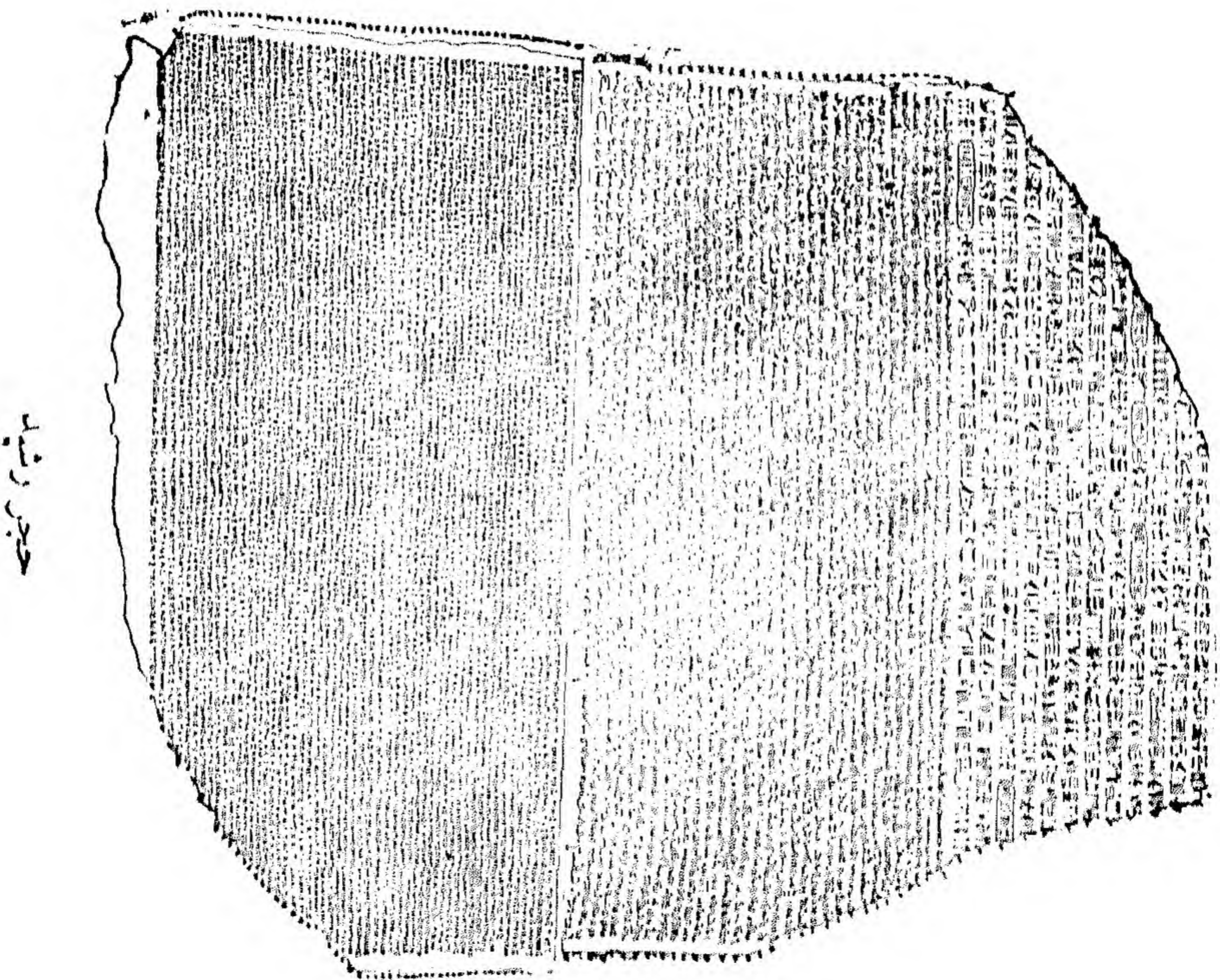
٢ تحتوي على تاريخ بضع وعشرين سنة لم تدركها الطبعة الاولى

٣ قد توسعنا في اكثر المواد وخصوصاً في القسم الاخير وعلى الاخص في تاريخ الاسرة الخديوية وما جرى في ايامها من الحوادث العظام . كالتقلبات السياسية التي جرت في زمن محمد علي . وما ادخله هذا الرجل العظيم من الاصلاحات العلمية والاقتصادية والسياسية والتجارية . وفعلنا مثل ذلك في ازمة خلفائه الى اليوم . ويدخل فيه علاقات مصر مع الدول على زمن اسماعيل باشا والحوادث العراية والسودانية في

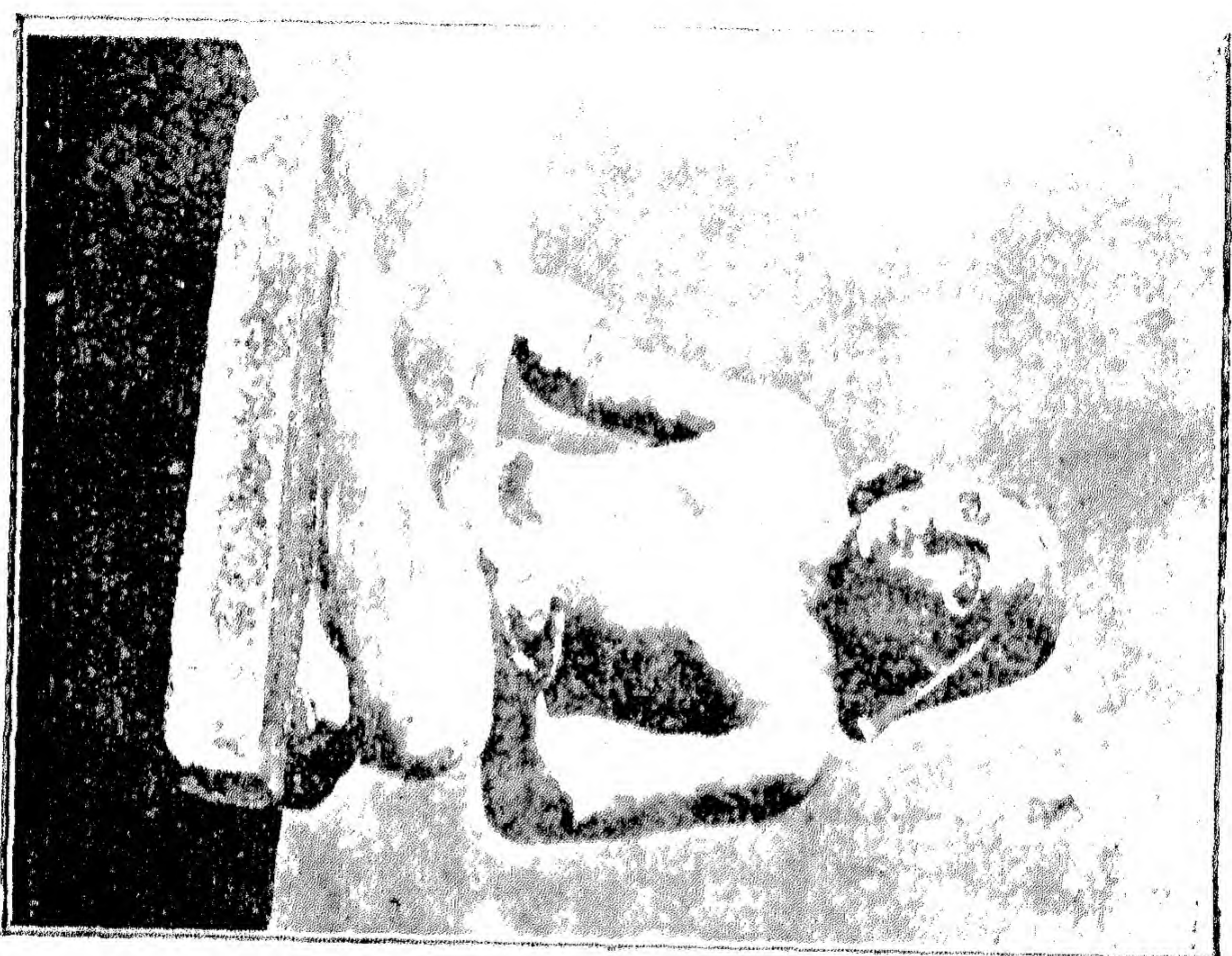
زمن الخديوي السابق وما كان من النهضة العلمية والمالية والسياسية في زمن سمو الخديوي الحالي . ويصح ان يقال اننا كتبنا تاريخ الدولة الخديوية ثانية ونظرنا فيه من الوجهة السياسية والعلمية والاقتصادية مع التوسع والتدقيق . فاصبح الكتاب اكبر حجماً واوسع مادة

٤ زينه بنيف ومشتين من الرسوم والخرائط و بينها رسوم مشاهير مصر وغيرها في السياسة والعلم والاصلاح وصور اهم المواقع التي جرت فيها الحوادث بمصر والشام . وآلات الحرب والحصار واشهر الآثار البنائية فضلاً عن النقود الاسلامية والآثار المصرية القديمة . ومن الخرائط خريطة مصر في زمن الفراعنة والوجه البحري اليوم ورسم القاهرة على اختلاف اعصرها وخرائط بغداد والخرطوم وام درمان وغيرها فنرجو ان تصادف خدمتنا قبولاً والله حسبنا ونعم الوكيل





حجر رشيد



کاتب مصري قديم

اقسام تاريخ مصر العام

يبدأ تاريخ مصر العام عند اقامة اول حكومة نظامية فيها وقد علم من مصادر مختلفة سياًتي ذكرها . ان اول حكومة اقيمت من هذا النوع كانت في اول القرن الستين قبل المسيح اي منذ نحو سبعة الاف سنة على وجه التقريب
اما قبل ذلك الحين فكانت قبائل مستقلة تحت سلطة فئة من الكهنة يقال لهم باغة مصر القديمة « حورشسو » وهم آخر من حكم المصريين قبل الدولة الملكية الاولى التي اول ملوكها « مينا » وهو اول من اقام في وادي النيل حكومة نظامية ومنه يتبدى تاريخها

وقد قسم المؤرخون تاريخ مصر العام بالنسبة الى ثلثة ادوار كبرى وهي:
١ الدور الجاهلي . يتبدى عند اول دخولها في سلك الممالك سنة ٥٦٢٦ ق م او ٥٠٠٤ ق م وينتهي سنة ٢٤١ ق م او ٣٨١ ب م . وذلك عند ما نهى الامبراطور ثيودوسيوس عن عبادة النصب والتمثيل وامر باتباع الدين المسيحي
٢ الدور المسيحي . يتبدى عند شيوع سنة ثيودوسيوس وينتهي عند فتوح الاسلام سنة ١٨ ب م او ٦٤٠ ب م
الدور الاسلامي . يتبدى عند فتوح الاسلام ولا يزال

اقسام الدور الجاهلي

يقسم هذا الدور الى خمس دول تسلط في اثنائها على مصر ٣٤ عائلة وهي :
١ الدولة الملكية القديمة — تتبدى بتسلط العائلة الاولى وتنتهي بانتهاء العائلة العاشرة اي (من ٥٦٢٦ — ٣٦٨٦ ق م) او من ٥٠٠٤ — ٣٠٦٤ ق م ومدة حكمها ١٩٤٠ سنة
٢ الدولة الملكية الوسطى — تتبدى بالعائلة الحادية عشرة وتنتهي بانتهاء العائلة السابعة عشرة (من ٣٦٨٦ — ٢٣٢٥ ق م) او (من ٣٣٢ — ١٧٠٣ ق م) ومدة حكمها ١٣٦١ سنة
٣ الدولة الملكية الاخيرة — تتبدى بالعائلة الثامنة عشرة وتنتهي بانتهاء العائلة الحادية والثلاثين من ٢٣٢٥ — الى ٩٥٤ ق م) او (من ١٧٠٣ — ٣٣٢ ق م) ومدة حكمها ١٣٧١ سنة

٤ الدولة اليونانية - تبتدىء بالعائلة الثانية والثلاثين وتنتهي بانتهاء العائلة الثالثة والثلاثين (من ٩٥٤ - ٦٥٢ ق هـ) او (من ٣٣٢ - ٣٠ ق م) ومدة حكمها ٣٠٢ سنة

٥ الدولة الرومانية - ويسمىها العرب دولة الروم وهي العائلة الرابعة والثلاثون الرومانية (من ٦٥٢ - ٢٤١ ق هـ) او (من ٣٠ ق م - ٣٨١ ب م) ومدة حكمها ٤١١ سنة

الدور المسيحي

اما الدور المسيحي فهو عبارة عن استقرار الدولة الرومانية بعد ثيودوسيوس الى فتوح الاسلام (من ٢٤١ ق هـ - ١٨ ب هـ) او (من ٣٨١ - ٦٤٠ ب م) ومدة ٢٦٠ سنة

اقسام الدور الاسلامي

يقسم الدور الاسلامي الى اثنتي عشرة دولة وهي

١ دولة الخلفاء الراشدين (من ١٨ - ٤١ ب هـ) او (من ٦٤٠ - ٦٦١ ب م)
٢ الدولة الاموية (من ٤١ - ١٣٢ ب هـ) او (من ٦٦١ - ٢٥٠ ب م)
٣ الدولة العباسية للمرة الاولى (من ١٣٢ - ٢٥٧ ب هـ) او (من ٧٥٠ - ٨٧٠ ب م)

٤ الدولة الطولونية (من ٢٥٧ - ٢٩٢ ب هـ) او (من ٨٧٠ - ٩٠٥ ب م)
٥ الدولة العباسية في المرة الثانية (من ٢٩٢ - ٣٢٣ ب هـ) او (من ٩٠٥ - ٩٣٤ ب م)

٦ الدولة الاخشيدية (من ٣٢٣ - ٣٥٨ ب هـ) او (من ٩٣٤ - ٩٦٩ ب م)
٧ الدولة الفاطمية (من ٣٥٨ - ٥٦٧ ب هـ) او (من ٩٦٩ - ١١٧١ ب م)
٨ الدولة الايوبية (من ٥٦٧ - ٦٤٨ ب هـ) او (من ١١٧١ - ١٢٥٠ ب م)
٩ دولة المماليك الاولى (من ٦٤٨ - ٧٨٤ ب هـ) او (من ١٢٥٠ - ١٣٨٢ ب م)
١٠ دولة المماليك الثانية (من ٧٨٤ - ٩٢٣ ب هـ) او (من ١٣٨٢ - ١٥١٧ ب م)
١١ الدولة العثمانية (من ٩٢٣ - ١٢١٦ ب هـ) او (من ١٥١٧ - ١٨٠١ ب م)

١٢ الدولة المحمدية العلوية (من ١٢١٦ - ب هـ او ١٨٠١ ب م ولا تزال)
ويقسم تاريخ مصر العام ايضاً الى قسمين عظيمين قديم وحديث . اما القديم فمن
اول تاريخها الى الفتح الاسلامي ويشتمل على الدورين الاولين الجاهلي والمسيحي .
والحديث منذ الفتح الاسلامي الى هذا اليوم ولا يزال

مصادر تاريخ مصر القديم

ما زال تاريخ مصر القديم محجوباً عنا حتى اتيح لابناء القرن الماضي حل رموز
الكتابة الهيروغليفية (القلم المصري القديم) على ان تاريخ العهد القديم لم يخل من بعض
التلميح الى ذلك مما لم يكن من النصوص التاريخية ما يعضده وما زال ذلك شأن تاريخ مصر
القديم الى القرن السابع قبل المسيح عند استيلاء اليونان على وادي النيل . ومن مصادر
تاريخ مصر القديم :

١ نصوص المؤرخين القدماء

ان هيرودوتس الرحالة المؤرخ اليوناني هو اقدم من كتب عن مصر ما يصح ان
يسمى نصاً تاريخياً وقد جال هذا المؤرخ في وادي النيل سنة ٤٥٥ قبل الميلاد
وبعد هيرودوتس ظهر سبانيوس احد كهنة المصريين العظماء في القرن الثالث قبل
المسيح وكتب تاريخاً نفيساً عن مصر لكنه فقد ولم يصلنا منه الا بعض ما ذكره
يوسيفوس في آثار الاسرائيليين وما كتبه سنسولوس احد كتبة القرن الثامن . ثم جاء
ثيودوروس من صقلية سنة ٨ قبل المسيح . ومن هؤلاء الثقات سترابو العالم الجغرافي
وبلوتارخس المؤرخ الذي ظهر في القرن الاول المسيحي . واما قائمة اسماء الملوك لمايثون
فقد وجدت بين ما كتبه بعض المؤرخين المسيحيين . ويقال بالاجمال انه لم يكتب عن
مصر شيء جدير ان يدعى نصاً تاريخياً الا منذ القرن الخامس قبل المسيح

٢ الآثار

واعلم ان ما كتبه اولئك المؤرخون لم يفدنا شيئاً صريحاً عما وراء القرن السابع قبل
المسيح . اما الآثار - تلك الاطلال البالية التي تراها ممتة لا حراك بها وقد بقيت رغم

تقلبات الزمان وافعال العناصر فانها تنطق بافصح لسان وتنادي باجلى بيان عن عظمة صانعيها فتخبرنا عن تاريخهم وتوضح املنا ايضاً عاداتهم واخلاقهم ومكانتهم من الحضارة وعلو الهمة ورفعة المنزلة . فقد نقشوا عليها من الرسوم والرموز ما جعلها كتاباً مزيناً بالرسوم والاشكال لا تحرقه النار ولا يخرقه الفار

هذه الهياكل العظيمة والمسلات الشاخنة والتماثيل الهائلة هذه المدافن هذه الاهرام هذا ابو الهول بل هذه الجثث البالية نراها صماء وقد افعم الاحياء نطقها وقد كلفت بالحياة وعلمت آملها بالمعاد فابتنت لانفسها البنايات الشاهقة القويمة العباد تبقى معها في عالم الخلود تقص على القادمين اقايص الاقدمين . وجميع هذه تعد من وثيق المصادر التاريخية

الكتابة الهيروغليفية

يظهر ان ملوك الروم اثناء تسلطهم على مصر لم يكتثروا بهذه الكتابة بل اهملوها شأن اكثر المفتحين بلغة من يتسلطون عليهم فبقيت محجوبة تغشاها دواعي الجهل الى ايام الحملة الفرنسية في اوائل القرن الماضي اذاً تيح لاحد رجالها ان يحل بعض رموزها . وقام بعده جماعة اعتنوا بحلها فأتوا على فهمها جيداً بحيث امكنهم قراءة ما كتب بها على البردي (البايروس) والاحجار فخدموا التاريخ خدمة تستحق الاعتبار وهاك كيفية توصلهم الى حلها بالايجاز

لما قدم نابليون الاول الى مصر اكتشف احد رجاله سنة ١٧٩٩ بالقرب من ثغر رشيد حجراً اسود غير منتظم الشكل الاسطحاً منه كان مستويماً املس في اعلاه كتابة بالقلم المصري القديم (الهيروغليف) تحتها كتابة اخرى بالقلم العسامي او الديموطيفي وتحت هذه كتابة ثالثة باليونانية القديمة فأهدي هذا الحجر الى مجمع العلوم الفرنسي في القاهرة ولما تغلب الجنرال هتشنسون الانكليزي على جنود بونابرت وضع يده على ذلك الحجر ثم اهدي الى المتحف البريطاني في لندرا ولا يزال هناك . وقد شاهدناه في ذلك المتحف سنة ١٨٨٢ في صدر الآثار المصرية محفوظاً في صندوق غطاؤه من زجاج اما طول ذلك الحجر فتلات اقدام وقيراطان وعرضه قدمان وخمسة قراريط

وفي سنة ١٨٠٢ رسمت جمعية العاديات صورته وفرقتها في جمهور العلماء لينظروا في قراءتها فقرأوا اولاً الكتابة اليونانية بسهولة فاذا مفادها ان كهنة منف كتبوها

للملك بطليموس ايفائيس سنة ١٩٤ ق م يشكرونه لما اسبغه عليهم من النعم الجزيلة وانهم وضعوا منها نسخة في كل هيكل من هياكل الطبقة الاولى والثانية والثالثة بجانب تمثال ذلك الملك

ثم ان العلماء وفي مقدمتهم العالم الفرلساوي ده ساسي حاولوا قراءة الكتابة الديموطيقية وغاية ما وصلوا اليه انهم عينوا مواقع الاعلام في الكتابة المصرية المقابلة للاعلام اليونانية . ثم عين العلامة اكربلاد الاسوجي لفظ بعض الاعلام في القلم المصري العامي . اما الهيروغليف فلم يطمع احد منهم في حله الى ذلك الحين وفي سنة ١٨١٨ شرع العالم فرنسوا شمبيليون الفرلساوي في حل هذه الكتابة بعد ان درس اللغة القبطية وجغرافية مصر القديمة وكل ما كتبه المتقدمون عن مصر والمصريين . وكان بلزوني الايطالي قد عثر في جزيرة البربة على مسلة مصرية عليها كتابة يونانية وارسل صورة الكتابة الى اوروبا . فلما رآها شمبيليون ارتأى ان الكتابة اليونانية هي ترجمة الكتابة المصرية . ثم رأى في الكتابة اليونانية اعلاما واسما الاعلام لا تترجم فتوسم في ذلك سبيلا الى معرفة لفظ بعض الحروف المصرية . ووجد في الكتابة المصرية نقوشاً محاطة بخط اهلياجي وقرأ في الكتابة اليونانية اسم بطليموس مكرراً مراراً كثيرة فاستنتج من ذلك ان النقوش الهيروغليفية المتقدم ذكرها هي اسم بطليموس وزاد تأكيدها عند ما رأى ذلك الاسم وارداً في الكتابة اليونانية على الحجر الرشيدوي ويقابله في الكتابة الهيروغليفية هناك نقوش محاطة بخط اهلياجي كالنقوش التي على المسلة تماماً وبناء على ذلك تكون الصورة الاولى ضمن الخط الاهلياجي



ش ١ - كليو يطرأ



ش ٢ - بطليموس

تقابل الحرف الاول من بطليموس اي الباء والثانية تقابل الحرف الثاني اي الطاء وهلم جرا . ووجد ايضاً في الكتابة اليونانية اسم كليو يطرأ ويقابله في الكتابة المصرية نقوش ضمن خط اهلياجي . فقال شمبيليون بنفسه اذا كانت الاولى بطليموس فتكون

هذه كليوبيطرا واخذ بالمقابلة مستعيناً باللغة القبطية لانها بقية اللغة المصرية القديمة فرسم امامه الشكليين اللذين ظنهما اسمي بطليموس وكليوبيطرا وجعل يقابل الاحرف المماثلة في الاسمين كاللام والباء وغيرها فاذا بها متماثلة تماماً في الشكليين بمواقعها في الاسمين وترى في الشكل الاول والثاني صورتى اسم كليوبيطرا وبطليموس في القلم الهيروغليفي

فالحرف الاول من اسم كليوبيطرا صورة ركبة . واسم الركبة في اللغة القبطية يبتدىء بحرف الكاف فهو حرف الكاف . والحرف الثاني صورة اسد . واسم الاسد يبتدىء في اللغة القبطية بحرف اللام فهو صورة حرف اللام وهو الحرف الرابع في اسم بطليموس لان الثالث بمثابة الحركة . والحرف الثالث من اسم كليوبيطرا صورة قصبة . وهو الحرف السادس والسابع في اسم بطليموس فهو بمثابة الالف او الياء . واسم القصبة في اللغة القبطية يبتدىء بالالف . والحرف الرابع صورة عقدة وهو حرف الواو . والحرف الخامس مثل الحرف الاول من اسم بطليموس فهو حرف الباء . والسادس صورة لسر . واسم السر في القبطية يبتدىء بالالف فهو حرف الالف . والسابع صورة يد واسم اليد في القبطية يبتدىء بحرف الطاء . والثامن صورة فم . واسم الفم في القبطية يبتدىء بحرف الراء فهو حرف الراء . والتاسع تقدم ذكره والعاشر مثل الثاني في بطليموس فهو طاء او تاء . والحادي عشر لاحرف له باليونانية وقد عرف بعد ذلك انه علامة تالحق آخر الاسماء المؤنثة . وفي اسم بطليموس حرفان هما الخامس والثامن لم يردا في اسم كليوبيطرا . فالاول هو الميم والثاني هو السين . وعلى هذه الصورة تمكن شمبيايون من معرفة كثير من حروف الهيروغليفية وقراءة كثير من الكتابات المصرية القديمة في تسع سنوات كلها بحث وجد . واعلم ان الكتابة الهيروغليفية ليست واحدة فان من صورها ما هو حروف ومنه ما هو مقاطع او كلمات . ومبلغ عددها كلها

هذا من قبيل حل الالفاظ اما المعاني فعرفت بالمقابلة باللغة القبطية نحو الالف وبعض ما كان يكتبه المصريون القدماء من الرموز التي تدل على اشباهها كدلالة صورة الرجل على الرجل وما شاكل ذلك

ومن المؤلفات الحديثة التي استعنت بها في فندائكة تاريخ مصر القديم كتاب العقد الثمين لاحمد بك كمال ومصر لمري وعادات المصريين لويلكنس وغيرها

جغرافية مصر القديمة

وهي جغرافيتها في أيام الدول المصرية القديمة

تدعى مصر في اللغة المصرية القديمة وفي اللغة القبطية « خم » او « ارض خم » ومعناها الارض السوداء نسبة الى لون تربتها وهذا ما يذكرنا بحمام ونسله . وكان يدعوها الشعب العبراني « مصر ايم » ومعناها « المصران » ومنها اسمها في العربية اليوم . اما معنى تسمية العبرانيين لمصر فنظنه مشتقاً من قولهم « صر » في العبرانية ومعناها الشدة والضيق « ومِصْر » اسم مكان من صر اي مكان الشدة . واعلمها اشارة الى ما قاساه الشعب العبراني من الشدة والاضطهاد في هذه البلاد الى عهد موسى . اما كونها على صيغة المثنى فربما نتج عن تسميتهم اولاً احد قسمي مصر البحري والقبلي بهذا الاسم ثم جعلوه على صيغة المثنى للدلالة على القسمين معاً والله اعلم . اما اليونانيون فكانوا يسمونها « ايبيتوس » ومنها اسمها في لغات اوروبا الحديثة « ايبيت »

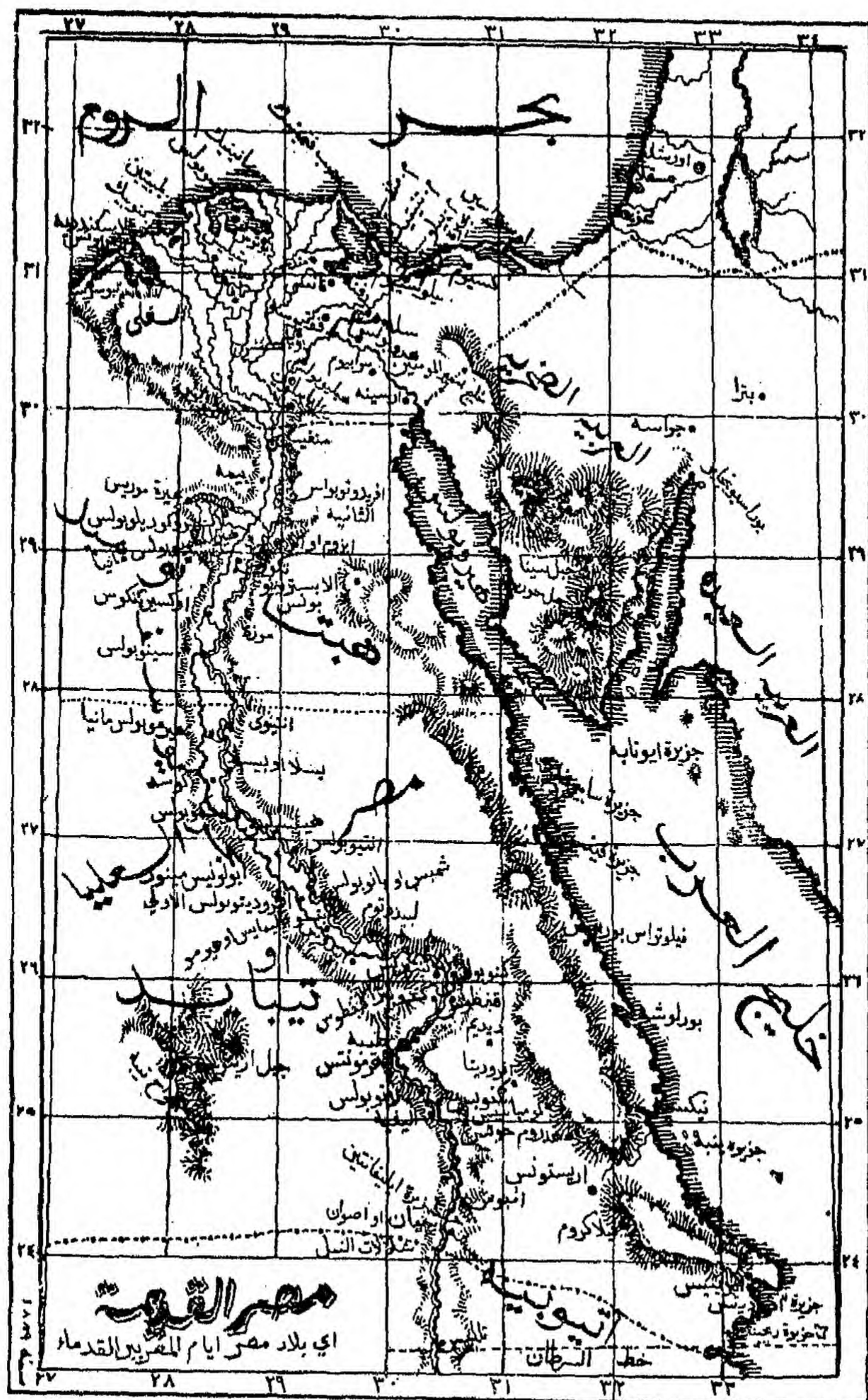
ويستفاد من مصادر تاريخ مصر القديم ان القطر المصري كان يقسم الى قسمين عظيمين الواحد يدعى ارض الشمال او الوجه البحري والآخر ارض الجنوب او الوجه القبلي . وكان الوجه البحري ممتداً من منف (البدرشين وميت رهينة) الى البحر المتوسط ويدعوه اليونان « الذلتا » لمشايعته بحرف الذال لديهم . اما الوجه القبلي فيمتد جنوباً من منف الى جزيرة الفنتين مقابل اصوان وهذا ما ندعوه اليوم بارض الصعيد . وكان من القاب ملوك مصر القدماء قولهم « سلطان البرين » اشارة الى تسلطه على الوجهين البحري والقبلي

وكل من هذين القسمين يقسم عندهم الى اقسام دطاها اليونان « نومس » اي مقاطعات ومجموعها في الوجهين معاً يختلف عدداً باختلاف الرواة . فقد ورد في القوائم المصرية القديمة انها ٤٤ وقال استرابو وديودورس انها ٣٦ والمعول عليه انها ٤٢ منها ٢٠ في الوجه البحري و٢٢ في القبلي ولكل منها عاصمة مختصة بها فيها مقر الحاكم ومركز العبادة . وهالك جدولاً يتضمن اسماء المقاطعات باليونانية واسماء عواصمها بالمصرية واليونانية والعربية

مقاطعات الوجه القبلي

عواصم

بالعربية	باليونانية	بالمصرية القديمة	اسماء المقاطعات باليونانية
كوم امبو	امبوس	ابو	١ اوبيتس
ادفو	ابولينوبولس مانيا	تب	٢ ابولينوبوليتس
اسنا « الكب »	لاتوبولس (ايليثيا)	نخب	٣ لاتوبوليتس
ارمنت	هرمونثس	هرمونت	٤ هرمونثيتس
القرنة			٥ باثرييتس
الكرنك والاقصر	ديوسبولس مانيا	نوامن	٦ ديوسبوليتس
قفط	كوبتوس	كوبتي	٧ كوبتيتس
دندره	تنثيرا	تنثيرير	٨ تنثيريتس
هو	ديوسبولس بارفا	ها	٩ ديوسبوليتس
البربة . العرابة	ئيس . ابيدوس	ابدو	١٠ ثينيتس
المدفونة			
اخميم	بانوبولس	ابو	١١ بانوبوليتس
العطف	افروديتوبولس	تبو	١٢ افروديتوبوليتس
قاو الكبير	انتيوبولس	نيانتباك	١٣ انتوبوليتس
شذب	هيسيليس	شاسحوتب	١٤ هيسيليتس
اسيوط	ميكوبولس	سوت	١٥ ليكوبوليتس
الشيخ عباده	التيونوبولس		١٦ اتينوييتس
اشمونين	هرموبولس مايا	خنونو	١٧ هرموبوليتس
القيس	سينوبولس	كوسا	١٨ سينوبوليتس
بهنسا	او كسير نخيس	بماسا	١٩ او كسير ينخيتس
اهناس المدينة	هير اكلوبولس	خيننسو	٢٠ هيرا كليوبوليتس
مدينة الفيوم	كروكودينوبولس		٢١ ارسينوييتس
عطفية	افروديتوبولس	نيباه	٢٢ افروديتوبوليتس



خريطة مصر في ايام الفراعنة

مقاطعات الوجه البحري

عواصم

بالعربية	باليونانية	بالمصري القديم	اسماء المقاطعات باليونانية
ميت رهينة	ممفيس	منوفر	١ ممفيتس
	ليتوبولس	سوخم	٣ ليتوبوليتس
	ايبس	نيا اتهابي	٣ ليبيا
	كانوبوس	زوكا	٤ سايتس
صا الحجر	سايس	صا	٥ سايتشس
سخا	خويس	خسون	٦ خوييتس
فوم	متايس	سوتينوفر	٧ متايتس
	سيتروي	ثوكوت	٨ سينروييتس
بو صير	بوسيرس	بيوسير	٩ بوسيريتس
{ تل اريب . بها	اتريس	حاتا حيراب	١٠ اثريبيتس
العسل			
كوم شباس	كاباسا	كاهيس	١١ كاباسيتس
سمهود	سبنيتوس	ثنوتر	١٣ سبنيتس
المطرية	اون . هيلوبولس	انو	١٣ هيلوبوليتس
صان	تانس	زوان	١٤ تانبتس
دمهور	هرموبولس بارفا	بثوت	١٥ هرموبوليتس
اشمون	مندس	بيينباد	١٦ منديسيوس
	ديوسبولس	بيخون ان امن	١٧ ديوسوايتس
{ تل بسطة	بوباستس	بياست	١٨ بوباستيتس
{ (زقازيق)			١٩ ثينستس
	بوتو	بيوتو	
هربت	فاريثوس	كوسم	٢٠ فورثيتس

ويظهر ان هذين القسمين الكبيرين جعلوا بعد ذلك ثلاثة عرفت بمصر العليا والوسطى والسفلى . فمصر العليا تدعى ايضاً باليونانية « ثيبايد » نسبة الى ثيبس (طيبة) وتمتد من آخر الحدود القبليّة الى ديروط . والوسطى يدعواها اليونان « هبتانومس » اي ذات السبع المقاطعات وتمتد من ديروط الى رأس الذلثا . والسفلى تمتد من رأس الذلثا الى البحر المتوسط . وقسمت مصر السفلى في آخر عهد اليونان الى اربعة اقاليم كبيرة تحت كلٍ منها عدة مقاطعات

ودعيت مصر السفلى في ايام اركاديوس ابن ثيودوسيوس الاعظم « اركاديا » نسبة اليه . وقسمت مصر العليا ايضاً الى قسمين او اقليمين دعيا ثيبايد العليا وثيبايد السفلى تفصل بينهما اخميم او ما يجاورها . وتكثر عدد المقاطعات في آخر ايام اليونان حتى بلغ ٥٧ مقاطعه منها ٣٤ في الذلثا فقط

ثم ان بين ملوك مصر القدماء من وسع نطاق المملكة الى ما وراء اصوان وعلى الخصوص العائلة الخامسة والعشرون لان ملوكها كانوا اثيوبيين فامتد حكمهم الى جبل برقل . اما في حكم اليونان فبلغت حدود المملكة المصرية الى موغراكا وراء وادي حلفا

ديانة المصريين القدماء

زعم بعض قدماء المؤرخين ان المصريين القدماء كانوا من عبدة الاوثان مستبدلين على ذلك بما شاهدوه من التماثيل العظيمة التي اقيمت للعبادة . ولكن ظهر بعد استطلاع اسرار لغتهم وقراءة ما كتبوه على هياكلهم وفي كتب موتاهم انهم ليسوا من الوثنية على شيء وان هذه التماثيل انما اقاموها في بادئ الرأي تمثيلاً لبعض صفات اله حقيقي غير منظور ولكن الزمان ارخى على تلك الحقيقة حجاب التقاليد والخرافات فأصبح القوم لا يعرفون من معبوداتهم الا تلك الحجارة الصماء التي هي من صنع ايديهم . على ان الحقيقة لم تكن محجوبة عن حكمائهم وكهنتهم

اما آلهتهم فعديدة واسماؤها مختلفة وصورها متنوعة مرجعها جميعاً الى الهين اصل هذه التنوعات وهما « فتاح » في منف ويقصدون به الخالق العظيم و « رع » في طيبة (الاقصر) وهو الشمس . وهذا الالهان هما اقدم آلهة المصريين ويرجعان الى اولها

لأنهم يعتبرون الشمس تمثالاً للاله الحقيقي الذي هو الخالق . ثم انتشرت هذه الديانة واتقنت صناعة البناء والرسم فاقاموا في كل مدينة تمثالاً لاحد هذين الالهين او لكليهما وكانوا يسمونها باسماء مختلفة . فتمددت الاشياء ثم لسي المقصود الاصلي وبقيت الظواهر ومن جملة دواعي تعدد الالهة انهم كانوا يجعلون للشمس مثلاً اسماء تختلف باختلاف مواقعها من خط مسيرها فدعوها « هر مخيس » عند شروقها واقاموا لها ابا الهول تمثالاً . و « رع » عند ما تكون في خط الهاجرة . و « توم » عند الغروب و « اوزيريس » عند الظلام اي عند ما تكون في العالم السفلي وجعلوا لكل من هذه الحالات تمثالاً مخصوصاً . وقس على ذلك ما بقي من الالهة الكثيرة التي اقاموا منها محاكم سماوية وجعلوا من بينها قضاة وكتبة وجنوداً

وفي اثناء ذلك استنبطوا المثلثات الالهية فكانوا يضمون ثلاثة آلهة الى اله واحد . منها مثلث مؤلف من الآلهة اوزيريس وايزيس وهوروس وهو المعروف بثلاث منف والمثمل في صورها يرى ان الاول اشبه برجل والثاني بامرأة والثالث بصبي وبين آلهة المصريين تفاوت في الدرجات فعندهم ثمانية آلهة من الدرجة الاولى في منف وهي فتاح وشو وتفنووست ونوت واوزيريس وايزيس وهوروس . ولهم عن هذه الآلهة وغيرها اخبار وخرافات مطولة لا حاجة الى ذكرها هنا وانما نذكر فيها



يلي اسماء اهم الالهة المصرية مع ذكر بميزات كل منها بقدر الامكان بحيث يمكن لمن يشاهدها في الآثار المصرية ان يميز احدها من الاخر وتسهيلاً لفهم تلك المميزات نقسمها الى قسمين بحسب نوع رؤوسها

اولاً . ذوات الرؤوس البشرية . ثانياً . ذوات الرؤوس الحيوانية . والرؤوس البشرية اما ان تكون رؤوس ذكور او اناث . والرؤوس الحيوانية اما ان تكون رؤوس طيور او حيوانات اخرى

فالآلهة ذات الرؤوس البشرية للذكور سبعة وهي

١ « فتاح » يمتاز بكونه على شكل جثة محنطة (موميّة)

وفي يديه صولجان وايس على رأسه شيء يمتاز به

٢ « أمن » او « رع » على هيئة رجل منتصب وعلى

رأسه قبة مبلطحة تنتهي برشتين غليظتين مستطيلتين بيده

ش ٣ — أمن رع

الواحدة مفتاح وبالاخرى عصا كما ترى في الشكل الثالث وقد يكون على شكل جثة
محنطة جالساً على كرسي وعلى راسه القبعة المتقدم ذكرها وفي يده نمشة وعقافة
وصولجان . ويدعى في هذه الحالة « امن اوزيريس » (ش ٥)



ش ٤ - ايزيس

٣ « هوروس » صبي على رأسه تاج مزدوج يراد به
تاجا الوجهين القبلي والبحري . يده اليسرى في فيه وفي
يده اليمنى مفتاح صليبي الشكل وقد يكون هوروس برأس
طير كما سيأتي

٤ « خم » جثة محنطة ويده اليمنى مرفوعة وحاملة
زاوية كبيرة

٥ « اوزيريس » جثة محنطة على رأسه تاج مصر
العليا بريشتي لعام واحياناً بغير ريش . وفي يده النمشة
والعقافة واحياناً الصولجان ايضاً . وقد يكون على راسه هلال
فية قرص الشمس كما ترى في الشكل الخامس

٦ « سب » يمتاز ببطة واقفة على رأسه

٧ « توم » على رأسه شعر طويل مكلل بزهرة حبقوق او بريشة . وقد
يكون على راسه تاجا مصر العليا والسفلى

اما الآلهة ذوات الرؤوس البشرية الانثوية فهي



ش ٥ - اوزيريس

١ « ايزيس » على راسها طاوية تشبه النسر فوقها تاجا مصر
العليا والسفلى بيدها الواحدة مفتاح وبالاخرى صولجان كما ترى في
الشكل الرابع وقد يكون على راسها قرنان بينهما قرص الشمس
وفوق القرص ما يشبه تاجي مصر

٢ « ما » آلهة الصدق على راسها ريشة واحدة منتصبة وعلى
عينها غالباً غطاء يشبه العوينات

٣ « موت » (ام الجميع) على راسها طاوية بشكل النسر
وفوقها تاجا مصر العليا والسفلى وقد يكون لها راس نسري

٤ « نيت » على راسها احياناً مكوك واحياناً تاجا مصر العليا والسفلى

٥ « نفثيس » على راسها الطاوية النسرية وفوقها ما يشبه البرج

والآلهة برؤوس الطيور هي

- ١ « هوروس » قد تقدم ذكره بين ذوي الرؤوس البشرية وقد يكون ذا رأس حيواني كراس الصقر وفوقه التاجان
- ٢ « خولس » (الشمس المشرقة) رأسه كراس الصقر وفوقه هلال فيه قرص الشمس
- ٣ « رع » (شمس الهاجرة) رأسه كراس الصقر ايضاً عليه قرص الشمس فوقه ثعبان
- ٤ « توت » (اله القلم) رأسه كراس اللقلق عليه احياناً هلال في وسطه ريشة

وهذه آلهة برؤوس حيوانات اخرى

- ١ « بشت » (حبيبة فتاح) يمتاز برأس الهر وحياناً برأس الاسد عليه قرص الشمس فوقه ثعبان
 - ٢ « عثور » يمتاز برأس كراس البقرة بين قرنيها دائرة البدر
 - ٣ « كنوم » او « كنف » يمتاز برأس كبش عليه اكاليل وتيجان
 - ٤ « انويس » يمتاز برأس كراس ابن آوى
- وللمصريين القدماء آلهة كثيرة غير هذه قد امسكنا عن ذكرها حباً بالاختصار



فذلكة

في تاريخ مصر القديم



لما فكر قدماء المصريين في وضع تاريخ لامتهم تتبعوا الحوادث الى مصادرها وجمعوا ما كان لديهم من التقاليد الموروثة بالتلقين ابا عن جد واستطلعوا سير ملوكهم الاقدمين فوصلوا الى الملك «منا» فاذا هو اول من حكم ونظم . ولما لم يعثروا على ما كانت عليه مصر قبله فرضوا ثلاث عائلات وهمية زعموا انها تسلمت على مصر بالتوالي وانتهت ببداية الدولة الملكية القديمة التي اول ملوكها «منا» ودعوا العائلة الاولى عائلة المعبودات ويقال لها العائلة المقدسة . والثانية دعوها الشبيهة بالقدسة والثالثة الكهنة «الحورشسو» ويزعمون انهم اجدادهم

ونقتصر في ما يلي على خلاصة تاريخ مصر القديم ونبدأ بالملك منس . ونجري في بويبه على مقتضى التقسيم المتقدم ذكره فنبدأ بالدور الجاهلي فالمسيحي ونقسم كلا منهما الى عائلات كما ستراه



الدور الجاهلي

الدولة الملكية القديمة

العائلة الاولى الطينية

حكمت من سنة ٥٦٢٦ — ٥٣٧٣ ق م او من ٥٠٠٤ — ٤٧٥١ ق م وعدد ملوكها ٩.

اول ملوكها الملك «مينسا» او «مينس» — وهو اول من حكم مصر بعد الكهنة «الحورشسو» نشأ في طينة (بقرب العرابة المدفونة بجوار جرجا) والظاهر انه كان من الكهنة فنار في خاطره امر الاستقلال بالملك فقاومه الكهنة فتغلب عليهم فترك وطنه واسس مدينة «منف» (البدرشين وميت رهينة) وجعلها سرير ملكه وانشأ حولها جسراً يعرف الآن بجسر قشيشة وحوّل مجرى النيل الى شرقيها وكان يجري لجهة صحراء ليبيا . فعمرت منف واخصبت فشاد فيها الهياكل والمعابد واقام تماثيل الالهة . فاذا زرت خرائب سقارة وشاهدت تمثال رعمسيس الثاني ملقًى في البركة الشرقية لميت رهينة اعلم ان بقرب ذلك التمثال كان باب الهيكل الذي بنىء هذا الملك لمعبوده «فتاح» وما زالت منف مركز التمدن الى عصر اليونان . وما يذكر عنه انه فتح ليبيا فاتسعت مملكة مصر في ايامه وكان رفيقاً برعاياه على ما اعتادوه ولم يسلب الكهنة شيئاً من حقوقهم في قبائلهم . على انه لم ينسج من ايقاعهم به فزعموا انه اضرّ بالعبادة من حيث تقاعد الناس في ايامه عن الزهد واحداثوا انواع الترف فكانوا يتناولون طعامهم وهم مضطجعون على اسرّتهم

وقام بعد «منا» اخوه «تتا» فأسس القصر الملوكي في منف وكان عالماً بالطب ولا سيما التشريح فكتب فيه رسالة جددت كتابتها في عهد رعمسيس الثاني

ومن ملوك هذه العائلة «ونيفس» حصلت في ايامه مجاعة وهو الذي بنى هرم «كوكه» بقرب الهرم المدرج في سقارة لدفن ما كانوا يعبدونه من الثيران في عصره فان صح ذلك كان هذا الهرم اول ما بنى من الاهرام في مصر ولم يبق من العائلة الاولى من يستحق الذكر

العائلة الثانية الطينية

حكمت من ٥٣٧٣ - ٥٠٧١ ق هـ او من ٤٧٥١ - ٤٤٤٩ ق م وعدد ملوكها ٩

نشأت في طينة ايضاً والمظنون ان بينها وبين العائلة الاولى قرابة من ملوكها « كايه خوس » اجاز عبادة الحيوانات فاقام الثور « أبيس » في منف والثور « منيفس » في مدينة الشمس (المطرية) . وقام بعده « ينوتريس » فجعل للنساء حق الحكم على سرير الملك اذا لم يكن للملك المتوفى اولاد ذكور . وزعم ان الملك نائب الالهة في الاحكام ولدعى ان بينه وبين الالهة نسباً وما زال الملوك بعد ذلك يدعون مثل دعواه الى عهد اليونان

ومن ملوكها « استنس » كان عالماً وطيبياً فاتم الرسالة الطبية المتقدم ذكرها . واعلم ان الملك « منا » لم يقوَ في حياته على اخضاع جميع القبائل المصرية لحكمه ولا ان يجعل مصر امة واحدة . اما العائلة الثانية فلم تنته حتى جعلت ذلك امراً مفعولاً

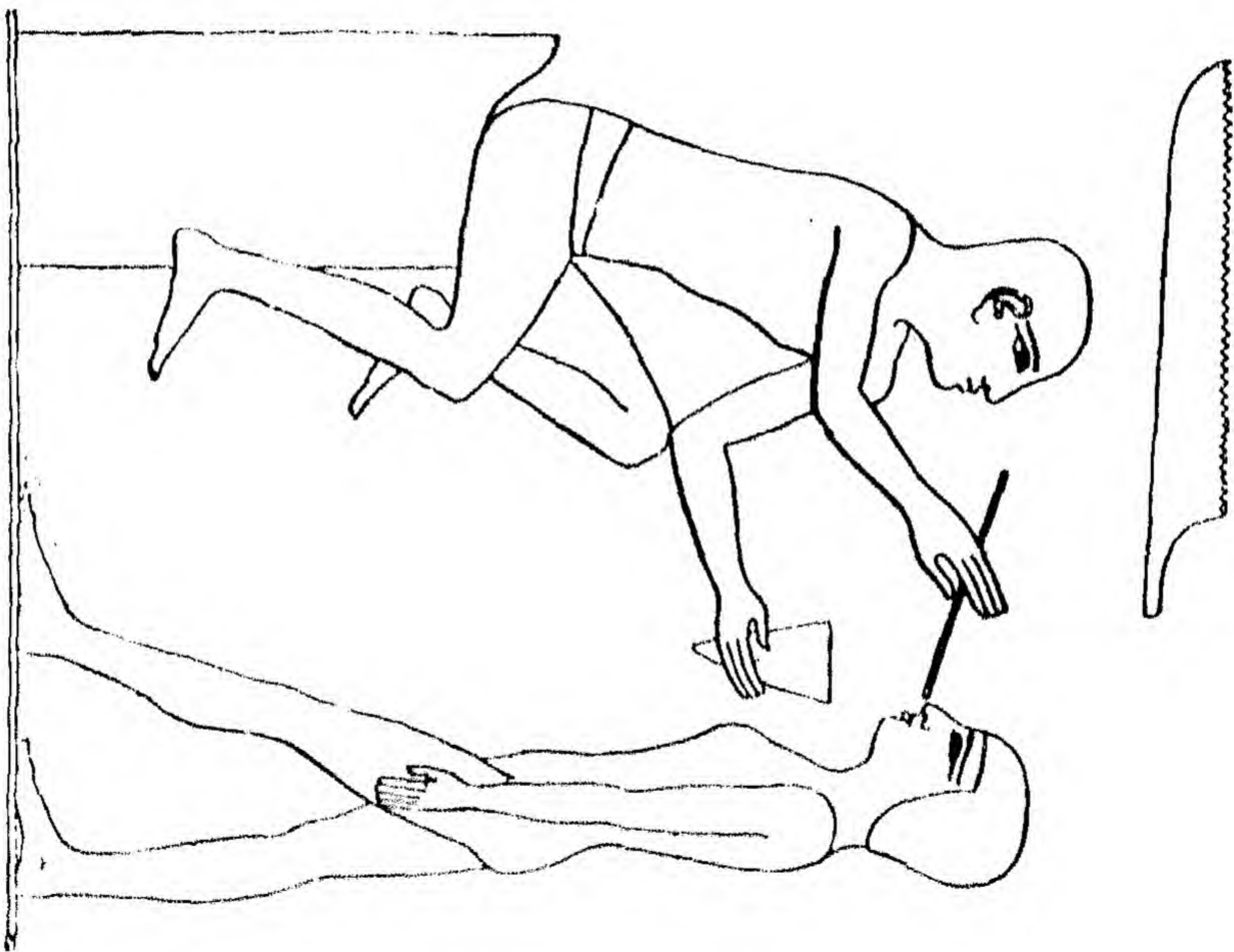
العائلة الثالثة المنفية

حكمت من ٥٠٧١ - ٤٨٥٧ ق هـ او ٤٤٤٩ - ٤٢٣٥ ق م وعدد ملوكها ٩

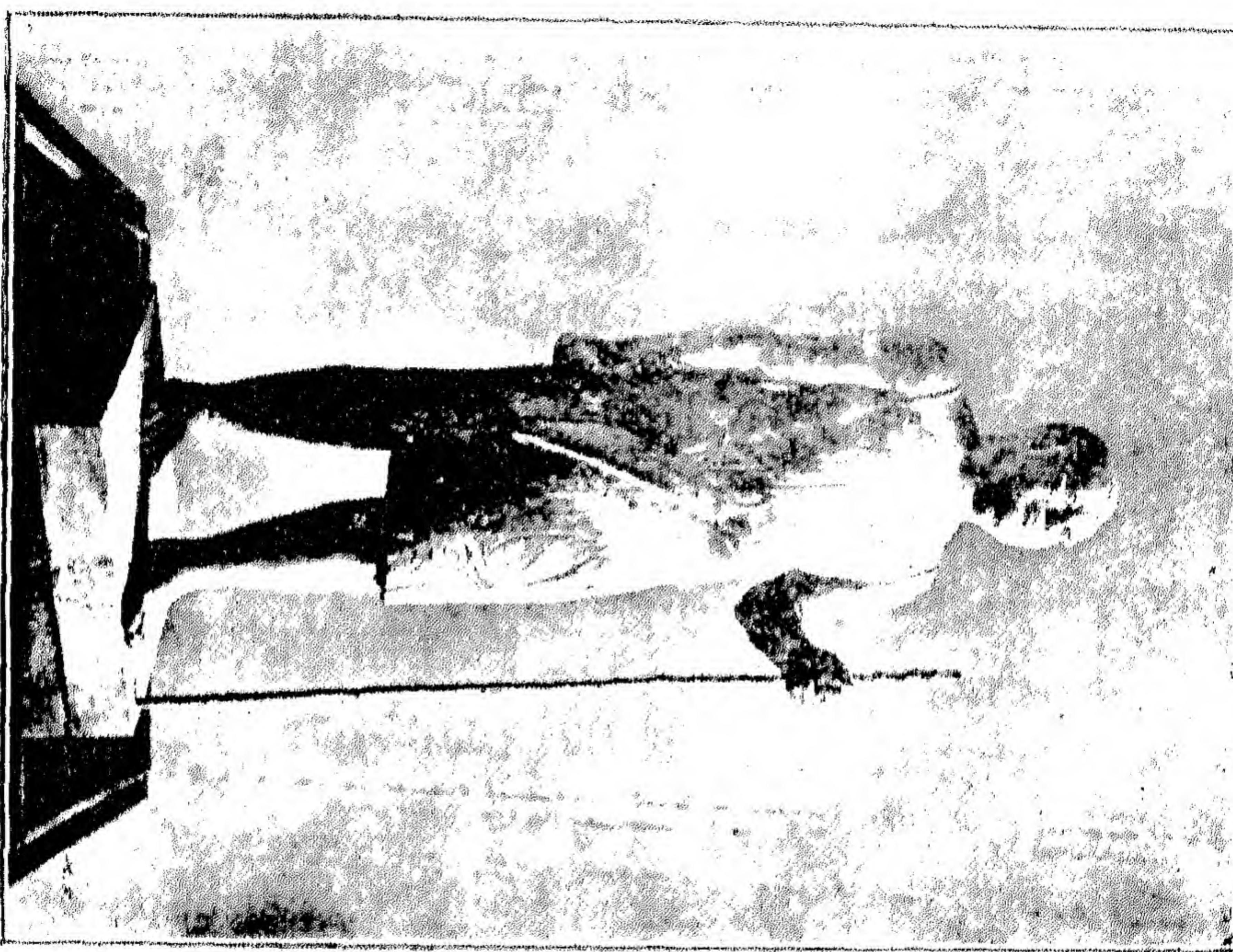
كانت طينة قبل ظهور الملك « منا » مدينة العلم والحكمة ومحط رحال المنعة والسلطة . فلما بنيت منف تحول كل ذلك تدريجاً اليها وما زالت تخط شيئاً فشيئاً حتى انقرضت بانقراض العائلة الملكية الثانية

اما العائلة الثالثة فاوّل ملوكها « نخروفتس » وفي اول حكمه تمردت ايبيا وشقت عصا الطاعة فسامها الرضوخ فابت فادى به الامر الى تحكيم السيف وكانت المعركة في ليلة مقمرة يقال ان الليبيين راوا تلك الليلة دائرة القمر تتسع على غير المعتاد فخيّل لهم ان ذلك من غضب الآلهة على اعمالهم فالتقوا السلاح وساموا . وقام بعده الملك « توسرتس » وكان عالماً بالطب فوضع فيه كتباً تداوها الناس الى القرن الاول للتاريخ المسيحي

اما من بقي من ملوك هذه العائلة فلم يصلنا من اخبارهم سوى ان المملكة زهت في ايامهم فتكاثرت مبانيها واقامت فيها النصب الهائلة اعظمها ابو الهول التمثال المشهور بعظمه القائم الى هذا العهد قرب اهرام الجيزة ويسمى بلغتهم « خورميخي » اي شمس الافقين جعلوا جسمه جسم اسد ورأسه رأس انسان اشارة الى اجتماع القوة والتعقل



مصور مصري يلون تماثلاً حجبياً



منبع البدر

واشبهاء هذا التمثال كثيرة في الآثار المصرية بين ما حجبته هائل الكبرياي الهول الذي يبلغ طوله ٢٠ متراً تقريباً وعرضه اربعة امتار وما لا يزيد عن حب المرجان حجماً كانوا يصنعونه من العقيق حلية للعقود . ومن آثارهم ايضاً الهيكل الكائن الى جنوبي اهرام الجيزة بجوار ابي الهول ويعرف بالكنيسة وهو مبني من الحجارة الصوانية الضخمة ولهم ايضاً آثار اخرى كمدافن ومحاريب وغيرها

ومن ملوك هذه العائلة ايضاً « سنغرو » صمدت الى ذكره لما عرف به من العدل والبر وما اوتي من العزم والقدرة على الفتوح فقهر اهل جبل الدور واستولى على ارضهم وبني فيها حصوناً ومعاقل واحتفر آباراً جعل فيها رجلاً يستخرجون معادنهم ونقش رسمه على حجر في وادي مغارة . ويقال انه لما عاد الى مصر ابني لنفسه هرماً لم يعلم مقره الى الآن

العائلة الرابعة المنفية

حكمت من ٤٨٥٧ — ٤٥٧٣ ق م او من ٤٢٣٥ — ٣٩٥١ ق م وعدد ملوكها ١٤ اعظم ملوك هذه العائلة واحقها بالذكر الملك « خوفو » كان بناءً ماهراً ومحارباً باسلاً فبني اعظم اهرام الجيزة الذي تفتخر به مصر على سائر الامصار . ويقال ان الذين اشتغلوا في بنائه مائة الف رجل في ثلاثين سنة كانوا يتناوبون كل ثلاثة اشهر . وبني له جسراً موصلاً بينه وبين ضفة النيل لنقل الحجارة . وارتفاع هذا الهرم ٤٥٠ قدماً وبعض القدم وعرضه ٢٤٦ قدماً وهو من جملة عجائب الدنيا يقصده السياح والمتفرجون الى هذا العهد

ونحت « خوفو » عدة تماثيل للآلهة ورسم بعض الهياكل وقال بعضهم انه كان طامعاً يسخس الناس حقهم ويهتضم اجورهم لانه ابني هرمه على نفقة الفعلة المساكين على انه لم يكن على شيء من ذلك وربما ابني المعنفون قولهم على انه كان يستخدم الاسرى مجاناً وتلك عادة كانت متبعة في ذلك العهد

ومن ملوك هذه العائلة « خفرع » وهو الذي بني الهرم الثاني في الجيزة بجانب هرم « خوفو » وسماه « أر » اي العظيم ارتفاعه ٤٤٢ قدماً وعرض قاعدته ٦٩٠ قدماً وبعض القدم . ولم ينج هذا من السنة القاذفين فقد كان وسلفه « خوفو » مضطرباً في افواه المرجفين وقد بلغت قحتهم الى ان اخرجوا جثتيهما من هرميهما وكسروا تابوتيها ورموا بالجثتين الارض اهالة واحتقاراً . وقد وجد في المعبد بجوار الاهرام

سبعة تماثيل من الحجر الصوان مصنوعة على مثال ذلك الملك بغاية الدقة وهي الآن في المتحف المصري

ومن ملوكها « منكورع » بنى الهرم الثالث من اهرام الجيزة وسماه « حور » اي الاعلى جعل ارتفاعه ٢٠٣ اقدام وعرض قاعدته ٣٥٢ قدماً وبعض القدم . وقد كان حفظ هذا الملك من الشعب غير حظ سالفه لانهم بالغوا في مدحه كثيراً . ويقال انه ارسل ابنه ليطوف في الهياكل المصرية ويرمم ما كان منها في احتياج الى الترميم وكان « منكورع » عالماً عاملاً في الدين والادب وقد وجدت جثته محنطة في تابوت من الصوان في هرمه المتقدم ذكره فحاولت الدولة الانكليزية نقلها وتابوتها الى متحفها فغرقت بها السفينة على مقربة من البورتغال ولم يبق الا الجثة وغطاء التابوت وهو مصنوع من خشب الجميز

ومن ملوكها ايضاً « سبسكاف » ويسميه مانيثون « سبرخرس » وهذا بنى الايوان الغربي بمعبد فتاح بمنف وهو اعظم ايوان فيه وكان محباً للعلوم فقيهاً . ويقال انه ابتدع فن الهندسة ورصد الكواكب وسن قانوناً للقرض من مقتضاه انه يجوز للانسان ان يرهن مدفن ابيه على مبلغ يستدينه وللدائن الحق في استخدام المدفن حتى يفنيه

الخير

العائلة الخامسة الاصوانية

حكمت من ٤٥٧٣ — ٤٣٢٥ ق م او من ٣٩٥١ — ٣٧٠٣ ق م وعدد ملوكها ٩

منهم « سحورع » او « سفرس » بنى هرمًا شمالي قرية ابي صير وله في وادي سفارة لوح لا يزال هناك محفورة عليه صورته منصوراً على اعدائه . وبعد وفاته عبده المصريون زمناً طويلاً

ومن ملوكها « نفراركارع » او « نفرخرس » اتسع نطاق العلم في ايامه وعمرت البلاد وقد بنى هرمًا لا يعرف مقره

ومن ملوكها « اغنوسر » وهو اول من اضاف الى اسمه لقب عائلته « آن » فصار « اغنوسر آن » غزا جزيرة جبل الطور وانتصر عليها ونقش صورته على حجر هناك وبنى هرمًا في ابي صير ودفن فيه بعد موته . وكان في عصر هذا الملك رجل يدعى « تي » بنى مقبرة بديعة الاتقان وهي المقبرة المشهورة في سقارة على يسار المدفن المعروف ببرية « ايس » يقصد المتفرجون من كل الانحاء لما فيها من الدقة وبديع الصنعة وجميل

النقوش وتعداد الرسوم . وكان هذا الرجل صهر الملك وصاحب دولته وله رسم محفوظ في المتحف المصري

ومن ملوكها « ددكارع » اكتشف المعادن في وادي مغارة وابتنى هرمًا لم يعلم مكانه ولرجال دولته عدة مقابر في سقارة

ومن ملوكها « اوناس » او « انوس » بنى هرمًا في سقارة الى الجنوب الغربي من الهرم المدرج ترى حوله كثيباً من الرمال والحصى قد تراكت هناك عند ما حاولوا فتحه سنة ١٨٨١ مما تساقط من كسائه الخارجي . وكان عرض قاعدته ٢٢٠ قدماً ولا يبلغ هذا القدر الآن لما لحقه من الهدم والتساقط وذلك لانهم كانوا يعتقدون ان في هذه الاهرام كنوزاً فيحاولون فتحها هدمًا . ولما هدموا هذا الهرم بعد المشقة لم يجدوا فيه الا تابوت الملك من المرمر الاسود وذراعه الايمن وساقه وقطعاً من اكفانه

العائلة السادسة الاصوانية

حكمت من ٤٣٢٥ — ٤١٢٢ ق م او من ٣٧٠٣ — ٣٥٠٠ ق م وعدد ملوكها ٦

من ملوك هذه العائلة « مريرع » اتخذ جزيرة اصوان سريراً املكته التي كانت شاملة لسائر القطر المصري . ومن ذلك الحين جعلت منف تخطيط . وكان له وزير اشهر بالدراية والحكمة فعهد اليه بنظارة الاشغال فقام باعبائها حتى القيام فتضاعفت المحصولات ولهذا الوزير حجير في متحف بولاق منقوش عليه ما يفهم منه شيء من سيرته . ومن اعمال « مريرع » انه فتح طريقاً تجارية بين قفط والبحر الاحمر وخط مدينة في مصر الوسطى واصاح معبد دندره وفتح بلاد الشام واستولى عليها كل ذلك مدون نقشاً على حجير وزيره المتقدم ذكره . وخضعت له النوبة وليبيا والحبشة وطورسينا وهو اشهر ملوك هذه العائلة

ومن ملوكها « مرنرع » الاول ابن المتقدم ذكره ويسمى « سوكر مساف » وهو اول من اصطنع سفينة في مصر بهمة ودراية وزيره الذي كان وزيراً لابيه قبله ومن ملوكها ايضاً الملكة « نيتوقريس » كذا دطاها مانيتون وقال انها كانت اجمل واكمل اهل عصرها . وكانت مع ذلك ذات حيلة ومكر فكان لها اخ اتخذته بعلاً فقتله بعض رجال دولته قبل تولايتها الملك . فلما توات اخذت تسمى في طلب الثور فاصطنعت سرداباً تحت الارض يصل بين النيل ومحل اعدته لولية دعت اليها نفرًا من الاعيان ورجال الدولة ومن جعلتهم القاتل فلما التأم الجمع واشتغلوا بالولية فتحت باب السرداب

من جهة النيل فسار الماء فيه الى قاعة الولية فغرق جميع من كان هناك . أما هي فاسرعت من غيظها والقت نفسها في الرماد الحار فماتت
وفي ايام هذه العائلة أتقنت الرسوم على اسلوب خاص بحيث ان من تعود معاينة الآثار المصرية يقدر على تعيين اي رسم كان من رسوم هذه العائلة

العائلات السابعة والثامنة المنفيتان والتاسعة والعاشره الاهناسيتان

حكمت من ٤١٢٢ — ٣٦٨٦ ق هـ او من ٣٥٠٠ — ٣٠٦٤ ق م

لم يعلم ما الداعي لطموس اخبار هذه العائلات على انه قد علم ان قاعدة العائلتين الاوليين كانت منف والأخريين اهناس وربما وجد في اهناس المدينة شي من آثارهم الا انها على كل شيء لا تستحق الذكر

الدولة الملكية الوسطى

العائلتان الحادية عشرة والثانية عشرة الطيبيتان سريرهما طيبة

حكمتا من ٣٦٨٦ — ٣٤٧٣ ق هـ او من ٣٠٦٤ — ٢٨٥١ ق م وعدد ملوكها ٢٤

اول ملوك العائلة الحادية عشرة « انتف عا » لم يكن من ذوي العصبية الملكية انما كان من عمال ملوك اهناس المدينة في الوجه القبلي . على انه كان مهوباً لسطوته وعلوهمته . بنى هرمًا من الطين في الجهة المعروفة بذراع ابي النجا بمديرية قنا وجعل في وسطه ضريحاً متقناً دفنت فيه جثته في تابوت غطاؤه مغطي بالذهب استخرجه اهل تلك الناحية وذهبوا به . فلما توفي قام ابنه « منتوحتب » فجعل نفسه من مصاف الملوك وليس له من الآثار ما يذكر به

ومن هذه العائلة ايضاً « انتف الرابع » تمكن بحكمته وبطشه من الاستيلاء على الوجه القبلي رغماً عن ملوك اهناس واستقل بالحكم عليه وعلى آسيا الشمالية . وقد قال « اني استوليت على الوجه البحري » ولا مثبت لقوله . ومن مآثره انه جدد بنايات ربيعة العباد في جهة قفط استعمات انقاضها في هذه الايام لبناء قنطرة . ولما مات دفن في ذراع ابي النجا . وقد وجدوا من آثاره مسلة بالقرب من العرابة المدفونة

وتولى بعده « منتوحتب الرابع » ولقب « بنجررع » وهذا بالحقيقة نزع الوجه البحري من ملوك اهناس وما زال يقاومهم حتى استقل بالملك جميعه فكل من قبل هذا من هذه العائلة لم يكونوا ملوكاً مستقايين

وتولى بعده « سنخ كارع » ومن عظيم اعماله انه انفذ « حنو » احد رجاله فاقم الطريق الموصلة بين مصر وبلاد العرب التي شرع فيها مسيرع المتقدم ذكره جعل فيها خمس محطات فيها عيون من الماء فيتم بها التواصل مع بلاد العرب والهند وشبه جزيرة العرب وما زالت هذه الطريق كذلك الى عصر اليونان فالروم

ومن خصائص ملوك هذه العائلة انهم كانوا يرسمون فوق توابيت موتاهم اشكالاً مجذعة يلوونونها بالوان مختلفة زعماء منهم ان احدى معبوداتهم « ايزيس » كانت ترف على اخيها « اوزيريس » ناشرة جناحيها حنواً ومعظم آثار هذه العائلة في ذراع ابي النجلا لا يزال محجوباً

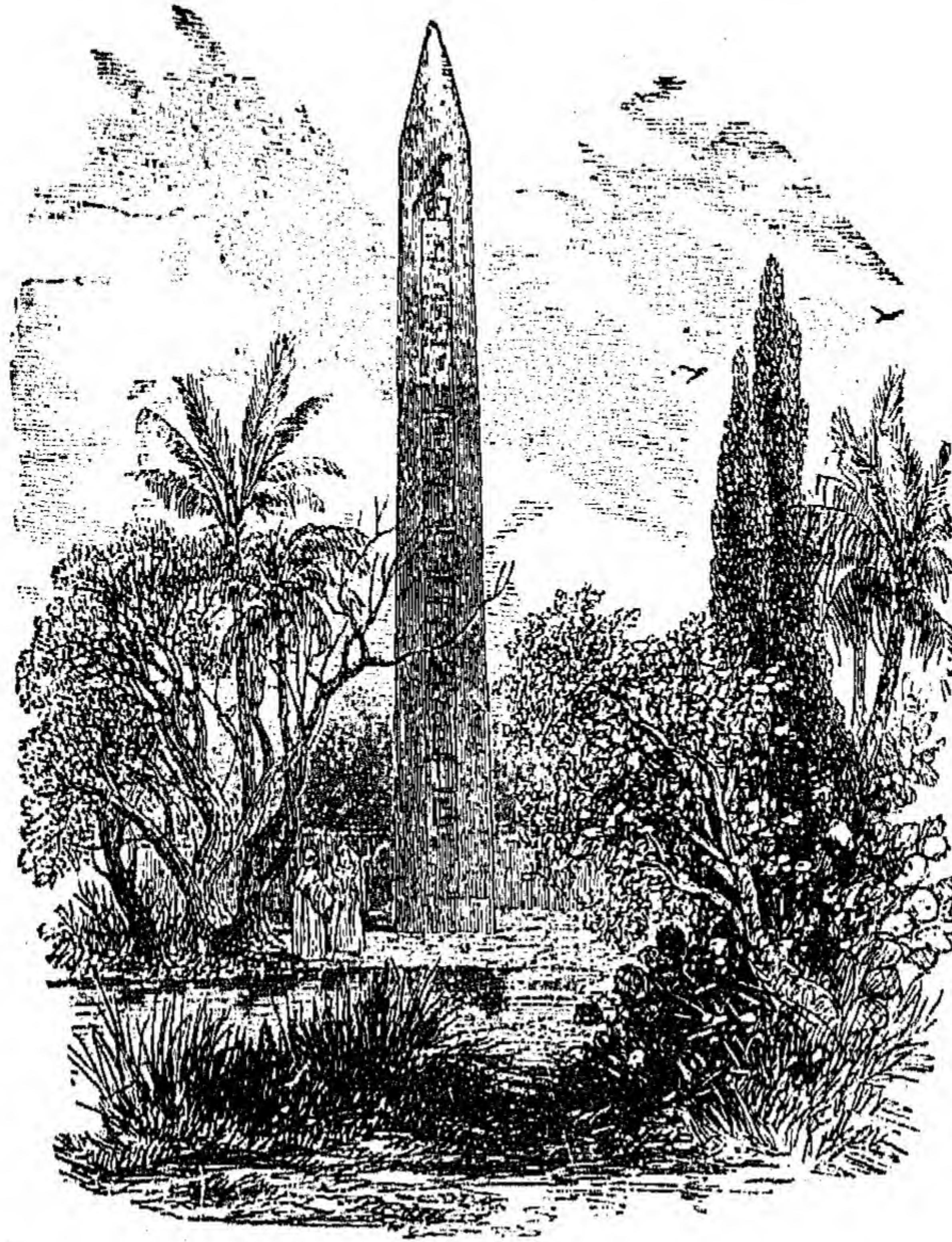
اما العائلة الثانية عشرة فابتدأت بدور جديد . فقد كانت مصر قبليها منقسمة غالباً الى حكومات متعددة في وقت واحد اما في ايامهم فاندست جميعها تحت لواء واحد قاعدته مدينة طيبة

اول ملوك هذه العائلة « امنمحات الاول » كان من اتباع الملك منتوحتب الثالث وبسميه ما نيثون « امنميس » فلما استتب له الملك قاتل الذين كانوا يكفرون صفو راحة مصر وهم عصب من اهالي ليبيا والنوبة وآسيا تجمعوا لقتاله حول قاعة تاتوي غربي منف فخار بهم حتى انتصر عليهم وطردهم واستولى على منف . وكان عاقلاً حكماً وشجاعاً مدرباً استخرج المعادن من بلاد النوبة واخضع عدة اقاليم من بلاد الزنوج وغيرها

وقبل وفاته ولى ابنه « اوسرتسن الاول » وبدعوه مانيثون « سيسونخوسيس » وهو صاحب المسلة المشهورة في المطرية التي طولها عشرون متراً وبعض المتر نسبها امام هيكل الشمس المدعو « اتوم » اجلالاً لذلك الهيكل ومعبوده وانصب بجانبها مسلة اخرى شاهدها عبد اللطيف البغدادي وقد فقت ولم يبق لها اثر الآن . اما الاولى فلا تزال باقية منقوشاً عليها بالقلم المصري القديم ما ترجمته ملخصاً « ان الملك المنصور حياة كل موجود سلطان الوجه القبلي والبحري (خبر كارع) صاحب التاجين وسلالة الشمس (اوسرتسن) المحب لمعبودات المطرية دام بقاء قد نصب هذا الاثر في مبدأ العيد الرسمي تحييداً لذكره واحياء لهذا العيد » انظر الشكل السادس

فاذا زرت قرية المطرية الان ووقفت بجانب مسلتها ترى حولك بقعة من الارض

فيها بعض الزرع طولها ٤٥٦٠ قدماً بعرض ٣٥٦٠ محاطة بتلال متلاصقة كأنها سور من تراب . يقول ماريت ان هذه البقعة ليست مساحة المدينة وإنما هي مساحة الحوش الكبير الذي كان امام هيكل الشمس وجاء على ذلك بادلة تقرب من الصواب ونصب اوسرتسن ايضاً مسلة اخرى فيما يحاذي قرية بجيج بجهة الفيوم وقد ظن بعض المؤرخين مستنتحاً من سباق حكاية كتبها احد معاصري هذا الملك انه الفرعون الذي حصلت في ايامه المجاعة على عهد يوسف بن يعقوب غير ان الجمهور على خلاف ذلك لعدم مطابقة الزمن بين ما هو في العهد القديم وهذا التاريخ . ويقال بالاجمال ان



ش ٦ — مسلة المطرية

هذا الملك يعد من اول المؤسسين لهيكل طيبة « الاقصر » وقبل وفاته امر مهندسه الخاص ان يبني له مقبرة فبناها وجعل في داخلها عدة غرف اقامها على اعمدة وجعل فيها حوضاً متصلاً بالنيل وصنع لها ابواباً ومسلات ووجهة من حجر طرا الابيض ومن ملوك هذه المائة « اوسرتسن الثاني » ويسميه مانيتون « سيزوستريس »

ترك آثاراً كثيرة قلما يستفاد منها شيء عن تاريخه وغاية ما علم منها ان مملكة مصر كانت في عصره محافظة على شوكتها متسعة النطاق

ومن ملوكها ايضاً « اوسرتسن الثالث » وكان رجلاً حازماً مقداماً واشتهر بهندة الصفات فارتفعت منزلته في قلوب الاهلين فعبدوه ومن اعماله انه جرد على السودان (اثيوبيا) وما وراءها لتوسيع نطاق مملكته . وشاد في وادي حلفا قلاعاً منها قلعتان تعرفان الان « بقمئة » و « سمنة » لمنع الاعداء من مصر لا تزال تشاهد في اطلالها الجدران الشائخة والبروج العالية والخنادق وكان في داخلها معابد وعدة مساكن دُمرت الان

وقد وجد الباحثون حجرين كانا منصوبين على حدود مصر الجنوبية . ذلك ما فهم مما هو مكتوب عليها . وبعد وفاة هذا الملك بخمسة عشر قرناً اي في عصر العائلة الثامنة عشرة شاد « تحوتمس الثالث » معبداً في سمنة وكتب عليه ابتهالات كان يتلوها المصريون في ذلك الحين . ولهذا الملك هرم في دهشور

ومن ملوك هذه العائلة « امنمحت الثالث » ولهذا الملك يد بيضاء في امر النيل وفيضانه في اقليم الفيوم . وذلك ان لنيل كما لا يخفى ارتفاعاً معاوماً اذا بلغه كان غيماً وحياة لارض مصر واذا زاد عنه كان ضربة ودماراً فتسقط الجسور وتغرق البيوت . واذا نقص لا تكون مياهه كافية للري فيخشى من المجاعة . فلما علم هذا الملك بذلك هم بتدارك الامر . فرأى في الصحراء الغربية من مصر بادية شاسعة الاطراف يمكن غرسها واستغلالها تعرف الان بوادي الفيوم يفصلها عن وادي النيل الاصلي برزخ قليل الارتفاع . وفي وسط تلك البادية بقعة من الارض تكاد لا تزيد ارتفاعاً عن اراضي وادي النيل تبلغ مساحتها عشرة ملايين من الامتار المربعة . وبجانبه الغربي ارض منخفضة ذات اتساع عظيم تغمرها مياه البحيرة الطبيعية المعروفة الان ببركة قارون « او القرون » طولها يزيد عن عشرة فراسخ فأمر بحفر ترعتين توصلان النيل بتلك البقعة احدهما كانت تبتدىء من النيل بجانبه الغربي وتجري بمحاذاة بحر يوسف الحالي . والاخرى كانت تجري شمالاً . وهاتان الترعتان تلتقيان وتصبان في تلك البقعة الفسيحة وجعل عند ملتقاهما قناطر بحواجز تسد وتفتح حسب الازوم . فكانت تلك البقعة بصفة حوض عظيم تجتمع فيه مياه النيل عند فيضانه عرفت ببركة موريس

فان كانت زيادة النيل اقل من احتياج الارض انصرف اليها من مياهها ما يسه

احتياجها . واذا كانت اكثر من الحاجة صُرف ما يزيد الى ذلك الحوض فان طفق
ماؤه انصرف الى بحيرة قارون بواسطة حواجز تسد وتفتح على قدر الحاجة . وكانت
الحكومة في كل سنة قبل ارتفاع النيل تنتدب من يسير الى النوبة لاستكشاف مقدار
زيادته في جهة سمنة وقنة وفي تلك الجهات الان كتابات هيروغليفية تشير الى شيء
من ذلك

وكان في وسط بركة موريس هرمان في كل منهما تمثال . واصل كلمة موريس
« مري » ومعناها في اللغة المصرية بحيرة وليس كما زعم اليونانيون من انها دعيت
بذلك نسبة الى اسم احد الفراعنة . واصل كلمة الفيوم « بايوم » ومؤداها باللغة
المصرية بلاد البحر

والى شرقي بحيرة موريس بناء هائل يعرف باسم « لابرانسا » واسمه بالمصرية
« لابورا حونت » اي معبد فم البحر بناء هذا الملك لاجتماع مجاس الاعيان من الكهنة
وفي هذا البناء رحبات الى كل من الجانبين فيها من الغرف نحو من ثلاثة آلاف غرفة
ويحيط بالبناء من الخارج سور عليه نقوش

اما بركة موريس فقد جفت ولم يعد لها اثر الان . اما موقعها فقد اختلف المهندسون
في حقيقته ومن راي المستر كوب وايت هوس انه واقع في واد وسيع الى جنوبي بركة
قارون بعرض ٤٠' ٤٨" و ٣٠' ٢٩" شمالا وهو المعروف الان بوادي الريان . وقد
اقترح وايت هوس على الحكومة المصرية ان تتخذ هذا الوادي مذكراً لماء النيل
كما كان قديماً

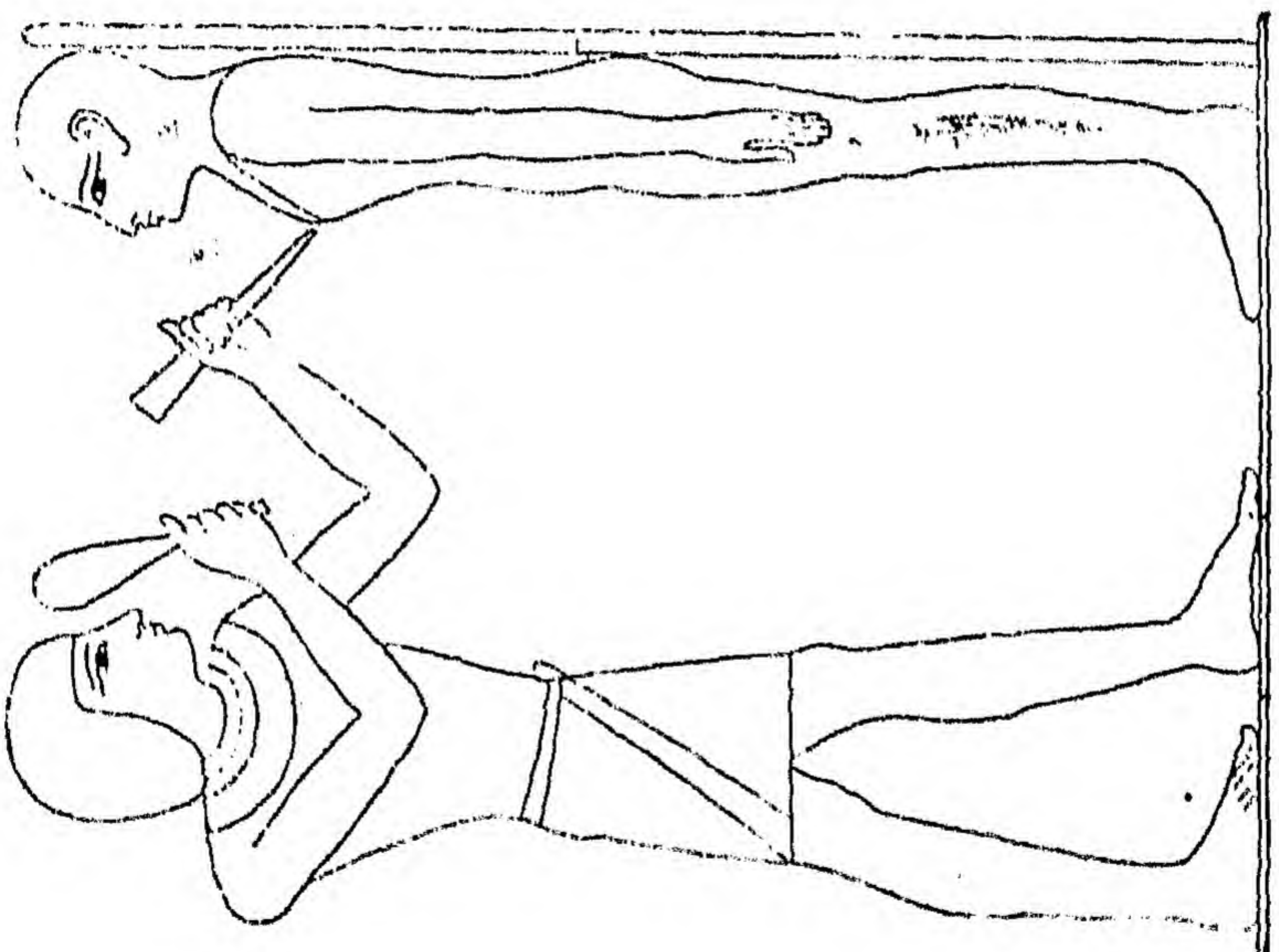
وامتدت حدود مملكة هذه العائلة الى بلاد النوبة وكان بينها وبين ليبيا الشمالية
واسيا علاقات تجارية محورها ما بين نفي سوينف واهناس المدينة . وبسبب هذه العلاقات
تعلم المصريون من الليبيين عام الرياضة الجسدية (الجباز) اما صناعة البناء في ايام هذه
العائلة فقد كانت من الاتقان والتفنن على غاية حق قيل ان معظم الاعمدة الحلزونية
الشكل في الاثار المصرية انما من مصنوعات هذه العائلة

العائلة الثالثة عشرة الطيبية

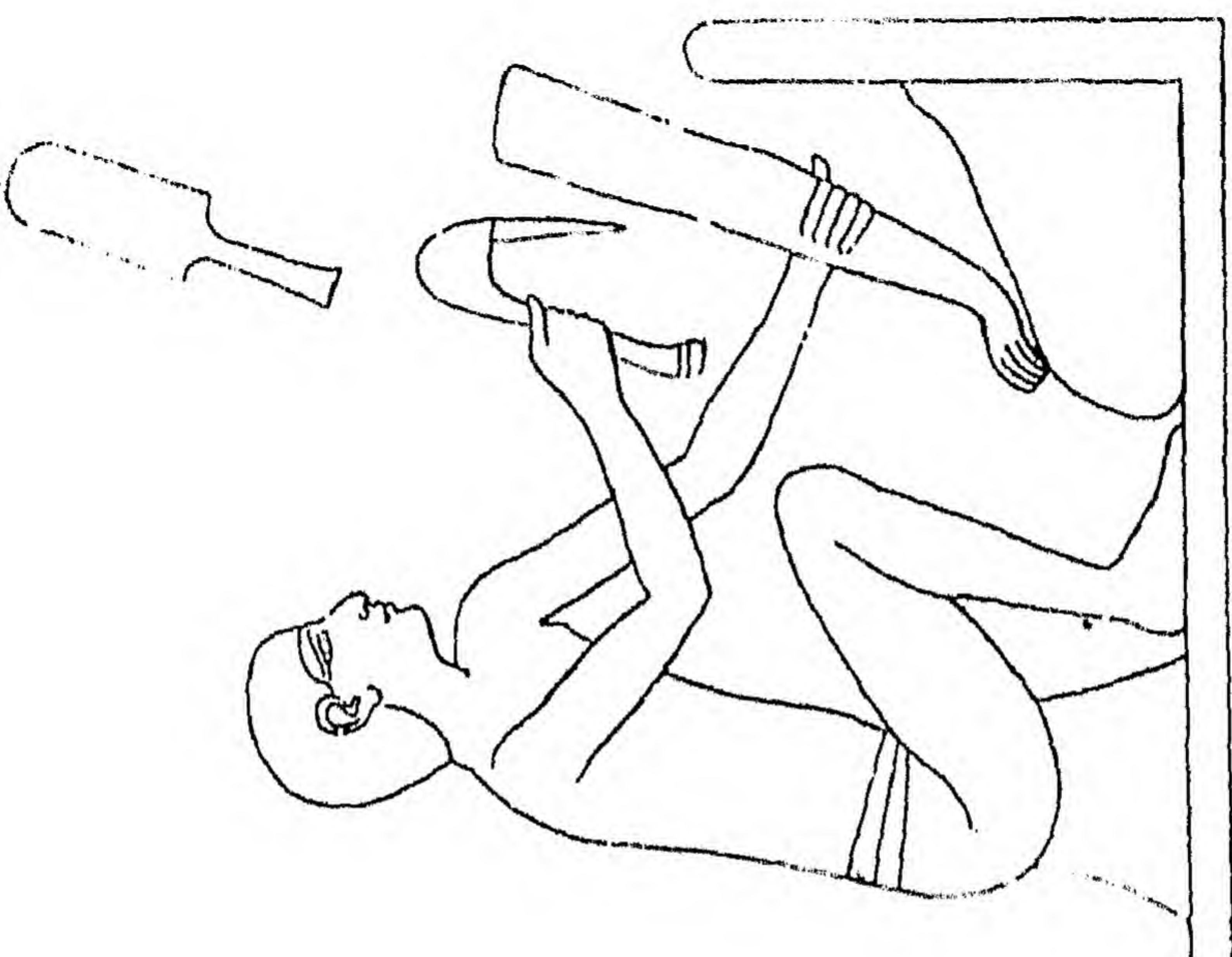
كانت من ٢٤٧٣ - ٣٠٢٠ ق م او من ٢٨٥١ - ٢٣٩٨ ق م وعدد ماولها ٨٧

من ماول هذه العائلة « سبك حتب الثالث » له آثار كتابية على صخور شاحنة
صعبة التسلق عند ضفة النيل بقرب سمنة مفادها ان ماء النيل بلغ هذا الارتفاع في

حفار مصري يصنع تمثلاً



حفار مصري ينحت ذراعاً



السنة الثالثة من حكم الملك سبك حشب الثالث واوطاً جزء من هذه الكتابة يعلو أعلى نقطة يبلغها النيل عند ارتفاعه في هذه الايام بنحو سبعة امتار . وذلك من الادلة على ان النيل كان اكثر ارتفاعاً في الاعصر الخالية منه في هذه الايام بما يستحق الاعتبار . وهذه العائلة على كثرة عدد ملوكها قلّ ما يعرف عنها ، ويظن ماريت ان اكثر آثارها مردوم في اسيوط

العائلة الرابعة عشرة السخاوية

حكمت من ٣٠٢٠ — ٢٨٣٦ ق ٥ او من ٢٣٩٨ — ٢٢١٤ ق م وعدد ملوكها ٧٥

بسقوط العائلة الثالثة عشرة سقطت طيبة بعد ان كانت سريراً للدول المصرية نحواً من سبعمائة سنة . على ان ملوك العائتين الثانية عشرة والثالثة عشرة لم يكونوا في اهتمام لحفظ رونقها وافضليتها على سائر القطر المصري وانما صرفوا اهتمامهم في تعمير الدلتا ورفع شأنه فزهت منديس وسائس وبوباستس وعلى الخصوص تالس ولكنهم مع ذلك لم يتخذوا غير طيبة سريراً لملوكهم . اما العائلة الرابعة عشرة فجعلت عاصمتها في الوجه البحري في مدينة خيس (سخا) في منتصف الدلتا . لا يعلم عن ملوك هذه العائلة ما يستحق الذكر سوى ان اسماءهم وجدت مكتوبة على تحيفة من البايروس (البردي) حفظت في متحف تورين

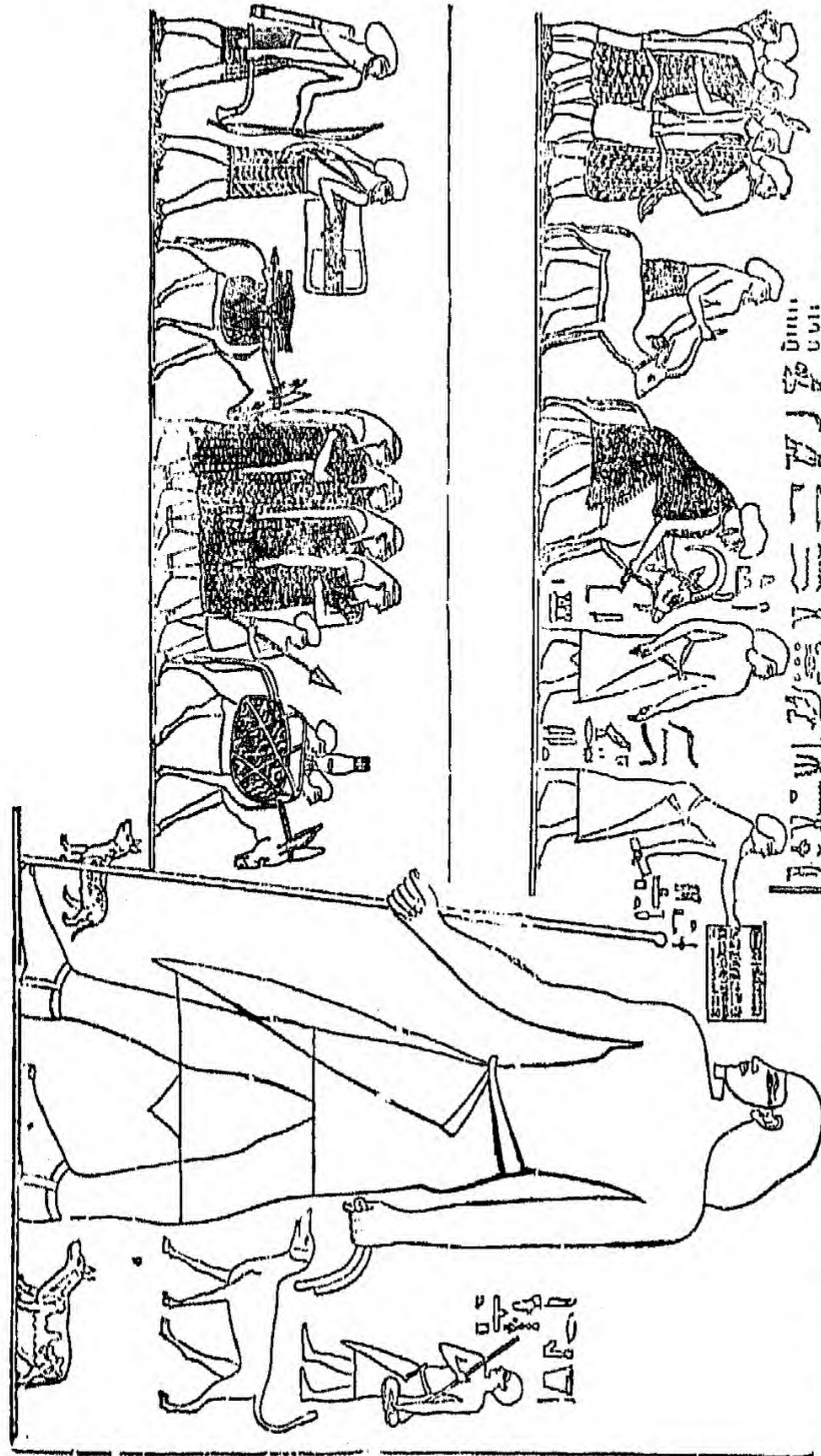
العائلات الخامسة عشرة والسادسة عشرة والسابعة عشرة (الرعاة)

حكمت من ٢٨٣٦ — ٢٣٢٥ ق ٥ او من ٢٢١٤ — ١٧٠٣ ق م

فالعائلة الخامسة عشرة مؤلفة من ملوك الرعاة الذين افتتحوا مصر واتخذوا « اوريس » سريراً لملوكهم وكان معظم سلطتهم في الوجه البحري . اما القبلي فكان يحكمه بعض الملوك الوطنيين . اما منشأ ملوك الرعاة ويدعوهم اليونانيون « هيكسوس » فقد اختلف المؤرخون في حقيقته وقد عقدنا فصلاً في كتابنا تاريخ العرب قبل الاسلام بينا فيه ارجحية كون الرعاة عرباً من القبائل التي يسميها العرب « العمالة » فايراجع هناك . ويقال انهم جاؤا مصر من جنوبي اسيا ففاجأوا المصريين في الوجه البحري وافتتحوا بلادهم وتقاطروا اليها افواجاً حتى انتشروا فيها كالجراد وجعلوا يعيشون استبداداً فاحرقوا المعابد ونهبوا ما فيها واتخذوا منف قاعدة لحكمهم

ففرّ الملوك المصريين الى الصعيد

واول من ملك من العماقة « سلاطيس » شاد قلاعاً حصينة في اماكن مختلفة وجعل في السويس جنداً عظيماً خيفة ان يهاجه كنعانيو الشام والعراقيون . وفي ايامه تقاطر اهل اسيا الى مصر اسراباً يطلبون ملجأ ورزقاً فبنى لهم في اواريس معسكراً



عظيماً يسع نحواً من مائتين واربعين ألفاً وجعل حوله خندقاً ورتب لهم ارزاقاً فصاروا له اعواناً فهابه المصريون

ثم تداول خلفاؤه على سرير الملك الواحد الآخر . وعددهم ٦ ومدة حكمهم جميعاً ٢٦٠ سنة وقد كانوا في اول امرهم مستبدين يسومون المصريين شر المعاملة ولا يستخدمون في مصالح حكومتهم الا الاجانب من ابناء جلدتهم . لكنهم في آخر الامر قربوا الوطنيين منهم واستخدموهم في مصالح الدولة وصرقوا اهتمامهم الى احياء البلاد وتجديد ثروتها فبنوا المعابد

ش ٧ — مهاجرو اسيا

ودانوا بديانة اهل مصر . فوضع لهم الوجه القبلي فاصبحت مصر جميعها في ايديهم .

أيديهم . ثم خلفتهم دولة الرعاة الثانية وهي العائلة السادسة عشرة وعدد ملوكها اثنان وثلاثون لم يعرف منهم الا ملك واحد يدعوه المصريون « اياي اعاكين » والعرب يدعونه « الريان بن الوليد » ومانيثون يدعوه « اپوفيس » وفي ايامه نزح كثيرون من اهل الشام الى مصر واستوطنوها لكنهم حافظوا على لغتهم ولم يبدلوا . وفي ايامه ايضا وفدت السيارة الذين باعوا يوسف بن يعقوب الى قطفير وزير مصر الذي يدعى بلغة مصر القديمة « بدفير » اي هدية الشمس وقصته مشهورة . وقد وجدت في الآثار حكاية استنتج منها بعضهم ما يؤيد قصة المجاعة التي حصلت في ايام يوسف والله اعلم

واما العائلة السابعة عشرة فكانت مصر في ايامها تحت حكومتين وطنية بيد المصريين واجنبية بيد الرعاة . وبلغ عدد ملوك كل من الحكومتين نحواً من ٤٣ ملكاً قلما يعرف عنهم . وكانت قاعدة مملكة الرعاة « صان » والوطنيين « طيبة » وغاية ما يقال في هذه العائلة انها لم تنته حتى انتهى معها الرعاة وبانقضائه انقضت الدولة الملكية الوسطى

الدولة الملكية الاخيرة

حكمت من ٢٣٢٥ — ٩٥٤ ق م وعدد عائلاتها ١٤

العائلة الثامنة عشرة الطيبة

حكمت من ٢٣٢٥ — ٢٠٨٤ ق م او من ١٧٠٣ — ٤٦٢ ق م وعدد ملوكها ١٤

ولهذه العائلة شأن عظيم في تاريخ مصر القديم لان البلاد في ايامها نشطت وامتدت سطوتها الى انحاء بعيدة

اول ملوكها « احمس » ويسميه مانيثون « اموزيس » تزوج بابنة ملك اثيوبي وتحالف معه على طرد بقية العمالة من مصر . وكانوا متحصنين في قلعة اوربس برّاً وبحراً فحاصروهم ثم طردوهم منها . وما زال يتبعهم بجنوده حتى نهر الفرات فتخلصت مصر منهم بعد ان استبدوا فيها ستماية سنة . وبقيت منهم بقية رضعنت لاحكامه قهراً وما لبث ان عاد من هذه المحاربة حتى عصته اهل النوبة فجرد اليها وظهر عليها . اما الاثيوبيون فدخلوا في طاعته بغير حرب وامتدت سلطته الى البحر المتوسط . وفي

السنة الثانية والعشرين من حكمه استعمل العمالقة لقطع الحجارة من محاجر طره لتجديد معبد « فتاح » في منف ومعبد « امون » في الكرنك ولانشاء معابد اخرى وقد وجدت جثة هذا الملك في الدير البحري بجبل القرنة وهي الآن في المتحف المصري ومن ملوكها « امنحتب الاول » ويسميه مانثون « امنوفيس » كان ملكاً عادلاً

مسالماً تزوج ببنه ملك اثيوبيا وجثتها في المتحف المصري

ومن ملوكها ايضاً « تحوتمس الاول » رغب في توسيع دائرة ملكه فيجعل يحارب جنوباً وشمالاً فامتدت سلطته الى محاجر مدينة « انبو » في وسط النوبة ويستدل على ذلك بوجود اسمه منقوشاً على حجر هناك . وقد وجدت نقوش اخرى في جهات اصوان تشير الى شيء من ذلك . وامتدت مملكة مصر في ايامه جنوباً الى جبل « ابته » في الحبشة . وشمالاً الى اقصى اسيا المعمورة من ضمنها فلسطين وبابل وغيرها . اما معظم ثروة بلاده فكانت من اثيوبيا التي كانت تأتي منها البضائع مشحونة في مراكب النيل الى مصر وفيها الحيوان والحب والجلد والعاج والخشب والحجارة الكريمة والمعادن كالذهب وغيره ويقال ان اسم النوبة مأخوذ من « ب » اي ذهب . ومن آثاره انه شاد معبد امون في الكرنك ومسلتين احدهما لا تزال الى الان عند باب المعبد المذكور اما الثانية فقد ذهبت بها يد الزمان

ومنهم الملكة « حعتشبو » ويسميا مانثون « مفرس » ساست الاحكام بتدبير وحزم ورسمت صورتها على الآثار بهيئة رجل ذي لحية ملوكية مهيبة . وقد سعت هذه الملكة في نشر سطوتها ففتحت بلاد « بون » جنوبي بلاد العرب فكانت باباً للتجارة وكانت تأتي منها بالخشب والعطريات والصمغ والذهب والفضة والحجارة الكريمة وغير ذلك من لوازم بناء الهياكل . ومن آثار هذه الملكة مسلتان نصبتا في الكرنك لم تزل احدهما قائمة الى هذه الغاية عليها كتابة بالقلم المصري القديم تفيد انها اقامت هاتين المسلتين تذكاراً لوالدها . وكان على قمة كل منهما اكليل هرمي الشكل مصنوع من الذهب المغتم من الاعداء . والمسلة الواحدة قطعة واحدة مقطوعة من محاجر اصوان استغرق عملها معاً اربعة عشر شهراً وارتفاع كل منهما ثلاثون متراً

ومن ملوك هذه العائلة « تحوتمس الثالث » وهو شقيق الملكة المتقدم ذكرها . لم يمكنه الملك الا بعد وفاتها ولم يكن راضياً بحكمها الا رغم ارادته فلما تولى محاسنها من اكثر الاماكن التي ذكرت فيها انتصاراتها وكتب اسمه مكانه لتنسب تلك الانتصارات اليه

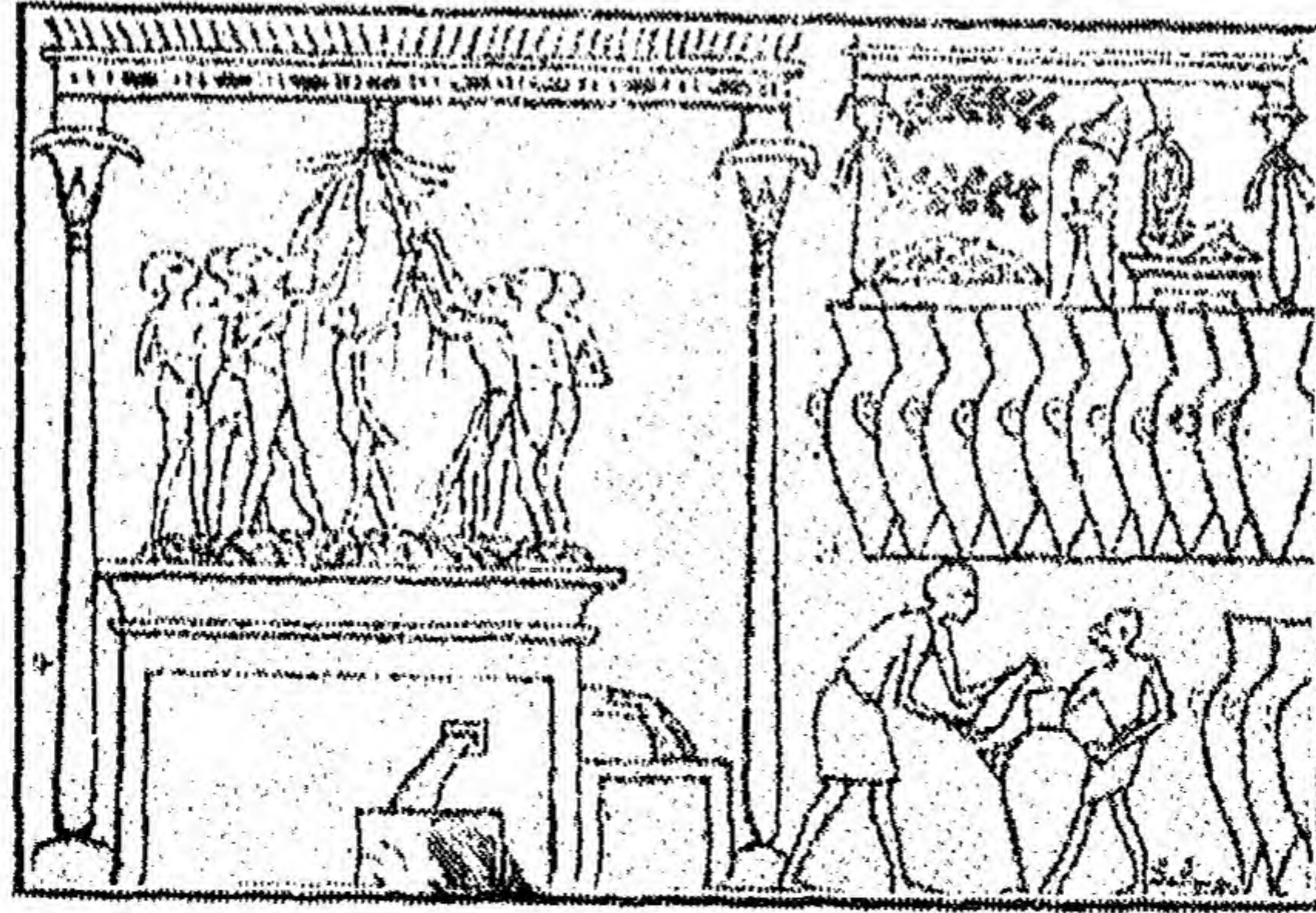
وفي أيامه استقلت اسيا من سيطرة المصريين الا غزاة وضواحيها . ثم ظهر
التمرد في الشام فنار اهلها وحرصوا سكان شمالي سوريا على مثل ما فعلوا . فقاتلهم
وظهر عليهم وسلبهم مدينة حلب ومدناً اخرى ثم سار الى الفرات فاخضع العراق
والجزيرة وبعد انتصاره اراد اكرام جيشه فصرح لهم ان يصطادوا من حيوانات تلك
البلاد ما شاؤا . وكان في جملة صيدهم مائة وعشرون فيلاً فعاد الى مصر ظافراً . ثم لم
يمض يسير حتى عادت اسيا الشمالية الى الثورة فشقت عصا الطاعة وتمرد اهلها وتابعهم اهل
الجزيرة . فعاد الى قتالهم وما زال حتى استظهر عليهم وعاد الى مصر ثم خرج عليه الزنج
والعبيد من النيل الاعلى فخاربهم ونهب بلادهم وهدم مساكنهم وحرقها وقادهم اسرى
الى مصر . (الظر ش ٨) ويقال بالاجمال ان اكثر ايام هذا الملك كانت حروباً وشدائد
ولذلك لقبوه بالسلطان الاكبر . وفي المتحف المصري حجر جنيء به من الكرنك عليه
من الأعلى صورة الملك المذكور كأنه يقرب القرابين لبعض الالهة وهم وقوف بين يديه
وتحت ذلك كتابة هيروغليفية بين اثر ولظم كتبت عن لسان امون اله طيبة يخاطب بها
الملك بما يشبه المدح والتنشيط



ش ٩ - اسرى الزنوج

وكان في حوزته عند وفاته الحبشة والنوبة والسودان والشام والجزيرة
والعراق العربي وكردستان وارمينيا وقبرس اما جثته فتشاهد في المتحف المصري . ومن
آثار تحوتمس الثالث مسلة ان اقامها في المطرية حتى اذا كانت ايام الملكة كليوباترا
نقلتا الى الاسكندرية وجعلتا امام هيكل القيصر وعرفتا بعد ذلك بمسلي كليوباترا
وعليهما كتابة هيروغليفية كثيرة بينهما اسماء تحوتمس الثالث ورعمسيس الثاني وسيتي
الثاني ولا وجود لاسم كليوباترا عليهما . وفي سنة ١٨٧٧ ب م نقلت احدهما الى لندن
واقامت على ضفاف التيمس ثم نقلت المسلة الاخرى الى اميركا بعد حين

ومن ملوكها الملك « امنوفيس الثاني » استلم زمام الاحكام وسلطة مصر منتشرة في اقاصي الارض فاجتهد في حفظها الا ان اشور نظراً لبعدها من مصر ثارت واستمالت اليها ما حوّلها من المدن فجهز اليها امنوفيس وما زال يحاربها ومن تابعها نحواً من سنتين كان يتردد اثناءهما بين العراق والجزيرة واكاد . واخيراً ماد الى مصر بجرأ غانماً ظافراً . وفي جملة ما جاء به من الغنائم سبع جثث ممن قتلهم في تلك الحملة فعلق ستاً منها على سور طيبة . ولهذا الملك رسم منقوش على مقبرة في القرنة هو فيه على هيئة ملك عظيم الشأن جالس على كرسي قد نقش على قاعدته اسماء البلاد الخاضعة له .



ش ٨ — معاصر العنب عند المصريين

ومن ملوكها ايضاً الملك « تحوتمس الرابع » ومن اعماله اعادة عبادة الشمس الى مصر . فكرّم ابا الهول المرموز به عنها . ومن يزر هذا التمثال العظيم في الجزيرة يرفع في صدره لوحاً ارتفاعه اربع عشرة قدماً انكليزية في اعلاه الى اليمين رسم هذا الملك يقدم العبادة لابي الهول والى اليسار رسم الشمس . ويلى ذلك نقوش كتابية تفيد ان ذلك الملك لم يذخر وسعاً في تحسين مدينتي منف والمطرية واعطاء المرتبات المقررة للمعابد او لانشاء الهياكل والتماثيل والمعبودات وكان ملكاً قوياً مهوباً

ومن ملوكها ايضاً « امنوفيس الثالث » لما تولى الاحكام كانت حدود مملكة مصر ممتدة شمالاً الى نهر الفرات وجنوباً الى جلة واسعة شهرته في الاقطار الغربية دعاه اليونان بالامنون . وله تمثال عظيم في طيبة مشهور بهذا الاسم . وقد كثرت في ايامه القلاقل والفتن فسعى في اخادها بعزم ونشاط وكان ذا وقار ومهابة وفي الحروب باسلاً مقداماً . كل ذلك تراه مكتوباً نقشاً على تاج هيكل الاقصر لانه جدد فيه قسماً عظيماً وكان يلقب نفسه بسلطان البرين وامير العالمين (يريد عالمي اسيا وافريقيا) وكان حسن

السياسة فزادت مصر في أيامه سطوة ومملكتها اتساعاً
ومن آثاره هيكل في « نبتة » جعل في الطريق الى باب صفين من الكباش الراقدة
على مثال ابي الهول وحسن معبد تحوتس الثالث في سواين بين الشلال الثاني والثالث
وشاد هيكلًا غربي الكرنك خدمة المعبود امون . وهناك اصلاحات اخرى اجراها في
هياكل ومعبودات اصوان وجزيرتها وجبل السلسلة وغيرها . وانشأ على ضفة النيل
الغربية تجاه الاقصر معبدًا طالما كان من اعظم الاثار القديمة اما الان فقد اصبح خراباً
لاسباب لا نعلمها الا صخنين كبيرين كانا على باب ولا يزالان قائمين رغم مصادمة
الايام ويعرفان بشامة وطامة وكل منهما تمثل امنوفيس الثالث . وبقيتا الى سنة ٥٩٥ قبل
الهجرة ولم ينتبه اليهما حتى حصلت زلزلة اسقطت جزء احدهما الاعلى وبقيت قاعدته
في مكانها ف لوحظ ان هذه القاعدة اذا سقط عليها المدي ثم اشرقت عليها الشمس اخرجت
صوتاً يستقر مدة فجعلوا يقولون في شأنه اقوالاً شتى اكثرها: بني على الوهم والخرافات
ثم اهتم القوم بإعادة الجزء الساقط الى قاعدته فأعادوه وملطوا مكان الالتحام جيداً فلم
يعد يسمع له صوت فعلموا ان ذلك الصوت كان يحدث من تأثير اشعة الشمس على نقط
الندي بعد تخلصها بجسم ذلك الحجر

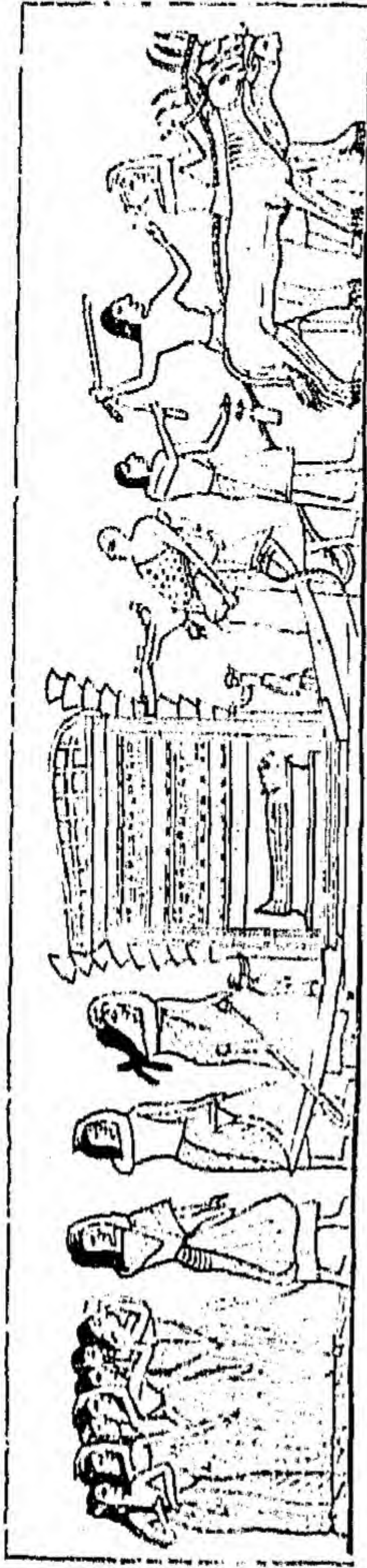
ومن ملوكها ايضاً « امنوفيس الرابع » رغب في عبادة الشمس فابتنى في محل تل
العمادنة على مقربة من المنيا مدينة جديدة جعلها سريراً للملك بدلا من طيبة ونقل
اليها معبود قرص الشمس وسماه (اتن) على مثال اله اليهود (ادوناي) اقامه في معبد
ابتناه من اجله . وقد نقبوا اطلال تلك المدينة فوجدوا بينها بقية ذلك المعبد على
دهليزين وستة اعمدة مدرجة الوضع يظهر انها كانت منصوبة في صحنه وشاهدوا
على جدرانها رسم الشمس مشرقة على الملك ورجاله وهم وقوف يقربون القرابين اليها
وبين اشعتها ايدي ممتدة كأنها تنثر الحياة على المخلوقات وحول هذه الرسوم ادعية وقصائد
كان يتلوها المرتلون على نغمات الاوتار . وعلى جدران الهيكل ايضاً رسم هذا الملك
ورجاله على هيئة غير مصرية . ويشاهد ايضاً في مقبرة بتل العمادنة نقوش بينها صورة
الملك واقفاً على عربته الحربية وبجانبه بناته السبع يقاتلن معه . وله آثار في سوليب
وهيكل ومسلة بمدينة طيبة

ومن ملوكها ايضاً الملك « حور محب » وهو من اقارب « امنوفيس الرابع »
ثارت عليه الرعية عند اول حكمه فارضاهم بمحو عبادة الشمس وهدم معبدها والمدينة
جميعها واعادة الديانة المصرية . ولما خمدت الثورة بنى الوجهة الرابعة من معبد الكرنك

وفي أيامه خرجت اسيا من سيطرة المصريين وما زالت كذلك الى ان جاءت العائلة
التاسعة عشرة

العائلة التاسعة عشرة الطيبية

حكمت من ٢٠٨٤ — ١٩١٠ ق هـ او من ١٤٦٢ — ١٢٨٨ ق م وعدد ملوكها ٨
اول ملوكها « رعمسيس الاول » ولم يتحقق حتى الآن اذا كان مصري المولد او
اسيويه تبوا كرسي الملك شيخاً وكانت المملكة المصرية تنل لخروج معظم ايلاتها
من طاعتها على اثر الحرب الدينية فجدد شبابها ونهض للجهاد فحارب الاثيوبيين والحثيين
وكانوا امة عظيمة تحتها عدة طوائف قد تحالفوا معاً على قتال المصريين . ويقال ان
هذا الملك هو اول من ناهض الحثيين واخترق بلادهم



وجال في اصقاعهم حتى ضفاف نهر العاص
وخلفه ابنه « سيتي الاول » فسعى سعياً حميداً لتوسيع
مملكته فغزا بعضاً من بلاد اسيا الغربية . ذلك ما يستفاد
مما كتب على هيكل الكرنك فغزا غزوات عديدة الى
الشام والعراق وغيرها ففتح بلاداً تمتد من جنوبي الشام
الى ارمينيا . وقد كانت قبلاً لا يطلب منها الا جزية
تدفعها وحكامها من ابنائها . اما هذه المرة فادخل اهلها
في طاعته وجعل عليهم حكاماً من امرائه واحاطهم بنقط
حصينة كغزة وعسقلان جعل فيها حاميات من رجاله
فامن طغيانهم الا ما جاور الفرات فانه عجز عن ابقائه
في حوزته وعصته الجزيرة والعراق ولم يعد قادراً على
مقاومتها فوقف عند حده ولذلك كانت فتوحاته كبيرة
في الظاهر حقيرة في الباطن . ولما عاد من تلك المحاربات
جعل يمكن العلاقات مع ايلاتة بواسطة النقط العسكرية
التي كن قد جعلها فيها فزاد الارتباط بين المصريين والامم
المتعابة ولا سيما الكنعانيين فادخل المصريون معبود
الكنعانيين (بعلا) في عداد معبوداتهم ومثلوه بالشمس
وكان لهذا المعبود زوجة اسمها استارته (عشتروت) مثلوها
بالقمر واتخذوا من اسيا ايضاً آلهة اخرى

ومن آثار هذا الملك هيكل في القرنة وآخر في رداسية وآخر في العرابة المدفونة وقد نحت اعمدة كثيرة اقامها في النوبة وحجراً جعله في اصوان . وفتح ترعة بين النيل والبحر الاحمر بتبديء من تل بسطة وتجري شرفاً في وادي الطملات الى ان تصب في البحيرات المرة وبنى خط دفاع شرقي مصر وشاد محراباً في القرنة وفتح طريقاً للقافلة بين قرية رداسية باقايم اسنا ومعدن الذهب بجبل اتوكي حيث اصطنع عيناً صناعية ينفجر منها الماء غزيراً . واصلاح الغار الذي في بني حسن للمعبودة « بشت » ويعرف الآن بغار « اتميدس » واخيراً بنى لنفسه ضريحاً في بيان الملوك يعجب له كل من عاينه لدقة صنعه وبها فيه من المناظر الفلكية البديعة ومن ملوك هذه العائلة « رعمسيس الثاني » المشهور باسم « سيزوستريس » ويقال له « رعمسيس الاكبر » لانه في الواقع اعظم من ملك مصر حكمة وباشاً حكم مدة طويلة كلها فتوحات وحروب ومبان ونقوش فلا يكاد يوجد اثر من الآثار المصرية القديمة الا وعليه اسمه ورسمه . ولي الملك صغيراً فشب معتاداً على الاعمال السياسية وكان متوقد الذهن وفيه فطنة ونباهة منذ حداثة . وبما توفي والده قام باعباء الملك بنفسه فاخذ في توسيع لطاقه بالفتوحات . واول غارة شنها كانت على الشام فسار بجيشه وما بلغ نهر الكلب بقرب بيروت حتى خمدت الفتنة فعاد الى مصر تاركاً اثراً منقوشاً على صخر هناك . وفي السنة الرابعة من حكمه ثار عليه سكان شمالي اسيا وهم الحثيون وكاتي وكركاميش وكوش وكانوا اقواماً من الشجاعة على جانب عظيم فانضموا لمحاربه وساروا جميعاً حتى وادي الارونط بقرب حدود مصر في ذلك العهد . فبلغ رعمسيس خبرهم فجمع اليه امرائه ورجال دولته وقواده وجنوده وسار في مقدمتهم وما زالوا يخترقون سوريا حتى اتوا نهر العاص قرب مدينة قادس فاذا هي على جانب من المنعة ففرق رجاله فرقاً في نقط معينة ثم سار في حاشيته منفرداً فالتقى جواسيس الحثيين فانغروه على التقدم نحو المدينة فسار في حاشيته تاركاً جيشه في اماكنهم فلما اقترب من المدينة علم انها دسيئة اوقع فيها فالتفت واذا بمركبات الحثيين حوله لا عداد لها فلما رأى ذلك رجال حاشيته طلبوا النجاة بانفسهم وبقي رعمسيس وحده فاستنجد الهه وهاجم الحثيين بمفرده على مركبته ففرقهم وفاز بهم . وبعد يسير عاد اليه رجال حاشيته وقد كادوا يذوبون خجلاً لما كان من فرارهم اما هو فاكثف بتوبيخهم ثم اجتمع بجيشه ثانية وهاجم العدو فهزمهم وانتهى الامر بعقد معاهدة بينه وبينهم ثم هم بالجللاء من اسيا



ش ١١ - رعمسيس الثاني

وبينما هو في طريقه الى مصر ثار عليه الكنعانيون وانضم اليهم الحثيون ناقضين العهد وثار غيرهم معهم فاصبح جميع من قطن ما بين ضفاف الفرات وضفاف النيل يقاتلون المصريين الا اهل اسيا الصغرى فانهم هجروا اوطانهم ولم يظهروا للقتال . وما زالت هذه الحروب متواصلة يشغلها هدنات وفترات مدة خمس عشرة سنة فاستولى رعمسيس على مدينتي نابور وميرون وقاعة اورشليم وعسقلان . ثم سار شمالاً وقاتل هناك حتى اخذ من الحثيين مدينتين وجد في احدهما الان تمثله . وما زالت الحرب سجلاً حتى اضطر ملك الحثيين الى المصالحة فطلبها فقبل رعمسيس ذلك في السنة الحادية والعشرين من حكمه ف عقدوا معاهدة كتبت اولا بلغة الحثيين ثم نقشت على لوح من فضة وقدمت الى رعمسيس ومفادها ان الحثيين يتعهدون انهم لن يعودوا بعد ذلك الى حمل السلاح ضد المصريين وعلى مثل ذلك يتعهد المصريون وان يكون الفريقان متحالفين الى الابد وجعلوا في وسط لوح الفضة وعلى جانبه الاعلى صورة تمثال (ست) معبود المصريين معانقاً تمثال (خيتا) معبود الحثيين . وما زالت هذه المعاهدة مرعية مدة ست واربعين سنة كانت الراحة في اثنائها مستتبة وتصاهر المملسان توطيداً للعلاقات الودية فاصبح المصريون والحثيون قلباً واحداً وبعد التوقيع

على المعاهدة يسير دعا رعمسيس الثاني ملك الحثيين لزيارته الى مصر فزاره
فاكرم مشواه

ولما سكنت الحروب اخذ رعمسيس في تشييد المباني فشاد في كل مدينة معبداً
وتتم معبد القرنة في الاقصر وكان قد شرع فيه ابوه . ومن آثاره ايضاً هيكل بناء في
شرقي الشيخ عبد القرنة بطيبة سماه شامبليون « رامسيون » منقوش فيه تفاصيل
احدى وقعاته ومنها معابد في العرابة المدفونة ومنف وتل بسطة وغيرها وأسس في
الوجه البحري مدناً عديدة دعاها باسمه . وكان لهذا الملك العظيم في قلوب رعيته من
الحبة الى حد الشغف وكان لهم فيه من الثقة الى حد العبادة . ولما مات دفن في مقبرة
يبيان الملوك ثم نقل الى الاقصر لاسباب غير معلومة . ثم نقل الى المتحف المصري وهو
هناك الى هذه الغاية

ومن ملوك هذه العائلة « منفتاح الاول » ابن رعمسيس الثاني اتبع خطوات ابيه
فجعل يزيد في بنايات الدلتا وتحسينها ثم ثار عليه اهل اسيا الصغرى وطائفة الليبيين
فانفذوا اليه بوارجهم في البحر المتوسط الى سواحل ليبيا مملوءة بالعدة والرجال من
قبائل مختلفة وما زالوا حتى اتوا السواحل المصرية ودخلوها من غربي الدلتا كل ذلك
والمصريون لا يبدون حراكاً الا اذا كان للتسليم . ولم يمض كثير حتى اصبح معظم الوجه
البحري في ذمة اولئك الوافدين . فلما علم منفتاح بذلك تجند في منف وارسل فرقة
من فرسانه لمقاولة العدو ثم امر بتحصين جميع المراكز الواقعة على ضفتي فرع رشيد .
فتناقل الليبيون فانفذ اليهم فرقة شنتهم وعاد المصريون فأنزى غائمين بعد ان احرقوا
معسكر العدو فعاد الامن الى بلادهم . ويقال ان الاسرائيليين هاجروا مصر في ايام هذا
الملك ولهم على ذلك ادلة أعرضنا عن ذكرها لضيق المقام

العائلة العشرون الطيبية (وتسمى الرعمسيية)

حكمت ن سنة ١٩١٠ — ١٧٣٢ ق م او من ١٢٨٨ — ١١١٠ ق م وعدد ملوكها ١٢
من ملوكها « رعمسيس الثالث » وهو اخر من اشتهر من ملوك مصر القدماء وفي
اول حكمه ثار عليه اهل البادية فهددوا استحكامات الدلتا واهانوا العملة الذين كانوا
يستخرجون المعادن من جبل الطور . وخرجت ولايات الشام من طاعته وسطا
الليبيون على ارضه فاحتلوا بعضاً من الدلتا من جهة الغرب
فلما علم رعمسيس بما كان من تلك الوقاحة سار في جيش من رجاله على البدو

فهنزهم ثم على الليبيين فاقبلهم من محتاهم فعادوا على اعقابهم خاسرين . فلما علم اهل اسيا الصغرى والجزائر اليونانية بما كان جردوا جيوشهم متحالفين على محاربة رعمسيس وما زالوا حتى اتوا الذلتا فلاقهم الجيوش المصرية عند مصاب النيل بقلوب لا تهاب الموت وفي مقدمتهم رعمسيس الثالث غير مبال بما كان حوله من الاسهم المتساقطة عليه من كل الانحاء . وما زالت الحرب سجالاً الى ان فاز المصريون فوزاً تاماً . ولهذا المعركة العظيمة رسم منقوش على جانب الحوش الاول من مباني مدينة (ابو) بطيبة . واستتبت الراحة في ديار مصر بعد ذلك نحو ستين ثم عاد الليبيون الى الثورة ثانية وضموا اليهم بعضاً من القبائل المجاورة لبلادهم واغاروا على مصر من غربيها فقاتلهم المصريون بشبات فانتهت الحرب بنصرة المصريين كل ذلك منقوش في مدينة (ابو) بطيبة ايضاً . فاضطر الليبيون بعد المعركة الثانية الى رعاية حقوق مصر عاينهم فرضخوا لها صاغرين . ثم دخل في ذمة المصريين ايضاً اهل الشام وسكان سيسيليا وغيرهم من الامم المتعاهدة فاصبحت مصر دولة مهيبة واسعة النطاق واستعز رعمسيس بالملك . الا انه لم ينج من بعض المتاعب الداخلية لان اخاه ارمانيس كان يسعى فيه بدسيسة يذهب بها حياته ولم ينجح فعلم رعمسيس بذلك فأتى باخيه ومن شاركه وبعد تحققه ارتكابهم جازى كلا منهم بما فعل فعفاه الدهر فجعل يجدد المباني فبنى في مدينة (ابو) قصراً كبيراً نقش على جدرانها ما كان من محارباته ووسع معبد الكرنك واصلاح هيكل الاقصر وغيره من مباني الوجه البحري وكانت التجارة في ايامه رائجة ممتدة الاطراف

وتلا هذا الملك ملوك اخرون من هذه العائلة يعرفون برعمسيس الرابع والخامس الخ ويقال بالاجمال ان سطوة مصر اخذت بالسقوط في ايامهم الواحد بعد الاخر الى ايام رعمسيس الثالث عشر وهو اخر من ملك من هذه العائلة فاذا بمصر في ايامه منكسرة الشوكة محصورة الحدود يترصد لها الاعداء يريدون النهامها فكانت غنيمة لاحد كهنتها الذي يدعى (حرحور) وهو اول من ملك من العائلة الحادية والعشرين

العائلة الحادية والعشرون الطيبة والطينية

حكمت من سنة ١٧٣٢ — ١٦٠٢ ق هـ او من ١١١٠ — ٩٨٠ ق م وعدد ملوكها ٤

اولهم الكاهن (حرحور) اختلس الحكم اختلاسا من العائلة الرعمسية على اسلوب دني منقوش على هيكل (خونسو) بطيبة ثم نفى من نقي من العائلة المذكورة الى الواحات في وسط الصحراء الكبرى

وتولى بعده ابنه الكاهن (يعنخى) وليس له ما يذكر به سوى انه تزوج بابنة ملك الشام

ثم تولى بعده ابنه الكاهن (بينوزم الاول) وفي سنة ٢٥ من حكمه قامت فتنة بين اهالي الوجه القبلي واهالي الوجه البحري بسبب نفي العائلة الرعميسية وانتهت باستدعاء اولئك المنفيين من الواحات الى طيبة

وفي ايامه اتى النمرود بجيشه من اشور متظاهراً بالدفاع عن العائلة الرعميسية وانما كان قصده الاستيلاء على البلاد المصرية فتحققت اماله واخذها عنوة وضمها الى بلاده ثم توفي النمرود ودفنته امه في العرابة المدفونة وجعات لمدفنه المرتبات المعتادة وتولى بعده ابنه (ششنق) على مصر واشور واتخذ مدينة (تانيس) سريراً للملكه وسيأتي ذكره في الكلام على العائلة الثانية والعشرين

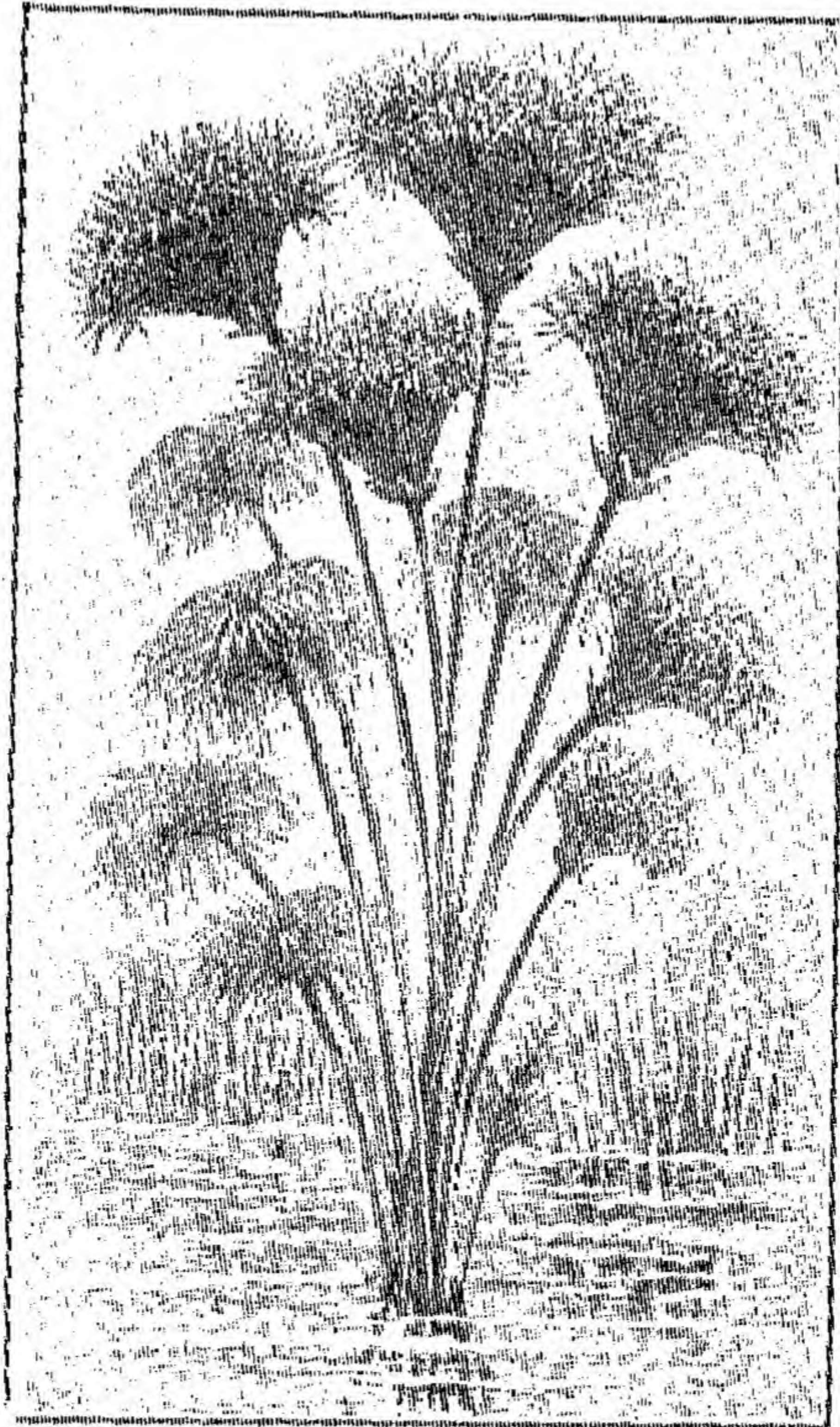
العائلة الثانية والعشرون البسطينية

حكمت من سنة ١٦٠٢ - ١٤٣٢ ق م او من ٩٨٠ - ٨١٠ ق م

سميت بسطينية لان قاعدة ملكها كانت في تل بسطة بالشرقية قرب الزقازيق وعدد ملوكها تسعة ومدة حكمهم ١٢٠ سنة

اول ملوكها الملك « ششنق الاول » ويدعى في التوراة شيشاق وهو سامي الاصل ابن النمرود كما تقدم . ولد في مصر ونشأ فيها ولما استتب له المقام في عاصمته سار الى العرابة المدفونة لزيارة قبر ابيه فوجد خدمة القبر قد نهبوا ما كان في المعبد من الامتعة الفضية فامر بقتلهم بعد ان سار الى طيبة واستشار معبودها « امن رع » بذلك . واعاد الى المعبد منهوباته ورتب للخدمة مرتباتهم . كل ذلك منقوش على حجر في العرابة المدفونة ومن اعمال هذا الملك انه سار الى فلسطين ووضع يده على اموال المسجد الاقصى الذي بناه سليمان الحكيم وعلى اموال القصور الملوكية وفيها الدروع السلیمانية الذهبية المشهورة ثم سار الى الاسرائيليين فسلموا له القلاع بغير قتال . وبعد عوده من هذه الغزوة نقش صورته على الجدار القبلي لهيكل الكرنك بالقرب من ايوان البسايطه الذي اسسه هو وبجانب صورته اسماء المدن التي افتتحها مكتوبة في ست وتسعين منزلة ورسم صور الملوك الذين اصبحت تحت حكمه وفي جهاتهم الملك رجبعام ابن سليمان مكتوف اليدين وراء ظهره وفي عنقه حبل . وفي عمارات كثيرة في طيبة بحجارة من جبل

السلسلة من اعظمها الايوان المتقدم ذكره ولا تزال اثاره باقية الى هذا العهد قبلي
هيكل رعمسيس الثالث ويعرف هذا الايوان عند علماء اللغة الهيروغليفية بايوان
البسايطة وتوفي بعد ان حكم ٢١ سنة



ش ١٢ — نبات البردي الذي كانوا يصنعون منه البابينوس

وتولى بعده ابنه « اوسوركون الاول » وليس له آثار تذكر وخاف هذا ثلاثة
ملوك ليس لدينا شيء من اخبارهم . ثم تولى الملك « تاكوت الثاني » وله لوح حجري
في رواق البسايطة بالكرك منقوش عليه بالقلم الهيروغليفية شيء من سيرته وفي أيامه
ضعفت شوكة مصر فعصتها اعمالها واستقلت في سلطتها . فاصبحت مصر حقيرة وقد
ذهب نفوذها ولا شيء من العزة والمنعة فيها . ثم تولى بعد هذا « ششنق الثالث »
« وپيامي » « وششنق الرابع » وفي عهدهم تجزأت مصر الى أعمال متفرقة تولى كل
منها حاكم ابي تحت ادارتهم فاستبد اولئك الحكام وتغافل عنهم ملوكهم فزادوا فجوراً
وما زالوا حتى ازالوا ساطة اولئك واخذوا الملك من ايديهم ولقبوا انفسهم بالفرعنة

ونزل الملوك الاصليون في بسطة ثم هاجروا منها خوفاً الى منف وانهى الامر بعد موت ششنق الرابع بخروج الدولة من يدهم الى ملوك العائلة الثالثة والعشرين

العائلة الثالثة والعشرون الطينية

حكمت من سنة ١٤٣٢ — ١٣٤٣ ق هـ او من ٨١٠ — ٧٢١ ق م وعدد ملوكها ٤

قاعدة ملكهم « تانيس » المعروفة الان بصان في الوجه البحري بمديرية الشرقية وقد كانت عند اول استيلائهم على الوجه البحري مدينة بسطة وكانت طيبة في ايدي الاثيوبيين فنزعها منهم « بتوباستيس » وهو اول ملوك هذه العائلة . وفي ايام هذه العائلة انقسمت مصر الى عشرين اقليماً تحت كل منها اقسام يتولى القسم منها امير يرجع في معضلات احكامه الى مركز الاقليم وما زال الامر كذلك حتى ظهرت العائلة الرابعة والعشرون

العائلة الرابعة والعشرون الصاوية

حكمت من سنة ١٣٤٣ — ١٣٣٧ ق هـ او من ٧٢١ — ٧١٥ ق م وعدد ملوكها ٥

اولهم « تفنخت » وكان احد امراء الاقسام المتقدم ذكرهم . فقويت سطوته شيئاً فشيئاً حتى تمكن من جميع مصر قبليها وبحريها الا اقليم الشرقية فانه تركه للعائلة الملوكية السابقة ولما علم ملك اثيوبيا بما كان جرد اليه جيشاً وحاربه فقهره ونقش صورة المحاربة على حجر وجد في جبل برقل ثم نقل الى متحف بولاق . فلما دخلت مصر في سلطة ملك اثيوبيا واسمه « يعنخي » جعلها ماحقة ببلاده لكنه ابقى لروسائها الامتياز وجعل « تفنخت » ملكاً عليهم بالاصالة وبعد سير مات يعنخي وخلفه آخر لم يكن اهلاً للاحكام فتحرر المصريون من سلطته فانسحب برجاله الى بلاده وفي اثناء ذلك مات تفنخت فتولى بعده ابنه « باكوريس » وكان قوي الادراك فقيهاً بارعاً فجعل مصر الوسطى والسفلى تحت حكمه الا ان الدهر لم يدُم له لان الدولة الاثيوبية صارت الى « سباقون » فجاء مصر وافتتحها عنوة والتى باكوريس حياً في النار وبموته ماتت العائلة الصاوية وامست مصر ايلة اثيوبية

العائلة الخامسة والعشرون الاثيوبية

حكمت من سنة ١٣٣٧ — ١٢٨٧ ق هـ او من ٧١٥ — ٦٦٥ ق م وعدد ملوكها ٤

اولهم « سباقون » المتقدم ذكره تولى زمام مصر وجعل لنفسه القاب الفراعنة واخذ يثبت النظام في البلاد ويحسن سياستها فابقى كل رئيس على اقليمه مع حفظ

نفوذه عليهم جميعاً بمراقبة امراء اثيوبيين . ثم شاد الجسور واحتفر الترع حرصاً على البلاد ان يمسها غرق او شرق ورمم كثيراً من المعابد واستبدل عقوبة القتل بالاشغال الشاقة فاكسب ثقة المصريين واشتهر بالرافة وحسن التدبير
الا ان ذلك لم يدم له لان مملكة اشور كانت في ذلك العهد قد امتدت سطوتها على الفينيقيين والاسرائيليين والفلسطينيين ورغب هؤلاء في التخلص من نير الاشوريين فاجعوا على ان يستنصروا « سباقون » في ذلك . فانفذ هوشع ملك اسرائيل اليه هدايا فاخرة وسأله التحالف معه على « شامنصر » ملك الاشوريين فاجابه سباقون الي طلبه طمعاً منه بالحصول على ما كان لاسلافه من ملوك مصر العظام . فبلغ خبر تلك المعاهدة مسامع شامنصر فاحتال على هوشع حتى اسره وفاجأ قومه بالهجوم فظهر عليهم فاعترفوا له بالسيادة بعد ان قنطوا من مساعدة سباقون . ثم سار « شامنصر » الى السامرة وحاصرها لكنه مات قبل افتتاحها وكان اخر ابناء العائلة الملوكية الاشورية فاقسم مكانه « سرجون » رئيس قواده فاقتدي به وسار على خطواته فاتم فتح السامرة ثم سار الى فلسطين وقتل الملك « يهوئيد » احد المتحالفين مع سباقون .



ش ١٣ — سرجون ملك اشور بيده الصولجان

فلما راي سباقون ذلك خاف على بلاده فتقدم بجنوده الى الشام لرد « سرجون »
عد ان انضم اليه « حانون » ملك غزة احد المتحالفين فالتقيا بجيوش الاشوريين في

مدينة رفح وانتشبت الحرب بين الفريقين فانهزمت الجيوش المصرية والشامية وأخذ « حانون » اسيراً ونجا سباقون فضل في الصحراء الى ان وجد من اهداه الى طريق مصر . فكانت هذه المحاربة امثولة له لكي لا يطمع فيما هو عاجز عن نياله . ولم يكن ذلك كل شقائه فانه بعد هذه الهزيمة ثار عليه سكان الوجه البحري تحت رئاسة اسطيفانيثس احد اقرباء الملك « باكوريس » سعيّاً في اصلاح شؤون البلاد فانهزم سباقون الى الصعيد واستقل باكوريس بالوجه البحري لكنه لم ترسخ قدمه حتى انقسمت حكومته على نفسها وقام النزاع بين فئتين من طالبي السيادة وفي اثناء ذلك توفي « سباقون » وخلفه ابنه « سيخون » فاعتصم فرصة الانشقاق وحارب الوجه البحري واستولى عليه . وهذا ما لبث ان ثبت قدمه حتى قتله « طهراق » وتولى مكانه



ش ١٤ — اسرحدون يقود طهراق ملك مصر وبعل ملك صور بحيل

اما « طهراق » هذا فكان رجلاً محارباً نزع مدينة منف من « استفانيثس » ثم جاءه اسرحدون ملك اشور فاتحاً ففر طهراق (تهراكا اوترهاكه) الى النوبة واستولى ملك اشور على منف وطيبة ونهب امتعة هياكلها وقسوسها وارسلها الى بلاده لتحفظ تذكاراً

لذلك الغلبة . ثم اشتغل في اصلاح شؤون مصر واعاد رؤساء الاقاليم كما كانوا كل واحد في اقليمه وضرب عليهم الجزية وبعد ان تم له ذلك سار الى « نينوي » تاركاً بعض جنوده حامية في قلاع خفافاً من فائلة الاثيوبيين فر في اثناء الطريق بنهر السكاب قرب مدينة بيروت فنقش على الحجر الذي كان نصبه رسميس الثاني نقوشاً كثيرة بين فيها فتحة بالمصريين والاثيوبيين

وفي سنة ٦٦٩ ق م اغتتم طهراق فرصة مرض اسرحدون وهاجم المصريين لاسترجاع البلاد اليه فلما علم اسرحدون بذلك وعلم بعجزه عن الدفاع تنازل عن الملك لابنه الاكبر « اشوربانال » . فسار هذا الى مصر واخرج منها الاثيوبيين واعاد السلطة لرؤساء الاقاليم وعاد الى وطنه . فعاد طهراق الى مشروعه فتحالف مع المصريين سرّاً على ان يعضدوه فيما يريد فعلم ملك اشور بذلك فقبض على الخائنين من رؤساء الاقاليم وقادهم اليه اسرى الا ان ذلك لم يمنع طهراق مما اراد فهجم على مصر واستولى على منف وابطل عبادة الصنم « ايس » منها . اما ملك اشور فجعل يقرب منه رؤساء الاقاليم المأسورين عنده استحقاقاً لرضاهم وطلباً لمساعدتهم فخلع عليهم واكثر من اكرامهم وارسلهم الى مصر فاخذوا الوجه البحري ثم القبلي ثم ما زالت مصر يتناوبها الاشوريون والاثيوبيون حتى انتهى الامر باغضاء الاشوريين عن تملكها لما يقتضي لذلك من المشقة فدخلت في سلطة « نوان ميامون » ملك اثيوبيا بدون كبير مشقة وتري كيفية استيلائه مكتوبة بالهيروغليف نقشا على حجر وجد في اطلال مدينة « نبتة » بجبل برقل وهو محفوظ في المتحف المصري

العائلة السادسة والعشرون الصاوية

حكمت من ١٢٨٧ — ١١٤٩ ق م و ٦٦٥ — ٥٢٧ ق م وعدد ملوكها ٦

اولهم « بسامتيك الاول » استولى على الوجه البحري والقبلي حتى الشلال الاول وكان اجنياً وايس من العصية الملوكية الا انه اقترن بابنة من العائلة الملوكية فاكسب حق التملك بواسطتها . فتولى الملك ومصر تن ضعفاً وقنوطاً لما قاسته من الحروب التي توالى عليها اعواماً بين الاشوريين والاثيوبيين فاخذ في احياء ربوعها واعادة رونقها اليها فبنى المعابد في منف ووجهات معبد فتاح وفتح فيها طرقات على عمد عديدة وبني القاعة الكبيرة التي كانوا يعلقون فيها العجل « ايس » ورمم ما

كان متهدماً من معبد الكرنك . وباشر جميع هذه الاعمال دفعة واحدة فاصبحت مصر كأنها معمل عظيم للبناء والترميم ونشط على الخصوص صناعة الحفر والنقش فبلغت اوجاً رفيعاً . ثم نظر الى مناعة البلاد فرآها محاطة باعداء كثيرين اشد بأساً منها كالاثوريين والاثيوبيين فأخذ في تحصينها فبنى القلاع والحصون في مضائق طرق الشام من الشرق وفي ضواحي بركة المنزلة وفي مدينة دفنة بالقرب من « تسال » لمنع اغارة الاثوريين وحصن اصوان لدفع الاثيوبيين

على انه عمد بعد الاكتفاء بالدفاع الى الهجوم فهاجم الاثيوبيين وحاربهم فظهر عليهم ثم سار الى الشام فاستولى على فلسطين واخذ مدينة اشدود من الكنعانيين ثم عاد الى بلاده قائماً بما اوتيته من النصر . وفي ايامه كثر تردد الاجانب الى مصر وفيهم اليونان فكان يكرم مثواهم ويقطعهم من بلاده على سواحل بحر طينة ما يبتنون فيه معاقل وبيوتا يقيمون فيها

اما اليونان فاعجببتهم مصر وطاب لهم المقام فيها فاخذوا يتعلمون علومها وصنائعها واعجببتهم الديانة المصرية فاصطنعوا آلهتهم على مثال آلهة المصريين . وادخلوا احداثهم المدارس المصرية فنبغوا وقام بينهم فلاسفة لانزال نستفيد من تعاليمهم الى هذا العهد . ومن هؤلاء الفلاسفة سولون وفيثاغورس وافلاطون وغيرهم وقد كان المصريون قبل ذلك العهد ينظرون الى اليونان نظر الاحتقار ويحتنبون معاشرتهم وكانوا يبالغون جداً في وجوب الابتعاد عنهم . اما « بسامتيك » فكان يحبهم ويقربهم منه حتى جعل بطانته منهم والنف مقيمة جيشه من رجالهم فاصبحت مصر في قبضة يدهم . فعظم ذلك على المصريين الى حد لم يمكنهم معه البقاء في بلادهم ولم يجدوا سبيلاً لشفاء ما في نفوسهم الا بالهجرة من مواطنهم ومغادرتها لاولئك النزلاء فاجتمع منهم نحو ٢٤٠ الفاً . وهموا بالجللاء الى اثيوبيا فتبعهم الملك واستعطفهم ان لا يفعلوا فأتوا فقال لهم ولمن تغادرون نساءكم واولادكم قالوا اينما ذهبنا نجد نساءً واولاداً وما زالوا حتى دخلوا اثيوبيا فاستقبلهم ملكها واكرم مثواهم وادخلهم في جيشه فتألفت منهم جيوش عرفت بالاسماخ اي حجاب ميسرة الملك وسماهم اليونان بعد ذلك « انوبولس » . اما « بسامتيك » فعرف بعد ذلك خطأه فأخذ في اصلاحه فسعى في حشد الجيوش ولكن هيهات ان تعود مصر الى رونقها وكان هو الجاني على نفسه

والا توفي تولى ابنه « نحاو الثاني » فاتم تنظيم الجيوش وكان ذا نفس ابيه وهمة عالية فانشأ معامل بحرية لتشييد السفن الحربية على نية افتتاح سواحل البحر الاحمر

والمتوسط وجعل رؤساء تلك المعامل من اليونان . ولاح له لاتمام مشروعه ان يوصل البحر الاحمر بالبحر المتوسط فحفر ترعة امتدادها اربع مراحل وعرضها يسع سفينتين اولها مدينة بسطة بقرب الزقازيق وآخرها بركة التمساح لان البحر الاحمر كان على مقربة من تلك الجهة وكان قد سبقه الى هذا المشروع (حسب قول بعضهم) ملوك العائلة العشرين ففتحوا هذه الترعة لكنها سدت بعد ذلك بالرمال . وسيأتي امامك كلام مفصل عن تاريخ الوسائل التي اتخذت لايصال البحرين عند الكلام على ترعة السويس من هذا الكتاب

ثم سار نحاو بجيش لافتتاح فلسطين وافتتح معها اكثر البلاد في طريقه اليها وكانت تحت سلطة الاشوريين ولما عاد الى مصر كافأ من كان في عساكره من اليونان ثم ان ملك الاشوريين « نبوخذ نصر » ارسل ابنه بجنتصر في جيش لاسترجاع فلسطين والشام من المصريين فسار ولم يباغ مقصوده حتى بلغه موت ابيه فعاد الى بابل مسرعاً بعد ان استرجع الشام . وحاول « نحاو الثاني » بعد ذلك الاستيلاء على بلاد الشام ثانية فلم يستطع

ثم توفي وخلفه ابنه « بسامتيك الثاني » وهذا لم تطل ايام حياته فخلفه « وح ابرع » وهو الذي استنجد به « صدقيا » ملك اليهود على محاربة بجنتصر ملك بابل في عصر ارميا النبي فسارت جيوش مصر وما لبثت حتى عادت منهزمة فاستولى الاشوريون على اليهود فالتجأت اليهود الى مصر فاقطعهم ملكها ارضاً بقرب دفنة فانتشروا في مجدل ومنف وبعضهم سكن الصعيد

وبجنتصر لما استولى على الشام طمع بمصر فجاءها مهاجماً وقتل ملكها واستولى عليها واقام فيها عاملاً من امرائه وعاد الى بلاده وساق معه جميع من كان في مصر من العملاء الا ان هيرودوس المؤرخ يقول خلاف ذلك

ثم حكم مصر الملك « اموزيس » وهذا كان في خشية من غارات الفرس على بلاده ولذلك كان يحاذرهم لقوتهم على انه لم ينبج من غائلتهم فسلبوه بعضاً من بلاده لكنه بالسياسة وحسن التدبير أمن من اغارتهم على كرسي ملكه فارتاحت مصر في ايامه فاقام فيها البنايات والمعابد والمسلات واتسعت التجارة ولا سيما مع اليونان فاتهم كانوا من البارعين فيها فزاد عددهم في مصر حتى بلغ ٢٠٠ الف نفس فاعطاهم اموزيس ارضاً ابنتوا فيها بيوتاً لهم بالغوا في اتقان بنائها فاصبحت مدينة من اجل مدن مصر ثم جعلوا يحصنونها . وبعد يسير سنوا لانفسهم قانوناً مخصوصاً . وكانت تجرة مصر في ايديهم فاتسعت وباتساعها

اتسعت شهرة مصر فطمع الناس فيها فاتاها الطلاب من كل الجهات بين فلاسفة وتجار واجناد . ثم راي « اموزيس » من الحكمة ان يتحالف مع ائينا لعابها تقيده ضد ملك فارس ففعل وتم التحالف

وفي اثناء ذلك مات « قورش » ملك فارس فقام ابنه « كمبيز » مكانه وكانت مطامعه لا تزال قوية في مصر فأخذ منذ توليته الملك يسعى في هذا السبيل فاستكشف انسب طريق يؤدي الى وادي النيل برًا ولزيادة التأمين عقد معاهدات مع القبائل البدوية التي في طريقه ليمدوه بالماء الذي يحتاج اليه رجاله وبناء على هذه المعاهدات سارت الجيوش الفارسية وما زالوا حتي نزلوا امام طينة فبلغهم ان « اموزيس » توفي وتولى مكانه « بسامتيك الثالث » وهذا جهز جيوشه وعساكره عند طينة لدفع الفرس فحصلت موقعة كبيرة وكان الفرس لشدة بكرهم قد جعلوا امام جيوشهم عددا عظيما من القطط والبهزة وغيرها من الحيوانات المقدسة عند المصريين فذهب هؤلاء ولم يجسروا على رمي السهام مخافة ان تصيب تلك الحيوانات المقدسة فلم يكن لديهم الا الفرار ففروا الى منف . فارسل اليهم « كمبيز » رسلا في مركب يطلب اليهم التسليم فخرج المصريون الى ذلك المركب وكسروه اربا وقتلوا من كان فيه جميعا فاستشاط كمبيز غضبا وانتقاما فسار بجيشه الى منف وفتحها عنوة وقبض على بسامتيك وقيده واهانه واودعه السجن ومن معه وكان بسامتيك صبورا فاحتمل كل ذلك ولم يبد تضجرا فعجب كمبيز لصبره ثم اتفق بينا كان بسامتيك جالسا في السجن مقيدا وكمبيز بجانبه اذ مر به احد ندمائه السالفين مترديا بثوب خلق فتأفف بسامتيك وصفع بيده على جبهته متأسفا فقال له كمبيز ما باللك تتأسف وتتأفف الان وقد احتملت منا اهانة عظيمة ولم تبد في اثناءها اسفا . فقال انما اتأسف على حالة هذا الرجل فانه كان في عز وقد اصبحت كما ترى والرجل اذا حلت به المصائب وتجرد من ذات يده واهين شرفه يحق عليه الاسف فتأثر كمبيز من ذلك واسرع الى حل قيوده واعاد اليه شرفه الا انه رآه بعد ذلك يسعى ضده فامر بقتله فانتهت هذه العائلة وابتدت العائلة السابعة والعشرون

العائلة السابعة والعشرون

الدولة الفارسية الاولى

حكمت من سنة ١١٤٩ — ١٠٢٨ ق م او من ٥٢٧ — ٤٠٦ ق م وعدد ملوكها ٧ اولهم « كمبيز » المتقدم ذكره فهنا كان يراعي ميل الوطنيين فابقاهم على ما كانوا يعبدون واعاد الى اعيانهم امتيازاتهم وحقوقهم وتلقى اسرارهم اللاهوتية ليكون له المام

فيها و اضاف الى اسمه القاباً فرعونية وكان لفتح مصر عظيم هبة وتأثير عند الامم المجاورة فسعوا جميعاً الى كمين بالهدايا والجزية وجعل كمين مصر حصناً يستعين به في فتح افريقيا . ثم جند اقرطاجنة فلم يفز بها فعاد وجند الى واحات سيوى فلم يرجع من رجاله مخبر ثم طمع في اثيوبيا وكانت اذ ذاك على جانب من المنعة والثروة فارسل اليها جواسيس معهم الهدايا فساروا و قدموها الى ملك اثيوبيا وكان فظناً نبيها فعرف مقاصدهم لئلا يظهروا استحقاقاً لهديتهم . ثم قال لهم وفي يده قوس كبيرة « انظروا الى هذه القوس » ورمى منها سهماً وقال « خذوا هذه القوس الى ملككم كمين واخبروه ان الانسب ان يأتي هو بمفرده فقط لفصل ما تحذره به نفسه حقنا لدم العباد وهذه القوس قولوا له اني اوترتها وحدي فاذا استطاع ذلك جاز له شيء مما يكره ضميره والا فليحمد الالهة لاغضائنا عن بلاده » فلما باع كمين ذلك اخذت به سورة الغضب فجرد جيشه وطلب اثيوبياً من اقرب الطرق فسار في صحراء كروسكو وهو لا يدري مساقفها فعطش جيشه وجاع حتى اكل بعضهم بعضاً فاضطر الى العود وفي نفسه من الغيظ ما كاد يندبه فجاء منف وكان اهلها في احتفال سنوي لاحد معبوداتهم فظنهم فرحين خبيثته فامر بقتل كل الكهنة وشق صوف العجل « ابيس » والقاء للسكلاب تا كاله ثم سخر بمعبوداتهم فجعل احدها فتاح على هيئة قزم زميم الخلق ونهب جميع ما كان في المدافن القديمة وزاد فجوره حتى قتل اخته وغيرها ممن هم بريئون الساحة وهو مشهور بالقسوة والعسف . وبقي على كرسي الملك ثلاث سننات ثم قتله شعبه

وتولى بعده « دارا » فاخذ يسعى في وسيلة يستعجب بها رضى المصريين فاتفق موت العجل ابيس في اول حكمه فجاء بنفسه الى المعبد واظهر تأسفه الشديد لذلك ووعد بمبلغ وافر لمن يأتي بعجل اخر مثله فاحبه المصريون واتسعت مملكة الفرس في ايامه كثيراً فكان تحتها ٣١ ولاية وقبل ان يبارح مصر زار معبد فتاح بمنف واراد ان يجعل تمثاله بجانب تمثال رعمسيس الثاني فنعتته الكهنة بحجة انه لم يأت بعد على ما اتاه رعمسيس الاكبر فقال لهم دارا « اني ارجو ان اساوي رعمسيس الاكبر ان طال عمري بقدر عمره » وأذن دارا لقول الكهنة بكل احترام

ومن مآثره انه مهد سبل التجارة فاقم طريق التواصل بين البحرين كما ستري عند الكلام على ترعة السويس وفتح طريق قفط للمواصلات برّاً وطريق اسيوط الممتدة الى العرابة المدفونة ومنها الى اصوان واكثر من العساكر للمحافظة على الواحات الكبرى . وكان الفرس القاطنون في مصر معجوساً متعصبين فصرح لهم باتباع دينهم

على ان لا يستخدموا الكتابة الهيروغليفية على الاطلاق
ثم ثار اليونان في اسيا ففسار بجيش كبير لاقاعهم فاغتنم المصريون فرصة غيابه
وشقوا عصا الطاعة وانزلوا ولاية « دارا » وعهدوا الحكم الى رجل يدعى « خيش »
من سلالة « بسامتيك » فعلم دارا بذلك فهم اليه لكنه توفي قبل اتمام مشروعه فأقيم
ابنه « شيارش » مكانه فجاء مصر واسترجعها عنوة الا انه كان فاقرا الهمة فاطلق تدبير
الاحكام لولاية يعيشون بها كيف شاؤوا وهكذا كان شأنه في سائر ولاياته فلم تبض مدة
من الزمن حتى تجرد من سائر تلك الايلات وقتله من هم حوله وتولى الملك بعده
الملك « ارتحشارشا » فاحب المصريون الخروج من طاعته فاستنجدوا عليه اليونان
فانجدوهم فخصات حروب طويلة انتهت بانهزام المصريين وثبوت قدم الفرس
وفي سنة ٤٢٥ ق م توفي « ارتحشارشا » وخلفه الملك « شيارش الثاني » ثم
« سوغديانوس » ثم « دارا الثاني » وبه انتهت هذه العائلة وعادت مصر للمصريين

العائلة الثامنة والعشرون الصاوية

حكمت من سنة ١٠٢٨ — ١٠٢١ ق م او من ٤٠٦ — ٣٩٩ ق م
ليس لهذه العائلة الاملك واحد يدعى « اميرتيوس » ولاه المصريون عند تخلصهم
من نير الفرس وحكم مدة سبع سنين كلها اصلاح وترميم

العائلة التاسعة والعشرون الاشمونية

حكمت من سنة ١٠٢١ — ١٠٠٠ ق م او من سنة ٣٩٩ — ٣٧٨ ق م وعدد ملوكها ٤
وليس في تاريخها شي مهم سوى ان الفرس كانوا يهددونهم وقدموا يريدون
الاستيلاء عليها ولم يظفروا

العائلة الثلاثون السمنودية

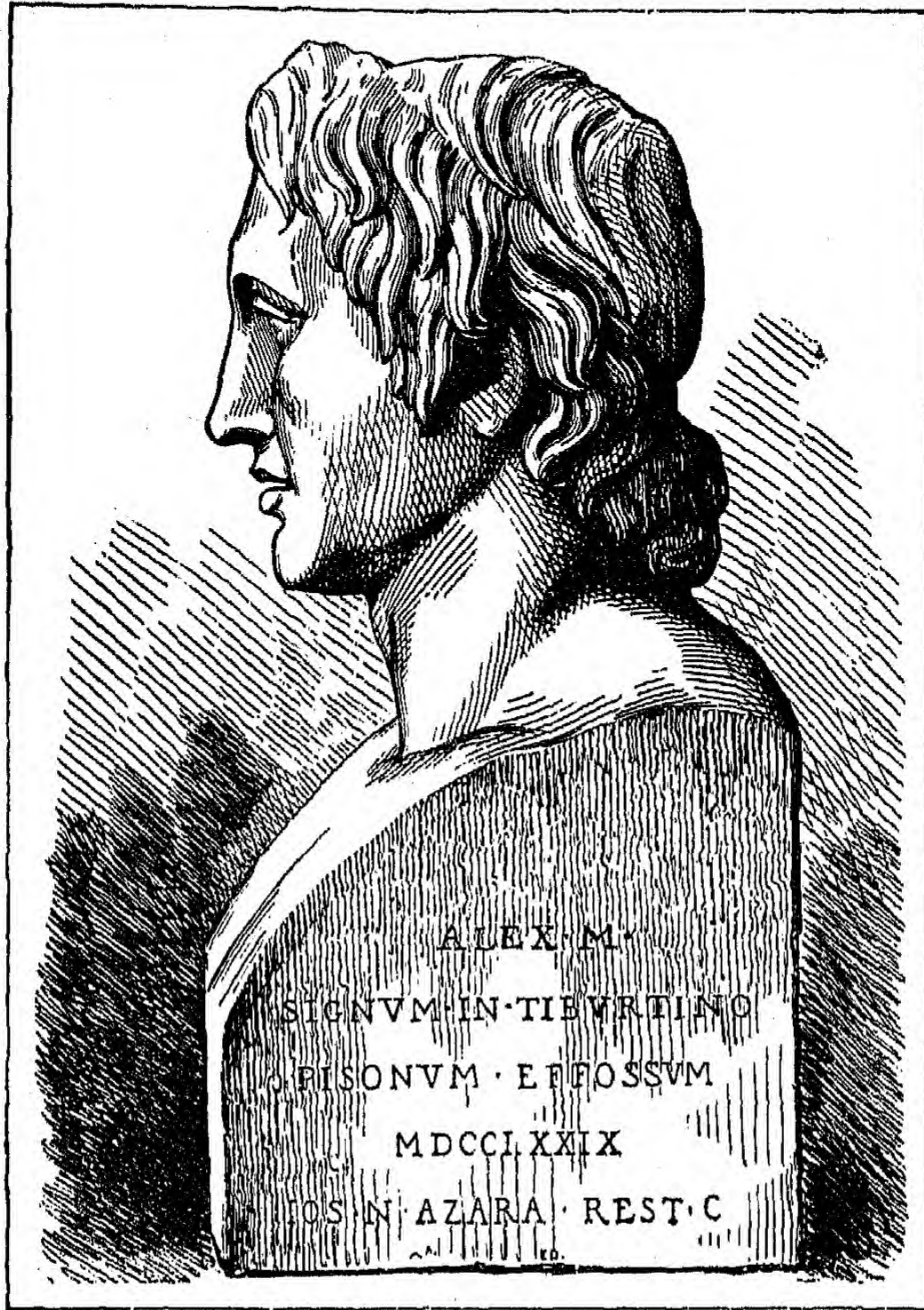
حكمت من سنة ١٠٠٠ — ٩٦٢ ق م او من ٣٧٨ — ٣٤٠ ق م وعدد ملوكها ٣
قضوا مدات حكمهم وهم بين دفاع وحذر من استيلاء الفرس وحصل بينهما عدة
وقائع كانت قيادة الجيوش المصرية فيها بيد قواد من اليونان مجريين ولم يفز الفرس
الا في الواقعة الاخيرة . وكانت حكومة مصر بيد « نكتانييس » فانهزم الى النوبة وهو
اخر من حكم مصر من المصريين الاصليين لانها خرجت من يده الى الفرس ومنهم
الى اليونان ثم الرومان ثم العرب ثم الترك كما سترى

العائلة الحادية والثلاثون

الدولة الفارسية الثانية

حكمت من ٩٦٢ — ٩٥٤ ق م او من ٣٤٠ — ٣٣٣ ق م وعدد ملوكها ٣

اولهم الملك « اوخوس » الملقب « بارتشارشا الثالث » والذي نزع مصر من يد المصريين . مات مسموماً بجاء ابنه « ارسيس » وحكم سنتين ثم مات وخلفه احد اقاربه المدعو الملك « دارا الثالث » وكان يدعى قبل توليته « كودومانوس » وكان



ش ١٥ — اسكندر المكدوني

معاصراً الاسكندر المكدوني الشهير . وفي ايامه جعلت دولة الفرس تتقهقر وبدأ يحجم اليونان بالاشراق فاخذ الاسكندر في فتوحاته وتوسيع مملكة ابيه ففتح الهند وفارس واستولى على مصر بعد موقعة انتهت بانهزام الفرس ودارا الثالث معهم وقتل كثير من رجاله ثم قتله احد نوابه فانتقل بعده حكم مصر الى اليونان .

العائلة الثانية والثلاثون

الدولة اليونانية

حكمت من ٩٥٤ — ٩٤٥ ق م او من ٣٣٢ — ٣٢٣ ق م

اول ملوكها وآخرهم « اسكندر المكدوني » . تغلب هذا الفاتح العظيم على الفرس واخرجهم من مصر ودخلها عنوة فربقعة من الارض على شاطئ البحر المتوسط من حدود مصر فاستحسن موقعها لانه رآها عبارة عن اسان من اليابسة داخل في البحر وعلى احد جانبيه بحيرة مريوط المشهورة فلاح له ان يبتني فيها مدينة فبناها على رسم مخصوص رسمه بنفسه وعهد اتمام العمل الى المهندس « نيوكراتس » فلما تم بناء المدينة دعاها الاسكندرية ولا تزال معروفة بهذا الاسم الى هذا العهد . وفي ٢٤ مايو (ايار) سنة ٣٢٣ قبل المسيح توفي هذا البطل الباسل في بابل وسنه ٣٣ سنة فنقلت جثته الى الاسكندرية ودفنت فيها

العائلة الثالثة والثلاثون

البطالة

حكمت من ٩٤٥ — ٦٥٢ ق م او من ٣٢٣ — ٣٠ ق م

بطليموس الاول سوتر حكم ٣٢٣ — ٢٨٥ ق م

لما توفي الاسكندر جاء بطليموس الاول واسمه سوتر من بابل ووضع يده على مصر وجعل يسعى في اكتساب ثقة اهلها ثم ارسل احد قواده المدعو « بيكانور » في جيش لافتتاح سوريا فسار وحارب وفاز ولم تمض بضعة سنين حتى ضم الى مصر سوريا وقبرص وفينيقية

ثم شرع في بناء المعابد في الاسكندرية واقام على جزيرة فرعون التي يصلها

بالاسكندرية برزخ صغير برجا يبلغ علوه الف ذراع على قمته نور يستضيء به القادمون
بجراً وقد هدم هذا البرج الآن ولم يبق له اثر . ومن مآثر هذا الملك مدرسة
الاسكندرية الشهيرة فانه جمع اليها العلماء والفلاسفة من اليونان وسائر بلاد العلم والصناعة
في ذلك العهد وكان يكرم وفادتهم ويضعهم في مكانهم من الهيئة الاجتماعية وانشأ
مكتبة نفيسة طار صيتها في الآفاق

بطليموس الثاني فيلادلفوس ٢٨٥ - ٢٤٧ ق م

وفي السنة التاسعة والثلاثين من حكم سوترعهد الملك لابنه البكر « فيلادلفوس »
واجلسه على كرسي الملك في حياته سنة ٢٨٥ قبل المسيح ولقبه ببطليموس الثاني
ثم توفي سنة ٢٨٣ قبل المسيح فاهتم بطليموس الثاني في توطيد العلاقات مع الدول



١٦ — فلكي اسكندري يرصد الافلاك

المعاصرة ولا سيما دولة الروم (الرومانيين) ولم يكن بينهما سابق مخبرات مطلقاً وليتها
لم تحصل لانها كانت آخر الامر داعياً لاستيلاء الروم على مصر . ثم عكف هذا الملك
على تنشيط العلم وذويه فزاد في مكتبة ابيه فبلغت الاسكندرية في ايامه مبلغاً عظيماً من
العلم والثروة ولم تعد ترى مثله بعد ذلك الحين . فقد كانت محور التجارة ومحط رحال

العلماء والفلاسفة . وفي أيامه أيضاً ترجمت التوراة الترجمة السبعينية المشهورة ومن مآثره خرائب انس الوجود عند شلال اصوان فانه هو الذي شرع في بناء الهيكل الكبير الذي تشاهد اطلاله هناك الى هذه الغاية على جزيرة فيلوي تجاه اصوان ويدعوها العامة ايضاً جزيرة البربة وهي من الآثار المشهورة وقد اشتغل في اتمام بناء الهيكل كل من جاء بعد فيلادلفوس من البطالسة

بطليموس الثالث افرجيت ٢٤٧ - ٢٢٢ ق م

وكانت مدة حكم فيلادلفوس ٣٨ سنة ثم توفي وخلفه ابنه « افرجيت الاول » ولقب ببطليموس الثالث وكان محباً للفتوح فجرد جيوشه الى اسيا مقتدياً برعمسيس الثاني فلم يكن حظه منها باقل من حظه لانه دوخ جميع البلاد التي على الفرات فبابل فالفرس فما وراءها وضرب الجزية عايتها كلها واعظم ما سر به المصريين انه استرجع من الفرس جميع ما كان منقولاً الى بلادهم من تماثيل الآلهة المصرية بامر كهيز . ثم غزا اثيوبيا حتى « ابريم »

بطليموس الرابع فيلوپاتر ٢٢٢ - ٢٠٥ ق م

وفي سنة ٢٢٢ قبل المسيح توفي « افرجيت الاول » بعد ان حكم ٢٥ سنة تاركاً الملك لابنه « فيلوپاتر » فتولى الاحكام حال وفاة ابيه واتق ببطليموس الرابع الا ان المصريين اتهموه بقتل ابيه فكرهوه وكان فظاً عاتياً فزادهم كرهاً . وبعد جلوسه بيسير سار في جيش عظيم لمحاربة انطيوخس صاحب سوريا فخاربه فطلب الصالح بان يرجع له سوريا وفينيقية فقبل فيلوپاتر وبقي هناك بضعة اشهر ثم عاد الى الاسكندرية . كل ذلك واخته « ارسينوا » معه لم تفارقه يوماً واحداً . فاصبحت الاسكندرية بعد ذلك في رغد ورخاء فعكف فيلوپاتر على الملذات ففسد واجباته المقدسة نحو البلاد فكثرت اللغط بين الاهلين وتكررت التظاهرات وايس من يحجب

وفي ٩ اكتوبر (تشرين الاول) سنة ٢١٢ ق م او سنة ٨٣٤ قبل الهجرة وضعت ارسينوا غلاماً ولم يكن من وارثي الملك غيره فما كان من فيلوپاتر الا انه قتل ارسينوا بدسيسة بعض ذويه . وفي ٢٩ مارس (اذار) سنة ٢٠٥ قبل المسيح مات فيلوپاتر واخفى اصحابه خبره حيناً ريثما يتمكنون من سلب امواله . ثم شاع خبره فاقاموا عوضاً عنه ابنه الوحيد « ايفان » وهو بطليموس الخامس ولم يكن له من العمر الا خمس سنوات فاقم عليه وصي من سرة الدولة

وفيلوپاتر هو المؤسس الاول لهيكل ادفو (فيما بين الاقصر واصوان) وقد اتم بناءه

من جاء بعده من البطالسة . والهيكल المذكور من اوضح الهياكل المصرية لانه باق برمته الا ان الرمال قد غطت جزء السفلي فترى فيه الاعمدة والرواقات والابواب مكشوفة كشفاً تاماً

فلما رأى انطيوخس حالة مصر من الارتباك بعد وفاة فيلوطر عاد الى ما كان شارعاً فيه ففتح سوريا وفينيقية عنوة وهم الى مصر فعرض له شاغل اكثر اهمية فعقد مع نواب مصر صلحاً على ان يعطي ابنته كليوبيطرا زوجة لبطليموس الخامس وان يترك له مقابل ذلك البلاد التي فتحها فقبلوا

بطليموس الخامس ابيفان ٢٠٥ — ١٨١ ق م

وفي ٢٧ مارس سنة ٢٠٥ قبل المسيح أجلس « ابيفان » على كرسي الملك وسلم زمام الاحكام فكتب الكهنة شيئاً عن ذلك نقشاً على حجارة في ثلاث لغات كانت متعارفة في ذلك العهد وهي الهيروغليفية (القلم المصري القديم) والديموطيقية واليونانية وقد وجد احد هذه الحجارة في رشيد وبواسطته توصلوا الى حل رموز القلم المصري القديم كما مرّ بك . وفي سنة ١٩٢ زفت « كليوبيطرا » ابنة « انطيوخس » الى ابيفان بطليموس الخامس . وفي نحو السنة الثامنة عشرة من حكمه زادت التشكيكات والتظلمات لسوء تدبيره وضعفه وما زال الاهلون يزيدون عليه حنقاً وحقداً حتى يتسوا من الاصلاح فاماتوه مسموماً في سنة ١٨١ قبل المسيح

بطليموس السادس فيلومتر ١٨١ — ١٤٦ ق م

فتولى مكانه ابنه « فيلومتر » وهو بطليموس السادس وله من العمر خمس سنوات فحكم تحت رعاية امه كليوبيطرا فاقامت له اوصياء من رجال دولته العقلاء . وفي السنة الحادية عشرة من حكمه انتشبت الحرب بين مصر وسوريا وما زالت بينهما سجالاً حتى انتهت بانهزام المصريين واسر ملكهم فيلومتر . وسار السوريون في مصر براً الى منف اما الاسكندريون فلما علموا بسقوط منف واسر ملكهم اقاموا عوضاً عنه اخاه افرجيت الثاني وبعد اربع سنوات أخرج السوريون من مصر بمساعدة الروم وعادت مصر لحكم البطالسة فعاد فيلومتر الى منصبه

بطليموس السابع افرجيت الثاني ١٤٦ — ١١٧ ق م

وفي سنة ٧٦٨ قبل الهجرة او ١٤٦ قبل المسيح توفي فيلومتر بعد ان حكم ٣٥ سنة فاقم على مصر « افرجيت الثاني » وهو بطليموس السابع وقد كان الحق في

الحكم لابن فيلوماتر الا انه كان صغيراً فقتله عمه وتزوج بامه فكان الوريث الوحيد ولم يكن افرجيت الثاني حسن السياسة فكان يقتل ويسجن ويستبد في احكامه بغير وجه حق فكرهته الرعية وصاروا يتوقعون له داهية وبالغوا في اضطهاده الى حد انه لم يعد يمكنه البقاء بينهم ففر من مصر ثم عاد اليها وما زال حملاً ثقيلاً على عاتق رعيته الى آخرايام حكمه فاهتدى الى الصراط المستقيم واخذ في تنشيط العلم والصناعة حتى انه كان يمارسهما بنفسه والف نحواً من اربعة وعشرين كتاباً معظمها في علم الحيوان

بطليموس الثامن والتاسع سوتر الثاني واسكندر ١١٧ - ٨٢ ق م

وفي سنة ٢٣٩ قبل الهجرة او سنة ١١٧ قبل المسيح توفي افرجيت الثاني بعد ان حكم ٢٩ سنة فاستدعت كليوبيطرا اولادها وكان البكر في قبرص فأتى مصر فولته الملك ودعته « سوتر الثاني » ويسميه العرب « شوطار » فهو بطليموس الثامن ثم سعت في ابعاده اغرض في نفسها فاشاعت انه مضمهر قتلها فنارت الرعية عليه ففر الى قبرص ثم الى سوريا فاستدعت اخاه « اسكندر » وولته الملك فكان بطليموس التاسع فيخاف على نفسه ايضاً ففضل الاعتزال على اخطار الملك ففر الى قبرص وكان اخوه « سوتر الثاني » في سوريا يستعد للهجوم على مصر فلما رأته كليوبيطرا قرب مجيء الجيوش لمحاربتها اخطرت ابنها اسكندر فعاد من قبرص وبعد يسير عادت الامور الى مجاريها اما كليوبيطرا فكانت رغم كل عاطفة والدية تحاول التخلص من ابنها هذا . اما هو فعلم بما في نفسها وسبقها الى ذلك فذهب بحياتها وفر من مصر فاستدعى اهالي الاسكندرية سوتر الثاني من سوريا ليستلم زمام الاحكام فقدم فرحب به المصريون الا اهالي طيبة لكنهم ما لبثوا ان اذعنوا

وفي ايام سوتر هذا كانت مملكة الروم آخذة في الاتساع ودولتهم بالقوة والثروة ثم مات سنة ٨٢ قبل المسيح بعد ان حكم في المرة الاولى عشر سنوات وفي الثانية سبع سنوات ونصف

بطليموس العاشر اسكندر الثاني ٨٢ - ٨٠ ق م

فتولى مكانه ابنه « اسكندر الثاني » او بطليموس العاشر ولم يحدث في ايامه ما يستحق الذكر الا ان دولة الروم كانت قد استولت على سوريا وسيرينيا وليبيا واليونان فاصبحت مصر محصورة لا تستطيع حراكاً وكان اسكندر هذا ساعياً جهده في ارضاء الرعية لكنهم لم يكونوا يحبونه بل كانوا يرون فيه العسف والظلم

وما زالوا عليه حتى ابعده من الاسكندرية فسار الى صور فاعتراه مرض اشتد عليه حتى ذهب بحياته

بطليموس الحادي عشر اوليتس ٨٠-٥٢ ق م

ولم يبق من العائلة المالكية من يحكم بعد اسكندر فاتخب الاسكندريون رجلاً منهم يدعى « ديونيسيوس » واقتبوه « باوليتس » لانه كان مغرمًا بالفلوت (الآلة الموسيقية المعروفة) ولم يكن يهتم امر الملك على ان مصر كانت بحاجة الى الحكمة والتدبير . كان يهددها من المخاطر فتار الاهالي عليه في طاب الاصلاح وهو غير قادر عليه ولم يكن في وسعه اخاد الثورة لان الجيوش الذين هم حامية البلاد كانوا في جملة الثائرين فترك مصر وفر الى رومية . وكان له ابنتان الواحدة تدعى « كليوبيطرا » والاخرى « برنيس » وبعد بضعة اشهر ماتت الاولى (كليوبيطرا) فتولت الثانية مدة سنتين فعلم اوليتس بذلك فعاد الى مصر وقتل ابنته قصاصاً لها على اختلاسها الملك

آخر البطالسة كليوبيطرا ٥٢ - ٣٠ ق م

وبعد يسير توفي اوليتس فتولت ابنة له ثالثة اسمها ايضاً كليوبيطرا وكانت بالغة رشدها ولولا ذلك لتولى اخوها ديونيسيوس الثاني وقد كان لحرسه ان يتولى مكانه الا ان كليوبيطرا جاست على كرسي الملك حالاً ودعت نفسها ملكة وكانت مدة حكمها ٢٢ سنة وهي آخر من حكم من الدولة اليونانية في القطر المصري . وكان لهذه الملكة مطامع في السيادة وقد ماكت رغم مشقات كثيرة كانت تحول بينها وبين ما تريد ففي اول الامر نازعها احد اخوتها ووافقه الاهلون فاخرجوها من مصر فسارت الى سوريا واستجدت بجيوش الروم فساعدوها يوليوس قيصر القائد الروماني الشهير واعادها الملك واغرق اخاها في النيل فتولت وتزوجت اخاها الآخر . ثم سارت برفقة قيصر الى رومية وبقيت عنده الى يوم قتله سنة ٣٠ ق م ولما جاء يوليوس قيصر الاسكندرية زار قبر الاسكندر وكشف عن جثته ووضع عليها اكليلاً كما ترى في الشكل ١٧ وفي سنة ٤٣ قبل المسيح قتل كليوبيطرا اخاها بالسم فخلاها الجوشم اتفق ان « انطونيوس واكتافيوس » القائدين الرومانيين كانا في حرب مع « بروتس » فامتد هذا الاخير بعمارة بحرية وكانت قبل ذلك قد ولدت ولداً دعتة قيصر ونسبة الى قيصر والده فكان هو الملك على مصر رسمياً



ش ١٧ — يوليوس قيصر امام جثة الاسكندر

فاما باغ انطونيوس وهو في طرسوس ان كليوبيطرا انجذت بروتس عدوه بالمال والرجال خلافاً للمعاهدة استدعاها الى طرسوس المرافعة فركبت زورقاً جميلاً مزخرفاً جوؤه من ذهب ومجاذيفه من فضة تخرج عند التجذيف بها صوتاً موسيقياً مطرباً وكانت كليوبيطرا من اجل النساء فلبست افخر مالدورها من اللباس الثمين وجعلت حولها الجواري في احسن ما يكون من الترتيب والنظام ونشرت الارواح العطرية في ذلك الزورق . فلما بلغت طرسوس وشاهدها انطونيوس شغف بها ولم يعد يخالف لها امراً فاصدر الحكم كما شاءت وشاء الغرام فعادت الى مصر غائمة

وبعد يسيرزارها انطونيوس في الاسكندرية فاكرمت مثواه فدعاها ملكة الملوك يودعى ابنها قيصر ون ملك الملوك بدعوى انه ابن قيصر بحسب الشرع وكان ذلك سنة ٣٦ قبل المسيح فزادت كليوبيطرا عجباً على عجب ولم تعد تكتفي باقب الملوك

فدعوها ايزيس الالهة الجديدة . واما انطونيوس فانساه الغرام كل واجباته ولم يعد يعلم اهو نائب القيصر ام هو ملك مصر لانه اصبح اسيراً لكليوباترا وكتب اسمه بجانب اسمها

والا بلغ ذلك المشيخة الرومانية اشتهرت الحرب على مملكة مصر سنة ٣٢ ق م فبعثت اوكتافيوس بجيش وجعات نقطة المحاربة في « فارتو » و « برنديزي » فلم يقبل انطونيوس بذلك وطاب ان تكون الحرب في فرساليا ثم أعد جيشه وسار في خمسمائة مركب وسارت معه كليوباترا في ستين مركباً فالتقى الجيشان في اكتيوم باليونان وابت كليوباترا الا ان تكون الحرب بحراً

ثم انها خشيت ان تعود العاقبة على جيش انطونيوس فانسحبت بمراكبها شيئاً فشيئاً وكان انطونيوس مهتماً بأعداد المهمة الحربية غير مبال بالموت في جانب مرضاة سألبة ليه ثم التفت الى مراكبها فاذا هي بعيدة تخترق عباب البحر فاقتفى اثرها تاركاً رجاله يحاربون ولا يدرون بقره وما زال حتى ادركها وسار بها الى مصر اما الحرب فانتت بانكسار جيوش انطونيوس

ثم رات كليوباترا ان محبها انطونيوس لا يقوى على حمايتها فالتجأت الى الجانب الاقوى فارسلت صولجانها سرّاً الى اوكتافيوس وطابت مساعدته فوعدها بما تريد بشرط ان تخلص من انطونيوس فعمدت الى الحيلة فاخفت نفسها وكل امتعتها واشاعت انها ماتت فلما علم انطونيوس بذلك لم يعد يهوى الحياة بعدها . ثم بلغته خيانتها فقتل نفسه

اما اوكتافيوس فاستلم زمام الاسكندرية ونوى بكليوباترا سوءاً فاجست هي خيفة منه وجعات تستجلبه بما استجابت غيره من قبله فلم تفز وفي آخر الامر قبض عليها ففضلت الانتحار على ان يقتلها غيرها فقربت ثعباناً ساماً الى صدرها فلدغها فماتت في ١٥ اغسطس (آب) سنة ٣٠ قبل المسيح وقال آخرون في كيفية موتها غير ذلك والله اعلم

وكانت مدة حكمها ٢٢ سنة وكان ذلك اليوم آخر حكم اليونان بمصر واول حكم الروم فيها وهي :

(انظر الصورة في الصفحة القابلة)



ش ١٨ — كليوباترا والثعبان يلدتها

العائلة الرابعة والثلاثون

الدولة الرومانية

حكمت من ٦٥٢ — ٢٤١ ق هـ أو من ٣٠ ق م — ٣٨١ ب م

لما ماتت كليوباترا على ما تقدم دخلت مصر في حوزة دولة الروم وصارت ولاية من ولاياتهم يتولاها وال منهم يحكم بمقتضى شرائعهم وهذه الدولة هي آخر دول الدور الجاهلي وقد توالى على مصر في حوزة دولة الروم عدة ولاة ليس في سرد اخبارهم ما يستحق الذكر سوى ظهور الديانة المسيحية في العالم ومجيء بعض نصرائها الى مصر وما لاقوه فيها من الاضطهادات العنيفة واشهر تلك الاضطهادات اضطهاد ديوقليطيانس فانه بالغ في مطاردة المسيحيين وقتل منهم جمعا غفيرا

بين كهنة وعامة . ومن تولية هذا الملك (في ١٣ يونيو (حزيران) سنة ٢٨٤ ب م)
يبتدىء التاريخ القبطي المعروف بتاريخ الشهداء وهو المعول عليه عند الطائفة القبطية
الى هذا العهد . وفي سنة ٣٠٦ ب م جعل قسطنطين امبراطور الروم سرير ملكه في
مدينة بيزانس (القسطنطينية) فأنحطت سطوة مصر
وفي سنة ٢٤١ ق هـ او ٣٨١ ب م نهى الامبراطور « ثيودوسيوس » المصريين



ش ١٩ — ثيودوسيوس الأكبر

عن عبادة الأصنام وامرهم باتباع الديانة المسيحية وانفاذاً لامره هذا اسرع في هدم
الهياكل وتنزيل الانصاب وابطال التقاليد التي كان يعتبرها المصريون من ضروريات
التدين وكل ذلك بمساعدة بطريرك الاسكندرية ثيوفيلوس . وهنا ينتهي الدور الجاهلي
ويبتدىء الدور المسيحي

الدور المسيحي

من سنة ٢٤١ ق هـ — ١٨ ب هـ او من ٣٨١ — ٦٤٠ ب م

لما توفي «ثيودوسيوس» سنة ٣٩٥ ب م قام ولده «هونوريوس» و«اركاديوس» واقتسما المملكة الرومانية بينهما فجعلاهما مملكتين شرقية وغربية وجعلاهما عاصمة الشرقية بيزانس وعاصمة الغربية رومية وكان كلاهما حاكماً معاً في وقت واحد اما مصر فكانت تابعة للمملكة الشرقية

وكان هذا الانقسام رمزاً عن قرب انحلال هذه الدولة لان الامبراطورين ما فتئتا يتناظران والانقسامات الدينية تزيد كل يوم والحرب قائمة سجالاً بين لاهوتي الاسكندرية . وكان لكل من الفريقين احزاب حجة وكثيراً ما اشتد الخصام بين هذه الاحزاب في الاسكندرية قال الى اشهار السلاح واهراق الدماء وكان الامبراطوران عبثاً يحاولان التوفيق بينهما

وكان النصراني اذ ذاك قسمين متباينين في اجناسهم وعقائدهم احدهما اهل الدولة وكلهم روم ورايهم وديانهم باجمعهم الديانة الملكية وعدتهم تزيد على ثلثمائة الف رومي

والقسم الآخر عامة اهل مصر ويقال لهم القبط وانشابهم مختلطة لا يكاد يتميز منها القبطي من الحبشي من النوبي من الاسرائيلي الاصل من غيره وكلهم يعاقبة فمنهم كتاب المملكة ومنهم التجار والباعة والاساقفة والقسوس واهل الفلاحة والزرع واهل الخدمة والمهنة وبينهم وبين الملكية اهل الدولة من العداوة ما يمنع تراوجهم ويوجب قتل بعضهم بعضاً وعددهم عدة ملايين وهم بالحقيقة اهل مصر اعلاها واسفلها وفي سنة ٦١٠ للميلاد تولى عرش القسطنطينية الامبراطور هرقل والمملكة لا تزال آخذة بالتقهقر وكانت طائفة القبط قد ظهرت على سواها واتضح انها ستكون المؤسسة للديانة المسيحية في مصر . على ان دولة الروم كانت ترغب في جعل المصريين على مذهبها في الدين لتثبت لها مصر لكن اولئك لم يغفلوا عن هذا فثبتوا على مبادئهم وحفظوا لغتهم وحافظوا على شريعتهم الدينية فترجوا جميع تعاليمها اليها ولا

يخفى ان ذلك جمع كلمتهم وشده عرى اتحادهم فبقوا وثار في خاطرهم امر الاستقلال وقد كان في وسعهم الحصول عليه لو طابوه
ومما كان زاد الاقباط ثبوتاً ضد الروم انهم كانوا يشاهدون قرب سقوط هذه الدولة وما كان يهددها من جميع الجهات فالفرس هددوا حدودها الشرقية والمغاربة كانوا ينتظرون اول فرصة لرفع النير عنهم وهكذا غيرهما من الولايات . الا ان التقادير كانت تعد هذه البلاد لامة حديثة نشأت في شبه جزيرة العرب نعتي الامة الاسلامية



ش ٢٠ — هرقل امبراطور الروم وجنوده

وكانت شبه جزيرة العرب في ذلك العهد جزءاً من مملكة الروم كسائر بلاد سوريا وفلسطين ومصر الا انهم لم يكونوا يسكنون فيها ولا يعتنون بها على انهم لم يأخذوها بالحرب وانما كان تسلطهم عليها مجرد عظمته ونفوذهم ولذلك لم يكن فيها حاميات من جنودهم . وهنا ينتهي الدور المسيحي ويبتدىء الدور الاسلامي وهو تاريخ مصر الحديث

تاريخ مصر الحديث

فصل في

مصادر تاريخ مصر الحديث

لم أر بين المؤرخين الكثيرين الذين كتبوا في تاريخ مصر الحديث من جاء على كتابة وافية تتعاقب فيها الحوادث بتعاقب السنين مع علاقة ذلك بعموم الدولة الاسلامية وسائر الدول المعاصرة . فبين مؤرخي المشرق ولا سيما العرب من اسهب في الكلام عن بعض اقسام مصر وعني بتاريخها على انفراد . ومنهم من انفرد بتاريخ بعض دول مصر دون البعض الاخر ومنهم من اقتصر على تراجيم بعض مشاهير حكام مصر او علمائها او ادبائها ومنهم من وصف بعض وقائعها وحروبها بقطع النظر عن تعاقب السنين ومنهم من نظر الى تناسق الحوادث مع نسبتها لتعاقب السنين لكنه اوجز كثيراً فلم يأت بالفائدة المطلوبة ومنهم من جاء على تاريخ مصر عرضاً في اثناء تاريخ الدولة الاسلامية عموماً . فكان قوله متفرقاً فضلاً عن كونه موجزاً

اما مؤرخو الغرب (الافرنج) ولا سيما المتأخرون فقد اتخذوا في كتاباتهم عن مصر اسلوباً اقرب الى المقصود من قبيل تناسق الحوادث وتعاقبها بتعاقب السنين مع بعض الاسهاب ولكنهم في الغالب لا يضبطون الاعلام لان حروف لغاتهم لا تساعدهم على ذلك وقد يغفلون المخاطبات البليغة التي كان يتكاتب بها الخلفاء والامراء والخطب الفصيحة التي كانوا يلقونها في مجالسهم او على جنودهم او اذا لم يغفلوها فانهم يضعونها في لغة قومهم فتخسر بلاغتها ورونقها العربي فاذا اريد ترجمتها الى العربية لا يتفق ان تأتي مثل اصلها تماماً

فرايت ان لكل من الطرفين حسنات فجمعت بينها ملتزماً صحة النقل وانتقاء اصح الروايات وتطبيق كل ذلك على الاحكام التاريخية مع مراعاة الممكنات واغفال ما هو مقول بغير قياس ومناقض لاحكام العقل بين مبالغات واختلاقات وتقاليد

فزادت المؤلفات التي اخذت عنها كتابي على بضع عشرات فضلاً عن القواميس الكبيرة
وهناك جدولاً فيه اسماء اشهر المؤلفات العربية والافرنجية التي استعنت بها في
تأليف هذا التاريخ :

الكتب العربية

اسم المؤلف	اسم الكتاب	اسم المؤلف	اسم الكتاب
المقر يزي	الخطط	عجائب الآثار	الجبرتي
ابن الاثير	الكامل	بدائع الزهور	ابن اياس
شهاب الدين المقدسي	الروستين	خطط مصر	علي باشا مبارك
ابن العميد	تاريخ المسلمين	التبر المسبوك	السخاوي
ابن خلدون	ديوان العبر	تاريخ الدولة العثمانية	ابراهيم الطيب
ابن خلكان	وفيات الاعيان	مصر للمصريين	سليم خليل النقاش
ابن شاكر	فوات الوفيات	تاريخ السودان	نعوم بك شقير
الاسحقاقي	اخبار الأول	هيرودوتس	ترجمة بسترس
عبد اللطيف البغدادي	الافادة والاعتبار	الامة القبطية	يعقوب نخله
ابو المحاسن	النجوم الزاهرة	الخريدة النفيسة	احمد الرهبان
المسعودي	مروج الذهب		

الكتب الافرنجية

تاريخ الحروب الصليبية	مونروند	فرنساوي
» مصر الحديث	مارسل	»
» الحملة الفرنسية	اميديه ريم	»
» محمد علي	بوه	»
الانبياء الثلاثة (عربي وغردون والمهدي)	مونرو	»
المشرق ومصر	دافاسيه دي بونته	»
نظرة في مصر	كلوت بك	»
تاريخ الدوائر الصحية المصرية	نوتوسوس بك	»
الآثار المصرية	مري	انكليزي

انكليزي	شارب	تاريخ مصر القديم
»	سلاطين باشا	السيف والنار في السودان
»	شارلس رويل	الحوادث المصرية الاخيرة
»	باتون	تاريخ الممالك الى وفاة محمد علي
»	جمعية الرسائل الدينية	المملكة العثمانية
		الانسيكلوبيديا البريطانية وغيرها من القواميس الشهيرة

جغرافية مصر الحديثة

حدود مصر واقسامها

كانت المملكة المصرية قبل انسلاخ الاقطار السودانية عنها تمتد شمالاً الى البحر المتوسط وجنوباً الى قرب خط الاستواء حيث الجبال الزرق وبحيرة البرت نيانزا وشرقاً تبتدىء من العريش على ساحل البحر المتوسط وتسير جنوباً فتضم شبه جزيرة سيناء وخليج العقبة حتى تلتقي بالبحر الاحمر مقابل راس بنار على ساحل البحر الاحمر الغربي ومن هناك تمتد الى مصوع نخليج عدن حتى بربرا اما في تلك الانحاء الجنوبية فسلطة الخديوي لم تكن تتجاوز الشطوط فضلاً عن ان الحبشة وقبائل اخرى هناك كانت مستقلة . وغرباً من راس الكنائس عند البحر المتوسط مخترقة صحراء ليبيا حتى دارفور ثم تنعطف شرقاً الى الجبال الزرق اما بعد الحوادث السودانية الاخيرة فانحصرت المملكة المصرية في القطر المصري ويحدّه شمالاً البحر المتوسط وجنوباً الشلال الثاني (وادي حلفا) وشرقاً قنال السويس فالبحر الاحمر وغرباً راس الكنائس وصحراء ليبيا

وينقسم القطر المصري الآن الى قسمين عظيمين هما الوجه القبلي والوجه البحري او مصر العليا ومصر السفلى تفصل بينهما القاهرة وكل من هذين القسمين يقسم الى اقاليم او مديريات في كل منها مدينة كبيرة تقيم فيها حكومة تلك المديرية وعلى كل من هذه المديريات حاكم يدعى مديراً وهاك اسماء المديريات وقواعدها وعدد سكانها حسب احصاء سنة ١٩٠٧

المديريات وقواعدها

أولاً الوجه البحري		
اسم المديرية	اسم قاعدتها	عدد سكان المديرية
القليوبية	قليوب	٤٣٤ ٥٧٥
المنوفية	شبين الكوم	٩٧١,٠١٦
الغربية	طنطا	١,٤٨٤,٨١٤
البحيرة	دمهور	٨٣٠,٠١٥
الشرقية	الزقازيق	٨٨٦,٣٤٦
الدقهية	المنصورة	٩١٢,٤٢٨
ثانياً الوجه القبلي		
الجيزة	الجيزة	٤٦٠,٠٨٠
بني سويف	بني سويف	٣٧٦,٣١٢
الفيوم	الفيوم	٤٤١ ٥٨٣
المنيا	المنيا	٦٦٣ ١٤٤
السيوط	السيوط	٩٠٧ ٤٣٥
جرجا	سوهاج	٧٩٧ ٩٤٠
قنا	قنا	٧٨٠ ٨٤٩
اسوان	اسوان	٢٣٤ ٦٠٢
ويشتمل القطر المصري عدا عن المديريات المذكورة على مراكز مستقلة باحكامها		
يسمونها محافظات وهي مع عدد سكانها		
اسم المحافظة	عدد سكانها	
القاهرة	٦٥٤ ٤٧٦	
الاسكندرية	٣٣٢ ٢٤٦	
بور سعيد	٤٩ ٨٨٤	
الاسماعيلية	١١ ٤٤٨	
العريش	١٨ ٦٣٧	

١٨ ٣٤٧

٢٥ ٠٨٢

السويس

سينا

السودان المصري

اما السودان المصري فقد قسم بعد استقلاله عن مصر الى مديريات لـكل منها مركز وهذه اسماءها مع اسماء بنادرها

المديرية	البندر	المديرية	البندر
الخرطوم	الخرطوم	سنار	سنيجا
بربر	الدامر	كسلا	كسلا
دقنة	مروى	اعالي النيل	كودوك
وادي حلفا	حلفا	بحر الغزال	واو
البحر الاحمر	بورسودان	كردفان	الايض
النيل الايض	الدويم	منجلا	منجلا
النيل الازرق	واد مدني		

سكان مصر

بلغ عدد سكان مصر بناء على تقويم سنة ١٨٨٢ نحو ٧٤٧ ٨٠٩ ٦ نفساً منهم ٩٠٨٨٨ من الاجانب . وبلغ حسب احصائها سنة ١٩٠٧ نحو ١١ ٣٠٠ ٠٠٠ من النفوس الوطنيين منهم ١١ ١٥٠ ٠٠٠ والاجانب ١٥٠ ألفاً . وهم على الاكثر يونانيون وايطاليون وانكليز وفرنساويون واتراك اما العربان المقيمون بالقطر المصري فمعدودون في الوطنيين ويبلغ عددهم ٦٠٠ ٠٠٠ وغالبهم بدو يقطنون الخيش بالقرب من المزارع والرحالة منهم يبلغ عددهم سدس مجموعهم

ويظهر ان عدد سكان مصر في عهد المصريين القدماء لم يتجاوز هذا العدد قال هيرودوتس المؤرخ انه كان في مصر على عهد الملك اماسيس ٢٠٠٠٠ مدنة . وقال ديودوروس ان عدد السكان بلغ سبعة ملايين ويوسيفوس يقول سبعة ونصف . اما في الدولة الاسلامية فبلغ عددهم نحو ٢٠ ٠٠٠ ٠٠٠ نفس ثم انحط في عهد المماليك الى ثلاثة ملايين واخذ في الزيادة من عهد المغفور له محمد علي باشا ولا يزال يتزايد الى اليوم

مزروعات مصر

تقسم مزروعات القطر المصري الى المزروعات السنوية والاشجار وقد حسب عدد هذه المزروعات على وجه العموم فبلغ نحو ١٣٠٠ نوع فمن المزروعات السنوية القمح والشعير والذرة والدخان والارز وقصب السكر والفلوالعدس والحمص والتمس والبشلة والباميا واللوييا والبلابل والبصل والكرات والتوم والخبيزة والخس والكرمب والباذنجان والرشاد والفجل والخيار والقثاء وعبد اللاوي والعجور والشمام والبطيخ والجزر واللفت والبرسيم والحلبة والقطن والكتان والقنب والقرطم والسهم والنيلة والحناء والفوة والافيون والخردل والكزبرة والبقدونس وغيرها ومن الاشجار النخل والبرتقال والمندرين (يوسف افندي) والليمون والتين والحميز والموز والمشمش والخوخ والرمان والتوت والعنب والزيتون واللوز والسنتط والطرفة والخرنوب والنبق والدوم والبنخ وغيرها ومعظم هذه الاشجار كان معروفاً لدى المصريين القدماء الا ان بعضها قد دخل الى البلاد حديثاً منها البنخ وهو مزروع على معظم الشوارع العمومية في المدن الكبيرة للانتفاع بظله

حيوانات مصر

تقسم الى الحيوانات الداجنة والحيوانات البرية فالداجنة منها الجمل والفرس والحمار والبغل والجاموس والبقر والضأن والماعز والخنزير والكلب والهر والدجاج والديك الهندي والوز والحمام . ومن الغريب ان الجمل والجاموس والضأن والدجاج لم تكن معروفة لدى المصريين القدماء والحيوانات البرية منها الخنزير البري والضبع والغزال وبقر الوحش وكبش الجبل وابو الحسين والذئب والثعلب والققط البري والنمس والارنب والوطواط والتمساح وحيوانات اخرى من الطيور والزحافات والاسماك لا حاجة بنا الى ذكرها

الدور الاسلامي

دولة الخلفاء الراشدين

معرفة عمر بن الخطاب

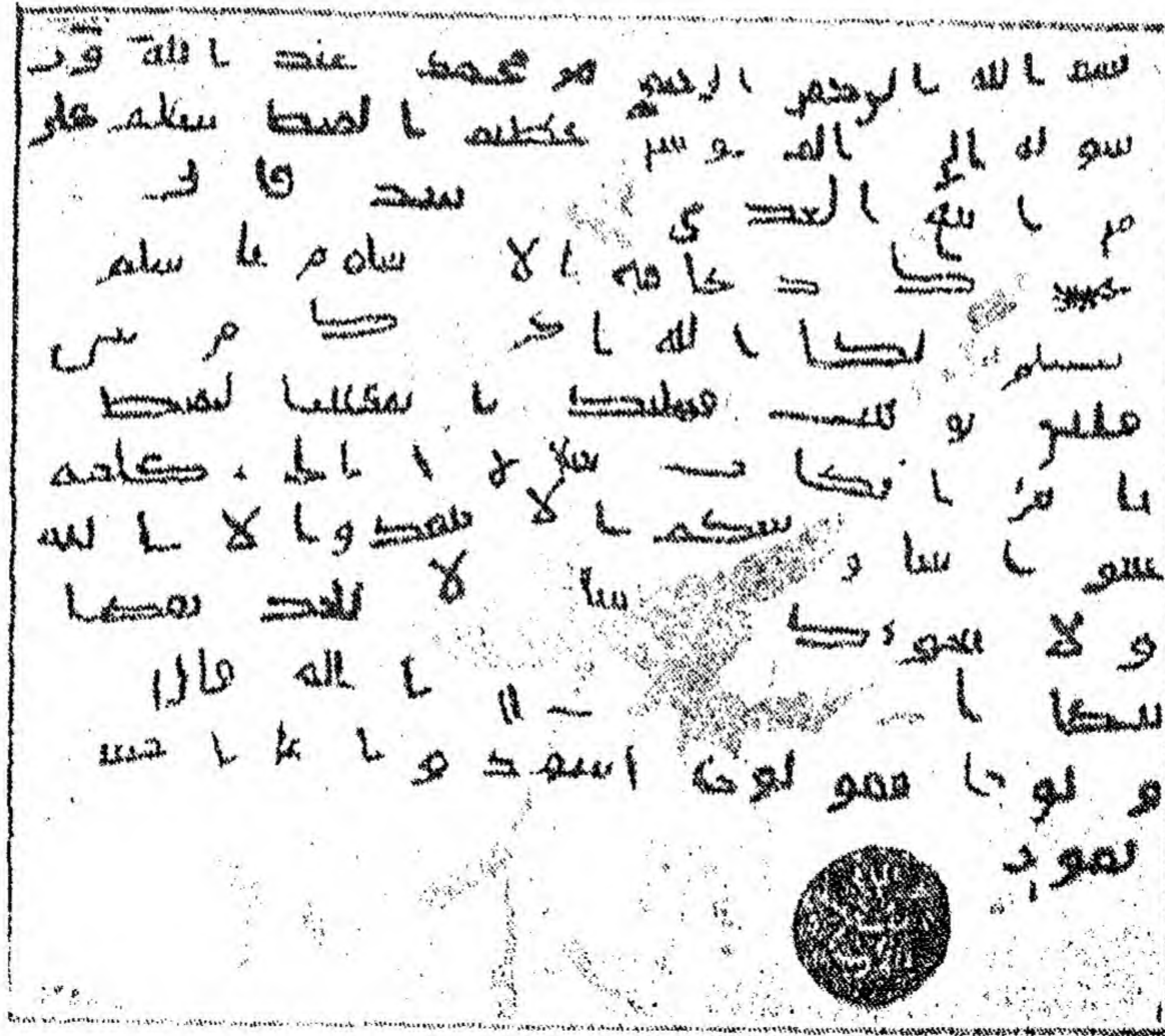
من سنة ١٣ هـ - ٢٣ هـ او ٦٣٤ - ٦٤٤ م

مبدأ الدولة الاسلامية

وفي خلال تلك الانقسامات الدينية في مصر كانت نشأة حضرة صاحب الشريعة الاسلامية محمد الهادي بن عبد الله القرشي . ولد في مكة المشرفة نحو سنة ٥٦٩ ميلاد المسيح وهاجر الى المدينة في ١٦ يوليو (تموز) سنة ٦٢٢ ومن هذا اليوم يتبدى التاريخ الاسلامي وهو تاريخ الهجرة النبوية المعول عليه الآن . وفي آخر السنة السادسة للهجرة كتب الى الامبراطور هرقل ملك القسطنطينية كتاباً يدعو فيه الى الاسلام وكتب مثل ذلك الى سائر ملوك العرب والعجم وفي جملتها كتاب الى المقوقس يوحنا بن قرقت حاكم مصر من قبل ملك الروم فبعث اليه المقوقس اربع جوار منهن مارية ام ابراهيم ابنه فكان ذلك اول الصلات بين دولة العرب ومصر ثم كانت الغزوات والفتوح المشهورة حتى السنة الحادية عشرة فتوفي صاحب الشريعة وبويع الخليفة ابوبكر الصديق فعمل على استمرار الفتوح حتى كانت خلافة عمر بن الخطاب سنة ١٣ هـ او ٦٣٤ م

فما لبث الاسلام ان ظهر في شبه جزيرة العرب حتى انتشر بسرعة غريبة الى العراق وفارس والشام وفلسطين وغيرها جهاداً في سبيل الدين في مدة لا تتجاوز ثماني عشرة سنة

فلما رأى الامبراطور هرقل ما كان من افتتاح العرب لسوريا وغيرها من بلاده عنوة اوجس خيفة على باقيها ولاسيما مصر الا انه لم يكن في حسبان ان العرب يقدمون الى مصر مفتحين حالاً على اثر فتوحهم الكثيرة فعقد بينه وبين الخليفة عمر بن



ش ٢١ — النسخة الاصلية لكتاب النبي الى المقوقس زعم بعض المستشرقين انه
وجدها في الصعيد (راجع الهلال سنة ١٣ صفحة ١٠٣ و ١٦٠)

الخطاب معاهدة ما لها ان يدفع جزية سنوية معلومة لخزينة المسلمين قبالة اغضائهم
عن فتح مصر . الا ان هذه الجزية لم تكن تدفع في حينها وبالقدر المعين فاعتبر
الخليفة تلك المعاهدة منقوضة

فتح مصر . سنة ١٨ هـ او ٦٤٠ م

وكان عمر وبن العاص لا يفتقر عن ترغيب الخليفة عمر بن الخطاب في مصر وافتتاحها
لانه كان قد جاءها قبل ان يعتنق الاسلام وراى فيها من العظمة والمجد ما جعله
شديد الرغبة في افتتاحها وكان يقول له « انك ان افتتحتها كانت قوة المسلمين وعوناً
لهم وهي اكثر الارض اموالاً واعجز عن القتال والحرب » وكان الامام عمر يتخوف
من ذلك ولا سيما بعد ان عقد المعاهدة بينه وبين هرقل لكنه بعد ان نقضت على ماتقدم
راى ان يجيب طلبه فانفذ اليه ابن يسير باربعة الاف رجل اشداء وقال له « سر اني
مستخير الله في سيرك وسيأتيك كتابي قريباً ان شاء الله تعالى فان ادركك كتابي آمرك
فيه بالانصراف عن مصر قبل ان تدخلها او شيئاً من ارضها فانصرف وان انت دخلتها

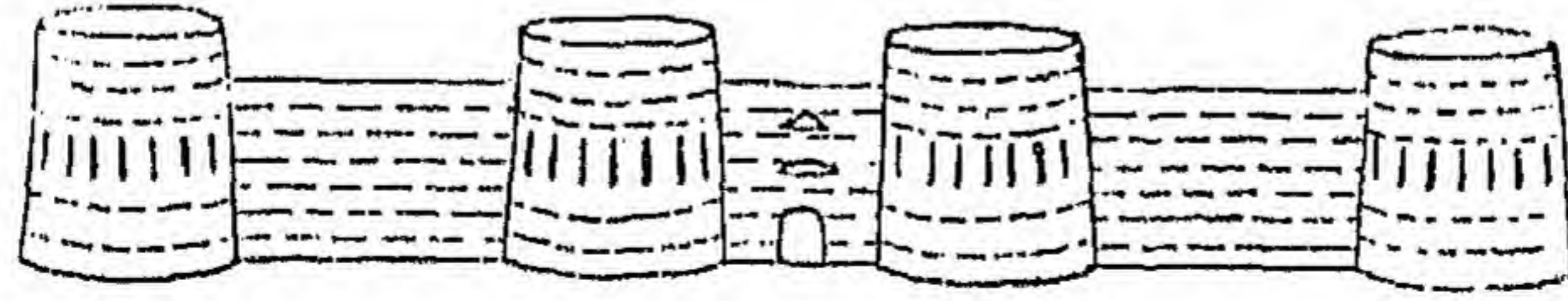
قبل ان يأتيك كتابي فامض لوجهك واستعن بالله واستنصره » وكان ذلك بعد افتتاح بيت المقدس بأيام

فسار عمرو بن العاص ومن معه قاصداً مصر وهو يكاد لا يصدق ان أذن له بذلك . فما بلغ رفح « وهي قرية تدعى الان رفع تبعد نحو عشر ساعات عن العريش) حتى ادركه رسول من عمر ودفع اليه كتاباً يخاف ان يكون ذلك الكتاب مؤذناً بالانصراف عن مصر وهو لم يدخلها بعد فاجل فتحه حتى يدخل ارضها وكان اذ ذاك على مسافة يسيرة منها فأمر بجرد السير حتى امسى المساء فسأل اين نحن ف قيل له في العريش فعلم انه دخل ارض مصر فأمر بالمبيت هناك . وعند الفجر نهض القوم للصلاة وبعد اتمامها وقف عمرو وفي يده كتاب الخليفة ففضه بكل احترام وتلاه على الجمهور بصوت عال وهو « بسم الله الرحمن الرحيم من الخليفة عمر بن الخطاب الى عمرو بن العاص عليه سلام الله تعالى وبركاته . اما بعد فان ادركك كتابي هذا وانت لم تدخل مصر فارجع عنها واما اذا ادركك وقد دخلتها او شيئاً من ارضها فامض واعلم اني بمدك » فالتفت عمرو الى من حوله قائلاً « اين نحن يا قوم » فقالوا « في العريش » فقال « وهل هي من ارض مصر ام الشام » فاجابوا « انها من مصر » فقال « هلم بنا نعبر على خيرة الله تعالى » . وهكذا دخل عمرو بن العاص ارض مصر في اربعة الاف رجل في السنة الثامنة عشرة للهجرة وجعلوا يخترقونها جنوباً في قسمها الشرقي وعددهم يزيد كل يوم ممن كان ينضم اليهم من القبائل البدوية التي كانوا يرون بها في طريقهم

فكان اول موضع قوتل فيه الفرما قاتلت الروم قتالاً شديداً نحواً من شهر ثم فتح الله على المسلمين وكان عبد الله بن سعد على ميمنة عمرو منذ توجه من قيسارية الى ان فرغ من حربه . ثم تقدم عمرو وهو لا يقاتل الا بالامر الخفيف حتى اتى بابليس فقاتلوه فيها نحواً من شهر حتى فتح الله عليه وكان في بابليس ارماتوسة بنت المقوقس حاكم مصر من قبل الروم فأحب عمرو ملاطفة المقوقس استجلاً لودعه فسير اليه ابنته مكرمة في جميع ما لها فسر ابوها بقدمها كثيراً

ثم سار عمرو وما زال حتى مر بجانب الجبل المقطم فاشرف على حصن بابل او بابليون القائم على ضفة النيل الشرقية مقابل الاهرام العظيمة . وكان حصناً منيعاً رفيع العماد^(١) الى شرقيه جبل المقطم راسخ وعلى وجهه تجهيزات تدل على قديم عهده وبين
(١) و يسميه بعض مؤرخي العرب حصن باب الهون او باب الاون والمؤرخين فيه

الجيل والحصن بقعة من الارض لاشيء من العمارة فيها الا بعض الايرة والكنائس . ثم انظر الى الغرب فاذا بالنيل منحدر امام ذلك الحصن فيزيده مناعة والى ما وراء النيل ارض قد كستها الطبيعة من جمالها حلة خضراء بين اعشاب واشجار خصبة وهي جزيرة الروضة وكانت تعرف بجزيرة مصر والماء محيط بها مدار السنة . ويقطع النيل بين الحصن وهذه الجزيرة جسر من خشب وكذلك فيما بينها والجزيرة يمر عليهما الناس والدواب من البر الشرقي الى الجزيرة ومن هذه الى البر الغربي . وكان هذان الجسران مؤلفين من مراكب بعضها بجذاء بعض وموثقة بسلاسل من حديد وفوق المراكب اخشاب ممتدة فوقها تراب وكان عرض الجسر الواحد ثلاث قصبات



ش ٢٢ — حصن بابل كما كان لما حاصره العرب

وتطلع عمرو الى ما وراء الجزيرة فاذا بالاهرام العظيمة راسخة كالجبال وقد اثقلت كاهل الدهر فمعجز عن هدمها . ثم رمى بنظره الى جنوبي الاهرام فرأى ببقايا منف العظيمة ترهب القلوب لما يتجلى فيها من العظمة والفتخامة ومن جملتها اهرامها المعروفة الان باهرام سقارة

فامر عمرو ان تنصب الخيم فيما بين الحصن والمقطم لجهة الشمال قرب مصر القديمة اليوم ولم يكن هناك الا بعض المزارع والغياض وجعل يسرح نظره ويتأمل بما يهدده من الاخطار في مقاومة هذا الحصن . ثم نظر الى وادي النيل فاذا هو يانع خصب يشتهي النظر يخترقه النيل المبارك . على غربيه آثار منف والاهرام وعلى شرقيه ذلك الحصن وفيه قد حشدت جنود الروم متأهبين للدفاع ولم يكن قد رأى شيئاً من ذلك فما مر به من البلدان فعظم عليه الامر الا انه عاد الى عزمه عند ما تصور ما يلحق به من العار اذا عاد خائباً وما يقع في يده من الخيرات اذا فاز بالنصر بعد الجهاد الحسن واذا لم يفز في جهاده هنا واستشهد في الاخرة ما هو افضل مآباً

وكان في الحصن المقوقس وقد تقدم انه حاكم من قبل دولة الروم على مصر العليا

اقوال اظهرها انه حصن بنىه الفرس عند تملكهم مصر ودعوه باسم عاصمة بابل لانها كانت في حوزتهم

والسفلى ومعظم سكانهما من القبط . وكانت عاصمة حكومته منف على الضفة الغربية
واما هذا الحصن فقد اتخذ مركزاً حربياً لينع العرب من المرور الى عاصمته . وكان
المقوقس من حزب الوطنيين ويقال انه كان بينه وبين الرسول مكتبة وعلى كل فانه لم يكن
له ان يفعل ما يشاء . فلما علم بقدوم جيوش المسلمين جهز جنداً تحت قيادة احد كبراء
جيشه المدعو الاعرج وجاءوا بما لديهم من العدة والسلاح وتحصنوا في ذلك الحصن
اما عمرو فاخذ في المواجهة مدة فابطأ عليه الفتح فكتب الى الخليفة يستمده فامده
باربعة الاف رجل عليهم اربعة من كبار القواد وهم الزبير بن العوام والمقداد بن الاسود
وعبادة بن الصامت ومسلمة بن مخلد وقيل ان الرابع خارجة بن حذافة دون مسلمة
وورد معهم خطاب امير المؤمنين ونصه « اني قد انفذت اليك اربعة الاف على كل
الف منهم رجل مقام الف »

فانفذ عمرو احد قواده واعله حذافة بخمسمائة فارس الى الجهة الثانية من الحصن
من وراء الجبل فساروا ليلاً وكان الروم قد خندقوا خندقاً وجعلوا له ابواباً وبذروا
في اقنيتها حشك الحديد فالتقى القوم حين اصبحوا فانهمزم المصريون حتى دخلوا
الحصن فصارت العرب محيطة بالحصن من كل الجهات الا النيل وكان حول ذلك الحصن
الخندق فلم يستطع العرب الهجوم عليه واستمر رمي السهام صباحاً ومساءً ثم تشاور
عمرو والزبير بشأن ذلك فاقروا على تشديد الحصار ففرقا الرجال حول الخندق . والح
عمرو على الحصن بالمنجنيق ثم خابر القوم بشأن التسليم فلم يفعلوا . وكان المقوقس يريد
التسليم تخلصاً من نير الروم لما بينه وبينهم من الضغائن الدينية وان لم يتجرا على التصريح
ببغيته لان رجاله لم يكونوا كلهم من حزبه ولا سيما الاعرج . ولما رأى من اقدام العرب
وصبرهم على القتال ورغبتهم فيه خاف ان يظهروا على رجاله فتكون الخسارة مزدوجة
فعمد برجاله الى باب الحصن الغربي على الضفة النيل وعبر بهم على الجسر الى الجزيرة ثم
تبعه الاعرج ولم يترك في الحصن الا نفرأ قليلاً من رجاله والعرب غير عالمين

ولما ابطأ الفتح قال الزبير « اني اهب الله نفسي وارجو ان يفتح الله بذلك على
المسلمين » فعبر الخندق ثم وضع ساهماً الى جانب الحصن من ناحية سوق الحمام واخبر
عمراً انهم اذا سمعوا تكبيره ان يحبوه جميعاً فما شعر الا والزبير على رأس الحصن يكبر
والسيف في يده فتحامل الناس على السلم حتى كادوا يكسرونه لكثرتهم فنهزم ثم كبر
وكبر الناس معه واجابهم من كان خارجاً فظن من كان باقياً في الحصن من الروم ان العرب
جميعهم هاجموا فهربوا . وعمد الزبير واصحابه الى باب الحصن ففتحوه واقتحموا

الحصن وتملكوه ثم عمدوا الى الجسر فتعقبوا القبط الى الجزيرة . واما هولاء فساروا الى منف عاصمة ولايتهم . وبعد ان عبروا النيل رفعوا الجسر عنه فتوقف العرب عن تعقبهم اذ لم يكونوا يستطيعون عبور النيل فاصبحوا محاطين بالماء من كل الجهات

المخابرة بشأن الصلح

فلما رأى المقوقس ذلك انفذ الى عمرو كتاباً نصه « انكم قوم قد ولجتم في بلادنا والحيثتم على قتالنا وطال مقامكم في ارضنا وانما انتم عصابة يسيرة وقد اظلمتكم الروم وجهزوا اليكم ومعهم من العدة والسلاح وقد احاط بكم هذا النيل وانما انتم اسارى في ايدينا فابعثوا الينا رجلاً منكم نسمع من كلامهم فاعلم ان يأتي الامر بيننا وبينكم على ما تحبون ونحب وينقطع عنا وعنكم القتال قبل ان تغشاكم جموع الروم فلا ينفعنا الكلام ولا يقدر عليه . واعلم ان تدموا ان كان الامر مخالفاً لطابتكم ورجائكم فابعثوا الينا رجلاً من اصحابكم لعالمهم على ما نرضى نحن وهم به من شيء »

فلما اتى رسل المقوقس الى عمرو حبسهم عنده يومين وليلتين حتى خاف عليهم المقوقس وانما اراد بذلك عمرو ان يروا حال المسلمين

وعند ذلك رد عمرو الرسل وكتب الى المقوقس « انه ليس بيني وبينكم الا احدى ثلاث خصال اما ان دخلتم في الاسلام فكنتم اخواننا وكان لكم مالنا وان ابيتهم فاعطيتم الجزية عن يد وانتم صاغرون واما ان جاهدناكم بالصبر والقتال حتى يحكم الله بيننا وبينكم وهو خير الحاكمين »

فلما جاءت رسل المقوقس اليه قال كيف رأيتم هؤلاء قالوا « رأينا قوماً الموت احب الى احدهم من الحياة والتواضع احب الى احدهم من الرفعة ليس لاحدهم في الدنيا رغبة ولا نهمة انما جلوسهم على التراب واكلهم على ركبهم واميرهم كواحد منهم لا يعرف رفيعهم من وضيعهم ولا السيد منهم من العبد واذا حضرت الصلاة لم يتخلف عنها منهم احد يغسلون اطرافهم بالماء ويخشعون في صلاتهم »

فاقسم المقوقس قائلاً « لو ان هؤلاء التقوا الجبال لازالوها ولا يقوى على قتال هؤلاء احد ولئن لم نغتنم صاعدهم اليوم وهم محصورون بهذا النيل لن يجيئونا بعد اليوم اذا امكنتهم الارض وقوا على الخروج من مواضعهم » وما زال على رجال حكومته حتى وافقوه على طلب الصلح فكتب الى عمرو « ابعثوا الينا رسلاً منكم لعالمهم وتنداعى وهم الى ما عساه ان يكون فيه صلاح لنا ولكم »

الوفد الى المقوقس

فبعث عمرو عشرة نفر احدهم عبادة بن الصامت وكان رابط الجاش هائل المنظر اسود اللون طوله عشرة اشبار وجعله متكلم القوم وامره ان لا يجيبهم الى شيء دعوه الا احدى هذه الثلاث خصال قائلاً « ان امير المؤمنين قد تقدم الي في ذلك وأمرني ان لا اقبل شيئاً سوى خصلة من هذه الثلاث » فركبوا السفن حتى اتوا المقوقس ودخلوا عليه فتقدم عبادة في صدر اصحابه فهابه المقوقس لسواده وعظم جثته وقال « نحوا عني هذا الاسود وقدموا غيريكماني » فاجابوا « ان هذا افضلنا رأياً وعلماً وهو سيدنا وخيرنا والمقدم علينا وانما نرجع جميعاً الى قوله ورايه وقد امرنا الامير ان لا نخالف له امراً » فقال المقوقس « وكيف رضيتم ان يكون هذا مقدماً عليكم وهو اسود وانما ينبغي ان يكون دونكم » فقالوا « كلا وان كان اسود فهو افضلنا » فقال المقوقس لعبادة « تقدم يا اسود وكلمني برفق فاني اهاب سوادك » فتقدم وقال « قد سمعت مقاتلتك وان فيمن خلفت من اصحابي الف رجل اسود كلهم اشد سواداً مني واقطع منظراً وجميعهم اشد هيبه مني وانا قد وليت وادبر شبابي واني مع ذلك بحمد الله ما اهاب مائة رجل وذلك انما هو لرغبتنا وهمتنا في الجهاد في الله واتباع رضوانه وليس غزونا عدونا بمن حارب الله لرغبة في الدنيا ولا طلب الاستكثار منها الا ان الله عز وجل قد احل لنا ذلك وجعل ما غنمنا منه حلالاً وما يباي احدنا ان كان له قنطار ذهب او كان لا يملك الا درهماً لان غاية احدنا من الدنيا اكلة يأكلها ليسد بها جوعه ليله ونهاره وشملة يلتحفها فان كان احدنا لا يملك الا ذلك كفاه وان كان له قنطار من ذهب انفق في سبيل الله واقتصر على هذا الذي في يده ويبلغه ما كان في الدنيا لان نعيم الدنيا ليس نعيماً ورخائها ليس رخاء انما النعيم والرخاء في الآخرة وبذلك امرنا الله وامرنا به نبينا وعهد اليها ان لا تكون همة احدنا من الدنيا الا ما يمسك به جوعه ويستر عورته وتكون همته وشغله في رضوانه وجهاد عدوه »

فلما سمع المقوقس منه هذا الكلام قال لمن حوله بلسانهم « هل سمعتم مثل كلام هذا الرجل قط لقد هبت منظره وان قوله لاهيب . ان هذا واصحابه اخرجهم الله لخراب الارض ما اظن ملكهم الا سيغلب على الارض كلها » ثم اقبل على عبادة وقال له « ايها الرجل الصالح قد سمعت مقاتلتك وما ذكرت عنك وعن اصحابك ولعمري ما بلغتم ما بلغتم الا بما ذكرت وما ظهرتم على من ظهرتم عليه الا لجهنم الدنيا ورغبتهم فيها وقد توجه الينا لقتالكم من جمع الروم ما لا يحصى عدده قوم معروفون بالنجدة

والشدة ما يبالي احدهم بمن اتى ولا من قاتل وانا نعلم انكم ان تطيقوهم لضعفكم وقتلكم
وقد اقمتم بين اظهرنا اشهرآ وانتم في ضيق وشدة من معاشكم وحالككم ونحن تطيب
انفسنا ان نصالحكم على ان نفرض لكل رجل منكم دينارين دينارين ولا ميركم مائة دينار
ونخايفتكم الف دينار فتقبضونها وتنصرفون الى بلادكم قبل ان يغشاكم ما لا قوام
لكم به »

خطاب عبادة بن السامت

فقال عبادة « يا هذا لا تغرن نفسك ولا اصحابك .. اما ما تخوفنا به من جمع الروم
وعدهم وكثرتهم وانا لا نقوى عليهم فلعمري ما هذا الذي تخوفنا به ولا بالذي يكسرنا
عما نحن فيه وان كان ما قلتم حقاً فذلك والله ارغب ما يكون في قتالهم واشد لحرصنا
عليهم لان ذلك اعذر لنا عند ربنا اذا قدمنا عليه ان قتلنا عن آخرنا كان امكن لنا في
رضوانه وجنته وماشيء اقر لآعيننا ولا احب لنا من ذلك وانا منكم حينئذ لعلى احدى
الحسينين اما ان تعظم لنا بذلك غنمة الدنيا ان ظفرنا بكم او غنمة الآخرة ان ظفرتم
بنا ولانها احب الخصالين اليها بعد الاجتهاد منا . وان الله عز وجل قال لنا في كتابه كم
من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله والله مع الصابرين . وما منا رجل الا ويدعوا ربه
صباحاً ومساءً ان يرزقه الشهادة وان لا يرده الى بلده ولا الى ارضه ولا الى اهله وولده
وليس لاحد منا هم فيما خلفه وقد استودع كل منا ربه اهله وولده وانما همنا ما امامنا .
واما قولك اننا في ضيق وشدة من معاشنا وحالنا فنحن في اوسع السعة لو كانت الدنيا
كلها لنا ما اردنا منها لانفسنا اكثر مما نحن عليه فانظر الذي تريده فبينه فليس بيننا وبينك
خصلة نقبلها منك ولا نجيبك اليها الا خصلة من ثلاث خصال فاختر ايها شئت ولا
تطمع نفسك في الباطل . بذلك امرني الامير وبها امره امير المؤمنين وهو عهد رسول
الله من قبل اليها . اما ان اجبتم الى الاسلام الذي هو الدين القيم الذي لا يقبل الله غيره
وهو دين انبيائه ورسله وملائكته امرنا الله ان نقاتل من خالفه ورغب عنه حتى يدخل
فيه فان فعل كان له مالنا وعليه ما علينا وكان اخانا في دين الله فان قبلت ذلك انت
واصحابك فقد سعدتم في الدنيا والآخرة ورجعنا عن قتالكم ولم نستحل اذاكم ولا
التعرض لكم وان ايتم الا الجزية فأدوا اليها الجزية عن يد وانتم صاغرون وان تعاملكم
على شيء نرضى نحن وانتم في كل عام ابدآ ما بقينا وبقيتكم ونقاتل عنكم من ناواكم وعرض
لكم في شيء من ارضكم ودمائكم واموالكم ونقوم بذلك عنكم ان كنتم في ذمتنا وكان
لكم به عهد علينا وان ايتم فليس بيننا وبينكم الا المحاكاة بالسيف حتى نموت عن آخرنا

او نصيب ما نريد منكم . هذا ديننا الذي ندين الله تعالى به ولا يجوز لنا فيما بيننا وبينه غيره فانظروا لانفسكم »

فاعظم المقوقس ذلك وقال « هذا ما لا يكون ابداً ما تريدون الا ان تتخذونا عبيداً ما كانت الدنيا »

فقال عبادة « هو ذاك فاختر لنفسك ما شئت »

فقال « افلا تحيبنونا الى غير هذه الثلاث الخصال »

فرفع عبادة يديه الى السماء وقال « لا ورب هذه السماء ورب هذه الارض ورب كل شيء ما لكم عندنا خصلة غيرها فاختروا لانفسكم »

فالتفت اذ ذاك المقوقس الى ارباب مجلسه فقال قد فرغ القوم فما تريدون فقالوا « أيرضى احد بهذا الذل؟ اما ما ارادوا من دخولنا في دينهم فهذا لا يكون ابداً ان نترك دين المسيح بن مريم وندخل في دين غيره لانعرفه . واما ما ارادوا ان يسبونا ويجعلونا عبيداً فالموت ايسر من ذلك فلو رضوا ان نضاعف لهم ما اعطيناهم مراراً كان اهلون علينا »

فقال المقوقس لعبادة « قد ابى القوم فما ترى فراجع اصحابك على ان نعطيكم في مرتكم هذه ما تمنيتم وتنفرفون »

فقال عبادة واصحابه « لا » . فقال المقوقس لاصحابه « اطيعوني واجيبوا القوم الى خصلة من هذه الثلاث فوالله ما لكم بهم طاقة واثن لم نجيبهم اليها طائعين لنجيبهم الى ما هو اعظم كارهين »

فقالوا « واي خصلة نجيبهم اليها » قال « اما دخولكم في غير دينكم فلا يسلم احدكم به واما قتالهم فانا اعلم انكم لن تقدرؤا عليهم ولن تصبروا صبرهم ولا بد من الثالثة » قالوا « فنكون لهم عبيداً ابداً؟ » قال « نعم تكونون عبيداً مسيطرين في بلادكم آمنين على انفسكم واموالكم وذرائعكم فاطيعوني قبل ان تندموا » فرضوا بالجزية على صلح يكون بينهم يعرفونه

فقال المقوقس لعبادة « اعلم اميرك اني لا ازال حريصاً على اجابتك الى خصلة من تلك الخصال التي ارسل الي بها فليعطني ان اجتمع به انا في نفر من اصحابي وهو في نفر من اصحابه فان استقام الامر بيننا تم ذلك جميعاً وان لم يتم رجعنا الى ما كنا عليه » فرجع عبادة الى عمرو واخبره بما كان فاستشار اصحابه فقالوا « لا نجيبهم الى شيء من الصلح ولا الجزية حتي يفتح الله علينا وتصير الارض كلها لنا فيثا وغنجة كما

صار لنا الحصن وما فيه . فقال عمرو « قد علمتم ما عهد الي امير المؤمنين في عهده فان اجابوا الى خصلة من الخصال الثلاث التي عهد الي فيها اجبتهم وقبلت منهم مع ما قد حال هذا الماء بيننا وبين ما نريد من قتالهم » فوافقوه

عهد الامان للمصريين

فاجتمع عمرو والمقوقس واتفقا على الصلح بان يعطى الامان للمصريين وهم يدفعون الجزية وهاك نص الشروط

بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما اعطى عمرو بن العاص اهل مصر من الامان على انفسهم ودمهم واموالهم وكافتهم وصاعهم ومدهم وعددهم لا يزيد شيء في ذلك ولا ينقص ولا يساكنهم النوب وعلى اهل مصر ان يعطوا الجزية اذا اجتمعوا على هذه الصلح وانتهت زيادة نهرهم خمسين الف الف وعليه ممن جنى نصرتهم فان ابي احد منهم ان يجيب رفع عنهم من الجزية بقدرهم وذمتنا ممن ابي بريئة وان نقص نهرهم من غايته اذا انتهى رفع عنهم بقدر ذلك . ومن دخل في صلحهم من الروم والنوب فله ما لهم وعليه ما عليهم ومن ابي واختار الذهاب فهو آمن حتى يبلغ مأمنه ويخرج من سلطاننا وعليهم ما عليهم اثلاثاً في كل ثلث جباية ثلث ما عليهم على ما في هذا الكتاب عهد الله وذمته وذمة رسوله وذمة الخليفة امير المؤمنين وذمم المؤمنين . وعلى النوبة الذين استجابوا ان يعينوا بكذا وكذا رأساً وكذا وكذا فرساً على ان لا يغزوا ولا يمنعوا من تجارة صادرة ولا واردة . شهد الزبير وعبدالله ومحمد ابنا وكاتب وردان وحضر هذا نص الكتاب «

ولما تم الصلح على هذه الصورة كتب المقوقس الى ملك الروم كتاباً يعلمه بالامر كله فكتب اليه ملك الروم يقبح رأيه ويعجزه ويرد عليه ما فعل ويقول في كتابه « ان ما اتاك من العرب اثناء عشر الفاً وبمصر من بها من كثرة عدد القبط ما لا يحصى فان كان القبط كرهوا القتال واحبوا اداء الجزية الى العرب واختاروهم علينا فان عندكم بمصر من الروم وبلاسكندرية ومن معك اكثر من مائة الف فارس معهم العدة والقوة والعرب وحالهم وضعفهم على ما قد رأيت فعجزت عن قتالهم ورضيت ان تكون انت ومن معك من الروم في حال القبط اذلاء فقاتلهم انت ومن معك من الروم حتى تموت او تظهر عليهم فانهم فيكم على قدر كثر تكم وقوتكم وعلى قدر قلتهم وضعفهم كأكلة . ناهضهم القتال ولا يكن لكم رأي غير ذلك » وكتب ملك الروم بمثل ذلك كتاباً الى جماعة الروم

فاقبل المقوقس على عمرو فقال له « ان الملك قد كره ما فعلت وعجزني وكتب

الى والى جماعة الروم ان لا نرضى بمصالحتك وامرهم بقتالك حتى يظفروا بك او تظفر بهم . ولم اكن لاخرج مما دخلت فيه وعاهدتك عليه وانما سلطاني على نفسي ومن اطاعني وقد تم صلح القبط مما بينك وبينهم ولم يأت من قبلهم نقض وانا متم لك على نفسي والقبط متمون لك على الصلح الذي صالحتهم عليه وعاقبتهم . واما الروم فانا منهم براء وانا اطلب اليك ان تعطيني ثلاث خصال . الاولى الا تنقض بالقبط وادخلني معهم والزمني ما ازمهم وقد اجتمعت كلمتي وكلمتهم على ما عاهدتك عليه فهم متمون لك على ما تحب . واما الثانية فان سألك الروم بعد اليوم ان تصالحهم فلا تصالحهم حتى تجعلهم فيئاً وعبيداً فانهم اهل لذلك لاني نصحتهم فاستغشوني ونظرت اليهم فاتهموني . واما الثالثة فاني اطلب اليك ان انا مت ان تأمرهم يدفنوني بجسر الاسكندرية » فاجابه الى ما طلب على ان يضمّنوا له الجسرين جميعاً ويقيموا لهم الانزال والضيافة والاسواق في طريقهم الى الاسكندرية ففعلوا وصارت القبط لهم اعواناً

وصف مصر

فانفذ عند ذلك عمرو الى الخليفة رسولا بكتاب يخبره بما تم بينه وبين المقوقس فاجابه منشطاً وسأله ان يصف له مصر فكتب اليه « ورد الي كتاب امير المؤمنين اطال الله بقاءه ويسألني عن مصر اعلم يا امير المؤمنين ان مصر قريبة غبراء وشجرة خضراء طولها شهر وعرضها عشر يكتنفها جبل اغبر ورمل اعفر يخط وسطها النيل المبارك الغدوات ميمون الروحات تجري فيه الزيادة والنقصان لجاري الشمس والقمر . له اوان يدر حلاله ويكثر عجاجه وتعظم امواجه فتفيض على الجانبين فلا يمكن التخلص من القرى بعضها الى بعض الا في صغار المراكب وخفاف القوارب وزوارق كاهن الخيال ورق الاصايل . فاذا تكامل في زيادته نكص على عقبه كاول ما بدا في جريته وطمى في درته . فعند ذلك تخرج ملة محقورة وذمة مخفورة بحرثون بطون الارض ويندرون بها الحب يرجون بذلك النماء من الرب لقيهم ما سعوا من كدهم فناله منهم بغير جدهم . فاذا احق الزرع وأشرق سقاء الندى وغناه من تحت الثرى . فبينما مصر يا امير المؤمنين لؤلؤة بيضاء اذا هي عنبرة سوداء فاذا هي زمردة خضراء فاذا هي ديباجة زرقاء فتبارك الله الخالق لما يشاء الذي يصلح هذه البلاد وينيرها ويقر قاطناتها فيها ان لا يقبل قول خسيسها في رئيسها . وان لا يستأدي خراج الثمرة الا في اوانها وان يصرف ثلث ارتفاعها في عمل جسورها وتراعها . فاذا تقرر الحال مع العمال في هذه الاحوال تضاعف ارتفاع المال والله تعالى يوفق الملك والمال »

فتح الاسكندرية . سنة ٢٠ هـ

ولما تم التعاقد بين المسلمين والقبط على ما تقدم هاجر جميع من كان بين هؤلاء من الروم الى الاسكندرية . اما عمرو فاقام في الحصن حامية وقام برجاله نحو الاسكندرية على نية الفتح وسار معه جماعة من رؤساء القبط يصلحون له الطرق ويقيمون الجسور والاسواق وكانت خيام العرب مضروبة بين النيل والجبل على ما تقدم فامر عمرو بتقويضها والاستعداد للمسير فاذا بيمامة قد باضت في اعلاه فقال « لقد تحرمت بجوارنا اقروا الفسطاط حتى يطير فراخها » فاقروا الفسطاط في موضعه واوصى به صاحب القصر



ش ٢٣ - فسطاط
عمرو بن العاص
وقد عشن اليمام
في اعلاه

ولا يخفى ما كان لهذه الحادثة من التأثير الحسن في قلب من سمعها من الوطنيين فتركوها وساروا في سبيلهم قاصدين الاسكندرية متخذين ضفة فرع النيل الغربي خطة مسيرهم فلاقاهم في الطريق بعض من هاجر من منف من الروم فقاتلوهم يسيراً وكان من هؤلاء فئة تحصنت في كوم شريك وأخرى في مريوط فتغلب عليهما عمرو واحتلها . اما القبط فكانوا اعواناً المسلمين في كثير من احتياجاتهم حسب امر القوقس فلما بلغ ذلك جماعة الروم في الاسكندرية اشتد غيظهم فاصروا على الحرب واخذوا

يعدون مهمات الدفاع

أما عمرو فما زال يتقدم بجيشه الى الاسكندرية وكانت هي قاعدة القطر المصري الى ذلك العهد وفيها من عظمة الروم ورهبتهم ما يرهب الابطال وحاصرها برّاً اما بحراً فكانت الطريق مفتوحة بينها وبين القسطنطينية يأتيها منها ما تحتاج اليه من المؤن والزخائر فطال الحصار رغم الوسائل التي اتخذها العرب فضجر عمرو فجمع اليه رجاله وخطب فيهم فهاجموا الاسوار وهو في مقدمتهم فخرقوها ودخل عمرو وأثنان من قواده هما مسامة بن مخلد ووردان الا انهم لم يكادوا يطأونها حتى أقفلت الاسوار وراءهم والتي القبض عليهم واحضروا امام البطريق (الحاكم) فخطبهم قائلاً « هوذا انتم اسرى في ايدينا فاخبرونا ما الذي جاء بكم الينا وما الذي حملكم على قتالنا » فاجابه عمرو بقلب لا يهاب الموت « قد اتيناكم ندعوكم الى الاسلام فيكون لكم مالنا اوان تؤدوا الجزية عن يد وانتم صاغرون والا فاننا نقاتلكم الى ان نفي لامر الله » فبهت الحاكم وداخله الريب فقال لمن في مجلسه من الروم باللغة اليونانية « يظهر ان هذا الرجل من وجوه العرب واعله امير القوم فينبغي ان نضرب عنقه » وكان وردان عارفاً باللغة اليونانية ففهم ما قاله البطريق واكي يطاع عمراً على ذلك لكمه مستهزئاً وناداه منتهراً « مالك ولهذا القول وانت أدنى من في الجماعة واقل فاترك غيرك يتكلم » فاختلف ظن البطريق وقال « لو كان هذا امير القوم ما كان يفعل به هكذا » فقال مسامة « ان اميرنا كان عازماً على الانصراف عنكم واراد ان يسير من اكابر القوم من يتفق معكم على شيء تتراضون عليه فان اطلقتمونا مضينا وعرفناه ما صنعتم بنا من الجمل ويتفق الامر بينكم وننصرف عنكم »

فتوهم البطريق ان الامر كذلك فاطلقهم فلما خرجوا قال مسامة لعمرو « قد خلصتك لكلمة وردان » فوصلوا الى المعسكر وهم على نية تشديد الحصار الى ان يقضي الله بما يشاء

وكان الامام عمر قد استبطأ فتح الاسكندرية . فكتب الى عمرو « اما بعد فقد عجبت لابطائكم عن فتح مصر . انكم تقاتلونهم منذ سنتين وما ذاك الا لما احدثتم وأحببتهم من الدنيا ما أحب عدوكم فان الله تبارك وتعالى لا ينصر قوماً الا بصدق نياتهم وقد كنت وجهت اليك اربعة نفر واعلمتك ان الرجل منهم مقام الف رجل على ما كنت اعرف الا ان يكونوا قد غيرهم ما غير غيرهم فاذا أتاك كتابي هذا فاخطب في الناس وحضهم على قتال عدوهم ورجبهم في الصبر والنية وقدم اوائك الاربعة في صدور

الناس ومر الناس جميعاً ان يكونوا لهم صدمة واحدة كصدمة رجل واحد وليكن ذلك عند الزوال يوم الجمعة فانها ساعة تنزل الرحمة ووقت الاجابة وليعرج الناس الى الله ويسألوه النصر على عدوهم » فجمع عمرو ورجاله وتلا عليهم كتاب امير المؤمنين فأثر فيهم تأثيراً عظيماً وعزموا على القيام به

وفي خلال ذلك توفي هرقل ملك القسطنطينية وعقب موته انقسامات داخلية وحروب اهلية سفكت فيها الدماء بسبب ادعاء الملك من هم من غير الاسرة الملوكية وانتهى الامر بان افضى الملك لولده هرقل الثاني او قسطنطين الثالث وهذا لم يمض عليه مائة يوم بن جلوسه حتى قضى مسموماً بيد مارتين امرأة ابيه ثم بمساعي بطريك القسطنطينية عقد على الملك بعده هرقلينة ابنة مارتين المذكورة وبعد بضعة اشهر نصب قسطن بن هرقل الثاني . فيقال اجمالاً انه كان على القسطنطينية ثلاثة ملوك في وقت واحد فازداد الانشقاق وتعاضم الخصام فضعفت همم الاسكندرانيين وتضاعف يأسهم فهاجر بعضهم بحراً ولبث البعض الآخر في المدينة يريدون دفاعاً لم يقوواعليه فدخلها عمرو يوم الجمعة غرة شهر محرم سنة ٢٠ للهجرة (او ٢٢ دسمبر سنة ٦٤٠ للميلاد) واقام فيها احتفالاً عظيماً تذكاراً لما أوتي به من الفتح المبين ثم كتب الى امير المؤمنين كتاباً ونصه :

« الى الخليفة عمر بن الخطاب من عمرو بن العاص عليك سلام الله تعالى وبركاته أما بعد فقد فتحت مدينة لا اصف ما فيها غير اني اصببت فيها اربعة آلاف بنية باربعة آلاف حمام واربعين الف يهودي عليهم الجزية واربعمئة ماعب للملوك واثني عشر الف بقال يبيعون البقل الاخضر »

وبعد ان استلم عمرو زمام الاحكام أخذ في استجلاب قلوب الاهلين فجعل يقرب منه سراة القوم ووجوههم ويحكم في الناس بالقسط ويحجب التماسهم في كل ما كانوا يسألونه منه حتى اجمع السكل على الميل اليه والاذعان لامره
مكتبة الاسكندرية

وذكر ابن القفطي وابو الفرج الملقب وغيرهما ان عمراً لما فتح الاسكندرية كان في جملة علمائها رجل اسمه يحيى الغرامطيقي فدخل على عمرو وقد عرف موضعه من العلوم فاكرمه عمرو وسمع من الفاظه الفلسفية التي لم تكن للعرب بها أنسة ما هاله ففتن به وكان عمرو عاقلاً حسن الاستماع صحيح الفكر فلازمه وكان لا يفارقه . ثم قال له يحيى يوماً « انك قد احطت بمجواصل الاسكندرية وختمت على كل الاصناف الموجودة بها فما لك به انتفاع فلا نعارضك فيه وما لا انتفاع لك به فنحن اولى به »

فقال له عمرو « ما الذي تحتاج اليه » قال « كتب الحسكة التي في الخزان الملوكة » فقال له عمرو « هذا مالا يمكنني ان آمر فيه الا بعد استئذان امير المؤمنين عمر بن الخطاب » . فكتب الى عمر وعرفه قول يحيى فورد عليه كتاب عمر يقول فيه « واما الكتب التي ذكرتها فان كان فيها ما يوافق كتاب الله ففي كتاب الله عنها غنى وان كان فيها ما يخالف كتاب الله فلا حاجة اليها فتقدم باعدادها » فشرع عمرو بن العاص في تفريقها على حمات الاسكندرية واحراقها في مواقدها فاستنفدت في مدة ستة اشهر فاسمع ما جرى واعجب . اهـ

على ان بعض الكتبة ينزهون الامام عمر بن الخطاب عن تلك الفعلة . وكنا قد جاربناهم في الطبعة الاولى من هذا الكتاب ثم تبين لنا بالبحث ترجيح صحتها وقد فصلنا لادلة على ذلك في الجزء الثالث من تاريخ التمدن الاسلامي ولا نزال عليه حتى يتبين لنا ما ينقضه ونحن موالون البحث في هذا الشأن اذ لاغرض لنا غير تقرير الحقيقة

بناء الفسطاط

ثم كتب عمر الى الخليفة يستفتيه في السكنى بالاسكندرية فسأل الخليفة الرسول « هل يحول بيني وبين المسلمين ماء » قال « نعم يا امير المؤمنين اذا جرى النيل » فكتب الى عمرو « اني لا احب ان تنزل المسلمين منزلاً يحول الماء بيني وبينهم شتاء ولا صيفاً فمتى اردت ان اركب اليكم راحتي حتى اقدم اليكم قدمت » وتلك كانت قاعدة عمر في جمع المسلمين في بقعة لا يحول بينهم وبينه ماء . كذلك فعل ببناء البصرة والكوفة . فاستخلف عمرو في الاسكندرية حامية وامر فشدت الرحال الى حصن بابل فلما بلغوا المكان احيث خيمة الامير راوها لا تزال منصوبة وفيها اليام فزلوا فيها وجعلوا تلك الخيمة مركزاً لمعسكرهم . ثم انضمت القبائل بعضها الى بعض واخذوا في بناء البيوت لسكنى الجيوش فاخطط عمرو مدينة شمالي الحصن دعاها الفسطاط باسم الخيمة فيها نحو عشرين حارة دعاها خططاً واقام اربعة من كبار رجاله ينزلون الناس في الخطط المذكورة بحسب احزابهم وقبائلهم

حصن بابل او دير النصارى

وفي مكان حصن بابل اليوم كنائس قبطية قديمة العهد يدعون مجماها قصر الشمع او دير النصارى او دير ماري جرجس . فاذا تجاوزت جامع عمرو ومسافة بضع دقائق ومصر العتيقة الى يمينك رايت الى يسارك بناء كبير يظهر انه مؤلف من عدة ابنية عليها ملامح الشيوخوخة وكأنها محاطة بسور كبير من القرميد الاحمر عند اسفله باب

قديم مصفح بالحديد الغليظ يتصل اليه بانحدار لا يقل عن ثلاثة اذرع هو احد ابواب الحصن . وتدخل من هذا الباب في زقاق ضيق تتصل منه الى ازقة كثيرة كلها ضيق من النمط القديم تستطرق الى عدة كنائس قبطية منها كنيسة العذراء وكنيسة ابي سرجة وكنيسة ماري جرجس وكنيسة القديسة بربرة وكنيس لليهود (كان في الاصل كنيسة على اسم القديس ميخائيل) وغير ذلك وقد زرت جميع هذه الكنائس فرايت انها مع تقادم عهدها في البناء قد جدد فيها قسم عظيم وجميعها داخلية في بناء الحصن ومما يستحق الانتباه اني شاهدت تحت كنيسة ابي سرجة مغارة ينزل اليها بعدة درجات يقولون انها كانت مقاماً للسيدة مريم العذراء عند قدومها الى مصر وبلوح لي انها كنيسة من الكنائس التي كان يصلي فيها المسيحيون في ايام الاضطهاد الشديد لانها تظهر للمعتمل مبنية على مثال الكنائس الحاضرة ففي صحنها الى كل من الجانبين عدة اعمدة يدها نقر في جدار المغارة اشبه بالمذابح وفي المغارة جرن للعمادة اما الحصن فاذا تأملت جدرانها الباقية من الخارج رايتها على نمط البناء الروماني وترى احدها وهو الجنوبي لا يزال عبارة عن برجين كبيرين في احدهما كنيسة العذراء المعروفة بالمعلقة سميت كذلك لارتفاعها وقد جدد بناؤها منذ بضع سنين . وبين البرجين باب مسدود وقد طمرت التربة جزءه السفلي وبشاهد في جدران اخرى آثار مثل هذين البرجين . وتشير هذه الابراج الى ما كان عليه هذا الحصن من المناعة (انظر ٢٢) فلا غرو اذا امتنع على العرب سبعة اشهر . اما محلة نابليون التي قد اقيم فيها هذا الحصن فلا يمكن معرفة حدودها الآن ولكن يشاهد الى جنوبي الحصن يبضع مئات من الامتار دير يقال له دير بابلون يدخل اليه من باب ضيق مصفح بالحديد وفيه الى الآن كنيسة السيدة مريم يجتمع اليها بعض المسيحيين للصلاة وبناء هذا الدير اشبه ببناء الحصون منه بالاديرة وهو قائم في منخفض بين تلين يقال لهما تل غراب ولم يبق الان غير هذا الدير حاملاً لاسم تلك المحلة اما الفسطاط فقد خربت ولم يبق منها الا آكام من التربة فيما بين القاهرة ومصر العميقة يحدها شمالاً اطراف القاهرة وجنوباً السبع السواقي ومصر القديمة وشرقاً آكام من التربة متصلة بالقرافة وغرباً مدافن النصارى وجعل عمرو الفسطاط عاصمة الديار المصرية ومركز الامارة وجعل على الوجه القبلي عبد الله بن سعد بن ابي سرح وتولى بنفسه صلات مصر وخراجها فكان يجبي منها ١٢ مايوناً من الدنانير سنوياً

وكان في جملة القبائل التي شهدت فتح مصر وجاءت لاحتلالها قبيلة همدان فهذه أحببت النزول في الجزيرة مع من والاها من المسلمين فاستأذنوا عمرو بن العاص فقال مهلاً ريثما استشير أمير المؤمنين فكتب إليه يعامه بما فتح الله عليهم وبما أرادت همدان فاجابه محمد الله على ما كان من ذلك ويقول له « كيف رضيت ان تفرق اصحابك بان يحول بينك وبينهم بحر ولا تدري ما يفجأهم فاعلاك لا تقدر على غيائهم حين ينزل بهم ما تكره فاجمعهم اليك فان ابوا عليك واعجبهم موضعهم بالجزيرة واحبوا ما هنالك فابن عليهم من في المسلمين حصناً » فعرض عليهم عمرو ذلك فأبوا واعجبهم موضعهم فبنى لهم حصناً يقيمهم اذا فاجأهم امر

ثم سار عبد الله بن سعد الى الوجه القبلي لتدوين البلاد فلم يلق معارضا ومازال حتى اتى بلاد النوبة ففتحها كلها

اصلاح البلاد وتنظيمها

وأخذ عمرو من ذلك الحين في تنظيم البلاد فقسم القطر المصري الى كور او اعمال يرأس كل منها حاكم قبضي تأتية القضايا فينظر فيها ويصدر احكامه الى من هم تحت حكمه رأساً فحصل الاهلوت على راحة لم يكونوا راوها منذ ازمان وساد الامن في بلادهم

فامر عمرو بترميم مقاييس النيل التي كانت قد تعطلت منها مقياس اصوان ومقياس ارمنت ومقياس منف وغيرها . وكان من عادة المصريين قبل الفتح الاسلامي انه اذا مضى ١٢ يوماً من شهر بؤونه يعمدون الى جارية بكر من ابويها فيرضونهما ويجعلون عليها من الحلي افضاها ثم ياقونها في النيل ضخمة له . فابطل عمرو هذه العادة وعوض عن الجارية بمثال من طين . وقد ذكر بعض المؤرخين هذه الحقيقة في سياق حكاية لا بأس من ذكرها وهي انه اتفق لاديل في السنة التالية للفتح انه لم يرتفع الارتفاع اللازم للري . ولما دخل شهر بؤونة القبطي قال له اهل البلاد « ايها الامير ان انيانا هذا سنة لا يجري الا بها » فقال لهم وما ذلك فقالوا « اذا كان اثنتا عشرة ليلة تخلو من هذا الشهر عمدنا الى جارية بكر من ابويها وجعلنا عايرها من الحلي والثياب افضل ما يكون ثم القيناها في النيل » فقال لهم عمر « ان هذا لا يكون في الاسلام وان الاسلام يهدم ما كان قبله » فمضى بؤونة وابيب ومسرى وهو لا يجري قليلاً ولا كثيراً حتى هموا بالاجلاء فكتب عمرو الى امير المؤمنين عما كان فاجابه « انك قد اصبحت ان الاسلام يهدم ما كان قبله وقد بعثت اليك ببطاقة قالها في داخل النيل

اذا اتاك كتابي ٥

فلما قدم الكتاب الى عمرو ففتح البطاقة فاذا فيها د من عبد الله امير المؤمنين الى نيل مصر اما بعد فان كنت تجري بامرِك فلا تجر واذا كان الله الواحد القهار هو الذي يجريك بامرِه ففسأل الله الواحد القهار ان يجريك ٥ فالتى عمرو البطاقة في النيل وقيل ان ذلك كان قبل عيد الصليب بيوم وقد هم اهل مصر بالخروج منها لانه لا يقوم بمصالحتهم فيها الا النيل فاصبحوا يوم الصليب وقد اجراه الله تعالى ١٦ ذراعاً فلما رأى المصريون



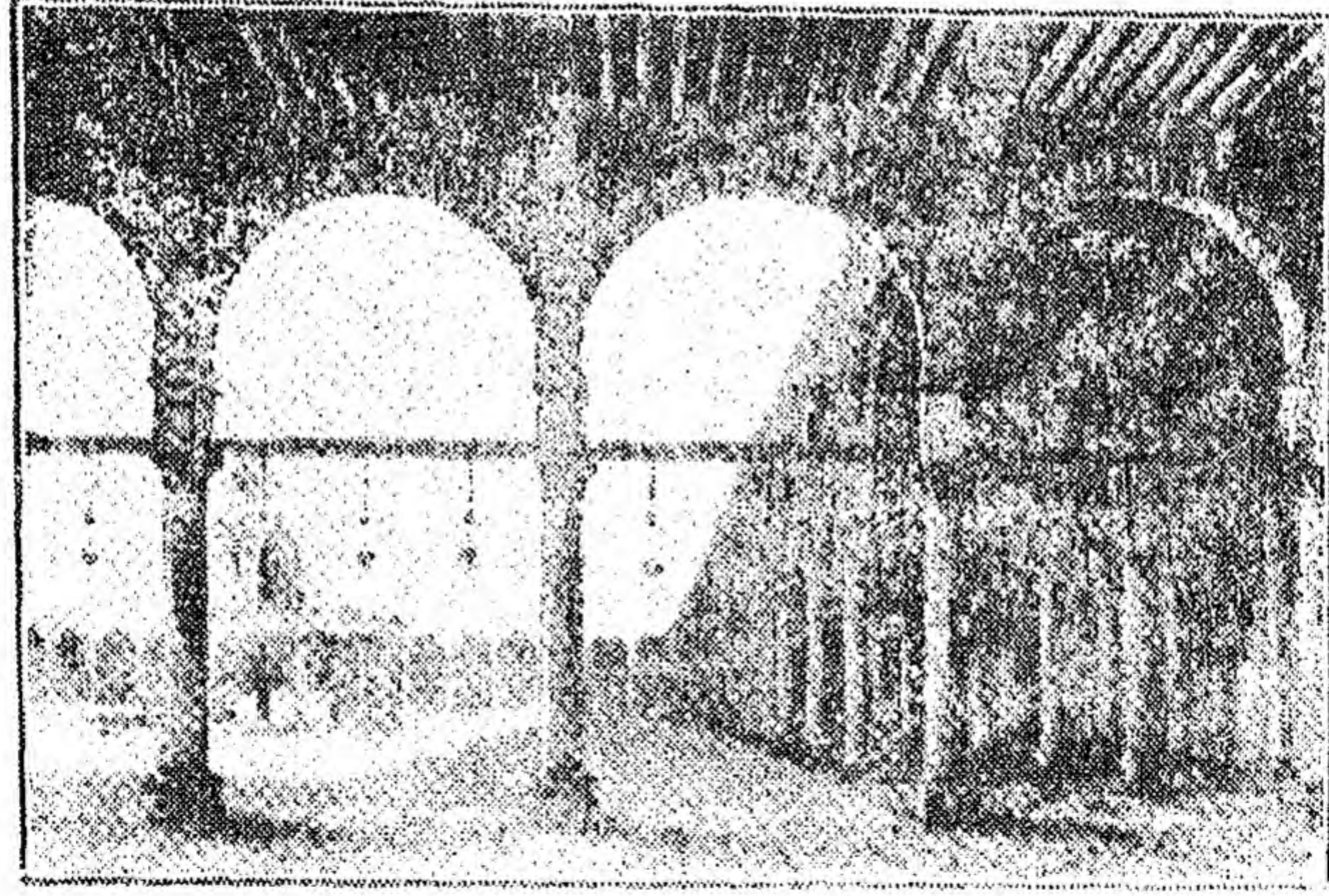
ش ٢٤ - ضحية النيل

ذلك توجبوا ووقع في قلوبهم الرعب وزاد احترامهم للخليفة واوامره وابطلوا تلك العادة القبيحة واستبقوا رمزاً عنها تمثالاً من طين يصنعونه كل سنة عند فتح الخليج يسمونه العروسة فيلقونه في الخليج وما زال ذلك جارياً الى عهد غير بعيد اثرأا كان يرتكبه المصريون القدماء من العنف كل سنة في شأن الفيضان ثم اخذ عمرو في تنظيم القضاء وكانت امورها الى ذلك العهد منوطة بنواب ماليين

او جهاديين من قبل حكومة الروم يستبدون بالرعية كيف شاؤا وليس من ينصف
فاوجد لهم عمرو المحاكم النظامية وقسمها الى مجالس دائمة وزمنية مؤلفة من اعضاء
ذوي نزاهة واستقامة ومقام رفيع عند الاهلين . ولا بد لنا من ذكر فضل هذا الفاتح
بانه اول من اوجد هذه المحاكم بمصر تحت اسم دواوين . اما اعضاءها فينتخبون من
الاهالي والاحكام تجري بمقتضى عدل القضاة وتستأنف عند الاقتضاء لنقضها او ابرامها
ولم تكن احكام القضاة المسلمين تجري الا على المسلمين باعتبار كونهم من جيش الاحتلال
والقضايا التي فيها احد الخصمين قبطي كان انواب القبط حق الدخول فيها والعمل
بمقتضى قوانينهم الدينية والاهلية

اما اعطيات الجيش فكانت تصرف مما يجي من اموال الخراج وتوزع في الديوان
على الامراء والعمال والاجناد على قدر مراتبهم وبحسب مقاديرهم ويحمل ما يفضل الى
بيت المال . وكان يقال لذلك في صدر الاسلام العطاء وما زال ذلك جارياً في الدول
الاسلامية الى آخر الدولة الفاطمية ثم صارت منذ ايام صلاح الدين تعطى اقطاعات
تفرق على السلطان وامرائه واجناده

وما فتئ عمرو يتخذ الوسائل الممكنة لاكتساب ثقة المصريين ولم يدع فرصة تفوته
في اكتسابها . قيل ان البطريرك بنيامين كان من الطائفة اليقونية وقد اضطهده
هرقل ملك الروم اضطهاداً عظيماً لحفاظته على خطته الدينية وهو لا يبالي بما كان
يهده من المخاوف والاحطار فشدَّ هرقل عليه النكير ومنعه من السلطة الدينية
وهده بالقتل ففر - يطلب ملجأ في بعض الاديرة فأقام هرقل مقامه في زمن الحصار
رجلاً كان بيد المجالس آلة يديرونها كيف شاؤا . وكانت مصر حينئذ منقسمة كما
تقدم الى قسمين دينيين مكيين ويعقوبيين وكان على رئاسة الطائفة الاولى وهي
الاصغر هذا البطريرك الجديد وعلى الطائفة الثانية بطريرك واساقفة اقامهم
هرقل باختياره غير ان الشعب كان يعاملهم بالاحتقار ولم يكن يعتبر الرئاسة الحقيقية
الا لبنيامين المختار قديماً منهم . فعند ما بادت ساطة الروم ورأى القبط من الاسلام
ميلاً ورفقاً عرضوا امرهم الى عمرو وياتسون استرجاع بطريركهم القديم فاستدعاه عمرو
وطيب خاطره واقامه في منصبه وخلع الدين كانوا مكانه فحسب القبط هذا الامر منة
وفضلاً . وازدادوا ثقة وميلاً للمسلمين ولا سيما لما رأوهم يفتحون لهم الصدور ويبيحون
لهم اقامة الكنائس والمعابد في وسط الفسطاط بل وفي وسط جيش الاسلام على حين
انه لم يكن الاسلام معبد فكانوا يصلون ويخطبون في الخلاء



ش ٢٥ - جامع عمرو

ثم عمد عمرو الى بناء جامع على مثال جامع مكة سعة وشكلاً فبناه في الفسطاط قرب حصن بابل وكان في موضعه خان استولى عليه احد رجال عمرو عند الفتح فلما عا:وا من الاسكندرية طلب اليه عمرو ان يجعل منزله هذا مسجداً فرضي وكان النيل يجري بقربه ثم انحسر عنه بعد ذلك غرباً . واتى عمرو بحجارة ذلك الجامع من بقايا منف العظيمة بينها اعمدة كبيرة من الجرانيت وقطع هائلة من الرخام اقيمت بها جدرانه وقد قيل ان القرآن كله كان منقوشاً عليها بالذهب . والجامع المذكور لا يزال الى يومنا هذا في مصر القديمة يعرف باسم جامع عمرو يصلون فيه الجمعة الاخيرة من رمضان . مساحته ٣٥٠ قدماً مربعاً وقد رُم مراراً بحيث لم يبق من البناء الا صلي الاثني زهيد . ومن جملة من جدد في بنائه السلطان المؤيد سنة ٨١٤ هـ وآخرهم مراد بك وهذا لم يكن يحاول ذلك الا طمعاً بمخباته او عز اليه انها مدفونة في بعض اجزائه كما سترى . واذا زرت هذا الجامع الآن رايت كالحراب وقد سقطت اعمدته الرخامية التي كانت على الجانبين وفي صحنه حنفية وشجرة وفي ارض ليوانه صهريج

وفي هذا الجامع كانت تعطى قبالات الاراضي وهي ان متولي الخراج كان يجلس فية زمان تثن فيه قبالة الارضين (التزامها) ومجتمع الناس من القرى والمدن فيقوم رجل ينادي على البلاد صفقات (وكانت صفقة البيع عند العرب ان يضرب المشتري بيده على يد البائع ان رضي البيع ثم سمي عقد البيع الصفقة) وكتاب الخراج بين يدي متولي الخراج يكتبون ما ينتهي اليه مبالغ السكور والصفقات على من يتقبلها من

الناس وكانت البلاد يتقبلها متقبلوها بالاربع سنين لاجل الظماً والاستبحار وغير ذلك فاذا انقضى الامر خرج كل من كان تقبل ارضاً وضمها الى ناحيته فيتولى زراعتها واصلاح جسورها وسائر وجوه اعمالها بنفسه واهله ومن ينتدبه لذلك ويحمل ما عليه من الخراج في ابانه على اقساط ويحسب له من مبلغ قبائله وضمانه لتلك الاراضي ما ينفقه على عمارة جسورها وسد ترعها وحفر خلجانها بضريبة مقدرة في ديوان الخراج . ويتأخر من مبالغ الخراج في كل سنة في جهات الضمان والمتقبلين فكان اذا تأخر من مال الخراج البواقي تشدد الولاة في طلبه مرة وتسامح به مرة فاذا مضى من الزمان ثلاثون سنة حولوا السنة وراكبوا البلاد كلها وعدلوها تعديلاً جديداً فيزيدون فيما يحتمل الزيادة من غير ضمان البلاد ويتقصون فيما يحتاج التنقيص منها ولم يزل ذلك يعمل في جامع ابن العاص الى ان بنى احمد بن طولون جامعه

مخبرات بين ابن الخطاب وابن العاص

والمفتتحون اجدر الناس باتباع الرفق بمن اصبحوا من رعاياهم وقد ضربت عليهم المسكنة بعد ان كانوا اصحاب البلاد ويدهم الحل والعقد والظاهر ان عمراً كان على بينة من ذلك وقد جرى عليه لانه كان يحمل من المصريين ويمهلهم في دفع الخراج الى حد ان يوقع فيه مظنة الخليفة ويحكي ان الخليفة استبطأ الخراج من عمرو فكتب اليه : « بسم الله الرحمن الرحيم من عبد الله عمر امير المؤمنين الى عمرو بن العاص سلام الله عليك فاني احمد الله اليك الذي لا اله الا هو اما بعد فاني فكرت في امرك والذي انت عليه فاذا ارضك ارض واسعة عريضة رفيعة وقد اعطى الله اهلها عدداً وجلداً وقوة في بر وبحر وانها قد عالجتها الفراعنة وعملوا فيها عملاً محكماً مع شدة عنتوهم وكفرهم فعجبت من ذلك واعجب مما عجبت انها لا تؤدي نصف ما كانت تؤديه من الخراج قبل ذلك على غير قحوط ولا جذب . ولقد اكرت في مكاتبتك في الذي على ارضك من الخراج وظننت ان ذلك سيأتينا على غير نزر ورجوت ان تفيق فترفع الي ذلك فاذا انت تأتيني بمعاريض تعباً بها لاتوافق الذي في نفسي . لست قابلاً منك دون الذي كانت تؤخذ به من الخراج قبل ذلك ولست ادري مع ذلك ما الذي نفرك من كتابي وقبضك فلئن كنت مجرباً كافياً صحيحاً ان البراءة لنافعة وان كنت مضيعاً نطعاً ان الامر لعل غير ما تحدث به نفسك . وقد تركت ان ابتلي ذلك منك في العام الماضي رجاء ان تفيق فترفع الي ذلك وقد علمت انه لم يمنعك من ذلك الا ان عمالك عمال السوء وما توالس عايتك وتلفف اتخدواك كهفاً وعندي باذن الله دواء فيه شفاء عما اسألك فيه فلا تجزع ابا عبد الله ان يؤخذ منك الحنق وتعطاه فان النهر يخرج الدر والحق ابلج ودعني وما

عنه تلجلج فانه قد برح الخفاء والسلام »

فكتب اليه عمرو « بسم الله الرحمن الرحيم لعبد الله عمر امير المؤمنين من عمرو بن العاص سلام الله عليك فاني احمد الله الذي لا اله الا هو اما بعد فقد بلغني كتاب امير المؤمنين في الذي استبطني فيه من الخراج والذي ذكر فيه من عمل الفراعنة قبلي واعجابه من خراجها على ايديهم ونقص ذلك منها مذ كان الاسلام واعمرى للخراج يومئذ اوفر واكثر والارض اعمر لانهم كانوا على كفرهم وعتوهم ارغب في عمارة ارضهم منا مذ كان الاسلام . وذكرت ان النهر يخرج الدر فاجبتها حاباً قطع درها . واكثر في كتابك وانبت وعرضت وتربت وعلمت ان ذلك عن شيء تخفيه على غير خبر فحيت لعمرى بالمقاطعات المقدمات ولقد كان لك فيه من الصواب من القول رصين صارم بليغ صادق . ولقد عملنا لرسول الله (صام) ولمن بعده فكنا بحمد الله مؤدين لامانتنا حافظين لما عظم الله من حق أمتنا نرى غير ذلك قبيحاً والعمل شيناً فتعرف ذلك لنا وتصديق فيه قبانا . معاذ الله من تلك الطعم وشر الشيم والاجترأ على كل ما تم فامض عمالك فان الله قد نزهني عن تلك الطعم الدنية والرغبة فيها بعد كتابك الذي لم تستبق فيه عرضاً ولم تكرم فيه اخاً والله يا ابن الخطاب لانا حين يراد ذلك مني اشد غضباً لنفسي ولها انزاهاً واكراماً . وما عملت من عمل ارى عليه فيه متعاقاً ولكنني حفظت ما لم تحفظ ولو كنت من يهود يثرب ما زدت يغفر الله لك ولنا وسكت عن اشياء كنت بها علماً وكان اللسان بها مني ذلولاً ولكن الله عظم من حقتك ما لا تجهل »

فكتب اليه الخليفة « من عمر بن الخطاب الى عمرو بن العاص سلام عليك فاني احمد اليك الله الذي لا اله الا هو اما بعد فاني قد عجزت من كثرة كتبي اليك في ابطائك بالخراج وكتابك الي ببنيات الطرق وقد علمت اني لست ارضى منك الا بالحق البين ولم اقدمك الى مصر اجعلها لك طعمة ولا لقومك ولكني وجهتك لما رجوت من توفيرك الخراج وحسن سياستك فاذا اتاك كتابي هذا فاحمل الخراج فانما هو فيء وعندى من قد تعلم قوم محصورون والسلام »

فكتب اليه عمرو « بسم الله الرحمن الرحيم لعمر بن الخطاب من عمرو بن العاص سلام عليك فاني احمد اليك الله الذي لا اله الا هو اما بعد فقد اتاني كتاب امير المؤمنين يستبطني بالخراج ويزعم اني احيد عن الحق وانك عن الطريق واني والله ما ارغب عن صالح ما تعلم ولكن اهل الارض استنظروني ان تدرك غلتهم فنظرت للمسلمين فكان الرفق بهم خيراً من ان نخرق بهم فيصيروا الى بيع ما لا غنى لهم عنه والسلام »

فكف الخليفة وقد كان محمولا على ما أنبه به ممن كان يناظر عمراً على ولاية مصر

فتح دمياط وتانيس

فهذه المعاملة وامثالها جعلت للعرب منزلة رفيعة عند المصريين فرضخوا لهم الا الهاموك حاكم دمياط وهو من السبأ المقوقس فانه امتنع عن التسليم واستعد للحرب فانفذ اليه عمرو والمقداد بن الاسود في طائفة من المسلمين فخرج اليهم الهاموك وحاربهم حتى قتل ابنه بالحرب فعاد الى دمياط وجمع اليه اصحابه فاستشارهم في امره وكان عنده حكيم قد حضر الشورى فقال له « ايها الملك ان جوهر العقل لا قيمة له وما استغنى به احد الا هداه الى سبيل الفوز والنجاة من الهلاك وهولاء العرب من بدء امرهم لم ترد لهم راية وقد فتحوا البلاد واذلوا العباد وما لاحد عليهم قدرة واسنا باشد من جيوش الشام ولا أعز وامنع وان القوم قد أيدوا بالنصر والظفر والراي ان تعقد مع القوم صلحاً تنال به الامن وحقق الدماء وصيانة الحرم فما انت باكثر رجلاً من المقوقس » فلم يعبأ الهاموك بقوله وغضب منه فقتله وكان له ابن عاقل وله دار ملاصقة للسور فخرج الى المسلمين في الليل ودلهم على عورات البلاد فاستولى المسلمون عليها وتمكنوا منها فلما برز الهاموك للحرب لم يشعر بالمسلمين الا وهم يكبرون على سور البلاد فاستأمن للمقداد فتسلم المسلمون دمياط واخبروا عمراً بذلك . ثم خرج شطا بن الهاموك بعد ان اسلم الى البرلس والدميرة واشموم طناس فحشد اهل تلك النواحي وجعلهم مدداً للمسلمين وسار بهم مع المسلمين لفتح تانيس فبرز لاهلها وقاتلهم حتى قتل في المعركة في ليلة الجمعة نصف شعبان بعد ما أنكل فيهم فحمل من المعركة ودفن في مكانه المعروف به خارج دمياط يحيون فيه ليلة نصف شعبان من كل سنة . ولم يكف المسلمون عن تانيس حتى فتحوها

الفتح الاسلامي احتلال عسكري

١١ فتح المسلمون البلاد لم يتولوا حكومتها كمرأيت بل نزلوا خارجها في معسكراتهم كالمحتلين يستولون على الخراج والجزية ويراقبون الاحكام . فعمرو بن العاص وجنده لما فتحوا مصر نزلوا في الفسطاط والاسكندرية وتركوا سائر قرى مصر بأيدي القبط . ولم يسكن احد من المسلمين بالقرى وانما كانت رابطة تخرج الى الصعيد حتى اذا جاء اوان الربيع انتشر الاتباع في القرى لرعي الدواب ومعهم طوائف من السادات وكان الخليفة عمر بن الخطاب مع ذلك ينهى الجند عن الزرع ويبعث الى

امراء الاجناد باعطاء الرعية اعطياتهم وارزاق عيالهم وبنهاهم عن الزرع
 وكان عمرو يقول لرجاله اذا رجعوا من غزوهم « انه قد حضر الربيع فمن احب
 منكم ان يخرج بفرسه بربعه فليفعل ولا اعلمن ما ينفع من اسمن نفسه واهزل فرسه .
 فاذا حمض اللبن وكثر الذباب ولوى العود فارجعوا الى قيرورتكم » وذكر ان قريزي
 خطبة لعمرو في هذا المعنى رواها عن بحير بن ذاخر المعافري وفيها وصف عمرو بن
 العاص وابته قال المعافري :

« رحت انا ووالدي الى صلاة الجمعة تهجيراً وذلك بعد حيم النصارى بأيام يسيرة
 فأطلنا الركوع اذا قبل رجال بأيديهم السياط يزجرون الناس فدعرت فقلت يا أبت
 من هؤلاء فقال يا بني هؤلاء الشرط . فأقام المؤذنون الصلاة فقام عمرو بن العاص على
 المنبر فرأيت رجلاً ربعة قصير القامة وافر الهامة ادعج أبايج عليه ثياب موشاة كأن
 به العقبان تأتلق عليه حلة وعمامة وجبة فحمد الله وأثنى عليه حمداً موجزاً وصلى على
 النبي صلى الله عليه وسلم ووعظ الناس وامرهم وبنهاهم فسمعتة يحض على الزكاة وصلة
 الارحام ويامر بالاقتصاد وينهي عن الفضول وكثرة العيال واخفاض الحال على ذلك فقال :

خطبة عمرو

« يا معشر الناس اياكم وخللاً اربعاً فانها تدعو الى النصب بعد الراحة والى
 الضيق بعد السعة والى الندلة بعد العزة اياكم وكثرة العيال واخفاض الحال وتضييق
 المال والقييل بعد القال في غير درك ولا نوال . ثم انه لا بد من فراغ يؤول اليه المرء
 في توديع جسمه والتدبير لشأنه وتخليته بين نفسه وبين شهواتها . ومن صار الى
 ذلك قليلاً خذ بالقصد والنصيب الاقل ولا يضيع المرء في فراغه نصيب العلم من
 نفسه فيجوز من الخير عاطلاً وعن حلال الله وحرامه غافلاً . يا معشر الناس انه قد
 تدات الجوزاء وذات الشعرى وأقلعت السماء وارتفع الوباء وقل الندى وطاب المرعى
 ووضعت الحوامل ودرجت السخائل وعلى الراعي بحسن رعيته حسن النظر فحي لكم
 على بركة الله تعالى الى ريفكم فنادوا من خيره وابنه وخرافه وصدده واربعوا خيولكم
 وأسمنوها وصونوها وأكرموها فانها جنتكم من عدوكم وبها مغانمكم وأنفالكم .
 واستوصوا بمن جاورتموه من القبط خيراً واياكم والمومسات المعسولات فانهن يفسدن
 الدين ويقصرن الهمم . حدثني عمر أُمير المؤمنين انه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم
 يقول ان الله سيفتح عليكم بعدي مصر فاستوصوا بقبطها خيراً فان لهم فيكم صهراً وخدمة
 فكفوا ايديكم وعفوا فروجكم وغضوا ابصاركم . ولا اعلمن ما اتى رجل قد اسمن
 جسمه وأهزل فرسه واعلموا اني معترض الخيل كاعتراض الرجال فمن اهزل فرسه

من غير علة حططته من فريضته قدر ذلك . واعلموا انكم في رباط الى يوم القيامة لكثرة الاعداء حولكم وتشوف قلوبهم اليكم والى داركم معدن الزرع والمال والخير الواسع والبركة النامية . وحدثني عمر أمير المؤمنين انه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول اذا فتح الله عليكم مصر فاتخذوا فيها جنداً كثيفاً فذلك الجند خير اجناد الارض فقال له ابو بكر رضى الله عنه ولم يارسول الله . قال لانهم وازواجهم في رباط الى يوم القيامة . فاحمدوا الله يا معشر الناس على ما اولاكم فتمتعوا في ريفكم ما طاب لكم فاذا ينس العود وسخن الماء وكثر الذباب وحمض اللبن وصوح البقل وانقطع الورد من الشجر فحي الى فسطاطكم على بركة الله . ولا يقدم من احد منكم ذو عيال الا ومعه تحفة اعياله على ما اطاق من سعته او عسرتة . أقول قولي هذا واستحفظ الله عليكم » اهـ

خليج امير المؤمنين

ومن الاعمال العظيمة التي أجريت على يد عمرو بن العاص احتفارا لخليج الموصل بين النيل والبحر الاحمر سنة ٢٣ هـ ودعاه خليج امير المؤمنين . وسبب ذلك ان الناس بالمدينة اصابهم جهد شديد في سنة الرمادة فكتب الخليفة الى عمرو بن العاص ما نصه : « من عبد الله عمر امير المؤمنين الى العاصي بن العاصي سلام . اما بعد فلعمري يا عمرو ما تبالي اذا شبت انت ومن معك ان اهلك انا ومن معي فيا غوثاه ثم يا غوثاه » فكتب اليه عمرو « الى امير المؤمنين من عبد الله عمرو بن العاص اما بعد فيا بيبك ثم يا بيبك قد بعثت اليك بعير اولها عندك وآخرها عندي والسلام » اراد بذلك انه ارسل له قافلة من الجمال عظيمة الجمل الاول منها في المدينة والآخر في مصر يتبع بعضها بعضاً . فلما قدمت على الخليفة وسع بها على الناس ودفع الى اهل كل بيت بعيراً بما عليه من الطعام لياً كلوا الطعام ويأندموا بلحمه ويحتنوا بجلده وينتفعوا بالوعاء الذي كان فيه الطعام فيما ارادوا من لحاف وغيره . فلما رأى الخليفة ذلك حمد الله وكتب الى عمرو ان يقدم اليه هو وجماسته من اهل مصر فقدموا . فانفرد بعمرو وقال له « يا عمرو ان الله قد فتح على المسلمين مصر وهي كثيرة الخير والطعام وقد اتى في روعي لما احببت من الرفق باهل الحرمين والتوسعة عليهم حين فتح الله عليهم مصر وجعلها قوة لهم والجميع المسلمين والعرب قد تشاءمت بي وكادت ان تغلب على رحلي وقد عرفت الذي اصابها . وليس جند من الاجناد ارجى عندي ان يغيث الله بهم اهل الحجاز من جندك فان استطعت ان تحتال لهم حيلة حتى يغيثهم الله تعالى » فقال عمر « ما شئت يا امير المؤمنين قد عرفت انه كانت تاتينا سفن فيها بحار من اهل مصر قبل الاسلام من خليج

كان مفتوحاً بين النيل المبارك وبحر القلزم فلما فتحنا مصر انقطع ذلك الخليج واستد وتركه التجار فان شئت ان نحفره فننشئ فيه سفناً يحمل فيها الطعام الى الحجاز فعلته « فقال الخليفة نعم فافعل واما خرج عمرو من حضرة امير المؤمنين لاقاه الذين اتوا معه من مصر فذكر لهم ما كان من حديث الخليفة فقالوا « ماذا جئت به اصرح الله الامير تريد ان تخرج طعام ارضك وخصبها الى الحجاز وتخرب هذه فان استطعت فاستقل من ذلك » فاستصوب قولهم ثم جعل يتردد بين الامرين

فلما حان اوان عوده الى مصر ذهب لوداع امير المؤمنين فقال له « يا عمرو انظر الى ذلك الخليج ولا تنسين حفره » فاجاب عمرو « يا امير المؤمنين انه قد انسد وتدخل فيه نفقات عظيمة » فقال له « اما والذي نفسي بيده اني لا ظنك حين خرجت من عندي حدثت بذلك اهل ارضك فعظموه عليك وكرهوا ذلك اعزم عليك الا ما حفرته وجعلت فيه سفناً » فقال عمرو « يا امير المؤمنين انه متى ما يجده اهل الحجاز طعام مصر وخصبها مع صحة الحجاز لا يخفوا الى الجهاد » فقال الخليفة « اني سأجعل من ذلك امراً ألا يحمل في هذا البحر الا رزق اهل المدينة واهل مكة » فافهم عمرو وعاد الى مصر وبادر لساعته حفر الخليج ومعالجته وجعل فيه السفن ودعاه « خليج امير المؤمنين » ولم يزل يحمل فيه الطعام حتى حمل فيه بعد ذلك عمر بن عبد العزيز ثم ضيعه الولاة فاهمل وسياأتي تفصيل ذلك عند الكلام على ترعة السويس في ايام الخديوي اسماعيل باشا

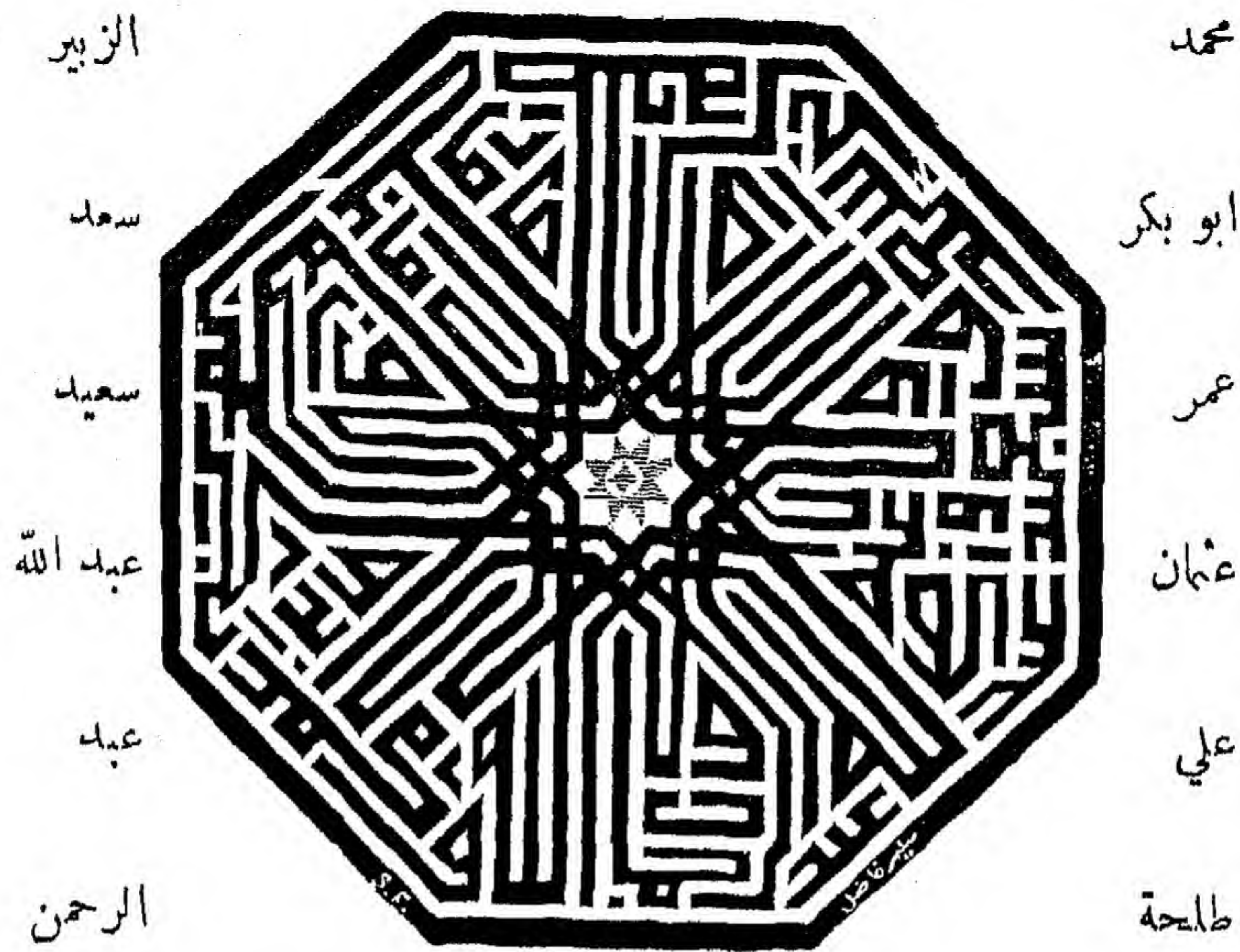
وفي خلال ذلك تجند عمرو الى الغرب ففتح برقة وصالحه اهلها على الجزية ثم سار الى طرابلس الغرب ففتحها ايضاً وكتب الى الخليفة بذلك سنة ٢٢ للهجرة

خلافة عثمان بن عفان

من سنة ٢٣ — ٣٥ هـ او من ٦٤٤ — ٦٥٥ م

وبعد فتح طرابلس الغرب بقليل قتل الامام عمر بن الخطاب قتله عبد فارسي يقال له فيروز الملقب بابي لؤاؤة كان عبداً للمغيرة بن شعبة في ٢٦ ذي الحجة سنة ٢٣ هـ بعد ان تولى الخلافة عشر سنين وخمسة اشهر وثمانية وعشرين يوماً ونادى قبل وفاته بعبد الرحمن بن عوف فصلى في الناس ثم قيل لو استخلفت يا امير المؤمنين فقال « دعوني اعهد الى النفس الذين توفي رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وهو عنهم

راضٍ « ثم دعا علياً وعثمان والزبير وسعداً فقال « انتظروا اخاكم طلحة ثلاثاً فان جاءه والا فاقضوا امركم فقد قبض رسول الله وهو عنكم راض واني لا اخاف الناس عليكم ان استقمتم ولكفي اخافكم فيما بينكم فيختلف الناس فانهمضوا الى حجرة عائشة باذنها فتشاوروا فيها ثلاثة ايام ولا يأتين اليوم الرابع الا وعايكم امير منكم . ويحضر عبد الله بن عمر (ابنه) مشيراً ولا شيء له من الامر . وطلحه شريككم في الامر فان قدم في الايام الثلاثة فاحضروه امركم وان مضت الايام الثلاثة قبل قدومه فامضوا امركم . انشدك الله يا علي ان وليت من امور الناس شيئاً ان تحمل بني هاشم على رقاب الناس انشدك الله يا عثمان ان وليت من امور الناس شيئاً ان تحمل بني معيط على رقاب الناس انشدك الله يا سعد ان وليت من امور الناس شيئاً ان تحمل اقاربك على الناس فتشاوروا واقضوا امركم وليصل بالناس صهيب . وتري في الشكل السادس والعشرين اسم الجلالة واسم الرسول واسماء الصحابة المتقدم ذكرهم مع اسماء الخلفاء الراشدين مكتوبة بالحرف الكوفي في شكل جميل



ش ٢٦ — اسماء الجلالة والرسول والصحابة بالحرف الكوفي

وبعد وفاة عمر تشاور الصحابة فيما اوصاهم به عمر فبايعوا عثمان بن عفان في ٣ محرم سنة ٢٤ هـ . وفي سنة ٢٥ عزل عثمان بن عفان عمرو بن العاص عن مصر وولى عبد الله بن سعد بن ابي سرح اخاه من الرضاعة وكان عاملاً على الصعيد في اماره عمرو.

فلما تولى اماره مصر جى خراجها للسنة الاولى ١٤ مليوناً من الدنانير وكان عمرو لا يجي اكثر من ١٢ مليوناً فقال عثمان لعمرو « يا ابا عبد الله درت اللقحة باكثر من درها الاول » فاجابه عمرو « لقد اضررتهم بولدها ذلك ان لم يمت الفصيل »

وفي اثناء ذلك انفذ الروم حملة من جنودهم لاسترجاع مصر من المسلمين وسبب ذلك ان الروم في القسطنطينية عظم عليهم فتح المسلمين الاسكندرية وظنوا انهم لا يمكنهم المقام في بلادهم بعد خروج الاسكندرية من يدهم فكتبوا من كان فيها من الروم ودعوهم الى نقض الصلح فاجابوهم لانهم رأوا الجو خاليا لهم بعد موت الامام عمر لانه كان يبعث كل سنة غازية من اهل المدينة ترابط بالاسكندرية . وكان على الولاء لا يغفلها ويكنف مرابطها ولا يامن الروم عليها . فسارت الجيوش من القسطنطينية في المراكب تحت قيادة منويل الخصى . فلما بلغوا الاسكندرية كان عليها المقوقس فمنعهم من الدخول فنزلوا في ساحلها وانضم اليهم من كان فيها من الروم اما المقوقس ومن معه من جماعة القبط فلم ينقضوا عهدهم مع المسلمين فسأل اهل مصر الخليفة ان يقر عمرو بن العاص حتى يفرغ من قتال الروم فان له معرفة بالحرب وهيبة في العدو ففعل . فنزل عمرو الفسطاط يتأهب لمناهضة الروم . وكان حول الاسكندرية سور فخاف عمرو ان اظفره الله عليهم ليهدم من سورها حتى تكون مثل بيت الزانية تؤتى من كل مكان . فقال خارجة ابن حذافة لعمرو « ناهضهم قبل ان يكثر مددهم فلا آمن ان تنقض مصر كلها » فقال عمرو « لا ولكن ادعهم حتى يصيروا الي فانهم يصيبون من مرشوا به فيخزي الله بعضهم ببعض » فخرجوا من الاسكندرية ومعهم من نقض من اهل القرى فجعلوا ينزلون القرية فيشربون خمورها ويأكلون اطعمتها وينهبون ما مروا به فسار اليهم عمرو ولم يتعرض لهم حتى بلغوا نقيوس فلقوهم في البر والبحر فبدات الروم القبط بالنشاب فاستأخر المسلمون عنهم شيئاً وكانت الروم قد تأهبت صفوفاً خلف صفوف فبرز احد كبار الفرسان من الروم عليه سلاح مذهب فدعا الى البراز فبرز اليه رجل من زبيد يقال له حومل يكنى ابا مذحج فاقتتلا طويلاً برمحين يتطاردان ثم التى الرومي الرمح واخذ السيف فالتى حومل رمحه واخذ سيفه وكان يعرف بالنجدة فجعل عمرو يصيح ابا مذحج فيجيبه لبيك والناس على الجانبين وقوف في صفوفهم كان على رؤوسهم الطير فتجاوا لاساعة بالسيف ثم حمل الرومي فاحتله حومل واخترط خنجرأ كان في منطقه فضربه به في نحره فسقط ميتاً فوثب اليه واخذ سابه ثم مات حومل بعد ذلك ودفن في المقطم . فاشتد المسلمون وانهزم الروم فطلبهم المسلمون حتى الحقوهم بالاسكندرية

وقتلوا منويل الخصي وأنحنوا في رجاله فاستنجدوا المسلمين فأمر عمرو برفع السيف عنهم وبني في ذلك الموضع الذي رفع فيه السيف مسجداً دماه مسجد الرحمة إشارة الى رفع السيف هناك وهدم سور المدينة . ثم جمع ما اصاب منهم فجاءه اهل تلك القرى ممن لم يكن نقض فقالوا « قد كنا على صلحنا وقد مر علينا هؤلاء اللصوص فأخذوا منا عنا ودوابنا وهو قائم في يديك » فرد عليهم عمرو ما كان لهم من متاع عرفوه واقاموا عليه البينة فقال بعضهم لعمرو « ما حل لك ما صنعت بنا فقد كان لنا ان تقاتل عنا لاننا في ذمتك ولم نقض فاما من نقض فابعده الله » فندم عمرو وقال يا ليتني كنت لقيتهم حين خرجوا من الاسكندرية

ولما انهزم الروم وسكنت القلوب اراد الخليفة ان يكون عمرو على جند مصر وعبد الله بن سعد على خراجها فقال عمرو « انا اذا كقابض على البقرة بقرنيها وآخر يستدرها » فأبى عمرو وتمسحى عن مصر فعاد عليها عبد الله بن سعد وفي سنة ٢٧ هـ غزا عبد الله بن سعد افريقية فقتل ملكها جرجير وضم البلاد الى حكمه

وفي سنة ٢٨ هـ غزا قبرص مع معاوية بن ابي سفيان فصالحهم اهلها على جزية سبعة آلاف دينار كل سنة يؤدون الى الروم مثلها لا يمنعهم المسلمون من ذلك وعليهم ان يؤذنوا المسلمين ان يجعلوا طريقهم الى العدو اليهم وفي سنة ٣١ هـ نقضت بلاد النوبة فغزاها عبد الله بن سعد وحصر رجالها في دنقله حصاراً شديداً ورماهم بالمنحنيق ولم تكن النوبة تعرفه وخسف بهم كنيستهم بحجر فبهرهم ذلك فطلب ملكهم « قليدوروث » الصالح وخرج الى عبد الله وابدى ضعفاً وتواضعاً فتلقاءه عبد الله ورفع وقربه ثم قرر الصالح معه على ثلاثماية وستين راساً في كل سنة . وفي هذه السنة غزا ذا الصواري ايضاً

مقتل عثمان

وفي سنة ٣٣ هـ كثرت الاشاعة بالامصار بالطعن على عثمان وعمله وكتب بعضهم الى بعض في ذلك وتوالت الاخبار الى اهل المدينة فجاؤا الى عثمان واخبروه فلم يجدوا عنده علماً منه فقال « اشيروا علي واتم شهود المؤمنين » قالوا « تبعت من تشق به الى الامصار يأتوك بالخبر اليقين » ففعل فجاءته الاخبار فكتب الى اهل الامصار « اني قد رفع الي اهل المدينة ان عمالي وقع منهم اضرار بالناس وقد اخذتهم ان يوافقوني في كل موسم فمن كان له حق فليحضر يأخذ بحقه مني او من عمالي او تصدقوا فان الله يجزي المتصدقين »

وفي سنة ٣٥ هـ بعث الى عمال الامصار فقدموا اليه في الموسم وفيهم عبد الله بن سعد بن ابي سرح من مصر فقال الخليفة « ويحكم ما هذه الشكاية والاذاعة واني اخشى والله ان يكونوا صادقين وانما الامر كائن وبابه سيفتح ولا احب ان يكون لاحد علي حجة في فتحه وقد علم الله اني لم آل الناس خيراً فسكنوا الناس وبينوا لهم حقوقهم » ثم قدم المدينة ودعا علياً وطلحة والزبير ومعاوية حاضر فكلّمهم فأظهروا له وجهه اجحافه بالحقوق

وكان عبد الله بن سعد قد استخلف على مصر عند قدومه الى عثمان عقبة بن عامر وكان فيها محمد بن ابي حذيفة ممن ثاروا على عثمان فجمع اليه عصابة واخرج عقبة بن عامر من القسطنطينية ودعا الى خلع عثمان واسعر البلاد وعرض على عثمان بكل شر يقدر عليه فاعتزلته شيعة عثمان وناشدوه وهم معاوية بن حديج وخارجة بن حذافة وبسر بن قسطاط ومسلمة بن مخلد في جمع كثير وبعثوا الى عثمان بامرهم وما صنع ابن ابي حذيفة فبعث سعد بن ابي وقاص يصلح امرهم فخرج اليه جماعة فقلّبوا قسطنطينية وشجّوه وسبّوه فركب وعاد راجعاً . ولما اقبل عبد الله بن سعد من مكة منعه ان يدخل فالتصّف الى عسقلان وازداد المسلمون تعصباً على عثمان فتكاتبوا من امصارهم في القدوم الى المدينة خفية فخرج المصريون وفيهم عبد الرحمن بن عديس البلوي في الف وخرج اهل الكوفة والبصرة وكلهم في مثل عدد اهل مصر ، وخرجوا جميعاً في شوال مظهرين للحج فلما اتوا المدينة واجهه المصريون علياً وهو عند احجار الزيت فعرضوا اليه امرهم فصاح بهم وطردهم وفعل مثل ذلك طلحة مع البصريين وزبير مع الكوفيين فانصرفوا الى بعد . فتفرق اهل المدينة ظناً منهم ان القوم قد رجعوا عن مرادهم فلم يشعروا الا والتكبير في نواحيها وقد احاط المصريون بعثمان ونادوا بأمان من كف يده فغدا عليهم علي فقال « ما ردكم بعد ذهابكم » قالوا « اخذنا كتاباً مع بريد بقتلنا والكتاب موقع عليه من عثمان » فدخل علي على عثمان واخبره برجوع المصريين فاشرف عثمان على الجمع وخطب فيهم يريد زجرهم فنادوه من كل ناحية « اتق الله يا عثمان وتب اليه » وكان اولهم عمرو بن العاص فرفع الخليفة صوته وقال « انا اول من تعظ واستغفر الله مما فعلت واتوب اليه فليأت اشرافكم يروني رأيهم فوالله ان ردني الحق عبداً لاستن بسنة العبد ولاذان ذل العبد وما عن الله مذهب الا اليه فوالله لاعطينكم الرضا ولا احتجب عنكم » . ثم بكى وبكى الناس ورجع الى منزله فدخل عليه علي ومحمد بن مسلمة وسأله عن اعتراضه على ما يقوله اهل مصر فخلف ما كتب ولا علم ثم دخل عليه

المصريون وقالوا له « جئنا لقتلك فردنا علي ومحمد وضمنا لنا النزوع عن هذا كله فرجعنا ولقينا رسولك ناقلاً كتاباً وفيه امرك لابن ابي سرح (ولم يكونوا عالمين باعمال ابن ابي حذيفة) بجنادنا والمثلة بنا وهو بيد غلامك وعليه خاتمك » فخلف عثمان لا كتب ولا امر ولا علم . فقالوا « كيف يجترأ عليك بمثل هذا فقد استحققت الخلع على التقديرين اذ لا يحل ان يولى الامور من ينهي الى هذا الضعف فاخلع نفسك » فقال « لا أنزع ما البسني الله وليكني اتوب وارجع » قالوا « وأينك تتوب وتعود فلا بد من قتلك » وخرجوا . وبقي محصوراً اربعين يوماً منع عنه الماء في اواخرها وفي ١٨ ذي الحجة دخل عليه اربعة فيهم محمد بن ابي بكر فقتلوه والقرآن في يده فنخضب بالدماء . وهجمت نائلة امراته لشحميه بيدها فاصيبت بضربة قطعت اصابعها . وبقي في بيته ثلاثاً ثم جاء حكيم بن حزام وجبير بن مطعم الى علي فأذن لهما بدفنه فخرجا به ومعهما الزير والحسن وابو جهم ابن حذيفة ومروان فدفنوه في حش كوكب بعد ان تولى الخلافة ١٢ سنة الا ١٢ يوماً والاعلم اهل مصر بقتل عثمان ثار المتشيعون له فيها وعقدوا المعاوية بن حديج وبايعوه على الطلب بدم عثمان فسادوا الى الصعيد فبعث اليهم ابن ابي حذيفة خيلاً فهزمت ومضى ابن حديج الى برقة ثم رجع الى الاسكندرية فبعث اليه ابن ابي حذيفة جيشاً آخر فالتقى به في خربتا في اول شهر رمضان سنة ٣٦ فاقتلوا وكانت النصره لشعبة عثمان وانهزم الجيش واقامت شعبة عثمان في خربتا

خلافة علي بن ابي طالب

من سنة ٣٥ — ٤١ هـ او من ٦٥٥ — ٦٦١ م

اما ما كان من امر الخلافة فان طلحة والزبير والمهاجرين والانصار اجتمعوا الى علي ببايعونه فأبى وقال « اكون لكم وزيراً خير من ان اكون اميراً ومن اخترتم رضيته » فالحوا عليه قائلين « لانعلم احق منك ولا نختار غيرك » فبايعوه في المسجد بالمدينة يوم الجمعة في ٢٤ ذي الحجة سنة ٣٥ واول من بايعه طلحة ثم الزبير ثم بايعه الناس وبايعته الانصار وتاخر منهم قليلون فخطب خطبته الاولى في الناس بعد حمد الله فقال « ان الله انزل كتاباً هادياً يبين فيه الخير والشر فنخذوا بالخير ودعوا الشر . الفرائض الفرائض ادوها الى الله تعالى يودركم الى الجنة . ان الله حرم حرمت غير مجهولة وفضل

حرمة المسلم على الحرم كلها وشدة بالاخلاص والتوحيد حقوق المسلمين . فالمسلم من سلم
المسلمون من لسانه ويده الا بالحق ولا يحل دم امرء مسلم الا بهاء يجب . بادروا امر العامة
وخاصة احدكم الموت فان الناس امامكم وان ما خالفكم الساعة تحذوكم تخففوا تلحقوا
فانما ينتظر الناس اخراهم . اتقوا الله عباد الله في بلاده وعباده انكم مسؤولون حق عن
البقاع والبهائم اطيعوا الله فلا تعصوه واذا رأيتم الخير فخذوا به واذا رأيتم الشر فدعوه
واذكروا اذا انتم قاييل مستضعفون في الارض »

ثم رجع الى بيته ودخل عليه طلحة والزبير وعدد من اصحابه فقالوا « يا علي انا
قد اشترطنا اقامة الحدود وان هولاء القوم قد اشتركوا في قتل هذا الرجل واحلوا
بانفسهم » فقال « يا اخوتاه اني است اجهل ما تعلمون ولكن كيف اصنع بقوم يملكوننا
ولا نملكهم ها هم هولاء قد ثارت معهم عبادانكم وثابت اليهم اعرابكم وهم اخلاطكم
يسومونكم ما شاؤوا فهل ترون موضعاً لقدرة على شيء مما تريدون » قالوا لا . فقال « فلا
والله لا ارى الا رايأ ترونه ابدأ الا ان يشاء الله . ان هذا الامر امر جاهلية وان
لهؤلاء القوم مادة وذلك ان الشيطان لم يشرع شريعة قط فيبرح الارض آخذاً بها ابدأ
ان الناس من هذا الامر ان حرك على امور فرقة ترى ما ترون وفرقة ترى ما لا ترون
وفرقة لا ترى هذا ولا هذا حتى يهدأ الناس وتقع القلوب مواقعها وتؤخذ الحقوق
فاهداً واعني وانظروا ماذا يأتكم ثم عودوا واشتدوا على قريش » فخرجوا من عنده
وقد اضرروا له شراً

وكان معاوية لما توجه الى ولايته في الشام اخذ قيص عثمان الملقب بالدماء واصابع
نائلة امراته وعلق القميص في المنبر وجعل يخطب في الناس ويغرس في اذانهم ان قاتل
عثمان انما هر علي ويحترقهم على معاملة القاتل بالقتل وشدد النكير على علي فالتفت حوله
دعائه رغبة في الانتقام

ومما زاد اعداء الامام علي عدداً انه لم تدخل سنة ٣٦ هـ حتى عزل جميع من كانوا
على الامصار في ايام عثمان وولى مكانهم من راي من المتقربين فبعث عثمان بن حنيف
على البصرة وعمار بن شهاب على الكوفة وعبدالله بن عباس على اليمن . ولما علم بقتل
محمد بن ابي حذيفة ولى مكانه قيس بن سعد على مصر وسهل بن حنيف على الشام
عوضاً من معاوية . اما سهل فخرج حتى اذا كان في تبوك لقيته خيل فقالوا من انت قال
امير قالوا على اي شيء قال على الشام فقالوا « ان كان بعثك عثمان فاهلاً بك وان كان
بعثك غيره فارجع » قال اما سمعتم بالذي كان قالوا بلى فرجع الى علي

قيس بن سعد على مصر

اما قيس بن سعد فكان صاحب راية الانصار مع النبي وكان من ذوي الراي والبأس وكان ضخماً جسيماً صغير الرأس طويلاً جداً مطاعاً جواداً كريماً يعد من دعاة العرب وانا ولاء عليّ بن علي مصر قال له «سر الى مصر فقد وليتها واخرج الى رجلك واجمع اليك ثقاتك ومن احببت ان يصحبك حتى تأتيتها ومعك جند فان ذلك ارهب لعدوك واعز لوليك واحسن الى المحسن واشد على المريب وارفق بالعامّة والخاصة فان الرفق بمن» فقال له قيس «اما قولك اخرج اليها بجند فوالله لئن لم ادخلها الا بجند آتيتها به من المدينة لا ادخلها ابداً فانا ادع ذلك الجند لك تبعهم في وجوهك» فخرج قيس حتى دخل مصر في مستهل رجب سنة ٣٧ هـ بسبعة من اصحابه فصعد المنبر وامر بكتاب الخليفة فقرأ على اهل مصر بامارته ويأمرهم بمبايعته واعانته على الحق وقال «الحمد لله الذي جاء بالحق وامات الباطل وكبت الظالمين . ايها الناس انا قد بايعنا خير من نعلم بعد نبينا فقوموا فبايعوه على كتاب الله وسنة رسوله فان نحن لم نعمل لكم بذلك فلا بيعة لنا عليكم» فقام الناس وبايعوا واستقامت مصر . وبعث عليها عماله الا خربت وفيها من قد اعظموا قتل عثمان وعليهم رجل من بني كنانة اسمه يزيد بن الحرث فبعث الى قيس يدعوه الى الطلب بدم عثمان وكان مسامة بن مخلد قد اظهر الطلب ايضاً بدم عثمان فارسل اليه قيس «ويحك اعليّ تثب فوالله ما احب ان لي ملك الشام الى مصر واني قتلتك» فبعث اليه مسامة «اني كافّ عنك ما دمت على مصر» وكان معاوية لا يزال ساعياً على علي فلما رأى مصر قد استقام امرها خاف ان يقبل علي في العراق وقيس في مصر فيقع هو بينهما فكتب الى قيس «سلام عليك اما بعد فانكم نقمتم على عثمان ضربة بسوط او شتيمة رجل او تسير آخر واستعمال فتى وقد علمتم ان دمه لا يحل لكم فقد ركبتم عظيماً وجئتم امراً اذا فنب الى الله يا قيس فاني من المجلبين على عثمان فاما صاحبك فانا استيقنا انه هو الذي اغرى الناس وحملم حتى قتلوه وانه لم يسلم من دمه عظم قومك فان شئت يا قيس ان تكون ممن يطالب بدم عثمان فافعل وتابعنا على امرنا ولك سلطان العراقين اذا ظهرت ما بقيت ولمن احببت من اهلك سلطان الحجاز ما دام لي سلطان وساني ما شئت فاني اعطيك واكتب اليّ برأيك» فلما جاءه الكتاب احب ان يرافعه ولا يبيدي له امره ولا يتعجل الى حربه فكتب اليه «اما بعد فاني لم اقرار شيئاً مما ذكرته وما اطلعت لصاحبي على شي منه وما ذكرت ان عظم عشيرتي لم يسلم فاول الناس كان فيه قياماً عشيرتي واما متابعتك

فهذا امرلي فيه نظر وفكرة وليس هو مما يسرع اليه . وانا كاف عنك وليس يأتيك من قبلي ما تكرهه حتى ترى ونرى ان شاء الله تعالى » فلما قرا معاوية كتابه رآه متقارباً متباعداً فكتب اليه « اما بعد فقد قرأت كتابك فلم ارك تدنو فاعدك سالماً ولا تتباعد فاعدك حرباً وليس مثلي يصالح الخادع وينخدع للمكيد ومعه عدد الرجال واعنة الخيل والسلام » فلما قرا قيس الكتاب ورأى انه لا تفيد معه المرافعة والمماطلة عمد الى مكاشفته بما في نفسه فكتب اليه « اما بعد فالعجب من اغترارك بي وطمعك في » واستسقاطك اياي اتسومي الخروج عن طاعة اولى الناس بالامارة واقولهم بالحق واهداهم سبيلاً واقربهم من رسول الله (صلعم) وسيلة وتأمرني بالدخول في طاعتك طاعة ابعد الناس من هذا الامر واقولهم بالزور واضلهم سبيلاً وابعدهم من رسول الله وسيلة ولد الضالين مضلين طاغوت من طواغيت ابليس . واما قولك اني مالي عليك مصر خيلاً ورجلاً فوالله ان لم اشغلك بنفسك حتى تكون اهم اليك انك لذو جد والسلام »

فلما رأى معاوية كتابه قنط منه وثقل عليه مكانه ولم تنجع فيه حيله فجعل يسمي في كيد افساداً بينه وبين علي فقال لاهل الشام « لا تسبوا قيساً ولا تدعوا الى غزوه فانه لنا شيعة تاتينا كتبه ونصيحته سرّاً الا ترون ما يقع باخوانكم الذين عنده من اهل خربتنا يجري عليهم اعطياتهم وارزاقهم ويحسن اليهم » واتقانا لمكيدته افنعل كتاباً عن قيس اليه بالطلب بدم عثمان والدخول معه في ذلك وقرأه على اهل الشام . فبلغ ذلك علياً فاعظمه واكبره فدعى ابنه وعبد الله بن جعفر واعلمهم بذلك

فقال ابن جعفر « يا امير المؤمنين دع ما يريبك الى ما لا يريبك اعزل قيس عن مصر » قال علي « اني والله ما اصدق بهذا عنه » فقال عبد الله اعزله فان كان هذا حقاً لا يعتزل لك . فبينما هم كذلك اذ جاءهم كتاب من قيس يخبر امير المؤمنين بحال المعتزلين وكفه عن قتالهم فقال ابن جعفر « ما اخوفني ان يكون ذلك ممالة منه فره بقتالهم » فكتب اليه يامره بقتالهم فلما قرأ قيس الكتاب كتب جوابه « اما بعد فقد عجبت لامرك تأمرني بقتال قوم كافين عنك ومتى حاددناهم ساعدوا عليك عدوك فاطعني يا امير المؤمنين واكفف عنهم فان الراي تركهم والسلام »

محمد بن أبي بكر على مصر

فقرأ علي الكتاب بحضور ابن جعفر فقال له « يا امير المؤمنين ابعث محمد بن أبي بكر على مصر واعزل قيساً » فبعث علي محمد بن أبي بكر الى مصر فلما وصلها قال له قيس « ما بال امير المؤمنين ما غيره ادخل احد بيني وبينه؟ » قال لا . وهذا السلطان سلطانك

ففاك قيس « والله لا اقيم » وخرج من مصر مقبلاً الى المدينة وسار الى علي واخبره
الخبر فعلم انه كان يقاسي اموراً عظيماً من المكابدة

اما محمد بن ابي بكر لما قدم مصر على ما تقدم جمع اليه سراة البلاد ورجال الدولة
وتلا عليهم كتاب امير المؤمنين ثم قام خطيباً فقال « الحمد لله الذي هدانا واياكم لما
اختلف فيه من الحق وبصرنا واياكم كثيراً مما كان عمي عنه الجاهلون . الا ان امير
المؤمنين ولاني امركم وعهد اليّ ما سمعتم وما توفيقني الا بالله عليه توكلت واليه ائيب
فان يكن ماترون من امارتي واعمال طاعة لله فاحمد الله على ما كان من ذلك فانه هو الهادي
له وان رايتم عاملاً لي عمل بغير الحق فارفعوا الي وعاتبوني فيه فاني بذلك اسعد وانتم
جديرون وفقنا الله واياكم لصالح الاعمال برحمته »

وفي سنة ٣٨ هـ خرج معاوية بن حديج السكوني وطلب بدم عثمان فالتفت عليه
قوم كثيرون وفسدت مصر على محمد بن ابي بكر

فتح عمرو بن العاص مصر ثانية

اما معاوية فكان قد استفحل امره وكثر متشيعوه فبايعوه على الشام ولم يكن له
هم الا مصر وكان يخشى منها اقربها منه وكان يعتقد انه اذا ظهر عليها مكنته من
الظهور على علي فتكون الخلافة كلها له . فاجتمع بعمر بن العاص وحبيب بن مسلمة
وغيرهما من سراة قومه وقال لهم « اتدرون لما جمعتم فاني جمعتم لامر لي مهم »
فقال عمرو « دعوتنا لتسألنا عن رأينا في مصر فان كنت جمعتنا لذلك فاعزم واصبر
فنعم الراي رأيت في افتتاحها فان فيه عزك وعز اصحابك وكبت عدوك وذل اهل الشقاق
عليك »

فقال معاوية « اهمك يا ابن العاص ما اهمك » وكان عمرو قد صالح معاوية على
قتال علي ان له مصر طعمة ما بقي حياً . فنظر معاوية الى من حضر من اصحابه
وقال لهم « لقد اصاب ابو عبد الله فماترون »
فقالوا « ما نرى الا ما رأى عمرو » قال « فكيف اصنع فان عمراً لم يفسر
كيف اصنع »

فقال عمرو « ارى ان تبعث جيشاً كثيفاً عليهم رجل حازم صابر صارم تأمنه
وتشق به فيأتي مصر فانه سيأتيه من كان على مثل راينا فيظاھرہ على عدونا فان اجتمع
جندك ومن بها على رأينا رجوت ان ينصرك الله »
قال معاوية « ارى ان نكتب من بها من شيعتنا فنجزيهم ونأمرهم بالثبات ونكتب

من بها من عدونا فندعوهم الى صلحنا ونمنهم شكرنا ونخوفهم حربنا فان كان ما اردنا
بغير قتال فذاك الذي اردنا والا كان حربهم من بعد ذلك . اذك يا ابن العاص بورك
لك بالشدة والعجلة وانا بورك لي بالتؤدة »

فقال عمرو « افعل ما ترى فما ارى امرنا يصير الا الحرب »
فكتب معاوية الى مسامة بن مخلد ومعاوية بن حديج السكوني وكانا قد خالا اعليا
يشكرهما على ذلك ويحثهما على الطاب بدم عثمان ويعدهما المساواة في سلطانه فاجاب مسامة
ابن مخلد الانصاري عن نفسه وعن ابن حديج بما نصه « أما بعد فان الامر الذي بذلنا
له انفسنا واتبعنا به امر الله امر نرجو به ثواب ربنا والنصر على من خافنا وتعجيل
النقمة على من سعى على اماننا . اما ما ذكرت من المواصلة في سلطانك فتالله ان ذلك
امر ما له نهضنا ولا اياه اردنا فنجعل الينا بجيالك ورجلاك فان اعداءنا اصبحوا لنا هائمين
فان يأتني مدد يفتح الله عايك والسلام » فجاء الكتاب وهو في فلسطين فدعا اوائك
الذفر وقال لهم ما ترون فقالوا نرى ان تبعث جنداً فعهد الى عمرو ان يسير في ستة
آلاف رجل واوصاه بالتؤدة وترك العجلة

مقتل محمد بن أبي بكر

فسار عمرو فزل اداني ارض مصر فاجتمعت اليه دعاة العثمانية فاقام بهم وكتب
الى محمد بن أبي بكر كتاباً ونصه « اما بعد ففتح عني بدمك يا ابن أبي بكر فاني لا احب
ان يصيبك مني ظفر . ان الناس بهذه البلاد قد اجتمعوا على خلافك وهم مساكوك
فاخرج منها اني لك من الناصحين » وبعث معه كتاب معاوية بالمعنى ايضاً . فارسل محمد
الكتابين الى علي واخبره بنزول عمرو بارض مصر وانه رأى التناقل من عنده
ويستمدد فكتب اليه علي يأمره ان يضم شيعته اليه ويعده انفاذ الجيوش اليه ويأمره
بالصبر لعدوه وقتاله

فقام محمد بن أبي بكر في الناس وندبهم الى الخروج على عدوهم فانضم اليه ثلاثة
آلاف فلما رأى ذلك عمرو بعث الى معاوية بن حديج يستمدد فامده والتقى الجيشان
وظهرت رجال عمرو وتفرقت اصحاب ابن أبي بكر . فزال عمرو بجيشه حتى اقبل
على محمد وكان قد تخلى عنه رجاله ففر من وجه عمرو يطلب ما يجأ فانتهى الى خربة
بناحية الطريق فاوى اليها . وسار عمرو حتى دخل القسطنطين ثم ارسل معاوية بن
حديج في طلب محمد بن أبي بكر فانتهى الى جماعة على قارعة الطريق فسا لهم عنه فقال
احدهم « دخلت تلك الخربة فرايت فيها رجلاً جالساً » فقال ابن حديج « هو هو

فامسكوه « فدخلوا عليه فاستخرجوه وقد كاد يموت عطشاً واقبلوا به نحو الفسطاط فوثب اخوه عبد الرحمن بن ابي بكر الى عمرو وكان في جنده وقال « اتقتل اخي صبراً فابعث الى ابن حديج فانه عنه » فبعث اليه يأمره ان يأتيه به فجاءوا به وقد اعياه الظم فقال لهم « اسقوني ماء »

فقال له معاوية بن حديج « لاسقاني الله ان سقيتك قطرة ابداً انكم منعم عثمان شرب الماء والله لاقتلنك حتى يسقيك الله من الحميم والفساق »

فقال له محمد « يا ابن اليهودية النساجة ايس ذلك اليك انما ذلك الى الله يسقي اوليائه ويظمي اعداءك انت وامثالك . اما والله لو كان سيفي بيدي ما باغتم مني هذا » فقال له ابن حديج « اتدري ما اصنع بك ؟ انخلاك جوف سمارثم احرقه عليك بالنار » فقال محمد « ان فعلت بي ذلك فطالما فعلتم مثله باولياء الله واني لارجو ان يجعلها عليكم وعلى اوليائك ومعاوية وعمرو ناراً تملظي كلما خبت زادها الله سعيراً » . فغضب منه وقتله وجعله في جيفة حمار والقاه في النار . فلما بلغ ذلك عائشة اخته جزعت عليه جزعاً شديداً وقتت في دير الصلاة تدعو على معاوية وعمرو واخذت عيال محمد اليها فكان القاسم ابن محمد بن ابي بكر في عيالهم ولم تعد تاكل من ذلك الوقت شواء . هكنا تم فتح مصر لمعاوية على يد عمرو بن العاص فاتحها الاول اما الامام علي فكان قد اجهد نفسه ليجتمع مدداً الى محمد فلم يأت من رجاله الا نفر قليل وبينما هو يحث الناس على ذلك جاءه الخبر بقتل محمد بن ابي بكر وفتح مصر فاشتد غيظه وخطب في الناس قائلاً :

« الا ان مصر قد افتتحتها اهل الفجور اولو الجور والظلمة الذين صدوا عن سبيل الله وبغوا الاسلام عوجاً الا وان محمد بن ابي بكر قد استشهد فعند الله محاسبه اما والله ان كان كما علمت لمن ينتظر القضاء ويعمل للجزاء ويغض شكل الفاجر ويحب هدى المؤمن اني والله ما الوم نفسي على تقصير واني لمقاساة الحروب لجدير خبير واني لا تقدم على الامر واعرف وجه الحزم واقوم فيكم بالرأي المصيب واستعرضكم معلماً وانا فيكم بداء المستغيث فلا تسمعون لي قولاً ولا تطيعون لي امراً حتى تصيروني الامور الى عواقب المساء فانتم القوم لا يدرك بكم الثار ولا تنقض بكم الاوتار . دعوتكم الى غياث اخوانكم من بضع وخمسين ليلة فتجر جرتهم جر جرة الجمل الاشدق وتشاقلتم الى الارض تشاقل من ايسر له نية في جهاد العدو ولا اكتساب الاجر ثم خرج الي منكم جنيد متذائب كأنما يساقون الى الموت وهم ينظرون فاف في انكم » ثم نزل .

وفي ١٧ رمضان سنة ٤٠ هـ قتل الامام علي بن أبي طالب وبويع ابنه الحسن مكانه وبقي هذا على كرسي الخلافة ستة اشهر فدخلت سنة ٤١ هـ وفيها تنازل الحسن عن الخلافة لمعاوية بن أبي سفيان خليفة الشام ومصر وهذا لم يحل عن مقصده حتى بلغه فتوذي به اميراً المؤمنين وبويع لخمس بقين من ربيع الاول سنة ٤١ هـ

نقود الخلفاء الراشدين

اما النقود فقد كان العرب في الجاهلية يتعاملون بالنقود الرومية والفارسية حتى ظهر الاسلام وافتتحوا البلاد واسسوا الدولة الاسلامية فعمدوا الى انشاء تيمنتهم . فكان في جملة عوامله السكة . فضربوا الدراهم والدنانير اولاً مشتركة بينهم وبين الروم او الفرس . منها قطعة ضربها خالد بن الوليد في طبرية في السنة الخامسة عشرة للهجرة وهي رسم الدنانير الرومية تماماً بالصليب والتاج والصولجان ونحو ذلك وعلى احد وجهيها اسم خالد بالاحرف اليونانية (ΧΑΛΕΔ) وهذه الاحرف (BON) ويظن الدكتور مولر المؤرخ الالماني انها مقتطعة من « ابوسايمان » كنية خالد بن الوليد وهناك قطعة أخرى ضربت باسم معاوية . ولكنها على مثال دينار من دنانير الفرس برسمه وشكاه الا اسم معاوية عليه (راجع الجزء الاول من تاريخ التمدن الاسلامي)

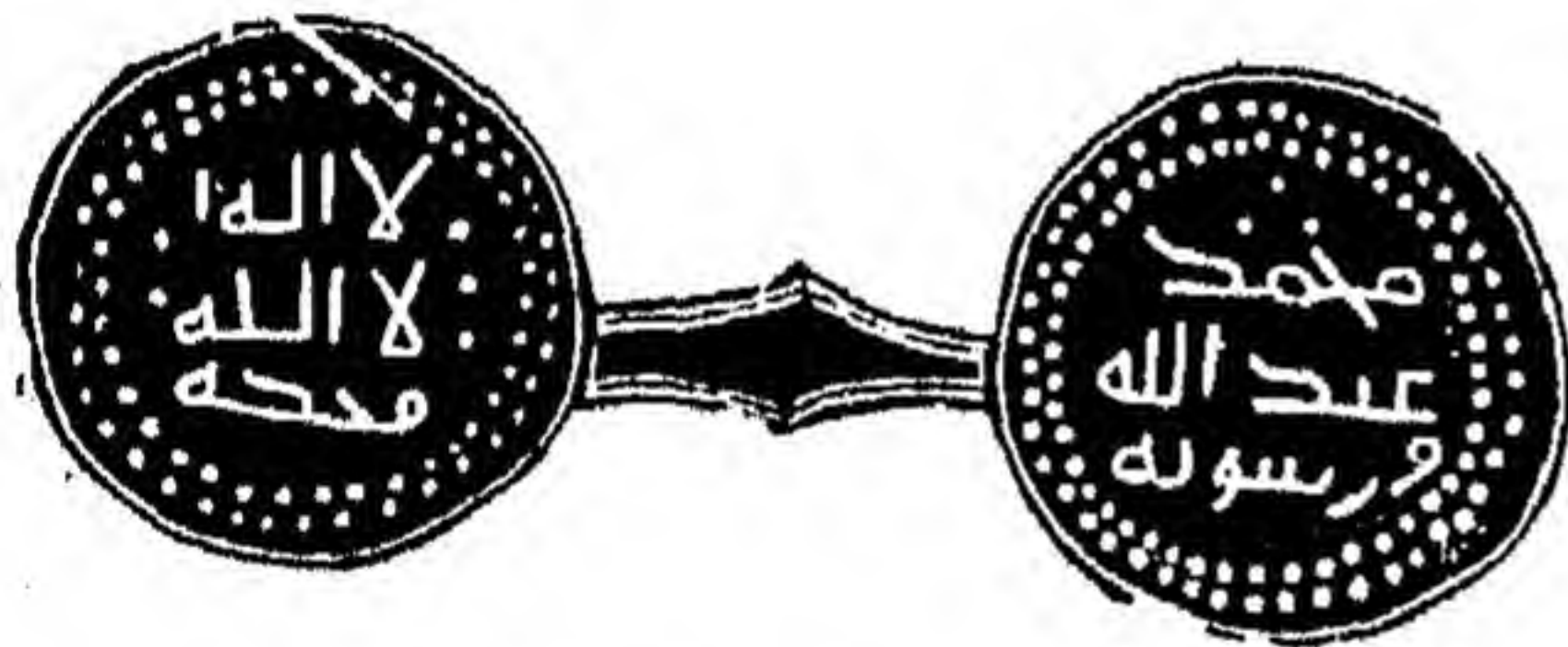
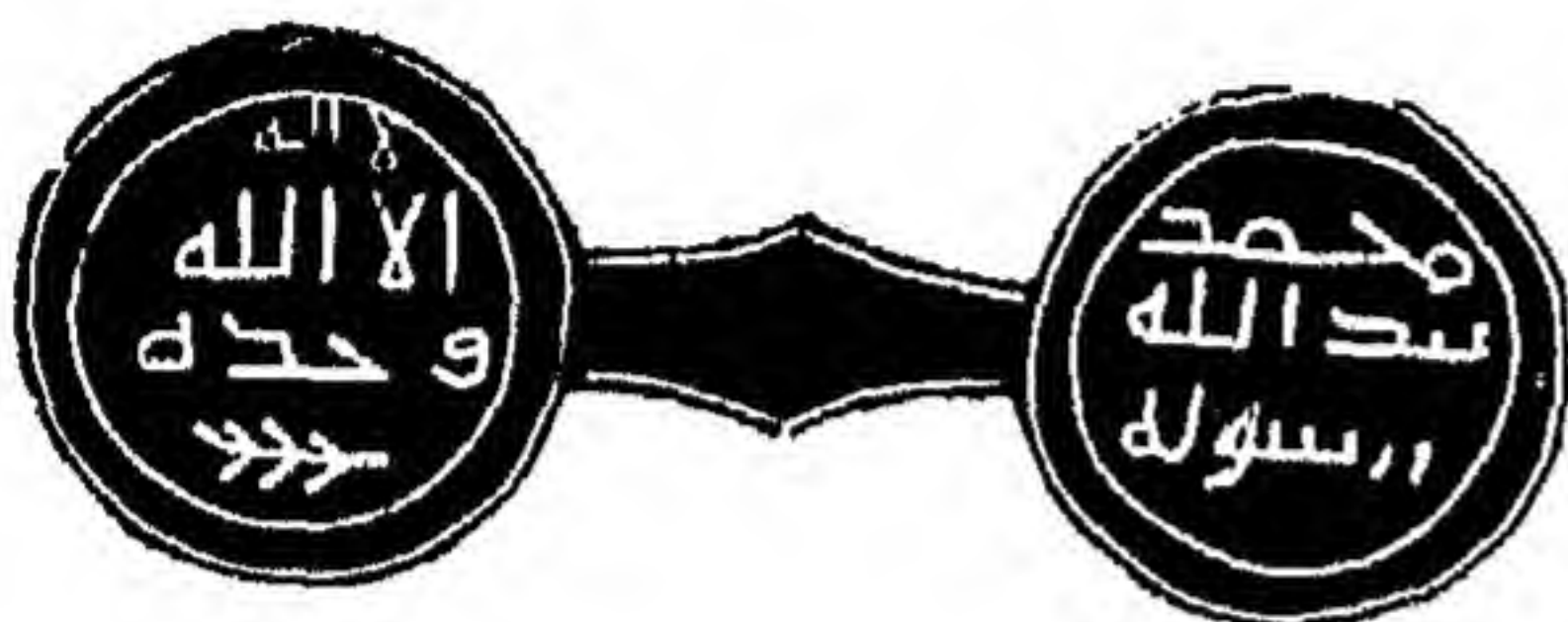
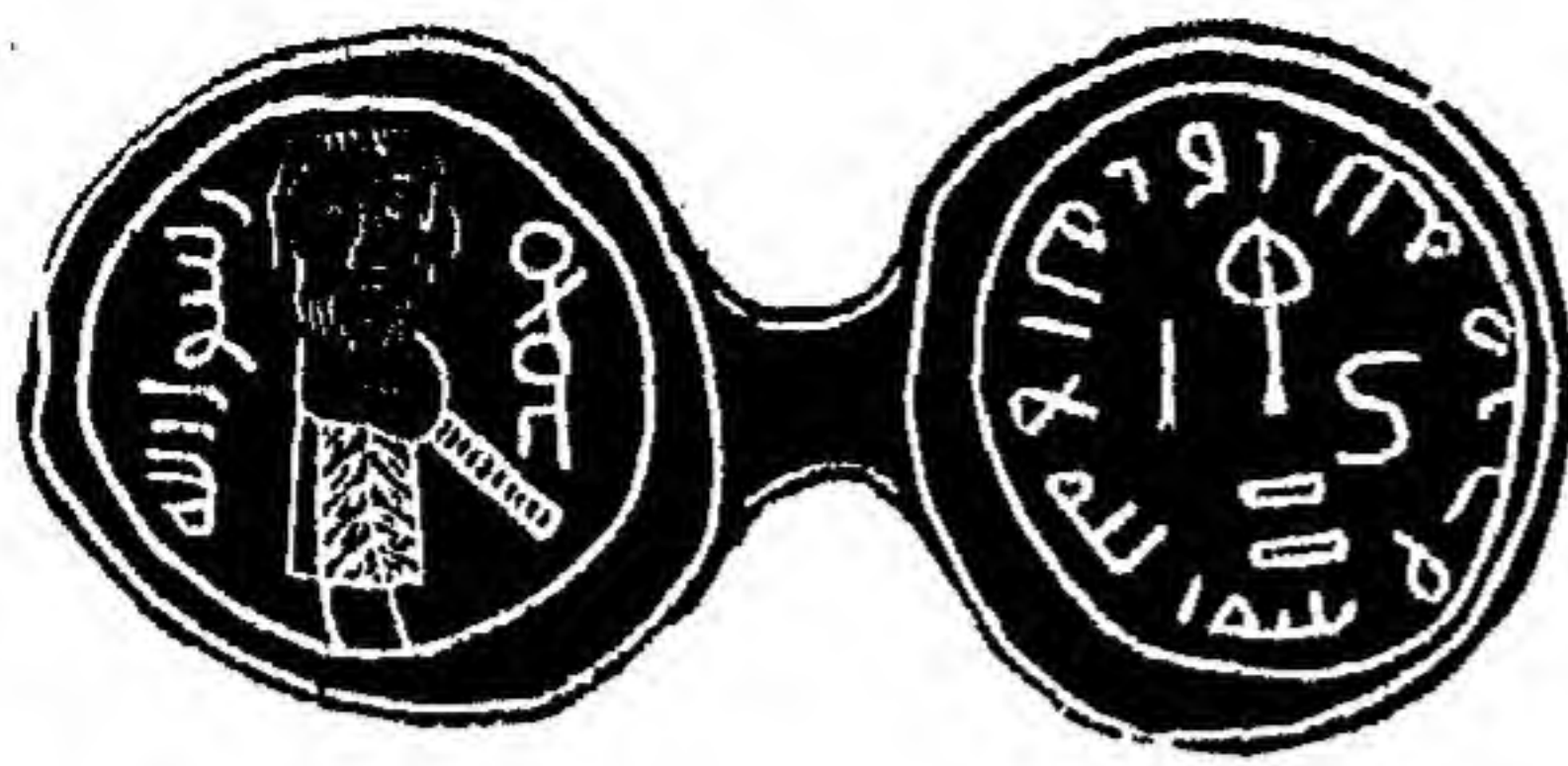
وذكر الدميري ضرباً من النقود يقال

لها البغلية قال از رأس البغل ضربها لعمر ابن الخطاب بسكة كسروية عليها صورة الملك وتحت الكرسي مكتوب بالفارسية « نوش خور » اي كل هنيئاً

وذكر المرجوم جودت باشا انه رأى

نقوداً ضربها الامراء والولاة في عهد الخلفاء الراشدين اقدمها ضرب سنة ٢٨ هـ في قسبة هرتك طبرستان وعلى دائرها بالخط الكوفي « بسم الله ربي » ورأى نقداً مضروباً سنة ٣٨ هـ على دائرته هذه العبارة ايضاً ونقداً ضرب سنة ٦١ هـ في يزد على دائرته « عبد الله بن الزبير أمير المؤمنين »

بخط بهلوي . وهناك نقود نحاسية ضربت على عهد الراشدين بغاية البساطة وعلى بعضها رسوم قنادلها نقود الفرس كما تقدم (انظر ش ٢٧)



ش ٢٧ — نقود الخلفاء الراشدين

بخط بهلوي . وهناك نقود نحاسية ضربت على عهد الراشدين بغاية البساطة وعلى بعضها رسوم قنادلها نقود الفرس كما تقدم (انظر ش ٢٧)

الدولة الاموية

من سنة ٤١ - ١٣٢ هـ او من ٦٦١ - ٧٥٠ م

خلافة معاوية بن ابي سفيان

من سنة ٤١ - ٦٠ هـ او من ٦٦١ - ٦٨١ م

هكذا كانت نهاية دولة الخلفاء الراشدين وبداية دولة خالفاء بني أمية واولهم معاوية بن ابي سفيان . وكانت الخلافة على عهد الخلفاء الراشدين انتخابية وقصبتها المدينة فجعلها معاوية وراثية وجعل قصبتها دمشق فأنحصرت أعقابه . وشرع في تولية العمال على الامصار وكانت مصر من اهم تلك الامصار فعهد بامرها لعمر بن العاص لما عرف من علو همته وحسن سياسته وجعلها له طعمة بعد عطاء جندها والنفقة في مصلحتها . فعقد عمرو لشريك بن سمي لغزو البربر في شمالي افريقيا فغزاهم وصالحهم ثم انتقضوا فبعث اليهم عقبة بن نافع فغزاهم حتى هزمهم وعقد لعقبة ايضاً على غزو هواره وعقد لشريك على غزو لبدة فغزواهما في سنة ٤٣ هـ ولما قفلا كان عمرو وشديد الدنف يتقلب على فراش الموت فتوفي ليلة الفطر من السنة المذكورة وكان قصير القامة يخضب بالسواد وكان من افراد الدهر دهاءً وحزماً وفصاحة الا انه كان يتلجلج بكلامه ولما علم معاوية بوفاة عمرو تكدر كدراً عظيماً جداً لانه لم يعد يعلم لمن يعهد بولاية مصر بعده . وبعد التردد في الامر لم يربدأ من تولية احد اهلهم فارسل اليها عتبة بن ابي سفيان أخاه في ذي القعدة من سنة ٤٣ هـ فارار اليها وبعد ان اقام اشهرأ عرض له سفر الى اخيه معاوية بدمشق فاستخلف عبد الله بن قيس بن الحارث وكان في شدة وعسف فكره المصريون ولايته وامتنعوا منها فبلغ ذلك عتبة فاضطر الى الرجوع الى مصر ولما جاءها صعد منبر الخطابة فقال :

« يا اهل مصر قد كنتم تعذرون ببعض المنع منكم ابعض الجور عايكم وقد وليكم من اذا قال فعل فان ايتم درأكم بيده فان ايتم درأكم بسيفه ثم رجي في الاخير ما أدرك في الاول . ان البيعة شائعة لنا عليكم السمع ولسكم علينا العدل واينا عذر فلا ذمة له عند صاحبه » فناداه المصريون من جنبات المسجد « سمعاً سمعاً » فناداهم « عدلاً عدلاً » ونزل وعقد عتبة لعقمة بن يزيد على الاسكندرية في اثني عشر الفأ تكون لها رابطة

وتوفي عتبة في الفسطاط في ذي الحجة سنة ٤٤ هـ وكانت مدة ولايته سنة كاملة فاقام معاوية عوضاً عنه عقبة بن عامر بن عبس الجهمي وجعل له صلاتها وخراجها وكان عقبة قارئاً فقيهاً مفرضاً شاعراً له الهجرة والصحبة والسابقة الا انه لم يكن من السياسة وحسن التدبير على ما يرضي معاوية فولى مكانه مسامة بن مخلد بن صامت الانصاري وكان من سراة المدينة وامره ان يكتم ذلك لينما يخرج عقبة من مصر بحيلة ففي ١٩ ربيع الاول سنة ٤٥ هـ انفذ معاوية امره الى عقبة ان يسير الى رودس بجزراً فقدم مسامة ورافق عقبة الى الاسكندرية وهو لا يعلم باماره فلما توجه سائراً استوى مسامة على سرير امارته فبلغ ذلك عقبة فقال « أخلعاً وغربة » وكانت مدة ولايته ثلاثة اشهر وقيل سنتين وثلاثة اشهر . واخذ مسامة في اجراء الاحكام وجمع الصلات والخراج وانتظمت غزواته في البر والبحر فانفذ الى الغرب جيوشاً وشاد مدينة القيروان واقام حولها حصوناً ومعقل وجعل فيها حامية . وفي سنة ٥٣ هـ في امارته نزلت الروم البرلس وقتل يومئذ وردان مولى عمرو بن العاص في جمع من المسلمين وامر مسامة بابتناء منارات المساجد وهو اول من احدث المنائر بالمساجد والجوامع . وفي سنة ٦٠ هـ سافر مسامة بن مخلد الى الاسكندرية واستخلف على مصر عابس بن سعيد وفي هذه السنة توفي معاوية في دمشق في غرة رجب وسنه ثمان وسبعون سنة ومدة خلافته تسع عشرة سنة وثلاثة اشهر وخمسة ايام

خلافة يزيد بن معاوية

من سنة ٦٠ — ٦٤ هـ او من ٦٨١ — ٦٨٤ م

وفي يوم وفاة معاوية بويج ابنه يزيد فأقر مسامة بن مخلد على مصر فكتب اليه باخذ البيعة فبايعه الجند الا عبد الله بن عمرو بن العاص فهددوه بالحريق فبايع ولم يكن يزيد اهلاً للخلافة ولولا قانون الوراثة الذي سنه ابوه ما بلغ عمره هذا المنصب لانه كان متبعاً هوى نفسه متغاضياً عن واجباته . فحرك ذلك الحسين بن علي وعبد الله بن الزبير على اقامة الحجة عليه وكانا في المدينة فبعث يزيد الى حاكمها ان يقبض عليهما فمراً منها وسار الحسين الى العراق لان اكثر شيعة ابيه هناك وقد التف عليه حزب كبير من اهل الكوفة وغيرها فأرسل يزيد الى عبيد الله بن زياد عامله هناك بدفعه فبعث اليه جنداً قتلوه افطع قتلة وأتوا برأسه الى يزيد . لكنه لم يكذب يبلغ مناه بقتل الحسين

حتى قام عبد الله بن الزبير في مكة فشدد عليه النكير وهو يطلب الخلافة لنفسه . وكانت مصر في اثناء ذلك ساكنة آمنة وفي ٢٥ رجب سنة ٦٢ هـ توفي اميرها مسلمة بن مخلد بعد ان تولاها خمس عشرة سنة واربعة اشهر فولى الخليفة مكانه سعيد بن يزيد الازدي من اهل فلسطين فدخل مصر في مستهل رمضان سنة ٦٢ هـ فتلقاء عمر بن قحزم الخولاني وقد شق عليه تولية من هو من غير بلاده عليه فقال « يغفر الله لامير المؤمنين اما كان فينا مئة شاب كلهم مثلك يولي علينا احدهم » ثم جعل اهل مصر يرضون عنه ويعارضونه في احكامه ولكنه كان حازماً لم يثنه ذلك عن اقامة الحد واتباع العدل فسادت الراحة واستتب النظام الى اخر ايامه

وما زالت الاحزاب في مكة والمدينة يشددون النكير على يزيد الى ان اجتمعوا على خلعه رغم كثرة دعاة الامويين واخرجوا من كان منهم في المدينة فانفذ يزيد ١٢ ألفاً من رجاله عليهم مسلمة بن عقبة المرسي لمحاصرة المدينة وامرهم ان لا يكفوا عنها الا اذا اذعنت فاذا مضت ثلاثة ايام ولم تفعل فليحرقوها وهكذا حصل فانها اصبحت غنجة للنار بعد الافاضة في النهب والقتل والاسر . وكان ذلك في سنة ٦٣ هـ

وفي سنة ٦٣ هـ بويع عبد الله بن الزبير على الخلافة في مكة باجماع من كان فيها من اهلها والمهاجرين اليها من المدينة والحجاز فارسل يزيد الحصين بن الخير الى مكة فحاصرها وقاتل اهلها ورمها بالمنجنيق فاحرق الكعبة . كل ذلك وابن الزبير فيها يدافع بالشيء الممكن الى ان جاء الخبر بوفاة يزيد فقطع قول كل خطيب وكانت وفاته في حواريين من اعمال حمص في ٤ ربيع اول سنة ٦٤ هـ بعد ان تولى الخلافة ثلاث سنين وتسعة اشهر الا بضعة ايام وسنه ٣٩ سنة

خلافة معاوية بن يزيد

ثم عبد الله بن الزبير ثم مروان بن الحكم

من سنة ٦٤ — ٦٥ هـ او من ٦٨٤ — ٦٨٤ م

وفي يوم وفاة يزيد بويع ابنه معاوية وسنه عشرون سنة ويدعوه بعضهم معاوية الثاني تمييزاً له من معاوية بن ابي سفيان جده وبعد ٤٥ يوماً من مبايعته توفي ولا ولد له

وفي ٩ رجب من تلك السنة هتف اهل الحجاز بمبايعة عبدالله بن الزبير بالاجماع ويقال ان معاوية بن يزيد تنازل له عن الخلافة من يوم بايعوه لما راى من كثرة احزابه وعجزه عن مناهضته فزهد في الدنيا مع صغر سنه وطلب ان يكتب على قبره «الدنيا غرور» وكان عبدالله بن الزبير رجلاً مؤدباً فطناً جمع بين شرف النسب وعلو الهمة والاقدام حضر عدة وقائع وهو شاب ولما افتتح عمرو بن العاص مصر كان عبدالله وابوه الزبير واخوه محمد من جيشه ولما كتبت معاهدة الصلح بين عمرو والاقباط وضع هؤلاء الثلاثة اختامهم عليها شهوداً . ولما ارسل الخليفة عثمان بن عفان عبدالله بن سعد امير مصر في جيش عظيم لافتتاح سواحل الغرب كان عبدالله بن الزبير معه . ومن اخلاقه انه كان مثابراً في اعماله ثابتاً في مقاصده فلم ينفك منذ اختلاس معاوية بن ابي سفيان الخلافة من الخلفاء الراشدين وهو في سعي دائم عليه ثم على ابنه يزيد ثم على ابن ابنه معاوية الثاني حتى ظفر بمرامه ولما جاء الخبر بوفاة يزيد كان في مكة محاطاً بجيش من يزيديين فلما علموا بالخبر عادوا على اعقابهم الى الشام فاستولى عبدالله على المدينة والحجاز واليمن وبايعه من فيها ثم شرع في ترميم الكعبة فهدمها حتى الحقها بالارض وكانت قد مالت حيطانها من حجارة المنجنيق وجعل الحاجر الاسود عندها وكان الناس يطوفون من وراء الاساس وضرب عليها السور وادخل فيها الحاجر

اما مصر فكان عاينها سعيد الازدي كما مر وكان عبدالله بن الزبير على بينة من امر مصر واهميتها فانفذ اليها عبد الرحمن بن عتبة بن جحدم واوصاه ان يدعو الناس الى مبايعته غير ان سعيداً الازدي كان لا يزال متشبعاً للامويين فلم يقبل على دعوة عبدالله من المصريين الا بعضهم ولم ترسخ قدم عبدالله بن الزبير في الخلافة الا بعد وفاة معاوية ابن يزيد اذ رأى الكوفة والبصرة والموصل والعراق وقسماً من مصر يدعو باسمه فلم يعد في خشية من شيء فصرح بخلافته . ثم هم باخضاع مصر فعقد على امارتها لعبد الرحمن بن عتبة الذي كان ارسله اليها وكيلاً فوصلها في شعبان سنة ٦٤ هـ واخرج من كان فيها من دعاة الامويين وفيهم سعد الازدي فبايعه الناس وفي قلوب بعضهم غل

اما اهل الشام فلما علموا بوفاة معاوية بن يزيد بايعوا مروان بن الحسك من بني امية فعظم ذلك على عبدالله بن الزبير وقام لنصرته الضحاك بن قيس في جيش من رجاله فساروا الى قرب دمشق فاتصل خبرهم بمروان فسار من الجابية لملاقاتهم فالتقى الجيشان في مرج راهط فحصلت بينهما وقائع كبيرة شفت عن انقلاب جيش عبدالله

وكان مروان قد انفذ ابنه عبد العزيز في جيش من اهل الشام لفتح مصر اما بعد

ظفروه بجيش ابن الزبير في مرج راهط فاشتدت عزيمته وحمل بكل جيشه على مصر . فلما علم اميرها عبد الرحمن بن عتبة بذلك اخذ في الدفاع فحفر حول الفسطاط خندقاً عميقاً لا يزال اثره باقياً في القرافة فنزل مروان قرب المطرية ومعه عمرو بن سعد فخرج عبد الرحمن اليه واقتتلا شديداً مدة يومين ولم يظفرا احدهما بالآخر . وبينما كان الجيشان في شغل بين هجوم ودفاع سار عمرو بن سعد في نخبة من رجال مروان قاصداً الفسطاط فدخلها فلما علم عبد الرحمن بذلك لم يرد بدأ من المصالحة فتصالحا ودخل مروان مصر في ١٠ جمادي الاولى سنة ٦٥ هـ فكانت مدة اماره ابن جندب تسعة اشهر وفي هذا اليوم توفي عبدالله بن عمرو بن العاص فاتح مصر فلم يستطع القوم الخروج بمجنازته الى المدافن لشغب الجند على مروان فدفنوه في بيته قرب جامع عمرو . اما مروان فلم يكن واثقاً بالمصريين واخلاصهم وخاف ان يستغيثوه ويعقدوا لعبد الله بن الزبير فولى عليهم ابنه عبد العزيز

وفي الحال وضع مروان يده على جميع خزائن مصر وأبطل العطاوات فباعه جميع الناس الا جماعة من قبيلة المغافر قالوا لا نخاع بيعة ابن الزبير فقطع اعناقهم وعنق ابن همام رئيس قبيلة لحم وكان من قتلة عثمان بن عفان فخافت الناس واجمعوا على مبايعته فاقام مروان في مصر شهرين ثم عهد بمهامها الى ابنه عبد العزيز وهم بالرحيل فقال له ابنه « يا امير المؤمنين كيف المقام في بلدة ليس بها احد من بني ابي » قال له مروان « يا بني عمهم باحسانك يكونوا كلهم بني ابيك واجعل وجهك طلقاً تصف لك مودتهم وواقع الى كل رئيس منهم انه خاصتك دون غيره يكن لك عيناً على غيره وينقذ قومه اليك وقد جعات معك اخاك بشراً مؤناً وجعات لك موسى بن نصير وزيراً ومشيراً وما عليك يا بني ان تكون اميراً باقصى الارض . اليس ذلك احسن من اغلاق بابك وخمولك في منزلك ؟ » ثم اوصاه عند خروجه من مصر الى الشام قائلاً « اوصيك بتقوى الله في سر امرك وعلايته فان الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون واوصيك ان لا تجعل لداعي الله عليك سبيلاً فان المؤذن يدعو الى فريضة افترضها الله ان الصلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً واوصيك ان لاتعد الناس موعداً الا انذنته لهم ولو حملته على الاسنة . واوصيك ان لاتعجل في شيء من الحكم حتى تستشير فان الله لو اغنى احداً عن ذلك لاغنى نبيه محمداً (صلعم) عن ذلك بالوحي الذي يأتيه . قال الله عز وجل : وشاورهم في الامر » وخرج مروان من مصر لهلل رجب سنة ٥٥ هـ والحرب لاتزال سجالاً بين دعاة مروان ودعاة عبد الله بن الزبير

خلافة عبد الملك بن مروان

من سنة ٦٥ — ٨٦ هـ او من ٦٨٤ — ٧٠٥ م

وفي غرة رمضان من تلك السنة توفي مروان وله من العمر ٦٣ سنة فبويع ابنه عبد الملك فاقر اخاه عبد العزيز على مصر واخذ في متابعة مشروع ابيه فانفذ الاجناد الى جهات العراق والبصرة والجزيرة سعيًا في تعميم خلافته . وفي آخر الامر ارسل اليه الحجاج بن يوسف فحاصر عبد الله بن الزبير في مكة مدة سبعة اشهر وفي نهاية سنة ٧١ هـ قتل عبد الله بن الزبير فخلا الجو لعبد الملك وكانت وفاته فصلاً نهائياً لذلك الخصام بعد ان استمر عشر سنين متوالية ومملكة الاسلام تتنازعها خلافتان الواحدة في دمشق والاخرى في مكة

وفي سنة ٦٩ هـ امر عبد العزيز بن مروان ببناء قنطرة الخليج الكبير في طرف الفسطاط بالحمراء القصوى وبني مقياساً للنيل في حلوان وهو اول مقياس بناه المسلمون في مصر ويقول بعضهم ان عمرو بن العاص بن مقياساً قبل ذلك ولا دليل على صحة هذا القول

وفي سنة ٧٠ هـ وقع الطاعون في مصر فخرج عبد العزيز منها ونزل حلوان فاتخذها داراً وجعل فيها الاعوان وبني فيها الدور والمساجد وعمرها احسن عمارة وغرس نخلها وكرها

وفي سنة ٧٧ هـ هدم جامع الفسطاط كله وزاد فيه وفي ايام عبد الملك ضربت الدنانير المنقوشة الفضية والذهبية

وفي آخر ايام هذا الخليفة تم بناء القصر الجميل المدعو الدار المذهبة في شارع سوق الحمام

وكانت طائفة الكهنة الاقباط معفاة من الضرائب والعوائد فضرب على الشخص الواحد منهم ديناراً وعلى البطارقة ثلاثة آلاف دينار سنوية

وسنة ٨٦ هـ توفي عبد العزيز بن مروان في الفسطاط في ١٣ جمادى الاولى بعد ان حكم فيها عشرين سنة وعشرة اشهر و١٣ يوماً وكان جواداً حليماً حازماً بشوشاً فتولى بعده عبد الله بن عبد الملك بن مروان من قبل ابيه على صلاحها وسنه ٢٩ سنة وطلب اليه ابوه ان يقتفي آثار عمه عبد العزيز بالفطنة والدراية

خلافة الوليد بن عبد الملك

من ٨٦ - ٩٦ هـ أو من ٧٠٥ - ٧١٤ م

وفي هذه السنة توفي عبد الملك بن مروان وبويع ابنه الوليد بن عبد الملك الملقب بابي العباس فاقراً اخاه عبد الله على مصر . وفي ايام الامير عبد الله جعلت الكتابة في دواوين مصر باللغة العربية وكانت لاتزال الى ذلك الحين بالقبطية يتولى امرها انتناش فعزله وولى مكانه بن يربوع الفزاري من اهل حمص . وغلت الاسعار في امارته فتشامم الناس به وقالوا انه كان يقبل الرشوة ثم وفد على اخيه في صفر سنة ٨٨ هـ واستخلف عبد الرحمن بن عمر بن قحزم الخولاني واهل مصر في شدة عظيمة وضيق عيش مخيف اما الوليد بن عبد الملك فقد حكم في الاسلام حكماً حقاً ووسع نطاق المملكة الاسلامية وحارب حروباً كثيرة عاد منها ظافراً . منها الحروب الهائلة مع أمراء تركستان والفرس والهند وملك القسطنطينية وقد فتح طوانه من بلاد الروم والاندلس وسمرقند كل هذه الفتوحات والغزوات وغيرها كانت على يد هذا الخليفة الباسل

وفي ١٣ ربيع اول سنة ٩٠ هـ اقيم على مصر قررة بن شريك من اهل قنسرين بدلا من عبد الله بن عبد الملك واحيا قررة بن شريك بركة الحبش وغرس فيها القصب فقيل لها اصطبيل قررة واصطبيل القماش

وقد تشكى القبط من جوره فهم يقولون انه كان يحنقر اعتقاداتهم ويدخل احيانا الى كنائسهم ومعه رجال من حاشيته ويوقفهم عن صلاتهم

وفي سنة ٩٣ هـ اعاد قررة بن شريك بأمر الوليد بن عبد الملك بناء جامع عمرو . وفي سنة ٩٦ هـ توفي قررة في الفسطاط فأقيم مقامه عبد الملك بن رفاعة بن خالد وكان قررة سيئ التدبير خبيثاً ظالماً غشوماً فاسقاً وبعد ثلاثة اشهر من امارته توفي الخليفة الوليد في دمشق في ١٥ جمادى الثانية بعد ان حكم ٩ سنين ونصف وسنه ٤٨ سنة وقد



بنى مقياساً للنيل في جزيرة الروضة يقال ان النيل جرفه وقال آخرون ان المأمون امر بهدمه . وهذه صورة النقود التي ضربت في ايام الخليفة الوليد بن عبد الملك سنة ٩٣ هـ

ش ٢٨ : نقود الوليد بن عبد الملك

خلافة سليمان بن عبد الملك

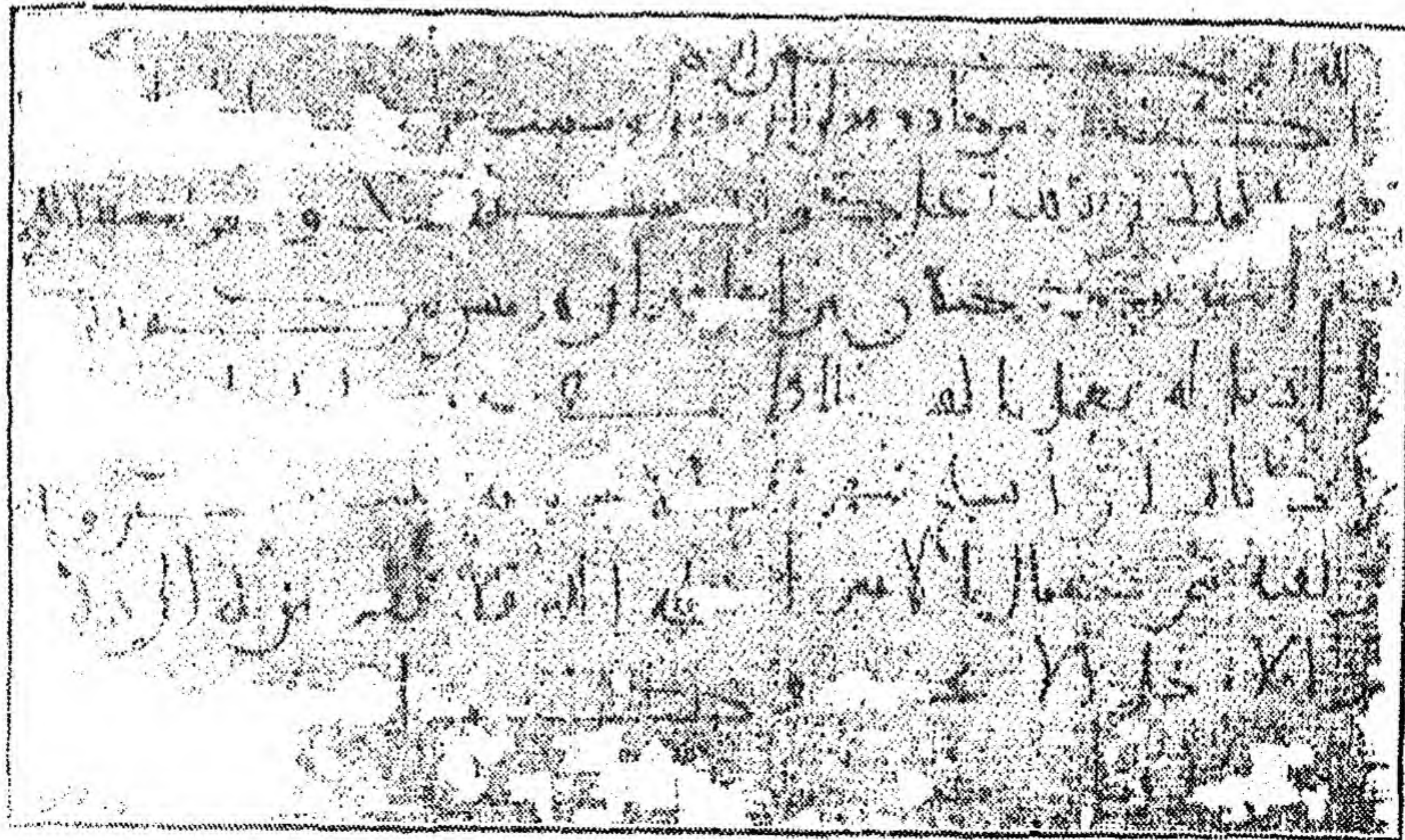
من سنة ٩٦ — ٩٩ هـ او من ٧١٤ — ٧١٧ م

وبعد وفاة الوليد بويع اخوه سليمان بن عبد الملك الملقب بابي ايوب فسار على خطوات اخيه في توسيع نطاق مملكته ففي اول سنة من خلافته فتح طبرستان وجورجيا وارسل اخاه مسامة بن عبد الملك فحاصر القسطنطينية حصاراً شديداً وعند اول خلافته اقرَّ عبد الملك بن رفاعة على مصر وجعل على خراجها اسامة بن يزيد المشهور بالظلم والقبه بعامل الخراج وقد اتفق جمهور المؤرخين من مسلمين واقباط على استبداد هذا الرجل وعسفه . ومما جعلهم يزيدون تظلماً منه انه لم يكتف باعلان الرهبان باستقرار الضريبة عليهم على حين انهم كانوا ينتظرون رفعها عنهم لكنه امر ان يلبس كل منهم في كل سنة خاتماً من حديد في اصبعه عليه اسمه يأخذه من جابي الخراج اشارة الى خلو طرفه ومن يخالف ذلك تقطع يده فاذا اصر على المخالفة يقتل فكانت العساكر تطوف الاديرة والمعابد في هذا السبيل فكم قتلوا من نفس زكية وربما كانوا يرون قتلها واجباً . وكان اسامة مع ذلك يظهر رغبة شديدة في اصلاح شؤون البلاد وزيادة محصولاتها فكان من وقت الى آخر يتفقد الارض وريها وينتبه خصوصاً لمقاييس النيل التي يعرف منها مقدار المحصولات . فعلم سنة ٩٦ هـ بسقوط مقياس حلوان فأعلم الخليفة بذلك فأمر باغفاله واقامة مقياس آخر في جنوبي الجزيرة بين الفسطاط والجزيرة وهو المكان المعروف بالروضة

ومن ضرائب اسامة ضريبة فادحة مقدارها عشرة دنانير تطلب من المار في النيل صاعداً او نازلاً ولا يمر الا من كان في يده جواز مؤذن له بذلك بعد اداء المبلغ المفروض ومما يحكى ان ارملة سافرت في النيل مع ابن لها بعد دفع المفروض ونيل تذكرة المرور بكل مشقة نظراً لضيق ذات يدها فحدث وهي في اثناء المسير ان ابنها هذا تطاول الى النيل مستقيماً فاختطفه تمساح وابتلعه وثيابه والناس ينظرون وكانت تذكرة المرور في جيبه . ولما وصلت المكان المقصود اعترضها صاحب التذاكر وابى الا ان تبرز تذكرتها فاخبرته ما كان من امر ضياع ابنها على مشهد من الناس فاغلق اذنيه عن صراخها ولم يفرج عنها حتى باعت ما في يديها ودفعت الفلس الاخير

كل هذه الاجراءات وغيرها جعلت المصريين في قنوط قناروا على اسامة يطلبون الانتقام وبينما هم في ذلك جاءهم النبأ بوفاة الخليفة سليمان بن عبد الملك فسكن جاشهم على

أمل ان ينالوا ما يريدون ممن يخلفه وكانت وفاته في ٢١ صفر سنة ٩٩ هـ وهو ببني مدينة الرملة في فلسطين بعد ان حكم سنتين وثمانية اشهر وخمسة ايام وسنه ٤٥ سنة فبويغ ابن عمه عمر بن عبد العزيز الملقب بابي حفص لانه لم يكن من اخوته وولده من يصلح للخلافة



ش ٢٩ - صورة رسالة عربية على البابيروس في ايام بني امية

خلافة عمر بن عبد العزيز

من ٩٩ - ١٠١ هـ او من ٧١٧ - ٧٢٠ م

وكان الخليفة عمر بن عبد العزيز محباً للعدالة فرفع اليه المصريون شكاوهم على اسامة فأمر بعزله وتولية ايوب بن شرحبيل . وكان هذا ورعاً منزهاً مستقيماً عادلاً فزاد في الاعطائيات وعطل الخازنات فاندس المصريون ما كان من استبداد اسامة وغلاظته ثم بعث اليه الخليفة بالقبض على اسامة وتكبيله بالحديد وتسمير يديه ورجليه باطواق من الخشب وارساله اليه ففعل فمات اسامة في الطريق

وكان على الجيش في مصر حيان بن شريح فبلغ عمر بن عبد العزيز الله بطالب المسلمين بالجزية فعظم عليه ذلك وكتب اليه هأري يا حيان ان تضع الجزية عن اسلم من اهل الذمة فان الله تعالى قال فان تابوا واقاموا الصلاة واتوا الزكاة نخلوا سبيلهم ان الله

غفور رحيم وقال قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين اوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون « فأجابه حيان « اما بعد فان الاسلام قد اضر بالجزية حتى سلفت من الحارث بن ثابتة عشرين الف دينار تمت بها عطاء اهل الديوان فان راى امير المؤمنين ان يأمر بقضائها فعل « فكتب اليه عمر « اما بعد فقد باغني كتابك وقد وايتك جند مصر وانا عارف بضعفك وقد امرت رسولي بضربك على راسك عشرين سوطاً فضع الجزية عن اسلم قبج الله رايتك فان الله بعث محمداً (صاعم) هادياً ولم يبعثه جابياً واعمرى لعمر اشقى من ان يدخل الناس كلهم الاسلام على يده « وفي ٢٥ رجب سنة ١٠١ هـ توفي الخليفة عمر بن عبد العزيز بعد ان حكم سنتين وخمسة اشهر و ١٤ يوماً فرجعت الخلافة لابناء عبد الملك حسب اشتراط سليمان قبل موته فبويع يزيد بن عبد الملك

خلافة يزيد بن عبد الملك

من ١٠١ — ١٠٥ هـ او من ٧٢٠ — ٧٢٤ م

فأقر يزيد ايوب بن شرحبيل على مصر ثم انفذ اليه ان يسام الحكم لبشر بن صفوان السكلي وبعد يسير امره ان يتوجه الى افريقية واقام مكانه حنظلة بن صفوان وفي ايامه امر الخليفة بتكسير ما بقي من التماثيل والاصنام في مصر فكسر معظمها . وفي سنة ١٠٤ هـ عزل حنظلة وتولى الامارة محمد بن عبد الملك اخو الخليفة . وفي ٢٥ شعبان سنة ١٠٥ هـ توفي الخليفة يزيد بن عبد الملك في حران فبويع اخوه هشام ولم ير المصريون في مدة خلافة يزيد يوم نعيم

خلافة هشام بن عبد الملك

من ١٠٥ - ١٢٥ هـ أو من ٧٢٤ - ٧٤٣ م

فأما بويج هشام أمر بصرف محمد بن عبد الملك عن مصر وأقام عليها الحر بن يوسف وفي إمارته كان أول انتفاض القبط سنة ١٠٧ هـ ثم وفد إلى الخليفة واستعفى من الإمارة في سنة ١٠٨ هـ فولى مكانه حفص بن الوليد وفي سنة ١٠٩ هـ استبدل حفص بعبد الملك ابن رفاعه وفي تلك السنة توفي ابن رفاعه فتولى مكانه بأمر أمير المؤمنين أخوه الوليد ابن رفاعه

وفي ولايته نقلت قبيلة قيس إلى مصر ولم يكن فيها أحد منهم فانزلوا في الحوف الشرقي (الشرقية) وفي أيامه خرج وهيب اليحصبي شارداً في سنة ١١٧ هـ من أجل أن الوليد أذن للنصارى في ابتناء كنيسة يومنا بالجرهاء. وفي هذه السنة توفيت السيدة سكينه بنت الحسين بن علي بن أبي طالب. وتوفي الوليد في الفسطاط وهو وال أول جمادى الآخرة سنة ١١٧ هـ بعد أن حكم تسع سنين. فتولى مكانه عبد الرحمن بن خالد الفهمي وبعد سنة توفي عبد الرحمن وخلفه حنظلة بن صفوان فحكم في مصر هذه المرة ست سنوات وكان طامعاً غشوماً رغم رغبة الخليفة إليه أن يعامل الناس بالرفق والمعروف ولم يكتف بالضرائب المفروضة على الإنسان ففرضها على الحيوانات وكان يحتم الوصول المعطاة منه بحتم عليه صورة أسد وكان يقطع يد كل من لم يكن ناقلاً هذا الرسم من المسيحيين

فكاتب المصريون الخليفة بشأن ذلك فأنفذ إليه في سنة ١٢٤ هـ يعزله عن مصر ويأمره أن يتوجه إلى أفريقية ففعل فولى مكانه حفص بن الوليد الحضرمي وهذه هي المرة الثانية لإمارته. وفي ٦ ربيع آخر من سنة ١٢٥ هـ توفي الخليفة هشام بن عبد الملك وسنه ٥٦ سنة ومدة حكمه ١٩ سنة و٧ أشهر و ١١ يوماً ومن أعماله التي تستحق

الذكر أنه تغلب على الروم

وهذه صورة النقود التي ضربت في عهد الخليفة هشام بن عبد الملك سنة ١٠٧ هـ كما ترى في الشكل

الثلاثين



ش ٣٠ نقود الخليفة هشام

خلافة الوليد بن يزيد

من ١٢٥ — ١٢٦ هـ او من ٧٤٣ — ٧٤٤ م

ولما توفي هشام بويج الوليد بن يزيد الملقب بابي العباس أمر بصرف حفص عن مصر مع ما عرف به من النزاهة والاستقامة وثقة الاهالي فيه وأقام عوضاً عنه عيسى ابن أبي عطاء على الخراج فقط ولم يكن عيسى من السياسة على شيء فأثار بسوء تصرفه خواطر المصريين ثانية . والخليفة لم يكن أحسن سياسة منه لأنه جمع جميع الصفات التي تحط من قدر الملوك فأثار عليه رعاياه ولاسيما أهل الشام فشقوا عصا الطاعة وطلبوا أن يبدل يزيد بن الوليد بن عبد الملك وطلبوا من هذا اذا كان يقبل ذلك فاجاب بالاجاب وجعل لمن يأتيه برأس الوليد بن يزيد مائة الف دينار ثم قتل الوليد وسنه ٤٢ سنة ولم يحكم الا سنة واحدة وشهرين و ٢٠ يوماً

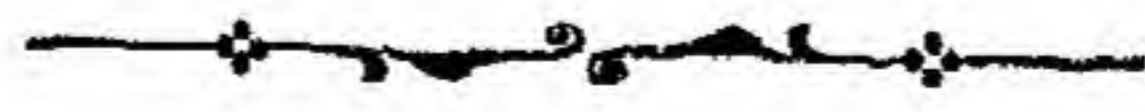
خلافة يزيد بن الوليد ثم ابراهيم بن الوليد

من ١٢٦ — ١٢٧ هـ او من ٧٤٤ — ٧٤٥ م

فبويج يزيد بن الوليد الملقب بابي خالد في ١٨ جمادى الآخرة من سنة ١٢٦ هـ الا أن تلك المبايعة لم تكن كافية لتسكين خواطر الناس لان الثورة كانت قد امتدت الى أطراف العالم الاسلامي حتى هددت المملكة بالسقوط . فان اهل حمص لم يبايعوا يزيد بل قاموا يطالبون بدم الوليد . وسليمان بن هشام نجح من سجنه في عمان وجمع اليه أجناداً وسار الى دمشق يطالب بحقوق الخلافة . وأهل فلسطين ثاروا على أميرهم وقتلوه . ومروان بن محمد الحمار جرد من أرمينيا مطالباً بدم الوليد . وكان جيشه غفيراً فلما بلغ حران خافه يزيد فكتبه وعاهده على ان يخلي له ما بين النهرين وارمينيا واذريجان حقناً لدماء العباد . وبعد ذلك يسير توفي يزيد بالطاعون وسنه ٤٠ سنة ولم يحكم الا خمسة اشهر وعشرة ايام

وفي يوم وفاة يزيد بويج ابراهيم بن الوليد اخوه من ابيه ولم تكن تلك المبايعة مفرحة له لأنه جاء الخلافة وهي في معظم الاضطراب . فلما علم مروان بن محمد بوفاة يزيد نكث المعاهدة وجرد جيشاً من ٨٠ الف مقاتل الى قنسرين يشكر المبايعة على ابراهيم فبعث ابراهيم مائة الف مقاتل تحت قيادة سليمان بن هشام لملاقاته في حمص وكان

مروان ينتحل سبباً يسوغ له الهجوم على دمشق فادعى انه جاء لاتخاذ الحكم وعثمان ابني الوليد بن يزيد من سجن دمشق . وقبل مباشرة الحرب كتب مروان الى سليمان بن هشام في حمص يسأله اذا كان يوافقه على خلع الخليفة ابراهيم وتولية أحد أبناء الخليفة السابق فأبى فخاربه مدة ففر سليمان ورجاله الى دمشق . فلما دخلها تعاقد مع الخليفة ابراهيم وجعلوا ايديهما على الخزان ثم اخرجوا ابني الوليد من السجن وقطعوا عنقيهما لانهما منشأ تلك المتاعب لعلهما يتخلصان من المقاومين فجاء الامر بالعكس اذ عظمت دعوى مروان فادعى ان الخليفة الذي يقتل أبناء اخيه بغير الحق لا يصلح للخلافة وطلب خلعه وما زال حتى دخل دمشق في الشهر الثاني من سنة ١٢٧ هـ ووضع يده على الاحكام ودعا الى مبايعته فبايعه الجميع حتى الخليفة ابراهيم لانه اشترى حياته بهـذـه المبايعة وكانت مدة خلافة ابراهيم ٦٩ يوماً وعاش بعد الخلع ست سنوات



خلافة مروان بن محمد

من ١٢٧ — ١٣٢ هـ او من ٧٤٤ — ٧٥٠ م

وكان لمروان بن محمد ثلاثة القاب الأول أبو عبد الملك لقب به يوم ولادة ابنه البكر والثاني الجادي نسبة الى عمه جاد بن درهم والثالث الحمار وكان مشهوراً به اكثر مما بغيره واصل تلقيبه به انه كان ثابتاً في الحروب فلقبوه بحمار الوحش ثم اهمت الكلمة الثانية فتنوسيت وبقيت الاولى وحدها . فلما تمت له المبايعة سنة ١٢٧ هـ ابدل حفص ابن الوليد أمير مصر بحسان بن عتاهية النجيب فشق ذلك على المصريين فوثبوا عليه وقالوا لا نرضي الا بحفص وركب جماعة منهم الى المسجد ودعوا الى خلع مروان وحبسوا حسان في داره وقالوا اخرج عنا فانك لا تقم معنا ببلد فأخرجوه بعد ١٧ يوماً من توليته وأخرجوا معه عيسى بن أبي عطاء صاحب الخراج فولى مروان على مصر الحفص ابن الوليد وهي المرة الثالثة لولايته عليها . وفي سنة ١٢٨ هـ صرفه مروان وولى مكانه الحوثر بن سهل بن عجلان والمصريون غير راضين بذلك فسار اليها في الاف باول الحرم وقد اجتمع الجند على منعه فأبى عليهم حفص فخافوا حوثره وسألوه الامان فأمنهم ونزل في ظاهر الفسطاط . وبعد سنة ونصف (في ٢٤ رجب سنة ١٣١) عزل حوثره وولى مكانه المغيرة بن عبيد الله الفزاري وبعد يسير توفي المغيرة وولى مكانه عهد الملك بن موسى وكان والياً على الخراج فلما تولى الامارة امر باتخاذ المناظر في السكور

ولم تكن قبله وكان ولاية السكور يخطبون على العصي الى جانب القبلة . والمغيرة آخر من تولى مصر من قبل الدولة الاموية . لانها كانت على شفا السقوط وقد انتشر الفساد في أنحاء المملكة الاسلامية فثارت حمص على مروان وكانت اول من جاهر بدعوته كما علمت فسامها الرضوخ فأبت . ومثل ذلك فعات دمشق وكانت اول من دعا الى بيعته وبويع سليمان بن هشام على البصرة ثم تقدم بجيشه الى قنسرين فحاربه مروان وقتل من رجاله ثلاثين الفا فانهزم سليمان الى حمص وحاصر فيها فجهز اليه مروان وحاصره هناك

وكثير منازعو مروان على الخلافة وفي مقدمتهم أبو العباس الهاشمي أول خلفاء الدولة العباسية وكان قد بايعه الفرس في اقصى الشرق (خراسان) بمساعدة أبي مسلم الخراساني وكان قد ارسله اليها داعياً وهو لم يبلغ التاسعة عشرة من العمر لكنه أظهر همة ودراية لا تتفقان الا بالرجال العظام فتملك قلوب الناس وجمع كلمتهم اليه وحارب جيوش مروان في خراسان فظفر بها فتقدم الى العراق حتى أتى الكوفة فافتتحها وخطب فيها لابي العباس . أما مروان فلم يظفر بحمص وسار الى الموصل فاضطهده اهلها فغنط من الفوز فعاد على اعقابها الى سوريا فراها مجمعة على عصيانه فلم ير له مخرجاً الا مصر لانها كانت لا تزال الى ذلك الحين على بيعته

أما أبو العباس فلما استتب له الامر في الكوفة جعل على البلاد التي صارت تحت حكمه ولاية اختارهم من ذويه ثم بايعه اهل الشام ومن والاهم . وهكذا كانت نشأة الدولة العباسية التي أقيمت على انقاض الدولة الاموية . ثم رأى أبو العباس تثبيتاً لقدمه في الخلافة ان يقتل كل من بقي من ابناء الدولة الاموية ودعاتها ولو بايعوه فامر بالقبض عليهم وهم ثمانون نفساً بين نساء ورجال واولاد فامر بذبحهم معاً بغير شفقة فلقب من ذلك الحين بالسفاح . ولم ينبج من هذه المذبحة الا شاب يقال له عبد الرحمن حفيد الخليفة هشام فرّ الى الاندلس (اسبانيا) وأسس فيها دولة اخرى اموية

أما مروان فجاء مصر على ان يستبقها له فارسل عبد الله عم ابي العباس اخاه صالح بن علي يقتضي اثره وامره ان يقبض عليه باي وسيلة كانت فصار صالح في جيش عظيم ومعه ابو عون عبد الملك بن يزيد ونزل على جبل يشكر حيث جامع ابن طولون اليوم وكان قسماً من الفسطاط في اول عهدها ثم صار خراباً . فأمر ابو عون اصحابه بالبناء فيه فابتنوا وقاموا فيه معسكرهم ودعوه بالعسكر واتصل بناؤه ببناء الفسطاط وبنيت فيه بعد ذلك دار الامارة وجامع عرف بجامع العسكر ثم عرف بجامع ساحل الغلة وصار هناك مدينة ذات اسواق ودور عظيمة وصار امراء مصر ينزلون فيه من بعد ابي عون

الى ان بنى احمد بن طولون القطائع واقام فيها قصره
ثم اخذ صالح بن علي في مطاردة مروان فأدركه في قرية بوسير من الجيزة وقتله
في ٢٧ جمادي الآخرة سنة ١٣٢ هـ وسنه سبعون سنة وقال آخرون ٥٩ ونقل راسه
الى ابي العباس السفاح . وكانت مدة خلافة مروان خمس سنوات وشهراً واحداً وهو
آخر خليفة من الدولة الأموية بالشام

الدولة العباسية للمرة الاولى

من سنة ١٣٢ — ٢٥٧ هـ او من ٧٥٠ — ٨٧٠ ر

خلافة ابي العباس بن محمد

من ١٣٢ — ١٣٦ هـ او من ٧٥٠ — ٧٥٤ م

بويج الخليفة ابو العباس عبد الله بن محمد الملقب بالسفاح في ١٣ ربيع اول سنة
١٣٢ هـ وهو من سلالة العباس بن عبد المطلب واول الخلفاء العباسيين فأقال ولاية الامصار
الذين كانوا قبل خلافته وابد لهم بولاية من اقاربه وذويه . فجعل على مصر عمه صالح بن
علي قاتل مروان . فسار صالح حتى دخلها في محرم سنة ١٣٣ هـ وبعد يسير بعث الى
الخليفة وفداً من اهل مصر بمبايعتها ثم قبض على عبد الملك بن موسى وجماعته وقتل
كثيراً من دعاة بني أمية وحمل طائفة منهم الى العراق فقتلوا بقانسوة من ارض فلسطين
وفي غرة شعبان سنة ١٣٣ هـ ورد اليه كتاب امير المؤمنين بامارته على فلسطين وان
يستخلف على مصر من اراد فاستخاف ابا عون عبد الملك بن يزيد نائباً عنه وسار
ومعه عبد الملك بن نصير وعدة من اهل مصر

وفي ١٣ ذي الحجة سنة ١٣٦ هـ توفي ابو العباس في الهاشمية سرير خلافته بعد
ان قضى على دست الخلافة ٤ سنوات و٨ اشهر و٢٦ يوماً وسنه ٣٣ سنة ونصف وهو
اول من اتخذ وزيراً لان خلفاء بني أمية لم يكونوا يستوزرون ولاكنهم استكتبوا

خلافة المنصور بن محمد

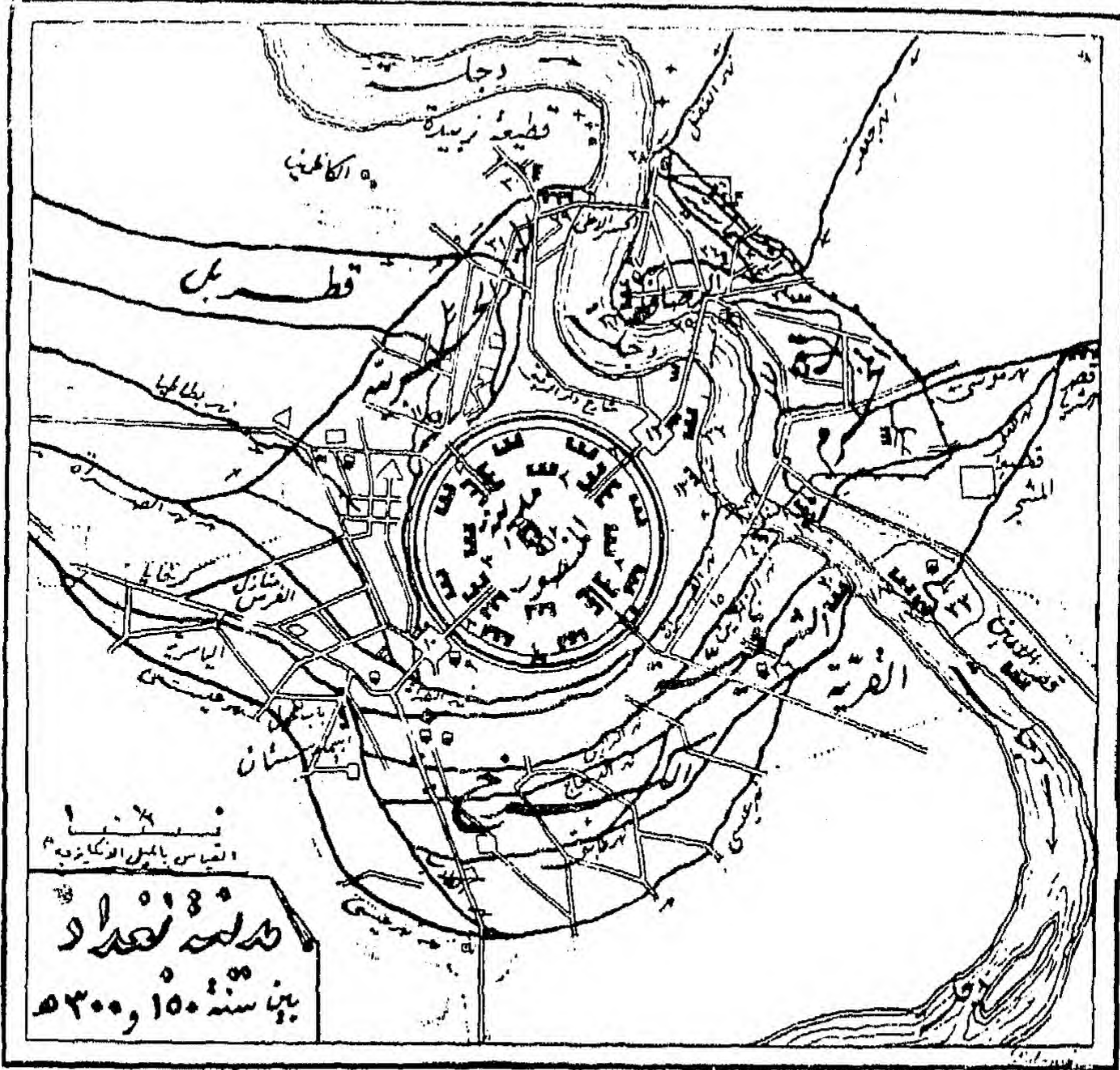
من ١٣٦ - ١٥٨ هـ أو من ٧٥٤ - ٧٧٥ م

وخلف ابا العباس اخوه المنصور بن محمد الملقب بابي جعفر واتخذ الهاشمية سريراً للملكة كما فعل سلفه . وفي سنة ١٤٠ هـ عهد ولاية مصر الى ابي عون الذي كان نائباً فيها وفي سنة ١٤١ هـ عزل ابا عون عن مصر وولى موسى بن كعب وكان احد نقباء العباسيين فدخل مصر في ١٥ ربيع آخر من السنة المذكورة ونزل العسكر . وفي ٥ ذي الحجة من تلك السنة عزل موسى وولى محمد بن الاشعث الخزاعي واراد توليته امر الخراج فابى فتولاه نوفل بن الفرات ثم راي بعد حين ان اهل الدواوين مالوا بكايتهم نحو صاحب الخراج فقدم وآل الامر الى نفور بينه وبين نوفل . وفي ٥ رمضان سنة ١٤٣ هـ صرف محمداً وولى حميد بن قحطبة بن شبيب الطائي فجاء مصر بجيش . وفي ٢٢ ذي القعدة سنة ١٤٤ هـ صرفه وولى يزيد بن حاتم المهلبى

فتري انه تقاب على مصر في مدة لا تتجاوز سبع سنوات ستة امراء الامر الدال على ما فطر عاينه المنصور من التقلب فانه كان لا يثق باحد ولا يقر على امر وكان كثير الهواجس والظنون سريع الحكم ويدلك على ذلك ما كان من امره مع ابي مسلم الذي له الفضل على جميع الخلفاء العباسيين اذ لولا مساعيه ما وصات الخلافة الى يدهم . فانه بمجرد ما قيل له ان ابا مسلم متشيع لاهل البيت امر بقتله . ولشدة هواجسه ترك الهاشمية التي كانت الى ذلك العهد (سنة ١٤٥ هـ) سريراً للخلافة العباسية وشرع في بناء مدينة دعاها مدينة السلام ثم دعيت بغداد عاصمة الخلفاء العباسيين . ثم خلع عن ولاية العهد ابن اخيه عيسى بن موسى وكان السفاح قد اوصى له بها بعده . وبايع لابنه محمد المهدي بن المنصور مكانه على ان يكون عيسى المذكور خليفة بعده

اما يزيد بن حاتم فتولى مصر في ايام المنصور نحواً من ثماني سنين عمل فيها بامانة . وفي امارته ظهرت دعوة بني الحسن بن علي بمصر وتكلم بها الناس وبايع كثير منهم لعلي ابن محمد بن عبد الله وطرق المسجد في ١٠ شوال سنة ١٤٥ هـ ثم قدمت الخطباء براس ابراهيم بن عبد الله بن حسن بن الحسين بن علي في ذي الحجة فنصب في المسجد . وفي تلك السنة منع يزيد اهل مصر من الحج ولم يحج منهم احد ولا من اهل الشام لما كان في الحجاز من

الاضطرابات بأمر بني حسن . وفي سنة ١٤٦ هـ ورد كتاب أبي جعفر يأمر يزيد بن حاتم بالتحول من العسكر الى الفسطاط وان يجعل الديوان في كنائس القصر من اجل ليلة المسجد



تاريخ المدن الاستعماري

ش ٣١ - خريطة بغداد

وفي هذه السنة كان الفراغ من بناء مدينة بغداد فتحول اليها الخليفة ابو جعفر المنصور في صفر فلما دحاها امر ان تجتمع اليه العلماء والفلاسفة . وفي سنة ١٤٧ هـ حج يزيد واستخاف عبد الله بن عبد الرحمن بن معاوية بن حديج صاحب شرطته وبعث جيشاً لغزو الحبشة من اجل خارجي ظهر هناك فظفر به الجيش وقدم راسه في عدة رؤوس فحمت الى بغداد . وفي سنة ١٤٨ هـ ضم يزيد بركة الى عمل مصر وهو اول من فعل ذلك . وفي سنة ١٥٠ هـ خرج القبط في سخر فبعث

اليهم جيشاً فرجع منهزماً . وفي سنة ١٥٢ هـ توفي يزيد بن حاتم واقام المنصور عوضاً عنه عبد الله بن عبد الرحمن بن معاوية بن حديج وهذا لم يحكم مصر الا ٣ سنين . وفي سنة ١٥٥ هـ أٌبدل باخيه محمد بن عبد الرحمن . وفي سنة ١٥٦ هـ توفي محمد المذكور فولى مكانه موسى بن علي بن رباح . ولداعي هذه التغيرات الكثيرة في اماره مصر لم يرتح اهلها فلم يكن لها فرصة للتقدم خطوة نحو الامام لاعتقاد كل حاكم انه عن قليل معزول فبدلاً من ان يسعى في زرع ما ربما لا يستغله كان يسعى فيما فيه نفعه الشخصي ولذلك كان كل واحد منهم يزيد في مقدار الضرائب المفروضة او يخترع ضرائب جديدة بحيث انه لم يبق شيء لا معنى من الضرائب حتى الفعلة وبائع البقول وقادة الجمال وكل الصناع حتى المتسولين كل هؤلاء كانوا يدفعون الضرائب فعم البلاء واشتد الجوع فاكل الناس الكلاب ولحم الادميين

وفي ٦ ذي الحجة سنة ١٥٨ هـ توفي ابو جعفر المنصور وهو في بير ميمون على



بضعة اميال من مكة حيث توجه لقضاء فروض الحج وكان عمره ٦٣ سنة ومدة حكمه ٢٢ سنة الا ٧ ايام . وهذه صورة من النقود التي ضربت في ايام الخليفة المنصور سنة ١٤٦ هـ (انظر ش ٣٢)

ش ٣٢ — نقود المنصور

خلافة محمد المهدي

من سنة ١٥٨ - ١٦٩ هـ او من ٧٧٥ - ٧٨٥ م

تخلفه محمد المهدي ابنه وهو الخليفة الثالث من بني العباس وكان كاهنه متقلباً متردداً وفي سنة ١٥٩ هـ صرف موسى بن علي عن مصر وولى محمد بن سليمان من اهالي سوريا ثم عزله واعاد موسى بن علي . وفي سنة ١٦٠ هـ صرف هذا وولى عيسى بن لقمان الجمحي . وفي سنة ١٦٠ هـ صرف عيسى وولى واضحاً مولى ابي جعفر وبعد يسير ابدله بمنصور بن يزيد الرعيني وهو ابن خال الخليفة المهدي . وفي سنة ١٦٣ هـ ابدله بجي بن داود الملقب بابي صالح من اهل خراسان وكان ابوه تركياً وهو من اشد الناس

واعظمهم هيبة واقدمهم على الدم واكثرهم عقوبة فتمنع من اغلاق الدروب ليلاً ومن اغلاق الحوانيت حتى جعلوا عليها شرائح القصب لمنع السكلاب . ومنع حراس الحمامات ان يجلسوا فيها وقال « من ضاع له شيء فعلياً اداؤه » فكان الرجل يدخل الحمام فيضع ثيابه ويقول « يا ابا صالح احرسها » فكانت الامور جارية على هذا النمط مدة ولايته وامر الاشرف والفقهاء واهل الدواب بلبس القلائس الطوال والدخول بها عليه يوم الاثنين والخميس بلا اردية . وكان ابو جعفر المنصور اذا ذكره قال هو رجل يخافني ولا يخف الله . وفي سنة ١٦٤ هـ عزل ابو صالح وولي سالم بن سودة التميمي . وفي ١٥ محرم سنة ١٦٥ هـ عزله المهدي وولي ابراهيم بن صالح بن علي بن عبد الله بن عباس فابتنى داراً عظيمة بالموقف من العسكر . وخرج دحيه بن المعصب من نسل عبد العزيز بن مروان نابذاً ودعا الى نفسه بالخلافة فتراخى عنه ابراهيم ولم يحفل بامرءه حتى ملك عامة الصعيد فسخط المهدي على ابراهيم وعزله عزلاً قبيحاً في ٧ ذي الحجة سنة ١٦٧ هـ وولي موسى بن مصعب بن الربيع من اهل الموصل . ولما جاء هذا مصر اخذ من ابراهيم ومن كان معه ثلثمائة الف دينار ثم سيره الى بغداد . وشدد موسى في استخراج الخراج وزاد على كل فدان ضعف ما يقبل وجعل يقبل الرشوة وضرب خراجاً على الحوانيت وعلى الدواب فتضايق الاهالي وكره الجند ذلك وتابذوه وثار قيس واليمانية وكاتبوا اهل الفسطاط فانفقوا عليه فبعث بجيش لقتال دحية بالصعيد وخرج في جند مصر كلهم لقتال اهل الحوف فلما التقوا انهزم عنه اهل مصر باجمعهم واساموه فقتل في ٩ شوال سنة ١٦٨ هـ من غير ان يتكلم احد منهم . وكانت ولايته عشرة اشهر وكان ظالماً غاشماً . فولى المهدي مكانه اسامة بن عمر وقتياً الى ان انفذ اليها الفضل بن صالح اخا ابراهيم المتقدم ذكره اميراً فاخذ يسعى في اخاد ثورة اهل الحوف وخاف خروج دحية لان الناس كانوا قد كاتبوه ودعوه فسير الفضل عساكره اليه وكان قد اتى بها من الشام فانهمزمت رجال دحية وقبض عليه وسيق الى الفسطاط فضربت عنقه في جمادى الآخرة سنة ١٦٩ هـ وكان يقول للفضل انا اولى الناس بولاية مصر لاني قمت في امر دحية وقد عجز عنه غيري ويقال انه ندم على قتل دحية وفي تلك السنة بنى الفضل الجامع بالعسكر وكان الناس يجتمعون فيه

وبقيت مصر في راحة وهدوء تامين بعد اخاد ثورة اهل الحوف وكذلك كانت سائر الامارات الاسلامية فسكن بال الخليفة المهدي من قبيل داخلية المملوك فعاكف على توسيع نطاقها فغزا ملك اليونان بجند تحت قيادة ابنه الثاني هارون الرشيد فتغلب

هارون على بلدان عديدة ضمها الى مملكة ابيه ووضع على القسطنطينية جزية مقدارها
١٠٠ ألف دينار فاطهر هارون شجاعة واقداماً وقعا في عيني ابيه موقعا عظيما
فخافاه بان جعل له حق الخلافة بعد اخيه موسى الهادي



وفي ٢٢ محرم سنة ١٦٩ هـ توفي الخليفة
المهدي وله من العمر ٤٢ سنة ومدة حكمه
عشر سنين وشهران ونصف
وهذه صورة النقود التي ضربت في عهد
الخليفة المهدي سنة ١٦٣ هـ (انظر ش ٣٣)

ش ٣٣ - نقود الخليفة المهدي

خلافة موسى الهادي

من سنة ١٦٩ — ١٧٠ هـ او من ٧٨٥ — ٧٨٦ م

فبويج موسى الهادي وهو الخليفة الرابع من بني العباس وحالما استلم زمام الاحكام
عزل الفضل بن صالح عن مصر وولى علي بن سليمان وحاول الغاء وصية ابيه القاضية
بخلافة هارون من بعده على نية ان يجعل الخلافة لابنه لكنه لم يأت على ادراك مناه
حتى ادركه الموت في يوم الجمعة الواقع في ١٤ ربيع الاول سنة ١٧٠ هـ وعمره ٢٤ سنة
ولم يحكم الا سنة وشهراً و٢٢ يوماً

خلافة هارون الرشيد

من سنة ١٧٠ — ١٩٣ هـ او من ٧٨٦ — ٨٠٩ م

فبويج ابنه هارون الرشيد يوم وفاة اخيه وهو الخليفة الخامس من بني العباس وفي
أيامه بلغت دلة والعرب من العمران والمجد مافاح ارجه في اقاصي الارض المعمورة ولم
تعد ترى عصرأ مثل ذلك العصر وكأن شمس الدولة العربية في أيامه باغت خطاها جرة
ثم اخذت تنحدر بعده رويداً رويداً نحو الافق . وفي يوم مبايعته ولد له غلام دعاه
عبدالله وهو بكر أولاده وولي عهده ولقب بعدئذ بالأمون

واقر هارون الرشيد علياً على مصر فظهر هذا في ولايته حزماً وسياسة قأمر بالمعروف ونهى عن المنكر ومنع الملاهي والجمهور لـكنه عكف على هدم الكنائس المحدثه في مصر فبذل له النصارى خمسين الف دينار على أن يتخلى عن هدمها فأبى . وكان كثير الصدقة فعلق به الـاهلون حتي قالوا انه اهل للخلافة فطمع فيها فسيخط عليه هارون الرشيد وعزله وولى مكانه موسى بن عيسى العلوي في ٦ ربيع اول سنة ١٧١ هـ وحالما استمر زمام الامارة اذن للمسيحيين بابتناء الكنائس التي هدمت بامر علي بن سليمان فابتنيت بمشورة الليث بن سعد وعبد الله بن لهيعة . وفي ١٤ رمضان سنة ١٧٢ هـ عزل بعد ان تولى الامارة سنة وخمسة اشهر وتولى مكانه مسامة بن يحيى وفصل بين ادارة الحكومة والمالية او الخراج وجعل على الخراج عمر بن غيلان وفي ٥ شعبان سنة ١٧٣ هـ عزل مسامة بن يحيى عن الصلاة وتولى محمد بن زهير وفي غاية ذي الحجة سنة ١٧٣ هـ عزل وتولى مكانه داود بن يزيد بن حاتم بن قبيصة . وفي ٧ صفر سنة ١٧٥ هـ عزل داود بن يزيد وولى مكانه موسى بن عيسى ثانية . وفي هذه السنة اوصى هارون الرشيد بالخلافة لابنه الثاني محمد الملقب بالامين وهو لم يبلغ الخامسة من العمر واخوه المأمون في السادسة . وسبب ذلك ان الامين كان ابن زبيدة ابنة عم الخليفة واما المأمون فكان ابن جارية فارسية فغضبت زبيدة لحرمان ابنها من الخلافة وكان الرشيد يحبها فاوصى بالخلافة لابنها الامين على ان يكون للمأمون حق الخلافة بعده

وفي ٢٦ صفر سنة ١٧٦ هـ عهدت امارة مصر الى ابراهيم بن صالح ثانية وكان قد ثولاها في خلافة ابي جعفر كما تقدم . وفي ١٨ رمضان سنة ١٧٦ هـ تولى امارة مصر عبد الله ابن المسيب بن زهير الضبي اخو محمد بن زهير ثم صرف في رجب سنة ١٧٧ خلفه اسحاق بن سليمان من بني العباس فلما وصل مصر زاد في خراج المزارعين زيادة احيقت بهم فخرج عليه اهل الحوف فحاربهم فقتل كثير من اصحابه فكتب الى الرشيد بذلك فمقد هرثمة بن اعين في جيش عظيم وبعث به فنزل الحوف فتلقاه اهلـه بالطاعة واذعنوا فقبل منهم واستخرج الخراج كله فسر الخليفة مما اتاه هرثمة من النصر فصرف اسحاق ابن سليمان وولى مكانه هرثمة في ٢ شعبان سنة ١٧٨ هـ وبعد قليل ارسل الرشيد هرثمة الى افريقية وولى على مصر عبد الملك بن صالح اخا ابراهيم بن صالح على الصلاة وارسل معه عبد الله بن زهير على الخراج . وفي ١٢ محرم سنة ١٧٩ هـ ابدل عبد الملك بن صالح بعبيد الله بن المهدي شقيق الخليفة وبعد قليل تمنحى هذا عن الامارة اوسى بن عيسى وهي المرة الثالثة لاماره . وفي سنة ١٨٠ هـ عادت امارة مصر الى عبيد الله بن المهدي

ثانية . وفي ٧ رمضان سنة ١٨١ هـ سلمت اماره مصر الى اسماعيل بن صالح وكان خطيباً بليغاً فقال فيه ابن عفير « مارأيت على هذه الاعواد اخطب من اسماعيل بن صالح »
وفي ١٤ جمادى الآخرة سنة ١٨٢ هـ صرف الرشيد اسماعيل بن صالح وولى اسماعيل ابن عيسى العباسي ثم صرف هذا وولى الليث بن الفضل البيوردي من اهل بيوردي فقدم مصر في ٥ شوال سنة ١٨٢ هـ وخرج منها في رمضان سنة ١٨٣ الى الخليفة بالهدايا والمال واستخلف اخاه الفضل بن علي في مصر ثم عاد في آخر السنة وخرج ثانية بالمال في ٢١ رمضان سنة ١٨٥ هـ واستخلف هاشم بن عبدالله بن عبدالرحمن بن معاوية ابن حديج ثم عاد في ١٤ محرم سنة ١٨٦ هـ فكان كلما اغلق خراج سنة وفرغ من حسابها خرج بالمال الى امير المؤمنين هارون الرشيد مع الحساب

ثم بعث بمساح يمسحون الاراضي ومن جعلتها اراضي اهل الحوف فانتقض لهم من القصبه اصابع فتظلموا الى الليث فلم يسمع منهم فتجهزوا وساروا الى الفسطاط فخرج اليهم الليث في اربعة آلاف من جنود مصر في شعبان سنة ١٨٦ هـ فالتقى بهم في رمضان فانهزم عنه الجند في ١٢ منه وبقي في نحو المائتين فحمل بمن معه على اهل الحوف فهزمهم حتى بلغ بهم غيفة وكان التقاؤهم على ارض جب عميرة وبعث الليث الى الفسطاط بثمانين رأساً من رؤوس القيسية . ولما عاد الى الفسطاط عاد اهل الحوف الى منازلهم ومنعوا الخراج فسار الليث الى الخليفة هارون الرشيد في محرم سنة ١٨٧ هـ وطلب اليه الجيوش لانه لا يقدر على استخراج الخراج من اهل الحوف الا بجيش يبعث به معه وكان محفوظ ابن سليم بباب الرشيد فرقع محفوظ الى الرشيد يضمن له خراج مصر عن آخره بلا سوط ولا عصا فولاه الخراج وصرف الليث بن الفضل عن صلاة مصر وخراجها . وفي ٢٥ جمادى الآخرة سنة ١٨٧ هـ عزل واقيم مقامه احمد بن اسماعيل بن صالح . وفي ١٨ شعبان سنة ١٨٩ هـ ابدل بعبد الله بن محمد العباسي الملقب بابن زينة . وفي هذه السنة ابدل عبدالله المذكور بحسين بن جميل التختاخ وفي ايامه امتنع اهل الحوف من الخراج فبعث اليه الخليفة هارون الرشيد يحيى بن معاذ في امرهم . فنزل بلييس في شوال سنة ١٩١ هـ وصرف الحسين بن جميل عن اماره مصر في شهر ربيع الآخر سنة ١٩٣ هـ وولى مالك بن دهم وفرغ يحيى بن معاذ من امر الحوف وقدم الفسطاط في جمادى الثانية فورد عليه كتاب الرشيد يأمره بالخروج اليه فكتب الى اهل الحوف ان اقدموا حتى اوصي بكم مالك بن دهم وادخل بينكم وبينه في امر خراجكم . فدخل كل رئيس منهم من اليمانية والقيسية وقد اعد لهم القيود فامر بالابواب فأخذت ثم دعا بالحديد

فقيدهم وتوجه بهم في منتصف رجب وفي السنة التالية عهدت الى الحسين قيادة الجيش والخراج فضلاً عن الامارة . وفي ١٢ ربيع آخر سنة ١٩٢ هـ ابدل بمالك بن دهم وكان على الخراج الخصيب بن عبد الحميد واليه تنسب مدينة منية خصيب واخيراً في ٤ صفر سنة ١٩٣ هـ عادت اماره مصر الى الحسن بن جميل الى ان توفي الخليفة هارون الرشيد في ٣ جمادى الآخرة من تلك السنة في طوس وسنه ٤٧ سنة ومدة حكمه ٢٣ سنة وشهرو ١٩ يوماً . ولا حاجة لتعداد خلال هذا الخليفة الذي رفع شأن الخلافة الاسلامية الى حد من العظمة لم تدركه في سائر اطوارها فقد كان حازماً عادلاً تقياً باسلاً وديعاً محباً للعلم والفضل واهلهما ولدينا من الاحاديث عن كرم اخلاقه ما يتحدث به العامة والخاصة فنكتفي بانه جعل الخلافة علماً هومسهاها فاذا قيل لنا ان الامر الفلاني حصل في ايام الخليفة نفهم انه حصل في خلافة هارون الرشيد ومما يحكى عنه انه كان بينه وبين شلمان ملك فرنسا في ذلك العهد صداقة وولاء



وانه اهدى اليه اشياء كثيرة من اعمال الشرق منها الساعة الشهيرة المكتوب عليها بالحروف الكوفية . وهذه صورة النقود التي ضربت في ايام الخليفة هارون الرشيد سنة ١٩١ هـ (انظر ش ٣٤)

ش ٣٤ — نقود هارون الرشيد

خلافة محمد الأمين

من سنة ١٩٣ — ١٩٨ هـ او من ٨٠٩ — ٨١٣ م

وفي يوم وفاة الرشيد خلفه ابنه محمد الأمين اما المأمون فكان ابوه قبل وفاته قد وهبه جميع حلاله واسلحته الخصوصية وولاه خراسان بما فيها من العدة والرجال وان يكون عليها حاكماً مستقلاً عن اخيه الأمين . فالأمين عند استلامه زمام الخلافة انكر على اخيه وصية ابيهما ولم يسلمه شيئاً مما له الحق به ويقال ان كل ذلك كان بدسيسة الفضل بن ربيع . فتنافر الاخوان والأمين اشد هما ضعينة فارسل الى السكبة فأتى بالسكتين الذين جعلهما الرشيد هناك بسيعة الأمين والمأمون فاحرقهما الفضل وجعل

ولاية العهد لموسى بن الأمين فلم يبق بعد ذلك باب للمصالحة بين الأخوين . وكان الأمين محباً للهو ومعاقرة الحرمة . أما المأمون فكان متيقظاً يتحين الفرص فدعا إلى مبايعته بخراسان فالتف حوله حزب كبير يدعون إلى نصرته . ائروافيه من العدل وكرم الاخلاق ثم جعل المأمون يجمع قوائمه ويستنصر دعائه واتحد معه هرثمة بن اعين الذي كان اميراً على مصر قبل ذلك الحين فعظم الامر على الأمين فولى حاتم بن هرثمة على مصر سنة ١٩٤ هـ استعطافاً لابيه هرثمة ولكن ذلك لم يجده نفعاً لأن هرثمة لم يتحول عن ولاء المأمون وفي سنة ١٥٩ هـ انفذ الأمين جيشاً فيه اربعون الف مقاتل الى خراسان لمقاتلة اخيه فلاقاهم طاهر بن الحسين قائد جند المأمون وارجعهم على اعقابهم فعظم المأمون في عيون المسلمين عموماً فبايعه اهل خراسان وتابعهم كثيرون . فلما رأى الأمين ذلك ورأى ان تولية حاتم بن هرثمة على مصر لم تجده نفعاً عزله وولى جابر ابن الاشعث في السنة عينها . وابتنى حاتم بن هرثمة في سفح جبل المقطم حيث القلعة الآن قبة عظيمة دعاها قبة اهواء بقيت الى انقراض دوله بني طولون وخراب القطائع . وبعد تولية جابر على مصر اشتد ازر الأمين وطمع بالفوز على اخيه فجند جنداً آخر مؤلفاً من ٤٠ ألفاً لمحاربتة وجنداً آخر انفذه من جهة اخرى تحت قيادة عبد الله بن حميد بن قحطبة الذي كان ابوه اميراً على مصر في عهد ابي العباس . اما طاهر بن الحسين فسار لملاقاتهم ولم يبال بتلك الجيوش لكنه لم ياتق بهم فتقدم الى الاهواز

وكان على مصر جابر بن الاشعث كما تقدم فلما حدثت فتنة الأمين والمأمون قام السري بن الحكم غضباً للمأمون ودعا الناس الى خلع الأمين فاجابوه وبايعوا المأمون في ٢٢ جمادى الآخرة سنة ١٩٦ هـ . وقام في بغداد الحسين بن علي احد سراتها ودعا الناس الى خلع الأمين وتولية المأمون فاجابوه وبايعوا في ١١ رجب من تلك السنة . ووثب العباس بن عيسى على الأمين ووالدته زبيدة واودعهما السجن موثقين . ثم تمكن الأمين ببعض الوسائط من تسليق كرسي الخلافة ثانية فبايعه من في بغداد فقط . اما خلافة المأمون فكانت على الحجاز واليمن والشام ومصر وغيرها . وعقد على مصر لحاتم بن هرثمة بن اعين وارسل اليها عباد بن محمد نائباً عنه مؤقتاً

وفي سنة ١٩٧ هـ حمل طاهر بن الحسين وهرثمة بن اعين على بغداد وحاصراها نحواً من سنة فضجر الاهالي وملوا من طول هذه المحاصرة وصاروا ينظرون لها

نهاية فلم يروا لها حلاً الا يخلع الامين نخلعوه المرة الثانية ففرّ وبعد قليل قبض عليه وقتل وجيء برأسه والخاتم والقضيب والبردة الى المأمون ولم يكن عمر الامين عند موته الا ٢٩ سنة و٣ اشهر وبضعة ايام ومدة حكمه اربع سنين وثمانية اشهر وثمانية عشر يوماً وكفّت بموته الحروب وحقنت الدماء

خليفة عبد الله المأمون

من ١٩٨ - ٢١٨ هـ او من ٨١٣ - ٨٣٣ م

فبويج المأمون مبايعة قطعية في ٢٥ محرم سنة ١٩٨ هـ يوم قتل اخيه الامين . فاستقدم عباد بن محمد الذي كان عينه نائباً في مصر وعهد امارتها الى المطلب بن عبد الله الخزاعي . وبعد اشهر قليلة أبدل بالعباس بن موسى بن عيسى الذي تولى على مصر ثلاث مرات في ايام هارون الرشيد فتولى صلاتها وخراجها . وفي سنة ١٩٩ هـ تخلى العباس بن موسى عن اماره مصر فارسل المأمون عوضاً عنه المطلب بن عبد الله سلفه وبعد قليل أبدل بالسري بن الحكم . واخذت من ذلك الحين تنتشر في المملكة الاسلامية الا ان الايام تلد العجائب فتأتيك كل يوم نبأ جديد

فان العلويين سلالة الامام علي بن ابي طالب لم يكفوا عن المطالبة بحقوقهم في الخلافة فدعوا الناس الى مبايعة علي بن موسى . فلما علم المأمون بذلك وكان لا يزال في خراسان استشار وزيره الفضل بن سهل في الامر فنصح له ان يوصي بالخلافة بعد وفاته لعلي المذكور لان الفضل كان شيعياً . الا ان تلك السياسة لم تفد الا زيادة الخرق اتساعاً فتضاعف التمرد ونمت الاحزاب وقد شق ذلك خصوصاً على بني العباس لانهم رأوا الخلافة قد خرجت من ايديهم الى العلويين فتساروا في بغداد سنة ٢٠٢ هـ ثورة شفت عن خلع المأمون ومبايعة ابراهيم بن المهدي . اما سطوته فلم تتجاوز سور بغداد لانه لم يكن اهلاً للحكام نفارت قواه دون ذلك فعجز الدين اقاموه عن استمقائه اكثر من سنة وبضعة اشهر فتنازل عن الخلافة سنة ٢٠٣ هـ وفرّ هارباً فعاد المأمون الى بغداد في سنة ٢٠٤ هـ فدخلها في حلة خضراء علوية وبعد اسبوع عادت الجنود الى الملابس السوداء العباسية

وفي هذه السنة توفي الامام محمد بن ادريس الملقب بالشافعي صاحب المذهب الشافعي

وكانت وفاته في الفسطاط ولم يبلغ من العمر أكثر من ٥٤ سنة . وتوفي أيضاً السري ابن الحكم أمير مصر وأقيم مقامه محمد بن السري بمبايعة الجند له بقطع النظر عن أوامر الخليفة بهذا الشأن . وفي سنة ٢٠٧ هـ توفي طاهر بن الحسين رئيس قواد المأمون في مرو عاصمة خراسان وكان قد أقامه المأمون هناك حاكماً فقدم ابنه عبد الله ابن طاهر الى مصر وأقام في بلبس

ونظراً لما بين مصر ودار الخلافة من بعد المسافة أصبح الناس لا يعاؤون بالأوامر التي كانت تأتيهم منها . وزد على ذلك ان الدولة أصبحت في ضعف شديد لما كان يهددها من تمرد عمالها واحتقار رعيته لها ولا سيما المصريين فانهم كانوا لا ينفكون عن خرق حرمتها ومخالفة أوامرها حتى عقدوا لعبد الله بن السري عليهم بمبايعة الجند كما تقدم وما زالوا على ذلك نحواً من خمس سنوات . وفي سنة ٢١١ هـ تحصن عبد الله بن طاهر في بلبس فالتفت عليه عصابة من اهلها وبايعوه فاستفحل امره فسار الى الفسطاط في ربيع الاول من تلك السنة وانزل عبد الله بن السري وجعل على الفسطاط عباد بن ابراهيم . وفي سنة ٢١٢ هـ ابدل عباد بعيسى بن يزيد الجلودي

وفي سنة ٢١٣ هـ انفذ المأمون الى عبد الله بن طاهر ان يقف عند حده وينسحب من مصر وعقد على مصر وسوريا لاختيه المعتصم واعطاء خمسمائة الف دينار وامر بمثل هذا المبلغ هبة لعبد الله بن طاهر للتعيش . ويقال انه امر بمثل ذلك أيضاً لابنه العباس . فيكون جملة ما اخرج من خزينته في يوم واحد مليوناً وخمسمائة الف دينار وهذا منتهى السخاء

واستخلف المعتصم عمير بن الواليد التميمي على الصلاة في ١٧ صفر فخرج ومعه عيسى الجلودي لقتال اهل الحوف وكانت بينهم معارك عظيمة قتل فيها عمير فاستخلف مكانه عيسى الجلودي فخارب اهل الحوف بمنية مطر ثم انهزم في رجب واقبل المعتصم الى مصر في اربعة الاف من اتراكه فقاتل اهل الحوف في شعبان ودخل الى مدينة الفسطاط في ٢٢ منه وقتل اكابر الحوف ثم خرج الى الشام في اول محرم سنة ٢١٥ هـ في اتراكه ومعه جمع من الاسارى في حر وجهد شديد . وولى على مصر عبدويه بن جبلة على الصلوات فخرج اهل الحوف في شعبان فبعث اليهم وحاربهم حتى ظفروا . ثم قدم الافشين حيدر بن كاوس الى مصر في ٣ ذي الحجة ومعه علي بن عبد العزيز الجروي لاخذ ما له فلم يدفع اليه شيئاً فقتله وصرف عبدويه . وخرج الى برقة وولى عيسى بن منصور الرافعي فولي من قبل المعتصم اول سنة ٢١٦ هـ على الصلاة فالتقت

مصر السفلى عربها وقبضها في جمادى الاولى واخرجوا العمال لسوء سيرتهم وخالعوا الطاعة فقدم الافشين من برقة في منتصف جمادى الآخرة ثم خرج هو وعيسى في شوال فاوقعا بالقوم واسرا منهم وقتلا . ثم رجع عيسى فصار الافشين الى الخوف وقتل جماعتهم وكانت حروب الى ان قدم الخليفة عبد الله المأمون في ١٠ محرم سنة ٢١٧ هـ فسخط على عيسى وحل لواءه واخذ بلباس البياض عقوبة له وقال له « لم يكن هذا الحدث العظيم الا عن فعلك وفعل عمالك حملتم الناس ما لا يطيقون وكنتم الخبر حتى تفاقم الامر واضطربت البلاد » ثم ولى كيدر الصفدي بالنيابة عن المعنصم

وسبب قدوم الخليفة الى مصر انه كان عائداً من محاربة الروم فرأى ان ير بمصر لمراقبة شؤونها وكان قلقاً عليها لما بلغه من تمرد اهلها ونقض عمالها فدخلها وجعل ير بقرائها بتفقد احوالها . ويقال انه كان يبني له في كل قرية دكة يضرب عليها سرادقه والعساكر حوله وكان يقيم في القرية يوماً وليلة . وبلغ الفسطاط في يوم الجمعة ٩ محرم سنة ٢١٧ هـ وما زال يتحرى أصول الفساد ويقتلعها الى ان برح مصر في آخر صفر من تلك السنة قاصداً دمشق

ولم يفتر المأمون في اثناء تجواله بمصر عن تنظيم احوالها واصلاح داخلتها وتأيد مجالسها واحكامها وامر بترميم مقياس النيل الذي بناه اسامة في الروضة وبناء جامع فيه ومقياس آخر في بنينودا (الصعيد) وترميم مقياس اخميم

وبعد ان برح المأمون مصر بلغه ان الدواوين في مصر سارت على خطة لا يرضاها من حيث قبول الزيادات وفسخ عقود الضمانات وانتزاعها ممن كابد المشقة والتعب في اصلاحها واسماها وتسليمها لمن يدفع الزيادة من غير كلفة ولا نصب . فلما علم بذلك انكره ومنع ارتكابه واصدر اوامره الصارمة باعفاء الكافة اجمعين والضمان والعاملين من قبول الزيادة فيما يتصرفون فيه ويستولون عليه ما داموا مغلقين وباقساطهم قائمين وتضمن ذلك منشور قرى على الناس ينهيهم فيه الى ما جاء في الكتاب العزيز « يا ايها الذين آمنوا اوفوا بالعقود »

وفي ١٩ رجب سنة ٢١٨ هـ توفي الخليفة المأمون على اثر حمى حادة على نهر البندون في سليسيا ودفن في طرسوس وعمره ٤٨ سنة وبضعة اشهر ومدة خلافته عشرون سنة وخمسة اشهر و١٣ يوماً

أما آثار المأمون فاجل آثار الخلفاء لانها تدل على ما بلغه العلم وما بلغت اليه الصناعة من السعة والانقان . وقد كان لشدة تعلقه بالعلم والصناعة يتعاطاها بنفسه ويأخذ بناصرها

وكان يبذل النفس والنفيس في سبيل تقدمها ولولاه لفات العرب كثير من المؤلفات التي كتبت بالفارسية او السريانية او اليونانية او الهندية او اللاتينية فهو الذي سعى في نقل اكثرها الى اللغة العربية ونشط رعيته لمطالعتها والاستفادة منها . ولا يقتصر فضله من هذا القبيل على ابناء اللغة العربية فان اهالي اوروبا عموماً مدينون له لانه حفظ لهم كتابات كثيرة يونانية ولاينية لولا نقلها الى العربية وحفظها فيها لازالها يد الزمان كما ازلت غيرها مما نسمع به ولا نراه . وكان كلفاً بمجالسة العلماء والحكام لا يخلو مجلسه منهم ولم يكن يقتصر على العلماء من شعبه وملته لكنه استدعى اليه جماعة من علماء النصارى واليهود واليونان والفرس حتى المجوس والهنود وقربهم منه ولم يفرق بين احد منهم بالاكرام والسخاء . وكان اذا صرفهم انما يصرفهم متأسفاً على مفارقتهم وهم اشد اسفاً منه على ذلك لانهم كانوا يرتاحون الى مجالسته لما كانوا يشمتعون به من لطفه ودعته

وقد نبغ في ايامه علماء كثيرون من المسلمين وغيرهم بعلوم كثيرة كالفلك والهندسة والفلسفة العقلية وغيرها . منهم احمد بن كثير الملقب بالفرغاني وعبد الله بن سهل ومحمد بن موسى وماشاء الله اليهودي ويحيى بن ابي المنصور وقد اقام بواسطتهم الارصاد الكثيرة . وكان عالماً بالفلك فكان يعاونهم بالرصد احياناً في مرصد الشامية قرب بغداد وحياناً في المرصد على جبل قيسون قرب دمشق . ومن الاطباء الذين كانوا يجالسونه سهل بن سابر وجبرائيل الذي بحث في الرمد على الخصوص ويوحنا بن البطريق الملقب بالترجمان لانه ترجم الكتب الطبية من اليونانية الى العربية^(١)

ففي خلافة المأمون وأبيه بلغت دولة العباسيين مجداً عظيماً واتسع نطاق مملكتهما فبلغت حدود الصين شرقاً فاستولوا على الهند ومنها شمالاً الى السواحل المتجمدة من البحر الشمالي الى اقصى عشائر الاتراك وساروا في بلاد اليونان الى البوسفور ومن الجنوب الى جبال الحبش العليا الوعرة المسلك الى القبائل البربرية في داخلية افريقيا ومن الغرب الى الجزائر فطرابلس الغرب ومنها شمالاً في اروبا الى ما وراء الاندلس في ارض فرنسا . فكانت حدود تلك المملكة تلامحها امواج الاوقيانوس الثلاثينيكي غرباً والاوقيانوس الهندي والعربي جنوباً وبكاد يمسه الاوقيانوس المتجمد شمالاً . الا انها قبل وفاة المأمون اخذت بالانقسام على نفسها فانحطت شوكتها وابتنأ ذلك في غربها فانفصلت عنها الاندلس واستقلت بنفسها من زمن المنصور وتولتها دولة اموية جديدة . وتمرّد طاهر بن الحسين في خراسان (قبل وفاته) فشق عصا الطاعة واستقل بالحكم نفسه وجعله ارثاً لنسله

من بعده بالاستقلال الثام عن بغداد وتعرف دولتهم هذه بالدولة الطاهرية ومثل ذلك فعلت اكثر الامارات اقتداءً بمن سار امامها فطابت كل منها استقلالها . اما مصر فقد كانت مقطعة للمعتصم وظلت تابعة لخلافة بغداد . وهي لم تبق الا لطمع المعتصم بالخلافة بعد المامون

خلافة محمد المعتصم

من ٢١٨ - ٢٢٧ هـ او من ٧٣٣ - ٨٤٢ م

فلما توفي الخليفة المامون خلفه اخوه محمد المعتصم بن هارون الرشيد الثالث في ١٨ رجب سنة ٢١٨ هـ وهو اول من اتخذ لفظ الجلالة في لقبه فلقب نفسه المعتصم بالله وكان قد اقر اماره مصر لكيدر الذي كان نائباً عنه فيها ثم كتب اليه بامر به باسقاط من في ديوان مصر من العرب وقطع العطاء عنهم . ففي شهر ربيع آخر سنة ٢١٩ هـ توفي كيدر وتولى مكانه المظفر بن كيدر . وفي سنة ٢٢٠ هـ توفي المظفر وتولى مكانه موسى بن ابي العباس الملقب بالشيباني وبلقبه آخرون بالشامي . وفي سنة ٢٢٤ هـ استدعي موسى من مصر فاستخلف مالك الذي يلقبه بعضهم بالهندي والبعض الآخر بالكندي وهو ابن كيدر المتقدم الذكر . وفي سنة ٢٣٥ هـ عزل مالك وعهدت ولاية مصر بامر الخليفة الى ابي جعفر اشناس وهو آخر من ولي مصر بامر المعتصم

وفي سنة ٢٢٧ هـ اصيب الخليفة المعتصم بحمى في سامراً وفي ١٨ ربيع اول من تلك السنة توفي . ومن الغرب ما لهذه الخليفة من الحظ في الرقم (٨) فان بينه وبين ابي العباس اول الخلفاء العباسيين ثمانية اعقاب وولد في شعبان وهو الشهر الثامن من السنة القمرية وهو الخليفة الثامن من بني العباس وتولى الخلافة سنة ٢١٨ وسنه ٣٨ سنة وثمانية اشهر ومدة حكمه ٨ سنين و٨ اشهر و٨ ايام وتوفي في ١٨ ربيع في السنة الثامنة والاربعين من عمره وترك ثمانية اولاد ذكور وثمانى اناث وحضر ثمانى موافع حربية واخيراً وجد في خزينته عند موته ثمانية ملايين من الدنانير وثمانون الف درهم وقد قيل انه بناء على هذا الاتفاق الغريب دعي « بالثمان »

وقد كان هذا الخليفة نقطة ابتداء تهقر دولة العرب ولعله كان السبب في ذلك التهقر لانه كان ضعيف السياسة بعيداً من الفضائل والاداب امياً لا يعرف الكتابة لكنه كان قوي البدن يحمل ما وزنه الف رطل (ليبرا) ويمشي به خطوات وكانت مع ذلك شجاعاً ومحباً على نوع خصوصي للحرب ولاقتناء الاسلحة والخيول الجياد والعساكر المنظمة وهو اول من جند الاتراك واستعان بهم في الحرب

وهذه صورة النقود التي ضربت في عهد الخليفة المعتصم سنة ٢١٩ للهجرة او ٨٣٤ للميلاد (انظر شكل ٣٦)



ش ٣٦ — نقود المعتصم بالله

مبدأ الدولة الطولونية

ان الامة العظيمة التي يدعوها بعض المؤرخين تركية وبعضهم تتربة وفيها شعوب التركمان والمغول والتتر تشغل بقعة من الارض في اسيا الشمالية تمتد من نهر جيحون الى حدود الصين ويحدها شمالاً الاوقيانوس المتجمد . ونظراً لما بينها وبين شبه جزيرة العرب من الابعاد والجبال والادوية والانهار مما لا يسهل تخطيه كانت في مأمن من غزوات العرب وفتوحهم وفي غنى عن معاهداتهم او غير ذلك مما يستدعي ارتباطها الواحدة بالآخرى . الا ان الشعوب التركية اخذت من عهد الخلفاء الراشدين في غزو بلاد التتر مما يلي بلادها والعرب ايضاً كانوا يفعلون مثل ذلك مما يلي ولاياتهم وما زالوا يفتحون فيها حتى بلغوا حدود تركستان وما وراءها فافغى الامر الى تراحم هاتين الامتين فتنازعا فقامت الحرب بينهما سجلاً مدة طويلة في اماكن مختلفة وكان الاستئثار بينهما متبادلاً فكان العرب يرسلون باسراهم من الترك الى بلاط الخلافة بمثابة الجزية لاستعمالهم في منازل الخلفاء وكبار الامراء و يدعونهم بالممالك

والممالك الذين كانوا في دور الخلفاء كانوا يمتازون غالباً بالقوة البدنية والعقلية وكانوا يتقربون من اسيادهم شيئاً فشيئاً حتى استخدموهم في بلاطهم وقد كان الممالك في بادئ امرهم في ظلمات من الجهل الهمجية وعلى ابعاد من

الفضيلة وشعائر الدين لا يعرفون القراءة لكنهم بمخالطتهم الامراء ورجال الدولة اصبحوا على جانب من التهذيب والاستنارة لاعتناقهم الديانة الاسلامية ثم تدربوا شيئاً فشيئاً في شؤون الدولة فبرعوا في السياسة وتدير الاحكام وادارة الاعمال فعظموا في عين الخلفاء فلما كثر تمرد ولاية الامصار صار الخلفاء يعهدون اليهم ولاية الامصار فكثرت انصارهم فاقاموا لهم احزاباً من ابناء البلاد يتجددونهم عند الحاجة . ولم يكن ذلك كل ما فعله الخلفاء لكنهم كانوا يبدلون المبالغ الوافرة في ابتياعهم ينتقون منهم الممتازين جالاً وقوة وذكاء ليدخلوهم في خدمتهم الخاصة . ومن ذلك ما فعله الخليفة المعتصم اذ رغب في تعزيز حاشيته فابتاع من اولئك المماليك الوفراً فوق ما كان عنده منهم وامر بتدريسهم على استعمال السلاح والحقهم بالجيش ليختار منهم متى شاء من يصاح لبطانته فكبرت نفوسهم وجعلوا يعيشون فيمن حولهم فكثرت التشنجات في حقهم وكثر الهرج في بغداد حتى اضطر المعتصم الى بناء مدينة سامراً لاقامته معهم

وكان للمعتصم بالله بطانة من المماليك عليهم رئيس يقال له « طولون » من قبيلة الطغرغراحدى الاربع والعشرين قبيلة التي تتألف منها تركستان وكانت عائلته مقيمة في جوار بحيرة لوب في بخارا الصغرى فأسر في احدى المواقع الحربية وجيء به الى ابن اسد الصهامي وكان من عمال المأمون يدفع له جزية سنوية من المماليك والخيول التركية واشياء اخرى ففي سنة ٢٠٠ هـ كان طولون في جملة من ارسلهم ابن اسد من المماليك وكان متناسب الاعضاء قوي البنية فاعجب المأمون به فالحقه بحاشيته وما زال يراقبه حتى جعله رئيس حرسه ولقبه بامير السر . وهذا المنصب لم يكن يناله الا من كان للخليفة ثقة خصوصية بامانه واخلاصه ليكون محافظاً على حياته الشخصية . وبعد ان صرف طولون نحواً من ٢٠ سنة في هذا المنصب في ايام المأمون والمعتصم اصبح ذا عائلة واولاد منهم احمد الذي لقب بعد ذلك بابي العباس وهو مؤسس الدولة الطولونية . ولد في بغداد وقال آخرون في سامرا سنة ٢٢٠ هـ من والده تركية تدعى قاسمة ويدعوها بعضهم هاشمة كانت في عداد السراري . وقال آخرون انه ابن المهلبي خادم طولون وان طولون ربا صغيراً والله اعلم



خلافة الواثق بن المعتصم

من سنة ٢٢٧ — ٢٣٢ هـ او من ٨٤٢ — ٨٤٧ م

وقبل ان يترعرع احمد بن طولون توفي المعتصم بالله وبويع ابنه هارون ابو جعفر. فلقبوه بالواثق بالله وفي السنة الاولى من خلافته عزل القسم الاعظم من ولاية الامصار واصحاب المناصب الذين كان قد ولاهم ابوه وكان في نيته اقالة اشناس من اماره مصر لكنه لم يكمل يفعل حتى توفي اشناس في الفسطاط سنة ٢٢٨ هـ فاقام مقامه علي بن يحيى الارمني وبعد نحو سنة ابدل بعيسى بن منصور المرة الثانية . وفي سنة ٢٣١ هـ توفي الخليفة الواثق بالله في ٢٤ ذي الحجة وسنه ٣٤ سنة ومدة حكمه ٥ سنوات و٩ اشهر و١٣ يوماً

خلافة المتوكل بن المعتصم

من ٢٣٢ — ٢٤٧ هـ او من ٨٤٧ — ٨٦١ م

وعند وفاة الخليفة تواطأ وزيراه احمد بن ابي داود ومحمد بن عبد الملك الملقب بالزيات مع واصف التركي رئيس الحجاب على ان يبايعوا محمد بن الواثق ويلقبوه باللهدي بالله الا انهم رأوا سنه لا يجزله تعاطي الاحكام فعدلوا عنه الى جعفر بن المعتصم فبايعوه ولقبوه بالمتوكل على الله . وقد كان الواثق والمتوكل اخوين من اب واحد ووالدتين والدة الاول جارية يونانية تدعى قراطيس والدة الثاني جارية تركية تدعى سرجه

وفي سنة ٢٣٢ هـ عقد المتوكل على مصر هرثمة بن نصر الجبلي وفي السنة التالية ابدله بابنه المنتصر بن المتوكل وسنة ٢٣٤ هـ تولاهما حاتم بن هرثمة . وفي ايامه ثارت البيعة في النوبة بعد ان كانوا عاهدوا المأمون على الصالح فانفذ المتوكل لحربهم محمد ابن عبد الله فخرج اليهم من مصر في عدة قليلة ورجال منتخبة على المراكب في النيل فاجتمع البيعة في عدد عظيم قد ركبوا الابل فهاب المسلمون ذلك فبعث اليهم محمد بن عبد الله كتاباً لفه بشوب فاجتمعوا لقراءته فحمل عليهم وفي اعناق الخيل الاجراس فانزعرت جمال البيعة ولم تثبت امام صلصلة الاجراس فركب المسلمون اقفيتهم وانخنوا فيهم وقتلوا كبيرهم فقام من بعده ابن اخيه وبعث يطلب الهدنة

فصالحوه على ان يطاء بساط امير المؤمنين فسار الى بغداد وقدم على المتوكل وصوّلح على اداء الادوات والبقط واشترط عليه ان لا يمنع المسلمين من العمل بالمعدن وفي تلك السنة ابدل حاتم بن هرثمة بعلي بن يحيى الارمني (ثانية) وفي سنة ٢٣٥ ابدل هذا باسحق بن يحيى الجبلي وفي هذه السنة اوصى المتوكل بالخلافة بعده لابنه المنتصر وبعده لابنه الثاني المعتز بالله وبعده هذا لابنه الثالث المؤيد بالله وجعل مملكته حصصاً فولى المنتصر افرريقية وكل المغرب من العريش الى آخر حدود المغرب بما فيه مصر واذن الى ذلك قنسر بن وسوريا وبين النهرين وديار بكر والموصل وكل البقاع التي يرونها دجلة ومكة والمدينة واليمن وحضر موت والبحرين والسند وسامرا والكوفة وكل توابعها . وولى المعتز خراسان وطبرستان وفارس وارمينيا واذربايجان وولى المؤيد دمشق وحمص والاردن وفلسطين . أما المنتصر فلم يقنع بما قسم له وطمع بتوحيته الخلافة قبل وفاة ابيه فاخذ يسعى في خلعه

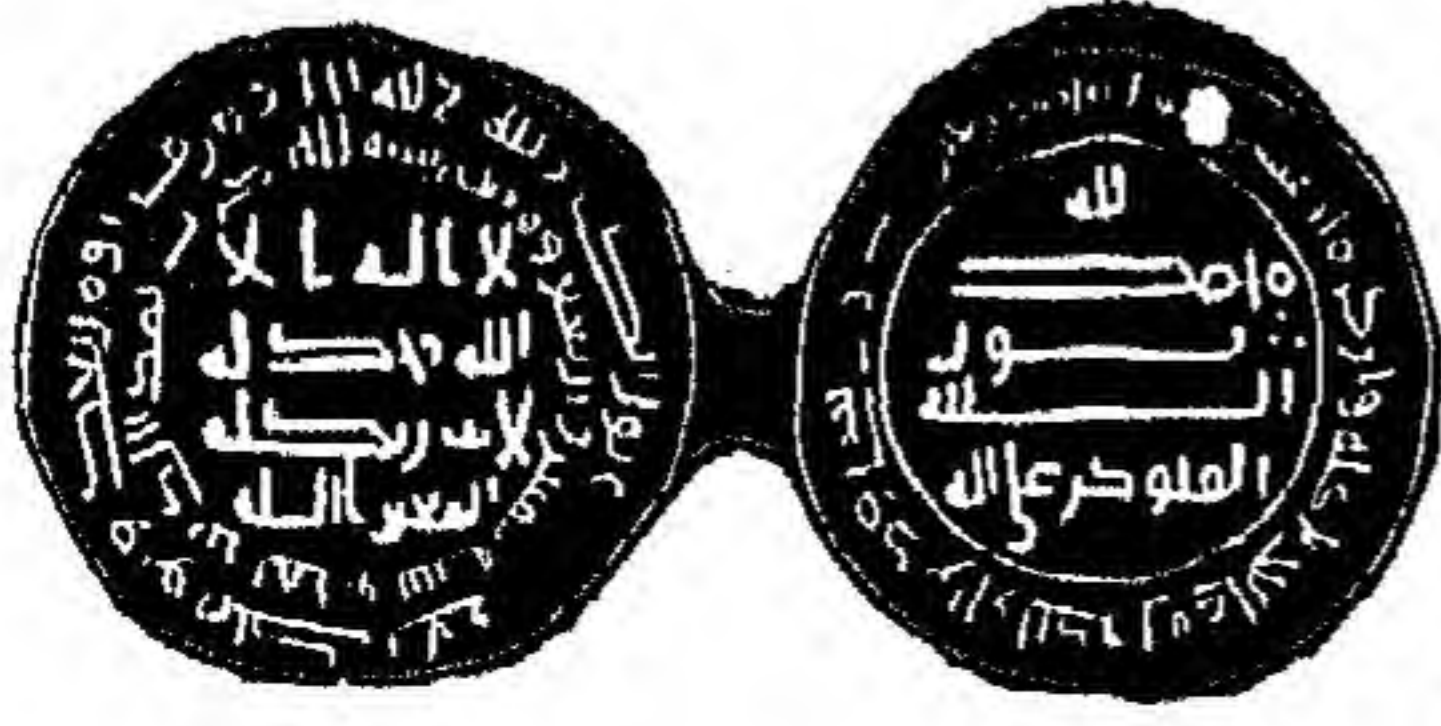
وفي سنة ٢٣٦ هـ اقيم على مصر خوط عبد الواحد بن يحيى وفي سنة ٢٣٨ هـ ابدل بعنيسة بن اسحق وفي سنة ٢٣٩ هـ أمر المتوكل ببناء حصن في مدينة الفرما وحصون أخرى في دمياط وتيس وتولى بناءها عنيسة وانفق عليها أموالاً طائلة وقاية من غزوات الروم اكنهم لم يكادوا يتحصنون حتى هجم الروم على دمياط وملكوها ومن فيها وقتلوا جمعاً كثيراً من المسلمين وسبوا النساء والاطفال واهل الذمة فلما علم بذلك عنيسة ركب اليهم يوم النحر في جيشه ونفر كثير من الناس فاخبروه ان الروم قد ساروا الى تيس وتحصنوا في اششوم فلم يتبعهم عنيسة فكتب يحيى بن الفضل الى الخليفة المتوكل على الله رسالة فيها هذه الايات

أترضى بان يوطأ حريمك عنوة وان يستباح المسلمون ويحربوا
حمار اتى دمياط والروم وثب بتانيس راي العين منه وأقرب
مقيمون بالاششوم يبغون مشاماً اصابوه من دمياط والحرب ترتب
فما رام من دمياط شبراً ولادري من العجز ما يأتي وما يتجنب
فلا تنسنا انا بدار مضيعة بمصر وان الدين قد كاد يذهب

وفي ٢٠ رجب سنة ٢٤٢ هـ سار المنتصر الى ابيه في سامرا واخذ يسعى بالدسائس والتواطؤ مع المفسدين على ابيه واستخلف على مصر يزيد بن عبد الله . وفي سنة ٢٤٥ هـ خرج يزيد بن عبد الله الى دمياط مرابطاً ثم رحل فبلغه نزول الروم في الفرما فرجع اليها فلم يلقهم . وفي سنة ٢٤٧ هـ بنى مقياس النيل في جزيرة الروضة وكان قد

سقط بزلزلة فاعاد بناءه فعرف من ذلك الحين بالمقياس الجديد أو الكبير وهو المقياس الباقي هناك الى هذه الغاية . وجرت على العلويين في ايام يزيد شدة . هذا ما كان من امر يزيد

اما المتوكل ففي سنة ٢٤٣ هـ انتقل الى دمشق على نية ان يتخذها مستقراً الى حين فتبعه المنتصر وما زال ساعياً بالمفاسد توصل الى بغيته حتى سنة ٢٤٤ هـ اذ قارب الفوز بغرضه الوخيم فثارت عصبة من الاثراك المجندين في دمشق على الخليفة بدعوى تأخر دفع مرتباتهم وكان ذلك بدسيسة المنتصر فتلافى الخليفة الشر بدفع المتأخر لهم وبرز دمشق عائداً الى سامرا . وفي سنة ٢٤٧ هـ علم الخليفة بمقاصد ابنه فأمر به اليه فوبخه على مسمع من الناس . وفي يوم الاربعاء الرابع من شوال من السنة المذكورة ذبح المتوكل على فراشه في منتصف الليل بيد احد ضباط الحرس التركي المدعو بغا الصغير بدسيسة المنتصر وكان سن المتوكل عند موته



٤١ سنة ومدة حكمه ١٤ سنة و ١٠ اشهر و ٣ ايام . وهذه صورة النقود التي ضربت في عهد المتوكل على الله سنة ٢٤٥ هـ (انظر شكل ٣٧)

ش ٣٧ — نقود المتوكل على الله

خلافة المنتصر بن المتوكل

من سنة ٢٤٧ — ٢٤٨ هـ او من ٨٦١ — ٨٦٢ م

فاستوى المنتصر على منصة الخلافة قبل ان تفارق اباه رجفة الموت فلما استتب له الملك حدثته نفسه ان يحرم اخويه مما اوصى به ابوه لهما على مامر بك . فحملها سنة ٢٤٨ هـ على ان يوقعا على صك بجرمانهما من الخلافة ومما اوصى لهما به ابوهما من المدن . وساعد المنتصر على ذلك وصيف التركي وشركاؤه بقتل المتوكل مخافة ان يلقوا جزاء مافعلته ايديهم اذا وصلت الخلافة الى احد الاخوين . على ان حياة المنتصر لم تكن اقصرها تستحق كل هذه الاحتياطات لانه اصاب بعد توليته بايام بداء اعيا الاطباء وما زال حتى ذهب بحياته وهو يتقلب على مثل جمر الغضا من الالم

خلافة المستعين بن محمد

من سنة ٢٤٨ — ٢٥٢ هـ أو من ٨٦٢ — ٨٦٦ م

وبعد وفاة المنتصر تشاور وصيف التركي وبغا الصغير وبغا الكبير والوزراء والاعيان فبين يجب ان يكون الخليفة عليهم فاجمعوا على حرمان ابناء المتوكل ووقع اختيارهم على أحمد بن محمد بن المعتصم وقالوا لا تخرج الخلافة من ولد مولانا المعتصم فبايعوه يوم وفاة المنتصر ولقبوه بالمستعين بالله . ولم يكد يتم ذلك حتى قامت عصبه يريدون استخلاف المعتز بالله الا انهم كانوا نفراً يسيراً فتفرقوا ولم تكن النتيجة الا القبض على ولدي المتوكل وسجنهما

أحمد بن طولون

ومن ذلك الحين اخذ نجم أحمد بن طولون بالظهور في افق الاعمال السياسية فتوفي والده سنة ٢٣٩ هـ وهو لم يبلغ التاسعة عشرة من العمر وكان ذلك في أيام الخليفة المتوكل في الثماني السنوات الاولى فرأى في أحمد اللياقة ليخلف ابيه على امانة الستر . وكان أحمد قد تعلم وتربى تربية حسنة وكان تقياً رضي الخلق كريم النفس لين العريكة مع اقدام وبسالة وعلم بالسياسة وكان مغرمًا بمطالعة الحديث فاكسب شهرة بالتقوى والعدالة فاحبه جميع الضباط الا تراك الذين كانوا في بلاط الخليفة وفيهم احد كبرائهم برقوق فازوج أحمد ابنته فجاءه منها غلام دعاه عباساً

ومن الغريب أن أحمد بن طولون شب بين الدسائس والمفاسد ولم يصب اليها ولم تحده نفسه يوماً باتباعها بل كان يمجها وينفر منها . أما آدابه ومعارفه فكانت تتسع يومياً بالاختبار والمراقبة فقد كان على كثرة شواغله لا يترك فرصة تفوته في توسيع دائرة علمه فكان يسير من وقت الى آخر الى ترسوس في آسيا الصغرى للتعلم في مدارسها وكان لشدة كلفه بالعلم كلفاً بالعلماء . فالتمس من عبيد الله بن يحيى رئيس وزراء الخليفة اذنًا بالتوجه الى ترسوس لللازمة دروسه فاذن له مع استبقاء مركزه ولقبه ومرتبته كالعادة فسار اليها ثم دعت والدته ان يأتي اليها فجاء سامرا في خلافة المستعين بالله غير عالم بشيء مما حصل في غيابه من قتل المتوكل وتولية المنتصر

ويينا كان عائداً من ترسوس هذه المرة وسنه ١٩ سنة هجم بعض اهل البادية على الركب الذي كان هو برفقته يريدون سلبه وفيه مايساوي مبالغ وافرة كلها محمولة الى الخليفة المستعين بالله فخافت حامية الركب وكاد اللصوص يظفرون فدفعهم أحمد بعزم شديد واعادهم على اعقابهم القهقري . فلما بلغ الركب سامرا اخبروا الخليفة

بما كان من بسالة ابن طولون فنفضحه بجائزة ألف دينار وأنزله منزلة الأمراء ووهبه إحدى جواريه واسمها مية وهي التي ولدت له ابنه الثاني « خمارويه » سنة ٢٥٠ هـ وهي أول سني ظهور نجمه

وفي أثناء ذلك ثارت عصبية كبيرة تريد خلع المستعين وذلك أن المهاليك الأتراك الذين كانوا يخدمون في بلاط الخلفاء وجندهم على ما تقدم كانوا يزدادون عدداً وقوة منذ أيام المعتصم انتقاهم في المناصب العالية فامسوا وفي أيديهم أزمة الدولة يدبرونها كيف شاؤوا . وقد كانوا قبل وفاة المتوكل يقتنعون بعزل وتولية الأمراء والوزراء وقتل من شاؤا ممن ليس على غرضهم لاسكنهم بعد ذلك لم يعد يرضيهم إلا التداخل في عزل الخلفاء وتوليتهم . فكانوا إذا لم يعجبهم خليفة سعوا في استبداله فيستنجدون أحزابهم وينفذون ما ربههم . وقد كانت تولية المستعين بالله بمساعي بعض كبراء الحرس الخاص فاستاء البعض الآخر وجعلوا يسمعون في خاعه نفاخوه سنة ٢٥٢ هـ بعد أن تولى أمرها ثلاث سنوات و٨ أشهر

خلافة المعتز بن المتوكل

من سنة ٢٥٢ — ٢٥٥ هـ أو من ٨٦٦ — ٨٦٩ م

وبعد خلع المستعين بايعوا ابن عمه المعتز بالله وهو ابن المتوكل على الله وأخو المنتصر وكان محروماً من حقوق الخلافة منذ قتل أبيه وعمره اذ ذاك ١٨ سنة وبضعة أشهر . وكان بعد أن فر من سجن سامرا مع أخيه المؤيد بالله قد أعادها ابن عمهما المستعين إلى القيود . فلاحزاب التي قويت بعد ذلك وخلعت المستعين لم يكن لها دخل في قتل المتوكل فخلوا قيود المعتز وبايعوه يوم الجمعة في ١٤ محرم سنة ٢٥٢ هـ وجاؤا إلى المستعين واجبروه على أن يتنازل ففعل فنقلوه إلى قلعة وجعلوا عليه حراساً ثم أرسلوه إلى واسط في سرب تحت قيادة أحمد بن طولون فقتل في الطريق . ويقال أن الحاجب سعيداً هو الذي قتله بناءً على أوامر سرية من المعتز بالله . وقال البعض أن أحمد بن طولون هو الذي فعل ذلك بيده . غير أن الجمهور أجمع على تبرئته من هذه التهمة الفظيعة

والأظهر أن الأحزاب التي دعت إلى خلع المستعين واجباره على الاستقالة أمروا بإبعاده إلى واسط ولم يريدوا أن يصحبه إلا من لا يرتاب أحد في أمانته له وإخلاصه

فلم يجدوا النسب من ابن طولون وكان الى ذلك العهد مكتسباً ثقة الطرفين فعهدوا اليه تلك المهمة فقام بها حق القيام . ثم ان الاحزاب في سامرا مع فوزهم بخلع المستعين وتولية المعتز اوجسوا شراً من بقاء الاول في قيد الحياة فاعزوا الى الثاني ان خلافته لا ترسخ الا بقتل المستعين . فكتبت فتيحة ام المعتز الى احمد بن طولون وهو في طريقه الى واسط تحته على قتل المستعين وتعهده بولاية واسط مكافأة له فرفض ذلك احمد بنفس ابيه فارسلت حاجباً يدعى سعيداً وبيده اوامر الى احمد بن طولون مؤذنة بتسليم المستعين الى سعيد وعود احمد الى سامرة فاذعن احمد الى الاوامر فسلم المستعين الى سعيد . فسار به في الصحراء تبعاً للاوامر السرية التي كانت معه وذبحه في فسطاطه وعاد برأسه الى المعتز ورمى به الارض بين اقدامه .

اما احمد بن طولون فدخل الى خيمة المستعين بعد ذهاب سعيد فرأى الجنة بلا رأس فعلم الدسيسة وتكرر من هذا الفعل الوحشي الذي قضى بقتل البري . ثم هم الى الجنة فغسلها وكفنها ونقلها الى سامرا حيث صلي عليها ودفنت . وقد قال احمد بن طولون عند استيلائه على مصر وسوريا ما مفاده « وعدت بولاية واسط على ان اقتل المستعين فايبت محافظة على القسم الذي قسمته ومازلت في تقوى الله وقد كافأني من فضله بولاية مصر وسوريا ولا يفلح الظالمون »

وكانت مصر في اثناء جميع هذه الحوادث ينتابها ما ينتاب غيرها من الامارات الاسلامية . فان يزيد بن عبد الله الذي كان استخلفه المنتصر على مصر اصبح عليها اميراً عند ما صار المنتصر خليفة . وبقي يزيد قائماً باعباء مصلحته طول مدة خلافة المستعين بالله . أما المعتز بالله فبعد ما جلس على دست الخلافة عزله في ٣ ربيع اول سنة ٢٥٣ هـ وولى مزاحم بن خاقان من اعيان الاثراك الذين ساعدوه في حصوله على الخلافة . ومن اعماله انه اكثر من الايقاع بسكان النواحي وولى الشرطة ارجوز فمنع النساء من الحمامات والمقابر وسجن المؤنثين والنوائح . وفي رجب منها منع من الجهر بالبسملة في الصلاة بالجامع . ولم يزل اهل مصر على الجهر بها في الجامع منذ الاسلام الى ان منع منها ارجوز . واخذ اهل الجامع بتمام الصفوف ووكّل بذلك رجلاً من العجم يقوم بالسوط من مؤخر المسجد وامر اهل الحلق بالتحول عن القبلة قبل اقامة الصلاة ومنع من المساند التي يستند اليها ومن الحصر التي كانت للمجالس في الجامع وامر ان تصلى التراويح في رمضان خمس تراويح ولم يزل اهل مصر يصلونها ستاً الى رمضان سنة ٢٥٣ هـ ومنع من التشويب وامر بالاذان في يوم الجمعة في مؤخر المسجد وان

يلبس بصلاة الصبح ونهي ان يشق ثوب على ميت أو يسود وجهه أو يخلق شعر أو
 تصيح امرأة وعاقب في ذلك وشدد فيه . وفي ٥ محرم سنة ٢٥٤ هـ توفي مزاحم فتولى
 ابنه احمد بن مزاحم . وفي تلك السنة استقال هذا فعين المعتز مكانه باكبك احد كبار
 الاتراك . وكان هؤلاء يتولون الامارات اسماً بلا رسم لانهم لم يكونوا يبرحون مجلس
 الخليفة . أما الاحكام في الامارات فكانت موكولة الى نواب يعهدون اليهم امرها .
 وكان عدد مثل هؤلاء النواب في مصر يكثر احياناً فقد يكون منها نائب في الفسطاط
 وآخر في الاسكندرية وآخر في الصعيد الخ . وكان يستبد احدهم بالاعمال العسكرية
 والآخر بالاعمال الادارية والآخر بالقضاء وهكذا . ونظراً لما كان لاحد بن طولون
 من السمعة الحسنة انتخبه باكبك المتقدم ذكره وجعله قائداً للقوة العسكرية في
 الفسطاط . أما الادارة المالية او الخراج فعهد بها الى احمد بن المدير ودعا
 مفتش الخراج

ابن المدير

وابن المدير هذا لم يكن من التدبير على شيء بل كان عاتياً غشوماً فزاد الضرائب
 وشدد الوطأة خصوصاً على المسيحيين . وكان من دهاة الناس وشياطين الكتاب فابتدع
 في مصر بدءاً صارت مستقرة من بعده لاتنقض فاحاط بالنظرون وحجر عليه بعد
 ما كان مباحاً لجميع الناس وقرر على الكلاء الذي ترعاه البهائم مالا سماء المراعي وقرر
 على ما يطعمه الله من البحر مالا سماء المصائد فانقسم مال مصر الى خراجي وهلالي .
 أما الخراجي فهو ما يؤخذ مسانحة من الاراضي التي تزرع حبوباً ونخلاً وعنباً وفاكهة
 وما يؤخذ من الفلاحين هدية مثل الغنم والدجاج وغيره من طرف الريف . وأما
 الهلالي فعلى نوعين ساهما بالرافق والمعاون . وهو ما يؤخذ من الضرائب على مثل
 ما ابتدعه ابن المدير كما تقدم . فكره الاهلون هذه المعاملة وجعلوا يسعون الى الكيد به
 وقد كان عالماً بذلك فيجعل في حاشيته الخاصة نحواً من مائة غلام هندي ممتازين بالقوة
 والشجاعة كانوا يرافقونه الى حيث توجه

فلما قدم احمد بن طولون الى الفسطاط ليستلم زمام القوة العسكرية فيها قدم احمد
 ابن المدير بحاشيته للقائم واهدى اليه هدايا قيمتها عشرة الاف دينار وقدم معه شقير
 الخادم غلام فتيحة ام المعتز وهو يتقلد البريد فرأى ابن طولون بين يدي ابن المدير مائة
 غلام قد تقدمت الاشارة اليهم وكان لهم خلق حسن وطول اجسام وبأس شديد عليهم
 اقبية ومناطق ثقال عراض وبايديهم مقارع غلاظ على طرف كل مقرعة مقمعة من
 فضة وكانوا يقفون بين يديه في حافتي مجلسه اذا جلس . فاذا ركب ركبوا بين يديه

فيصير له بهم هبة عظيمة في صدور الناس . فلما بعث ابن المدبر بهديته الى ابن طولون ردها عليه فقال ابن المدبر ان هذه هبة عظيمة ومن كانت هذه همته لا يؤمن على طرف من الاطراف تخافه وكره مقامه بمصر معه وسار الى شقير الخادم صاحب البريد واتفقا على مكتبة الخليفة بازالة ابن طولون فلم يكن غير ايام حتى بعث ابن طولون الى ابن المدبر يقول « قد كنت اعزك الله اهديت لنا هدية وقع الغنى عنها ولم يجز ان يغتنم مالك كثرة الله فرددناها توفيراً عليك ونحب ان نجعل العوض منها الغلمان الذين رأيناهم بين يديك فانا اليهم احوج منك » فقال ابن المدبر « بلغته الرسالة » هذه اخرى اعظم مما تقدم قد ظهرت من هذا الرجل اذ كان يرد الاعراض والاموال ويستهدي الرجال ويثابر عليهم » ولم يجد بداً من ان يبعثهم اليه فتحولت هبة ابن المدبر الى ابن طولون فكتب ابن المدبر فيه الى الخليفة يغري به ويحرض على عزله فبلغ ذلك ابن طولون فكتم ما في نفسه ولم يبد

وفي ٢٥ رجب سنة ٢٥٥ هـ كثرت دسائس الاثراك في بغداد بمساعدة الحاجب صالح بن واصف احد قتلة المتوكل فاعز الى المعتز وعمره اذ ذاك ٢٤ سنة ان يتنازل عن الخلافة ولم يحكم فيها الا ٤ سنوات و٦ اشهر فتنازل في ذلك اليوم فادعوه السجن وقطعوا عنه الغذاء فمات جوعاً بعد ستة ايام فاقاموا عوضاً عنه ابن عمه المهتدي بالله بن الواثق وعمره ٣٧ سنة

خلافة المهتدي بن الواثق ثم المعتمد بن المتوكل

من ٢٥٥ — ٢٥٧ هـ او من ٨٦٩ — ٨٧٠ م

وفي ايام المهتدي بن الواثق ظهر لابن طولون عدو آخر في مصر هو ابراهيم الصوفي مأمور اقليم اسنا وكان قد وضع يده على البلاد التي حوله وقتل كل من كان يحاول مقاومته فانفذ اليه ابن طولون فرقة من جيشه فخاربها وغلبها فرجعت متقهقرة الى قرب اخميم وهناك انتهت نجدة المحدث معها فتغلبت على جيوش ابن الصوفي ففر المذكور في البرية ملتجئاً الى الواحات في بطن الصحراء الكبيرة مع من بقي معه من الرجال

وكان احمد بن عيسى بن شيخ الشيباني يتقلد جندي فلسطين والاردن فلما بات وثب ابنه على الاعمال واستبد بها فبعث ابن المدبر بسبعائة وخمسين الف دينار

من مال مصر الى بغداد فقبض ابن شيخ عليها وفرقها في اصحابه وكانت الامور قد اضطربت ببغداد فطمع ابن شيخ في التغلب على الشامات واشيع انه يريد مصر وفي رجب سنة ٢٥٦ هـ ذبح المهتدي في سامرا وبويع المعتمد على الله وسنه ٢٥ سنة وهو ابن المتوكل الثالث فبايعه الجميع الا ابن شيخ فانه لم يدع له ولم يبايعه لا هو ولا اصحابه فبعث اليه بتقليد ارمينيا فوق ما معه من بلاد الشام وفسح له في الاستخلاف عليها والاقامة على عملها فدعا حينئذ للمعتمد وبايعه ثم كتب الخليفة سرّاً الى ابن طولون ان يتأهب الى حرب ابن شيخ وان يزيد في عدته وكتب لابن المدبر ان يطلق له من المال ما يريد فعرض ابن طولون الرجال واثبت من يصالح واشترى العبيد من الروم والسودان وجهاز كل ما يحتاج اليه وخرج في احتفال عظيم وجيش كبير وبعث الى ابن شيخ يدعوه الى طاعة الخليفة ورد ما اخذ من المال فاجاب بجواب قبيح فصار احمد في ٦ جمادى الآخرة مستخلفاً اخاه موسى بن طولون على مصر وبيدنا هو في الطريق ورد اليه كتاب الخليفة يدعوه الى العود فعاد الى الفسطاط ودخلها في شعبان واتى عوضاً عنه لمحاربة ابن شيخ اماجور التركي فلقية اصحاب ابن شيخ وعليهم ابنه فخاربهم اماجور فانهزموا منه وقتل قائدهم واستولى اماجور على دمشق ولحق ابن شيخ بارمينيا وتقلد اماجور اعمال الشام كلها وهدأت الاحوال

القطائع

اما ابن طولون فلما عاد الى الفسطاط شرع في بناء الاستحكامات وتحصين البلاد وكان الى ذلك الحين يسكن القصر الذي كان يسكنه اسلافه من ولاة الاحكام ولم يكن هذا القصر داخل سور الفسطاط بل كان في ضاحية العسكر وكان العسكر اشبه بمدينة فيها الاسواق والشوارع والبنايا الجيلة وكان كافياً لسكنى رؤساء الجيوش وولاية الامور اما في ايام ابن طولون فضاقت ذراعاً عن سعة مهماته وعبيده وتحفه فاخذ يسعى في البحث عن محل آخر بقي بالمقصود مع قربه من الفسطاط فصعد الى المقطم ونظر الى ما حوله فرأى بين العسكر والمقطم بقعة من الارض مساحتها نحو ميل مربع لا شيء فيها من العمارة الا بعض المدافن للنصارى واليهود فاخترها للبناء فأمر بحرث المدافن وهدمها واخطت في موضعها بناءً عظيماً دعاه القصر ومحلاً آخر بالقرب منه دعاه الميدان وتقدم الى اصحابه وغلمانهم واتباعه ان يهتطوا لانفسهم حوله فاخطوا وبنوا حتى اتصل البناء بعمارة الفسطاط ثم قطعت الى قطائع وسميت كل قطعة باسم من سكنها فكانت لغلمان النوبة قطعة مفردة يعرف بهم ولغلمان الروم قطعة مفردة تعرف بهم وللفراشين قطعة مفردة تعرف بهم

ولكل صنف من الغلمان قطيعة مفردة تعرف بهم وبني القواد موضع متفرقة فعمرت
القطائع عمارة حسنة وتفرقت فيها السكك والازقة وبنيت فيها المساجد الحسان
والطواحين والحمائم والافران وسميت اسواقها فقيلا سوق العيارين وسوق القاميين
وهكذا البقالين والشوايين الخ واسكل من الباعة سوق حسن عامر فصارت القطائع
المدكورة مدينة كبيرة اعمر واحسن من الشام . وكان للقصر مجلس يشرف منه ابن
طولون يوم العرض ويوم الصدقة لينظر من اعلاه من يدخل ومن يخرج

واتسعت احوال ابن طولون وكثرت اصطبالاته وكراعه وعظم صيته فبلغ ذلك
أماجور والي الشام فاخذته غائلة الحسد وخشي من مد ساطة ابن طولون اليه فاخذ
يسعى في خلعه فكتب الى الخليفة المعتمد على الله مانصه « ان قوات وهيات ابن طولون
اصبحت اعظم مما كانت لابن شيخ الذي لما ثار في سوريا لم نخضعه الا بعد شق الانفس
وهذا ابن طولون قد كثرت حاشيته وقويت سطوته بالرجال والمال وصار يخشى منه
والامر لاميرو المؤمنين » . وكتب ابن المدبر مفتش الخراج ايضاً مثل ذلك وفي قلبه
من احمد ما تعلم من الضغائن وتواطأ على ذلك مع كاتب سره شقير الخادم

فارسل المعتمد الى ابن طولون ان يتخلف عن مصر حالاً الى سامراً ويستخلف
مكانه من يشاء فلما بلغ ابن طولون ذلك الامر هم الى القيام به وهو لا يدري ما وراء
الاكمة فجاء من ذويه من اطلعه على معنى هذا الاستدعاء الى سامرا فلما علم بدخيلة الامر
جهز احمد الواسطي كاتب سره وصديقه وارسله مكانه الى سامرا بالهدايا الفاخرة الى
الوزير فاستجلب خاطره فسعى امام الخليفة فالغى الامر السابق واصدر أمراً آخر يزيد
مدة ولاية ابن طولون في مصر ويصرح له بنقل عائلته جميعها اليها وقد كانت الى ذلك
اليوم في سامرا . فسر ابن طولون بهذا الفوز وفرق في الناس الزكاة

وفي سنة ٢٥٧ هـ حكم على بابك امير مصر الاصيل الذي كان قد عين ابن طولون
قائداً للقوة العسكرية بقطع الراس لجناية ارتكبها وعين مكانه برقوق حمواحمد بن طولون
وهذا حالما استلم الامر بالامارة عهد الى صهره بالنيابة العامة ليس فقط على الفسطاط بل
على سائر القطر المصري فامر عيسى بن دينار متولي الاسكندرية ان يسلم زمامها اليه
فتوجه ابن طولون الى الاسكندرية وتسلم ادارتها ثم سلمها لعيسى المذكور واقرب عليها
فاصبحت سياسة مصر جميعها بيد احمد بن طولون . وفي السنة التالية توفي برقوق فولي
احمد مكانه والياً عاماً على القطر المصري

الدولة الطولونية

من سنة ٢٥٧ — ٢٩٢ هـ أو من ٨٧٠ — ٩٠٥ م

حكم احمد بن طولون

من سنة ٢٥٧ — ٢٧١ هـ أو من ٨٧٠ — ٨٨٤ م

كان احمد بن طولون قد عرف دسائس ابن المدبر وشقيق الخادم وكان الوزير قد ارسل اليه جميع الكتب الواردة منها بحقه . وبعد يسير توفي شقيق خوفاً وهم ابن طولون بعزل ابن المدبر لكنه عرف بعد ذلك ان اخاه على خزينة الخليفة فاغضى عنه اما ابن المدبر فكان قد مل مناظرة ابن طولون وهو لا يقوى على كيد فطلب الى اخيه ان ينقله الى وكالة خراج سوريا ففعل وقبل تركه مصر اعاد صلات المودة مع ابن طولون فازوج ابنته لخمارويه بن احمد بن طولون ووهبه معها الاملاك التي كانت له في مصر ثم ارسل المعتمد يستحث ابن طولون في جمع الخراج فاجابه لست اطيع ذلك والخراج في يد غيري فاحيل الخراج اليه فاصبحت جميع اعمال مصر الادارية والعسكرية والمالية بيده فالغى الخراج الهلالي الذي وضعه ابن المدبر وقبل الغائه حسب مقداره فبلغ مائة الف دينار سنوياً فأحب ان يستشير بشأنه فتشاور مع عبد الله بن دسومة امين متولي الخراج وكان عاتياً طماعاً فقال ان امنني الامير تكلمت بما عندي فقال له قد امنك الله عز وجل فقال « ايها الاميران الدنيا والآخرة ضررتان والحازم من لم يخلط بينهما والمفرط من خلط بينهما فيتلف اعماله ويبطل سعيه وافعال الامير ايده الله الخير وتوكله توكل الزهاد وايسر مثله من ركب خطة لم يحكمها ولو كنا نشق بالنصر دائماً طول العمر لما كان شيء عندنا آثر من التضيق على انفسنا في العاجل بعارة الآجل ولكن الانسان قصير العمر كثير المصائب مدفوع الى الآفات . وترك الانسان ما قد امكنه وصار في يده تضيق ولعل الذي حماه من نفسه يكون سعادة لمن يأتي من بعده فيعود ذلك توسعة لغيره بما حرمه هو ويجتمع للامير ايده الله بما قد عزم على اسقاطه من الهلالي في السنة بمصر دون غيرها مائة الف دينار وان فسخ ضياع الامراء والمتقيلين في هذه السنة لانها سنة ظمأ توجب الفسخ زاد مال البلد وتوفر توفراً عظيماً فيضاف الى مال الهلالي فيضبط

نه الامير ايده الله امر دنياه وهذه طريقة امور الدنيا واحكام امور الرئاسة والسياسة وكل ما عدل الامير ايده الله الية من امر غير هذا فهو مفسد لدنياه وهذا رأيي والامير ايده الله على ما عساه يراه »

فقال ابن طولون ننظر في ذلك ان شاء الله وشغل قلبه كلامه فبات تلك الليلة بعد ان قضى اكثر الليل يفكر في كلام ابن دسومة فرأى في منامه رجلاً من اخوانه الزهاد في طرسوس وهو يقول « ليس ما اشار عليك من استشرته في امر الارتفاق والفسخ برأيي محمد عاقبته فلا تقبله ومن ترك شيئاً لله عز وجل عوضه الله عنه فامض ما كنت عزمته عليه » . فلما اصبحت انفذ الكتب الى سائر العمال بذلك فابطل الضرائب المتقدم ذكرها ونشرت في سائر الدواوين بامضائه . ثم دعا ابن دسومة واخبره بما كان فقال له « قد اشار عليك رجلان الواحد حي في اليقظة والاخر ميت في النوم وانت الى الحي اقرب وبضمانته اوثق » فقال له « دعنا من هذا فقد قضى الامر ولست قابلاً منك ما تقول »

وفي غد ذلك اليوم ركب احمد نحو الصعيد فلما امعن في الصحراء ساخت في الارض يد فرس احد غلمانته فسقط الغلام في الرمل فاذا بفتق فتوح فتقدم احمد وامرهم ان يحفروا هنا ففعلوا فاصاب فيه من المال ما كان مقداره مليون دينار وهو الكنز الذي شاع خبره وكتب الى العراق يخبر به المعتمد ويستأذنه فيما يصرفه فيه من وجوه البر وغيرها فأذن له فبنى منه مستشفى وحصناً وسبيلاً وجوامع وفرق قسماً منه على الفقراء
اصلاحاته

واول جامع شاده ابن طولون جامع التنور ابتناه على قمة جبل المقطم في مكان كان يدعى تنور فرعون يقال انه سمي كذلك لانه على مرتفع فكانوا يضرمون فيه النار ليلاً فظن بعض المشايخ ان في ذلك المكان كنزاً فاخذ يحفر فيه فلم يظفر بشيء فعلم ابن طولون فاحتفر فاصاب مالاً اكثر كثيراً من ذي قبل وعند ذلك امر ببناء الجامع هناك ودعاه جامع التنور . واحتفر ابن طولون بئراً عند بركة الحبش تعرف ببئر عفصة وابتنى ساقية وقناطر خارج المغافر عرفت بقناطر ابن طولون ناظر بناءها مهندس مسيحي ماهر ولا تزال آثارها باقية

وفي سنة ٢٦٠ هـ اعاد احمد بن طولون حفر ترعة الاسكندرية وكانت قد سدت بالرمال المحمولة اليها وبنى في الاسكندرية آباراً مسقوفة بالبناء العقدوا حواضاً تحت الارض لكي يأتي منها بالماء العذب النقي ما يكفي المدينة . وفي تلك السنة ركب مع رئيس خزنته ابي ايوب والقاضي بقال في جزيرة الروضة فرأى المقياس محتاجاً الى اصلاح فأمر

باصلاحه اصلاً متقناً انفق عليه عشرة آلاف دينار . واقام ابو ايوب بعد يسير مقياساً آخر في دار الاسلحة في الجزيرة المذكورة حيث بنيت السجون ولكن لم يبق منها الى ايام المقرئ الا اثر طفيف

وفي اواخر السنة المذكورة توجه احمد بن طولون الى الاسكندرية لتفتيش الاشغال التي كان امر باجرائها واوصى بها لابنه البكر العباس ثم امر بترميم منارة الاسكندرية واقام فوقها القبة ويقال ان هذه المنارة كان ارتفاعها خمسمائة قدم وامر ابن طولون ببناء المستشفى (المارستان) في العسكر وقد كانت الفسطاط قبله مجردة من مثل ذلك وخصص لاجل النفقات اليومية للمستشفى والبنائات الاخرى اطيافاً واسعة تأخذ محصولاتها وخصص لها ايضاً دخل مبيع الرقيق وكان يأتي بنفسه لزيارة المستشفى وتفقد سير الاطباء فيه وعيادة المرضى والمجاذيب . واتفق ذات يوم ان احد المجاذيب في المستشفى هم بقتله ولولا القضاء لذهب بحياته ولم يكن شيء من ذلك ليثني عزمه عن العيادة . وبني في العسكر حمامين وقد بلغ مقدار نفقات بناء المستشفى والحمامين والجامع عند جبل المتطم ستين الف دينار . وبقيت هذه البنائات رغم التقلبات السياسية التي كان يخشى ان تذهب بها ولا يزال كثير من آثارها الى هذه الغاية

محاربته

قلنا ان ابراهيم بن الصوفي فر من وجه احمد بن طولون والتجأ الى الواحات الكبرى في الصحراء فهذا تمكن بعد ذلك من التجنيد والتقدم نحو مدينة اشمونين فبلغ ذلك ابن طولون فانفذ اليه جيشاً تحت قيادة ابن ابي الغيث وهذا لم يلتق بجيش ابن الصوفي فسار لمحاربة عبدالرحمن العمري وكان معتدياً على حدود النوبة وبعد حرب شديدة سار ابن الصوفي الى اصوان فلاقاه ابن ابي الغيث مغضياً عن ابي عبد الرحمن وحاربه ففر من وجهه وسار من طريق عيناب الى مكة حيث قبض عليه وارسل الى احمد بن طولون فاقام في السجن مدة ثم صرفه مؤذناً له بالسكنى في المدينة وبقي فيها الى ان توفاه الله

أما أبو عبد الرحمن العمري فاستفحل امره واقام الاستحكامات في النوبة فشق ذلك على احمد ولم يستطع صبراً فانفذ اليه جيشاً آخر تحت قيادة شبه الببكي الى اصوان فلما بلغها رأى ابا عبد الرحمن مشغولاً بمقاومة جيوش زكريا ملك النوبة والحرب بينهما قائمة فقال هذه فرصة لا يصح ضياعها فهجم على حصون ابي عبد الرحمن بدون ان يستأذن من ابن طولون فلم يعبأ ابو عبد الرحمن بشكائهم والاعداء عاينه فجعل رجاله فرقتين وحارب الفتيين وتغلب على شبه واعاده على اعقابهم صفر اليدين الى الفسطاط فلم

يصادف من ابن طولون الا احتقاراً وانتهازاً
وبعد ذلك بقليل قدم الفسطاط عبدان يحملان رأس ابي عبد الرحمن العمري
فرميا بين اقدام احمد بن طولون فسألهما عما اتى بهما اليه وما حملهما على قتل سيدهما
فاجابا ان لا غرض لهما الا الحصول على رضا امير القطر المصري . فقال لهما احمد « ان
ما ارتكبتموه تستوجبون عليه عقاب الله وعقابي » وامر بقتلهما وغسل رأس ابي
عبد الرحمن ودفنه بما يلزم من الاحترام . وحقيقة الامر ان العبدین لم يقتلا سيدهما
بايديهما وانما قتل بمكيدة محمد بن هارون شيخ قبيلة مضر فسولت لهما النفس ان يقطعا
رأسه ويحملاه الى ابن طولون فينالوا جائزة عظيمة وما علما ان المروءة وكرم الاخلاق
تأبيان مثل ذلك

ثم ثار ابو نوعة صديق ابن الصوفي القديم فانضم اليه عصابة من الاتباع فجاهر
بالعصيان ضد ابن طوآون فارسلى اليه حملة فغلها فانجدها ابن طولون فغلبته وفر ابو
نوعة الى الواحات واضطر اخيراً الى التسليم
وبعد سنة من هذه الحادثة ثار محمد بن فاراب الفرغنى وتابعه اهالى برقة جميعهم
فارسلى اليهم احمد بن طولون لؤلؤاً وقال له نج المدينة من العصاة فتكون عليها والياً
فخاربهم لؤلؤ وفاز عليهم فجعله ابن طولون والياً على برقة ومتعلقاً بها
الموفق والمعتد

وفي السنة نفسها اضطر ابن طولون الى محاربة شديدة كان يخشى عليه منها وهي
محاربة ابي احمد طلحة الملقب بالموفق بالله احد ابناء المتوكل على الله واخو المعتمد على
الله الخليفة . وذلك ان صاحب الزنج (بجوار زنجبار) ادعى انه من سلالة علي بن ابي
طالب فقدم البصرة سنة ٢٥٤ هـ واستولى عليها وعلى الكوفة وغيرها واستفحل امره
فانفذ امير المؤمنين المعتمد على الله يستقدم اخاه ابا احمد الموفق بالله من مكة وكان الخليفة
المهتدي بالله قد بعث اليها منفيّاً فقدم سنة ٢٥٧ هـ فاوصى المعتمد بالخلافة من بعده لابنه
المفوض وبعده للموفق وجعل غربي الممالك الاسلامية للمفوض وشرقيها للموفق وكتب
بينهما بذلك كتاباً ارتهن فيه ايمانهما بالوفاء بما قد وقعت عليه الشروط
وكان الموفق يحسد اخاه المعتمد على الخلافة ولا يراه اهلاً لها فلما جعل المعتمد
الخلافة من بعده لابنه ثم الموفق بعده شق ذلك عليه وزاد في حقه وكان المعتمد
متشاغلاً بملاذ نفسه من الصيد واللعب والتفرد بجواريه فضاعت الامور وفسد تدبير
الاحوال وفاز كل من كان متقلداً عملاً بما تقلده
وكان في الشروط التي كتبها المعتمد بين المفوض والموفق انه ما يحدث في عمل كل

واخذ منهما من حدث تكون النفقة عليه من مال خراج قسمه . واستخلف على قسم ابن المفوض موسى بن بغا فاستكتب موسى بن بغا عبيد الله بن سليمان بن وهب . وانفرد الموفق بقسمه من ممالك الشرق وتقدم المعتمد الى كل منهما ان لا ينظر في عمل الآخر وجعل كتاب الشروط بالكتابة

ولما كانت البصرة والكوفة واقعتين في حصة الموفق كان عليه محاربة الزنوج ودفعهم فتأهب في جيش كبير وسار اليهم وناقضهم فطال زمن المحاربة حتى انقطعت مواد خراج المشرق عن الموفق وتقاعد الناس عن حمل المال الذي كان يحمل في كل عام واحتجوا باشياء اخرى فدعت الضرورة الموفق الى ان كتب الى احمد بن طولون في مصر في حمل ما يستعين به في حروب صاحب الزنج وكانت مصر في قسم المفوض لانها من الممالك الغربية الا ان الموفق شك في كتابه الى ابن طولون شدة حاجته الى المال بسبب ما هو في سبيله وبعث الكتاب مع تحرير خادما المتوكل ليقبض منه المال فما هو الا ان وصل تحرير الى ابن طولون واذا بكتاب المعتمد قد ورد عليه يأمره فيه بحمل المال اليه على رسمه مع ما جرى الرسم بحمله مع المال في كل سنة من الطراز والرقيق والخيل والشمع وغير ذلك وكتب اليه ايضاً كتاباً أسرياً يقول فيه « ان الموفق انما انفذ تحريراً اليك عيناً ومستقصياً على اخبارك وانه قد كاتب بعض اصحابك فاحترس منه واحمل المال الينا وعجل نفاذه »

وكان تحرير الخادم لما قدم الى مصر انزله احمد بن طولون معه في داره بالميدان فمنعه من الركوب والخروج من الدار التي انزله بها حتى سار من مصر وتلطف في الكتب التي اجاب بها الموفق ولم يزل بتحرير حتى اخذ جميع ما كان معه من الكتب التي وردت من العراق الى مصر وبعث معه الى الموفق الف الف دينار ومائتي الف دينار وما جرى الرسم بحمله من مصر واخرج معه العدول وسار بنفسه صحبته حتى بلغ به العريش وكان قد ارسل الى اماجور متولي الشام فقدم عليه بالعريش فاسلمه خادما الموفق والمال واشهد عاينه بتسليم ذلك ورجع الى مصر ونظر في الكتب التي اخذها من تحرير فاذا هي الى جماعة من قواده باستماتهم الى الموفق فقبض على اربابها وعاقبهم حتى هلكوا في عقوبته

فاما وصل جواب ابن طولون الى الموفق ودعه المال كتب اليه كتاباً ثانياً يستقل فيه المال ويقول « ان الحساب يوجب اضعاف ما حمت » وبسط اسانه بالقول والتمس ممن معه من يخرج الى مصر ويتقلدها عوضاً عن ابن طولون فلم يجد احداً عوضه الا كان من دعة ابن طولون وملاطفته وجوه الدولة

كتاب ابن طولون الى الموفق

فلما ورد كتاب الموفق على ابن طولون قال « واي حساب بيني وبينه او حال
توجب مكاتبتني بهذا او غيره » وكتب اليه بعد البسملة « وصل كتاب الامير ايده الله
تعالى وفهمته وكان اسعده الله حقيقة بحسن التخيير لمثلي وتصييره اياي عمدة التي يعتمد
عليها وسيفه الذي يصول به وسنانه الذي يتقى الاعداء بحده لاني دائب في ذلك وجماعته
وكدي واحتمات الكلف العظام والمؤون الثقيل باستجداب كل موصوف بشجاعة واستدعاء
كل منعوت بغني وكفاية بالتوسعة عليهم وتواصل الصلاة والمعاون لهم صيانة لهذه الدولة
وذبا عنها وحسباً لاطماع المتشوفين لها والمنحرفين عنها . ومن كانت هذه سبيله في الموالاة
ومنهج في المناصحة فهو حري ان يعرف له حقه ويوفر من الاعظام قدره ومن كل
حال جليلة حفظه ومنزاته . فعمولت بضد ذلك من المطالبة بحمل ما امر به والجفاء في
المخاطبة بغير حال توجب ذلك ثم اكلف على الطاعة جملاً والزم في المناصحة ثمناً وعهدي
بمن استدعي ما استدعاه الامير من طاعته ان يستدعيه بالبدل والاعطاء والارغاب والارضاء
والاكرام لان يكلف ويحمل من الطاعة مؤنة وثقلاً واني لا اعرف السبب الذي يوجب
الوحشة ويوقعها بيني وبين الامير ايده الله تعالى ولا ثم معاملة تقتضي معاملة او تحدث
مناقرة لان العمل الذي انا بسبيله لغيره والمكاتبة في امره الى من سواه ولا انا من قبله .
فانه والامير جعفر المفوض ايده الله تعالى قد اقتسم الاعمال وصار لكل واحد منهما
قسم قد انفرد به دون صاحبه واخذت عليه البيعة فيه انه من نقض عهده او اخفرت ذمته
ولم يف لصاحبه بما اكد على نفسه فالامة بريئة منه ومن بيعته وفي حل وسعة من خلفه .
والذي عاينني به الامير من محاولة صرفي مرة واسقاط رسمي اخرى وما ياتيه ويسومني
ناقض لشروطه مفسد لعهد . وقد التمس اوليائي واكثروا الطلب في اسقاط اسمه وازالة
رسمه فآثرت الابقاء وان لم يؤثره واستعمات الاناة وان لم تستعمل معي ورايت الاحتمال
والكظم اشبه بذوى المعرفة والفهم فصبرت نفسي على احرم من الجمر وامر من الصبر وعلى
مالا يتسع به الصدر والامير ايده الله تعالى اولى من اعانني على ما اوثره من لزوم عهده
واتوخاه من تأكيد عهده بحسن العشرة والانصاف وكف الاذى والمضرة وان لا يضطرنني
الى ما يعلم الله عز وجل كرهه ان اجعل ما أعدته لحياطة الدولة من الحيوش المتكاثفة
والعساكر المتضاعفة التي قد ضربت رجالها من الحروب وجرت عليهم من الخراب
مصرفاً الى نقضها . فعندنا وفي حيزنا من يرى انه احق بهذا الامر واولى من الامير .
ولو امنوني على انفسهم فضلاً عن ان يعثروا في علي ميسل او قيام بنصرتهم

لاشتدت شوكتهم واصعب على السلطان معاركتهم . والامير يعلم ان بازائه منهم واحداً قد كبر عليه وفض كل جيش انهضه اليه على انه لا ناصر له الا لفيف البصرة واوباش عامتها فكيف من يجد ركناً منيعاً وناصرأً مطيعاً وما مثل الامير في اصابة رايه يعترف مائة الف عنان عدة له فيجعلها عليه بغير ما سبب يوجب ذلك فان يكن من الامير عتاب او رجوع الى ما هو اشبه به واولى والا رجوت من الله عز وجل كفاية امره وحسم مادة شره واجرعنا في الحياطة على اجمل عادته عندنا والسلام »

فلما وصل الكتاب الى الموفق اغاظه غيظاً شديداً فاحضر موسى بن بغا وكان عون الدولة واشد اهلها بأساً واقداماً فتقدم اليه في صرف احمد بن طولون عن مصر وتقليدها اماجور فامتل وكتب الى اماجور كتاب التقايد وانفذه اليه فلما وصل اليه الكتاب توقف عن ارساله الى احمد بن طولون اعجزه عن مناهضته . ثم خرج موسى ابن بغا عن الحضرة مقادراً انه يدور عمل المفوض ليحمل الاموال منه ولما علم بتوقف اماجور عن مناهضة احمد بن طولون كتب اليهما يأمرهما بحمل الاموال وعزم على قصد مصر والايقاع بابن طولون واستخلاف اماجور عاها فسار الى الرقة

وبلغ ذلك ابن طولون فاقاقه ليس لانه يقصر عن مناهضة موسى بن بغا لكن لتحمله هتك الدولة وان يأتي سبيل من قاوم السلطان وحاربه وكسر جيوشه الا انه لم يجد بدءاً من المحاربة ايدفع عن نفسه ما يكره فتأمل مدينة فسطاط مصر فوجدتها لا تؤخذ الا من جهة النيل فاراد لكبر همته وتدبره ان يبني حصناً على الجزيرة التي بين الفسطاط والجزيرة (جزيرة الروضة) يكون معقلاً لحرمة وذخائره وخاصة ثم يشتغل بعد ذلك بحرب من يأتي من البر

وقد زاد فكره في من يقدم من النيل فأمر ببناء الحصن على الجزيرة واتخذ مائة مركب حربي سوى ما يضاف اليها من العلابيات والحمايم والعشاريات والسنابيك والزوارق وقوارب الخدمة وعمد الى سد وجه البحر الكبير وان يمنع ما يجي اليه من مراكب طرسوس وغيرها من البحر الملح الى النيل بأن توقف هذه المراكب الحربية في وجه البحر الكبير خوفاً مما سييجي من مراكب طرسوس كما فعل محمد بن سليمان من بعده باولاده كانه ينظر الى الغيب من ستر رقيق وجعل فيها من يذب عن هذه الجزيرة وانفذ الى الصعيد والى اسفل الارض لمنع من يحمل الغلال الى البلاد ليمنع من يأتي من البر الميرة

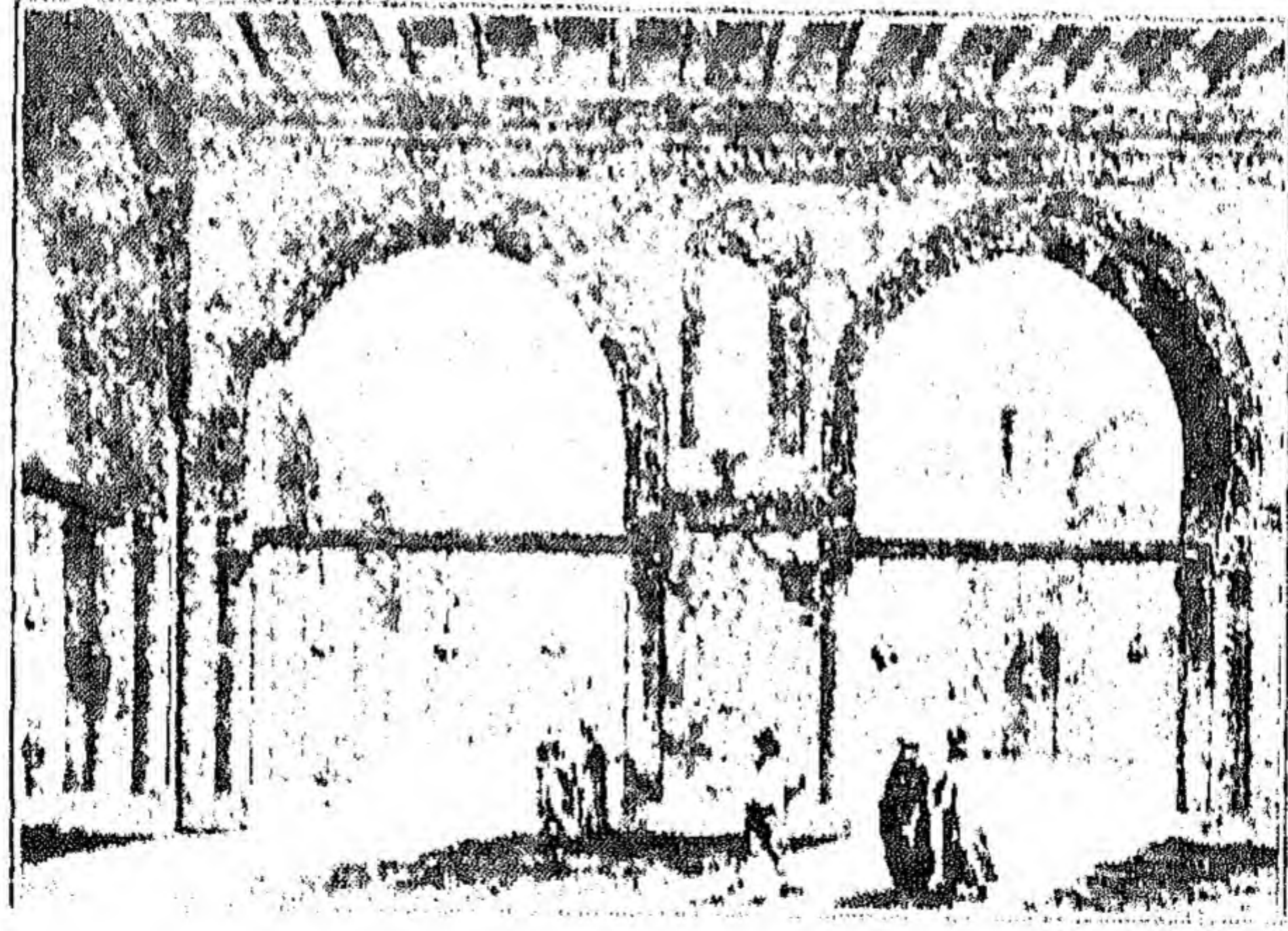
واقام موسى بن بغا بالركة عشرة اشهر وقد اضطربت عليه الاتراك وطالبوه

بارزاقهم مطالبة شديدة حتى استتر منهم كاتبه عبيد الله بن سليمان لتعذر المال عليه وخوفه على نفسه منهم تخاف موسى بن بغا عند ذلك ودعته ضرورة الحال الى الرجوع فعاد الى الحضرة ولم يقيم بها سوى شهرين ومات من علة في صفر سنة ٢٦٤ هـ هذا واحمد بن طولون يجد في بناء الحصن على الجزيرة وقد الزم قواده وثقاته امر الحصن وفرقه عليهم قطعاً قام كل واحد بما لزمه من ذلك وكد نفسه فيه وكان يتعهدهم بنفسه في كل يوم وهو في غفلة عما صنعه الله له من الكفاية والغنى عما يعانيه . ومن كثرة ما بذل في العمل قدر ان كل طوبة منه وقفت عليه بدوهم صحيح . ولما تواترت الاخبار بموت موسى بن بغا كف عن العمل وتصدق بمال كثير شكراً لله على ما من به عليه من صيانتة عما يقبح فيه عنه الاحدوثة وما راي الناس شيئاً كان اعظم من عظيم الجهد في بناء هذا الحصن ومباكرة الصناعات له في الاسحار حتى فرغوا منه فانهم كانوا يخرجون اليه من منازلهم في كل بكرة من تلقاء انفسهم من غير استحضات لكثرة ما سخا به من بذل المال . فلما انقطع البناء لم ير احد من الصنائع التي كانت فيه مع كثرتها كأنما هي نار صبت عليها ماء فطفئت لوقتها . ووهب للصنائع مالا جزبلاً وترك لهم جميع ما كان سلفاً معهم . وبلغت نفقات هذا الحصن ثمانين ألف دينار ذهباً وقال سعيد بن القاضي من ابيات بشأن ذلك

وان جئت رأس الجسر فانظر تأملاً الى الحصن او فاعبر اليه على الجسر
تري اثرأ لم يبق من يستطيعه من الناس في بدو البلاد ولا حضر
مأثر لا تبلى وان باد اهلها ومجد يؤدي وارثيه الى الفخر
اما الموفق فلما تفرق جيشه لم يعد يرى بدءاً من الاغضاء عن مقاومة احمد بن طولون اغضاءً وقتياً

بناء الجامع

وكثر اتباع ابن طولون ورجال حاشيته وجنده حتى ضاق جامع العسكر ذرعاً عن احصائهم ايام الجمعة للصلاة فرفعوا اليه ان يبتني لهم جامعاً آخر اكثر اتساعاً فاستجاب التماسهم على ان يبتنيه على جبل يشكروا له هذا الجبل شأن ديني عندهم وكانوا يقولون ان موسى الكاظم ناجى ربه عليه مراراً وانه اقتبل في ذلك المسكن بعض الشرائع المقدسة وعزم احمد ان يجعل ذلك الجامع اعظم ما بني من الجوامع الى ذلك العهد وان يقيمه على ثمانية عمود من الرخام . ففعل له ان مثل هذا العدد لا يتيسر الحصول عليه وانه اذا اصر على عزمه لا يترك للمسيحيين ما يقوم ببناء معابدهم فتردد بين ان يتم مشروعه وان لا يحرم الطوائف الاخرى من التمتع بحقوقها الدينية في بناء المعابد



ش ٣٨ — جامع ابن طولون

وكان المهندس المسيحي الذي تقدم ذكره ويسمى ابن الكاتب الفرقاني ومن ذوي الاطلاع والمعرفة بفن الهندسة وصناعة البناء وقد اودع السجن اهمة توجهت نحوه بغير الحق . فلما بلغه ما كان من عزم ابن طولون وتردده كتب اليه من السجن انه قادر على اتمام مشروعه وانه لا يحتاج في ذلك الى اكثر من عمودين يجعلهما عمودي القبلة . فاستحضره وقد طال شعره حتى نزل على وجهه وطلب اليه ان يشرح له ذلك فرسم الجامع على الكيفية التي كانت في ذهنه فجاء كثير الشبه بجامع سامرا . فاعجب ابن طولون كثيراً وامر باطلاقه وخلع عليه وجعل تحت امره مائة الف دينار وقال له انفق وما احتجت اليه بعد ذلك اطلقناه لك . وامر ابن طولون ان يكون بناء الجامع من القرميد والجير ونهى عن ادخال اي مادة كانت مما يقبل الاشتعال قائلًا : ورغبتي من ذلك انه اذا طرأ على الفسطاط دمار بالماء ام بالنار فلا يكون على جامعي بأس فيبقى ولو دمرت جميعها »

ولما اتم بناء هيكل الجامع اخذ في زخرفته وفيضه وعلق فيه القناديل الجميلة النحاسية بالسلاسل النحاسية الطوال وجعل على افاريزه آيات من القرآن الشريف لا يزال معظمها ظاهراً الى هذا اليوم وفرش الحصر وحمل اليه صناديق المصاحف ونقل اليه القراء والفقهاء . ويقال انه هو الذي رسم القبلة والمنارة بنفسه وجعلها منفصلة عنه رواق يحيط بالجامع ويفصل المنارة عن صحن ثان خارجي وقد هدم بعض هذه المنارة الا ان الناظر اليها لا يسعه الا التعجب من عظمتها ويقال ان تجاه المنارة المذكورة الباب الكبير

وجعل للجامع ٣٣ شباكاً . واقام بجوار الجامع بناء دعاه دار الامارة يستطرق الى الجامع من كوة في جداره القبلي قرب المحراب والمنبر مزين بالسائر . وفي الدار المساند الجميلة والطنافس الثمينة . فكان ابن طولون ينزل في تلك الدار اذا ذهب الى الصلاة يوم الجمعة فانها كانت تجاه القصر والميدان فيجلس فيها ويحجده وضوءه وينغير ثيابه وفي موضعها الآن سوق الجامع

ومن يزر هذا الجامع اليوم يره خراباً مهجوراً وقد استعملته الحكومة مراراً منازل للحجاج والفقراء فبنوا في قناطره فسدوها . وقد هدم بعض تلك القناطر وبعض المنارة وفي صحن الجامع الميضة ولا يزال اثر المنبر الخشبي باقياً وفي جوار المنارة غرف يقال انها كانت مصلى احمد ابن طولون وذريته

وقد استغرق بناء هذا الجامع سنتين فانتهى في رمضان سنة ٢٦٣ هـ فاذن ابن طولون بالصلاة فيه ولكن الفقهاء لم يكونوا يدخلونه لئلا يكون مبنياً بهال لم تكتسب بالحق والعدل فاقسم لهم انه لم ينفق عليه درهماً من الدراهم التي وجدها اتفاقاً فصدقوه فاحتفل بتدشينه في يوم الجمعة التالي وصار يرد اليه الجماهير من المسلمين . وتذكر ان ذلك الاحتفال نقشوا على الواح كبيرة من الرخام الابيض بعض الآيات من القرآن الكريم . وقال المقرئون انهم كانوا يحرقون اقراص الندي في اثناء الصلاة فيعقب الجامع بدخانهم والمؤمنون في الصلاة . وكان القاضي بكار بن قتيبة الامام الاول وربيع بن سليمان الخطيب الاول لهذا الجامع . وفي ذلك الحين الشا محمد بن ربيع مدرسة في احدى غرف الجامع وكان ابن طولون واولاده وجميع حاشيته لا يتركون الجامع الا بعد ان يتم محمد تدريسه . وكانت دروس هذه المدرسة محصورة في الحديث . ومن كان يحضر عليه ابناء احمد بن طولون وكانوا يواظبون على الحضور والانصراف كسائر التلاميذ كل ذلك بأمر والدهم . وفي مساء يوم التدشين عاد ابن طولون الى دار الامارة لاعادة الوضوء وتغيير الثياب فكث مدة طويلة في الجامع يصلي لله ويشكره على ما اولاه من النعم بنجاح اعماله ووهب الجامع عشرة آلاف دينار وخصص له رواتب تدفع من مالها بقي حياً . وبنى ابن طولون بجوار الجامع خارج صحنه حوضاً وفسقية للوضوء ثم بنى صيدلية يحضر فيها بأمره كل يوم جمعة طبيب يعالج الفقراء مجاناً ولا سيما الذين يأتون للصلاة . وحسبت نفقات البناء فبلغت مائة وعشرين ألف دينار غير الاوقاف . ويقال ان احمد بن طولون وجد ما عدا الكنزين المتقدم ذكرهما كنزاً ثالثاً من الذهب النقي ويقال ان هذا الذي جعله يضرب الدينار الاحدي الذي اشتهر بنقاوته والمفضل على سائر

انواع الذهب القديم للتذهيب به
وفي اثناء بناء الجامع توفي اماجور الذي كان حاكماً في سوريا فخلفه ابنه علي فاغتصب
احمد بن طولون تلك الفرصة ليضم سوريا الى مصر والموفق مشغول عنه بمحاربة الزنج
فاظهر انه تازم على محاربة الروم جهاداً في سبيل الدين وجمع جيشاً جراراً فيه كثيرون
من المتطوعين فكتب الى ابن اماجور يستنصره في تلك الحرب وان يبايعه على سوريا
لان الخليفة اقطعه اياها فطاعه

عصيان العباس

وفي غرة سنة ٢٦٥ هـ برح احمد بن طولون مصر مستخلفاً ابنه العباس وسنه اذ
ذاك ٢٣ سنة وعهد بتدبير الاحكام الى وزيره احمد الواسطي . ولما احتشدت جيوش
ابن طولون في فلسطين اتاه محمد حاكم الرملة خاضعاً فأقره في منصبه ولما بلغ دمشق
رحب به علي بن اماجور وأمر بان يخطب باسمه فأقره في منصبه ايضاً . وهكذا فعل
في حمص وعليها عيسى فأقره عليها ثم استولى على حلب وحماه وكانت من اعمال الطاكية
وحاكمها يدعى سيما الطويل فكتب اليه احمد بن طولون يطلب مبايعته فوعده واسكنه
لم يف فأعاد الطلب فوعده ايضاً ولما تكرر منه الوعد والاختلاف تقدم احمد بجيشه الى
اسكندرونه ثم هاجم الطاكية من جهة باب البحر فلم يقدر عليه لانه كان منيعاً
فهاجمها ثانية وثالثة بلا فائدة وما زال حتى كاد يتولاه اليأس فاته بعض اهالي المدينة
ينبثونه بباب آخر في الجهة المقابلة يدعى باب الفرس لجهة الجبال وقالوا انه سهل المأخذ
فسار احمد بجيشه وهاجم المدينة من ذلك الباب وما طلع الفجر الا والمتاريس في يده .
واما سيما فدافع دفاعاً حسناً حتى قتل وجي . برأسه الى احمد بن طولون فشق عليه قتله
لانه كان صديقاً له . واما المدينة فذهبت فريسة الفتك والنهب حتى نودي بالطاعة فسكنت
الغوغاء ووضع احمد يده على باياس واطنة وطرسوس . وبينما هو بهم بالتقدم في فتوحه
الى ما وراء ذلك جاءه من مصر ان ابنه العباس الذي استخلفه عليها قد شق عصا الطاعة
ومد يده الى الخزائن والاحكام واستبد فيها فلم يرد احمد الرجوع الى مصر قبل اتمام
عمله في سوريا فسار الى محاربة محمد بن اتمش صاحب الرقة ثم اخيه موسى فأسره ولم
يرجع الى مصر الا في نهاية سنة ٢٦٥ هـ بعد ان فتح الشام وبعض اسيا الصغرى
واستخلف في الرقة غلامه لؤلؤاً

اما العباس فبعد ان نبذ طاعة والده انقياداً لذوي الاغراض شعر بخطائه وخاف
سوء العقبي فجمع اليه الخزينة وفيها مليونان من الدنانير واستدان فوقها ٣٠٠ ألف

دينار وفر بمن معه الى الجزيرة على ضفة النيل الغربية وساق معه احمد الواسطي وزير والده مغلولاً . ولكنه خشي ان لا يكون مكانه هناك اميناً فعهد بحكومته فيه الى اخيه ربيع مظهراً السفر الى الاسكندرية وسافر الى برقة

فاما وصل احمد بن طولون الى القسطنطينية ونزل العسكر ورأى من امرائه ما رأى احب استقدامه بالحسنى فكتب اليه كتباً كلها نصيح واستعطاف وارساها مع بكار بن قتيبة فعاد بالنتيجة وكان ذلك بدسيسة من النف حوله وهم الذين اغروه على كل ما فعل وقد اصبحوا يخافون غضب ذلك الامير الخطير فأوعزوا الى العباس ان يعين في افريقية . ففي سنة ٢٦١ هـ جمع اليه رجال دعوته وسار في داخلية البلاد ساعياً جهده في اجتذاب مشايخ القبائل اليه فلم يفر الا مع القليل منهم فكتب الى ابراهيم بن الاغلب صاحب القيروان ان يبايعه على افريقية مدعيّاً ان الخليفة قلده اياها وكان سعيه مع هذا باطلاً ايضاً . ثم هاجم حصن لبدة وفتحت له ابوابها فدخلها وامعن اتباعه في النهب والقتل فاستاء الاهالي فكتبوا الى الياس بن منصور النفوسي رئيس الاباضية فوعدهم بالمساعدة وفي اثناء ذلك سار ابراهيم صاحب القيروان بجيش الى طرابلس الغرب لقتال العباس فقاتله في الليل وكان العباس مشهوراً بالشجاعة والحماسة وكان شاعراً ينشد الاشعار الحماسية في اثناء القتال وبما الشده قوله

لله دري اذا اعدو على فرسي	الى الهياج ونار الحرب تستعز
وفي يدي صارم افري الرؤوس به	في حده الموت لا يبغي ولا يذر
ان كنت سائلة عني وعن خبري	فها انا الليث والضمصامة الذكر
من آل طولون اصلي ان سألت فما	ف فوق المفتخر بالجود مفتخر
لو كنت شاهدة كرى بلبدة اذ	بالسيف اضرب والهلمات تبتذر
اذا اعاننت مفي ما تبادره	عني الاحاديث والانباء والخبر

وفي الصباح التالي وصل الياس ومعه ١٢ الفاً من الاباضية مدداً لابراهيم فضمامها الى جيشه واستأنف الحرب وخسر العباس في هذه الواقعة اكثر ضباط جيشه واشجع جنوده وجميع المؤن والمهمات العسكرية التي اتي بها من مصر . اما هو فتمكن بعد الجهد من الفرار الى برقة فبلغ ذلك اباه فانفطر له قلبه رغم عصيانه ومناواته . وفي اواخر سنة ٢٦٢ هـ انشد احمد جيشاً الى برقة وبعد بضعة ايام اتي بنفسه الى الاسكندرية في جند كبير قيل انه كان مؤلفاً من مائة الف رجل فاتاه احمد الواسطي وكان قد تخلص من العباس فانفذه ابن طولون بجيش الى برقة ليهاجم من فيها من

العصاة فهاجمهم وقتل العدد الاعظم منهم . اما العباس فقبض عليه حياً وجاء به الى ابيه في منتصف سنة ٢٦٨ هـ وبعد بضعة ايام عاد ابن طولون الى الفسطاط ومعه ابنه العباس ولما بلغ الفسطاط اعتقله في قصره

وبعد ثلاثة اشهر وصلت الجيوش ومعهم الاسرى الباقيون فاحضرهم والعباس معهم فأمره ابوه ان يقطع ايدي هؤلاء المفسدين وارجلهم بيده ففعل . ثم التفت اليه وعنفه بكلام تنفقت له الحجارة ثم امر بان يضرب مائة جلدة امر بذلك وقلبه يقطر دماً . ثم اعاده الى الاعتقال وامر بقتل من بقي من العصاة والقاء جثثهم في النيل

اضطرابات خارجية

وما كادت مصر تتخلص من هذه الاضطرابات الداخلية حتى داهمتها اضطرابات خارجية اشد وطأة واصعب مراساً . فان الضعائين بين احمد بن طولون والموفق كانت لا تزال كامنة الى ذلك العهد وما اصاب الاموال من السلب وما تكبدته ابن طولون على أثر ذلك من النفقات في الحروب حملته على الاقتصاد في النفقة والاعتدال بالسخاء فساء ذلك بعض الذين كانوا يتقربون منه طمعاً بالمال وفيهم غلامه لؤلؤ الذي كان غارقاً بالعامه وقد ولاه بلاداً واسعة فاضمر له شراً بايعاز كاتبه محمد بن سليمان الذي لم يكن ابن طولون يحبه . فامسك لؤلؤ عن اداء الخراج الى ابن طولون على ان يؤديه الى الموفق ويبايعه على ما في يده فطار الموفق فرحاً . اما القواد الذين كانوا مع لؤلؤ فلم يكن بينهم وبين احمد بن طولون ما يوجب العداء فاعلموه بغدره فادرك العواقب الناجمة عن هذه الخيانة ولكنه اتخذ الحزم والتأني بهراساً فكتب الى لؤلؤ يدعوهُ الى طاعته بعبارات لطيفة فأبى

فنظر احمد في الامر نظراً بعيداً فرأى العاقبة مخمودة فكتب الى المعتمد سرّاً يعاينه انه يخاف خيانة ربما كان فيها خطر على حياة الخليفة ويدعوه الى مصر قائلاً « ان لدينا هنا مائة الف مقاتل مستعدة للدفاع عن امير المؤمنين ووقع عدوه (يعني الموفق) واعادة السلطان اليه » وبعث مع هذا الكتاب هدية تساوي مائة الف دينار وسار في جيش جرار سنة ٢٦٩ هـ وتقدم الى دمشق ومعه ابنه العباس واستخلف على مصر ابنه الثاني خمارويه وجاهر انه قدم لامرير انقاذ الخليفة المعتمد ومعاقبة لؤلؤ فلم يظفر بلؤلؤ لانه كان قد انضم الى الموفق في محاربة الزنج

وثارت في اثناء ذلك فرقة من الجنود كان قد ارسلها احمد الى سليسيا وعصت قائدها خلفاً فتمكن هذا من النجاة بحياته الى دمشق فاغتم سكان طرسوس هذه الفرصة لخالع طاعة ابن طولون فابطلوا الصلاة باسمه فحمل عليهم اقتصاصاً منهم . ثم ورد اليه

كتاب من المعتمد اوقفه عن عزمه . وذلك ان الخليفة المشار اليه ادرك ان ليس في يده من الخلافة الا اسمها وان اخاه الموفق اضر بنفوذه ضرراً بليغاً . فلما جاءه كتاب ابن طولون تقبله بسرور واجابه شاكراً له وشاكياً من تصرف اخيه . والقي اليه ان يتصرف بالامر بمقتضى حكمته وان يلاقيه في الرقة ، فانفذ اليها ابن طولون جيشاً لملاقاته لان المعتمد احب ان يغتنم اشتغال اخيه بالحرب مع الزنج للاقدم الى احمد فتظاهر بالخروج في حاشيته للصيد . وسافر في جمادى الاولى حتى بلغ الى اسحق بن كنداج امير الموصل وما بين النهرين وكان قد كتب اليه وزير الموفق بما كان وامره ان يحتال في القبض على الخليفة . فاستقبل اسحق الخليفة باكرام واحترام وشيعة

فلما قارب عمل ابن طولون ارتحل الاتباع والعلماء الذين مع المعتمد وقواده ولم يترك ابن كنداج اصحابه يرحلون . ثم خلا بقواده عند المعتمد وقال لهم انكم قرب عمل ابن طولون والامر امره وتصيرون من جنده وتحت يده افترضون بذلك وقد علمتم انه كواحد منكم . وجرت بينهم في ذلك مناظرة حتى تعالى النهار ولم يرحل المعتمد ومن معه فقال ابن كنداج قوموا بنا نتناظر في غير حضرة امير المؤمنين فاخذ بأيديهم الى خيمته لان مضاربهم قد سارت فلما دخلوا خيمته قبض عليهم وقيدهم واخذ سائر من مع المعتمد من القواد فقيدهم . فلما فرغ من امورهم مضى الى المعتمد فعزله في مسيره من دار ملكه وملك آبائه وفراق اخيه الموفق على الحال التي هو بها من حرب كانه يريد قتله وقتل اهل بيته وزوال ملكهم ثم حمله والذين كانوا معه حتى ادخلهم سامرا فعلم الموفق بذلك فسر لكنه خشي ان يعود اخوه مرة ثانية الى قصده الاول فارسل اليه من يراقب حركاته ووهب اسحق جميع البلاد التي كانت من اعمال ابن طولون فاصبح حكمه ممتداً من بغداد الى اطراف افريقية واهداء سيفين ولقبه بندي السيفين اشارة الى تسلطه على الشرق والغرب

فلما علم ابن طولون بذلك اشتد غيظه فجمع اليه من كان في دمشق من فقهاء بلاده وعلمائها واشرافها واعلمهم ان الموفق هتك حرمة الاخوة نحو اخيه وحاول الاستقلال بالدولة الاسلامية وان الخليفة امير المؤمنين قد اصبغ في حالة يرثى لها يقضى نهاره بالاسف والكدر الشديدين . وما زال ينهض همهم ويحرك عواطفهم حتى اقرؤا على ان يذكر الخطيب بعد صلاة الجمعة حالة الخليفة ويطلب الى الله ان يحفظه ويكبت اعداءه . وزادوا على ذلك ان الموفق عاص على الخليفة فهو محروم من حقوق الخلافة ثم زاد هو على هذا ان الموفق خلع الطاعة وبرئ من الذمة فوجب جهاده على الامة .

فاعترض بعض الحضور على ذلك ومنهم بكار وقال ان كتب الخليفة تخالف ما قررتوه لانه اوصى ان يكون الموفق وارثاً للخلافة قطعياً فاجابه ابن طولون ان الخليفة لم يكن حرّاً بما فعل . والتى بكاراً في السجن ريثما يرد من الخليفة الجواب على ذلك وانتهى الامر باقرار الجميع على ما سبق ذكره وان يحافظوا على كل كلمة فاهوا بها وان ينادوا بذلك في الجماهير بالصلاة كما تقدم

فلما بلغ الموفق ذلك اوعز الى اخيه المعتمد ان يخلع ابن طولون . وما انفك حق اجابه الى طلبه فجاهر على المنابر بعبارة ونصها : « اللهم العنه لعناً يفلّ حده ويتعس جدّه واجعله مثلاً للغابرين انك لا تصلح عمل المفسدين » فصرح ابن طولون بلعن الموفق في جميع بلاده وارسل جيشاً للاستيلاء على مكة فانفذ حاكمها هارون الى الموفق الخبر فارسل اليه مدداً تحت قيادة جعفر فخاربوا المصريين في مكة فغلبوهم بعد ان قتلوا مائتي رجل منهم واسروا قائدهم فنودي بلعن ابن طولون في مسجد مكة

الا ان هذا جميعه لم يكن ليثني ابن طولون عن عزمه في اعماله الاخرى فانه سار الى سليسيا لاختاد الثورة ومقاصة المعتدين فرأى في طريقه بدمشق وبنى قبة فوق مدفن الخليفة معاوية كان قد هدمها العباسيون وزينها بالقناديل واقام فيها من يتلو القرآن ثم قدم اطنه لمقاصة بزمار حاكمها لامتناعه عن مبايعته وكان بزمار قد قبض على رسل ابن طولون فشق ذلك على ابن طولون فاسرع الى قتاله بفرقة من الجند فحوّل بزمار نهر سداس على جيش ابن طولون وكانوا في منتصف الشتاء ففاضت مياهه وساعدها البرد القارس فاهلكا معظم الجند فاضطر احمد الى رفع الحصار وتأجيل الانتقام . فانتقل لتهجد جهات اخرى كان يهددها الروم فسار بفرقة من رجاله الى بياس فانطاكية حيث كان ينتظره القضاء المبرم . وذلك انه شرب فيها مقداراً كبيراً من لبن الجاموس فاضر في صحته فانذره الطبيب الذي كان معه واسمه سعيد بن ثيوفيل فاهمل انذاره وتغافل عن الاحتماء العسارم فاشتد مرضه كثيراً فاسرع الى مصر محمولاً على الاذرع في محفة لكن الضعف لم يسمح له بالاستمرار على هذه الكيفية فنزل عند الفرما ثم حمل الى القسطنطينية في النيل فبلغها في آخر السنة وهو في حالة خطيرة . فنادى اليه اطباء وهددهم بالقتل اذا لم يبدلوا الجهد في شفائه

حدث في مصر من القلاقل ما شغل ابن طولون عن الاهتمام بصحته . وذلك ان احد العلويين واسمه احمد بن عبد الله لما بلغه حال احمد بن طولون من المرض شق عصا الطاعة فانضمت اليه فرقة من رجال الصعيد فانفذ اليها احمد فرقة

من رجاله ففرقتها وعادت برأس قائدها وعاد معها الامن واستتبت الراحة

المصالحة

اما الموفق فبعد ان حارب الزنج طويلاً فاز بهم لكنه ملّ الحرب ومال الى السكينة وكانت شعائره العدوانية نحو ابن طولون اخذت على طول الزمن في التخمود فرغب في حقن الدماء واقامة الحدود . ولم تكن رغبة ابن طولون في المصالحة اقل من رغبة الموفق . والظاهر ان المرض اضعف منه حاسة الانتقام فقال الى صرف القلاقل . وكان الموفق اشد رغبة في صرفها فعهد الى سعيد بن مخلد وجماعة من ذويه ان يكتبوا الى ابن طولون كتابة يوهمونه انها منهم بغير علم الموفق يبينون له ان ما حصل انما كان من عواقب التسرع في الحكم وان يتفقوا معه على المصالحة ففعلوا كما امرهم . فاما اطاع ابن طولون على هذه الكتب علم انها من تدبير الموفق . على ان ذلك لم يمنع قبوله بالمصالحة فوافقه على نسيان ما مضى من سوء التفاهم ووعد به باعادة الصلات الودية على ان يصرح الموفق جهاراً بتنازله عن شعائره الحقد او الانتقام . فعلم الموفق من مطالعة الكتاب ان ابن طولون كشف خبيثته فاجابه انه آسف على ما فرط منه وعامل على استئصال جرائم الحقد وانه يرغب الى صديقه الجديد ان يقبل تلك المصالحة فقبل . اما المعتد فسرّ جداً لما دار بينهما وكتب بخط يده الى ابن طولون يحمد سعيه ويطلب اليه ان يبقى مسلماً لاختيه الموفق واخبره انه قد ابطل لعنه . فلم تبلغ مصر رسالته الا بعد وفاة ابن طولون لان صحته كانت تتأخر يوماً فيوماً والام المعدي المتسبب عن افراطه من اكل ابن الجاموس يشتد عليه مصحوباً بحمى شديدة وضعف عام ثم رافق ذلك زرب ذهب بما بقي من قواه

فاما احس احمد بدنو الاجل استغاث بصلوات شعبه على اختلاف معتداتهم . فصعد المسامون بقرآتهم والمسيحيون باناجيلهم واليهود بتوراتهم الى المقطم فقاموا فروض الدعاء الى الله ان يشفي ملكهم . وكان في جملة من حضر الاحتفال الفقهاء وطلاب العلم وكانت جوامع المدينة غاصة بالجمهير يقرأون القرآن والحسنات تفرق في الفقراء بسخاء فانتفع الناس في موته كما انتفعوا في حياته . ولما تأكد قرب الساعة صلى قائلاً « اللهم ارحم عبدك وعامه قدر نفسه لانه لم يعرف لها قدراً وانصفه برحمته » واخذ بعد ذلك يكرر الشهادة الى ان قضى . وقبل وفاته بقليل اخرج بكراً من السجن لكنه لم يلبث بعد وفاة ابن طولون الا اياماً حتى توفي ودفن في الفسطاط

ولا يزال مقامه معروفاً . وكانت وفاة احمد بن طولون يوم الاحد العاشر من شهر ذي القعدة سنة ٢٧٠هـ (الموافق ١١ مايو سنة ٨٨٤ م) ودفن عند سفح المقطم على طريق المتوجه الى القرافة الصغرى

ولما بلغ المعتد وفاة ابن طولون حزن حزناً شديداً ورثاه بقصيدة تدل على ان المعتد كان شاعراً أكثر من كونه حاكماً . وحكم ابن طولون ١٨ سنة كلها حروب وظفر . ومن تأمل سيرة حياته يجد نغمة انما كان بكثرة المصاعب وهي التي كانت تثير فيه الهممة وتحمله على توسيع نطاق مملكته وقد خلف ثروة قدرها عشرة ملايين دينار وعدداً كبيراً من الاسلحة والامتعة و ٧ آلاف مملوك تحت السلاح و ٢٤ ألف مملوك بغير سلاح وكثيراً من الخيل والبغال والجمال وحيوانات اخرى . ويقال ان غلة مصر بلغت في ايامه مائة مائون دينار سنوياً . وقال آخرون انها لم تبلغ عشر هذا القدر وهو الأرجح وكان شجاعاً هماماً حليماً شفوفاً

مناقبه

ومن امثال شفقته انه ركب في غداة باردة الى المقس في ضواحي الفسطاط فصاب بشاطئ النيل صياداً عليه ثوب خلق لا يواريه منه شيء ولا معه صبي في مثل حاله وقد القى شبكته في البحر . فلما رآه رقيق لحاله وقال « نسيم ادفع الى هذا عشرين ديناراً » فدفعها اليه ولحق ابن طولون . فسار ولم يبعد ورجع فوجد الصياد ميتاً والعصي يبكي ويصيح فظن ابن طولون ان بعض سودانه قتله واخذ الدنانير منه فوقف بنفسه عليه وسأل الصبي عن ابيه فقال له هذا الغلام (وأشار الى نسيم الخادم) دفع الى ابي شيئاً فلم يزل يقلبه حتى وقع ميتاً . فقال فتشّه يانسيم . فنزل وفتشه فوجد الدنانير معه بحالها فحضر الصبي ان يأخذها فابى وقال هذه قتلت ابي وان اخذتها قتلتني . فاحضر ابن طولون قاضي المقس وشيوخه وامرهم ان يشتروا للعصي داراً بخمسمائة دينار تكون غلة وان تحبس عليه وكتب اسمه في اصحاب الجرايات . وقال انا قتلت اياه لان الغنى يحتاج الى تدريج والا قتل صاحبه . هذا كان يجب ان يدفع اليه دينار بعد دينار حتى تأتية هذه الجملة على تفرقة فلا تكثر في عينه

واحمد بن طولون اول من جلس في مصر للنظر المظالم فكان يجلس لذلك يومين في كل اسبوع في محل يقبل فيه التظلمات وينصف اصحابها . وكان تقياً يحترم الشعائر الدينية كثيراً فكان له في قصره حجرة جعل فيها رجالاً ساهموا المكبرين يبيت منهم في كل ليلة اربعة يتناوبون الليل نوباً يكبرون ويستبحون ويحمدون ويهللون ويقراون

القرآن تجويداً بالالحن ويتوسلون بقصائد زهدية ويؤذنون اوقات الاذان ومن مناقبه الحميدة حبه لعمل الخير المجرد والتصدق على كل من طلب الصدقة . فكان ينفق في سبيل ذلك الف دينار شهرياً سوى ما يطراً عليه من النذور وصدقات الشكر على تجديد النعم . وسوى مطابخه التي اقيمت في كل يوم للصدقات في داره وغيرها يذبح فيها البقر والكباش ويفرق للناس في القدور الفخار والقصاع على كل قدر او قصعة اسكل مسكين اربعة ارغفة في اثنين منها فالودج والاثنان الآخران مما في القدر وكانت تعمل في داره وينادي من احب ان يحضر دار الامير فليحضر وتفتح الابواب ويدخل الناس الميدان وابن طولون في المجلس الذي تقدم ذكره ينظر الى المساكين ويتأمل فرحهم بما يأكلون ويحملون فيسرته ذلك ويحمد الله على نعمته . واقد قال له مرة ابراهيم بن قراطقان وكان متولياً تفريق الصدقات « ايد الله الاميرانا نقف في المواضع التي تفرق فيها الصدقات فتخرج لنا السكف المحضوبة نقشاً والمعصم الرائع فيه الحديد والكف فيها الخاتم »

فقال « يا هذا من مد يده اليك فاعطه فهذه هي اللطيفة المشهورة التي ذكرها الله في كتابه فقال يحسبهم الجاهل اغنياء من التعفف . احذر ان ترد يداً امتدت اليك » وابن طولون اول من بنى قلعة في يافا . وترك عند وفاته ٣٠ ولداً ١٧ ذكر ١٣ اثنى ولم يكن عمره عند وفاته اكثر من خمسين سنة . واوصى ان تكون الاحكام لبنيه من بعده ليكون له من اسلمه دولة تخلد ذكره . الا ان هذه الدولة لم تتمكث بعده الا

٢٢ سنة



وهذه صورة النقود التي ضربت في عهد ابن طولون سنة ٢٥٧ هـ وعليها اسمه واسم الخليفة المعتمد (انظر شكل ٣٩)

ش ٣٩ — نقود المعتمد وعليها اسم ابن طولون



خارويه بن أحمد

من سنة ٢٧٠ — ٢٨٢ هـ او من ٨٨٤ — ٨٩٥ م

وبعد وفاة ابن طولون اقيم ابنه خارويه حالاً في مكانه في ذي القعدة سنة ٢٧٠ هـ وسنه ٢٠ سنة ولقب بأبي الجيش فسر الناس من توليته . واما العباس فكان لا يزال في السجن وقد كرهته الامة لما كان من عقوقه . وقال بعضهم ان اياه ناداه قبل وفاته وعفا عما كان منه واوصى له بامارة الشام تحت اماره اخيه خارويه لئلا يملكه مالم يثق ان اقيم اخوه على الاحكام حتى ذهبت حياته بأمره . ولم يشأ خارويه ان يجعل مركز حكومته في الفسطاط كما فعل ابوه فجعلها في القطائع التي كان قد بناها ابوه مقرّاً لرجالها .

واول شيء اتاه خارويه انه قرب قلوب الرعية اليه بنزاهته ونسرت له الحق . ذلك ان كنيسة الاسكندرية كانت سنة ٢٦٨ هـ تحت رعاية البطريك ميخائيل وكان هذا قد عزل الاسقف سكالسوء سيرته وتعاليمه فسار هذا الاسقف الى الفسطاط مضمرّاً شراً فسمع الى احمد بن طولون فساداً وادعى ان البطريك وافر الثروة وهو لا يحتاج الى المال . وكان احمد اذ ذاك يتأهب للمسير الى سوريا وفي احتياج للنفقات فاستحضر البطريك المذكور وقال له « ان من كان في مكانك ايها البطريك لا يحتاج الى اكثر من الطعام واللباس وقد علمت انك ذو ثروة والبلاد في احتياج الى نفقات كبيرة فادفع مالديك الى بيت المال » فاجتهد البطريك في رفع تلك التهمة عنه فذهب اجتهاده عبثاً . والتقى في السجن ومعه احد شمامسته المدعو ابن المنذر سنة كاملة فاخذ يوحنا و ابراهيم ابنا موسى كاتب احمد بن طولون على عاتقهما ان يطلق البطريك بعد ان يدفع مبلغاً يجمعه من رعاياه المسيحيين . فكذب على نفسه صكاً بمبلغ ٢٠ الف دينار يدفعه على دفعتين لكنه لم يستطع الدفعة الاولى الا بعد العناء الشديد والاستقراض وبيع اوقاف الكنيسة لان ما فرضه على ابناء الكنيسة لم يكن وافياً بالمطلوب . فاصبح البطريك في حالة اليأس وانزوى في دير القديسة مريم في قصر الشمع بجوار الفسطاط لا يعلم كيف يقوم بدفع المبالغ الباقي فاكثر الضرائب على الاسقفيات الى حد لم يكن في الامكان القيام بدفعه فنسب اليه الاستبداد وهو براء منه . ولما آن وقت الدفع لم يكن قادراً عليه فقيده ثانية الى السجن وبعد يسير توفي ابن طولون . فلما تولى خارويه رأى من العدالة ان يخلي سبيله ويبريء ذمته بما كان باقياً عليه ففعل وكان لذلك وقع عظيم عند الاقباط

حدائق خمارويه واصطبلاته

ثم أخذ في تدبير الاحكام فلم يغير شيئاً مما كان في ايام ابيه فابقى ارباب المناصب كما كانوا فبقيت قيادة جيش الشام في يد ابي عبدالله وقيادة ما بقى من الجيوش في يد سميد الايسر. ولكي يتأكد مناعة الشام ارسل اليها مراكب حربية تطوف في مياهاها. ولما اطمان باله من قبيل ذلك عكف على الداخلية فاقبل على قصر ابيه وزاد فيه واخذ الميدان فجعله كله بستاناً وزرع فيه انواع الرياحين والشجر المطعم العجيب وانواع الورد والزعفران وكسا اجسام النخل نحاساً مذهباً وجعل بين النحاس واجسام النخل مزاريب الرصاص واجرى فيها الماء المدبر وغرس فيه من الرياح المزرور على نقوش معمولة وكتابات مكتوبة يتعهد بها البستاني بالقراض حتى لا تزيد ورقة على ورقة وطعموا له شجر المشمش باللوز واشباه ذلك. وبني في البستان برجاً من خشب الساج المنقوش بالقر النافر ليقوم مقام الاقفاص وسرح فيه من اصناف القهاري والدباسي والنونيات وكل طائر مستحسن حسن الصوت. وجعل فيه اوكاراً تفرخ الطيور فيها وسرح في البستان من الطير العجيب كالطواويس ودجاج الحبش ونحوها. وعمل في داره مجلساً في رواقه سماه بيت الذهب طلى حيطانه كلها بالذهب المجاول باللازورد على احسن نقش وجعل في حيطانه صوراً بارزة من خشب معمول على صورته وصور حظايا والمغنيات اللاتي يغنيهن بما عليهن من اللباس بالوانه وجعل عليهن من الحلي مثل ما اعتدن لبسه وجعل امام هذا البيت فسقية ملاً هازئبقاً. وسبب ذلك انه شكا الى طبيبه الارق فاشار عليه بالتغميز فانف من ذلك فقال تأمر بعمل بركة من زئبق فعمل بركة يقال انها ٥٠ ذراعاً طولاً في ٥٠ عرضاً وملاها من الزئبق وجعل في اركان البركة سككاً من الفضة الخالصة وجعل في السكك زناير من حرير في حلق من الفضة. وعمل فراشاً من ادم يحشى بالريح حتى ينتفخ فيحكم حينئذ شده وبقى على تلك البركة وتشد زناير الحرير التي بحلق الفضة في سكك الفضة وينام على هذا الفراش ولا يزال هذا الفراش يرج ويتحرك بحركة الزئبق مادام عليه. ولم يعرف ملك قط تقدم خمارويه في عمل هذه البركة وبني ايضاً بالقصر رقة تضاهي قبة الهواء سماها الدكة وكان كثيراً ما يجلس فيها ليشرف منها على جميع ما في داره من البستان وغيره ويرى الصحراء والنيل والجبل وجميع المدينة. وبني ميدياناً آخر اكبر من ميديان ابيه. وبني ايضاً في داره داراً للسباع « عمل فيها بيوتاً بأزاج كل بيت يسع سبعاً ولبوته وبجانب كل بيت حوض من رخام وجعل لتلك السباع سياساً يقومون بما تحتاج اليه من الطعام والشراب والتنظيف وكان من جملة

هذه السباع سبع أزرق العينين يقال له زريق قد انس بخارويه وصار مطلقاً في الدار لا يؤذي أحداً ويقام له بوظيفته من الغداء في كل يوم . فإذا نصبت مائدة خمارويه اقبل زريق معها وربض بين يديه يلتقط ما يرميه اليه من فضلاتها . فإذا نام جاء زريق ليحرسه فان كان قد نام على سرير ربض بين يدي السرير وإذا كان على الأرض فبجانبه لا يغفل عن ذلك لحظة واحدة

واتسعت أيضاً اصطبلات خمارويه فعمل لكل صنف من الدواب اصطبلاً مفرداً وعمل للثور داراً مفردة ومثل ذلك للفهود وللغيلة والزرافات كل ذلك سوى الاصطبلات التي في الجزيرة . وكان له أيضاً بمصر اصطبلات تنتج فيها الخيل حلبة السباق ولرباط في سبيل الله برسم الغزو . وبلغت مرتبات الجيش في أيامه تسعمائة ألف دينار في كل سنة . وكانت حلبة السباق في أيامهم تقوم مقام الاعياد لكثرة الزينة وركوب سائر العساكر والغمامات على كثرتهم بالسلاح التام والعدة الكاملة فيجلس الناس لمشاهدة ذلك كما يجلسون للاعياد وكان له معرض للخيل فريد

وقد تقدم ان خمارويه قتل اخاه وكان ذلك بايعاز ابي عبد الله قائد جنود الشام ثم خاف ابو عبد الله ان يعود خمارويه الى الانتقام منه اذ يندم على قتل اخيه فعمد الى المكيدة فكاتب الموفق يقول له « ان هذا الغلام خمارويه لا يفهم من امور الاحكام الا انها وسيلة للتمتع بالملاهي » وكتب اليه غير ذلك مما شوق الموفق الى الاستيلاء على مصر . واخذت العداوة تنمو بينهما من ذلك الحين . وفي سنة ٢٧١ هـ حصلت واقعة عظيمة بين احمد ابن الموفق الملقب بالمعتضد بالله وخمارويه تدعى واقعة الطواحين

واقعة الطواحين

وتفصيل واقعة الطواحين ان احمد بن الموفق لولا ما كان في قلبه من البغض لخمارويه لم يستول على دمشق لان ابا عبد الله ساعه اياها بدون حرب . فلما علم خمارويه بذلك جرد جيشه قاصداً استرجاعها حتى بلغ الرملة ومعه سعيد الايسر قائد الجنود المصرية العام فبلغ ذلك المعتضد بالله فصار من دمشق نحو الرملة الى عساكر خمارويه فاتاه الخبر بوصول خمارويه الى عساكره وكثرة من معه من الجموع فهم بالعود فلم يمكنه اصحاب خمارويه الذين صاروا معه . وكان المعتضد قد اوحش ابن كنداج وابن ابي الساج ونسبهما الى الجبن حيث انتظراه ليصل اليهما ففسدت نيتهما معه . ولما وصل خمارويه الى الرملة نزل على المساء الذي عليه الطواحين فلم يكد فوسبت الواقعة اليه . ثم وصل المعتضد وقد عي اصحابه وكذلك ايضاً فعل

خمارويه وجعل له كميناً عليهم سعيد الايسر . فحملت ميسرة المعتضد على ميمنة خمارويه فانهمزمت . فلما رأى ذلك خمارويه ولم يكن رأى مثله قبله ولى منهزماً في نفر من الاحداث الذين لاعام لهم بالحرب ولم يقف دون مصر فزل المعتضد الى خيام خمارويه وهو لا يشك في تمام النصر . فخرج الذين عليهم سعيد الايسر وانضاف اليهم من بقي من جيش خمارويه ونادوا بشعارهم وحملوا على عسكر المعتضد وهم مشغولون بالنهب ووضع المصريون السيف فيهم فظن المعتضد ان خمارويه قد عاد فركب وانهمز ولم يلو على شيء . فوصل الى دمشق ولم يفتح له اهلها بابها فمضى منهزماً حتى بلغ طرسوس وبقي العسكر ان يتضاربوا بالسيوف وايسر لواحد منهما امير . فطلب سعيد الايسر خمارويه فلم يجده فاقام اخاه ابا العشائر وتمت الهزيمة على العراقيين وقتل منهم خلق كثير وقال سعيد للعساكر : ان هذا اخو صاحبكم وهذه الاموال تتفق فيكم ، ووضع العطاء فاشتغل الجند عن الشغب بالاموال . وسير البشارة الى مصر ففرح خمارويه بالظفر وخجل للهزيمة غير انه اكبر الصدقة وفعل مع الاسرى فعلة لم يسبق الى مثلها قبله . فقال لاصحابه ان هؤلاء اضيافكم فاكرمهم ثم احضرهم بعد ذلك وقال لهم من اختار منكم القيام عندنا فله الاكرام والمواساة ومن اراد الرجوع جهزناه وسيرناه . فمنهم من اقام ومنهم من سار مكرماً وعادت عساكر خمارويه الى الشام ففتحتها اجمع فاستقر ملك خمارويه له . وهذه



الواقعة كانت الاخيرة بين خمارويه والموفق ثم ماتت الصلات الودية بين الاثنين وضربا النقود واعياها اسماهما واسم المعتمد في وقت واحد كما ترى في الشكل الاربعين

ش ٤٠ — نقود عليها اسماء المعتمد والموفق وخمارويه

وفي سنة ٢٧٨ هـ توفي الموفق وبابق قواده بولاية العهد لابنه المعتضد بعد المفوض ابن اخيه . وفي اول سنة ٢٧٩ هـ خلع المعتمد ولاية العهد عن ابنه المفوض وجعلها المعتضد . وفي تلك السنة توفي الخليفة المعتمد على الله بعد ان حكم ٤٣ سنة فبويغ ابن اخيه المعتضد بالله فاغتتم خمارويه الفرصة لتوطيد العلائق بينه وبين الخليفة الجديد فانفذ الحسين بن عبيد الله المعروف بابن القصار وفداً الى بغداد ومعه الهدايا الثمينة يعلن الخليفة ان مصر ستؤدي الخراج وقدره مائتا الف دينار . وانها ستدفع ايضاً عن السنين الماضية ٣٠٠ الف دينار . فاجابه الخليفة بتبنيته في امارته لمدة ٣٠ سنة على ما كان تحت امارته او اماره ابيه وارسل اليه ايضاً الخلعة والسيف المختصين بهذا المنصب

فدفع خمارويه الدفعة الاولى تماماً لمكنه تأخر بعد ذلك رويداً رويداً على انه لم يكن يغفل عن توطيد علائق المودة بينه وبين الخليفة فأرسل اليه وفداً يعرض عليه زفاف ابنته قطر الندى لابن المعتضد فقبل الخليفة بان يكون الزفاف له . وحصل ذلك على اعجب سبيل فحملت قطر الندى الى المعتضد وذهبت معها عمها العباسة بنت احمد بن طولون مشيعة لها الى آخر اعمال مصر من جهة الشام ونزات هناك وضربت فساطيطها وبنيت هناك قرية فسميت باسمها وقيل لها العباسة

ولما استقر له السلام على هذه الصورة مع الخليفة جعل يوسع سلطانه فامر طنج ابن جف امير دمشق ان يتقدم بفرقة من عساكر طرسوس الى بلاد الروم . ففعل وحارب الروم واستولى على عدة مدن وعاد بالغنائم . وفي سنة ٢٨٢ هـ التي كانت زاهية بزفاف قطر الندى سودت بموت خمارويه مقتولاً في دمشق . وذلك انه نهي اليه ان بين بعض لسانه وبعض كبراء خدامه علائق حبية سرية فشق ذلك عليه فأخذ في تحقيق الامر وتأكد الجرم على فاعله ومقاصته بما يقتضيه العدل فخشي هؤلاء من العقاب الشديد فاتفقوا مع لسانه على قتله لينجوا كلهم من شره فقتلوه على فراشه في ليلة من ليالي ذي الحجة من سنة ٢٨٢ هـ وقال آخرون في كيفية قتله غير ذلك . وبعد موته التي القبض على عشرين من الخدم الذين وقعت عليهم الشبهة بعد التحقيق تأكدت الجريمة على العشرين فحكم عليهم بالاعدام فنقات جثة خمارويه الى مصر ودفنت بسفح المقطم بقرب جثة ابيه احمد . وكانت مدة حكمه ١٢ سنة و١٨ يوماً وكان من احسن الناس خطاً . وحال موته بويج ابنه جيش الملقب بأبي العساكر وهو صغير لم يبلغ رشده

جيش بن خمارويه

من سنة ٢٨٢ — ٢٨٣ هـ او من ٨٩٥ — ٨٩٦ م

وفي سنة ٢٨٣ هـ ابى طنج بن جف حاكم الشام مبايعة جيش على بلاده وبعد سير ثارت الجيوش في مصر بدعوى انهم لا يقبلون موضع احمد بن طولون صبياً لم يبلغ رشده ولا يعرف شيئاً من امور الاحكام . وكان اذا ابدل رجلاً بآخر قالوا قد اختار من هو في سنه او على شاكلته . وبعد تسعة اشهر من حكمه نار عليه الجميع وقتلوه ونهبوا قصره واحرقوا المدينة

هارون بن خمارويه

من سنة ٢٨٣ - ٢٩٢ هـ أو من ٨٩٦ - ٩٠٤ م

واقام زعماء الثورة اخاه هارون مكانه . وقيل ان المعتضد ثبته على مصر لانه وعده باليحمله اليه مقدار مليون من الدنانير . وفي السنة المذكورة توفي اولو وهو الذي كان يسعى بين احمد بن طولون والموفق سعيًا الى حرب بين الفريقين . وكان اولو قد ضم جيشه الى جيش الموفق في محاربة الزنج الا انه لم يأت ذلك الضم بفائدة تذكر . ولما دصل احمد بن طولون الى الشام لم يستطع القبض على اولو نفسه فقبض على ما كان له في دمشق من الاهل وفيهن نساؤه واولاده وسرايره وباعهم في سوق الفسطاط . فلما بلغ ذلك اولو اخذ منه الغيظ كل مأخذ فتوجه الى الموفق وطلب اليه ان يعطيه جنداً ليغزو به مصر ويمتلكها وينتقم من ابن طولون . وكان الموفق قد عقد صلحاً مع ابن طولون كما تقدم ولم يشأ ان يجيب اولو سلباً فوعده بنيل مرغوبه وكرر الوعد مراراً وانما فعل الموفق ذلك على نية ان يستبقيه عنده لعله يحتاج الى مصالحة ابن طولون فيرسله اليه هدية . ولما توفي ابن طولون بقي اولو في خدمة الموفق ٣ سنوات واخيراً جرده من امواله وطرده من خدمته فاتى مصر حيث بيعت نساؤه واولاده وبقي فيها الى ان مات شرموة

وفي سنة ٢٨٤ هـ اي بعد تنصيب هارون بسنة اخذ الاهل ورجال الحكومة يقللون من الطاعة له ويحتقرون اوامره شيئاً فشيئاً حتى صاروا في استعداد كلي لبند الطاعة والمجاهرة بالعصيان . ورئيس هذه الثورة طنج بن جف صاحب الشام . وفي سنة ٢٨٥ هـ علم المعتضد بما كان من تقسيم بلاد هارون وكره الرعايا له فرأى ان يغتنم الفرصة لاسترجاع تلك البلاد لسلطانه كما كانت في عهد اسلافه . فتقدم نحو آمد فبايعه حاكمها محمد بن احمد بن عيسى بن شيخ وكان مستقلاً بها ثم تقدم الى قنسرين وتملكها فلما بلغ ذلك هارون اوجس خيفة ولم يعد يعلم ماذا يفعل وله من رعاياه اعداء الداء فكاتب المعتضد انه مستعد لتسليمه البلاد التي هي قريبة من العصيان عليه وكتب ايضاً الى حكام قنسرين والعواصم جميعها ان يدعوا السلطة الخليفة المعتضد فقبل المعتضد تلك العطية بكل سرور فوضع يده على تلك الاماكن فبايعه اهلها

القرامطة

وفي سنة ٢٨٩ هـ زادت القلاقل التي كانت تهدد هارون بانتشار القرامطة في سوريا. ومنشأ هذه الطائفة بالبحرين سنة ٢٨١ هـ ويقال في كيفية ظهورها ان رجلاً يعرف يحيى بن المهدي قصد قطيف فنزل على رجل يعرف بعلي بن المعلي بن حمدان مولى الزيايديين وكان يغالي في التشيع . فظهر له يحيى انه رسول المهدي وانه خرج الى شيعته في البلاد يدعوهم الى امره وان ظهوره قد قرب . فوجه علي بن المعلي الى الشيعة من اهل القطيف فجمعهم واقرأهم الكتاب الذي مع يحيى بن المهدي اليهم من المهدي . فاجابوه انهم خارجون معه اذا ظهر امره . ووجه الى سائر قرى البحرين بمثل ذلك فاجابوه وكان فيمن اجابه سعيد الجنابي وكان يبيع للناس الطعام ويحسب لهم بيعهم . ثم غاب عنهم يحيى بن المهدي مدة ثم رجع ومعه كتاب يزعم انه من المهدي الى شيعته وانه « قد عرفني رسولي ابن المهدي مسارعتم الى امري فليدفع اليه كل رجل منكم ستة دنانير وثلاثين » ففعلوا ذلك ثم غاب عنهم وعاد ومعه كتاب مفاده ادفعوا الى يحيى خمس اموالكم فدفعوا اليه الخمس . وكان يحيى يتردد في قبائل قيس ويورد لهم كتباً يزعم انها من المهدي وانه ظاهر فيكونون على اهبة . وصار امر هؤلاء ينتشر وعددهم يتعاضد حتى طمعوا بالغزو فبلغوا الشام واستفحل امرهم حتى حاربوا طنجج صاحب دمشق وحاصروها سنة ٢٩٠ هـ فاجتمع اليها جميع قوات الشام وهاجوا القرامطة وشتتهم بعد ان قتلوا شيخهم يحيى وفي سنة ٢٩٢ هـ كان على دست الخلافة العباسية الخليفة المسكتفي بالله بن المعتضد فاحب ان ينفذ ما كان نواه سلفه في سوريا ومصر فانفذ جيشاً الى الشام تحت قيادة محمد ابن سليمان فتملكها حالاً وكانت له مباءة ثم هجم على مصر فاخترقها حتى بلغ عاصمتها (الفسطاط) فاستعد هارون للمدافعة ورجاله ينقصون يوماً فيوماً لما كان يسير منهم الى صفوف الاعداء بعد كل وقعة . ولم يكن ذلك منتهى الشقاء فان معسكر هارون نفسه كان مرسحاً تتلاعب فيه الدسائس وينو فيه الخصام بين رجاله . واشتد القتال بينهم يوماً فركب هارون جواده واخذ في ردهم بعضهم عن بعض فاصيب بطعنة من احد المغاربة فسقط ميتاً في ١٨ صفر سنة ٢٩٢ هـ وكانت مدة حكم هارون ٩ سنوات كلها تعاسة وشقاء ويقال ان عمه شيبان هو الذي قتله

شيبان بن أحمد

من سنة ٢٩٢ — ٢٩٢ هـ أو من ٩٠٤ — ٩٠٤ م

وانقضاء الدولة الطولونية

وفي يوم موته اقيم عمه شيبان مكانه الا انه لم يهنأ بالحكم لان الناس رفضوه بصوت واحد وخابروا محمد بن سليمان ان يعطيهم الامان فأمنهم ثم حرضوه على المسير الى مصر فسار حتى نزل الباسة فلقية طنج في اناس من القواد كثيرين فساروا به الى الفسطاط فواقبل اليهم عامة اصحاب شيبان

ولما راي شيبان اصرارهم على ذلك ولم يبق لديه احد ممن يعتمد عليهم وافقهم على التسليم فاستلم محمد بن سليمان زمام الامور فاعطاهم الامان فبايعوه . اما شيبان فلم يكن يأمن من سكنائه في مدينة اقام فيها مغتصبها منه فقر من المعسكر ليلاً فبعث محمد بن سليمان من يقبض عليه فلم يظفر به وقال آخرون انه لم يفر ولكنه قتل جزاء قتله هارون بعد عشرة ايام من قتله . وهكذا انتهت الدولة الطولونية بعد ان حكمت ٣٧ سنة وبضعة اشهر

ويوم الخميس اول ربيع اول من تلك السنة التقى محمد بن سليمان النار في القطائع ونهب اصحابه الفسطاط وكسروا السجون واخرجوا من فيها وهجموا على الدور واستباحوا واهتكوا وفعلوا كل قبيح من اخراج الناس من دورهم وغير ذلك . واخرجوا ولد احمد بن طولون وهم عشرون انساناً واخرجوا قوادهم ولم يبق في مصر منهم احد يذكر . وخات منهم الديار وعفت منهم الآثار وتعطت منهم المنازل وحل بهم النذل بعد العز والتطريد والتشريد بعد اجتماع الشمل ونصرة الملك ومساعدة الايام . ثم سيق اصحاب شيبان الى محمد بن سليمان وهو راكب فذبحوا بين يديه كما تذبح الشياه . وقتل من السودان سكان القطائع خلق كثير وهكذا بادت دولة بني طولون فرثهم الشعراء والكتباء . وقد وقفنا على قصائد لكثير من الشعراء المعاصرين للدولة المذكورة يرثونها بها ويبالغون في الاسف عليها منهم احمد بن محمد الحبيشي واحمد بن يعقوب واسماعيل ابن ابي هاشم وسعيد بن القاضي واحمد بن اسحاق الجفر ومحمد بن طسويه وغيرهم . فما قاله سعيد بن القاضي من قصيدة طويلة قد مر بعضها قوله

جرى دمه ما بين سحر الى سحر ولم يجز حتى اسامته يد الصبر
وهل يستطيع الصبر من كان ذا اسي يبيت على جمر ويضحى على جمر

تتابع احداث يضيعن صبره
 اصاب على رغم الانوف وجدعها
 وفقد بني طولون في كل موطن
 وكان ابو العباس احمد ماجداً
 كأن ليالي الدهر كانت لحسنها
 يدل على فضل ابن طولون همة
 فان كنت تبغي شاهداً ذا عدالة
 فبالجبل الغربي خطة يشكر
 وتنور فرعون الذي فوق قلة
 بني مسجداً فيه يروق بناؤه
 وعين معين الشرب عين زكية
 بنائه لو ان الجرن جاءت بمثله
 ولا تنس مارستانه واتساعه
 وان جئت رأس الجسر فانظر تأملاً
 ترى اثرأ لم يبق من يستطيعه
 وقام ابو الجيش ابنه بعد موته
 اتته المنايا وهو في امن داره
 وورث هارون ابنه تاج ملكه
 وقد كان جيش قبله في محله
 فقام بامر الملك هارون مدة
 وما زال حتى زال والدهر كاشح
 فمن يبك شيئاً ضاع من بعد اهله
 ليبيك بني طولون اذ بان عصرهم
 وغدر من الايام والدهر ذو غدر
 ذوي الدين والدنيا بقاصمة الظهر
 امر على الاسلام فقداً من القطر
 جميل المحيا لا يبيت على وتر
 واشراقها في عصره ليلة القدر
 محلة بين السماكين والغفر
 يخبر عنه بالجلي من الامر
 له مسجد يغني عن المنطق الهندر
 على جبل عال على شاهق وعمر
 ويهدي به في الليل ان ضل من يسري
 وعين اجاج للرواة وللظهر
 لقليل لقد جاءت بمستفزع نكر
 وتوسعة الارزاق للاحول والشهر
 الى الحصن او فاعبر اليه على الجسر
 من الناس في بدو البلاد ولا حضر
 كما قام ايث الغاب في الاسل السمر
 فاصبح مسلوباً من النهي والامر
 كذلك ابو الاشبال ذو الناب والحصر
 ولكن جيشاً كان مستقصر العمر
 على كفظ من ضيق باع ومن حصر
 عقاربه من كل ناحية تسري
 لفقد هم فليبك حزناً على مصر
 فبورك من دهر وبورك من عصر

اما القرامطة فاغتموا غياب الجيوش لمحاربة مصر وعادوا الى ما كانوا عليه في سوريا
 فعلم محمد بن سليمان بذلك فسافر الى بغداد مستخلفاً في مصر حاميتها وجيش الخليفة .
 الا ان الامور لم تكن قد سكنت تماماً فثار ابن قلندج وضم اليه عصابة سببت اضطراب
 الراحة فاستدركها ابن كيغلاخ حاكم سوريا فترك دمشق وبعه جيش الخليفة الذي كان

تحت قيادته وجاء لاجئ ثورة مصر فاجتمعت القرامطة فرصة اخرى واستولوا على دمشق وتقدموا الى طبريا فذهبوها ولكنهم لم يتجاوزوها مخافة ان تلاقىهم الجيوش التي كانت في مصر فعادوا قاصدين الكوفة وكان هناك من المواقع ما لا علاقة له بهذا التاريخ

الدولة العباسية للمرة الثانية

من سنة ٢٩٢ — ٣٢٣ هـ او من ٩٠٥ — ٩٣٤ م

خلافة المكتفي بن المعتضد

من ٢٩٢ — ٢٩٥ هـ او من ٩٠٥ — ٩٠٨ م

فعادت مصر الى سيطرة الدولة العباسية في خلافة المكتفي فاقام عليها عيسى النوشري . وبعد ٣ سنوات توفي المكتفي يوم الاثنين في ١٣ ذي القعدة سنة ٢٩٥ هـ وعمره ٣١ سنة و ٣ اشهر بعد ان حكم ٦ سنوات و ٢ اشهر و ٢٢ يوماً

خلافة المقتدر بن المعتضد

من ٢٩٥ — ٣٢٠ هـ او ٩٠٨ — ٩٣٢ م

وفي يوم وفاة المكتفي بويع اخوه جعفر المقتدر بالله وعمره ١٣ سنة . فلم يحدث في الامارات تغييراً يذكر فاقر عيسى النوشري على مصر . على ان هذا اضطر بعد حين ان يتخلى عنها لمحمد بن الخاليج ولم يلبث بضعة اشهر حتى اقتضت الاحوال اعادة النوشري فعاد فتولاها نحو ٣ سنوات وفي شعبان سنة ٢٩٧ هـ توفي فابدل بتكين الخزري ابي منصور وبقي الى سنة ٣٠٢ هـ فأقيل واقيم مقامه زكا الرومي ابو حسن الاعور . فتولى مصر خمس سنوات ومات في ربيع الاول سنة ٣٠٢ هـ فأعيد تكين ثانية . وبعد

ايام توفي تكين تاركاً ولداً يدعى محمداً . وهذا وضع يده على حكومة مصر بدون اذن الخليفة . اما الخليفة المقتدر فقتل في ٢٨ شوال سنة ٣٢٠ هـ وعمره ٣٨ سنة بعد ان حكم ٢٤ سنة و ١١ شهر و ١٦ يوماً

خليفة القاهرة بن المعتضد

من ٣٢٠ — ٣٢٢ هـ او من ٩٣٢ — ٩٣٤ م

فبويح اخوه القاهرة بالله الابن الثالث للمعتضد بالله . فاراد هذا ان يقاص محمد بن تكين على جسارته فولى على مصر ابا بكر محمد بن طغخ ومن هذا نشأت دولة حكمت مصر وسوريا مدة من الزمن عرفت بالدولة الاخشيدية

مبدأ الدولة الاخشيدية

وكان ابو بكر محمد ابن طغخ في ذلك الحين حاكماً في دمشق واسلمه من اولاد ملوك فرغانة . وكان المعتصم بالله بن هارون الرشيد قد جاب اليه من فرغانة جماعة من اقوياء الرجال ووصفوا له جنف (جد ابي بكر محمد) غيره بالجماعة والتقدم بالحروب فوجه المعتصم من احضرهم . فلما وصلوا اليه بالغ في اكرامهم واقطعهم قطائع في سامراً وفي جماتها قطائع جنف فاقام جنف في سامراً (او سر من رأى) وجاءته الاولاد وتوفي في بغداد في الليلة التي قتل فيها المتوكل الاربعاء في ٣ شوال سنة ٢٤٧ هـ وخرج اولاده الى البلاد يتصرفون ويطلبون لهم معاش . واتصل طغخ بن جنف بلؤلؤ غلام ابن طولون وهو اذ ذاك مقيم بديار مصر (في ما بين النهرين) فاستخدمه على ديار مصر ثم انحاز طغخ الى جملة اصحاب اسحق بن كنداج . فلم يزل معه الى ان مات احمد بن طولون وجرى الصلح بين ابنه خارويه وبين اسحق بن كنداج . ونظر ابو الجيش خارويه الى طغخ بن جنف في جملة اصحاب اسحق فاعجب به واخذه من اسحق وقدمه على جميع من معه وقاده دمشق وطبرية ولم يزل معه الى ان قتل ابو الجيش فرجع طغخ الى الخليفة المكتفي بالله نفاع عليه وعرف له ذلك . وكان وزير الخليفة يومئذ العباس بن الحسن فسام طغخ ان يجري بالتزلف بجري غيره .

فكبرت نفس طغى عن ذلك فاغرى به المكتفى فقبض عليه وحبسه وابنه ابا بكر محمد ابن طغى المذكور فمات في السجن وبقي ولده ابو بكر معه محبوساً مدة ثم اطلق وخلع عليه . ولم يرسل العباس بن الحسن الوزير المذكور حتى اخذ بشار ابيه هو واخوه عبيد الله في الوقت الذي قتله فيه حسين بن احمد بن حمدان

وخرج ابو بكر واخوه عبيد الله في سنة ٢٩٦ هـ وهرب عبيد الله الى ابن ابي الساج . وهرب ابو بكر الى الشام واقام متغرباً بالبادية سنة ثم اتصل بابي منصور تكين الخزري فكان اكبر اركانهم . ومما كبر به اسمه سرية في البعث الى الجمع الذين تجمعوا على الحجاج لقطع الطريق عليهم سنة ٣٠٦ هـ وهو حينئذ يتقلد عمان وجبل الشراة من قبل تكين المذكور وظفر بهم ونجا الحجاج وقد فرغ من امرهم بقتل من قتله واسر من اسره وشرد الباقين . وكان قد حج في هذه السنة من دار الخليفة المقتدر بالله امرأة تعرف بعجوز فحدثت المقتدر بالله بما شاهدت فانفذ اليه خلعاً وزاده في رزقه . ولم يزل ابو بكر في صحبة تكين الى سنة ٣١٦ هـ ثم فارقه بسبب اقتضى ذلك وسار الى الرملة فوردت كتب المقتدر اليه بولاية الرملة فاقام بها الى سنة ٣١٨ هـ فوردت كتب المقتدر اليه بولاية دمشق وسار اليها ولم يزل بها الى ان ولاء القاهرة بالله ولاية مصر في رمضان سنة ٣٢١ هـ لكنه لم يذهب الى مصر لاستلام المنصب المشار اليه ولم يلق به الا مدة شهر فقط . ثم عين الخليفة مكانه احمد بن كيغاغ سنة ٣٢١ هـ وحصل في تلك الايام اضطرابات في الخلافة بلغ صداها القطر المصري

خلافة الرازي بن المقتدر

من سنة ٣٢٢ — ٣٢٣ هـ او من ٩٣٤ — ٩٣٤ م

وفي ٥ جمادى الاولى سنة ٣٢٢ هـ عزل القاهرة بالله عن دست الخلافة بعد ان حكم سنة و٦ اشهر وستة ايام وفي اليوم الثاني بوبع ابن اخيه الرازي بالله بن المقتدر وحال توليته الخلافة عزل ابن كيغاغ عن مصر وولى مكانه محمد بن طغى فقدم لاستلام الامارة فامتنع ابن كيغاغ من تسليمه وتخاصموا حتى عمدا الى السلاح وبعد محاربات شديدة كان الفوز لمحمد بن طغى وفر احمد بن كيغاغ بمن معه من ذويه الى برقة ومنها الى القيروان

مبدأ الدولة الفاطمية

وكانت القيروان وسواحل الغرب تحت سلطة دولة مستقلة عن العباسيين تدعي الدولة الفاطمية نسبة الى الفاطميين وهم من كتامة بالقرب من فاس في الطرف الغربي من افريقية ويدعون انهم من سلالة اسماعيل الامام السادس من سبط علي وبعبارة اخرى من سلالة فاطمة ابنة النبي ومنها لقبهم . ويلقبون ايضاً بالاسماعيليين والعبيديين والعلويين وكانوا قد اخذوا في نشر سلطتهم منذ سنة ٢٦٩ هـ في شمالي افريقيا وغربها في احزاب من الاغلبة والادريسيين كانوا قد خلعوا طاعة الخلفاء العباسيين في بغداد وخلفاء بني امية في الاندلس

وفي سنة ٢٨٠ هـ استولى زعيم الفاطميين ابو محمد عبيد الله على القيروان . وفي سنة ٢٩٦ هـ رأى من نفسه القوة فادعى الخلافة فبوع ولقب بالخليفة عبيد الله المهدي وانه آخر الأئمة العلويين الذي يدعي انه منهم وانه احق من سواء بالخلافة . فاصبحت الدولة الاسلامية بذلك منقسمة الى ثلاث دول على كل منها خليفة يدعى الاحقية بالخلافة وهم بنو امية في الاندلس وبنو العباس في بغداد والفاطميون في القيروان . فلما سمع عبيد الله المهدي زعيم الفاطميين عن حالة مصر مع ما هي عليه من الثروة والخصب تآقت نفسه اليها واخذ يسعى في الاستيلاء عليها

وبعد خلافته بخمس سنوات اي في سنة ٣٠١ هـ بعث الى مصر اربعين الف مقاتل في ٣ فرق مع الرجاء الوطيد بفوزها . فعلم الخليفة المقتدر بالله بما نواه المهدي فجهز جيشاً لدفع هذه الرزية عن مصر فجرت بين الفريقين وقائع عديدة شفت عن فوز الجيوش المصرية . فعاد الفاطميون على اعقابهم وطاردهم المصريون حتى اخرجوهم من حدود مصر . فرأى عبيد الله بعد هذا الفرار ان يؤجل افتتاح مصر لوقت آخر ولكنه رأى ايضاً حصونه غير كافية فاسس مدينة دعاها المهدية نسبة اليه على ان تكون عاصمة وقتية ريثما يفتح مصر فيجعل عاصمتها عاصمته . لانه كان مصمماً على افتتاحها الا ان ذلك الافتتاح لم يتيسر لعبيد الله ولا لخلفه الاول ولا الثاني . وفي سنة ٣٢٢ هـ توفي عبيد الله المهدي وسنه ٦٣ سنة بعد ان تولى الخلافة الفاطمية ٢٦ سنة فتولى ابنه ابو القاسم محمد الملقب بالقايم بأمر الله وكان أكثر تشوقاً للافتتاح من ابيه

وفي ايام القايم هذا جاء احمد بن كيغلق مطروداً من مصر يطلب ما جأ عنده وجعل يبحث على المسير الى مصر وافتتاحها فرأى القايم ان في افتتاحها عظمة وفخراً فجهز اليها هلم محمد بن طنج ذلك فحصد الحدود الغربية لمصر وجعل فيها حامية قوية . لكن ذلك

لم يمنع من نزول القضاء لان الفاطميين فتحوا الاسكندرية وبعد ان مكنوا قدمهم فيها تقدموا بجيوشهم حتى دخلوا القسطنطين واحتلوا قسماً كبيراً من الصعيد . ثم رأى القايم بأمر الله ان جنده لا يقوون على افتتاح العاصمة فاجل ذلك ريثما تضعف شوكة الدولة العباسية اكثر من ضعفها اذ ذاك فيسهل عليه افتتاحها
اما الدولة العباسية فكانت في غاية الضعف لان اماراتها اخذت تستقل عنها شيئاً فشيئاً . قاستولى القرامطة على سوريا وقسم من جزيرة العرب والسامانيون على خراسان والامويون على الاندلس والفاطميون على افريقيا والحمدانيون على ما بين النهرين وديار بكر وبنوبويه على بلاد فارس ولم يبق للعباسيين الا بغداد وبعض ضواحيها ومصر

الدولة الاخشيدية

من سنة ٣٢٣ — ٣٥٨ هـ او من ٩٣٤ — ٩٦٨ م

محمد الاخشيد

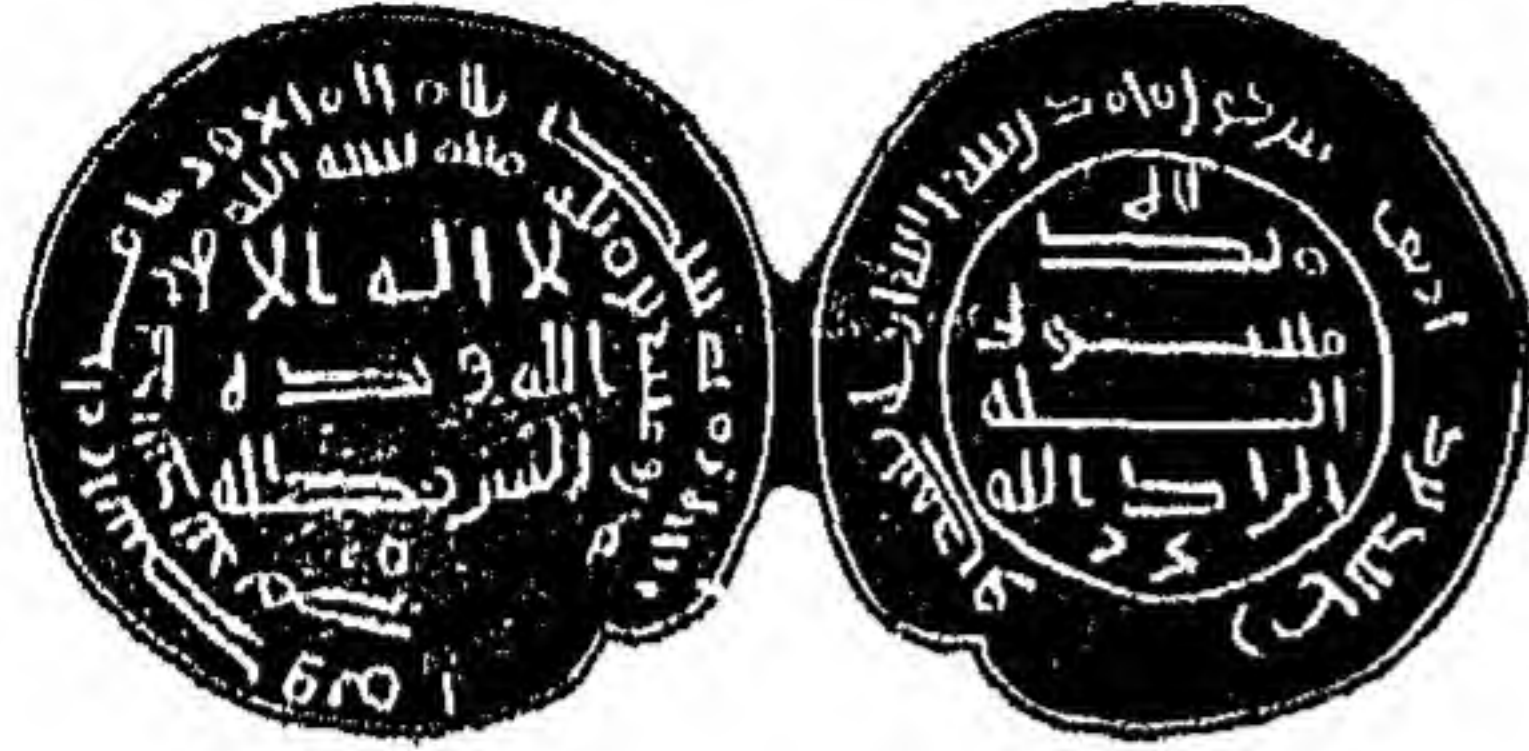
من سنة ٣٢٣ — ٣٣٤ هـ او من ٩٣٤ — ٩٤٦ م

فلما رأى ابو بكر محمد بن طغج امير مصر ما كان من انحلال الدولة العباسية وانقسام الدولة الاسلامية على متقدم طلب نصيبه من تلك القسمة فصرح باستقلاله في مصر سنة ٣٢٤ هـ فاضطر الخليفة الى تثبيتته وملاكه فوق ذلك سوريا مع انها لم تكن بيده . وفي ٣٢٧ هـ لقبه بالاخشيد وكان ذلك لقب ملوك فرغانة وهو من اولادهم ومفاد هذه اللفظة في لغتهم ملك الملوك وكان كل من ملك فرغانة لقبوه بالاخشيد كما يلقب الفرس ملكهم كسرى والروم قيصر والترك خاقان واليمن تبع والحباشة النجاشي الخ . ومن سلالة ابي بكر هذا جاءت الدولة الاخشيدية . وفي تلك السنة امر الاخشيد بنقل دار الصناعة من الجيزة الى ساحل النيل فنقلت

وفي سنة ٣٢٨ هـ اعطى الخليفة الراضي بالله لقب امير الامراء لمحمد بن رائق صاحب فلسطين وكان مستقلاً عنه . فلاح له ان يغزو الشام وعليها الامير بدر بن عبد الله الاخشيدي من قبل الاخشيد فخاربه فهرب بدر فهض محمد الاخشيد لانجاده مستخلفاً

في مصر اخاه الحسن وعسكر في الفرما وكانت جيوش محمد بن رائق قد بلغت الى هناك فتوسط بعض الامراء في الامر فانصرفت النازلة بالقي هي احسن وتصالحا . فعاد محمد الاخشيد الى القسطنطين وما بلغها حتى انبيء ان محمد بن رائق برح دمشق وفي نيته ان يهاجم مصر . فاسرع الاخشيد حالاً الى ما كان عليه فعاد بجيشه الى الشام فالتقى بمقدمة جيش ابن رائق في العريش فحصلت واقعة شفت عن انهزام جيش محمد بن رائق الى دمشق . فوضع محمد الاخشيد يده على الرملة واسر خمسمائة رجل من جيش ابن رائق وفي هذه الواقعة قتل حسين اخو الاخشيد . فما كان من ابن رائق مع ما كان بينه وبين الاخشيد من العدوان الا انه انفذ اليه ابنه مزاحماً ومعه كتاب يعزي الاخشيد فيه على فقد اخيه ويعتذر مما جرى ويخلف انه ما اراد قتله وانه قد انفذ ابنه ليفديه به ان احب ذلك . فلما بلغ مزاحم محمداً الاخشيد اكرم مشواً وخلع عليه واصطلحوا على ان تكون البلاد من الرملة الى حدود مصر للاخشيد وباقي الشام لمحمد بن رائق ويحمل اليه الاخشيد عن الرملة ١٤٠٠٠٠ دينار كل سنة . وبعد ان اتم محمد الاخشيد هذه المعاهدة عاد بجيشه الى مصر سنة ٣٢٩ هـ

وفي ٦ ربيع اول من هذه السنة توفي الخليفة الراضي بالله وعمره ٣٢ سنة وشهور ومدة حكمه ست سنوات وعشرة اشهر وعشرة ايام فبويغ اخوه ابو اسحاق ابراهيم الملقب بالمتقي لله



وهذه صورة النقود التي ضربت في عهد الخليفة الراضي بالله سنة ٣٢٨ هـ كما ترى في شكل ٤١

ش ٤١ - نقود الراضي بالله

وفي سنة ٣٣٠ هـ اقر المتقي لله محمد الاخشيد على مصر . ثم اتصل بمحمد الاخشيد ان محمد بن رائق قتله الحمدانيون فنهض لاسترجاع البلاد التي كان اقام بينه وبين ابن رائق المعاهدة عليها فدخل الشام مسرعاً ولم يعد الى مصر حتى استولى على دمشق وما جاورها . وسنة ٣٣١ هـ تأكد محمد الاخشيد ثبوت قوته فأوصى بالحكم من بعده لابنه ابي الفاسم محمود الملقب بانوجور

وفي سنة ٣٣٢ هـ حصل شغب في بغداد وسيبه ان لقب امير الامراء الذي كان يهبه الخليفة لكبار الاتراك اصبحت في نظرهم اشرف من الخلافة فناله توزون وجعل يقاوم

الخليفة في احكامه حتى اضطر الخليفة الى ترك بغداد وهاجر الى الموصل. فاستجار هناك بناصر الدولة وسيف الدولة من بني حمدان واستنصرهما فنصراه وجردا جيشاً قوياً وسارا ومعهما الخليفة الى بغداد فهاجموا توزون فغلبهم وعادوا على اعقابهم الى الموصل نفلح الخليفة على كل من الاميرين الحمدانيين خاتمة الشرف وهي غاية ما كان للخلفاء ان يهبوه في ذلك العهد. ثم سار الخليفة من الموصل الى الرقة فلاقاه كتاب توزون يدعوه للعود الى بغداد. فلما رأى الخليفة ان نصراه من بني حمدان عجزوا عن نجدة لاح له قول مادعاه اليه توزون وقبل ان يهم بذلك جاءه محمد الاخشيد من مصر يدعوه اليها مباه له فرفض فألح عليه الاخشيد وعاهده ان يقوم بكل ما يحتاج الخليفة اليه من النفقات والارزاق بشرط ان لا يعود الى بغداد ويأتي نفسه بين ايدي توزون. فتردد الخليفة بين الامرين. فلما رأى توزون المذكور تمتع الخليفة عن القدوم الى بغداد خشي ان يكون على ثقة ممن ينصره عليه فجاءه بنفسه وتراعى على قدميه وألح عليه ان يتوجه معه الى بغداد زاعماً انه لا يعرف احداً غيره خليفة على المسلمين. فسار معه ولم يكذب يبلغ تلك العاصمة حتى خلعه في ٢٠ صفر سنة ٣٣٣ هـ بعد ان حكم ٤ سنوات و ١١ شهراً وولى مكانه ابا القاسم عبد الله بن المكتفي ولقب بالمستكفي بالله. وفي ٢٢ جمادى الثانية سنة ٣٣٤ هـ عزل المستكفي بعد ان حكم سنة و ٤ اشهر ويومين. فبويع مكانه الفضل ابن المقتدر ولقب بالمطيع لله وتقي هذا على دست الخلافة ٣ سنة وهو آخر من كانت له السيادة على مصر من الخلفاء العباسيين

وهذه صورة النقود التي ضربت على عهد الخليفة المطيع لله سنة ٣٥٣ هـ كما ترى في

شكل ٤٢



ش ٤٢ — نقود الخليفة المطيع لله

اما محمد الاخشيد فلما رأى الخليفة المتقي ميلاً الى مطاوعة توزون في المسير الى بغداد مكث في دمشق بضعة ايام ثم عاد الى مصر. فسار سيف الدولة الى حلب وكان حاكمها يانس المونسي من قبل الاخشيد فخاربه فاستولى عليها. ثم سار متعقبا ابراهيم الأوكلي قائد الجيوش المصرية وغلبه بين سرمين والمعرة واستولى على دمشق وكانت الى ذلك العهد في حكم محمد الاخشيد. فارسل محمد الاخشيد في الحال كافوراً الى الشام وكان من مواليه وله فيه الثقة التامة وارسل معه جيشاً كبيراً وكان كافور عبداً اسود خصياً مثقوب الشفة السقلى بطيناً قبيح القدمين معتل البدن

جلب الى مصر وعمره عشر سنين فما فوقها في سنة ٣١٠ هـ فباعه الذي جلبه لمحمد بن هاشم احد المتقبلين للضياع . فباعه لابن عباس الكاتب واتفق ان ابن عباس الكاتب ارسله يوماً الى الامير ابي بكر محمد بن طغج الاخشيد وهو يومئذ احد قواد تكين امير مصر فأخذ كافوراً ورداً اهدية فترقي عنده بالخدمة حتى صار من اخص خدمه . فلم يكن باسرع من ورود الخبر من دمشق بان سيف الدولة علي بن حمدان اخذها وسار الى الرملة حتى خرج للملاقاة فالتقى الجيشان يوم الجمعة فاعتذر بنو حمدان انهم لا يحاربون في هذا اليوم المبارك فتركوا معسكرهم وساروا يطوفون في الخلاء المجاور فهجم كافور على معسكرهم وسلب مؤنهم ففر سيف الدولة الى حمص فتبعه كافور فسار الى حماه ومنها الى رستو فتبعه كافور وكان سيف الدولة في انتظاره هناك بقدم ثابتة فلما قدم جيش كافور وجد بينه وبين العدو نهر العاصي فاضطر الى عبوره بجيشه فاغتنم سيف الدولة فرصة في غاية المناسبة والعساكر المصرية ساجدة في الماء وهجم عليهم فأخذ منهم خمسة آلاف اسير وجميع امتعتهم وفرّ كافور الى حمص ومنها الى دمشق

فلما بلغ ذلك محمد الاخشيد سار من مصر بجيش كبير حتى اتى الحيرة . فعلم سيف الدولة بمجيء الجيوش المصرية بقيادة الاخشيد فآله الامر ولكنه لم يشأ الفرار فعزم على ان يهاجم العدو مهاجمة اليأس . فارسل خزائنه وعبيده وحرمه الى ما بين النهرين وتقدم بجيشه لمقابلة الاخشيد فالتقيا في قنسرين فقسم محمد الاخشيد جيشه الى فرقتين جعل الرماحة الى الامام وسار هو في عشرة الاف رجل من نخبة الرجال الى الورا . فهاجم سيف الدولة الفرقة الامامية وشتها اما فرقة الاخشيد فكانت راسخة القدم فلم يقدر سيف الدولة على تشتيتها تماماً لكنه استولى على بعض متاعها . فافترق الجيشان ولم تنته الغلبة لاحدهما . وسار سيف الدولة الى منبج فعبر بحيرتها قاصداً ما بين النهرين . فرض في الرقة وكانت جيوش محمد الاخشيد هناك ويفصل الجيشين نهر الفرات وبقياء عدة ايام بدون حرب . ثم اصطالحا على ان تكون حمص وحلب وما بين النهرين لسيف الدولة ومن حدود حمص الى حدود بلاد العرب تبقى لمحمد الاخشيد . وحفروا خندقاً بين جوشنا ولبوه حدّاً فاصلاً بين المقاطعتين حيث لا يوجد لها حدود طبيعية . وتأيداً لهذا الصلح تزوج سيف الدولة ابنة محمد الاخشيد وعاد كل منهما الى بلاده . الا ان المصالحة المذكورة لم تلبث حتى نقضت وحصل بين الاخشيد وبني حمدان مواقع آلت الى استرجاع حلب للاخشيد

وفي سنة ٣٣٤ هـ توفي محمد الاخشيد في دمشق في ذي الحجة وعمره ستون سنة ومدة حكمه ١١ سنة و٣ اشهر ويومان ودفن في القدس الشريف . وكان ممتازاً بصفات حميدة اخصها البسالة والتدبير في الحرب فكان ملكاً حازماً شجاعاً كثير التيقظ في حروبه ومصالح دولته حسن التدبير مكرماً للجند شديد العضل لا يكاد يحجر غيره قوسه . وكان له ثمانية آلاف مملوك يحرسه في كل ليلة الفان منهم ويوكل بجانب خيمته الخدم اذا سافر ثم لا يثق حتى يمضي الى خيم الفراشين . وكان لا ينأى لياتين متواليين في مكان واحد فلم يكن احد يعلم بمكان نومه . على ان المؤرخين لم يطلعونا على شيء صريح عن حدود مملكته باختلاف الازمان وان قالوا انها نحو المملكة الطولونية في زمانها اي انها تشمل مصر وفلسطين وسوريا الى الفرات وقسماً كبيراً من بلاد العرب . وقد شكى المسيحيون من جوره . فكان اذا جرد حملة واحتاج لاعانة اخذها منهم ولو باعوا اثاث بيوتهم او كنائسهم في سبيل ذلك . وقال احد المؤرخين المعاصرين ان محمد الاخشيد كان يرد لهم ما يأخذونه في سبيل الاعانة . ومما يبرئ ساحة الاخشيد انه ظفر بمخبأة في بعض الآثار القديمة اصاب فيها اشياء تساوي مبالغ وافرة فلم يكن والحالة هذه في حاجة الى سلب مال الاهلين



وهذه صورة النقود التي ضربت في عهد محمد الاخشيد سنة ٣٣٢ هـ كما ترى في الشكل ٤٣

ش ٤٣ — نقود محمد الاخشيد

انوجور بن الاخشيد

من ٣٣٤ - ٣٤٩ هـ او من ٩٤٦ - ٩٦١ م

وتولى بعد محمد الاخشيد ابنه ابو القسم محمد الملقب بانوجور . وكان صغير السن ضعيف الرأي فعهد بتدبير الاحكام الى كافور وزير ابيه . وكان كافور يعمل لابي القسم بامانة ونشاط يستوجب عاينها المدح . فعزل ابا بكر محمداً جاني الخراج لتعدد الشكايات وزبوتها عاينه واقام مقامه رجلاً من ماردن يقال له محمد كان عفيفاً مستقيماً . فعلم سيف الدولة بوفاة محمد الاخشيد وسفر ابنه الى مصر فشنخس هو الى دمشق

واستولى عليها . واسرع كافور بجيش عظيم فلاقى سيف الدولة في الرملة قادماً من دمشق والتحم الفريقان فانهزم سيف الدولة الى الرقة واستولى كافور على دمشق قبل ان يستقر سيف الدولة فيها

وفي سنة ٣٤٥ هـ اغار ملك النوبة على مصر حتى اتى اصوان فارسل كافور جيشاً تحت قيادة محمد بن عبد الله الخازن عن طريق البر وانفذ عمارة بحرية في النيل وفرقة سارت في البحر الاحمر فنزلت على سواحله ومنها الى ما وراء النوبة لتسد على النوبيين السبيل . فتضايق النوبيون وفروا يطلبون النجاة تاركين حصنهم في ابريم (على ١٥٠ ميلاً وراء اصوان) في ايدي المعريين

وفي ذي القعدة سنة ٣٤٩ هـ توفي انوجور بن محمد الاخشيد بعد ان حكم ١٤ سنة وعشرة ايام وولي مكانه اخوه علي الملقب بابي الحسن

ابو الحسن علي بن الاخشيد

من ٣٤٩ — ٣٥٥ هـ او من ٩٦١ — ٩٦٦ م

وحكم ابو الحسن علي مصر خمس سنين وشهرين ويومين وكان كافور مع علي كما كان مع اخيه انوجور . وفي سنة ٣٥١ هـ لم يرتفع ماء النيل الارتفاع اللازم للري . وكان في السنة التالية اقل ارتفاعاً ثم هبط بغتة والارض لم ترتو فحصل في مصر جوع شديد تعاقب القحط بعده ٩ سنوات رافقه اضطراب آل الى الانشقاق بين ابي الحسن وكافور

وفي اثناء هذه الاضطرابات الداخلية في سنة ٣٥٤ هـ قدم روم القسطنطينية تحت قيادة الامبراطور نيسوفورس فوكاس الى سوريا ودخلوها بجيش جرار فاستولوا حلب وكانت لا تزال الى ذلك الحين في حوزة بني حمدان والتقوا بسيف الدولة فخاربوه فتجند صاحب دمشق تحت رعاية الاخشيديين واسرع لمساعدة بني حمدان بعشرة آلاف رجل وعلم نيسوفورس بمجيء هذا المدد فاخترار الرجوع

كافور الاخشيدي

من ٣٥٥ — ٣٥٧ هـ او من ٩٦٦ — ٩٦٨ م

وفي محرم سنة ٣٥٥ هـ توفي ابو الحسن علي بن خلفه كافور وتلقب بالاخشيدي وطاب من الخليفة المطيع لله ان يثبتته في مصر ففعل . وهكذا عادت ساطة العباسيين الى مصر . وكان يدعى لكافور على المنابر بمكة والحجاز جميعه والديار المصرية وبلاد الشام من دمشق وحلب وانطاكية وطرسوس وغيرها وبقي كافور في منصبه هذا سنتين وعاش شهر . وكان الفاطميون قد استولوا على الفيوم والاسكندرية كما تقدم فاخذوا في مد ساطتهم رويداً رويداً الى سائر الصعيد . وتوفي كافور في ١٠ جمادى الاولى سنة ٣٥٧ هـ ودفن في القرافة الصغرى . وقبته معروفة هناك

احمد ابو الفوارس بن علي

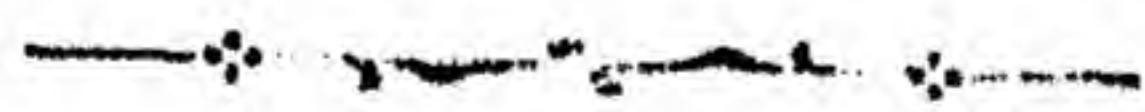
من ٣٥٧ — ٣٥٨ هـ او من ٩٦٨ — ٩٦٩ م

نخلف كافوراً احمد ابو الفوارس بن ابي الحسن علي بن محمد الاخشيد ولم يكن لابي الفوارس من العمر اكثر من احدى عشرة سنة فلم يثبتته الخليفة في الحكم . اما سوريا وغيرها من البلاد الخاضعة للاخشيديين فبايعت حسيناً الاخشيدي الا انه ما لبث ان استتب له المقام حتى جاءه القرامطة واخذوا البلاد من يده ففر الى مصر قاصداً اغتيالها من احمد ابي الفوارس

ولما انقسمت العائلة الاخشيدية على نفسها قرب حين انقراضها شأن الممالك والدول . فلما رأى رجال الدولة ما حصل من الانقسام بين اعضاء الاسرة الحاكمة ملوا الانتظار فساروا يستنجدون الفاطميين وكانوا قد تملكوا قسماً عظيماً من مصر فابوا الدعوة ففر حسين الى سوريا واستولى على دمشق . واما احمد ابو الفوارس فعزل من مركزه وهو آخر من تولى مصر من الدولة الاخشيدية وبعزله انتهت ايام هذه الدولة ولم يدم حكمها اكثر من ٣٤ سنة و ٢٤ يوماً

الدولة الفاطمية

من سنة ٣٥٨ ٥٦٧ هـ أو من ٩٦٩ - ١١٧١ م



خلافة المعز لدين الله

من سنة ٣٥٨ ٣٦٥ هـ أو من ٩٦٩ - ٩٧٥ م

وكانت الدولة الفاطمية إذ ذاك في خلافة معد أي تميم الملقب بالمعز لدين الله بن القائم بأمر الله وقاعدتها المهدية وساطتها منتشرة على إفريقية (يراد بها شمالي إفريقية من برقة إلى مراكش) ومالطة وسردينيا وصقلية وأكثر جزائر البحر المتوسط . وما فتئ هذا الخليفة منذ جلوسه على دست الخلافة يمد سطوته في القطر المصري وقد حاول افتتاحه غير مرة ولم يفلح . حتى إذا كان الخلاف بين أبي الحسن علي وكافور تقدم . فاما تولى كافور على هذه الديار بنفسه توقف المعز قليلا . وعند نهاية حكم كافور جرد جيشاً أرسله تحت قيادة جوهر

وجوهر هذا مملوك رومي رباه المعز لدين الله وكناه بأبي الحسن وعظم محله عنده . وفي سنة ٣٦٢ هـ صار في رتبة الوزارة فصير قائداً للجيوش وبعثه في صفر منها في جيش إلى تاهرت فوقع في عدة اقوام وافتتح مدناً وسار إلى فاس فنازلها مدة ولم يأخذ منها شيئاً فرحل إلى سجلماسة ومنها إلى أن بلغ البحر المحيط (الأتلانتيكي) واصطاد منه سمكاً وجعله في قلة ماء وبعث به إلى مولد المعز وأعلمه أنه قد استولى على كل ما مر به من البلدان والامم حتى انتهى إلى البحر المحيط . ثم عاد إلى فاس وألح عليها بالقتال حتى افتتحها عنوة . ثم عاد في أخريات هذه السنة وقد عظم شأنه وبعد بيته

ولما قوي المعز عزم على تسيير الجيوش لاختد مصر وقد تهيأ أمرها . فقدم القائد جوهر فبرز الى رمادة ومعه ما ينيف على مائة الف فارس وبين يديه اكثر من الف صندوق من المال وكان المعز يخرج اليه كل يوم ويخلو به ويتداول معه سرّاً واطلق يده في بيوت امواله فاخذ منها ما يريد زيادة على ما حمله معه . ويحكى ان المعز خرج يوماً فقام جوهر بين يديه وقد اجتمع الجيش فالتفت المعز الى المشايخ الذين وجههم مع جوهر وقال « والله لو خرج جوهر هذا وحده افتتح مصر ولتدخلن مصر بالاردية من غير حرب ولتتزان في خرابات ابن طولون وتبني مدينة تسمى القاهرة تقهر الدنيا » وامر المعز بافراغ الذهب في هيئة الارحية وحملها مع جوهر على الجمال ظاهرة للعيان وهو راكب وكتب الى سائر عماله يأمرهم اذا قدم عليهم جوهر ان يترجلوا مشاة في خدمته . فلما قدم برقة افتدى صاحبها ترجمه ومشيه في ركابه بخمسين الف دينار ذهباً فابى جوهر الا ان يمشي في ركابه ورد المال فشى

ولما رحل من القيروان الى مصر في ١٤ ربيع اول سنة ٣٥٨ هـ ودعه اهله . ومما قاله محمد بن داني بهذا الشأن قوله :

رأيت بعيني فوق ما كنت اسمع وقد راعني يوم من الحشر اروع
غداة كانت الافق سدة بمشاه فعاد غروب الشمس من حيث تطاع
فلم ادر اذ ودعت كيف اودع ولم ادر اذ شيعت كيف اشيع
ومنها قوله :

اذا حلّ في ارض بناها مدائنأ وان سار عن ارض غدت وهي بلقع
تحلّ بيوت العز حيث محلة وجم العطايا والرواق المرفع
رحلت الى الفسطاط اول رحلة بايّن قال بالذي انت تجمع
فان يك في مصر ظمأ لمورد فقد جاءهم نيل سوى النيل يهرع
فما زال جوهر في طريقه الى مصر برّاً حتى دخلها وسار نحو الصعيد واسرع جنوباً يريد هجمات ملك النوبة الذي كان نازلاً نحو مصر ولم يدركه جيش جوهر حتى بلغ اصوان وقد نهبها وذبح اهائها واستعبد من بقي حياً وعاد الى بلاده . أما جوهر فكان قد تملك الصعيد كله .

ولما توفي كافور ووقع الخلاف بين ابي الفوارس وحسين كان جوهر على حدود الفسطاط فاتاه الاهاون والامراء ومعهم الوزير جعفر وجماعة من الاعيان الى الجيزة

في يوم الثلاثاء ١٢ شعبان سنة ٣٥٨ هـ والتقوا بالقائد ونادى مناد فزل الناس كلهم الا الشريف والوزير فترجلوا وساموا عليه واحداً فواحداً والوزير عن شماله والشريف عن يمينه . ولما فرغوا من السلام ابتدأوا في دخول البلد من زوال الشمس وعليهم السلاح والعدد . ودخل جوهر بعد العصر وطبولة وبنوده بين يديه وعليه ثوب ديباج مثقل وتحتة فرس اصفر ونزل في ماهو موضع القاهرة اليوم . ثم نزل الى الفسطاط بمن معه وخطب في جامع عمرو باسم المعز لدين الله وازال الشعار الاسود العباسي والبس الخطباء الثياب البيض فبايعه الناس . وبعد يسير اصبحت جميع البلاد المصرية خاضعة للدولة الفاطمية بدون مقاومة فكتب لمولاه المعز بما اتاه الله من الفتح وفي يوم الجمعة الثامن من ذي القعدة امر جوهر ان يزداد عقيب الخطبة « اللهم صل على محمد المصطفى وعلى علي المرتضى وعلى فاطمة البتول وعلى الحسن والحسين سبطي الرسول الذين اذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً . اللهم وصل على الائمة الطاهرين ابناء المؤمنين » وفي ايامه صار يذكر بالآذان حي على خير العمل

فساد الاحكام في الدولة العباسية

وكانت الدولة العباسية لا تزال في قبضة المطيع لله وقد فسدت الامور وذهب نفوذ الخليفة واصبح النفوذ ضائعاً بين الوزراء والقواد وكلاهما لا يرجون من وراء عنايتهم وجهدهم منفعة لانفسهم غير ما يكتسبونه من المال في اثناء نفوذ كلمتهم فاصبح الغرض الاول من تمشية الاحكام انما هو حشد المال . فالوزير الذي يتولى امور الدولة ولا يدري ما يكون مصيره بعد عام او عامين من عزل او قتل او حبس لا يهمه غير الكسب من اي طريق كان ولا يبالي بما قد يترتب على ذلك فيما بعد عملاً بالفاعدة التي وضعها ابن الفرات كبير وزراء ذلك العصر وهي قوله « ان تمشية امور السلطان على الخطأ خير من وقوفها على الصواب » وانتبه الخلفاء الى مطالبهم فاصبحوا اذا عزلوا وزيراً صادروه واخذوا امواله . ثم عمت المصادرة سائر رجال الحكومة حتى الرعية . واصبحت بتوالي الايام المصدر الرئيسي لتحصيل المال . فالعامل يصادر الرعية والوزير يصادر العمال والخليفة يصادر الوزراء ويصادر الناس على اختلاف طبقاتهم حتى انشأوا المصادرة ديواناً خاصاً مثل سائر دواوين الحكومة فكان المال يتداول بالمصادرة كما يتداول بالمتاجرة

فلما فسدت الاحكام على هذه الصورة واستبد الوزراء والقواد اراد العمال في الولايات ان يجتزئوا من ذلك في ولاياتهم فاخذوا يستقلون فتشعبت المماكة العباسية

الى ممالك يحكمها الامراء من الفرس والأتراك والاكراد والعرب وغيرهم . ومنها ما جاءها للتغلب من الخارج ففتحها كما اصاب مصر لما فتحها الفاطميون . وقد فصلنا ذلك في الجزء الرابع من تاريخ التمدن الاسلامي

فلم يأل القائد جوهر جهداً في تثبيت قدم هذه الدولة في الديار المصرية وقد اخذ على عاتقه صلاتها وخراجها وكان قد هجرها النظام منذ داخل بهما الفساد وساد فيهما الخصاص الناتج عن زيادة الضرائب وسوء الاحكام . فاخذ في تخفيض الضرائب وحفر الترعة فارتوت الارض فزادت غلتها فشبع الزارع وربح التاجر فاستتب النظام وساد الامن وبلغ خراج مصر في السنة التي دخلها فيها جوهر ٣ ٤٠٠ ٠٠٠

فلما رأى جوهر مناعة الديار المصرية ووفرة عزها لم يقنع لها بالفسطاط عاصمة فشرع ببناء مدينة جديدة جعلها قاعدة القطر المصري دعاها بالقاهرة . وكان تشييد المدن سنة عمومية في ملوك الاسلام اذ ذاك فكانوا يبتنون المدن وينقلون اليها عظمتهم والغالب ان يكون سبب بنائها ان يجعلوها حصناً لهم تقيم فيه رجالهم وجندهم ثم يبنى حولها الناس . فقد كانت قاعدة المملكة المصرية في عهد الفراعنة منف ثم ابدلت بطيبة ثم بغيرها فغيرها الى عهد اليونان فاستبدلت بالاسكندرية . ولما جاء المسلمون ابتنوا الفسطاط . حتى اذا كانت الدولة الطولونية استبدلت الفسطاط على نوع ما بالعسكر والقطائع الى ان جاء جوهر القائد فرغب في تخليد ذكره وذكر مولاة فعمد الى بناء عاصمة الفاطميين ليفاخر بها بغداد عاصمة العباسيين

بناء القاهرة المعزية

ففي سنة ٣٥٩ هـ شرع جوهر ببناء القاهرة فاخترت بقعة من الارض حيث اتاخ جماله يوم جاء افتتح الفسطاط فانه نزل الى شاليها بين الجبل والخليج وكانت هذه البقعة رملاً ولما نزل فيها جوهر لم يكن فيها الا بساتين قليلة منها بستان كافور الاخشيدي شرقي الخليج وميدان الاخشيدي ودير للنصارى كان يدعى دير العظام فيه بئر تعرف ببئر الجامع الاقر وتسميها العانة بئر العظيمة . وكان في تلك البقعة موضع يعرف بقصر الشوك ثم عرف بعد بناء القاهرة بقصر الشوك . فامر جوهر ببناء القاهرة في ذلك المكان وابتنى فيها قصرين احدهما اكبر من الآخر عرفا بالقصر الكبير والقصر الصغير جعلها لاقامة المعز عند قدومه الى مصر . مكانهما الآن محل المحكمة الشرعية المعروف بيت القاضي يتصل اليه من شارع النحاسين

ففي نحو ثلاث سنوات تم بناء القاهرة (في اواخر سنة ٣٦١ هـ) وقد بني حولها السور وفيه الابواب ولم يزل بعض اثارها باقياً الى هذا العهد . فبعث جوهر الى مولاه المعز بذلك فترك المنصورية التي بناها ابوه وسار قادماً الى عاصمته الجديدة مستخلفاً على افريقية وزيره يوسف بن زيري فركب في عمارة بحرية الى جزيرة سردينيا ومنها الى صقلية قضى فيها بضعة اشهر يتفقد احوالها ثم سار منها الى طرابلس الغرب فالاسكندرية فالقاهرة فوصلها في شعبان سنة ٣٦٢ هـ وكان دخوله اليها باحتفال عظيم من باب زويلة يصحبه يعقوب بن يوسف بن كلثوم . وكان ازويلة باباً متلاصقاً بجوار زاوية سام بن نوح المجاورة لسبيل العقادين بجوار الخرنفش . فدخل المعز من الباب الملاصق ولم يبق له اثر الا ان فتيامن الناس به وهجروا الباب الاخر حتى جرى على اللسان ان من مر به لا تقضى له حاجة

تاريخ القاهرة المعزية

كانت عاصمة الديار المصرية يومئذ مدينة الفسطاط (بين القاهرة ومصر القديمة الآن) فلما جاء جوهر بجنده سنة ٣٥٧ هـ نزل شمالها في البقعة التي تقدم ذكرها وفيها اليوم الجامع الازهر وبيت القاضي وشارع النحاسين وخان الخليلي وما جاورها من المنازل والاسواق بين المقطم والخليج الذي ردموه اليوم واجروا فوقه قطر الترموي بين جنوبي القاهرة وشمالها

وكانت تلك البقعة ١١ عسكر فيها جوهر رملاً يمر بها المسافرين من الفسطاط الى المطرية . فلما فتح جوهر الفسطاط بنى القاهرة في تلك البقعة وسماها القاهرة المعزية نسبة الى مولاه . وكانت مربعة الشكل تقريباً يحدها من الشرق الجبل ومن الغرب الخليج وطول هذا الحد ١٢٠٠ متر يسير فيه السور بموازة الخليج وعلى بعد ٣٠ متراً منه نحو الشرق . ومن الشمال خط يمتد من الخليج قرب باب الشعرية الآن على موازاة سكة مرجوش الى الجبل وطوله ١١٠٠ متر . ومن الجنوب خط نحو هذا الطول يبدأ بباب الخلق عند التقاء الخليج بشارع محمد علي الآن قرب محافظة مصر ويسير شرقاً الى الجبل . ومساحة هذه المدينة بين هذه الحدود ٣٤٠ فداناً او ١٤٢٨٠٠٠ متر مربع بنى فيها قصراً سماه القصر الكبير الشرقي شغل خمس هذه المساحة وشغل ما بقي بالجامع الازهر والقصر الغربي ومسكن الجند والاسطبلات ونحوها . وقد دللنا على مكانها في الخارطة ببقعة بيضاء . وظلت الاسواق واماكن

البيع والشراء ومساكن الاهالي في مدينة الفسطاط . اما الارض خارج المدينة حيث الآن الفجالة والظاهر والمهمشة والعباسية والازبكية والتوفيقية والاسماعيلية وبولاق فكان اكثرها بساتين ومزارع وبركاً

ولم تنسع القاهرة في اثناء مدة الفاطميين الا قليلاً فصارت مساحتها على عهد امير الجيوش في اواخر القرن الخامس للهجرة ١٦٨٠٠٠٠ متر. حتى اذا دالت هذه الدولة ودخلت مصر في حوزة الايوبيين وتملكها السلطان صلاح الدين سنة ٥٦٧ هـ اباح للناس سكنى القاهرة وبنى القلعة في سفح المقطم له ولجندته يعتصم بها من اعدائه لانه كان يخاف الشيعة الفاطمية على ملكه . فا قدم الناس على بناء المنازل جنوباً خارج القاهرة بينها وبين الفسطاط وغرباً بينها وبين النيل وامر ببناء سور كبير يحيط بها وبالقلعة وبالفسطاط جميعاً اكمله من جاء بعده فبلغ طوله نحو ٢٤٠٠٠ متر في شكل كثير الاضلاع وبلغت مساحة القاهرة ضمنه ١٩٤٨ فداناً او ٨١٦١٦٠٠ متر مربع

وتولى بعد الايوبيين السلاطين المماليك وتغير شكل القاهرة في ايامهم ثم نقصت مساحتها واستنزف عمرانها في ايام الامراء المماليك ولكنها عادت في زمن الاسرة الحمدية العلوية الى النهوض فبلغت مساحتها في اواخر ايام محمد علي باشا ٩٠٠٠٠٠٠ متر مربع وحدودها من الشرق الجبل المقطم ومن الغرب شارع باب الحديد وشارع عابدين بخط منحرف نحو باب اللوق ثم يعود الخط شرقاً الى قرب عابدين ويسير جنوباً حتى يقطع الخايج قرب باب غيط العدة ومن هناك الى باب السيدة زينب . وكان يحدها من الشمال شارع الفجالة وما بعده شرقاً الى باب الشعرية فباب النصر وباب الفتوح الى الجبل . ويحدها من الجنوب خط ممتد من باب السيدة زينب فباب طولون الى باب القرافة وقد دللنا على مكانها في الخارطة بخطوط متقاطعة والقاهرة المعزية في داخلها

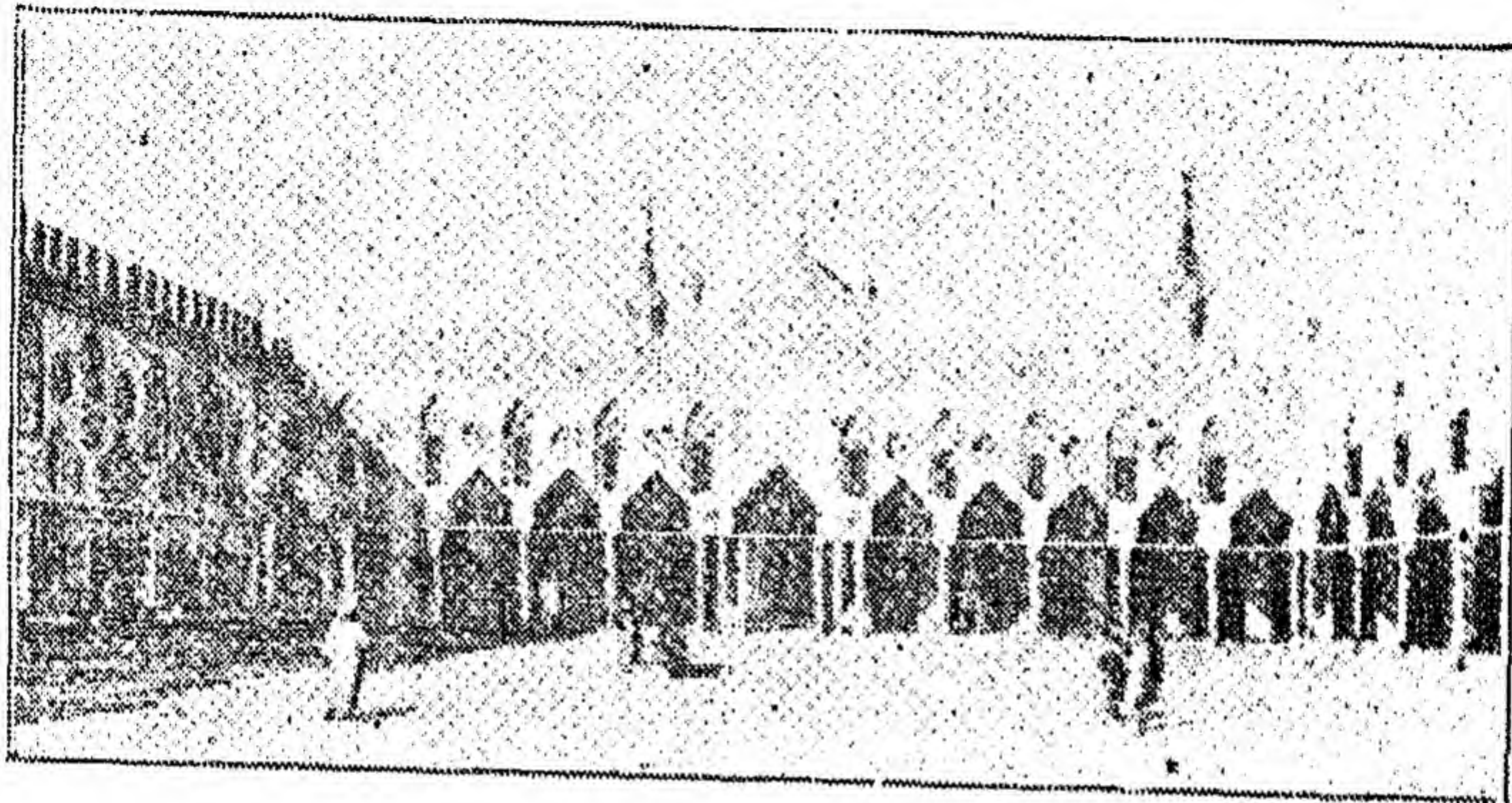
واتسعت مساحتها في عهد الخديويين بعد محمد علي حتى صارت سنة ١٨٨٠ قبيل الحوادث العربية ١٢١٨٠٠٠٠ متر . واسرعت في الاتساع بعد الاحتلال الانكليزي حتى صارت مساحتها الآن اكثر من ستة اضعافها قبله واكثر من خمسين ضعفها لما بناها القائد جوهر بما دخل في حدودها من الضواحي العامرة عام بعد عام

دخول المعز قصره

وفي يوم الثلاثاء ٥ رمضان سنة ٣٦٢ هـ دخل المعز لدين الله قصره بالقاهرة وعند دخوله خرّ ساجداً ثم صلى ركعتين وصلى بصلاته كل من دخل معه واستقر في قصره باولاده وحشمه وخواص عبيده والقصر يومئذ بهجة وكله تحف ومثمنات وبعد ذلك

باسبوع اذن بدخول من يريد مقابلته للتهنئة وجلس في الايوان فدخل اولاً الاشراف ثم اذن بعدهم للاولياء وسائر وجوه الناس وكان القائد جوهر قائماً بين يديه يقدم الناس قوماً بعد قوم . وبعد وصوله يسير امر ببناء تربة في القصر الكبير دفن فيها اجداده الذين استحضروهم معه بتوايت من بلاد المغرب . وصارت بعد ذلك مدفناً يدفن فيه الخلفاء واولادهم ونسائهم وكانت تعرف بتربة الزعفران وكان موقعها حيث خان الخليلي الآن . فلما نشأ الامير جهار كس الخليلي خانه اخرج ماشاء من عظامهم فألقيت على المزابل

وفي سنة وصوله عهد ليعقوب بن يوسف بن كلس بخراج مصر وجميع وجوه الاموال والحسبة والاعشار وجميع ما يضاف الى ذلك في سائر الاعمال . ويعقوب هذا كان يهودياً جاء مصر وتقلد بعض مصالحها في ايام كافور الاخشيدى واسلم طمعاً بالدنيا فاحبه كافور ورقاه . واشترك مع يعقوب في امر الخراج عسلوج بن الحسن وكتب المعز لهما سجلاً بذلك فجلسا في دار الامارة في جامع ابن طولون للنداء على الضياع وسائر وجوه الاموال وحضر الناس للقبالات (الاتزام) وطالبا بالبقايا من الاموال على المتقبلين والمالكين والعمال واستقصيا بالطلب ونظرا في المظالم فتوفرت الاموال وزيد في الضياع وتزايد الناس وتكاثفوا وحسنت الاحوال وكثر ضرب النقود الى حد يفوق التصديق



الجامع الازهر من داخله

ثم ابني جوهر جامعاً دعاه الجامع الازهر وهو اقدم جوامع القاهرة الا جامع ابن طولون واكثرها اتساعاً ولذلك لقب بالجامع الكبير . واقام جوهر في الجامع المذكور بامر الملك العزيز الاتي ذكره مكتبة نفيسة ومدرسة ذاع صيتها في الافاق وكان

القصـد الرئيسـي من بناء هذا الجامع اقامة الشعائر الدينية وتأييد مذهب الشيعة العلوية لاختلاط السياسة بالدين في الدولة الاسلامية من ذلك العهد . وكانت هذه الشيعة قد قاست الامرين تحت سلطة العباسيين من قتل ونفي . فلما تأتى لها تغلبها على مصر جعلتها عاصمة دوائرها وانشأت القاهرة معقلاً لجندها والجامع الازهر لتأييد مذهبها لان العامة لا تحكم بمثل الدين . وكان المصريون يؤمنون على مذهب الامام الشافعي لان هذا الامام قضى اخريات ايامه بمصر ومات فيها وقبره معروف في ضواحي القاهرة . وكان الفاطميون يعترفون بهذا المذهب ايضاً واما العباسيون فكانوا على مذهب ابي حنيفة . فتوافق الفاطميون والمصريون في المذهب فهاتفوا على الفاتحين تأييد سلطانهم وتوسيع دائرة نفوذهم فغربوا الفقهاء والعلماء واستقدموهم من سائر اقطار العالم الاسلامي واجروا عليهم الارزاق وفرقوا فيهم الاموال . وكانت مجالسهم تعقد في الازهر على عادة الفقهاء في ذلك العهد فتزاحمت فيه الاقدام وكانوا كلما ضاق بهم وسعوه بابنية ينشئونها بجانبه ويوسعون دورها حتى أصبحت سعته الان نحو ١٢٠٠٠ متر مربع . وكانت اقل من نصف ذلك . وتضاعفت اساطينه مراراً وكان عددها يوم بني ٧٦ اسطوانة متفرقة في اجزائه . وصارت ابوابه تسعة

وكانت اعطية الخليفة للفقهاء في اول الامر على غير قياس او ميقات . فلما افضت الخلافة الى العزيز بالله ثاني الخلفاء الفاطميين سنة ٣٦٥ هـ امر وزيره يعقوب بن كلس ان يرتب للفقهاء ارزاقاً معينة وان يبني لهم منازل يقيمون فيها بجانب الجامع . وكانوا يأتون المسجد في بادئ الرأي لصلاة الجمعة وقراءة الفقه على مذهب الشيعة والوعظ والمباحثة فتدرجوا من القراءة الى التعليم حتى أصبح الجامع مدرسة كبرى اكثر دخلها مما وقفه لها الخلفاء والامراء ويقدر دخله السنوي اليوم بعشرين الف جنيه

علوم الازهر وبنائه

ظل الازهر مدرسة شيعية طول خلافة الفاطميين (نحو مئتي سنة) حتى غلبهم صلاح الدين الايوبي على مصر سنة ٥٦٧ هـ وكان سني المذهب وليس له بدئ من مبايعة خائفة يثبته في منصبه فبايع الخليفة العباسي في بغداد وخطب له في الجامع الازهر . وكان صلاح الدين على مذهب الامام الشافعي فلم يضطر لتبديل كثير من طرق التعليم وقبل الناس سلطته على اهون سبيل . على انه لم ير مندوحة عن مراعاة مذهب الخلفاء العباسيين وهو مذهب ابي حنيفة وراى بحكمته وسداد رايه ان يكتسب ولاء سائر المسلمين فاجاز تعليم المذاهب الاربعة كل مذهب يحضره اهله . قال ذلك الى اتساع

شهرة هذه المدرسة وتقاطر اليها الطلاب من اربعة اقطار المسكونة . ولم يبق التعليم قاصراً فيها على الفقه وعلوم الدين واللغة ولكنه تناول شيئاً من الرياضيات والنجوم وبعض العلوم الطبيعية

وما زال ذلك شأنها في ايام السلاطين الايوبيين ومماليكهم حتى جاء السلطان سليم العثماني وفتح مصر في اوائل القرن العاشر للهجرة . ثم استبد الامراء المماليك في الحكومة واشتغل الناس عن العلم . وكان العنصر العربي قد ضعف شأنه في سائر المملكة الاسلامية الا في مصر لان مدرسة الازهر كانت اكبر وسيلة لاستبقاء اللغة العربية لتعليم العلوم الدينية واللسانية لكنها اقتصرت يومئذ على هذه العلوم واهملت سواها من الطبيعيات والرياضيات

على ان فضل الازهر في احياء اللغة العربية لم يكن قاصراً على نشرها في الديار المصرية او ما جاورها من البلاد العربية لكنه شمل سائر البلاد الاسلامية . فقد كانوا يفدون على مدرسته من بلاد الترك والمغرب والشركس واليمن وزنجبار والهند وافغانستان وغيرها . وقد رغب الناس فيه لانه كان يعلم الطلبة مجاناً يقوم بنفقاتهم من الطعام واللباس والمأوى فضلاً عن امتيازهم بمهارة الاساتذة . فكان اعظم العلماء المسلمين في الاجيال الاسلامية الوسطى ينبغون من مدرسة الازهر . وكان للمتخرج في هذه المدرسة مزية وفضل على المتخرجين في سائر المدارس الاسلامية وطلابه الان يتجاوزن عشرة الاف طالب

وقد زاد في بناء الجامع الازهر وغير فيه كثير من الملوك والامراء الذين تولوا مصر بعد المعز . وعلى الخصوص الملك الظاهر بيبرس وقيت باي والغوري من سلاطين المماليك . والسيد محمد باشا من ولاية الدولة العثمانية واسماعيل بك وعبد الرحمن كخيا من امراء المماليك . وعبد الرحمن كخيا المذكور جدد فيه اشياء كثيرة وجعل فيه مدفناً له دفن فيه . واخيراً سعيد باشا بن محمد علي باشا سنة ١٢٧٢ هـ . ولذلك يكاد لا يوجد فيه شيء من الجدران والاعمدة التي وضعها جوهر القائد

نسب الفاطميين

فلما رسخت قدم الفاطميين بمصر اصبحت المملكة الاسلامية في الشرق يتنازعها خليفتان المعز لدين الله الفاطمي في مصر والمطيع لله العباسي في بغداد وكل منهما يجتهد في اثبات الخلافة العامة له وحرمان الاخر منها . ودعوى المعز بالاسبقية مبنية على انتسابه لفاطمة بنت النبي . وقد اختلف النسابون في حقيقة دعواه على انه قلما كان

يعتمد على شرف الحسب والنسب . ومما يحكى عنه انه لما كان قادماً الى القاهرة وخرج الناس للقاءه اجتمع به اناس من الاشراف وفيهم عبد الله بن طباطبا المشهور فتقدم الى الخليفة المعز وقال له « الى من ينتسب مولانا » . فقال له « سنعقد مجلساً نجمعكم فيه ونسرد عليكم نسبنا »

والا استقر المعز في القصر جمع الناس في مجلس عام وجلس بهم وقال « هل بقي من رؤسائكم احد » قالوا « لم يبق معتبر » فسل نصف سيفه وقال « هذا لسبي » ونثر عليهم ذهباً كثيراً وقال « هذا حسبي » فقالوا جميعاً سمعنا واطعنا ولم يسكن المعز لدين الله قصره طويلاً فتوفي بعد ثلاث سنوات من حكمه بمصر (الجمعة في ١١ ربيع آخر سنة ٣٦٥ هـ) وسنه ٤٥ سنة ومدة حكمه جميعها ٢٤ سنة معظمها في المغرب . وكان عاقلاً حازماً اديباً حسن النظر محباً للنجامة شاعراً وينسب اليه من الشعر قوله :

لله ما صنعت بنا تلك المهاجر بالمعاجر
امضى واقضى في النفوس من الخناجر في الخناجر
ولقد تعبت بينكم تعب المهاجر في الهواجر
وينسب اليه ايضاً :

اطلع الحسن من جبينك شمساً فوق ورد في وجنتيك اظلاً
وكأن الجمال خاف على الورود جفافاً فد بالشعر ظلاً



وترى في الشكل الرابع والاربعين
صورة نقود المعز مضروبة بعد دخوله القاهرة
بسنة واحدة

ش ٤٤ — نقود المعز لدين الله



خلافة العزيز بن المعز

من ٣٦٥ — ٣٨٦ هـ أو من ٩٧٥ — ٩٩٦ م

فلما توفي المعز بويع ابنه نزار بن معبد ابو منصور الملقب بالعزيز بالله ويدعوه بعضهم العزيز بدين الله ومولده المهدي في افريقية واتسعت المملكة في ايامه حتى اتصت بمكة . ولم يكن سن العزيز عند مبايعته الا ٢١ سنة فترك ازمة الجند لجوهر . وفوض ليعقوب بن كلس النظر في سائر الامور وجعله وزيراً له في رمضان سنة ٣٦٨ هـ . وفي محرم سنة ٣٧٣ هـ امر العزيز ان تكون جميع المكاتبات الرسمية باسم يعقوب وان تمضي الاوامر باسمه واهداه كثيراً من الغلمان والاموال . فرتب يعقوب الدواوين فجعل ديواناً للجيش وآخر للاموال وآخر للخراج وآخر للسجلات والانشاء وآخر للمستغلات وجعل في كل منها كتاباً ورؤساء كتاب . وكان يجلس في مجلسه الادباء والشعراء والفقهاء وارباب الصنائع وخصص لكل منهم الارزاق والنف كتباً في الفقه والقراءات وكان يجلس في كل جمعة يقرأ مصنفاته على الناس بنفسه . وكان له مجلس في داره للنظر في رقاع المرافعين والمتظلمين ويوقع بيده في الرقاع ويخاطب الخصوم بنفسه . وتوفي الوزير يعقوب في ٥ ذي الحجة سنة ٣٨٠ هـ وهو اول وزراء الدولة الفاطمية بمصر

وتزوج العزيز بالله امرأة مسيحية من الطائفة الملكية وكان يحبها كثيراً فاكتملت نفوذاً عليه فكان يراعي ابناء طائفتها ويرفق بهم اكراماً لها حتى اتخذ طبيبه الخاص منهم واسمه منصور بن مقشر وكان يحترمه فاعتل الطبيب يوماً عن الركوب فلما تماثل كتب اليه الخليفة العزيز بخط يده « بسم الله الرحمن الرحيم . على طيبننا سلمه الله سلام الله الطيب وآتم النعمة عليه . وصات اليها البشارة بما وهبه الله من عافية الطيب وبرئه والله العظيم لقد عدل عندنا ما رزقناه نحن من الصحة في جسمنا . اقلك الله العثرة واعادك الى افضل ما عودك من صحة الجسم وطيبة النفس وخفض العيش بحوله وقوته »

هفتكين الشراي

وقدم الى الشام في ايام العزيز هفتكين الشراي من بغداد لغزو دمشق . وهفتكين هذا يقال له الفتكين ابو منصور التركي الشراي غلام معز الدولة احمد بن بويه رقي الخدم حتى غلب في بغداد على عز الدولة مختار بن معز الدولة وكان فيه شجاعة وثبات

في الحرب ، فلما سارت الاتراك من بغداد لحرب الديلم جرى بينهم قتال عظيم اشتهر فيه هفتكين . الا ان اصحابه انهزموا عنه وصار في طائفة قليلة فصار بمن معه من الاتراك وهم نحو الاربعمائة الى ان قرب من حوشبة احدى قرى الشام وقد وقع في قلوب العربان منه مهابة . وما زال ينتقل من محل الى اخر ويجمع اليه الاحزاب ومنهم القرامطة حتى غزا القسم الاعظم من سوريا الى دمشق ونزل على السواحل فعلم بذلك العزيز بالله فارسل اليه جيشاً تحت قيادة جوهر فبلغ هفتكين ذلك وهو في عكا . اما القرامطة فكانوا في الرملة ولما بلغهم قدوم جوهر وجيوش العزيز فروا عنها فزها جوهر وسار من القرامطة الى الاحساء التي هي بلادهم جماعة وتأخر عدة . اما هفتكين فصار من عكا الى طبرية وقد علم بمسير القرامطة وتأخر بعضهم فاجتمع في طبرية واستعد للقاء جوهر وجمع الاقوات من بلاد حوران والثنية وادخلها الى دمشق . ثم سار اليها وتحصن فيها فعلم جوهر بذلك فصار الى دمشق . ونزل على ظاهرها في ٢٢ ذي القعدة وبنى على معسكره سوراً وحفر خندقاً عظيماً وجعل له ابواباً

فتجمع هفتكين برجاله لقتال جوهر وطال الاخذ والرد الى ١١ ربيع اول سنة ٣٦٦ هـ . وعند ذلك اختل امر هفتكين وهم بالفرار . ثم انه استظهر ووردت الاخبار بقدوم احمد القرمطي الى دمشق فطلب جوهر الصلح على ان يرحل عن دمشق من غير ان يتبعه احد - وذلك انه رأى امواله قد قلت وهلك كثير ممن كان في عسكره حتى صار اكثر جنده رجالة واعوزهم العلف وخشي فوق ذلك قدوم القرامطة . فاجابه هفتكين وقد عظم فرحه فرحل جوهر في ٣ جمادى الاولى وجد في المسير الى ان بلغ طبرية وكان قد قرب القرامطة فتعقبوه اليها فصار منها الى الرملة فبعث القرامطة بسرية كان لها مع جوهر وقعة قتل فيها جماعة من العرب . ثم طال الكفاح ١٧ شهراً ففر جوهر الى عسقلان فغنم هفتكين شيئاً كثيراً . ثم سار فحاصر عسقلان فبلغ ذلك العزيز فاستعد للمسير ليمد جوهرأ

اما جوهر فلما طال حصاره راسل هفتكين يطلب اليه تقرير الصلح على مال يحمله اليه وان يخرج من تحت سيفه فعلق هفتكين سيفه على باب عسقلان وخرج جوهر ومن معه من تحته وسار الى القاهرة فوجدوا العزيز قد برز يريد المسير . فساروا معه وما زالوا حتى نزلوا الرملة وكان هفتكين في طبرية فصار للقاء العزيز ومعه عدة من رجاله فالتقى الجيشان . فلم يكن غير ساعة حتى انهزم جيش هفتكين وفاز العزيز فطلبوا

هفتكين فاذا هو قد فر على فرس بمفرده فقبض عليه احد العرب وجاء به الى العزيز وعمامته في عنقه فامر به فطيف به على العسكر على جمل فاخذ العسكر يلطمونه ويهزون لحيته

ثم سار العزيز بهفتكين والاسرى الى القاهرة فاستخدمه ومن معه واحسن اليه غاية الاحسان وانزله في دار وواصله بالعطاء والخلع حتى قال لقد احتشمت من ركوبي مع مولانا العزيز بالله وتطوفي اليه بما غمرني من فضله واحسانه فلما بلغ ذلك العزيز قال لعمه حيدرة « يا عم والله اني احب ان ارى النعم عند الناس ظاهرة وارى عليهم الذهب والفضة والجوهر ولهم الخيل واللباس والضياع والعقار وان يكون ذلك كله من عندي » وما زال هفتكين يرتقى في ظل العزيز الى ان توفي سنة ٣٧٢ هـ فظن العزيز ان يعقوب بن كلس سمه (وكان لا يزال حياً) لانه كان يلاحظ بينهما منافسة في التقرب من الخليفة فاعتقله مدة ثم اطلقه

مناقب العزيز بالله

وفي ١٨ رمضان سنة ٣٨٦ هـ توفي العزيز بالله في بليس على اثر مرض طويل بالقولنج والحصاة وعمره ٤٢ سنة وبضعة اشهر ومدة خلافته ٢١ سنة وخمسة اشهر ونصف فنقل الى القاهرة ودفن في تربة القصر مع آبائه . وكان العزيز كريماً شجاعاً حسن العفو عند المقدرة وكان اسمر اللون اصب الشعر اشهل العين عريض المنكبين حسن الخلق قريباً من الناس لا يؤثر سفك الدماء محباً للصيد ولا سيما صيد السباع . وكان اديباً قاضياً

ويحكى ان احد الشعراء نظم قصيدة هجا بها وزيره وكاتب سره فرفعا الشكوى اليه وطلبا عقاب الشاعر . فاطاع على القصيدة فرأى فيها هجواً به ايضاً فقال لهما « بما اني شاركتكما باحتمال هذه الالهانة فشاركاني بالعفو عن هذا الشاعر »

والعزيز اول من اتخذ وزيراً اثبت اسمه على الطرز وقرن اسمه باسمه واول من لبس الخفين واول من اتخذ منهم الاتراك واستخدمهم وجعل منهم القواد واول من رمى منهم بالنشاب واول من ركب منهم بالذؤابة الطويلة وضرب بالصوالة واعب بالرمح . واول من اقام طعاماً في جامع القاهرة لمن يحضر في رجب وشعبان ورمضان . واول من اتخذ الحمير لركوبه اياها

وكان للعزيز رغبة في اقتناء الكتب مجارة لما نظروهم من العباسيين فجمع

منها جانباً كبيراً خصص لها قاعات في قصره سماها « خزانة الكتب » وبذل الاموال في الاستكثار من المؤلفات المهمة في التاريخ والادب والفقه ولو اجتمع من الكتاب الواحد عشر نسخ او مائة نسخة او اكثر — ذكروا انه كان فيها من كتاب العين للخليل نيف وثلاثون نسخة بخط الخليل نفسه وعشرون نسخة من تاريخ الطبري واشتروا النسخة بمئة دينار . ومئة نسخة من كتاب الجمهرة لابن دريد وكان عدد النسخ المكررة يزداد بتوالي الاعوام حتى بلغ عددها من تاريخ الطبري عند استيلاء صلاح الدين الايوبي على مصر ١٢٠٠ نسخة وكان فيها ٣٤٠٠ ختمة قرآن بخطوط منسوبة محلاة بالذهب . فلا عجب اذا قالوا انها كانت تحوي ١٦٠٠٠٠٠ كتاب في الفقه والنحو والحديث والتاريخ والنجاة والروحانيات والكيمياء منها ١٨٠٠٠ كتاب في العلوم القديمة فيها ٦٥٠٠ جزء من كتب النجوم والهندسة والفلسفة خاصة غير ادوات الهندسة والفلك

على اننا نرى في تقدير تلك الكتب مبالغة . وقد قدرها آخرون بنحو ٢٠٠٠٠٠٠ كتاب وغيرهم ١٢٠٠٠٠ ونظن في تقديرهم التباساً من حيث المراد بخزانة الكتب او خزائن الكتب . لان العزيز بعد ان انشأ خزانته بقصره اقتدى به جماعة من اهله فانشأوا مثلها في قصورهم . فالظاهر ان المراد بالتقدير القليل عدد الكتب في خزانة العزيز خاصة وبالكثير عدد ما في خزائن القصور كلها . وبهذا الاعتبار لا يقل عدد الكتب في خزائن القصور عن ١٠٠٠٠٠٠٠ مجلد او كتاب

وكان للعزيز عناية كبيرة في خزانته يتعهد بها بنفسه حيناً بعد حين وقدرت لها قيمياً يتولى شؤونها ويجالسه ويقرأ له الكتب ويناديه . ومن تولى ذلك ابو الحسن الشابشي الكاتب المتوفى سنة ٣٩٠ هـ

ومن آثاره انه اسس جامع الحاكم فلما جاء الخليفة الحاكم اتمه



خلافة الحاكم بأمر الله بن العزيز

من سنة ٣٨٦ — ٤١١ هـ أو من ٩٩٦ — ١٠٢١ م

ولما توفي العزيز خلفه ابنه المنصور أبو علي فبويع ولقب بالحاكم بأمر الله ولكننا سنرى أنه لم يحكم إلا خلافاً لأمر الله . وكان عمره عند مبايعته إحدى عشرة سنة فكان الوصي عليه الوزير أرجوان فاستأثر بالنفوذ حتى تجاوز الحد وكانت مدة حكمه نحو ٢٥ سنة نارت في أوائلها عصبة ادعى زعيمها أنه من سلالة الخليفة هشام بن عبد الملك بن مروان وجرى بسبب ذلك خصام وحروب كان النصر فيها متبادلاً وفي المرة الأخيرة قبض على زعيم العصاة والتي في السجن وهرب أتباعه . ثم أراد الحاكم أن يبرهن على اختلال شعور هذا الرجل فأركبه جلاً وأركب وراءه قرداً وطوّفه في المدينة والقرد لا ينفك عن قرع ذلك الرجل على رأسه إلى أن مات شرموة

وفي سنة ٣٩١ هـ أمر الحاكم الناس بأن يوقدوا القناديل على الحوانيت وأبواب الدور والمحال والسكك الشارع وغير الشارع ولازم الركوب في الليل . وكان ينزل في كل ليلة إلى موضع موضع وإلى شارع شارع وإلى زقاق زقاق وصار الناس من الزينة والوقود الكثيرة يوصلون إيلهم بنهارهم فيقضون طول الليل في البيع والشراء . وكان إذا مشى في موكبه أمر خاشيته أن لا تمشي بقربه وزجرهم وقال ابعدوا ولا تمنعوا أحداً مني فكانت تقترب الناس منه وتحقق به وتكثر من الدعاء له

أطوار الحاكم

وبعد يسير أصيب الحاكم بتغيير في عقله لم يفارقه حتى فارقت الحياة . وظهر في أثناء ذلك متذهب يدعى ضرار وتبعه جماعة عرفوا بالضرارية . ثم توفي الزعيم وخلفه أحد تلاميذ المدعو حمزة بن أحمد الملقب بالهادي . وسنّ هؤلاء شرائع كثيرة وعلموا تعاليم مختلفة منها تعظيم يوم الجمعة والاحتفال بالأعياد والتعويض عن الحج لمكة بزيارة مقام طالب في اليمن . ومن شرائعهم أنهم أباحوا الزيجة بين الأخ وأخته وأب وبناته والام وابناتها . وجأوا بأمور كثيرة تخالف أو تناقض ما جاء في القرآن فارتاح الحاكم لهذه الديانة الجديدة وافتتن بها فتبعها ونسي ديانة أبيه وجده . وكان يصعد كل صباح منفرداً إلى الجبل المقطم حيث ادعى أنه يناجي الله كما كان

يفعل موسى . وبعد ان كان اشد نصير للديانة الاسلامية نادى جهاراً بمقاومتها وادعى بالسوء على الصحابة . وسعى في ابطال الديانة الاسلامية واقامة ديانة جديدة فحبطت مساعيه فاحتقرته الرعية ولم تعد تعباً بمذيعاته فعاد الى نصرته الاسلام فاضطهد النصارى واليهود

وكان السبب الرئيسي في ذلك الاضطهاد تقدم النصارى في ايامه حتى صاروا كالوزراء وتعاضموا لاتساع احوالهم وكثرة اموالهم فزادت مكائدتهم للمسلمين على عهد عيسى بن نسطوروس وفهد بن ابراهيم النصرانيين فغضب الحاكم بامر الله — وكان اذا غضب لا يملك نفسه فيبلغ غضبه الى حد الجنون . فامر بقتل هذين الرجلين وشد على النصارى فامرهم بلبس ثياب الغيار وشد الزنار في اوساطهم ومنعهم من عمل الشعائين والتظاهر بما كانت عاداتهم فيه وقبض على ما في الكنائس وادخله الديوان ومنع النصارى من شراء العبيد وهدم كنائسهم واجبرهم على الاسلام وغير ذلك من التشديد والعنف بما لم يقاس النصارى مثله من قبل ولعله اعظم ما اصابهم من الاضطهاد في ايام التمدن الاسلامي . ولا جناح على التمدن به لان مرتكبه اتاه عن حمق او جنون

وقد سوتغ للحاكم المبالغة في اضطهاد النصارى حرب كانت بين الروم والمسلمين يومئذ فاخرب الروم بعض جوامع المسلمين ومنها جامع كان لهم في القسطنطينية فانتقم الحاكم منهم بالتضييق على اهل مذهبهم في بلاده . وكان في جملة ما هدمه من الكنائس كنيسة القيامة بالقدس . فلما تولى الخليفة الظاهر لاعزاز الذين بعد الحاكم عقدت الهدنة بينه وبين ملك الروم سنة ٤١٨ هـ واتفقا على اعادة بناء جامع القسطنطينية وان يعاد بناء كنيسة القيامة وان يؤذن لمن اظهر الاسلام في ايام الحاكم ان يعود الى النصرانية اذا شاء فرجع اليها كثيرون

وربما كان السبب الذي حمل الحاكم على ذلك التضييق طفيفاً فعظمه تعصبه وحمقه فامر بالهدم والقتل . على انه كثيراً ما كلف رعاياه من المسلمين وغيرهم اموراً مضحكة تشبه الجنون الصريح كاصداره المنشورات بمنعهم من اكل الملوخيا او من البقلة المسماة بالجرجير او منعهم من عمل الفقاع ومنع النساء من التبرج او المسير في الطرق والا مر بسب السلف واعنهم ونقش ذلك على المساجد وابواب الحوانيت وعلى المقابر ونحو ذلك من الامور التي تدل على اختلال في عقله . على اننا قلنا نراه اتى امراً الا لسبب وان كان ضعيفاً — فالسبب في منعه الناس من اكل الملوخيا مثلاً ان معاوية بن ابي سفيان عدو

الشيعة كان يحبها والدول الفاطمية شيعية . ومنعهم من اكل بقلة الجرجير لانها منسوبة الى عائشة ام المؤمنين ومنعهم من اكل المتوكلية لانها تنسب الى المتوكل وهو من اعداء الشيعة . ومنع الناس من شرب الفقاع لان علي بن ابي طالب يكرهه . وقس على ذلك سائر ضروب الحماقه والغرابة . ومن هذا القبيل اضطهاد النصارى وتخريب كنائسهم . على انه عاد اسبب طفيف او بلاسبب وامر ببناء تلك الكنائس وخير النصارى في الرجوع الى دينهم فارتد كثيرون منهم — وقد تقدم ان ذلك كان في ايام ابنه الظاهر . ومن اعماله الغريبة انه ابتنى المدارس وجعل فيها الفقهاء والمشايخ ثم قتلهم واخربها والزم الناس باغلاق الاسواق نهاراً وفتحها ليلاً فظل الناس على ذلك دهرأ طويلاً . فمن كانت هذه اعماله لا يستغرب منه اضطهاد ولا يعد اضطهاده عاراً على الدولة او الامة

فكان هذا الحاكم حملاً ثقيلاً على عاتق المصريين والسوريين ولم يستطع احد مقاومته فكان كل منهم يكظم غيظه وهو يسمع باذنه رنة السهم في قلبه ولكن الامور تجري على سنن محدودة ولا بد لكل منها من نهاية فعلمت اخت الحاكم وقائد جيشه ان الحاكم ينوي قتلها فعمدا الى اغتياله قبل ان يغتالها فاخذوا الاحتياطات الممكنة . وفي سنة ٤١١ هـ قتلاه على جبل المقطم وبعد موته صار النفوذ الى اخته ونادت بابنه علي ابي الحسن الملقب بالظاهر لاعزاز دين الله وريثاً له فاستلم زمام الاحكام فبايعوه وبقيت الاحكام في يده ١٧ سنة

جامع الحاكم

ومن آثار الحاكم بامر الله الجامع المعروف بجامع الحاكم وقد تقدم ان العزيز وضع اساسه على يد وزيره يعقوب بن كلس فاتم الحاكم بنائه وانفق في سبيل ذلك اربعين الف دينار ودعا جامع باب الفتوح لجاورته له وجعل فيه المفروشات الثمينة والوانى الفضية والذهبية . وكان هذا الجامع عند بنائه خارج سور القاهرة . ثم لما جاء امير الجيوش وجدد الاسوار كما سيأتي وابتنى باب الفتوح حيث هو اليوم اصبح الجامع داخل السور . ثم تهدم بعضه بزلزلة حصلت في ١٣ ذي الحجة سنة ٧٠٢ هـ فانتدب الامير ركن الدين بيبرس الجاشنكير لترميمه وجعل فيه دروساً اربعة لتعليم الفقه على مذاهب الائمة الاربعة ودرساً لاقرء الحديث وجعل فيه مكتبة نفيسة وصهاريج للماء واما كن اخرى . ثم جدد هذا الجامع وبلغت جميعه في ايام الملك الناصر حسن بن محمد ابن قلاوون سنة ٧٦٠ هـ على يد الشيخ قطب الدين محمد الهرماس . ويقال ان الشيخ المشار اليه وجد في الجامع حجراً مكتوباً عليه هذه الابيات لغزاً في الحجر المسكرم

ان الذي اسررت مكنون اسمه وكتفته ككيا أفوز بوصله
مال له جذر تساوى في الهجا طرفاه يضرب بعضه في مثله
فيصير ذاك المال الا انه في النصف منه تصاب احرف كله
واذا نطقت بربعه متكلماً من بعد اوله نطقت بكاه
لا نقط فيه اذا تكامل عدو فيصير منقوطةً بجملة شكله

دار الحكمة

ومن اثار الحاكم في خدمة العلم انه انشأ مكتبة سماها دار العلم او دار الحكمة وهي غير خزانة العزيز او خزائن القصور كما توهم الاكثرون . انشأها الحاكم بامر الله بن العزيز بالله سنة ٣٩٥ هـ بجوار القصر الغربي بالقاهرة وحمل اليها الكتب من خزائن القصور ووقف لها اماكن ينفق عليها من ريعها . ففرشوها وزخرفوها وعلقوا الستور على ابوابها وممراتها واقاموا عليها القوام والمشرفين . والغرض من دار الحكمة مثل الغرض من بيت الحكمة الذي انشأه العباسيون اي لخدمة الناس في المطالعة والدرس والتأليف . وهي طريقة القدماء في تعليم الناس اذ يتعذر على غير الاغنياء اقتناء الكتب الكثيرة نظراً لغلائها فمن احب تعليم رعيته انشأ مكتبة جمع فيها الكتب وفتح ابوابها للناس كما فعل البطالسة في مكتبة الاسكندرية والعباسيون في بيت الحكمة ببغداد

وقد عد بعضهم دار الحكمة مدرسة لان الحاكم اقام بها القراء والمنجمين واصحاب النحو واللغة والاطباء واجرى لهم الارزاق واباح الدخول اليها الى سائر الناس على اختلاف طبقاتهم من محبي المطالعة ليقرأوا ويُنسخوا ما شاؤوا . وجعل فيها ما يحتاجون اليه من الحبر والاقلام والورق والمحابر . وكان الحاكم يستحضر بعض علماء الدار المذكورة الى ما بين يديه ويأمرهم بالمناظرة كما كان يفعل المأمون ويخلع عليهم الخلع . وقد اباح المناظرة بين المترددين الى دار الحكمة فكانوا يعقدون المجتمعات هناك وتقوم المناظرات وقد يفضي الجدل الى الخصام . واتخذ بعض اصحاب البدع تلك الاجتماعات وسيلة لبث ارائه فاضطر الافضل بن امير الجيوش في اوائل القرن السادس للهجرة الى ابطالها دفعاً للأسباب . فلما توفي الافضل امر الخليفة الأمر باحكام الله وزيره المأمون بن البطائحي فاعادها سنة ٥١٧ هـ ولكنه اشترط فيها المسير على الاوضاع الشرعية وان يكون متوايها رجلاً ديناً وان يقام فيها متصدرون برسم قراءة القرآن . ولا نظن عدد كتبها يقل عن ١٠٠٠٠٠ كتاب . ولما افضت الدولة الى صلاح الدين الابوبى هدم

دار الحكمة وبنها مدرسة للشافعية



وهذه صورة النقود الذهبية التي ضربت في أيام الحاكم بأمر

الله (انظر شكل ٤٥)

ش ٤٥ : نقود الحاكم بأمر الله

خلافة الظاهر بن الحاكم

من سنة ٤١١ — ٤٢٧ هـ أو من ١٠٢١ — ١٠٣٦ م

وفي أيام الظاهر (سنة ٤٢٢ هـ) توفي الخليفة القادر بالله العباسي الذي كان قد اقيم سنة ٣٨١ هـ خلفاً للطائع واقيم مقامه في بغداد القائم بأمر الله . وكان سن الظاهر لما تولى الخلافة ١٦ سنة فخرج الى صلاة العيد وعلى راسه المظلة وحوله العساكر وصلى بالناس في المصلى وعاد فكتب بخلافته الى الاعمال وشرب الخمر ورخص فيه للناس وفي سماع الغناء وشرب الفقاع واكل الملوخية وجميع الاسماك فاقبل الناس على اللهو

المجاعة

وكان الظاهر ضعيف الرأي منصرفاً الى اللهو فافضى النفوذ الى بضعة من رجال دولته وقرروا ان لا يدخل على الظاهر غيرهم . فاصبحوا يتصرفون بامور الدولة ويمنعون اهل النصح من الوصول الى الخليفة . واخذوا في الاستئثار بالاموال فضاقت ابواب الرزق ومنع الناس من ذبح الابقار لقلتها وعزت الاقوات بمصر وقلت البهائم كلها حتى بيع الراس البقر بخمسين ديناراً وكثر الخوف في ظواهر البلد وكثر اضطراب الناس وتحدث زعماء الدولة بمصادرة التجارة فاختلف بعضهم على بعض وكثر ضجيج العسكر من الفقر والحاجة فلم يجابوا وتماسد زعماء الدولة فقبض على العميد محسن وضرب عنقه . واشتد الغلاء وفشت الامراض وكثر الموت في الناس وفقد الحيوان فلم يقدر على دجاجة ولا فروج . وعز الماء فعم البلاء من كل جهة وعرض الناس امتعتهم للبيع فلم يوجد من يشتريها وخرج الحاج فقطع عليهم الطريق بعد رحيلهم من بركة الجب واخذت امواهم وقتل منهم كثير وعاد من بقي فلم يحج احد من اهل مصر . وتفاقم الامر من شدة الغلاء فصاح الناس بالظاهر « الجوع الجوع يا امير المؤمنين لم يصنع بنا هذا ابوك ولا جدك فالله الله في امرنا » وطرقت عساكر ابن جراح الفرما ففر اهلها الى القاهرة واصبح الناس بمصر على اقبح حال من الامراض والموتان وشدة الغلاء وعدم الاقوات وكثر الخوف من الذعار التي تكبس حتى انه لما

عمل سباط عيد النحر بالقصر كبس العبيد على السباط وهم يصيحون الجوع ونهبوا سائر ما كان عليه . ونهبت الارياض وكثر طمع العبيد ونهبهم وجرت امور من العامة قبيحة واحتاج الظاهر الى القرض فحمل بعض اهل الدولة اليه مالا وامتنع اخرون واجتمع نحو الالف عبد لنهب البلد من الجوع فنودي بان من تعرض له احد من العبيد فليقتله . ونذب جماعة لحفظ البلد واستعد الناس فكانت نهبات بالساحل ووقائع مع العبيد احتاج الناس فيها الى ان خندقوا عليهم خنادق وعملوا الدروب على الازقة والشوارع وخرج معضاد في عسكر فطردهم وقبض على جماعة منهم ضرب اعناقهم . واخذ العبيد في طلب وجوه الدولة فخرسوا انفسهم وامتنعوا في دورهم وانقضت السنة والناس في انواع من البلاء

وفي سنة ٤٢٧ هـ توفي الظاهر لاعزاز دين الله في ليلة الاحد منتصف شعبان بعد



ان تضععت الدولة فبويع ابنه معد ابي تميم خليفة مكانه ولقب بالمستنصر بالله وهذه صورة نقود الظاهر لاعزاز دين الله ضربت في القاهرة سنة ٤٢٥ هـ المظشر ٤٦

ش ٤٦ — نقود الظاهر لاعزاز دين الله

خلافة المستنصر بن الظاهر

من سنة ٤٢٧ — ٤٨٧ هـ او من ١٠٣٦ — ١٠٩٤ م

ولم يكن سن المستنصر عند مبايعته اكثر من سبع سنوات وأمه جارية سوداء ابتاعها الظاهر من تاجر يهودي اسمه ابو سعيد سهل بن هارون التستري . فلما رأت انها في هذا المنصب اتت بسيدتها الاصلي وولته الاستشارة ، وكانت مدة خلافة المستنصر اطول من مدة كل خليفة فاطمي واكثر حوادث من الجميع ففي سنة ٤٢٩ هـ عقد المستنصر هدنة مع امبراطور الروم وكان لا ينفك عن مهاجمة الترخوم الاسلامية حتى اخضع حلب وتبعها سائر الشام فساد الامن بعد الهدنة الى ان كانت سنة ٤٣٤ هـ بويلاتها فثارت داخلية مصر بفتنة جديدة لظهور رجل اسمه سكين كان يشبه الحاكم بامر الله فادعى انه الحاكم وقد رجع بعد موته . فاتبعه جمع ممن يعتقد رجعة الحاكم فاغتنموا خلوا دار الخليفة بمصر من الجند وقصدوها مع سكين نصف النهار

فدخلوا الدهليز فوثب من هناك من الجند فقال لهم اصحابه انه الحاكم فارتاعوا لذلك ثم ارتابوا به فقبضوا على سكين ووقع الصوت واقتتلوا فتراجع الجند الى القصر والحرب قائمة فقتل من اصحابه جماعة وأسر الباقون وسلبوا احياء ورمواهم الجند بالنشاب حتى ماتوا

ثم سعت ام الخليفة فساداً في الاحكام فغيرت في الوزارة ونقلت زمام الامور من يد احمد بن علي ليد حسن بن العنبري ومنه الى صدقة العلاجي وهذا قتل سلفه سنة ٤٤٠ هـ فحكم عليه بالقتل فابدل بحسين الجرجراي وفي شوال سنة ٤٤١ هـ قبض عليه ونفي الى سوريا واقام مقامه ابو الفضل بن مسعود والقاضي اليازوري وقد حاز هذا الاخير على رضا المستنصر فقربه منه بحيث انه كان يعطيه الالقاب الخاصة بالخليفة ويضرب النقود باسمهما

وفي اثناء ذلك اضطربت الخارجية بسبب معز الدولة وكان قد ولاه الخليفة على حلب سنة ٤٣٦ هـ فيحاول الاستقلال بها فانفذ اليه الخليفة جيشاً بقيادة ناصر الدولة ابن ابي الهيجاء فكسره . فاسترجعه وارسل عوضاً عنه الاميرين طرفاً ورفيقاً وتحتهما جيوش مصرية فلم ينالا اكثر مما نال . ولحسن الطالع اعتاض معز الدولة عن الهجوم على مصر بعد ما رأى من انتصاره على جيشها بعقد الصلح . فانفذ ابنه وزوجته ليعقدا صلحاً مع المستنصر وكانت زوجته بديعة الجمال فاخذت بمجامع قلب المستنصر فوافقها في التنازل عن حلب لزوجها

المعز بن باديس

وما انتهت هذه المعضلة في الشرق حتى نشأت معضلة اخرى في الغرب وذلك ان المعز بن باديس تمرد في افريقية لمكاتبات عدوانية حصلت بينه وبين الوزير اليازوري فابطل الخطبة للمستنصر واستعاض عنه باسم الخليفة العباسي القائم بامر الله . ووردت الخلع والتقليد من القائم بامر الله الى المعز مع كتاب قال فيه « من عبد الله وولاه ابي جعفر القائم بامر الله امير المؤمنين الى الملك الاوحد ثقة الاسلام وشرف الامام وعمدة الانام ناصر دين الله قاهر اعداء الله ومؤيد سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ابي تميم المعز بن باديس بن المنصور ولي امير المؤمنين بولاية جميع المغرب وما افتتجه بسيف امير المؤمنين وهو طويل » وارسل اليه سيفاً وفرساً واعلاماً على طريق القسطنطينية فوصل ذلك يوم الجمعة فدخل به الى الجامع والخطيب ابن الفاكة على المنبر يخطب الخطبة الثانية . فدخلت الاعلام فقال « هذا لواء الحمد يجمعكم وهذا معز الدين يسمعكم

واستغفر الله لي ولكم » وقطعت الخطبة للعلويين من ذلك الوقت واحرقوا الاعلام . وكان المستنصر مشغولاً في اثناء ذلك بالاضطرابات الداخلية بين قبيلتين من العرب بني زابج وبني رياح فرأى الوزير ان يستدرك الخطب الداخلي قبل الخطب الخارجي وان يستخدم العدو الواحد لاإبادة الآخر فاصالح بين القبيلتين وحرصهما على المعز بن باديس على ان يجعل لهما في مقابل ذلك برقة وطرابلس الغرب

فاستعد ابن باديس للالاقاة اعدائه بجيش مؤلف من ٣٠ ألف فارس ولم يكن الاعراب اكثر من ٣ آلاف مقاتل . فلما التقوا بجيش المعز هابوه فطلبوا الفرار فناداهم قائدهم . مونس ان يجالدوا في القتال فاجابوه « اين نطعن هؤلاء المكسوين بالخوذ والدروع » فقال « في عيونهم » ومن ذلك الحين لقب مونس بابي العيون . وعادت رجاله وقد ثارت فيهم الحمية العربية ومازالوا حتى انتصروا على المعز في تلك الوقعة . ثم بقيت الحرب سجالات بين الفريقين ست سنوات وكانت الغلبة طوراً لهؤلاء وطوراً لهؤلاء

أما المستنصر فعهد الى تزيين القاهرة وبناء البنايات الجميلة فيها فاعاد تذهيب جامع عمرو سنة ٤٤١ هـ وبنى فيه منبراً من الخشب الثمين قائماً على عمد من خشب الصندل واقام فيه منارة جديدة وخصص لهذه الترميمات مالاً من خزائنه الخاصة وفي سنة ٤٤٢ هـ توفي في مصر اميرتان من اغنى امراء مصر وهما راشدة وعبدية وكلاهما ابنتا الخليفة المعز لدين الله فترك الاولى ثروة مقدارها مليونان وسبعمائة ألف دينار والثانية مثل ذلك . وكان الخلفاء الفاطميون ينتظرون موتهما ولم يروه فكانت ثروتهن غنيمة بارة للخليفة المستنصر

الفتنة بين الخلافتين

وفي سنة ٤٤٤ هـ وصل القاهرة نبأ ان مختلفان . الاول ان الخليفة العباسي في بغداد اصدر منشوراً الى العالم الاسلامي يقترح فيه بانتساب الخلفاء الفاطميين الى علي ابن ابي طالب . والثاني ان امير اليمن علي بن محمد الصالحى امر ان يخطب باسم المستنصر في الصلاة وارسل اليه هدايا . فسر الخليفة المستنصر لهذين الخبرين اللذين يوازن احدهما الآخر ولم يبد حراكاً لاشتغاله بقمح عظيم نتج عن تقصير النيل تلك السنة فاشتد الجوع . وكان قد احتكر الحنطة وكان يخزن منها كل سنة بمائة الف دينار يحفظها في خزائنه ليبيعها عند الحاجة بالاثمان الغالية فاذا كانت سنة رخاء كان الوزير اليازوري يستبدل تلك الحنطة بقيمتها من الخشب او الحديد او ما شاكل . ففي سنة ٤٤٦ هـ لم يف النيل ولم يكن في خزائن الحنطة ما يكفي لغير الخليفة واهله وحاشيته

قوتاً ضرورياً فغلا العيش فبلغ ثمن الكيس الصغير من القمح ثمانية دنانير واخذ الجوع يتزايد وتبعه الطاعون وامتد الاثنان الى سوريا حتى بلغا بغداد وتبع هاتين الضربتين ضربة ثالثة، يعني الحرب . وسببها ان الخليفة المستنصر لما اشتد الجوع في بلاده ارسل الى القسطنطينية يستنجد امبراطورها بالحنطة فرفض الامبراطور ان يرسل له اربعمائة الف اردب ولكنه مات قبل ارسالها . فلما توات الامبراطورة ولية العهد اوقفت الارسال على ان يعقد لها المستنصر معاهدة (هجومية ودفاعية) فلم يرض فلم ترسل الحنطة فاستشاط غضباً وامر بالجهاد فانفذ ناصر الدولة لفتح اللاذقية وانطاكية فقبض عليه وتفرق جيشه . فتعاطم غيظ المستنصر واشتد انتقامه فامر بالحجز على كل ما في كنيسة القيامة في القدس الشريف من الاموال والادوات الثمينة فاضطربت العلاقات الودية بين الروم ومصر

وزاد المصريين رعباً مذنب طويل ظهر في سماء مصر في ١٢ جمادى الثانية سنة ٤٥٥ هـ ولم يغب الى ١٥ رجب منها . غير ان الوزير لم يأل جهداً في تدبير الامور بحكمة ورزاة تخفف المصائب واستجاب القوت الى البلاد رويداً رويداً . على ان سلطة المستنصر كانت تزداد في الخارج يوماً فيوماً حتى ان البساسيري قائد جنود الخليفة العباسي القائم بامر الله لما كبر شأنه خلع خليفته وبايع للمستنصر الفاطمي ورفع العلم الابيض على منابر بغداد سنة ٤٥٠ هـ واقتدى به اهل واسط والكوفة وسائر المدن الشرقية الكبرى

فامتدت سلطة المستنصر الدينية الى خراسان وفارس . فرأى السلطان طغرل بك هناك ان تسلط العلويين يضر بغرضه فسار بجيشه الى بغداد واعاد القائم بامر الله الى منصبه ونصب العلم العباسي واعاد الخطبة للخليفة القائم في ٢٦ ذي القعدة سنة ٤٥١ هـ وكان المستنصر قد ارسل الى البساسيري مدداً من الرجال وخسمائة الف دينار ومؤناً وذخائر وثياباً وخيلاً ولكن لما علم باعادةبيعة الخليفة العباسي خاف ولم يعد يمدّه واكتفى باتخاذ الاحتياط لمنع تقدمه ولولا ذلك لانتشرت سلطة الدولة الفاطمية الى اقصى ما بلغت اليه الدولة العباسية في عزها

حروب واضطرابات

وجرت في خلال ذلك في سوريا حروب آلت الى ضعف سطوة المستنصر . وذلك ان حلب كانت الى ذلك الحين لمعز الدولة والعرب من بني كلاب يهاجمونها فاقلقوا راحتهم وطمعوا به فلم يرق طريقة للتخلص منهم الا الالتجاء الى المستنصر

فكتب اليه انه لم يعد قادراً على البقاء في حلب على هذه الحال . وطلب اليه ان يرد هذه المدينة الى العباسيين وان يوليه بدلاً منها مدينة لا يكون للعربان يد اليها . فاعطاء مدن بيروت وعكا وجبيل وجعل على حاب مكين الدولة احد قواده فخصها في شهر ذي القعدة سنة ٤٤٨ هـ . ثم سافر معز الدولة الى مصر وعقد فيها معاهدة مع المستنصر على المدن التي اعطيت له . وكان مكين الدولة لطيف المعاملة حليماً فسعد الشعب ايامه فرخصت الاسعار واستتبّت الراحة الا ان بني كلاب لم ينفكوا عن مناواته بقيادة الامير محمود الكلابي ابن اخي اميرهم الاول وكان قد عنف عمه على تسليم ارضهم للخليفة فجاء مدينة حلب وغزاها وقتل حاميتها ودخلها فسلمت له في ٢ جمادى الثانية سنة ٤٥٢ هـ . اما مكين فكان محاصراً في قلعتها ولم يسلم فارسل الى مصر يستنجد المستنصر فأجده بناصر الدولة أبي محمد الحسين بن الحسن بن حمدان الامير بدمشق واوعز اليه ان يسير به عنده من العساكر الى حلب يمنعها من محمود . فسار الى حلب فلما سمع محمود بقربه منه خرج من حلب ودخلها عسكر ناصر الدولة فنهبوها . ثم ان الحرب وقعت بين محمود وناصر الدولة بظاهر حلب واشتد القتال بينهم فانهم فازم ناصر الدولة وعاد مقهوراً الى مصر وملك محمود حلب وقتل عمه معز الدولة واستقام امره بها وهذه الواقعة تعرف بوقعة الفنيديق فلما وصل ناصر الدولة الى مصر رأى الخليفة ان يكافئه على فشله فولاه دمشق . وفي سنة ٤٥٥ هـ ابدله ببدر الجمالي وهو ارمني المولد كان مملوكاً لجمال الدولة ومنه لقبه وتقلب في مناصب عديدة اظهر بها ما يدل على ثباته وحزمه . ولم تمض على سوريا مدة تحت ولايته حتى ساد فيها الامن لان الخليفة اذن للامير محمود ان يتولى حلب ولقبه بامير الامراء وعضد الدولة وسيف الخلافة

اما مصر فكانت اقل طمأنينة من غيرها لان الوزير اليازوري كان يضطهد المسيحيين اضطهاداً شديداً ويسومهم اشد العذاب وكان يثير ضدهم الاحزاب في المديرية والتي القبض على البطريرك كريسثودول وبعض الاساقفة وساقهم الى القاهرة . اما الخليفة فلم يكن راضياً بذلك فامر باخلاء سبيلهم بكل احترام فشك ذلك على الوزير فامر باقفال جميع الكنائس المسيحية في مصر من يعقوبية وملكسية فثار مسيحو القطر فتدارك الخليفة الامر بالقبض على الوزير ونفيه الى تنيس ثم قتله

فتشاءم المسيحيون من تلك الحوادث ورافقها ظهور الشفق الشمالي وكسوف تام للشمس فكان منظر السماء مهيباً استمر ٤ ساعات اشتد فيها الظلام حتى شوهدت النجوم واوت الطيور الى اعشاشها رهبة . وولى الخليفة مكان اليازوري ابا الفرج البابلي

وبعد شهرين ابدله بعبدة الله بن يحيى ثم بغيره حتى تقلب على وزارة مصر ٣٥ وزيراً في ١٢ سنة ولم تكن تزيد لها هذه التقلبات الا تعقيداً . كل ذلك والتشكيكات ترد الى الخليفة تترى من رجال الدولة والرعايا فتجبر في امره ولم يكن يعلم مصدر هذه القلاقل فجمع رجالاً من جميع الطبقات وكلمهم ملياً واستطلعهم حقيقة الامر فلم يظهر له شيء مما كان يسمعه . ثم ازداد نفوذ السوق على رجال الدولة فكانوا اذا اجتمعوا على امر انفذوه ولو كان مناقضاً لاوامر الخليفة . فازداد الخليفة اضطراباً والاخبار ترد عليه متناقضة فلا يعلم ايها يتبع . ورجال القضاء بدلاً من ان ينظروا في التقارير كانوا يقضون اوقاتهم وقواتهم في المدافعة عما كان يتقدم في حقهم من التشكيكات . فاشتد خوف الناس في الاقاليم حتى هاجروا منازلهم فازدادت الفوضى وكثر اللغط

وكان المستنصر يحتال في امر الحج فيذهب في زمرة من الحجاج على الجمال مظهراً للحج فاذا بلغ بهم محطة بركة عميرة حيث اعتادوا المبيت في ذهابهم الى الحج وايابهم منه ثم دعيت بركة الحج ينزل بهم هناك فتدار عليهم الجمور بدل المساء ثم يعودون الى القاهرة

تاريخ الجند في الدولة الفاطمية

مرت الدولة الفاطمية في ثلاثة ادوار تشبه الادوار التي مرت بها الدولة العباسية فقد كان نفوذ السكامة في الدولة العباسية باوائها مشتركاً بين العرب والفرس ثم صار الى الفرس ثم الى الاتراك . والفاطميون عرب قامت دواتهم بالعرب والبربر فكان النفوذ في اولها مشتركاً بين هذين العنصرين ثم صار الى البربر ثم الى الاتراك والبربر قوم اشداء مساكنهم في شمالي افريقيا وقد نصرروا الشيعة العلوية في المغرب كما نصرها الفرس في المشرق . وهم قبائل شتى مثل قبائل العرب الرحل وقد قاسى المسلمون في اخضاعهم عذاباً شديداً لانهم ارتدوا عن الاسلام اثني عشرة مرة وثبوا فيها كلها على المسلمين . ولم يثبت اسلامهم الا في ايام موسى بن نصير في اواخر القرن الاول . ولما نقم الناس على بني امية لتعصبهم على غير العرب كان البربر في جملة الذين خرجوا عاينهم وتطاولوا للفتك بهم . وقد سرهم ذهاب دولة الامويين ولكن ساءهم انتقالها الى الاندلس على مقربة منهم لانهم كانوا يكرهونهم للعصبية فنصروا العلويين نكاية فيهم . — الا من اصطنعهم الاندلسيون بالمال — وللبربر فضل كبير في نشر الاسلام باواسط افريقية مثل فضل الاتراك في نشره باواسط آسيا الى الهند والصين .

لان البربر لما ثبت الاسلام فيهم نهضوا لفتح ما وراء بلادهم في افريقيا الغربية فنشروا الاسلام هناك

فلما قامت الدولة الفاطمية في المغرب كان البربر من انصارها ولا سيما قبائل كتامة وصنهاجة وهوارة فاخذوا يساعد الفاطميين منذ قيامهم على ايام عبيد الله المهدي اول خلفائهم في اواخر القرن الثالث للهجرة . فلما تأيدت دولته سنة ٢٩٧ هـ اتخذ بطانته منهم وجعلهم من اهل الدولة وظلوا كذلك في خلافة ابنه القائم بامر الله (سنة ٣٢٢ هـ) ثم المنصور بنصر الله (سنة ٣٣٣ هـ) ثم المعز لدين الله (سنة ٣٤١ هـ) وساعدوهم في تملك المغرب كله واخراجه من البيعة العباسية . وفي ايام المعز لدين الله فتح الفاطميون مصر وبنوا القاهرة ونقلوا دولتهم اليها

فلما افضت الخلافة الى العزيز بالله بن المعز سنة ٣٦٥ هـ اراد التشبه بالعباسيين فاصطنع الاتراك والديلم واستكثر منهم وقدمهم وجعلهم خاصته كانه خاف على حياته من البربر . فقامت المنافسة بين البربر والاتراك وعظم التحاسد حتى توفي العزيز بالله وخلفه الحاكم بامر الله سنة ٣٨٦ هـ وكان يعتقد فضل البربر فقدمهم وقر بهم فاشتروا ان يتولى امورهم ابن عمار الكتامي (من البربر) فولاه الوساطة وهي كالوزارة عندهم فاستبد في امور الدولة وقدم البربر واعطاهم وولاهم وحط من قدر الغلمان الاتراك والديلم الذين اصطنعهم العزيز . فاجتمعوا الى كبير منهم اسمه برجوان وكان صقلييا وقد تآقت نفسه الى الولاية فاغراههم بابن عمار حتى وضعوا منه فاعتزل الوساطة وتولاها برجوان فقدم الاتراك والديلم واستخدمهم في القصر . ثم بدا للحاكم ان يقتل ابن عمار فقتله وقتل كثيراً من رجال دولة ابيه وجده فتضعضع البربر وقوي الاتراك

ولما مات الحاكم وخلفه ابنه الظاهر لاعزاز دين الله سنة ٤١١ هـ اكثر من اللهو والقصف ومال الى الاتراك والمشاركة فانحط جانب البربر وما زال قدرهم يتناقص حتى كاد يتلاشى . فلما ملك المستنصر سنة ٤٢٧ هـ بعد الظاهر وكانت امه امة سوداء استكثرت في جنود ابنها من العبيد ابناء جلدتها حتى باغوا الف عبد اسود . وكان هو يستكثر من الاتراك فاصبح الجند طائفتين كبيرتين تتنافسان وتتسابقان الى الاستئثار بالنفوذ . قال التنافس الى حرب تعبت بها مصر واضطر الخليفة الى استنصار الشام فتاه امير الجيوش بدر الجمالي من سوريا المتقدم ذكره ككاسيجي فقتل اهل الدولة واقام بمصر جنداً من الارمن وصار من حينئذ معظم الجيش منهم وذهب نفوذ البربر وصاروا من جملة الرعية ولم يبق لهم شأن في الدولة بعد ان كانوا وجوهاً واكابر اهلها

الفتنة بين العبيد والأتراك

ففي سنة ٤٥٤ هـ بينما كان الخليفة ومعه الحجاج في المكان المتقدم ذكره افترط احد
الأتراك بالشرب حتى سكر فجرد سيفه على احد العساكر العبيد من حرس الخليفة
فهمج رفاقه على التركي وقتلوه فاغتاز الأتراك وتجهروا بكثرة واتوا الى المستنصر
وقالوا « اذا كان قتل هذا برضاك فالسمع والطاعة والا فلا نرضى به » فاجاب الخليفة
انه حصل بغير رضاه فانقض الأتراك على السودانيين وكانوا كثاراً . فتخاصم الفريقان
طويلاً وبعد واقعة هائلة انتهى الامر بعقد صلح على ان يكون القتال تحت امر
الأتراك ثم عادوا الى القاهرة . على ان الضغينة كانت تزايد يوماً فيوماً . ولم ينفكوا عن
الخصام . وكان السودانيون يطيعون الوزير فيأوون الى ثكناتهم . اما الأتراك فما فتئوا
يضمون اليهم جماعات من العرب يتفقون معهم على المشاركة في السراء والضراء . واخيراً
اقاموا عليهم ناصر الدولة الذي فشل في حملته على الشام وكان قد عزل من منصبه في
دمشق واضمر للخليفة ووزرائه شراً واقام في القاهرة يترقب الفرصة للانتقام . فقبل
تلك القيادة آلة لتنفيذ ما ربه . ثم علم السودانيون انهم يعجزون عن مناوأة الأتراك
فهاجروا الى الصعيد فانضم اليهم كثيرون من اهله فاشتد ازهرهم وكثر عددهم حتى
بلغ خمسين الف مقاتل فنزلوا الى القاهرة والاسكندرية وهاجموا الأتراك في كوم
شريك على الشاطيء الغربى لفرع رشيد من النيل (وقد اشتهر هذا البلد بعدئذ في
الحملة الفرساوية حيث غلبت المماليك) . وكان الأتراك عشرة الاف وقد كمنوا لاعدائهم
حتى اذا جاءت الساعة هجموا على السودانيين وهم على الشاطيء فالتقوا بعضهم في
الماء وذبخوا البعض الآخر وفر الباقون وقدر بعض المؤرخين جملة من قتل وغرق
منهم بثلاثين الفا

وكانت والددة الخليفة قد تظاهرت جهاراً بنصرة السودانيين مواطنيها فشق عليها
انكسارهم فغضبت على الأتراك وحقدت عليهم لانهم قتلوا احداً اصدقائها الخالصين
فانفذت الى السودانيين مدداً ساعدهم على الدفاع فجرت وقائع شديدة في اماكن مختلفة
في جوار القاهرة وفي مصر العليا والسفلى . والتشكيات ترد الى الخليفة في امور مختلفة
وجوابه الوحيد عليها قوله « ان ما حصل انما حصل بدون علمي فما انا مطالب به »
وبعد طول الخصام ضعف الفريقان فضعفت فيهم ساحة الانتقام فعادوا الى السكنينة
والقلوب لا تزال على غل . وعدد الأتراك يزداد كل يوم وقد صارت اليهم اعمال
الحكومة فاقلقوا الخليفة بطلب زيادة مرتباتهم . وكانت قد نفدت ثروته ولم يعد قادراً

على اشباع مطامعهم وقد أصبح عبداً لاولئك العبيد الذين ربوا في كنفه ولم يجتمعوا الا لحماية شخصه . وكانت والدته المستنصر تزيد في الطين بلة فتأتيه كل يوم ببناء جديد تطلب اليه اموراً ما انزل الله بها من سلطان وتصر عليها فضايق المستنصر ذرعاً حتى اضطر سنة ٤٥٧ هـ الى الفرار على قدميه الى جامع عمرو يظهر الرغبة عن الملك الى العبادة فلما علم ارباب دولته بمكانه حملوه على العدول عن قصده فعاد قانطاً من الحيل

وفي سنة ٤٥٩ هـ قويت شوكة الاتراك وزاد طمعهم في المستنصر وأصروا على طلب الزيادة في مرتباتهم وضائق احوال العبيد واشتدت ضرورتهم وكثرت حاجتهم وقل مال الخليفة واستضعف جانبه فبعثت ام المستنصر الى قواد العبيد تغريهم بالاتراك فاجتمعوا بالجزيرة وخرج اليهم الاتراك بقيادة ناصر الدولة فاقتتلا مراراً ظهر في آخرها الاتراك على العبيد وهزموهم الى بلاد الصعيد فعاد ناصر الدولة الى القاهرة وقد عظم امره وكبرت نفسه واستخف بالخليفة

اما السودانيون فاجتمعوا بعد هذا الانهزام وتكاثروا حتى صاروا نحواً من ١٥ ألف مقاتل فاستولوا على الصعيد وارادوا النزول الى القاهرة ونزل بعضهم الاسكندرية والبعض الآخر في الفسطاط . فهاج الذين في الفسطاط بدسية والدته المستنصر فاستشاط ناصر الدولة غضباً وعزم على قطع دابر السودانيين من القطر المصري او ان ينفصل الامر امله واما عليه . فجمع رجاله وحارب السودانيين في الفسطاط فظهر عليهم وأخذ في قتلهم واسرهم

ثم صار الى الصعيد فخاربهم وشتمهم ثم تحول الى مصر السفلى فاخرجهم منها ومن الاسكندرية واقام فيها من يثق به . ثم عاد الى القاهرة فنظفها من آثارهم وقتل من وصلت اليه اخباره ودخلت سنة ٤٦٠ هـ والمستنصر يحاول اعادة نفوذه عبثاً فاستشار ذوي شوره فلم يجده احد هم نفعاً لانهم هم انفسهم لم يكونوا يرون فيه الياقة لهذا المنصب وكانت الصعيد لا تزال في حوزة السودانيين ومصر السفلى لا تخضع الا لناصر الدولة ولا سيما بعد استيلائه على الاسكندرية . وكانت الفسطاط والقاهرة ايضاً تحت سيطرته واما اوامر المستنصر فكانت لا تكاد تجري على حاشيته . وقد استفحل الاتراك واستهانوا بالخليفة واستخفوا بقدره وصار مقررهم في كل شهر اربعمائة ألف دينار بعد ما كان

حال المستنصر

تلك حال المستنصر في مصر اما في الخارج فلم تكن اصلح لان بدر الجمالي المتقدم ذكره اغتتم الفرصة واستقل بالشام والصالحى امير اليمن كان قد بايع الفاطميين فقتله احد قواده ودخلت مكة واليمن في حوزة الخلفاء العباسيين والفتن قائمة على الحدود بين امراء الاقسام ومن يعتدي عليهم فيخرجونهم من اماكنهم ويحتلونها فيلجأ أولئك الامراء الى القاهرة . وفي ختام الاضطرابات جاهر الروم بالحرب وزاد الطين بلة ان المستنصر لسوء تصرفه افسد العلائق بينه وبين الامير محمود صاحب حلب وقد تقدم انه حصل على رضاه حتى لقبه بشرف الالقاب . فلما طلب الروم الحرب كتب اليه المستنصر يستنجد بالنقود لحرب الروم واخراج الاثراك من بلاده فاجابه محمود « اما النقود فلا وجود لها عندي لاني اقترضت المال لاسترجاع حلب لسلطاني واصحاب المال يطالبوني . اما الروم فقد عقدت معهم صلحاً فاقرضوني مالاً لسد حاجتي واخذوا ابني رهناً عليها فلا ارى معاداتهم . اما الاثراك فانهم اقوى مني فاذا اردت طردهم طردوني » فاستشاط المستنصر غضباً لهذا الجواب وكتب الى بدر الجمالي صاحب الشام يعهد اليه الاقتصار من امير حلب العاصي فلم يصدق بدر الجمالي ان جاءه هذا الامر فجند الى حلب

وخرج ناصر الدولة في اثناء ذلك من القاهرة لمحاربة السودانيين في الصعيد فلاق منهم مقاومة لم يلاق مثلها فخار بهم مراراً وقد غلبوه في كل مرة فكتب الى الخليفة يشتكي امر السودانيين ويبقى التبعة على والدته بانها تهيجهم وتمدهم بالعدة والمال سرّاً على يده . فاجاب الخليفة انه لا يعلم شيئاً عن امه وانما يتكلم عن نفسه ويقسم انه لم يدخل في هذا الامر اولاً ولا آخرأ . فاشتد ناصر الدولة ورجاله وضموا اليهم مدداً وعادوا فهاجموا مهاجرة اليأس ففازوا بهم وانحنوا فيهم فن نجا من القتل لم ير سبيلاً للنجاة الا في الفرار فتبعثروا وتلاشت قوتهم من ذلك الحين

فاصبح ناصر الدولة حملاً ثقيلاً على عاتق الخليفة واتم ذلك النصر اسباب ضعفه فغدا وقد ذهب هيبته ونفوذه من عيون رجاله الاثراك فلم يعودوا يكثرثون باوامره ولا بشخصه واصبح صعلوكهم يقول عليه بكل سوء وتجمهروا يطلبون زيادة مرتباتهم فانزعج الخليفة لذلك . ولم يكن يأمن على حياته ولا يرتاح في اكله ولا شربه ولا نومه حتى ولا في صلاته واصاب الوزراء نحو ذلك فتنزلوا عن الوزارة

منهوبات قصر الخليفة وخزانة الكتب

وكانت مطالب الاتراك تحكماً منهم لانهم نالوا الزيادة اللازمة فبلغت مرتباتهم الشهرية اربعمائة الف دينار كما تقدم . فضلاً عن قلة المال فبعثوا يطالبونه فاعتذر بعجزه فلم يعذروه وقالوا « بع ذخائرک » فاخرج كل ما كان في القصر من الذخائر الثمينة التي اشتغل الفاطميون بجمعها منذ تأسيس دولتهم . وصاروا يقومون ما يخرج اليهم باقل الاثمان يأخذون ذلك مما لهم واقتسموها بينهم كما تراءى لهم لافرق في كونه حقاً او تعدياً . وكان الخليفة ووزير ماليته ينظرون الى الميزان قائماً على امتعتهم بلا قياس ولا يبديان حراكاً . وقد بالغ المؤرخون في تقدير تلك الامتعة الثمينة وقد ذكرها المقرئ في وهي : قبة العشاري وقاربه وكسوة رحله وهو مما استعمله الوزير احمد بن علي الجرجاري في سنة ست وثلاثين واربعمئة وكان فيه مائة الف وسبعة وستون الفاً وسبعمائة درهم فضة نقرة وان المطلق لصناع الصاغة عن اجرة ذلك وفي ثمن ذهب لطلائه خاصة الفان وسبعمائة دينار وعمل ابو سهل التستري لوالدة المستنصر عشارياً يعرف بالفضي وحاشي رواقه بفضة تقديرها مائة الف وثلاثون الف درهم ولزم ذلك اجرة الصناعة واطلاء بعضه الفان واربعمئة دينار واستعمل كسوة برسمه بمال جليل وانفق على العشاريات التي برسم الزهرة البحرية التي عدتها ستة وثلاثون عشارياً بالتقدير بجميع آلاتها وكساها وحلاها من مناطق ورؤس منجوقات واهلة وصفريات وغير ذلك اربعمائة الف دينار ولما نهبوا القصر على ما تقدم كفوا عن مطالبتهم بزيادة المعاش بعد ان علموا انه لا يملك شيئاً لكنهم دخلوا مدفن اجداده واخرجوا منها كل ما وجدوه بها من التحف ثم عمدوا الى خزانة السكتب فاخرجوا منها آلافاً من السكتب في جملة ٢٤٠٠ ختمة قرآن في ربعاة بخطوط منسوبة محلاة بذهب . وذكر بعض الذين شاهدوا النهب سنة ٤٦١ هـ قال « فرايت فيها خمسة وعشرين حملاً موقرة كتباً محمولة الى دار الوزير ابي الفرج محمد بن جعفر المغربي فسألت عنها فعرفت ان الوزير اخذها من خزائن القصر هو والخطير ابن الموفق في الدين بايجاب وجبت لهما عما يستحقانه وغلمانهما من ديوان الجبليين وان حصة الوزير ابي الفرج منها قومت عايه من جاري مماليكه وغلمانه بخمسة آلاف دينار . وذكر لي من له خبرة بالسكتب انها تبلغ اكثر من مائة الف دينار ونهب جميعها من داره يوم انهزم ناصر الدولة بن حمدان من مصر في صفر من السنة المذكورة مع غيرها مما نهب من دور من سارمعه من الوزير ابي الفرج وابن ابي كدينة وغيرها هذا سوى ما كان في خزائن دار العلم بالقاهرة مع ما صار الى عماد الدولة ابي الفضل

ابن المحرق بالاسكندرية ثم انتقل بعد مقتله الى المغرب. وسوى ما ظفرت به لواتة محمولاً مع ما صار اليه بالابتياح والغصب في بحر النيل الى الاسكندرية في سنة احدى وستين واربعمئة وما بعدها من الكتب الجليلة المقدار المعدومة المثل في سائر الامصار صيحة وحسن خط وتجليد وغرابة التي اخذ جلودها عبيدهم واماؤهم برسم عمل ما يلبسونه في ارجلهم واحرق ورقها تأولاً منهم انها خرجت من قصر السلطان وان فيها كلام المشاركة الذي يخالف مذهبهم سوى ما غرق وتلف وحمل الى سائر الاقطار وبقي منها ما لم يحرق وسفت عليه الرياح فصار تلالاً عرفت بتلال الكتب

وفي سنة ٤٦١ هـ لم يكتف ناصر الدولة بما حط من نفوذ الخليفة السياسي فعمد الى ان يحط من نفوذه الديني وقيم من يخلفه ولم يكن ذلك ممكناً ان لم يأت بحجة تبيح المستنصر فلبث يترقب الفرص فاتفق وهو خارج من بيت الوزير ان رجلاً طعنه بخنجر فهم به ناصر الدولة وخنقه حالاً لان جرحه لم يكن بليغاً. ورأى تلك فرصة لا يحسن ضياعها فادعى ان الخليفة المستنصر اغرى هذا الرجل على قتله وان مثل هذا الخليفة الغارق في الملاهي والمسكرات لا يستحق الخلافة. وكان ناصر الدولة قد اتفق مع الشريف ابي طاهر — وكان بدر الجمالي قد طرده فأتى الى القاهرة وجمع اليه عصابة يشد بها ازره وكان معروفاً بالتقوى والتدين. فوعده ناصر الدولة ان يوليه الخلافة بعد المستنصر بشرط ان يقتل بدر الجمالي صاحب الشام قبلاً وكان هذا مستقلاً هناك وناصر الدولة يخاف قدومه الى مصر. فانضم الى الشريف ابي طاهر اميران من عرب سوريا فاخذ من ناصر الدولة اربعين الف دينار للنفقات وسافر الثلاثة الى الشام والتف حولهم عدد وافر من الاحزاب. وكان بدر الجمالي ساهراً على حكومته فلم يلبث المؤامرون ان قابلوا حصون بدر الجمالي حتى قبض عليهم واخذت امتعتهم وقتل الشريف ابو طاهر سلخاً

ناصر الدولة

أما ناصر الدولة فلم ينفك ساعياً في مراده. واصبحت القوة العسكرية شطرين الواحد على غرض ناصر الدولة وهم الاتراك والآخر على غرض الخليفة. فلم ير الخليفة بدءاً من خطة الدفاع باظهار القوة. فكتب الى ناصر الدولة ينذره وينصح اليه بما نصه « تقربت منا وطلبت حمايتنا فحميناك وبذلنا لك العطاء فكافأتنا بالعقوق وما زادك حامنا الا قحة فافسدت بين جيوشنا وتواطأت مع ذويك على مناوأتنا فالآن اخرج من بلدنا ونحن نضمن لك الامان ونؤذن لك بان تحمل معك ماشئت الى حيث شئت

وان لم تذعن اوقعنا بك عقاباً صارماً » فاجابه ناصر الدولة ساخراً فبعث المستنصر الى قواد الاتراك الذين كانوا من حزبه وبينهم دكر وهو من الد اعداء ناصر الدولة (مع انه حموه) وجاء معهم قواد المغاربة وامراء كتامة وطاب اليهم مبايعته ثانية فبايعوه فرأى ناصر الدولة عدد رجاله قليلاً فبرح القاهرة الى الجيزة ونهبوا داره ودور حواشيه وقتلوا كثيرين منهم . ثم ركب المستنصر جواده وابس درعه واحاطت به الاعلام فر من تحتها جميع من في القاهرة من الاتراك وفيهم عدد عظيم من رجال ناصر الدولة . وسار الموكب حتى اتى بين القاهرة والفسطاط فنودي بالنعير للخيصة المستنصر . أما ناصر الدولة فلما رأى ما كان من قلة رجاله ونفاد ماله فرّ الى الاسكندرية وتحصن فيها وبعث الى اهله ان يقدموا ثم عمل على بث اغراضه في مصر السفلى بمساعدة بعض القبائل الاعراب فحمل الناس على خلع المستنصر ومبايعه القائم بأمر الله العباسي

المجاعة والغلاء

أما الفسطاط والقاهرة فلم تكونا في معزل عن تلك القلاقل لان الجوع تمكن منهما لتقصير النيل مدة خمس سنوات متواليات . وامتد الجوع الى سنة ٤٦٤ هـ وكان معظمه سنة ٤٦٢ هـ . ومنذ سنة ٤٥٧ هـ لم يكن وفاء النيل كافياً للري . ثم تواتت القلاقل التي اقتضت الاسراف بالحبوب ورافق كل ذلك اشتغال الحكومة بسياستها الداخلية عن الزراعة . فكل هذه الاسباب جعلت الحنطة نادرة جداً فبلغ ثمن الارذب الواحد مائة دينار والقطعة ٣ دنانير والكلب ٥ دنانير ان وجدت . ورافق هذا الغلاء وباء مكث سبع سنين فلم يبق من يزرع . وشمل الخوف من في العسكر ووافق ذلك ثورة العبيد فانقطعت الطرقات برّاً وبحراً الا بالخفارة الكثيرة . والاسقفحل امر الجوع جاء المستنصر الى والي القاهرة وانذره مقسماً برأسه انه اذا كان لا يتخذ طريقة لتخفيف هذه النازلة قطع عنقه . وكان الوالي عالماً بمخابئ كثيرة من الحنطة ولكنه لم يكن يعلم مقرّها فاخرج بعض المسجونين المحكوم عليهم بالاعدام والبسهم ملابس الاغنياء واقفهم في رحبة عمومية وامر بقطع رؤوسهم بدعوى انه لم ير سبيلاً لتخفيف وطأة الجوع الا بقتل الاغنياء . وقال انه لن ينفك عن القتل حتى يشبع الناس نخاف الاغنياء الذين كانوا قد اخفوا الحنطة وفتحوا مخازنهم وفرقوا الزاد على العباد

وكان ناصر الدولة قد حصر حبوب مصر السفلى ومنع شحنها الى القاهرة وجهاتها وجاء القاهرة وحاصرها بعد ان احرق كل ما مرّ به من القرى والمدن فاضطر الخليفة

بعد طول المقاومة ان يفتح ابواب المدينة لناصر الدولة واتباعه . ولما دخل ناصر الدولة القاهرة زاد قحة وطمعاً فعاد الى مظامعه وادعى ان له على الخليفة مرتبات متأخرة وبالغ في احتقاره

ويحكى ان ناصر الدولة بعث مرة الى الخليفة فرآه الرسول في قصره جالساً على حصير بال ليس عنده من الفرش غيره وقد اصبح لا حاشية عنده الا ثلاثة خدم نصف عراة فطالب الرسول دفع المتأخر فالتفت اليه الخليفة قائلاً « أما يكفي ناصر الدولة ان أجلس في مثل هذا البيت على مثل هذا الحصير؟ فليأخذ اذن هذا الحصير وهؤلاء العبيد وهذه الاثواب التي لا تكاد تستر عورتى ولينصرف عني » فبكى الرسول ورجع الى ناصر الدولة واخبره فتأثر من هذا القول واحمر خجلاً وتنازل عن طلبه وخصص للمستنصر مرتباً يومياً ينفقه على حاجات بيته

وفي سنة ٤٦٥ هـ تصالح ناصر الدولة مع حميه دكر ولكن هذا لم يزل في ريب من مقاصد صهره فعمد الى الايقاع به فاصطحب بعض خاصته وجاؤا الى دار ناصر الدولة التي تعرف بمنازل الغز وهي على النيل . فدخلوا من غير استئذان الى صحن داره فخرج اليهم ناصر الدولة في رداء لانه كان آمناً منهم . فلما دنا منهم ضربوه بالسيوف فسيبهم وهرب منهم يريد الحرم فلاحقوه وضربوه حتى قتلوه واخذوا راسه . ومضى رجل منهم يعرف بكوكب الدولة الى نحر العرب اخي ناصر الدولة وكان نحر العرب كثيراً الاحسان اليه فقال لايجب « استأذن لي على نحر العرب وقل صنيعتك فلان بالباب » فاستأذن له فأذن له وقال لعله قد دهمه امر . فلما دخل عاينه اسرع نحوه كانه يريد السلام عليه وضربه بالسيف على كتفه فسقط الى الارض فقطع رأسه واخذ سيفه . وكان ذا قيمة وافرة واخذ جارية له اردفها خافه وتوجه الى القاهرة . وقتل اخوهما تاج المعالي وانقطع ذكر الحمدانية بمصر

بدر الجمالي امير الجيوش

على ان ذلك لم يكن ليسكن بال المستنصر اذ قد تخاص من شرووقع في آخر لان دكر لم يكن اقل معاكسة له من صهره فالتجأ المستنصر الى بدر الجمالي حاكم سوريا المتقدم ذكره فكتب اليه سرّاً ان يأتي بجيشه الى مصر ليوليه عليها فقبل بدر مشروطاً ان يستبدل جنود مصر بمن يختارهم من اهل الشام

سافر بدر الجمالي من سوريا في عصابة من رجال قد اختبر شجاعتهم وامانتهم طويلاً وسار الى عكا ومنها بجرأ الى مصر . وكانت الريح جيدة على غير المعتاد في مثل

ذلك الفصل لانه برح عكا في اول ديسمبر (كانون الاول) وباخ مصر ولم يشعر احده به ونزل بين تنيس ودمياط . فاستقبله سليمان كبير اهل البحيرة وتوجهوا نحو القاهرة فنزلوا في قايوب وبعثوا الى الخليفة ان يقبض على دكر قبل دخولهم فقبض عليه واعتقله في خزانة البنود . فدخل بدر الجمالي القاهرة يوم الاربعاء ٢٩ جمادى الاولى سنة ٤٦٧ هـ . ولم يكن للامراء علم باستدعائه فما منهم الا من اضافه . فلما انتضت نوبهم في ضيافته استدعاهم الى وليمة اعداها لهم في منزله وبيتت مع اصحابه « ان القوم اذا اجنهم ليل فانهم لا بد يحتاجون الى الخلاء فمن قام منهم الى الخلاء يقتل هناك » و وكل بكل واحد واحداً من اصحابه وانعم عليه بجميع ما يتركه ذلك الامير من دار ومال واقطاع وغيره . فصار الامراء اليه وظلوا نهارهم عنده وباتوا مطمئنين فما طاع ضوء النهار حتى استولى اصحابه على جميع دور الامراء وصارت رؤوسهم بين يديه . فقويت شوكرته وعظم امره وخلع عليه المستنصر بالطيئسان المقور وقلده وزارة السيف والقلم . فصارت القضاة والدعاة وسائر ارباب الدولة من تحت يده وزيد في القابله لقب « امير الجيوش كافل قضاة المسلمين وهادي دعاة المؤمنين » . وتتبع المفسدين فلم يبق منهم احد حتى قتله . وقتل من امثال المصريين وقضاةهم ووزرائهم جماعة . ثم خرج الى الوجه البحري فاسرف في قتل من هناك من لواتة واستصفي اموالهم وازاح المفسدين وافناهم بانواع القتل وصار الى البر الشرقي فقتل منهم كثيراً . ونزل الى الاسكندرية وقد ثار بها جماعة مع ابنه الاوحد فحاصرها اياماً من محرم سنة ٤٧٧ هـ الى ان اخذها عنوة وقتل جماعة ممن كان بها وعمر جامع العطارين من مال المصادرات وفرغ من بنائه في ربيع الاول سنة ٤٧٩ هـ ثم سار الى الصعيد فحارب جهينة والتعابية وافنى اكثرهم بالقتل وغنم من الاموال ما لا يعرف قدره كثرة فصلاح حال الاقليم بعد فساد

وكان يسعى جهده في اسعاد المصريين اينسيهم ما قاسوه طويلاً فنشط الزراعة وابعث الارض المزارعين ثلاث سنين حتى ترفعت حال الفلاحين واغثوا . وسهل سبل التجارة فتقاطر التجار الى مصر اكثر عدله بعد نزوحهم منها في ايام الشدة . وامر بانشاء البنايات العظيمة في القاهرة وغيرها من المدن الكبيرة وشاد الجوامع في الاسكندرية والقاهرة وجزيرة الروضة قرب المقياس . وكان المقياس قد اختل فاصلحه اصلاحاً يصح ان يقال فيه انه بناء ثانية . وبني دار الوزارة الكبرى ودعيت بالدار الافضلية وسكنها ولم يزل يسكنها بعده من يلي امرة الجيوش الى ان انتقل الامر الى بني ايوب فاستقر سكن الملك الكامل في قلعة الجبل خارج القاهرة وأسكنها

السلطان الملك الصالح ولده . ثم ارصدت دار الوزارة ان يرد من الملوك
ورسل الخليفة

وعادت سطوة الخليفة السياسية والدينية الى الديار المصرية وغيرها وعادت مكة الى
مبايعة المستنصر بعد ان قضت خمس سنوات تخطب للخليفة القائم بامر الله العباسي في
بغداد. ورفعوا الغطاء الاسود عن الكعبة ووضعوا مكانه الغطاء الابيض^(١) وعليه اسم
المستنصر بالله ولقبه . وبقيت مصر بعد ذلك ٢٠ سنة لم يحدث فيها ما يهم التاريخ ذكره
— واقل الامم ذكراً في التاريخ اسعدا

اما سوريا فان الامير اتسز احد الامراء التركمانيين اغتحم غياب بدر الجمالي
فقدم اليها غازياً فاستولى على بيت المقدس وطبرية وما بعدها حتى دمشق . ثم
تحول الى مصر في ٢٠ الف مقاتل وعسكر في سهل بجوار القاهرة . وكانت الجيوش
المصرية مشغولة في اخماد ما بقي من نيران الثورة في الصعيد فاضطرب اهل القاهرة ولم
ير بدر الجمالي بدءاً من مصالحة اتسز التركماني على ١٥٠ الف دينار يدفعها له بعد
خروجه من مصر . فقبل اتسز بتلك الشروط لكنها لم تدم اكثر من ٥٠ يوماً تمكن
امير الجيوش في انائها من حشد جيوشه من الصعيد واجتذاب قلوب بعض كبار
العربان الذين تتألف منهم معظم خيالة اتسز وبعض رجال التركمان الذين اتوا معه . فلما
صارت الجيوش المصرية بقرب القاهرة كتب امير الجيوش الى قافلة كانت تهيأت
الى الحج كتاباً ونصه : « ان الجهاد اعظم ثواباً عند الله من الحج فانضموا الى
جيوشنا » فطاعوه ففرق فيهم المال والسلاح . فلما تكامل عدد رجاله جمعهم وهجم على
اتسز ذات صباح بغتة واحكم في رجاله السيف فانهمزموا وقد قتل جانب كبير منهم
فتبعهم الاعراب والمصريون الى مسافة بعيدة . ثم عادوا الى معسكرهم فوجدوا فيه نحو
من عشرة آلاف ولد بين اناث وذكر قد اسرهم التركمان من مصر . وخسر التركمان
على اثر تلك المعركة جميع البلاد التي افنتحوها في سوريا فدخلت في حوزة الخليفة
المستنصر . ومات اتسز في دمشق اشقى موة

اصلاحات امير الجيوش ومناقبه

فلم يعد امام بدر الجمالي من يخالف امره ويقف في سبيل ارادته في اصلاح البلاد
وكان سور القاهرة قد تهدم بعضه فشرع في ترميمه وتقويته فزاد فيه الزيادات التي بين باي
زويله وباب زويلة الكبير وبين باب الفتوح الذي عند حارة بهاء الدين وباب الفتوح الآن .

(١) اللون الابيض يختص بالفاطميين والاسود بالعباسيين والاخضر بالامويين

وزاد عند باب النصر ايضاً جميع الرحبة التي تجاه جامع الحاكم الى باب النصر . وجعل السور من لبن واقام الابواب من حجارة . وبنى باب زويلة وعلى ابراجه ولم يعمل له باشورة كما هي عادة ابواب الحصون من ان يكون في كل باب عطف حتى لا تهجم عليه العساكر في وقت الحصار ويتعذر سوق الخيل ودخولها جملة . لكنه جعل في بابه زلاقة من حجارة صوانية عظيمة حتى اذا هجم عسكر على القاهرة لا تثبت قوائم الخيل على الصوان . فلم تزل هذه الزلاقة باقية الى ايام السلطان الملك الكامل بن العادل الايوبي فاتفق مروره من هناك فاختل فرسه وزلق به واحسبه سقط عنه فامر بنقضها فنقضت وبقي منها شيء يسير . وكان احدها في ايام المقريري لا يزال موجوداً قرب قبو الخرنفش . وبعد بضع سنين اضطرب القطر من عصابة ثارت تحت قيادة ابن بدر الجمالي لكنها لم تكد تأتي بضرر حتى انكسرت شوكتها

وفي سنة ٤٨٣ هـ احصى امير الجيوش الاراضى المصرية ومقدار خراجها وقابله بما كان يحصله الحكام قبله فرأى ان الخراج الذي كان يستخرج منها قبله لم يتجاوز مليونين وثمانماية دينار اما في ايامه فتجاوز ثلاثة ملايين ومائة الف دينار لاعتنائه الخصوصي بالزراعة وتلشيط التجارة وكانت رائجتين في ايامه . وما زال عاملاً بنشاط الى اوائل ذي الحجة سنة ٤٨٧ هـ فتوفي في القاهرة وسنه ثمانون سنة بعد ان حكم في مصر عشرين سنة حكماً مطلقاً . وكان الجميع يحترمونه وفي يده ازمة الاحكام يديرها بحكمة ودراية وثبات فتكاثر ثروة البلاد وخصيها الى حد لم تبلغه قبلاً . وكان ينشط الزراعة والتجارة والعلم والادب على السواء . وكان شديد الهيبة وافر الجريمة مخوف السطوة قيل انه قتل من مصر خلائق لا يحصيها الا خالقها . منها نحو عشرين المأ من البحيرة ومثل ذلك من اهل دمياط والاسكندرية والغربية والشرقية وبلاد الصعيد واصوان والقاهرة الا انه عمر البلاد واصلاحها بعد فسادها باتلاف المفسدين من اهلها . ولا يزال امير الجيوش معدوداً لدى المصريين بمنزلة عمرو بن العاص واحمد بن طولون

وكان محباً للادباء يقرب الشعراء ويطرب اسماع الشعراء ومن الشعراء الذين مدحوه علائمة بن عبد الرزاق الفليسي وقد حدث بعضهم عنه قال « قصدت بدرا الجمالي بمصر فرايت اشراف الناس وكبراءهم وشعراءهم على بابه قد طال مقامهم ولم يصلوا اليه - قال - فبينما انا كذلك اذ خرج بدر يريد الصيد فخرج علائمة في اثره واقام الي ان رجع من صيده فلما قاربته وقف على نشز من الارض واوماً برقعة في يده وانشأ يقول

نحن التجار وهذه اعلاقنا * در وجود يمينك المبتاع

قلب وقتشها بسمعك انما * هي جوهر تختاره الاسماع
كسدت عاينا بالشآم وكلما * قل النفاق تعطل الصناع
فاتاك يحملها اليك تجارها * ومطيرها الآمال والاطماع
حتى اناخوها ببابك والرجا * من دونك السمسار والبيع
فرهبت ما لم يعطه في دهره * هرم ولا كعب ولا القعقاع
وسبقت هذا الناس في طلب العلا * فالناس بعدك كلهم اتباع
يابدرا قسم لوبك اعتصم الورى * ولجوا اليك جميعهم ماضعوا

وكان على يد بدر بازي فالقاء وانفرد عن الجيش وجعل يسترد الايات وهو ينشد
الى ان استقر في مكانه، ثم قال لجماعة غلمانه وخاصته «من احبني فليخلع على هذا الشاعر»
فخرج من عنده ومعه سبعون بغلا تحمل الخلع والتحف وامر له بعشرة آلاف درهم
فخرج من عنده وفرق كثيراً من ذلك على الشعراء «ولما مات بدر قام بما كان اليه
ابنه الافضل

صقلية

وبعد وفاة امير الجيوش ببضعة ايام توفي الخليفة المستنصر في ١٨ من الشهر نفسه
وسنة ٦٧ سنة وخمسة اشهر قضى منها ستين سنة في منصب الخلافة ولم يكن اهلاً
لادارة الاحكام لضعفه وقصر حجبته وتصديقه كلما يقال له مهما كانت حقيقة. فكان لقب
الخلافة له اسماً غير مسمى . ومع طول مدة خلافته لم يحدث فيها غير تلك الضيقات
العظيمة. ولم تكن مصر وحدها في ذلك العذاب فان صقلية كانت من اغنى بلاد الفاطميين
تربة وكانت قبلاً في حكم الاغلبة ونظراً ابعدها عن كرسي الخلافة لم تكن فيها فائدة .
وكان الولاد الذين يرسلون اليها يحاولون الاستقلال . ففي ايام الخليفة المعز لدين الله كان
على هذه الجزيرة وال يقال له احمد راي الخليفة منه ميلاً عن الطاعة فنفاه الى افريقية
واقام مقامه غيره وغيره وساروا كلهم على خطة واحدة. فتعدت القلاقل وانقسم اهل
الجزيرة على انفسهم فلم يعد في امكانهم دفع من بغزوهم من الافرنج وزد على ذلك ان
جيرانهم الافرنج سكان الجزيرة نظراً لما كانوا يعاملون به من الاستبداد كانوا يودون
الخروج من سلطة المسلمين فجعلوا يكتبون اباء ملاتهم من الدول الاخرى . وكل هذا
جرى في ايام المستنصر وانتهى بخروج تلك الجزيرة من سلطة المسلمين
وذلك ان مسلمي هذه الجزيرة كانوا حزينين متضادين يرأس احدهما ابن تمامة
فتحاربوا فانهزم ابن تمامة برجاله والتجأ الى مدينة كاتان وكانت في حوزة الفرنسيين

من سنة ٣٧٢ هـ فاستبشر الفرنسيون بقدومه فاكرموا وقادته وأمدوه بالعدة والرجال
 أما الحزب الآخر فكان قد استعمل المعز بن باديس فأمد به بفرقة من افريقية فجرت
 بين الحزبين واقعة احتدمت ناراها على الخصوص بين الاحزاب المساعدة وهم رجال
 المعز بن باديس من الجهة الواحدة والجيوش الفرنسية تحت قيادة روجر الاول من
 الجهة الاخرى . وانتهت بانتصار ابن تمامة ورجال روجر وانهمزام من كان في الجزيرة
 من المسلمين فدخلها روجر وقد نفذ سهمه . فاخذ يسمى في تمكين قدمه فباعه اهلها
 سنة ٤٥٣ هـ وهكذا خرجت هذه الجزيرة من سلطة الفاطميين . وما زالت صقلية في
 حوزة روجر حتى مات فخلفه ابنه ولقب روجر الثاني سنة ٤٩٥ هـ فنتبع خطوات ابيه
 في اصلاح شأن الجزيرة فتقدمت في ايامه تقدماً عظيماً لم يتابعه في سائر ازمانها فنسيت
 الازمان التي مضت عايتها وهي غارقة في التقلبات والتحزبات وسفك الدماء . اما المسلمون
 الذين اختاروا المكوث في الجزيرة فظلوا متمتعين بجميع حقوقهم المدنية
 والسياسية والدينية



وترى في الشكل السابع والاربعين
 صور النقود التي ضربت على عهد ملوك
 صقلية الاقدمين في باليرم عاصمة ايطاليا
 اذذاك



ش ٤٧ : نقود ملوك صقلية القدماء مضروبة في باليرم
 وفي الشهر الاول من سنة ٤٨٧ هـ توفي المقتدي بالله الخليفة السابع والعشرون من
 بني العباس . وفي الشهر الاخير توفي المستنصر ووزيره الباسل امير الجيوش كما تقدم . وكانت
 وفتهما خسارة جسيمة على العالم الاسلامي وصدمة قوية على الخلافة . وترى في الاشكال
 ٤٨ و ٤٩ صور النقود الذهبية التي ضربت في ايام الخليفة المستنصر بالله فالاولى ضربت



في القاهرة سنة ٤٢٨ هـ والثانية ضربت سنة ٤٦٥ هـ . ولم يغفل بدر الجمالي قبل موته عن النظر في
 مستقبل المملكة فأوصى بتدبيره الولد الثاني شاهين
 شاه (لان الاول كان عاصياً كما تقدم) اما هذا فكان

فاضلاً حكيماً وكان قبل وفاة ابيه لا ينفك عن ش ٤٨ : نقود المستنصر ضربت سنة ٤٢٨ هـ

ملاصقته والافتداء بتناقبه فتدرب على يده وكان يساعده في آرائه قرأى فيه أبوه رجلاً



يليق بإدارة الأحكام واستلام زمام الأمور . ولما
تولى شاهين شاه الوزارة لقب بالافضل وبجميع
الالقاب والامتيازات التي كانت لابيه امير الجيوش

ش ٤٩ : عقود المستنصر ضربت سنة ٤٦٥ هـ

خلافة المستعلي بن المستنصر

من سنة ٤٨٧ - ٤٩٥ هـ او من ١٠٩٤ - ١١٠١ م

اما المستنصر فاوصى بالخلافة لابنه الثاني احمد الملقب بابي القاسم فبادر الافضل
الى القصر واجلس ابا القاسم احمد بن المستنصر في منصب الخلافة ولقبه بالمستعلي بالله
وسير الى الامير نزار والامير اسماعيل ولدي المستنصر فجاؤا اليه فاذا اخوهما قد جلس
على سرير الخلافة فامتعضا لذلك وشق عليهما . فأمرهما الافضل بتقبيل الارض وقال
لهما « قبلا الارض لمولانا المستعلي بالله وبايعاه فهو الذي نص عليه الامام المستنصر
قبل وفاته بالخلافة من بعده » فامتعضا من ذلك وقال كل منهما ان اياه قد اوصى له
بالخلافة وقال نزار « لو قطعت يدي ما بايعت من هو اصغر مني وخط والدي عندي
بأني ولي عهده وانا احضره » وخرج مسرعاً ليحضر الخط فمضى لا يدري به احد وتوجه
الى الاسكندرية . فلما ابطأ مجيئه بعث الافضل اليه ليحضر بالخط فلم يعلم له خبراً
فانزعج لذلك انزعاجاً عظيماً

نزار واقنكين

وكان الافضل حاقداً على نزار لاسباب منها انه دخل يوماً من باب وهو راكب
فصاح به نزار « انزل يا ارمي » . فحقدها عليه وصار كل منهما يكره الآخر .
فلما مات المستنصر خاف الافضل من مبايعة نزار لانه كان رجلاً كبيراً هماماً
وله حاشية واعوان فعمد الى مبايعة اخيه احمد بعد ان اجتمع بالامراء وخوفهم من
نزار وما زال بهم حتى وافقوه على الاعراض عنه . وكان من جملتهم محمود بن مصال

فبعث الى نزار واعلمه بما كان من اتّفاق الافضل مع الامراء على اقامة اخيه احمد وادارته لهم عنه ثم كان استدعاء الافضل له ولاخيه لمبايعة اخيهما . فلما خرج نزار ليأتي بوصية ابيه له بالخلافة سار من القصر متكرّراً ومعه ابن مصال الى الاسكندرية وفيها الامير نصر الدولة افتكين احد مماليك امير الجيوش بدر الجوالي ودخلا عليه ليلاً واعلماه بما كان من الافضل وتراحميا عليه ووعد نزار بأن يجعله وزيراً مكان الانضل فقبلاههما اتم قبول وبايع نزاراً واحضراهل الثغر لمبايعة فبايعوه ونامته بالمصطفى ادين الله

فبلغ ذلك الافضل فأخذ يتجهز لمحاربتهم وخرج في آخر محرم سنة ٤٨٨ هـ بعساكره الى الاسكندرية فبرز اليه نزار وافتكين وكانت بين الفريقين وقائع شديدة انكسر فيها الافضل ورجع بمن معه منهزماً الى القاهرة . فقوي نزار وافتكين وصار اليهما كثير من العرب . واشتد نزار وعظام واستولى على الوجه البحري واخذ الافضل يتجهز ثانية لمحاربته ودس الى اكابر العربان ووجوه اصحاب نزار وافتكين ووعدهم . وسار قاصداً الاسكندرية فنزل اليها وحاصرها حصاراً شديداً والح في مقاتلتها

فلما كان في ذي القعدة وقد اشتد البلاء من الحصار جمع ابن مصال ماله وفرّ في البحر الى جهة بلاد الغرب فانكسرت شوكة نزار واشتد الافضل وتكاثرت جموعه فبعث نزار وافتكين اليه يطلبان الامان فامنهما ودخل الاسكندرية وقبض على نزار وافتكين وبعث بهما الى القاهرة . فأما نزار فإنه قتل في القصر بان اقيم بين حائطين بنيا عليه فمات بينهما . واما افتكين فقتله الافضل بعد قدومه

فعاد السلام الى الممساكة فعكف الافضل على استرجاع البلاد التي كانت قد خرجت من الدولة الفاطمية ودخات في حوزة دولة الارتقيين

دولة الارتقيين

وكيفية نشوء هذه الدولة ان الساجوقيين خرجوا من بلاد التتر قبل ذلك الحين بنصف قرن فافتتحوها بلاد فارس وكانت تابعة للدولة العباسية ثم التقوا في غربها بقبائل من التركمان عائشين على تربية المواشي لا معرفة لهم بالحروب فاخرجوهم من ضواحي بحر قزوين وساقوهم الى حدود سوريا . فلما بلغوا ذلك المكان اضطروا لتنازع البقاء ان يقاوموا من يمنعهم من نيل رزقهم فاستخدموا قوتي الهجوم والدفاع حتى اصبحوا كغيرهم من المحاربين ولكنهم ما لبثوا ان اصبحوا كذلك حتى كانت الدولة الساجوقية قد امتدت الى حيث هم فدفعتهم امامها فتقهقروا الى غربي سوريا

وانتشروا فيها وفي فلسطين . فامير التركمانيين المتقدم ذكرهم كان يدعى ارتق بن اكسك استولى على اورشليم فاسس دولة عرفت بدولة الارتقيين . وفي سنة ٤٨٤ هـ توفي ارتق عن وادين الغازي وسقمان فحكمهما معاً في بيت المقدس وسائر فلسطين وقسم من غربي سوريا وكانت جميع هذه البلاد في قبضة الخلفاء الفاطميين . ففي ايام شاهين شاه الافضل كان الارتقيون على ما تقدم والساجوقيون في بلاد فارس والقسم الشرقي من سوريا

وفي سنة ٤٩١ هـ سار ادير الجيوش الافضل لانقاذ بيت المقدس من الارتقيين فطالب اليهم التسليم فابوا فضر بها بالمنجنيق فهدم بعضها فسلمت وفر الارتقيون الى شرقي سوريا . فسار سقمان الى الرها واقام لنفسه حكومة فيها وضم اليها ديار بكر واستولى الغازي على العراق العربي وانشأ مملكة في ماردين

الحروب الصليبية

ثم كانت الحروب الصليبية اذ ذاك في اول نشأتها نعي ايام التعصبات الدينية العمياء التي ينجبل التاريخ من ذكرها . فكم اهرقت من الدماء وكم احرمت الناس من الراحة . ان ذلك التعصب ساق اهل اوربا من بلادهم بالعدة والرجال لمحاربة سوريا وفلسطين ومصر ولم تكن النتيجة الا اهلاك العباد المقصود انقاذهم . فمن نجا من السيف لم ينج من الاستعباد . وانا لنسك القلم من الخوض في هذا الموضوع الذي يسود القلوب ويشوه وجه الانسانية

فتأمل الحالة التي كانت البلاد الاسلامية فيها من الارتباك وما كان في طريقها من العقبات كيف كانت منقمة بينها . فقام اهل اوربا جميعاً وجاهروا بمحاربتها واحتشدوا في القسطنطينية بامر الامبراطور الكس كمون الاول والساجوقيون يزحفون في آسيا يفتتحون البلد بعد الآخر حتى بلغوا الاناطول فاصبحوا يهددون المسلمين في مصر كما يهددون النصارى في القسطنطينية . وما زالوا سائرين نحو القسطنطينية حتى ادركوا شاطئ البوسفور الشرقي فلم يبق بينهم وبين القسطنطينية الا ذلك البوغاز . وكان اذا ذكر اسم الله في معسكر المسلمين وقت الصلاة يسمعه المسيحيون في كنيسة اياصوفيا على الجانب الآخر

ثم قطعت جيوش النصارى البوسفور وعددهم عظيم . فقابلهم السلطان قليج ارسلان الساجوقي بن سليمان شاه مؤسس الدولة الساجوقية فخاربه

وارجعوه وجيشه الى الورا واستولوا على نيقية ثم انطاكية . فجاء المسلمين مدد من كتبوغا امير الموصل ودقاق امير دمشق وجناح الدولة امير حمص . ومع كل منهم فرقة من الرجال فاحاطوا بالصليبيين وضيّقوا عليهم فتجمع هؤلاء ودافعوا دفاع اليأس ودفعوا قوات المسلمين وفرقوها فلم يبق ما يوقفهم عن التقدم . فاستولوا على المعركة بعد حرب ودخلوا حمص بدون حرب وانتشر جنودهم في جميع انحاء سوريا الغربية وفلسطين كالامواج المتلاطمة فلاقتها جيوش مصر هناك . وكانت بيت المقدس في حكم الخليفة المستعلي الفاطمي . عند استيلائها من الارتقيين فحاصرها الصليبيون اربعين يوماً ثم افتتحوها عنوة ودخلوها يوم الاربعاء في ٢٢ شعبان سنة ٤٩٢ هـ (يوليو «تموز» سنة ١٠٩٩) بعد مذبحه استمرت اسبوعاً فاصبحت الجثث متراكمة في الاسواق فجعلوا يجمعونها في الجامع الاقصى . وقيل انه قتل في تلك المعركة نحو من ٧٠ الف نفس واغنم الصليبيون غنائم كبيرة وساروا لفتح مصر



ش ٥٠ — قتال بين الصليبيين والمسلمين في القرن الحادي عشر للميلاد

نقلاً عن صورة مرسومة على زجاج نافذة بكنيسة القديس دنيس

فاضطربت مصر لتلك الاخبار واصبحت تخشى ان يصيبها مثل ذلك فحشد امير الجيوش لمحاربة الصليبيين جنداً وافراً تحت قيادة سعد الدولة . فساروا وما زالوا حتى التقوا بالجيوش الصليبية عند اسوار عسقلان فخاربوها فارجعوها على اعقابها . فلما راي الصليبيون انفسهم خارج حدود مصر لم يعودوا يطمعون فيها فوجهوا مطامعهم شرقاً الى ما بين النهرين . فالتقت فرقة منهم بكمشتكين امير ملاطية وسيواس فكسرها ولم يوقفهم عن مرادهم . فساروا من الجهة الواحدة نحو ديار بكر الى سروج ومن الجهة

لاخرى حتى استولوا على ارسوف وقيصرية

ومرت سنتا ٤٩٣ و ٤٩٤ هـ في مثل هذه المناوشات . وفي يوم الثلاثاء ١٧ صفر سنة ٤٩٥ هـ توفي الخليفة المستعلي بالله في القاهرة بعد ان حكم ٧ سنوات وشهرين وله ولد اسمه المنصور لم يبلغ السادسة من عمره فكان شاهين شاه وصياً عليه كما كان وصياً على ابيه قبله . وكان قد عهد اليه ان يلقب عند مبايعته بالآمر باحكام الله ففعل

خلافة الامر بن المستعلي

من ٤٩٥ — ٥٢٤ هـ او من ١١٠١ — ١١٣٠ م

وكان الصليبيون في اثناء ذلك لا يزالون في فتوحهم بسوريا وقد فازوا لانقسام الدول الاسلامية . وكان الواجب في مثل هذه الحال ان يتحدوا يداً واحدة لمقاومة اعدائهم لكنهم جاؤا بالعكس فانقسمت الآراء وتشقت القوات فكانت تلك فرصة لجماعة الصليبيين لم يضيعوها لان الكونت سنجيل بعد ان استولى على طرسوس وحصن وجبيل وطرابلس الشام تقدم نحو عكا سنة ٤٩٧ هـ وحاصرها برّاً وبحراً . وكانت عكا في ذلك الحين تابعة لمصر وحاكمها يدعى زاهر الدولة ويلقب بالجيوشي لانه كان اتباع امير الجيوش . وطال امد الحصار حتى ملّ الصليبيون الانتظار فهاجموا المدينة ودخلوها عنوة وفتكوا بمن فيها . وفرّ زاهر الدولة الى الشام ومنها الى مصر ووصل الى مصر في ذلك الحين ايضاً الامير خائف بن ملاعب الكلابي . وكان والياً على حمص اخرجته منها تناس صاحب دمشق زوراً سنة ٤٨٥ هـ فأتى مصر وعرض نفسه لخدمة الخلفاء الفاطميين . وكان قد طاف انحاء المملكة الاسلامية لاستطلاع احوالها شأن الحب لمعرفة حقائق الاشياء . فوصل مصر والخليفة في احتياج الى خدمته وذلك ان اباه في غربي سوريا كان قد تملكها الباطان رضوان نخر الدولة الساجوقي واقام عليها والياً من قبله . فكتب هذا الوالي لامير الجيوش سرّاً انه مستعد لتسليم المدينة لمن يرسله خليفة مصر . فتقدم الامير خائف لهذه المهمة فقبل فسار الى اباه وتملكها . ولم ترسخ قدمه فيها حتى نبذ الطاعة واوقف دفع الجزية فاراد الخليفة معاقبته فلم يستطع لما كانت عليه سوريا من القلاقل والفتن . فانف قاضي تلك المدينة واعيانها من البقاء على تلك الحال . فبعثوا الى والي حلب يطالبون حمايته فهاجم فسلموا له المدينة وقتلوا خلفاء وبعض اهله . لكن الدهر لم يدم لهم لانهم ذهبوا غنيمة للصليبيين في سنة ٤٩٩ هـ

وأول من قتل منهم القاضي المتقدم ذكره

وفي أثناء ذلك كان الكونت سنجيل محاصراً طرابلس الشام وقد شخص أميرها إلى بغداد يستمد الخليفة المقتدر العباسي والسلطان ملك شاه الساجوقي فلم يمداه بشيء فاستجار أهلها بخليفة مصر فاجارهم وبعث الأفضل أحد أوليائه إلى طرابلس فتملكها باسم الخليفة الأمر وأرسل إليها بعد ذلك عمارة بحرية تدفع الصليبيين عنها فتأخر وصولها لمعاكسة الريح لها . وفي ١١ ذي الحجة سنة ٥٠٣ هـ (يوليو سنة ١١١٠ م) فتح الصليبيون طرابلس الشام عنوة وقتلوا بعض أهلها واستعبدوا البعض فسبوا بدخولهم إليها من الخسائر ما لا يمكن أن تسببه الحرب

ففي سبع سنين كلها حروب دموية استولى الصليبيون على سوريا وفلسطين وجعلوا بيت المقدس قسبة ملكهم . أما مصر فكانت في جميع هذه الحوادث على الحياد إلا المدافعة عند الحاجة . وكانت تعد ذاتها سعيدة لنجاتها من هجمات أولئك الصليبيين وكل ذلك بتدبير الأفضل أمير الجيوش

وفي سنة ٥٠٦ هـ أمر الأفضل ببناء خليج سماه بحر أبي المنجا لان الذي ناظر على حفره هو أبو المنجا أبو شعيا اليهودي . وانشأ الأفضل أيضاً مرصداً عظيماً كلفه مشقات جسيمة . وجعل مركز ذلك المرصد على مرتفع في جوار المقطم كان يعرف قديماً بالجرف ثم لما اقيم فيه المرصد صار يعرف بالمرصد

البدوية وابن عمها

على ان المهمة التي كان يبذلها الأفضل أمير الجيوش في سبيل مصالح البلاد لم تكن تحرك من الخليفة الأمر بأحكام الله ساكناً . وكان منغمساً بالملاهي لا يسمع بغانية جميلة الا استقدها . وكان له شغف خصوصي بالجواري البدويات . ومن اقاصيصه انه بلغه ان في الصعيد جارية من اكمل العرب واطرف نسائهم شاعرة جميلة فيقال انه تزيا بزي بداء الاعراب وصار يجول في الاحياء حتى انتهى الى حيها وبات هناك في ضائفة وتحايل حتى عاينها فما ملك صبره أن يرجع الى مقر ملكه وسرير خلافته فأرسل الى أهلها يخطبها فاجابوه الى ذلك وزوجوه بها . فلما صارت الى القصور شق عليها مفارقة ما اعتادته واحبت ان تسرح طرفها في الفضاء ولا تقبض نفسها داخل اسوار المدينة فبنى لها البناء الذي اشتهر في الجزيرة بالهودج . وكان على شاطئ النيل بشكل غريب . الا ان البدوية بقيت متعلقة الخاطر بابن عمها ربيت معه يعرف بابن مباح فكتبت اليه وهي في قصر الخليفة الأمر تقول :

يا ابن مياح اليك المشتكى
كنت في حيي مرءاً مطلقاً
فانا الان بتصر موصد
كم تشيننا باغصان اللوا
وتلاعبننا برملات الحمى
مالك من بعدكم قد ملكا
نائلاً ما شئت منكم مدركا
لا ارى الا حبيساً ممسكا
حيث لا نخشى علينا دركا
حيثما شاء طليق سلكا

فاجابها

بنت عمي والقي غزيتها
بجت بالشكوى وعندي ضعفها
مالك الامر اليه يشتكى
شان داود غدا في عصرنا
بالهوى حتى علا واحتكا
لو غدا ينفع منا المشتكى
هالك وهو الذي قد هلكا
مبدياً بالنيه ما قد ملكا

فبلغت الامر فقال « لولا انه اساء الادب في البيت الرابع لرددتها الى حيه

وزوجتها به »

وفي اواخر سنة ٥١١ هـ خرج بردويل ملك الصليبيين من بيت المقدس لافتتاح مصر بجيش غفير فوصل الفرما فاستولى عليها وذبح اهائها واحرق جوامعها . وهم بمصر فداهمه مرض حمله على العود حالاً فعاد الى بيت المقدس فمات قبل ان يدرك العرش فزعوا احشاءه ودفنوها في مكان لا يبعد كثيراً من العرش في ارض رملية واقاموا على قبره حجراً كبيراً ولا يزال ذلك المكان معروفاً الى ايامنا باسم رمال بردويل . اما جثته فحملوها الى بيت المقدس . وبوت بردويل نجحت مصر من فتح عظيم . وبقي الصليبيون سبع سنوات اخرى لا يستطيعون مناهضة مصر لاشتغالهم بهجمات المسلمين من شرقي سوريا . ففي سنة ٥١٨ هـ اتى الصليبيون صور واخذوها صاحداً واذنوا للمسلمين ان يخرجوا منها بكل ما يستطيعون حمله . وكانت صور اذ ذاك تابعة لمصر تخاف خليفاتها من تقدم الصليبيين الى مصر نفسها وكانوا قد كفوا عن الفتوح فنبههم اليه الارتقيون وعماد الدين زنكي في شرقي سوريا والعراق

وفي اثناء ذلك نشأت طائفة الباطنيين ويدعوهم بعض المؤرخين بالخشاشين لانهم كانوا يكثرون من تدخين الحشيش وهم فئة جمع بينهم التعصب والطمع . وكان رئيسهم يترصد فرصة للغزو والنهب فلما رأى الدول القوية مشغولة بالحرب في انحاء المشرق وضع يده على بعض القرى الجبلية بجوار دمشق ثم جعل يناهض الصليبيين فيحاربهم تارة ويصالحهم اخرى الى ان انتهى الامر فاقام حكومته بين ظهريهم واجتني حصوناً

منيعه ارهبت الولاة المسيحيين وخلفاء الاسلام فاجبرهم على دفع الجزية وقاية من فتكه بحياتهم فانه كان متفناً في القتل بطرق سرية على يد بعض رجاله الدهاة . وفي سنة ٥٢٤ هـ سعي امير الباطنيين في قتل الآمر باحكام الله فانفذ اليه بعض دهاته فقتلوه في ٢ ذى القعدة من السنة المذكورة وهو في طريقه الى زيارة معشوقته البدوية وسنه ٣٥ سنة وحكمه ٣٠ سنة تقريباً



وترى في شكل ٥١ صورة نقود الآمر باحكام الله ضربت بالاسكندرية سنة ٥١٢ هـ (انظر شكل ٥١)

ش ٥١ : نقود الآمر باحكام الله ضربت في الاسكندرية

خلافة الحافظ بن محمد

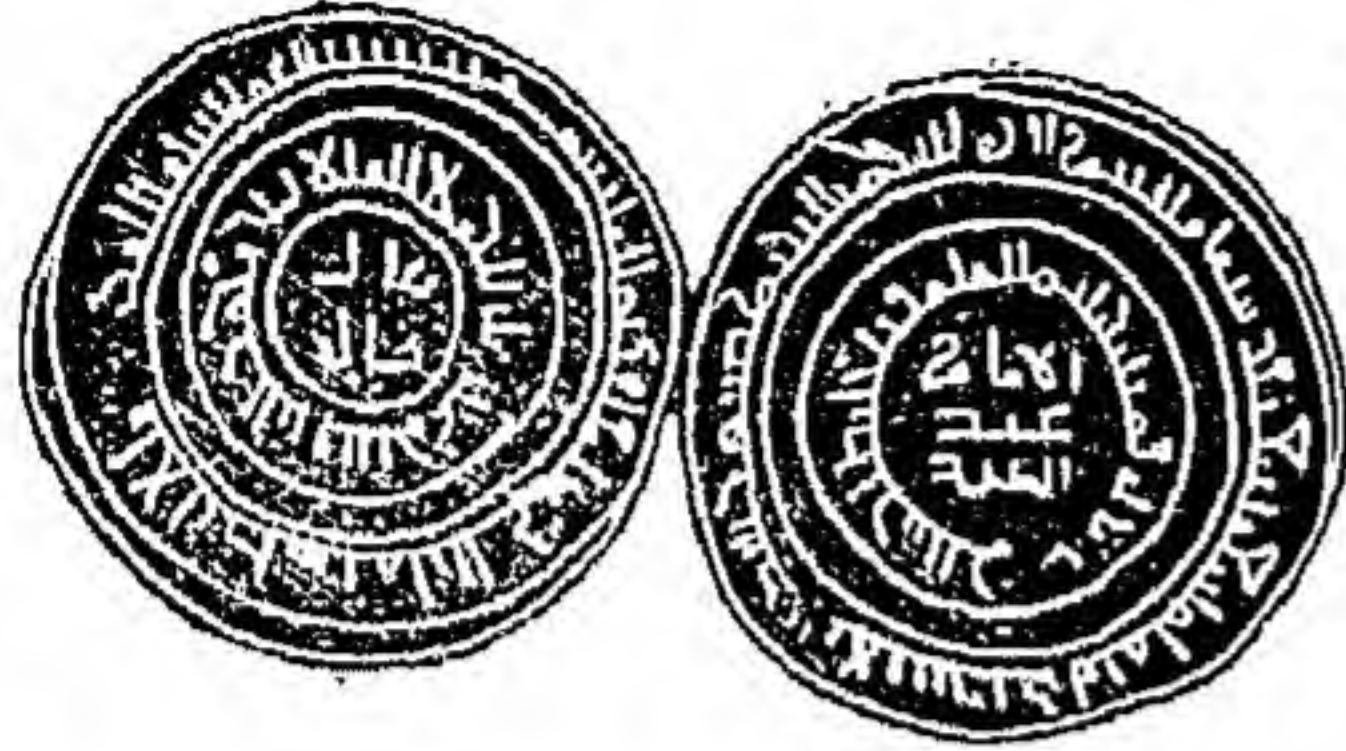
من ٥٢٤ — ٥٤٤ هـ او من ١١٣٠ — ١١٤٩ م

ولم يكن للآمر اولاد ذكور فكان الحق بالخلافة لابن عمه عبد المجيد بن القاسم ابن محمد ولكن ارملة الخليفة كانت حاملاً فلقب عبد المجيد بنائب الملك ريثما تلد ويرون ماذا يكون المولود فوضعت ابنة فبويص عبد المجيد ولقب بالحافظ لدين الله . فاستوزر احمد بن الافضل بن امير الجيوش فقام بالوزارة حق القيام فعظم في عيني الخليفة فكثر حساده فقتلوه . فاستوزر وزيراً اخر اختبر فيه الدراية والحكمة واسمه بهرام لكنه لم يلبث ان قتل في اواخر سنة ٥٤٣ هـ فعزم الخليفة بعد ذلك ان يتولى اعباء الوزارة بنفسه

وفي خلال ذلك لم يكن في مصر اضطراب الا من حيث مشاركتها سوريا بالحروب الصليبية على انها ما فتئت ساهرة تخشى غائلة تلك التعصبات لكنها لم تكد تتراح من حروبها في الشرق حتى ظهر لها عدو هائل في الغرب فاصبحت الدولة الفاطمية حجباً بين مطرقتين : فعدوها في الشرق الصليبيون واما في الغرب فملك صقلية روجر الثاني . وقد تقدم انه تولى هذه الجزيرة بالارث وكان الفاطميون قد علموا بنهايتها من ايديهم فلم يأسفوا عليها ابعدا عن مركز حكومتهم . فلم يقنع روجر بما ناله فحملته مطامعه

ان يطلب الفتح فجرد عمارة من مائتين وخمسين شراعاً وتقدم نحو افريقية سنة ٥٣٩ هـ واستولى على برصة وقتل كل من كان فيها من الرجال واستعبد النساء . وفي سنة ٥٤١ هـ وضع يده على طرابلس الغرب واستولى في سنة ٥٤٣ هـ على المهديّة مهد الخلافة الفاطمية وكان قد هجرها اهالها لجوع مدقع حل بهم . ثم تقدم روجر من هناك قاصداً الاسكندرية . ف وقعت مصر في حيرة وقد اصبحت هذا العدو في عينها اشد وطأة من الصليبيين لاشتغال هؤلاء عن مصر بما كان يهددهم به زكي واتبك محمود الملقب بالملك العادل نور الدين

وفي اثناء ذلك توفي الخليفة الحافظ في جمادى الثانية سنة ٥٤٤ هـ بعلة القولنج وكان كثير الاصابة بها . فعمل له موسى الطبيب النصراي طبيل القولنج وهو عبارة عن طبيل مركب من سبعة معادن عاينه الكواكب السبعة وكان من خاصته ان الانسان اذا ضربه خرج الریح من مخرجه ولهذا الخاصية كان ينفع في القولنج . وكان سن الحافظ عند موته ثمانين سنة ومدة حكمه ١٩ سنة و٧ اشهر ولم يكن من التدبير والحكمة على شيء فكان يعهد ادارة الاحكام لوزرائه مكنتياً بالسلطة الدينية المحصورة في كل خليفة ولم يكن لديه من السلطة السياسية الا التوقيع على الاوامر في تشييب الامراء على اماراتهم شأن الدول عند وشك انحلال ملكها الا ان تغيير الوزراء جعل فيه بعض



الاهتمام في الاحكام . وترى في شكل ٥٢ صورة نقود الحافظ لدين الله ضربت في الاسكندرية سنة ٥٤٤ هـ وهي السنة التي توفي فيها

خلافة الظافر بن الحافظ

من ٥٤٤ - ٤٩ : ما من ١١٤٩ - ١١٥٤ م

واستخلف الحافظ ابنه اسماعيل ابا المنصور فبويع ولقب بالظافر بأمر الله لـكنه لم يكن مطابقاً لذلك الاسم . وكان عمره ١٧ سنة وهو صغرا ولاد ابـيه سنّاً وكان كثير اللهو واللعب والتفرد بالجواني واستماع الاغاني فكان ينظر الى الدسائس الجارية في قصره الآيلة الى خراب مملكته بعين المتردد المتهامل وبمثل ذلك كان ينظر الى تهديد جنود صقاية من جهة الغرب والصليبيين من الشرق وكل منهما يقترب رويداً رويداً من قاعدة المملكة الفاطمية والظافر مشعر بقرب سقوط خلافته ولا يـبدي حراكاً وفي السنة الرابعة من خلافته وهي سنة ٥٤٨ هـ حاصر الصليبيون عسقلان وكانت من اعمال الفاطميين ونظراً لوقوعها على حدود مملكتهم كانت عرضة لهجمات الصليبيين وكان الوزراء في ايام الخلفاء السالفين يعززونـها بمهمات الدفاع . وفي اوائل خلافة الظافر توفي وزيره ووقع الخلاف بين ذوي شـوراه فشغلوا بذلك عن صيانة البلاد فاهملوا امر عسقلان فاغتنم الصليبيون تلك الفرصة وحاصروا المدينة وضيقوا عليها حتى سلمت . فـجاء خبر سقوطها الى القاهرة مع خبر آخر اشد وطأة منه وهو ان العمارة الصقلية نزلت على سواحل مصر واحرقت مدينة تنيس في بحيرة المنزلة ونهبـت الفرما لـكنها لم تتقدم اكثر من ذلك فأخذت ما أمكنها حمـله من الغنائم وعادت من حيث أتت ومن سنة ٥٤٩ هـ انتهت حياة الخليفة الظافر وحكمه معاً وسبب موته انه كان منهمكاً بالشهوات الوحشية مشغولاً عن مهام الدولة فشق ذلك على وزيره العباس فأوعز الى ابنه نصر ان يقتله وينجي البلاد من شره ويتخلص مما كان يتقول الناس في عرضهما من معاشرته اياه فاستدعاه الى دار ابـيه سرّاً ولم يعلم به احد وتلك الدار هي المدرسة الحنفية التي عرفت بالسيوفية فقتله بها واخفى قتله في منتصف محرم سنة ٥٤٩ هـ فأتى نصر الى ابـيه العباس واخبره بذلك من ليلته . واما كان الصباح اقبل العباس الى القصر على جاري عـادته في الخدمة واظهر عدم الاصلاح على قضيته وطلب الاجتماع به ولم يكن اهل القصر قد علموا بقتله بعد لانه خرج من عندهم خفية وما علم احد بخروجه فدخل الخدم الى موضعه ليستأذنوا للعباس فلم يجدوه فدخاوا الى قاعة الحرم فـقيل لهم انه لم يـبت هنا فنطابوه في جميع مظانه في القصر فلم يتعوا له على خبر فتحققوا قتله . فأخرج العباس

اخوي الظافر وهما جبريل ويوسف وقال لهما « انما قتلتما اماننا . وما نعرف حاله الا منكما فاصراً علي الانكار وكانا صادقين في ذلك فقتلتهما حالاً لينفي التهمة عن نفسه وعن ابنيه



وترى في شكل ٥٣ صورة نقود الظافر
بامر الله ضربت في الاسكندرية سنة ٥٤٥ هـ

ش ٥٣: نقود الظافر بامر الله ضربت في الاسكندرية

خلافة الفائز بن الظافر

من ٥٤٩ - ٥٥٦ هـ او من ١١٥٤ - ١١٦٠ م

فاستدعى عباس الفائز بن الظافر وتقدير عمره خمس سنوات وقيل سنتان فحملة على كتفه ووقف في صحن الدار وامر ان يدخل الامراء فدخلوا فقال لهم « هذا ولد مولاكم وقتل عماء اباه وقد قتلتهما به كما ترون والواجب اخلاص الطاعة لهذا الطفل » فقالوا بأجمعهم « سمعنا واطعنا » وصاحوا صيحة واحدة اضطرب منها الطفل وبال على كتف عباس وسموه الفائز وسيروه الى امه وقد اختل من تلك الصيحة فصار يصصر في كل وقت ويختلج

الملك الصالح

فاخذ عباس من ذلك الحين يدبر الامور وانفرد بالتصرف ولم يبق على يده يد واما اهل القصر فانهم اطلعوا على باطن الامر واخذوا في اعمال الحيلة في قتل عباس وابنه فكاتبوا بذلك الصالح طلائع بن رزيك الارمني - وهو ابو الغارات الملك الصالح فارس المساميين نصير الدين كان قد سار الى زيارة مشهد الامام علي بن ابي طالب بأرض النجف من العراق في جماعة من الفقراء وكان من الشيعة الامامية فتنبأ له الامام انه سيتولى مصر بناءً على رؤيا رآها في منامه فسار من ساعته الى مصر وصار يترقى في الخدم حتى ولي منية خصيب (المنيا)

فلما صار اهل القصر الى ما صاروا اليه كتبوا الى طلائع وسألوه الانتصار لهم ولمولاهم والخروج على عباس وقطعوا شعورهم وسيروها في طي الكتاب وسودوا الكتاب فلما وقف الصالح عليه أطلع من حوله من الاجناد وتحدث معهم في المعنى فأجابوه الى الخروج واستمال جمعاً من العرب وساروا الى القاهرة وقد لبسوا السواد

فلما قاربوها خرج اليهم من بها من الامراء والاجناد والسودان وتركوا عباساً وحده
نخرج عباس في ساعته من القاهرة وخرج معه ولده نصر ومعهما شيء من المال وجماعة
يسيرة من اتباعهم وقصدوا طريق الشام على ايلة في ١٤ ربيع اول سنة ٥٤٩ هـ . أما
الصالح بن رزيك فانه دخل القاهرة بدون قتال وما قدّم شيئاً على النزول بدار عباس
المتقدم ذكره . واستحضر الخادم الصغير الذي كان مع الظافر ساعة قتله وسأله عن
الموضع الذي دفن فيه فعرفه به وقلع البلاطة التي كانت عليه واخرج الظافر ومن
معه من المقتولين فحملوا وقطعت لهم الشعور وانتشر البكاء والنواح في البلد ومشى
الصالح والخلق قدام الجنازة الى موضع المدفن في تربة الفاطميين

وتكفل الصالح بالخليفة الصغير ودبر احواله . وأما عباس فان اخت الظافر
كاتب صليبي عسقلان بشأنه وشرطت لهم مالا جزيلاً اذا امسكوه فخرجوا عليه
والتقوا به فتواقعوا وقتلوا عباساً واخذوا ماله وولده وانهمزم بعض اصحابه الى الشام
وفيهما ابن منقذ فسلموا . وسير الصليبيون نصر بن عباس الى القاهرة تحت الحوطة في
قفص من حديد . فلما وصل تسلم رسولهم ما شرطه من المال فاخذوا نصرأ وضربوه
بالسياط ومثلوا به وصلبوه بعد ذلك على باب زويلة ثم انزلوه يوم عاشوراء سنة
٥٥١ هـ واحرقوه

ولم يحكم الخليفة الفائز بنصر الله الا ست سنوات . وفي سنة ٥٥٥ هـ توفي .
وكانت مصر قد انحطت في ايامه الى مهاوي الضعف حتى انه كان يؤدي الاموال
الطائلة ترضية للصليبيين في بيت المقدس ليتوقفوا عن الغزو من جهة عسقلان وغزة

خلافة العاضد بن يوسف

من سنة ٥٥٦ — ٥٦٧ هـ او من ١١٦٠ — ١١٧١ م

وبعد وفاة الخليفة الفائز اخذ الملك الصالح يهتم في اقامة من يخلفه فقدم السراي
فقدموا له شيخاً من الاسرة الفاطمية لم يكن ثم احق منه للخلافة فهم بمبايعته فجاء
احد اصدقائه وهمس في اذنه « ان سلفك في الوزارة كان احسن تدبيراً منك لانه لم
يسام نفسه خليفة عمره اكثر من خمس سنوات » فرنت هذه العبارة في اذن الوزير

فعدل عن تنصيب هذا الشيخ وعمد الى عبد الله بن يوسف بن الحافظ لدين الله ولم يكن بالغاً رشده . فبايعه واقبسه بالعاضد لدين الله . وهو الخليفة الرابع عشر للدولة الفاطمية ثم زوجه ابنته ومعها ثروة عظيمة

ولما كانت ادارة الاحكام منوطة بالوزير كان النفوذ الاكبر له ولم يكن الخليفة العاضد لدين الله اقل استعباداً من سلفه فلقب وزيره الصالح بلقب الملك . ففتحت اعين الاعداء عليه وفي جملتهم عمه الخليفة . فعزمت على قتله فارسلت اولاد الراعي فكنموا له في دهايز القصر وضربوه حتى سقط الى الارض على وجهه وحمل جريحاً لا يعي الى داره فمات يوم الاثنين ١٩ رمضان سنة ٥٥٦ هـ وكان شجاعاً كريماً جواداً فاضلاً محباً لاهل الادب جيد الشعر وفيه عقل وسياسة وتدير . وكان ذا هيبة في شكاه عظيماً في سطوته وغناه وكان محافظاً على الصلاة وفرائضها ونوافلها شديد المغالاة في التشيع صنف كتاباً سماه « الاعتماد في الرد على اهل العناد » جمع له الفقهاء وناظرهم عليه وهو يتضمن امامة علي بن ابي طالب والسكرام على الاحاديث الواردة في ذلك . وله شعر كثير يشتمل على مجالدين في كل فن فمنه في اعتقاده :

يا امة سلكت ضلالاً بيناً حتى استوى اقرارها وججودها
ملتئم الى ان المعاصي لم يكن الا بتقدير الاله وجودها
لو صح ذا كان الاله بزعمكم منع الشريعة ان تقام حدودها
حاشا وكلاً ان يكون الهنا ينهى عن الفحشاء ثم يريد

ولم يمت الصالح الا بعد ان انتقم من عمه الخليفة بامر الخليفة نفسه لانه لم يكن يحبها . ثم استوزر ابنه محي الدين رزيك واقبسه بالملك العادل وكنيته ابو شجاع وهذا استاخذ شاور

مشهد الحسين

ومن اعمال الملك الصالح طلائع بن رزيك انه علم بوجود مشهد الحسين في عسقلان . وكان امير الجيوش اثناء حروبه في سوريا قد ظفر بمدفن راس الامام الحسين في تلك المدينة فابتنى فوقه مشهداً فلما علم طلائع بوجود ذلك المشهد في تلك الجهة خاف عليه من الصليبيين فعزم على نقله الى مصر فابتنى له جامعاً مخصوصاً خارج باب زويلة دعاه جامع الصالح نسبة اليه على ان يجعل فيه المشهد . فلما فرغ من بنائه لم يمكنه الخليفة من ذلك بدعوى انه لا يليق ان يكون ذلك الاثر الشريف خارج سور المدينة وابي الا ان يجعله في بعض اجزاء قصره المدعو قصر الزمرد فاقام له مشهداً هناك وفي سنة ٧٤٠ هـ احترق المشهد فأعيد بناؤه مراراً واخيراً اقيم في جواره جامع

حتى اذا كانت ايام الامير عبد الرحمن كخيا احد امراء المماليك فاعيد بناء المشهد الحسيني في اواخر القرن الثامن عشر الميلاد وبعد ذلك اعيد بناؤه برمته في ايام الخديوي اسماعيل ولم يبق من البناء القديم الا القبة المغطاة لمقام الامام فاصبح على ما نشاهده الآن وهو الجامع المعروف بجامع سيدنا الحسين في السكة الجديدة بالقاهرة

ضرغام

وكان الملك الصالح طلائع بن رزيك قد انشأ في وزارته امراء يقال لهم البرقية . وجعل في مقدمتهم ضرغام ابا الاشبال . فترقى هذا الرجل حتى صار صاحب الباب . فلما تولى شاور الوزارة طمع ضرغام في سلبه اياها فجمع رفقة . وتخوف شاور وجمع اليه رجاله . فاصبح الجيش فرقتين فرقة مع ضرغام واخرى مع شاور . وبعد تسعة اشهر من وزارة شاور اي في رمضان سنة ٥٥٨ هـ ثار ضرغام وصاح على شاور فاخرجه من القاهرة وقتل ولده الاكبر المسمى بطي وبقي شجاع المنعوت بالسكامل وخرج شاور من القاهرة يريد الشام . وكذلك فعل الوزير رضوان بن ولحشي فانه كان رفيقاً له في تلك الكرة . واستقر ضرغام في وزارة الخليفة العاضد لدين الله بعد شاور وتلقب بالملك المنصور . فشكر الناس سيرته لانه كان فارس عصره وكان كاتباً جميل الصورة فكه المحاضرة عاقلاً كريماً لا يضع كرمه الا في سمعة ترفعه او موارد تنفعه الا انه كان اذناً مستحيلاً على اصحابه فاذا ظن في احد شراً جعل الشك يقيناً وعجل بالعقوبة . فبلغه بعد حين ان رفاقه البرقية يسعون في خلعه واعادة الوزارة الى شاور فعلى عادته من التعجل ارسل اليهم وكانوا نحواً من سبعين اميراً سوى اتباعهم واحضرهم الى دار الوزارة ليلاً وقتلهم بالسيف صبراً فذهبت لذلك رجالة الدولة واختلت احوالها وضعفت اكابرها وفقد اصحاب الرأي والتدبير منها

اسد الدين شيركوه وصلاح الدين

وفي اثناء ذلك قصد الصليبيون بلاد مصر فخرج اليهم همام اخو ضرغام وحاربهم فغابوه ونزلوا على حصن بليس وملكوا بعض السور ثم عادوا الى بلادهم . وعاد همام عوداً رديئاً فما هو الا ان قدم رسل الصليبيين على ضرغام في طلب مال الهدنة المقررة في كل سنة وهو ٣٣ الف دينار

ثم جاء الخبر بقدم شاور ومعه اسد الدين شيركوه بن شادي — وهو كردي الاصل من قبيلة الروادية من اشهر قبائل الاكراد من مدنة دوين من اعمال اذربايجان .

وكان شيركوه هذا واخوه نجم الدين ايوب في خدمة الاتابك نور الدين صاحب دمشق منذ مدة طويلة واظهرا من اللياقة ما يمكن ثقته فيهما . فلما سار شاور الى دمشق استنجد اتابك نور الدين ليرجع الوزارة الى يده . فنور الدين لم يغفل عن هذه الفرصة التي تجعل له يداً بامور مصر فارسل معه اسد الدين شيركوه في كثير من المماليك (الغز) وسار معها يوسف ابن اخيه نجم الدين بن ايوب وكان صغير السن ولم يكن ابوه راضياً بسفره في هذه الاخطار لصغر سنه . ولعل التقدير ساقته الى مصر ليكون سلطاناً عليها فان هذا الغلام صار بعد ذلك البطل الذي يلهمج التاريخ بذكره السلطان صلاح الدين الايوبي . اما مولده فقلعة تكرت سنة ٥٣٢ هـ . وسار الاتابك نور الدين بنفسه مشيماً جيوشه الى حدود مصر وقصده من ذلك ايها الصليبيون الذين في طريقه انه آت لمحاربتهم فاحصروا في مدينهم ومر جيشه بامان ولا معارض حتى اتي مصر

قتل ضرغام وعود شاور الى الوزارة

فلما علم ضرغام بقدم شاور ومن معه ومطالب الصليبيين اضطرب واصبح الناس في ٢٩ جمادى الاولى سنة ٥٥٩ هـ خائفين على انفسهم واموالهم فجمعوا الاقوات والمساء وتحولوا من مساكنهم وخرج همهم بالعسكر في اول جمادى الآخرة فسار الى بلبيس وكانت له وقعة مع شاور انهزم ضرغام فيها . وصار الى شاور واصحابه جميع ما كان مع عساكر همهم واسروا عدة ونزل شاور بمن معه الى التاج (قليوب) بظاهر القاهرة يوم الخميس ٦ جمادى الآخرة

فجمع ضرغام الناس وضم اليه الطائفة الريحانية والطائفة الجيوشية من الجند بداخل القاهرة وشاور مقيم في التاج اياماً ثم سار شاور ونزل في المقس (الازبكية) فخرج اليه عسكر ضرغام وحاربه فانهزم هزيمة قبيحة وسار الى بركة الحبش ونزل بالشرف الذي عرف بعد ذلك بالرصد وملك مدينة مصر (الفسطاط) واقام بها اياماً فاخذ ضرغام مال اليتام الذي كان بمودع الحكم فآمره الناس واستعجزوه ومالوا مع شاور فتسكر منهم ضرغام وتحدث بايقاع العقوبة بهم فزاد بغضهم له . ونزل شاور في ارض اللوق خارج باب زويلة وطارد رجال ضرغام وزحف الى باب سعادة وباب القنطرة وطرح النار في منظرة اللؤلؤة وما حوله من الدور وعظمت الحروب بينه وبين اصحاب ضرغام وفي كثير من الطائفة الريحانية فبعثه الى شاور ووعدوه انهم عون له فاجل امر ضرغام فارسل العاضد الى الـ^١ يامرهم بالكف عن الرمي فخرج الرجال الى شاور وصاروا من حما^٢ . وفترت همة اهل القاهرة واخذ كل منهم يعمل الحيلة في الخروج الى

شاوړ فامر ضرغام بضرب الابواق والطبول ماشاء الله من فوق الاسوار فلم يخرج اليه احد وتفرق عنه الناس فسار الى باب الذهب من ابواب القصر ومعه ٥٠٠ فارس فوقف وطلب من الخليفة ان يشرف عليه من الطاق وتضرع اليه واقسم عليه بأبائه فلم يجبه احد وظل واقفاً الى العصر والناس تنحل عنه حتى بقي نحو ٣٠ فارساً فوردت عليه رقعة مكتوب فيها « خذ نفسك وانج بها » واذا بالابواق والطبول قد دخلت من باب القنطرة ومعها عساكر شاوړ فمر ضرغام الى باب زويلة فصاح الناس عليه واعنوه وتخطفوا من معه وادركه القوم فاردوه عن فرسه قريباً من الجسر الاعظم فيما بين القاهرة ومصر القديمة قرب جامع السيدة نفيسة واحتزوا راسه في غاية جهادى الاخرة وفر منهم اخوه الى جهة المطرية فأدركه الطلب وقتل عند مسجد تبر خارج القاهرة وقتل اخوه الاخر عند بركة الفيل وبقي ضرغام ملقى على الارض يومين ثم حمل الى القرافة ودفن بها وكانت وزارته ٩ اشهر وكان من اجل اعيان الاسراء واشجع فرسانهم واجودهم لعباً بالكرة واشدهم رمياً بالسهم وكان له مع ذلك خط ابن مقلة وكان ينظم الموشحات الجيدة . ولما جيء براسه الى شاوړ رفع على قفاه وطيف به فقال الفقيه عمارة

ارى جنك الوزارة صار سيفاً يحز بحده جيد الرقاب
كأنك رائد البلوى والا بشير بالمنية والمصاب

وهكذا اعيدت وزارة مصر الى شاوړ فاستلم زمامها وصار يدفع للاتبك نور الدين ثلث محصولاتها مقابلته ١١ بئله في اعادتها اليه . الا ان الاتبك لم يكن نداً احد مطامعه في مصر فقد كان له بتلك الحملة غرضان الاول ان يقضي حق شاوړ لانه قصده مستنصراً والثاني ان يستعلم عن احوال مصر لانه كان يبلغه انها ضعيفة من جهة الجند واحوالها في غاية الاختلال فقصده الكشف عن حقيقة ذلك

شاوړ وشيركوه

ولما اقيم شاوړ على مصر عقد بينه وبين اسد الدين شركوه اتفاقاً سرياً بشأن تسليم مصر الا ان الشيطان وسوس لشاوړ انه قادر على دفع جيوش نور الدين فينال السلطة لنفسه فكتب الى شيركوه ان يسير الى سوريا . فاعاد الجواب بالامتناع وطلب ما كان قد استقر بينهم فلم يجبه شاوړ اليه . فلما راي ذلك ارسل الى نوابه فتسلعوا مدينة بلبس وحكم على البلاد الشرقية فارسل شاوړ الى الصليبيين يستمدد بهم ويخوفهم من نور الدين ان ملك مصر وكانوا قد ايقنوا بالهلاك ان تم ملكه لها . فلما ارسل شاوړ يطلب منهم ان يساعدوه على اخراج اسد الدين من البلاد جاءهم فرج لم يحتسبوه وسارعوا الى تلبية

دعوته وانصرته وطمعوا في تملك الديار المصرية وكان قد بذل لهم مالا على المسير اليه وتجهزوا وساروا . فلما بلغ نور الدين ذلك سار بعساكره الى اطراف بلادهم ليمتنعوا عن المسير فلم يمنعهم ذلك لعلمهم ان الخطر في مقامهم اذا ملك اسد الدين مصر اشده فتركوا في بلادهم من يحفظها وسار ملك القدس في الباقيين الى مصر . وكان قد وصل الى الساحل جمع كثير من الصليبيين في البحر لزيارة بيت المقدس فاستعانوا بهم فاعانواهم فسار بعضهم معهم واقام بعضهم في البلاد لحفظها . فلما قارب الصليبيون مصر فارقه اسد الدين وقصد مدينة بلبس فاقام بها هو وعسكره وجعلها له ظهراً يتحصن به فاجتمعت العساكر المصرية والصليبيون ونازلوا اسد الدين شيركويه بمدينة بلبس وحصروه بها ثلاثة اشهر وهو ممتنع بها مع ان سورها قصير جداً وليس لها خندق ولا ما يحميها وهو يغاديرهم القتال ويراوحهم فلم يبلغوا منه غرضاً ولا نالوا منه شيئاً . فبينما هم كذلك اذا بهم اخبر بهزيمة الصليبيين على حارم وملك نور الدين حارم ومسيره الى بانياس . فحينئذ سقط في ايديهم وارادوا العودة الى بلادهم ليحفظوها فراسلوا اسد الدين في الصلح والعود الى الشام ومفارقة مصر وتسليم ما بيده منها الى المصريين فاجابهم الى ذلك لانه لم يعلم ما فعله نور الدين بالشام بالفرنج ولان الاقوات والذخائر قلت عنده وخرج من بلبس في ذي الحجة

فلما وصل الى الشام اقام على حاله في خدمة نور الدين الى سنة ٥٦٢ وكان بعد عوده منها لا يزال يتحدث بها ويقصدها وكان عنده من الحرص على ذلك كثير . فلما كان هذه السنة تجهز وسار في ربيع الآخر في جيش قوي وسير معه نور الدين جماعة من الامراء فبلغت عدتهم الف فارس وكان كارهاً لذلك ولكن لما رأى جد اسد الدين في المسير لم يمكنه الا ان يسير معه جمعاً خوفاً من حادث يتجدد عليهم فيضعف الاسلام . فلما اجتمع معه عسكره سار الى مصر على البر وترك بلاد الصليبيين الى يمينه . فوصل الديار المصرية فقصد اطفيح وعبر النيل عندها الى الجانب الغربي ونزل بالجيزة مقابل القسطنطينية وتصرف في البلاد الغربية وحكم عليها واقام نيفاً وخمسين يوماً

وكان شاور لما بلغه مجيء اسد الدين اليهم قد ارسل الى الصليبيين يستنجد بهم فأتوه على الصعب والذلول طمعاً في ملكها وخوفاً من ان يملكها اسد الدين فلا يبقى لهم في بلادهم مقام معه ومع نور الدين . فالرجاء كان يقودهم والخوف يسوقهم . فلما وصلوا الى مصر عبروا الى الجانب الغربي وكان اسد الدين وعساكره قد ساروا الى الصعيد فبلغ مكاناً يعرف بالبابين وسارت العساكر المصرية والافرنج وراءه بها فأدركوه في

الخامس والعشرين من جمادى الآخرة وكان ارسل الى المصريين والصليبيين جواسيس فعادوا اليه واخبروه بكثرة عددهم وعددهم وجددهم في طلبه فعزم على قتالهم . الا انه خاف من اصحابه ان تضعف نفوسهم عن القتال في هذا المقام الخطر الذي عطبهم فيه اقرب من سلامتهم لقلّة عددهم وبعدهم عن اوطانهم وبلادهم وخطر الطريق . فاستشارهم فكلهم اشاروا عليه بعبور النيل الى الجانب الشرقي والعود الى الشام وقالوا له « ان نحن انهزمنا وهو الذي يغلب على الظن فالى اين نلتجىء ومن نحتسئ وكل من في هذه الديار من جندي وعامي وفلاح عدوّ لنا »

فقام امير من مماليك نور الدين يقال له شرف الدين برغش صاحب الشقيف وكان شجاعاً وقال « من يخاف القتل والاسر فلا يخدم الملوك بل يكون في بيته مع امراته والله لئن عدنا الى نور الدين من غير غلبة ولا بلاء نعدر فيه لياخذن مالنا من اقطاع وجامكية وليعودن علينا بجميع ما اخذناه منذ خدمناه الى يومنا هذا ويقولن تأخذون اموال المسلمين وتفرون عن عدوهم وتسلمون مصر الى الكفار والحق بيده » فقال اسد الدين « هذا الراى وبه اعمل » وقال ابن اخيه صلاح الدين مثله وكثر الموافقون لهم واجتمعت الكلمة على القتال

فاقام اسد الدين بمكانه حتى ادركه المصريون والصليبيون . وهو على تعبئة وجعل الاثقال في القلب يتكثروا بها ولانه لم يمكنه ان يتركها بمكان آخر فينهبها اهل البلاد . وجعل صلاح الدين في القلب وقال له ولئن معه « ان المصريين والصليبيين يجعلون حملتهم على القلب ظناً منهم اني فيه فاذا حملوا عليكم فلا تصدقوهم القتال ولا تهلكوا نفوسكم واندفعوا قدامهم بين ايديهم فاذا عادوا عنكم فارجعوا في اعقابهم » واختار هو من شجعان عسكره جمعاً يشق بهم ويعرف صبرهم في الحرب ووقف بهم في الميمنة فلما تقابل الطائفتان فعل الصليبيون ما ذكره وحملوا على القلب فقاتلهم من به قتالاً يسيراً وانهزموا بين ايديهم غير متفرقين . فحمل حينئذ اسد الدين فيمن معه على من تخلف من الذين حملوا على المسلمين من الصليبيين الفارس والراجل فهزمهم ووضع السيف فيهم فأتحن واكثر القتل والاسر . فلما عاد الفرنج من اثرا المسلمين راوا عسكرهم مهزوماً والارض منهم قفراً فانهزموا ايضاً وكان هذا من اعجب ما يورخ ان الفتي فارس تهزم عساكر مصر وفرنج الساحل

ولما انهزم المصريون والصليبيون من اسد الدين بالباين سار الى ثغر الاسكندرية ورجى ما في القرى على طريقه من الاموال ووصل الى الاسكندرية فتساعدها بمساعدة

من اهلها سلموها اليه فاستتاب بها صلاح الدين بن اخيه . وعاد الى الصعيد فملكه وجي امواله واقام به حتى صام رمضان

واما المصريون والصليبيون فانهم عادوا واجتمعوا على القاهرة واصالحوا حال عساكرهم وجمعوهم وساروا الى الاسكندرية فحصروا صلاح الدين بها واشتد الحصار وقل الطعام على من بها فصبر اهلها على ذلك وسار اسد الدين من الصعيد اليهم وكان شاور قد افسد بعض من معه من التركمان فوصل رسل الصليبيين والمصريين يطلبون الصلح وبذلوا له خمسين الف دينار سوى ما اخذه من البلاد فاجاب الى ذلك وشرط على الصليبيين ان لا يقيموا بالبلاد ولا يملكوا منها قرية واحدة فاجابوا الى ذلك واصطلحوا وعادوا الى الشام وتسلم المصريون الاسكندرية في نصف شوال ووصل شيركوه الى دمشق ثامن عشر ذي القعدة

الصليبيون في القاهرة

واما الصليبيون فانهم استقر بينهم وبين المصريين ان يكون لهم بالقاهرة شحنة وتكون ابوابها بيد فرسانهم ليمتنع نور الدين من انفاذ عسكر اليهم ويكون لهم من دخل مصر كل سنة مائة الف دينار — هذا كله استقر مع شاور لان العاضد لم يكن له معه حكم وقد حجب عليه وحجبه عن الامور كلها . وعاد الصليبيون الى بلادهم بالساحل الشامي وتركوا بمصر جماعة من مشاهير فرسانهم وكان السكامل شجاع بن شاور قد ارسل الى نور الدين مع بعض الامراء ينهي محبته وولاءه ويعرض الدخول في طاعته وضمن على نفسه انه يفعل هذا وبذل مالا يحمله كل سنة فاجابه الى ذلك وحمل اليه مالا جزيلاً فبقي الامر على ذلك الى ان قصد الصليبيون مصر سنة اربع وستين وخمسمائة

مضت على ذلك سنتان والافرنج (الصليبيون) لهم شحنة (ضابطة) في القاهرة وقد تسلموا ابوابها وجعلوا لهم فيها جماعة من شجعانهم واعيان فرسانهم وحكموا على المسلمين حكماً جائراً وركبوا بالاذى العظيم . فلما راوا ذلك وان البلاد ليس فيها من يردم ارسلا الى ملكهم بالشام وهو مري ولم يكن للصليبيين منذ ظهر بالشام مثله شجاعة ومكرأ ودهاء يستدعون له ليملكها واعلموه خلوها من موانع وهوّنوا امرها عليه بقصدها وتملكها فقال لهم «الراي عندي اننا لا نقصدها ولا طمعة لنا بها واموالها تساق اليها نتقوى بها على نور الدين وان نحن قصدناها لملكها فان صاحبها وعساكره وعامة بلاده وفلاحها لا يسلمونها اليها ويقاتلوننا دونها ويحملهم الخوف منا على تسليمها الى نور الدين ولئن صار له فيها مثل اسد الدين فهو هلاك الصليبيين واجلاؤهم من ارض الشام» فلم يقبلوا

قوله وقالوا له « انها لا مانع فيها ولا حامي . والى ان يتجهز عسكر نور الدين ويسير اليها نكون نحن قد ملكناها وفرغنا من امرها . حينئذ يتنى نور الدين منا السلامة » فسار معهم على كره وشرعوا يتجهزون ويظهرون انهم يريدون قصد مدينة حمص فلما سمع نور الدين شرع ايضاً يجمع عساكره

وجد الصليبيون في السير الى مصر فقدموها ونزلوا مدينة بلبيس وملكوها قهراً مستهل صفر سنة ٥٦٥ هـ ونهبوها وقتلوا فيها واسروا . وكان جماعة من اعيان المصريين قد كاتبوا الصليبيين ووعدوهم النصر عداوة اشاور . منهم ابن الخياط وابن فرجلة فقوي جنان الصليبيين وساروا من بلبيس الى مصر فنزلوا على القاهرة في ١٠ صفر وحصروها بخاف اهلها ان يفعلوا بهم كما فعلوا باهل بلبيس . فحملهم الخوف منهم على الامتناع لحفظوا البلد وقتلوا دونه وبذلوا جهدهم في حفظه . فلو ان الصليبيين احسنوا السيرة في بلبيس المكنوا الفسطاط والقاهرة . ولكن فشلهم في فتحها عاد على الفسطاط بالدمار لان شاوور امر باحراقها تاسع صفر المذكور وامر اهلها بالانتقال منها الى القاهرة وان ينهب البلد . فانتقلوا وبقوا على الطرق ونهبت المدينة واقتقر اهلها وذهبت اموالهم ونعمتهم قبل نزول الصليبيين عليهم بيوم خوفاً من ان يملكها الصليبيون فبقيت النار تحرقها اربعة وخمسين يوماً

شاوور والصليبيون

وارسل الخليفة العاضد الى نور الدين يستغيث به ويعرفه ضعف المسلمين عن دفع الصليبيين وارسل في الكتب شعور النساء وقال « هذه شعور نسائي من قصري يستغثن بك لتنقذهن من الصليبيين » فشرع نور الدين في تسيير الجيوش . واما الصليبيون فانهم اشتدوا في حصار القاهرة وضيقوا على اهلها وشاور هو المتولي للامر والعساكر والقتال فضايق به الامر وضعف عن ردهم . فاخذ الى اعمال الحيلة فارسل الى ملك الصليبيين يذكر له مودته ومحبته له قديماً وان هواه معه لخوفه من نور الدين والعاضد وانما المسلمون لا يوافقونه على التسليم اليه ويشير بالصلح واخذ مال لئلا يتسلم البلاد نور الدين . فأجابه الى ذلك على ان يعطوه ١٠٠٠٠٠٠ دينار مصري يعجل البعض ويمهل البعض . فاستقرت القاعدة على ذلك . وراى الصليبيون ان البلاد قد امتنعت عليهم وربما سلمت الى نور الدين . فاجابوا كارهين وقالوا « نأخذ المال فنتقوى به ولنعاد البلاد بقوة لا نبالي معها بنور الدين فعجل لهم شاوور مائة الف دينار وسألهم الرحيل عنه ليجمع لهم المال فرحلوا قريباً . وجعل شاوور يجمع لهم المال من اهل القاهرة

ومصر (الفسطاط) فلم يتحصل له أكثر من خمسة آلاف دينار لأن أهل الفسطاط كانوا قد احترقت دورهم وما فيها وما سلم نهب وهم لا يقدرّون على الاقوات فضلاً عن الاقساط . وأما أهل القاهرة فالأغلب على أهلها الجند وغلماهم فلهمنا تعذرت عليهم الاموال . وهم في خلال هذا يرسلون نور الدين بما الناس فيه وبذلوا له ثلث بلاد مصر وإن يكون أسد الدين مقيماً عندهم في عسكر واقطاعهم من البلاد المصرية ايضاً خارجاً عن الثلث الذي لهم

وكان نور الدين لما وصله كتاب العاضد بحلب فارسل الى أسد الدين يستدعيه اليه تخرج الرسول في طلبه فلقبه على باب حلب وقد قدمها من حمص وكانت اقطاعه . وكان سبب وصوله ان كتب المصريين وصلته ايضاً في المعنى . فسار الى نور الدين واجتمع به وعجب نور الدين من حضوره في الحال وسره ذلك وتفاءل به وأمر بالتجهيز الى مصر واعطاه مائتي الف دينار سوى الثياب والدواب والاسلحة وغير ذلك . وحكمه في العسكر واخزائن واختار من العسكر الف فارس واخذ المال وجمع ستة آلاف فارس وسار هو ونور الدين الى باب دمشق فوصلها آخر صفر ورحل الى راس الماء . واعطى نور الدين كل فارس ممن مع أسد الدين عشرين ديناراً معونة غير محسوبة من جاكيتته و اضاف الى أسد الدين جماعة آخرين من الامراء منهم مملوكه عز الدين جرديك وغرس الدين قلع وشرف الدين برغش وعين الدولة الياروقي وقطب الدين يذال بن حسان المنجي وصلاح الدين يوسف بن ايوب اخي شيركوه على كره منه وعسى ان تكرهوا شيئاً وهو خير لكم وعسى ان تحبوا شيئاً وهو شر لكم - احب نور الدين مسير صلاح الدين وفيه ذهاب بيته . وكره صلاح الدين المسير وفيه سعادته وملكه وسيرد خبر ذلك

مقتل شاور

وسار أسد الدين شيركوه من راس الماء مجدأ منتصف ربيع الاول فلما قارب مصر رحل الصليبيون الى بلادهم بخفي حنين خائبين مما املوا وسمع نور الدين بعودهم فسرهم ذلك وأمر بضرب البشائر في البلاد وبث رساله في الآفاق مبشرين بذلك فانه كان فتحاً جديداً لمصر وحفظاً لبلاد الشام وغيرها . وأما أسد الدين فانه وصل القاهرة سابع جمادى الآخرة ودخل اليها واجتمع بالعاضد لدين الله فخلع عليه وعاد الى خيامه بالخلعة العاضدية وفرح به أهل مصر واجريت عليه وعلى عسكره الجرايات الكثيرة والاقامات الوافرة . ولم يمكن شاور المنع عن ذلك لانه رأى العساكر كثيرة مع شيركوه وهوى العاضد معهم فلم يتجاسر على اظهار ما في نفسه . وشرع يماطل أسد الدين في تقرير ما كان

بذل لنور الدين من المال واقطاع الجند وافراد ثلث البلاد لنور الدين وهو يركب كل يوم الى اسد الدين ويسير معه ويمنيه . ثم انه عزم على ان يعمل دعوة يدعو اليها اسد الدين والامراء الذين معه ويقبض عليهم ويستخدم من معهم من الجند فيمنع بهم البلاد من الصليبيين فنهاه ابنه الكامل وقال له « والله لئن عزمت على هذا الامر لاعرفن شيركوه » فقال له ابوه « والله لئن لم نفعل هذا لنقتلن جميعاً » فقال « صدقت ولان نقتل ونحن مسلمون والبلاد اسلامية خير من ان نقتل وقد ملكها الصليبيون فانه ليس بينك وبين عود الصليبيين الا ان يسمعوا بالقبض على شيركوه وحينئذ لو مشى العاضد الى نور الدين لم يرسل معه فارساً واحداً ويملكون البلاد » فترك ما كان عزم عليه

ولما رأى العسكر النوري مطل شاور خافوا شره فاتفق صلاح الدين يوسف بن ايوب وعزالدين جرديك وغيرهم على قتل شاور. فنهاهم اسد الدين فسكتوا وهم على ذلك العزم من قتله

فاتفق ان شاور قصد عسكر اسد الدين على عادته فلم يجده في الخيام وكان قد مضى ليزور قبر الشافعي فلقبه صلاح الدين يوسف وجرديك في جمع من العسكر وخدموه واعلموه بان شيركوه في زيارة قبر الامام الشافعي . فقال نمضي اليه . فساروا اليه جميعاً فسأله صلاح الدين وجرديك والقوه الى الارض عن فرسه فهرب اصحابه عنه فاخذ اسيراً فلم يمكنهم قتله بغير امر اسد الدين فتوكلوا بحفظه وسيروا اعلاموا اسد الدين فحضر ولم يمكنه الا اتمام ما عملوه . وسمع الخليفة العاضد صاحب مصر الخبر فارسل الى اسد الدين يطلب منه راس شاور وتابع الرسل بذلك فقتل وارسل راسه الى العاضد في السابع عشر من ربيع الاخر . ودخل اسد الدين القاهرة فرأى من اجتماع الخلق ما خافهم على نفسه فقال لهم « امير المؤمنين (يعني العاضد) يأمركم بنهب دار شاور ، فتفرق الناس عنه فنهبوها وقصد هو قصر العاضد فخلع عليه خلع الوزارة ولقب الملك المنصور امير الجيوش وسار بالخلع الى دار الوزارة وهي التي كان فيها شاور فلم ير فيها ما يقعد عليه واستقر في الامر وغلب عليه ولم يبق له مانع ولا منازع واستعمل على الاعمال من يشق اليه من اصحابه واقطع البلاد لعساكره واما الكامل بن شاور فانه لما قتل ابوه دخل القصر هو واخوته معتصمين به فكان آخر العهد بهم . فكان شيركوه يتأسف عليه كيف عدم لانه بلغه ما كان منه مع ابيه في منعه من قتل شيركوه وكان يقول وددت انه بقي لاحسن اليه جزاء لصنيعه

حضارة الفسطاط

قد علمت ما كان من احراق الفسطاط بامر شاور فيجدر بنا ان نذكر ما كانت عليه من الحضارة والثروة . وقد تقدم سبب بنائها على يد عمرو بن العاص وهي اول مدينة اسلامية بناها المسلمون بمصر . واخذت تتسع وتزداد عمارة كلما رسخت قدم المسلمين في البلاد وتوطد سلطانهم حتى فاقت البصرة والكوفة في كثير من الوجوه وبلغ طولها على ضفة النيل ثلاثة اميال . وذكر مؤرخو العرب من مقدار عمارتها انه كان فيها ٣٦٠٠٠ مسجد و ٨٠٠٠ شارع مسلوكة و ١١٧٠ حماماً . وقد يستبعد ذلك ولكن ايراده يدل في كل حال على العظمة والعمران . ومما نظمته الشعراء في مدحها قول الشريف العقيلي :

احن الى الفسطاط شوقاً وانني لادعو لها ان لا يحل بها القطر
وهل في الحيا من حاجة لجنبها وفي كل قطر من جوانبها نهر
تبدت عروساً والمقطم تاجها ومن نيلها عقد كما انتظم الدر
وبلغ من تراحم الناس في الفسطاط حتى جعلوا المنازل طبقات عديدة باع بعضها
خمس طبقات الى سبع وربما سكن في البيت الواحد ٢٠٠ نفس وبلغت نفقة البناء على
بعضها ٧٠٠٠٠٠ دينار وهي دار الحرم لخمارويه

واشتهر من تلك الابنية دار ضرب المثل بعظمها وغنى اهلها تسمى « دار عبد
العزیز » كانت مطلة على النيل باع من سعتها وكثرة ساكنيها انهم كانوا يصبون فيها
اربعمائة راوية ماء كل يوم . ونقل بعضهم ان الاسطال التي كانت بالطاقت المطلة على النيل
بلغ عددها ١٦٠٠٠ اسطل مؤيدة ببكر واطناب لها ترخي وتملا . وذكر رجل دخلها في
اواخر القرن الثالث للهجرة في زمن خمارويه بن احمد بن طولون قال « طابت بها
صانعاً يخدمني فلم اجد فيها صانعاً متفرغاً لخدمتي وقيل لي ان كل صانع معه اثنتان
يخدمهم وثلاثة فسألت كم فيها من صانع فاخبرت ان بها ٧٠ (كذا) صانعاً قل من معه
دون ثلاثة سوى من قضى حاجته وخرج »

وفي ذلك دليل على غنى اهل الفسطاط وترفعهم . ومن هذا القبيل استكثرهم من
الفرش . فقد يقتني احدهم الف فرشة او عشرة آلاف فرشة وذكروا رجلاً من اهل
الفسطاط عنده ثلاثمائة فرشة كل فرشة لحظية . وكذلك كانوا يفعلون بالثياب ونحوها
وقد تكون اثمانها فاحشة فلا يبالون اغنائهم - قال القاضي ان قطر الندي ابنة خمارويه
كان في جملة جهازها الف تسكة ثمن كل واحدة عشرة دنانير فبلغ ثمنها كلها عشرة

آلاف دينار. ناهيك بتأنيهم في المآكل والمشارب مما يطول شرحه وقد فصله المقرئ في غيره في كلامهم على الفسطاط

موت اسد الدين ووزارة صلاح الدين

فسر الخليفة العاضد جدًا لنجاته من شاور. فاستلم اسد الدين الوزارة في يوم الاربعاء ١٧ ربيع اول سنة ٥٦٤ هـ وفرق العطايا في جيوشه التي رافقته الى مصر وامر النصارى بشد الزناير على اوساطهم ومنعهم من ارشاء الذوابة التي تسمى بالعدبة فكتب المهذب بن ابي المليح زكريا وكان مسيحيًا الى اسد الدين بقوله :

يا اسد الدين ومن عدله يحفظ فينا سنة المصطفى
كفى غياراً شد اوساطنا فما الذي اوجب كشف القفا

فلم يسعفه بطمته ولا مكنه من ارشاء الذوابة وعند ما يتس من ذلك اسلم ولم تطل مدة وزارة اسد الدين فعاجلته المنية في ٢٢ جمادى الثانية سنة ٥٦٤ هـ ولم يمكث في منصبه الا شهرين وخمسة ايام فقط. ودفن في القاهرة ثم نقل الى مدينة الرسول. وكان شديد المواظبة على تناول اللحوم الغليظة. وكانت تتواتر عليه التخم والخوانيق فاعتراه خانوق عظيم ذهب بحياته. وكان يعد نفسه نائباً لنور الدين في مصر وانه قائم بمصوب الوزارة باسمه. وبعد وفاته احب العاضدان يمين حبه له فولى مكانه ابن اخيه يوسف صلاح الدين واقبه بالملك الناصر وكان لا يزال شاباً

وذكر ابن الاثير في سبب مجيء صلاح الدين الى مصر نقلاً عن صلاح الدين نفسه قال : لما اتت كتب العاضد الى نور الدين يستغيث به من الافرنج ويطلب ارسال العساكر احضرني واعلمني الحال وقال « تمضي الى عمك اسد الدين بمحمص مع رسولي اليه ليحضر وتحنه انت على الاسراع فما يحتمل الامر التأخير » ففعلت. وخرجنا من حلب فما كنا على ميل منها حتى لقيناه قادمًا في هذا المعنى فامرهم نور الدين بالمسير. فلما قال له نور الدين ذلك انفت عمي الي فقال لي « تجهز يا يوسف فقلت والله لو اعطيت ملك مصر ما سرت اليها فلقد قاسيت بالاسكندرية وغيرها ما لا انساه ابداً » فقال لنور الدين « لا بد من مسيره معي » فامرني نور الدين وانا استقيل. وانقضى المجلس وتجهز اسد الدين ولم يبق غير المسير فقال لي نور الدين « لا بد من مسيرك مع عمك » فشكوت اليه الضائقة وعدم البرك فاعطاني ما تجهزت به فكانما أساق الى الموت فسرت معه وملكها. ثم توفي فملكني الله تعالى ما لا كنت اطمع في بعضه. اهـ

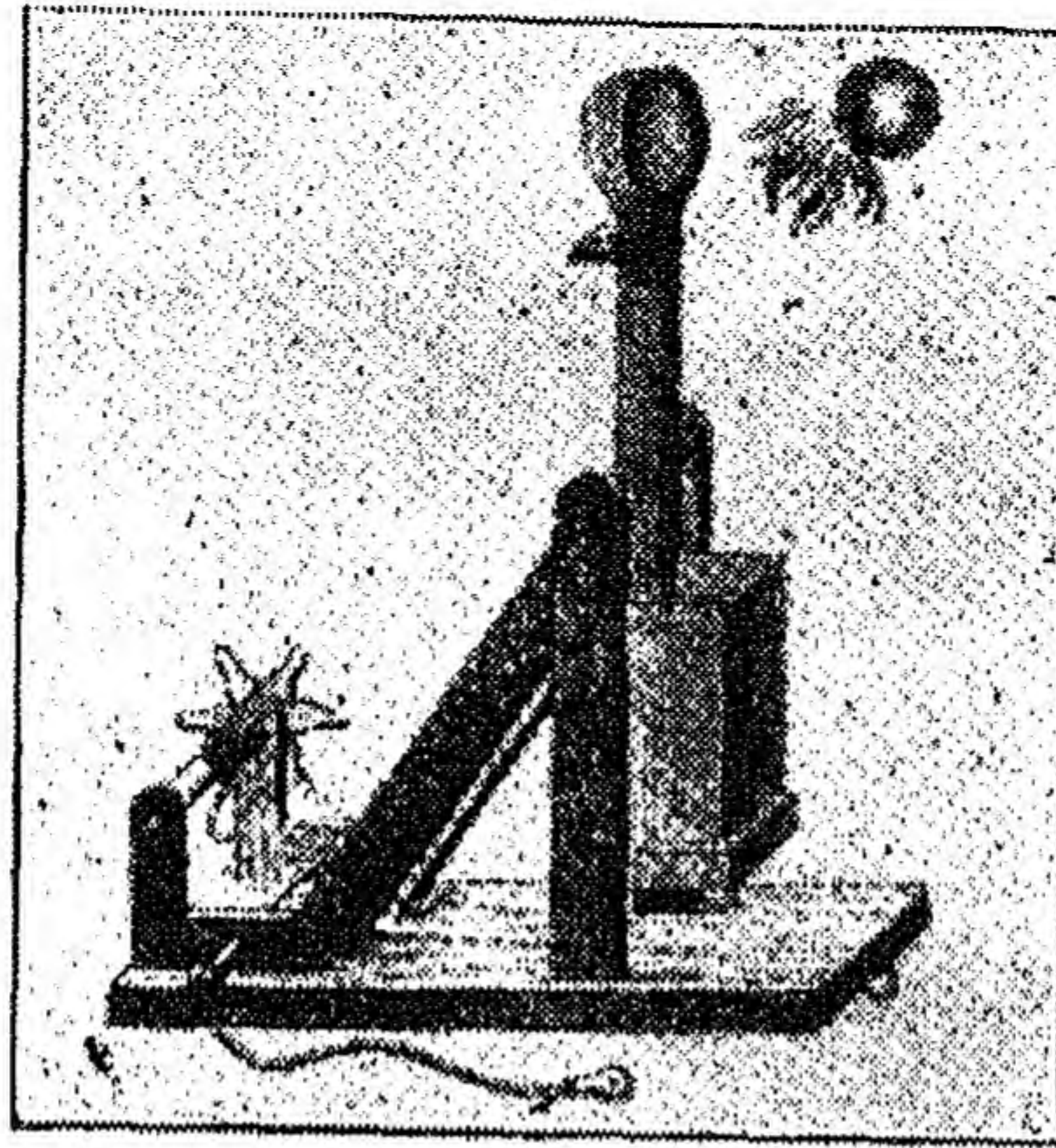
واما كيفية ولايته فان جماعة من الامراء النورية الذين كانوا بمصر طلبوا التقدم على العساكر ولاية الوزارة العاضدية بعد اسد الدين منهم عين الدولة الياروي وقطب

الدين ينال وسيف الدين المشطوب الهكاري وشهاب الدين محمود الحارمي وهو خال صلاح الدين . وكل واحد من هؤلاء يخطبها وقد جمع اصحابه لينال عليها . فارسل العاضد الى صلاح الدين احضره عنده وخلع عليه وولاه الوزارة بعد عمه . وكان الذي حملاه على ذلك ان اصحابه قالوا له « ليس في الجماعة اضعف ولا اصغر سناً من يوسف والراي ان يولى فانه لا يخرج من تحت حكمنا ثم نضع على العساكر من يستميلهم اليها فيصير عندنا من الجنود من نمنع بهم البلاد ثم نأخذ يوسف او نخرجه » فلما خلع عليه لقب الملك الناصر ولم يطعه احد من اولئك الامراء الذين يريدون الامر لانفسهم ولا خدموه وكان الفقيه عيسى الهكاري معه فسعى مع المشطوب حتى اماله اليه وقال له « ان هذا الامر لا يصل اليك مع عين الدولة والحارمي وغيرهما » ثم قصد الحارمي وقال « هذا صلاح الدين هو ابن اختك وعزه وملكه لك وقد استقام له الامر فلا تكن اول من يسعى في اخراجه عنه ولا يصل اليك » فقال اليه ايضاً . ثم فعل مثل هذا بالباقيين وكلهم اطاع غير عين الدولة الياروي فانه قال « انا لا اخدم يوسف » وعاد الى نور الدين بالشام ومعه غيره من الامراء . فثبت قدم صلاح الدين — ومع هذا فهو نائب عن نور الدين . وكان نور الدين يكتبه بالامير الاسفهلار ويكتب علامته على راس الكتاب تعظيماً عن ان يكتب اسمه وكان لا يفرد به بكتاب بل يكتب « الامير الاسفهلار صلاح الدين وكافة الامراء بالديار المصرية يفعلون كذا » واستمال صلاح الدين قلوب الناس وبذل الاموال فمالوا اليه واحبوه وضعف امر العاضد . ثم ارسل صلاح الدين يطلب من نور الدين ان يرسل اليه اخوته واهله . فارسلهم اليه وشرط عليهم طاعته والقيام بامره ومساعدته وكلهم فعل ذلك . واخذ اقطاعات الامراء المصريين فاعطاهم اهله والامراء الذين معه وزادهم فازدادوا له حبا وطاعة

مؤتمن الخلافة وصلاح الدين

فلما اجمع المصريون على حب صلاح الدين ظهر حساده واكبرهم مؤتمن الخلافة وهو خصي كان بقصر العاضد واليه الحكم فيه والقدم على جميع من يحويه . فاتفق هو وجماعة من المصريين على مكتبة الصليبيين واستدعائهم الى البلاد والتقوي بهم على صلاح الدين ومن معه . وسيروا الكتب مع انسان يثقون اليه واقاموا ينتظرون جوابه وسار ذلك القاصد الى البئر البيضاء فاقبضه انسان تركاني فرأى معه نعلين جديدين فاخذهما منه وقال في نفسه « لو كانا مما يلبسه هذا الرجل لكانا خلقين فانه رث الهيئة » وارتاب به وبهما فأتى به صلاح الدين ففتقهما فرأى الكتاب فيهما فقرأه وسكت عليه . وكان غرض مؤتمن الخلافة ان يحرك الصليبيون الى الديار المصرية فاذا وصلوا اليها خرج

صلاح الدين في العساكر الى قتالهم فيثور مؤتمن الخلافة بمن معه من المصريين على متخلفيهم فيقتلونهم ثم يخرجون باجمعهم يتبعون صلاح الدين فيأتونه من وراء ظهره والصليبيون من بين يديه فلا يبقى لهم باقية . فلما قرأ صلاح الدين الكتاب سأل عن كاتبه فقيل رجل يهودي فاحضر ثامر بضربه وتقريره فاسلم واخبره الخبر . واخفى صلاح الدين الكتاب لكن مؤتمن الخلافة استشعر فلأزم القصر ولم يخرج منه خوفاً واذا خرج لم يبعد من صلاح الدين ولا يظهر له شيئاً من الطلب لئلا ينكر ذلك فلما طال الامر خرج من القصر الى قرية له تعرف بالخرقانية للتنزه فلما علم به صلاح الدين ارسل اليه جماعة فاخذوه وقتلوه واتوا برأسه . وعزل جميع الخدم الذين يتولون امر قصر الخلافة واستعمل على الجميع بهاء الدين قراقوش . وهو خصي ابيض وكان لا يجري في القصر صغير ولا كبير الا بأمره فغضب السودان لقتل مؤتمن الخلافة للجنسية ولانه كان يتعصب لهم فحشدوا وجمعوا فزادت عدتهم على خمسين ألفاً . وقصدوا حرب الاجناد الصلاحية فاجتمع العسكر ايضاً وقاتلوهم بين القصرين وكثر القتل في الفريقين



ش ٥٤ : آلة رمي قارورة النفط مشتعلة للاحراق

وكان العاضد في هذه الواقعة يشرف من المنظرة . اما اهل القصر فلما رأوا كسرة السودان وعساكر مصر رموا على الغز من اعلى القصر بالنشاب والحجارة حتى انكوا فيهم وكفوهم عن القتال وكادوا ينهزمون . فامر حينئذ صلاح الدين النفاطين باحراق المنظرة فاحضر شمس الدولة النفاطين واخذوا في تطيب قارورة النفط ووضعوها في الآلة وصوبوا

بها على المنظرة التي فيها العاضد تخاف العاضد على نفسه وفتح زعيم الخلافة باب المنظرة وقال بصوت عال « امير المؤمنين يسلم على شمس الدولة ويقول دونكم والعبيد الكلاب اخرجوهم من بلادكم » فلما سمع السودان ذلك ضعفت قلوبهم وتخاذلوا . فحمل عليهم الغز فانكسروا وركب القوم اقفيتهم الى ان وصلوا سوق السيوفيين فقتل منهم كثير واسر منهم كثير وامتنعوا هناك على الغز بمكان فاحرق عليهم . وكان في دار الارمن قريباً من بين القصرين خالق عظيم من الارمن كلهم رمة ولهم جار في الدولة يجري عليهم . فعند ما قرب منهم الغز رموهم عن يد واحدة حتى امتنعوا عن ان يسيروا الى العبيد فاحرق شمس الدولة دارهم حتى هلكوا حرقاً وقتلاً . ومروا الى العبيد فصار هؤلاء كلما دخلوا مكاناً أحرق عليهم وقتلوا فيه . الى ان وصلوا الى باب زويلة فاذا هو مغلق فحصروا هناك واستدرفيهم القتل يومين . ثم بلغهم ان صلاح الدين احرق المنصورة التي كانت اعظم حاراتهم واخذت عليهم افواه السكك . فايقنوا انهم قد اخذوا لا محالة فصاحوا الامان فامنوا وذلك يوم السبت في ٢٨ ذي القعدة وفتح لهم باب زويلة فخرجوا الى الجيزة . فعدا عليهم شمس الدولة في العسكرو قد قوا باموال المهزومين واسلحتهم وحكموا فيهم السيف حتى لم يبق منهم الا الشريد . وتلاشى من هذه الواقعة امر العاضد ودعيت بواقعة العبيد . ومن غرائب الاتفاق ان الذي فتح مصر للدولة الفاطمية وبني القاهرة يدعى جوهرأ والذي كان سبياً في زوال هذه الدولة وخراب القاهرة يدعى ايضاً جوهرأ الملقب بمؤمن الخلافة

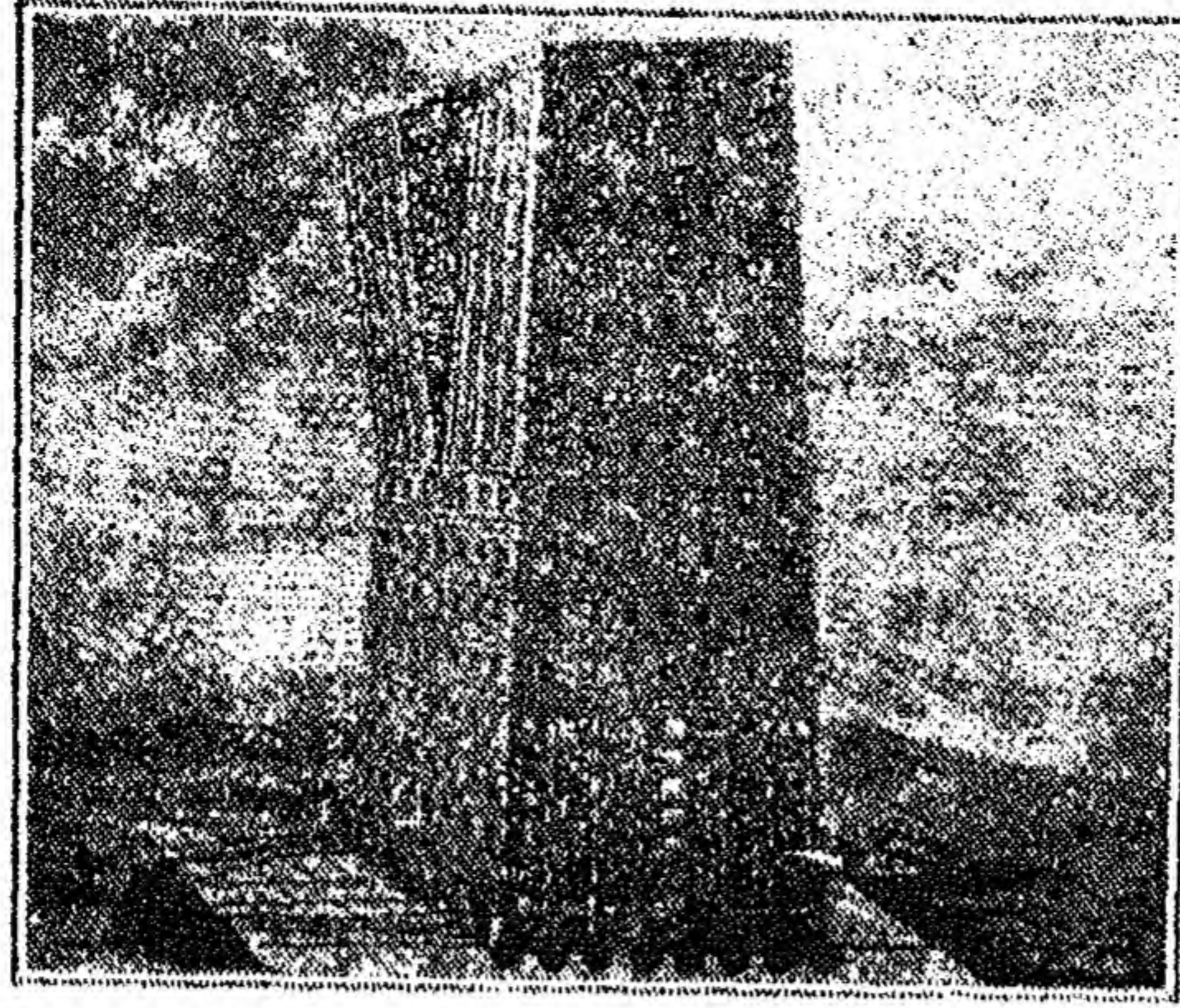
فلما انتهت هذه الواقعة واستئصلت جرثومة الفساد عاد صلاح الدين الى السكون فولى اخاه طوران شاه قوص واصوان وعيناب مكافأة لما اظهره من البسالة في واقعة العبيد . وجعل البلاد المذكورة له اقطاعاً فكان دخلها في تلك السنة ٢٦٦٠٠٠ دينار . وفي سنة ٥٦٨ هـ خرج طوران شاه لغزو بلاد النوبة وفتح قلعة ابريم فسبى وغنم ثم عاد بعد ان اقطع ابريم بعض اصحابه . وفي سنة ٥٦٩ هـ خرج الى بلاد اليمن وفتحها عنوة ولقب بالملك المعظم طوران شاه

حصار دمياط

وكانت وزارة صلاح الدين في مصر سبياً لاضطراب الصليبيين . اما نور الدين فركب عمارة مصرية وجعل يطوف البحر المتوسط عند شطوط سوريا لينع مرور الوافدين الى الارض المقدسة ويستولي على ما يرد الى الصليبيين من المؤن والذخائر . فتشاور الصليبيون في شأن ذلك فاقروا على ارسال بطريك صور فريدريك مع يوحنا اسقف

عكا لاستمداد ملوك فرنسا وانكلترا وصقلية وغيرهم من الامراء المسيحيين فلم ينجح مسعاهم . غير ان امبراطور القسطنطينية ارسل عمارة من مائة وخمسين شراعاً مملوءة بالذخار والمؤن والعدة والرجال فاتحدت بجند عسقلان وساروا برّاً وبحراً الى مصر حتى اذا بلغوا الفرما جدوا السير حتى اتوا دمياط فمسكرروا بينها وبين البحر في صفر سنة ٥٦٥ هـ

وكانت هذه الحملة تحت قيادة الملك امري فظن انه يقدر على اخذ دمياط بالهجوم لكنه راي منها مقاومة ودفاعاً الزمها على اقامة الحصار فاقامه ولم يكن اكثر فائدة له من الهجوم لان اهل دمياط كانوا كثيرين ولم يبالوا بعدة الصليبيين وعددهم وطال الحصار حتى نفدت مؤونة الصليبيين فارادوا العبور في النيل ليأتوا بالزاد فاوقفهم سدّ اقامه المسلمون في عرض النهر وهو عبارة عن سلسلة قوية من الحديد طرفها الواحد



ش ٥٦ : برج من ابراج الحصار

مشدود بمتاريس دمياط والطرف الآخر ببرج هائل منيع الجانب من ابراج الحصار . وكانت الامدادات ترد لحامية دمياط من القاهرة بسهولة اما الصليبيون فكان انتظارهم للمدد من سوريا عبثاً فانتشر الجوع في معسكرهم وقام الشقاق بين الفرنسيين منهم وهم الذين كانوا في سوريا والروم الذين اتوا بالممدد من الاستانة . واشتد ذلك الاختلاف حتى افضى الى الانفصال التام بعد ان بلغ منهم الجوع مبلغاً عظيماً فكانوا يتخاصمون على كسرة ويمضغون افنان النخيل . ومما زاد شدة همهم تكاثر الامطار وهبوب الزوابع على معسكرهم بدون انقطاع حتى اصبحوا كأنهم في طوفان عظيم . وحصل من تكاثر الاعصار نوبة في النيل اسرع جريه فتزاحمت مراكب الصليبيين وتلاطمت فلم يعد استخدامها

ممكناً لوقوعها بين قوتين متضادتين الريح من جهة ومجرى النيل من جهة أخرى فتكسر معظمها ثم انتشبت النار فيها فاحترقت ما بقي منها
فلما شاهد الافرنج ذلك لم يروا بداً من العود على اعقابهم الى سوريا صفراً اليدين
بعد ان تعاقدوا مع المسلمين ان لا يعارضهم معارض في سيرهم . وكان صلاح الدين
قد اعد في القاهرة جيوشاً ليسير بها مدداً الى دمياط لكنها لم تبلغها حتى فارقت الجيوش
الصليبية مراكزها فشق عليه ذلك وعنف الامراء الذين سمحوا لهم بالرجوع ثم عاد
الى القاهرة

وفي السنة التالية جرد صلاح الدين على سوريا لمحاربة الذين ضافوه السنة الماضية
فدخل فلسطين سنة ٥٦٦ هـ فعلم امري وهو في عسقلان انه حاصر قلعة دارون وهو
دير قديم للنصارى على قمة جبل وعمر على اربع اميال من غزة اتخذه الصليبيون معقلاً
فاصرع الملك امري لمهاجمة صلاح الدين في ذلك المكان وكان صلاح قد علم الدين
بقدومه فسار لملاقاته فلاقاه في منتصف الطريق وحاربه وغلبه ونزل على غزة فاستولى
عليها . واستبشر المسلمون بهذه الانتصارات ولكنهم اكتفوا بها اخذاً بالثأر فتركوا في
غزة حامية وعادوا الى مصر فبلغوا القاهرة في اواخر السنة المذكورة
ثم بلغ صلاح الدين ان الافرنج احتلوا ايلة وتحصنوا فيها فسار اليها ومعه عصابة من
رجال الاقوياء وحمل معه مراكب مفككة ينقلها على الجمال ولما وصل الى البحر عند ايلة
ركب تلك المراكب وانزلها البحر وهاجموا ايلة في ربيع الاول من السنة المذكورة برّاً
وبحراً وما زالوا عليها حتى فتحوها وقتلوا من كان فيها من الصليبيين وجعل فيها صلاح
الدين جماعة من ثقائه وقواهم بما يحتاجون اليه من سلاح وغيره وعاد الى القاهرة
وكان لصلاح الدين نفوذ عظيم في مصر ولم يكن الخليفة العاضد الا اسماً لغير مسمى
ولم يعد لديه الا السلطة الدينية . فلاح لنور الدين ان يتخلص من سلطة الفاطميين
فاوعز الى صلاح الدين ان يقطع خطبتهم ويخطب للخليفة العباسي

الخطبة العباسية بمصر

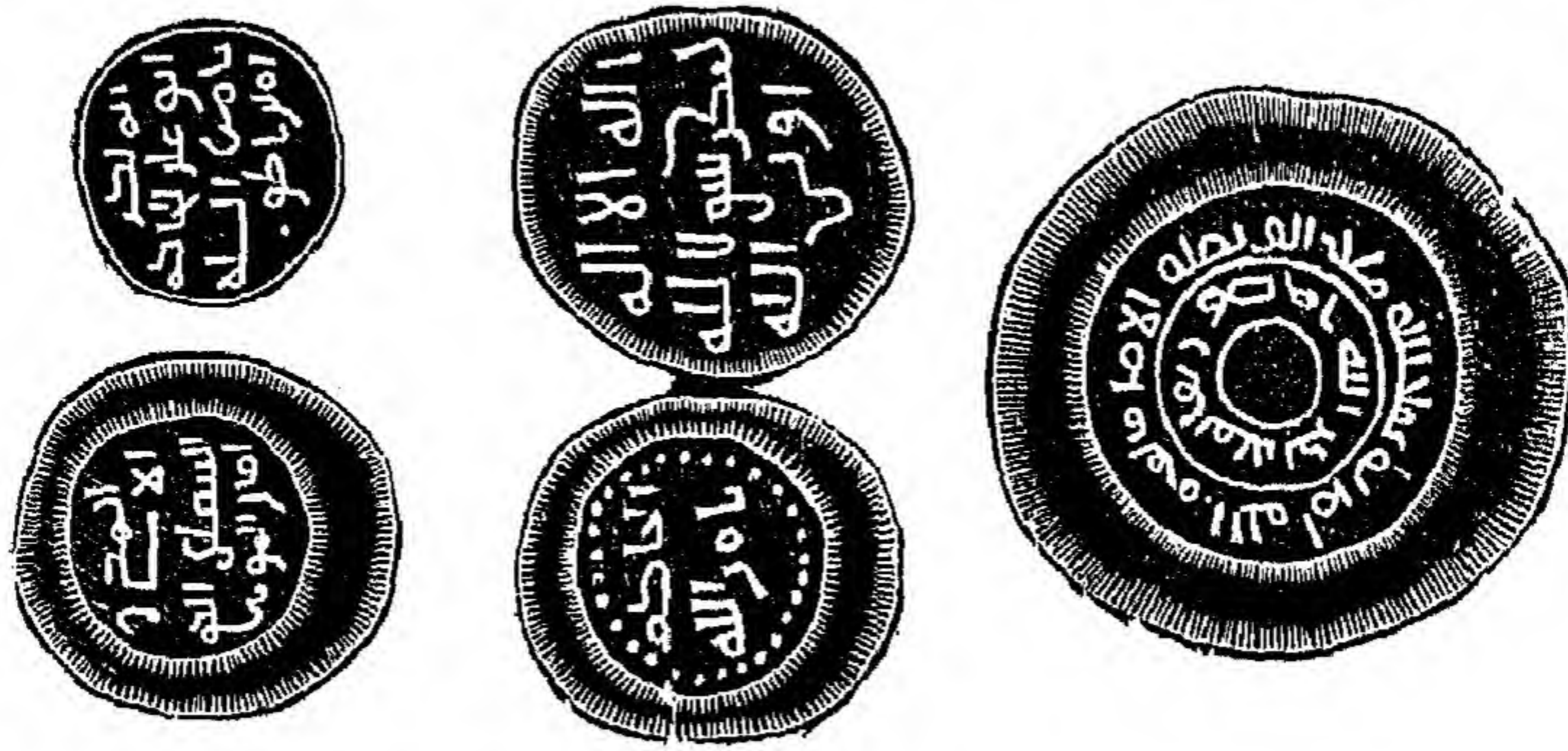
وفي سنة ٥٦٧ هـ جعل صلاح الدين الخطبة بمصر للخليفة العباسي بدلاً من الفاطمي .
ومعنى ذلك في اصطلاحهم ان مصر عادت الى سيطرة العباسيين السنيين وخرجت من
سلطة الفاطميين الشيعة وكان صلاح الدين سنياً . وكيفية البيعة ان صلاح الدين لما ثبتت
قدمه بمصر وازال المخالفين له وضعف امر الخليفة العاضد وصار قصره يحكم فيه
صلاح الدين ونائبه قراقوش وكان من اعيان الامراء الاسدية وكلهم يرجعون اليه .

فكتب اليه نور الدين محمود بن زنكي يأمره بقطع الخطبة العاضدية واقامة الخطبة للمستضيء بالله العباسي . فامتنع صلاح الدين واعتذر بالخوف من قيام اهل الديار المصرية لميلهم الى العلويين وكان صلاح الدين يكره قطع الخطبة لهم ويريد بقاءهم خوفاً من نور الدين فانه كان يخافه ان يدخل الى الديار المصرية ويأخذها منه . فكان يريد ان يكون العاضد معه حتى ان قصده نور الدين امتنع به وباهل مصر عليه فلما اعتذر الى نور الدين بذلك لم يقبل عذره واح عليه بقطع خطبته والزمه الزاماً لا فسحة له في مخالفته لانه على الحقيقة نائب نور الدين . واتفق ان العاضد مرض في هذا الوقت مرضاً شديداً . فلما عزم صلاح الدين على قطع خطبته استشار امراءه فمنهم من اشار به ولم يفكر في المصريين ومنهم من خافهم الا انه لم يمكنه الا امثال امر نور الدين وكان قد دخل الى مصر انسان اعجبي يعرف بالامير العالم فلما راي ما هم فيه من الاحجام وان احداً لا يتجاسر يخطب للعباسيين قال « انا ابتديء بالخطبة له » فلما كان اول جمعة من المحرم صعد المنبر قبل الخطيب ودعا للمستضيء بالله ففعلوا ذلك ولم ينتطح فيها عنزان . وكتب بذلك الى سائر بلاد مصر ففعلوا

موت العاضد وانقضاء الدولة الفاطمية

وكان العاضد قد اشتد مرضه فلم يعلمه احد من اهله واصحابه بقطع الخطبة وقالوا ان عوفي فهو يعلم وان توفي فلا ينبغي ان نفجعه بمثل هذه الحادثة قبل موته . فتوفي يوم عاشوراء ولم يعلم بقطع الخطبة . ولما توفي جلس صلاح الدين للعزاء واستولى على قصر الخلافة وما فيه فحفظه بهاء الدين قراقوش وكان قد رتبته قبل موت العاضد فحمل جميع ما فيه الى صلاح الدين وكان من كثرته يخرج عن الاحصاء وفيه من الاعلاق النفيسة والاشياء الغريبة ما تملأ الدنيا عن مثله ومن الجواهر التي لم توجد عند غيرهم — فنه الحبل الياقوت وزنه سبعة عشر درهماً او سبعة عشر مثقالاً واللؤلؤ الذي لم يوجد مثله . ومنه النصاب الزمرد الذي طوله اربع اصابع في عرض عقده كبير . ووجد فيه طبل كان بالقرب من موضع العاضد وقد احتاطوا بالحفظ . فلما راوه ظنوه عمل لاجل اللعب فيه فسيخروا من العاضد وكسروه ثم علموا انه طبل قولنج فندموا على كسره لما قيل لهم ذلك . وكان في القصر من الكتب النفيسة المكدومة المثل ما لا يعد فباع جميع ما فيه . ونقل اهل العاضد الى موضع من القصر وكل من يحفظهم واخرج جميع من فيه من امة وعبد فباع البعض واعتق البعض ووهب البعض وخلا القصر من سكانه كان لم يغن بالامس . وكان العاضد لما مرض ارسل الي

صلاح الدين يستدعيه فظن ذلك خديعة فلم يرض اليه فلما توفي علم صدقه فندم على تخلفه عنه وكان يصفه كثيراً بالكرم وابن الجانب وغلبة الخير على طبعه ويقول بعض المؤرخين الصليبيين ان صلاح الدين قتل العاضد بيده الا ان الجمهور على خلاف ذلك . على اننا لا يسعنا الا لومه لتطرفه في احتقار الخليفة وتجرده اياه من ذات يده ومن متاعه . وقد بالغ بذلك حتى انه علم بجواد كريم كان يركبه الخليفة لترويح النفس في حديثه فطلبه منه فلم يسع الخليفة الا اعطاؤه اياه والتوقف عن الرياضة التي لم يبق لديه من ثروة الخلفاء سواها . وكان الخليفة العاضد شديد التشيع متغالياً في سب الصحابة واذا رأى شيئاً استحل دمه . وترى في الشكل الخامس الحسين صورة نقود زجاجية ضربت في عهد الدولة الفاطمية ايام احتياجها للمال وقلة الذهب وحالما تولى صلاح الدين الغها وضرب نقوده المعروفة بالنقود الناصرية نسبة اليه



ش ٥٦ : نقود زجاجية مضروبة على عهد الدولة الفاطمية

مضارة الدولة الفاطمية

انقضت هذه الدولة بموت العاضد الفاطمي والخطبة للمستضيء العباسي سنة ٥٧٦ هـ فيجدر بنا ان نأتي على ما كان من مبلغ حضارتها لولا ما نخافه من التطويل وقد افاض المقرئ في ذكره مفصلاً فنأتي على مثال من بذخهم وترفهم وقد ذكر شيء من ذلك ادوات الترف

كان الفاطميون يناظرون العباسيين في كل شيء حتى في اسباب الحضارة وكان التمدن الاسلامي قد لضيغ واخذت الدولة العباسية بالتقهقر ففاقوهم في كثير من اسباب البذخ والترف ولا سيما من حيث الاثاث والرياش والثياب فان العباسيين رصعوا عصائب نسائهم وخفافهن بالجواهر واسكن الفاطميين رصعوا بها آنية المطبخ واتخذوا

كوز الزير من البلور مرصعاً بالجواهر وكللوا المزينة بحب اللؤلؤ النفيس وتأنقوا في المصوغات حتى اتخذوا منها التماثيل المرصعة للزينة في مجالسهم . فاذا جلس الخليفة في إحدى المناظر للراحة أو تبديل الثياب وضعوا بين يديه الصواني الذهب عليها أشكال الصور الآدمية والوحشية من الفيلة والزرافات ونحوها معمولة من الذهب والفضة والعنبر والمرسين المشدود والمظفور عليها المسكال باللؤلؤ والياقوت والزبرجد ومن الصور الوحشية ما يشبه الفيلة بيدها عنبر معجون كخلة الفيل وناباه فضة وعيناه جوهرتان كبيرتان في كل منهما مسمار ذهب مجرى سواده . وعلى الفيل سرير منجور من عود بتمككات فضة وذهب وعليه عدة من الرجال ركبان عليهم اللبوس تشبه الزرديات وعلى رؤوسهم الخود وبأيديهم السيوف المجردة والدرق وجميع ذلك فضة . ثم صور السباع منجورة من عود وعينا السبع ياقوتتان حمراوان وهو على فريسته وأشكال من سائر الوحوش . واصناف تشد من المرسين المسكال باللؤلؤ شبه الفاكهة

وكان للفاطميين في القاهرة دور يختزنون بها أدوات الترف يسمونها خزائن بعضها للفرش والبعض الآخر للجواهر وآخر للطيب وآخر للبنود وآخر للسلاح وآخر للسروج أو الدرق أو الكسوات أو الأدم أو الشراب أو التوابل أو الخليم . وكان الخليفة يذهب إلى مجالس خاصة له في تلك الخزائن . والمجلس عبارة عن دكة عليها طراحة ولها فراش يخدمها وينظفها يجلس الخليفة عليها إذا زار تلك الخزانة

الحلى والمجوهرات عند الفاطميين

فما أخرجوه من خزانة الجواهر في أيام الشدة على عهد المستنصر بالله (سنة ٤٨٧ هـ) صندوق فيه سبعة أمداد زمرد سألوا الصياغ عن قيمتها فقالوا إنما نعرف قيمة الشيء إذا كان مثله موجوداً . واستخرجوا خريطة فيها وبة جواهر قال الصياغ إن لاقية له وأصل ثمنه ٧٠٠٠٠٠ دينار ببيع يومئذ بعشرين ألف دينار . ووجدوا ما لا يحصى من أقداح البلور المنقوش والمجروود وصحوناً من الميناء منها ما يساوي مئات من الدنانير وفي مكان آخر ١٨٠٠٠ قطعة من بلور تتراوح أثمانها بين عشرة دنانير وألف دينار كل قطعة . وصوان من الذهب المجرة بالميناء وغير المجرة المنقوشة بأنواع النقوش و ١٧٠٠٠ غلاف خيار مبطن بالحرير محلاة بالذهب . ونحو مئة كأس بادزهر وأشباهاها على أكثرها اسم هارون الرشيد

غير ما وجدوه هناك من الصناديق المملوءة بالسكاكين المذهبة والمفضضة وانصابتها من الجواهر المختلفة وصناديق مملوءة دوى (جمع دواة) على اختلاف الأشكال من

الذهب والفضة والصندل والعود والابنوس والعاج محلاة بالجواهر مما يساوي الف دينار الى بضعة آلاف كل دواة . وعدة ازيار مملوءة كافوراً وعدة جماجم عنبر ونوافج المسك التيبقي وشجر العود وغيره

ومما خلفته رشيدة بنت المعز وحفظ هناك ما قيمته ١٧٠٠٠٠٠٠ دينار من جملتها ١٢٠٠٠ من الثياب المصمت الواناً و ١٠٠ قاطرميز مملوءة كافوراً قيصورياً وعممات بجواهر من ايام المعز . وبيت هارون الرشيد الخزالاسود الذي مات فيه بطوس . ومثل ذلك مما تركته عبدة بنت المعز ايضاً ويطول شرحه . وخزانة مملوءة بأنواع الصيني تساوي القطعة منها الف دينار وحصير من الذهب وزنه عشرة ارطال يظن انه الحصير الذي حملت عليه بوران بنت الحسن بن سهل لما زفت الى المأمون وصوان من الذهب كان ملك الروم اهداها الى العزيز بالله

ووجدوا انواعاً من الشطرنج والنرد مصنوعة من الجواهر والذهب والفضة او العاج او الابنوس وعدد كبير من الزهريات ونحوها . ومن تماثيل العنبر ٢٢٠٠٠ قطعة اقل تماثل منها وزنه ١٢ مناً ومن تماثيل الخليفة ملايحد . والكلوثة المرصعة بالجواهر قيمتها ١٣٠٠٠٠ دينار فيها من الجواهر ١٧ رطلاً . وطاووس من ذهب مرصع بنفيس الجواهر عيناه من ياقوت احمر وريشه من الزجاج المينا المجري بالذهب على الوان ريش الطاووس . وغزال مرصع بنفيس الدر والجواهر بطنه ابيض قد نظم من در رائق . ومائدة من الجوزع يقعد عليها جماعة قوائمها مخروطة . ونخلة ذهب مكالة بالجواهر وبديع الدر في اجانة من ذهب تجمع الطلع والبلح والرطب بشكله ولونه وعلى صفته وهيأته من الجواهر لاقيمة لها . وكوز زير بلور مرصع يحمل عشرة ارطال ومزيرة مكالة بحب لؤلؤ نفيس وقس على ذلك عشرات من امثاله

الفرش والاثاث عند الفاطميين

ووجدوا في خزائن الفرش من اصناف الاثاث والرياش ما يعد بالالوف . من ذلك ١٠٠٠٠٠ قطعة خسرواني اكثرها من ذهب ومراتب خسرواني وقلموني ثمن الواحدة ٣٥٠٠ دينار واجلة معمولة للفقيلة من الخسرواني الاحمر المذهب و ٣٠٠٠ قطعة خسرواني احمر مطرز بأبيض من هديتها لم يفصل من كساء البيوت كاملة بجميع آلاتها ومقاطعها وكل بيت يشتمل على مسانده ومخاده ومساوره ومراتبه وبسطه ومقاطعه وستوره وكل ما يحتاج اليه . ومثل ذلك من التحمل والديباج والخز وسائر انواع الحرير وعاليها اشكال الصور من كل شيء . ونحو الف من الستور الحرير المنسوجة بالذهب على اختلاف

الوانها واطوالها فيها صور الدول وملوكها ومشاهيرها وعلى صورة كل واحد اسمه ومدة ايامه وشرح حاله . و ٤٠٠٠ رزمة خسرواني مذهب في كل رزمة فرش مجلس ببسطه وتعاليقه وسائر آلاته منسوجة في خيط واحد . ومن جملتها مقطع من الحرير الازرق التستري غريب الصنعة منسوج بالذهب وسائر الوان الحرير كان المعز لدين الله امر بعمله وفيه صورة اقاليم الارض وجبالها وبحارها ومدنها وانهارها ومساكنها شبه الخارطة الجغرافية وفيه صورة مكة والمدينة ومكتوب على كل مدينة وجبل وبلد ونهر وبحر وطريق اسمه بالذهب والفضة او الحرير وقد كتب في آخره « مما امر بعمله المعز لدين الله شوقاً الى حرم الله واشهاراً للعالم رسول الله في سنة ٣٥٣ هـ »

فاعتبر ما تدل عليه هذه الآثار من رقي المدنية والحضارة وكم تكون قيمتها لو وجدت الان وكم يدفع المتمولون من المال في الحصول عليها

وقس عليه ما كان في سائر الخزائن من التحف ففي خزانة السلاح سيف الحسين ابن علي ودرقة حمزة بن عبد المطلب وسيف جعفر الصادق ومئات الالوف من الدروع والسيوف والقسي والرماح وغيرها . وفي خزانة السروج الوف من السروج الثمينة ومنها ما يساوي الف دينار الى سبعة الاف دينار . وفي خزانة الخيم انواع الفساطيط والمضارب والمسطحات والحصون والقصور والشرائط والمشارع العمومية من الديبقي والخملي والخسرواني والديباج المكي والارمني والبهنساوي والكردواني وغير ذلك على اختلاف الالوان والنقوش من المفيل والمسبغ والخيل والمطوس والمطير وغيرها من اشكال السباع والطيور والادميين مما ينصب على اعمدة ملبسة بالفضة . ومن هذه الفساطيط ما يبلغ طوله ٦٥ ذراعاً كبيراً يحمله مع ملحقاته مئة جمل . وفي خزانة البنود كثير من الرايات والاعلام السادجة والمطرزة وغيرها

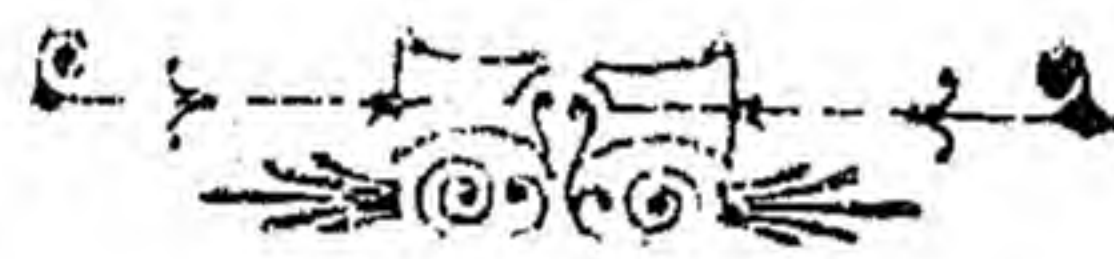
ومن ادلة الترف والاسراف في هذه الدولة ان السيدة الشريفة ست الملك اخت الحاكم بامر الله اهدت اخاها هذا هدايا من جملتها ثلاثون فرساً بمراكبها ذهب منها مركب واحد مرصع ومركب من حبيبر البلور وتاج مرصع بنفيس الجواهر وبستان من الفضة مزروع من انواع الشجر

وقد يتبادر الى الذهن ان ما تقدم ذكره لا يخلو من مبالغة او هو من قبيل الاحاديث الخرافية . ولكن مصر اشتهرت في العصر الاسلامي الوسطى بالثروة مثل شهرة بغداد في ابان حضارتها واشهر المصريون بالترف والغنى حين كان الناس يشكون الضيق ولذلك قالوا « من دخل مصر ولم يستغن فلا اغناء الله » وقد تواتر ذكر هذه التحف

وامثالها في كتب الثقات وبعضهم شهد الامر بنفسه ورأى هذه التحف راي العين ومنهم ابن الاثير المؤرخ الشهير فقد ذكر في حوادث سنة ٥٦٧ هـ التي اقام فيها السلطان صلاح الدين الخطبة بمصر للدولة العباسية واستولى على ما كان باقياً في قصور الخلافة من التحف والجواهر بعد ما اصابها من النهب في فتنة المستنصر وغيره - قال « وحمل الجميع الى صلاح الدين وكان من كثرته يخرج عن الاحصاء وفيه من الاعلاق النفيسة والاشياء الغريبة ما تخلو الدنيا من مثله ومن الجواهر التي لم توجد عند غيرهم فنه الحبل الياقوت وزنه سبعة عشر درهماً او ١٧ مثقالاً انا لا اشك فيه لاني رايت ووزنته والؤلؤ الذي لم يوجد مثله ومنه النصاب الزمرد الذي طوله اربع اصابع في عرض عقد كبير »



ش ٥٧ : السلطان صلاح الدين الايوبي



الدولة الايوبية

من سنة ٥٦٧ - ٦٤٨ هـ او من ١١٧١ - ١٢٥٠ م

سلطنة صلاح الدين يوسف

من سنة ٥٦٧ - ٥٨٩ هـ او من ١١٧١ - ١١٩٣ م

ولما علم صلاح الدين بوفاة العاضد وضع يده على القصر . وكان قد عهد الى بهاء الدين قراقوش ان يخفي التحف التي كانت قد جمعت . ثم التى القبض على جميع من بقي من الاسرة الفاطمية وهم الامير داود بن ولي العهد وينعت بالحامد لله واخواه ابو الامانة جبريل وابو الفتوح وابنه ابو القاسم . وسليمان بن داود بن العاضد وعبد الوهاب ابن ابراهيم بن العاضد واسماعيل بن العاضد وجعفر بن ابي طاهر بن جبريل وعبد الظاهر بن ابي الفتوح بن جبريل بن الحافظ وجعاهم تحت الحجر في مكان بعيد من القصر . اما ممالك العاضد وعبيده فباع بعضها وفرق البعض الآخر في ارباب دولته هكذا كانت نهاية دولة الفاطميين فقد غادروا القاهرة وفيها من آثارهم بنايات عظيمة وقصور ومناظر منها القصر الكبير الذي بناء جوهر عند ما اناخ في موضع القاهرة والقصر الصغير الغربي ونحو عشرة قصور اخرى جميعها متقنة ثمينة كلها قاعات ومناظر داخل سور القصر كان يقال لها القصور الزاهرة

ومن آثارهم عدة بساتين ومناظر بما كن مختلفة من القاهرة . وقاما بقي من تلك الآثار على حاله . ولكن هناك اثرأ عظيماً لا يمحوه كروور الايام نعي به القاهرة فانها من بنائهم كما علمت . وللفاطميين احاديث مطولة فيما يتعلق بهيئاتهم في مجالسهم العامة وكيف كان يجالسهم ارباب الدولة والفقهاء والعلماء وسائر انواع الاتباع وكيفية صلاتهم في المساجد وما يجري في ذلك من الاحتفال فمن احب الاطلاع عليه فليطالع في خطط المقريري

ويقال ان صلاح الدين وجد بين تلك الخزائن مكتبة تحتوي على مئة الف مجلد منتخبة من احسن المؤلفات . ولا يزال قسم منها الى الآن في مكتبة ليدن بالمانيا

نور الدين وصلاح الدين

ثم أسرع صلاح الدين الى تبليغ اتابك نور الدين انه انفذ امره وان الخليفة مات .
واتصل هذان الخبران ببغداد فاصبح خليفتهما منفرداً بالخلافة على سائر المشرق . فخلع
على اتابك نور الدين وبعث اليه سيفين اشارة الى توليته على سوريا ومصر . وخلع ايضاً
على صلاح الدين وبعث اليه بالاعلام السوداء يجعلها على المنبر . وبعد ان كانت القاهرة
عاصمة من عواصم الاسلام امست كغيرها من المدن وتحولت العظمة جميعها الى بغداد
فلما رأى نور الدين نفسه سيداً على سوريا كلها تقريباً وعلى بعض جزيرة العرب
وعلى اسيا الصغرى وما بين النهرين عزم على الاستقلال بها وبمصر . اما صلاح الدين فكان
في نيته الاستقلال بمصر انفسه منذ اول توليته فيها وكان بينه وبين نور الدين مكاتبات سرية
ما لها المحافظة على سلطة الخليفة العباسي الدينية ريثما يتأتى لهم الاستقلال فكان صلاح
الدين مع تظاهره في تأييد سلطة الخلفاء العباسيين لا يفتر ساعياً في اتمام مقاصده التي
كانت تحت طي الخفاء . فاخذ في تربية الاحزاب واعداد القوات الى ما يمكنه من
الاستقلال بمصر ومقاومة نور الدين اذا عارضه بذلك . فشعر نور الدين فبعث اليه
على اثر وفاة العاضد يستقدمه وفرقة من رجاله مظهرأ استنجاده على الصليبيين في
الكرك . وقصده الحقيقي ان يخرج من مصر ويبقيه عنده تحت مراقبته فياً من طائلته
فادرك صلاح الدين غرضه الحقيقي لكنه لم يستصوب مخالفة امره لئلا تنافر القلوب
فتتعرقل مساعيه فكتب اليه انه اذعاناً لامره برح القاهرة في فرقة من الجند
للملاقة جند نور الدين في الكرك . فوصل نور الدين اليها ولم يجد فيها احداً فانتظر
فلم يقدموا . ثم ورد اليه كتاب من صلاح الدين بانه برح القاهرة بجنده يطلب الكرك
فعرض له في الطريق ما الجأء الى العود حالاً الى مصر

دهاء نجم الدين ايوب

فعلم نور الدين انها مماثلة مقصودة فاقر على المسير بنفسه الى مصر والاشتغال
بصلاح الدين عن الصليبيين . لكنه قبل ذهابه بعث الى صلاح الدين يهدده بالعزل اذا
لم يبادر الى ما امر به فجمع صلاح الدين اهله وفيهم ابوه نجم الدين ايوب وخاله شهاب
الدين الحارمي وسائر الامراء . فلما تكامل الجمع اعلمهم بما كان بينه وبين نور الدين
وما بلغه من عزمه على الحجى اليه واستشارهم فلم يجبه احد . فنهض تقي الدين عمرو
ابن شاهين شاه اخي صلاح الدين فقال « ان الراي اذا جاءنا نور الدين قاتلناه ومنعناه

من البلاد » ووافقه غيره من اهلهم . فشتتهم نجم الدين ايوب والد صلاح الدين واستعظم اقوالهم وشم تقي الدين واقعده وقال لصلاح الدين « انا ابوك وهذا شهاب الدين خالك وهل تظن بين هؤلاء من يحبك ويخلص لك اكثر منا ؟ » قال لا . فقال « اعلم يا يوسف اننا والله لو راينا نور الدين لم نمكث ان نقتل بين يديه ولو امرنا ان نضرب عنقك بالسيف لفعلنا . فاذا كنا نحن هكنا فما ظنك بغيرنا ؟ وكل الذين تراهم عندك من الامراء لو رأوا نور الدين وحده لم يجسروا على الثبات على سروجهم وهذا البلاد له ونحن ممالكه ونوابه فيها فان اراد سمعنا واطعنا . والرأي ان تكتب كتاباً مع نجاب تقول فيه : بلغني انك تريد الحركة الى هذه البلاد فاي حاجة الى هذا يرسل المولى نجاباً يضع في رقبتك نديلاً ويأخذني اليك وما هنا من يمنع »

وقام الامراء وغيرهم وتفرقوا على هذا . ثم خلا ايوب بصلاح الدين فقال له « باي عقل فعلت هذا ؟ اما تعلم ان نور الدين اذا سمع عزنا على منعه ومحاربتة جعلنا اهم الوجوه اليه وحينئذ لا نقوى عليه ؟ واما الآن اذا بلغه ما جرى وما اظهرنا من الطاعة له تركنا واشتغل بغيرنا والاقدار تعمل عملها . والله لو اراد نور الدين قسبة من قصب السكر لقاتلته انا عاينها حتى امنعه او اقتل » ففعل صلاح الدين ما اشار به ابوه

فلما جاء كتاب صلاح الدين الى نور الدين كما نصه ابوه سكن روعه وتوقف عن المسير الى مصر وعاد للاهتمام بامر الصليبيين وكانوا قد امعنوا في سوريا ولم تعد اخبارهم تصل لنور الدين بالسرعة اللازمة لاتساع ايالاته فاستخدم الحمام لنقل الاخبار فكانت تأتية بها بزمان قريب

وثوب المصريين بصلاح الدين

اذعن المصريون لصلاح الدين وفي قلوبهم غل فتآمر جماعة من اصحاب الخلفاء الفاطميين على الوثوب به وسبب ذلك ان جماعة من الشيعة منهم عمارة بن ابي الحسن البجلي الشاعر وعبد الصمد الكاتب والقاضي العويرس وداعي الدعاة وغيرهم من جند المصريين ورجالهم السودان وحاشية القصر ووافقه جماعة من امراء صلاح الدين وجنده - اتفق رأيهم على استدعاء الصليبيين من صقلية ومن ساحل الشام الى ديار مصر على شيء بذلوه لهم من المال . فاذا قصدوا البلاد وخرج صلاح الدين بنفسه اليهم ثاروا هم في القاهرة ومصر وأعادوا الدولة الفاطمية وعاد من دعه من العسكر الذين وافقوهم عنه فلا يبقى له مقام مقابل الصليبيين . وان كان صلاح الدين يقيم ويرسل العساكر اليهم ثاروا

به واخذوه اخذاً باليد لعدم الناصر له . وقال لهم عمارة « وانا قد ابعدت اخاه الى اليمن خوفاً من ان يساء مسده وتجتمع السكامة عليه بعده »

فارسلوا الى الصليبيين في ذلك وتقررت القاعدة بينهم ولم يبق الا رحيل الصليبيين . وكان من لطف الله بالمسلمين ان الجماعة المصريين ادخلوا معهم زين الدين علي بن نجما الواعظ والقاضي المعروف بابن بحية ورتبوا الخليفة والوزير والحاجب والداعي والقضاة . الا ان بني رزيك قالوا ان الوزير منا وبني شاور والقاضي قالوا يكون الوزير منا . فلما علم ابن نجما الحال حضر عند صلاح الدين واعلمه حقيقة الامر فامرهم بملازمتهم ومخالطتهم على ما يريدون فعله وتعريفه ما يتجدد اول باول . ففعل ذلك وصار يطالعه بكل ما عزموا عليه

ثم وصل رسول من ملك الصليبيين بالساحل بهدية ورسالة وهو في الظاهر اليه والباطن الى اولئك الجماعة . وكان صلاح الدين يرسل اليهم بعض النصارى تأييده رسالهم فاتاه الخبر من بلاد الصليبيين بجملة الحال . فوضع صلاح الدين على الرسول بعض من يشق اليه من النصارى وداخله فاخبره الرسول بالخبر على حقيقته . فقبض حينئذ على المقدمين في هذه الحادثة ومنهم عمارة وعبد الصمد الكاتب والعويرس وغيرهم وصلبهم

وقيل في كشف امرهم ان عبد الصمد المذكور كان اذا لقي القاضي الفاضل وزير صلاح الدين يخدمه ويتقرب اليه فاقيه يوماً فلم يلتفت اليه . فقال القاضي الفاضل « ما هذا الالسبب » وخاف ان يكون قد صار له باطن مع صلاح الدين فاحضر علي بن نجما الواعظ واخبره الحال وقال « اريد ان تكشف لي الامر » فسعى في كشفه فلم يراه من جانب صلاح الدين شيئاً فعدل الى الجانب الآخر فكشف الحال وحضر عند القاضي الفاضل واعلمه . فقال « تحضر الساعة عند صلاح الدين وتنهي الحال اليه » فحضر عند صلاح الدين وهو في الجامع فذكر له الحال . فقام واخذ الجماعة وقررهم فاقروا فامر بصلبهم وكان بين عمارة وبين الفاضل عداوة من ايام العاضد وقبلها فلما اراد صلبه قام القاضي الفاضل وخاطب صلاح الدين في اطلاقه وظن عمارة انه يحرض على هلاكه فقال لصلاح الدين « يامولانا لا تسمع منه في حقي » فغضب الفاضل وخرج وقال صلاح الدين لعمارة « انه كان يشفع فيك » فندم ثم اخرج عمارة ليصاب فطلب ان يمر به على مجلس الفاضل فاجتازوا به عايه فاغلق بابه ولم يجتمع به فقال عمارة

عبد الرحيم قد احتجب * ان الخلاص هو العجب

ثم صلب هو والجماعة ونودي في اجناد المصريين بالرحيل من ديار مصر ومفارقةها الى اقاصي الصعيد واحتيط على من بالقصر من سلالة العاضد وغيره من اهله واما الذين نافقوا على صلاح الدين من جنده فلم يعرض لهم ولا اعلمهم انه علم بحالهم واما الصليبيون فكانوا يتألفون عصباً ويتقدمون في سوريا يفتتحون مدنها وما زالوا في خطتهم هذه حتى لم يعد امامهم الا عدوان كبيران وهما نور الدين وصلاح الدين . وكان هذا الاخير يترقب الفرص لبلوغ مرامه فكان يغتتم فرصة اشتغال نور الدين بالحاربة في ما بين النهرين ويسير الى غزو سوريا وحلما يعلم بقدمه اليها يعود الى مصر حالاً

وفاة نور الدين ومناقبه

فآل ذلك الى النفور الشديد بين هذين الرجلين وهم نور الدين بحشد الجيوش وتسييرها الى مصر لخراج صلاح الدين منها واقامة حامية لحماية الحدود التي يخشى هجوم الصليبيين عليها . وبينما هو على اهبة الرحيل فاجأته المنية بعلة الخوانيق فمات في دمشق في شوال سنة ٥٦٩ هـ وسنه ستون سنة وهداة حكمه ٢٩ سنة . وكانت مملكته شاملة جميع سوريا الشرقية وقسماً من سوريا الغربية ومصر والموصل وديار الجزيرة . وكان واسع الجبهة حسن الصورة حلوا العينين . وكان قد اتسع ملكه جداً ، وخطب له بالحرمين الشريفين وباليمن وكان لا يأكل ولا يلبس ولا يتصرف الا في الذي يخصه من ملك كان له قد اشتراه من سهمه في الغنيمة ومن الاموال المرصدة لمصالح المسلمين . ولقد شكت اليه زوجته من الضائقة فاعطاها ثلاثة دكاكين في حمص كانت له يحصل منها في السنة نحو عشرين ديناراً . فلما استقلتها قال « ليس لي الا هذا وجميع ما بيدي انا فيه خازن للمسلمين لا اخونهم فيه ولا اخوض نار جهنم لاجلك » وكان يصلي كثيراً بالليل وله فيه اوراد حسنة وكان كما قيل :

جمع الشجاعة والخشوع لربه * ما احسن المحراب في المحراب

وكان عارفاً بالفقه على مذهب ابي حنيفة ليس عنده فيه تعصب وسمع الحديث واسمعه طالباً للاجر . واما عداه فانه لم يترك في بلاده على سعتها مكساً ولا عسراً بل اطاها جميعها في مصر والشام والجزيرة والموصل وكان يعظم الشريعة ويقف عند احكامها . واحضره انسان الى مجلس الحكم فمضى معه اليه وارسل الى القاضي كمال الدين ابن الشهرزوري يقول « قد جدت محاكماً فاسلك معي ما تسلك مع الخصوم » وظهر الحق له فوهبه الخصم الذي احضره وقال « اردت ان اترك له ما يدعيه انما خفت ان يكون الباءث لي على ذلك السكبر والانفة من الحضور الى مجلس الشريعة فحضرت ثم وهبته

ما يدعيه « وبنى دار العدل في بلاده وكان يجلس هو والقاضي فيها ينصف المظلوم من الظالم ولو انه واده او اكبر امير عنده . واما شجاعته فاليها النهاية وكان في الحرب ياخذ قوسين ليقاتل بهما فقال له القطب النساوي الفقيه « بالله عليك لا تخاطر بنفسك وبالاسلام فان اصبحت في معركة لا يبقى من المسلمين احد الا اخذه السيف » فقال له نور الدين « ومن محمود حتى يقال له هذا أمن قبلي من حفظ البلاد والاسلام ؟ ذلك الله الذي لا اله الا هو » واما ما فعله من المصالح فانه بنى اسوار مدن الشام جميعها وقلاعها فمنها دمشق وحمص وحماة وحلب وشيزر وبعليك وغيرها وبنى المدارس الكثيرة للحنفية والشافعية وبنى الجامع النوري بالموصل وبنى البيمارستانات والخانات في الطرق وبنى الخانات في جميع البلاد ووقف على الجميع الوقوف الكثيرة وكان حاصل وقفه كل شهر تسعة آلاف دينار صوري وكان يكرم العلماء واهل الدين ويعظمهم ويقوم اليهم ويجلسهم معه ويتبسط معهم ولا يرد لهم قولاً ويكتبهم بخط يده وكان وقوراً مهيباً مع تواضعه

استقلال صلاح الدين بمصر والشام

فانتقلت مملكته بعد موته الى ابنه الملك الصالح اسماعيل وكان في الحادية عشرة من العمر . فأقيم شمس الدين محمد بن المقدم نائباً له في تدبير المملكة . فاستخف الناس به لصغر سنه حتى هم افراد أسرته بتنزيله اكنهم لم ينجحوا وحاول الملك امري غزوه فعاد خائباً . اما الامراء الذين كانوا على الامارات في مملكته فحاول كل منهم الاستقلال بذاته فأحب نائب الملك ان يسير الى صلاح الدين يستجده فأوقفه اولئك الامراء . وفي خلال ذلك ورد اليهم والي نائب الملك كتب من صلاح الدين تقول بوجوب الخضوع التام لخليفة نور الدين كما كان له وارسل نقوداً مضرورة في مصر باسم السلطان الجديد . ومما كتبه للامراء قوله « او علم نور الدين ان فيكم من هو اكثر اهلية وامانة مني اولاية مصر فلا اشك انه كان يعهدا اليه وهي اجمل واخصب ولاياته واعلموا ايضاً انه لو لم يفاجئه القضاء لاقامني وصياً على ابنه وارى انكم تحاولون اخراج يدي ولكني سأذهب الى دمشق بنفسي واقدم عبودي الي هذا السلطان الجديد معترفاً بالافضل العظيمة التي حمانيها ابوه اما انتم فسأعاملكم بمقتضى تصرف كل واحد منكم لاني اعدكم من اهل الفتنة »

وجاء صلاح الدين الى دمشق بعد وصول كتبه بقليل واخرج منها سيف الدين غازي بن اخي نور الدين . وكان قد وضع يده عليها واعادها للملك الصالح ثم اسرع

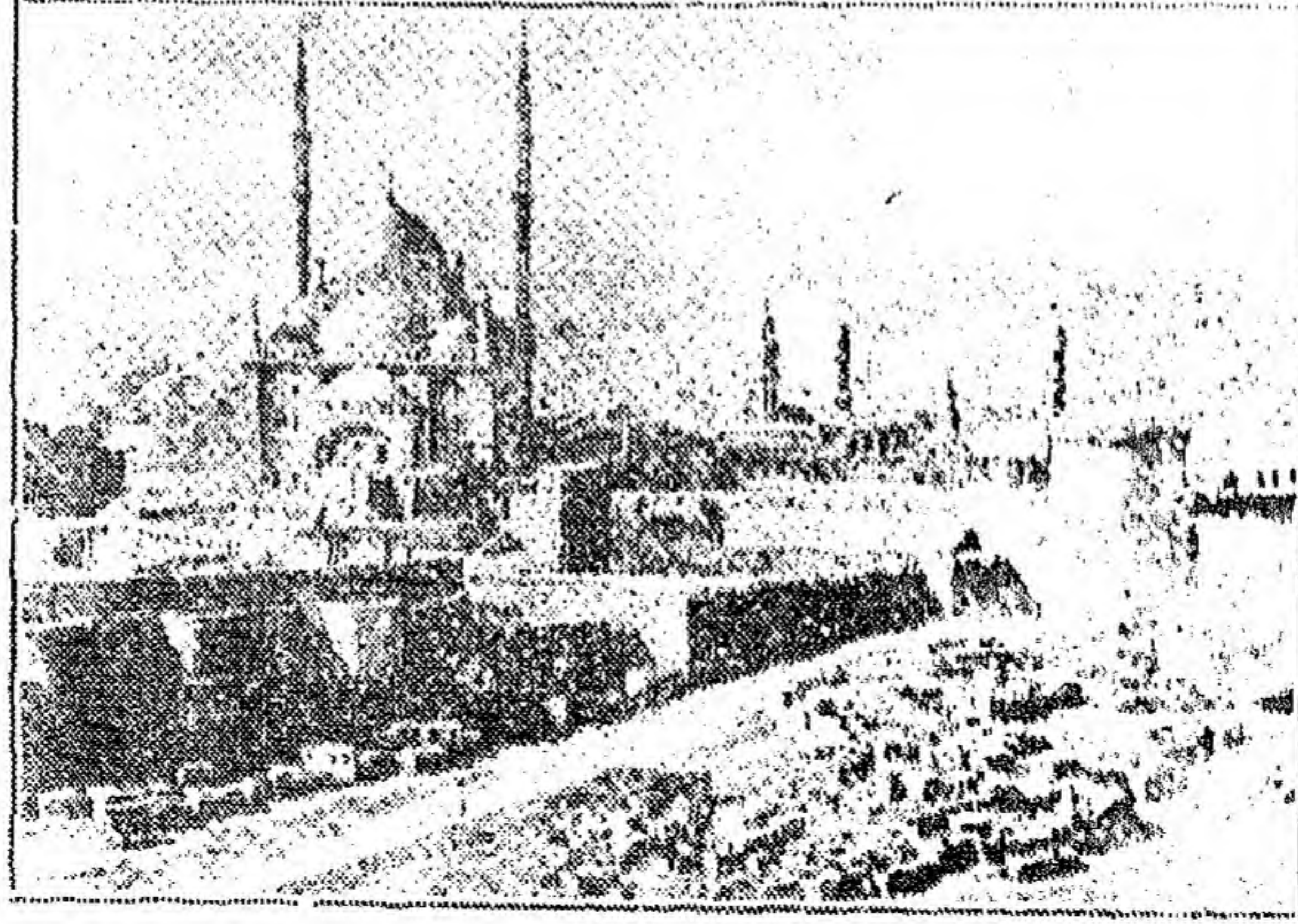
في استرجاع الاماكن التي كان قد استقل بها بعض الامراء الصغار من اسرة نور الدين في سوريا الشرقية استخفافاً منهم بسلطة الملك الصالح . فاسترجع منهم حمص وحماة وبارين وسلامية وتل الخاطب وبعلبك والرها . الا ان هذه الفتوح لم تجدد الملك الصالح نفعا لانها دخلت في سلطنة صلاح الدين ولم يعط منها شيئاً للملك الصالح . فاستنكف منه وخافه . ثم حاول صلاح الدين الاستيلاء على حلب وكانت في حوزة الملك الصالح على نية ان يخرج به الى شرقي البلاد السورية . واستنجد الملك الصالح ابن عمه سيف الدين غازي وكان قد ولاء الموصل فأمدّه . فاتحد الجيشان وهاجوا صلاح قرب في ١٩ رمضان سنة ٥٧٠ هـ فتغلب عليهم وسلب منهم امتعتهم واستولى على حلب وابطل الخطبة للملك الصالح وخطب لنفسه

فراى صلاح الدين اذ ذاك من قوائمه والاحوال المحيطة به ما يؤهله ابلوغ ما طالما كان يتمناه من الاستقلال بالملك . فصرح بسلطانه في مصر وسوريا وكان كذلك . فاصبح الصليبيون اعداءه مباشرة . اما هم فاغتنبوا اشتغاله في جهات حلب وحملوا على البلاد الغربية من سوريا وجعلوا يفتكون باهلها ويسومونهم سوء العذاب يقتلون بعضهم ويأسرون البعض . فخار بهم طوران شاه اخو صلاح الدين فلم يتو عليهم . فبلغ ذلك اخوه وكان قد استقدم جنداً مصرياً . فانفذ بعضهم فارجمعوا الصليبيين على اعقابهم فعاد الى اتمام فتوحه فخارب سيف الدين غازي وفاز به واستولى على بوزاع ومنبج وعيراز حيث قبض على اثنين من الباطنيين وقتلها بيده وكانا مرسلين من قبل امير الباطنيين ليقطلاه . وختم صلاح الدين فتوحه بمعاهدة عقدتها مع سيف الدين غازي والملك الصالح تقضي باستبقاء جميع البلاد التي فتحتها تحت سلطته وان لا يكون للملك الصالح دخل فيها

اصلاحات صلاح الدين بمصر

وعاد صلاح الدين الى مصر في ٢٠ محرم سنة ٥٧٢ هـ بعد ان استخلف اخاه طوران شاه على دمشق وكان قبل مسيره الى الشام قد استخلف على مصر وزيره الامير بهاء الدين الاسدي الخصي الفارسي الذي تقدم ذكره . فعهد اليه تدبير الاحكام وامره ان يقيم البناءات اللازمة لرونق البلاد ومنعتها . فانفذ بهاء الدين ما عهد اليه بغيرة ونشاط وكانت الجسور المبنية لتنظيم بحرى النيل عند الفيضان قد اهمل شأنها منذ تولى الخلفاء الفاطميون فاذا فاض النيل طغت مياهه على اليابسة وخربت الطرق وافسدت الزرع فهدد الطرق واحتفر الترعة واقام الجسور والسدود واستخدم لذلك بعض حجارة

الاهرام الصغيرة التي كانت تحيط باهرام الجيزة وغيرها من ابنية المصريين القدماء .
والشأ طريقاً يمتد طويلاً على ضفة النيل فيقيها من صدمات المياه وتسهل علائق العاصمة
بمصر العليا والسفلى . وشاد فوق التربة التي كانت تجري بين الجيزة واهرامها جسراً
عظيماً مؤلفاً من اربعين قنطرة



ش ٥٨ : قلعة القاهرة الآن

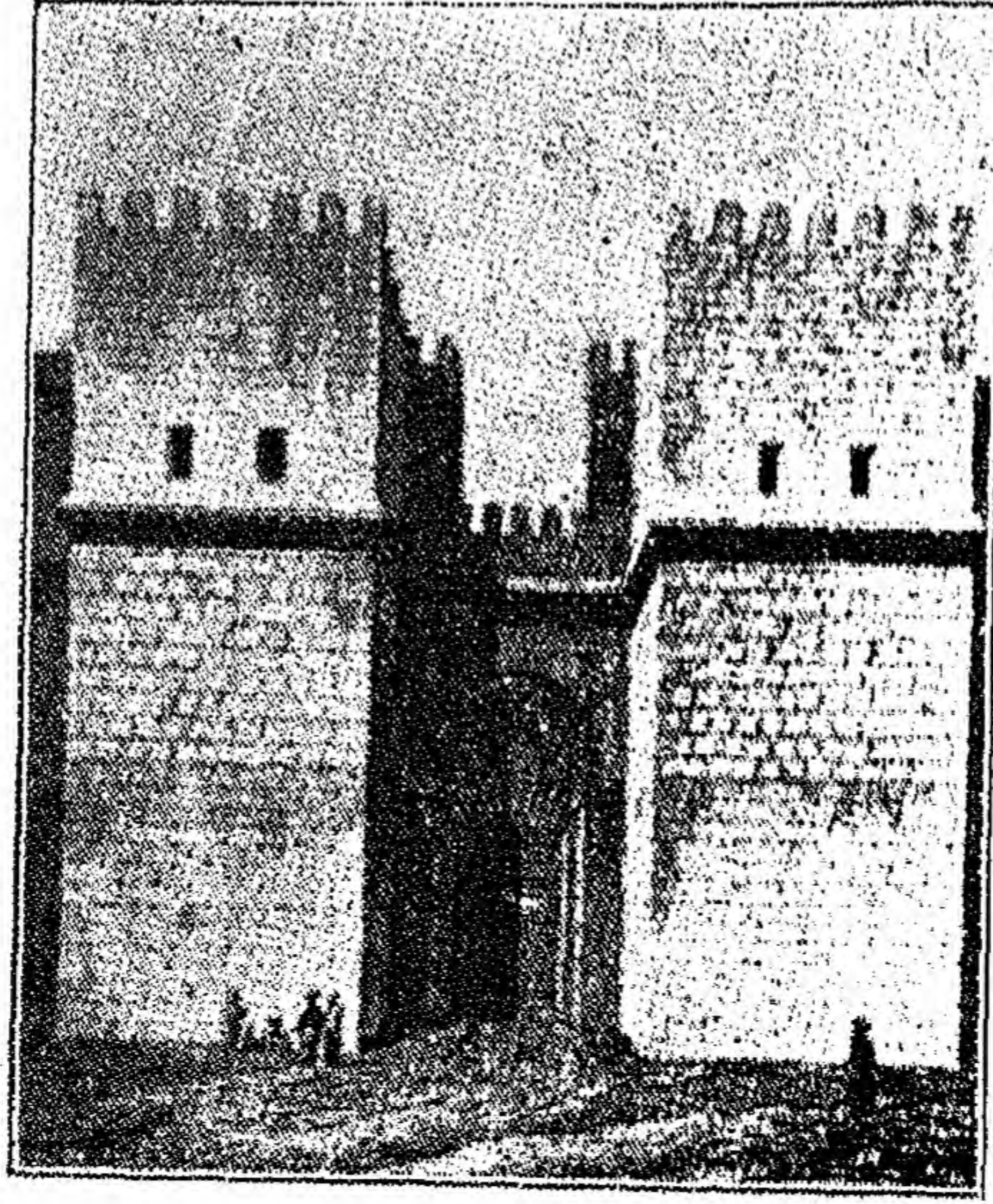
ولم يكن لصالح الدين اذ ذاك مسكن الا القصران اللذان كانا للخليفة والوزير
السابقين ولم يكونا منيعين حق المنعة فجعلهما منزلاً لامراء الدولة وقواد الجند وبنى في
الطرف الشمالي من جبل المقطم على سفحه قلعة منيعة لارهاب الاهالي اذا حاولوا
العصيان وجعل فيها قصراً لبلاطه . وكان في ذلك المسكان بناء قديم من عهد الدولة
الطولونية يعرف بقبة الهواء فهدمه واقام القاعة في مكانه واتى بحجارتها من خرائب
منف والاهرام وغيرها فجاءت قلعة منيعة الجانب تشرف على كل المدينة وايس في القاهرة
بناها آخر امنع موقعا من القاعة وهي لا تزال باقية الى هذا العهد وتعرف بقلعة الجبل
وقلعة القاهرة . واحتفر بهاء الدين في القلعة بئراً نقرأ في الصخر عميقة جداً تسع
كل ما تحتاج اليه الحامية من الماء ولا تزال البشر والقصر الى هذه الغاية يعرفان باسمه
فالبر تدعى بئر يوسف ويظن بعض العامة انها سميت هكذا نسبة الى يوسف الصديق
ابن يعقوب والصحيح نسبتها الى يوسف صالح الدين الذي امر باحتفارها . والغالب
ان هذه البشر كانت محفورة من ايام قدماء المصريين ثم طمرت بالرمال فاعاد صالح
الدين حفرها وما بقي من القصر يعرف بديوان يوسف او ديوان صالح الدين .

وابتني هذا الوزير ايضاً حواصل كبيرة في الفسطاط لخزن الغلال التي ترد من الاعمال سنوياً ولا تزال تدعى الى يومنا هذا بمخازن يوسف وقد ظن بعضهم انها من بناء فرعون في زمن يوسف الصديق

سور القاهرة

وبعد ان فرغ بهاء الدين من اصلاح الترع والخلجان والطرق وبناء القلعة اخذ يهتم باتمام سور القاهرة وكان قد ابتدا بعمارة السلطان صلاح الدين سنة ٥٦٦ هـ وهو يومئذ على وزارة العاضد فلما عهد الى بهاء الدين اتمامه عمل له رسماً عظيم الاتساع يحيط بالقاهرة والفسطاط وقصر الشمع وما بينها من الارض. الا انه استعظم بناء بهذا الاتساع فجعله محيطاً بالقاهرة والقلعة فقط واضطر لقيام مشروعه هذا الى هدم جوامع وبيوت وقبور كثيرة كانت في مكان السور. ولم يكن الاهالي معتادين على الاذعان لاوامر صلاح الدين كسلطان وبعضهم لا يزال متشيعاً للدولة الفاطمية فاتهموه بالاستبداد واقتبوا بهاء الدين بقراقوش اي الطير الاسود وهو العقاب ولا يزال بعض عامة الشرقيين يعبرون بهذا الاسم عن الاستبداد والعسف وينسبون اليه احكاماً عجبية في ولايته حتى ان الاسعد بن مماتي له كتاب لطيف سماه الغاشوش في احكام قراقوش وفيه اشياء يبعد وقوع مثلها منه. والظاهر انها موضوعة فان صلاح الدين كان معتمداً في احوال المماكة عليه ولولا وثوقه بمعرفته وكفاءته مافوضها اليه وكان رجلاً مسعوداً وصاحب همة عالية وهذه هي المرة الثالثة لبناء سور القاهرة ففي المرة الاولى بناء جوهر وفي الثانية امير الجيوش وفي الثالثة بناء بهاء الدين بامر صلاح الدين فزاد فيه القطعة التي من باب القنطرة الى باب الشعرية ومن باب الشعرية الى باب البحر. وبني قلعة المقس وهي برج كبير جعله على النيل بجانب جامع المقس الذي يعرف اليوم بجامع اولاد عنان وهو خارج باب البحر على يسار الازاهب من وجه البركة الى محطة السكة الحديد. وانقطع السور من هناك. وزاد في سور القاهرة قطعة مما يلي باب النصر ممتدة الى باب البرقية والى درب بطوط والى خارج باب الوزير يتصل بسور قلعة الجبل فانقطع من مكان يقرب من الصوة تحت القلعة والى الآن آثار الجدر ظاهرة للمنازل فيما هو آخر السور الى جهة القاعة. وجاء دور هذا السور المحيط بالقاهرة ٢٩٣٠٢ من الازرع الهاشمية وقلعة المقس المذكورة كانت برجاً مطلاً على النيل في شرقي جامع المقس ولم تزل حتى هدمها الوزير صاحب شمس الدين عندما جدد الجامع المذكور سنة ٧٠٧ هـ وجعل في مكان ذلك البرج حديقة. وحفر بهاء الدين خارج السور خندقاً جعله من

باب الفتوح الى المقس . ومن الجهة الشرقية خارج باب النصر الى البرقية وما بعده وجعل خارج هذا الخندق سوراً آخر بابراج مبني بالحجارة الا ان هذا السور الثاني هدم جميعه والخندق ردم الا في بعض الاماكن



ش ٥٩ : باب النصر كما هو الان

وفي سنة ٥٧٣ هـ عاد الصليبيون الى التعدي فحصلت بينهم وبين صلاح الدين واقعة في الرملة كان الفوز فيها للصليبيين الا ان ذلك الفوز لم يلبث حتى انقلب عليهم المحدث بين رؤسائهم من اللشقاق
وفي ٥ صفر سنة ٥٧٦ هـ توفي شمس الدولة طوران شاه في نجر الاسكندرية وكان قد جاءها من دمشق فنقلته اخته ست الشام بنت ايوب الى دمشق ودفنته في مدرستها التي الشأتها بظاهر دمشق فهناك قبره وقبرها وقبر ولدها حسام الدين عمر بن لاجين وقبر زوجها ناصر الدين بن اسد الدين شيركوبه صاحب حصص وكانت قد تزوجته بعد لاجين

وفي سنة ٥٧٨ هـ حمل صلاح الدين على سوريا حملة ثانية وسيبها ان الملك الصالح كان قد مات واستخلف عز الدين ملك الموصل فاراد هذا ان يخرق المعاهدة التي كانت قد عقدت مع صلاح الدين فاتصل ذلك بصلاح الدين واتصل به ايضاً ان امراء

الموصل وآمروا عليه سرّاً مع الصليبيين فأسرع الى سوريا فجاء حلب وحاصرها فسلمت ثم استولى على الرها والرقّة ونصيبين وسروج وخابور وسنجار وحران ثم اتى فمسكر امام الموصل ولم يبق غيرها للملك الصالح فحاصرها وبعد اخذ ورد سلمت سنة ٥٨١ هـ واصيب فيها صلاح الدين بمرض شديد فانتشر ذلك في انحاء سوريا ثم بعث عز الدين يطلب المصالحة وكانت المصالحة النهائية لانهم جعلوا لها حيثية دينية ومن مقتضاها الخطبة لصلاح الدين في الموصل وسائر البلاد التي ارجعت للاتاك الملك الصالح . وان يعترف صاحب الموصل انه تابع لصلاح الدين وعليه تقديم العدة والرجال عند الحاجة لمحاربة الصليبيين

واقعة حطين

وفي ١٤ ربيع آخر سنة ٥٨٣ هـ كانت بداية واقعة حطين الشهيرة في وسط نهار الجمعة والاسلام كثيراً ما يحاولون لقاء عدوهم يوم الجمعة عند الصلاة تبرّكاً بدعاء المسلمين والخطباء على المنابر في سائر العالم الاسلامي في وقت واحد . فسار السلطان صلاح الدين بما اجتمع لديه من الجند على اتم نظام وحط رحاله عند بحيرة طبرية على سطح الجبل على امل ان الافرنج اذا بلغهم نزوله هناك يقدمون اليه وكانوا معسكرين في مرج صفورية بارض عكا فلم يتحركوا من منازلهم . فسار صلاح الدين في جريدة من جيشه الى طبرية واستامها بساعة بعد القتل والنهب الا ان القلعة بقيت سالمة بمن فيها . فبلغ الافرنج ما حصل في طبرية فساروا نحوها فعلم السلطان بذلك فترك على قلعة طبرية من يحاصرها وعاد للملاقاة العدو فالتقى به على سطح جبل طبرية الغربي في يوم الخميس ٢٢ ربيع آخر وبعد حرب شديدة تفرقت جيوش الصليبيين الافرنج منهم تحصنت في تل يقال له تل حطين وهي قرية هناك عندها قبر النبي شعيب فضايقتهم المسلمون واشعلوا حولهم النيران فاشتد بهم العطش الى ان الجأهم الامر للقتال ياساً فاسرت مقدمتهم وقتل الباقون

وكان في جملة المأسورين الملك جفري واخوه البرلس ارباط صاحب الكرك والشوبك وغيرهما من القواد والامراء . فجلس السلطان صلاح الدين في خيمته وامر بتحضير الاسرى بين يديه فاحضروا وفيهم الملك جفري فامر له بشربة من جلاب ثلج فشربها وكان في ظاية الظلم ثم اعطى البراس ارباط اخاه فشرّب وقال السلطان للترجان « قل للملك انت الذي سقيته اما انا فاسقيته » اذ كان من جيل عادة العرب ان الاسير اذا اكل او شرب من مال من اسره امن . فقصد السلطان بقوله هذا ان الملك جفري قد

امن اما اخوه فلم يأمن . وكان في قلب صلاح الدين حقد على البرنس ارباط لسابق
تعمديه على جماعة من المسلمين وقتلهم في حال سامية لغير داع فسبق من السلطان قسم
انه اذا ظفر بهذا الامير قتله . فبعد ان شر با ارسلهما للمائدة فاكلا ثم اعيدا الى السلطان
فاخذ بيده سيفاً وتقدم الى البرنس ارباط قائلاً « ها انا انتصر لمحمد » ثم عرض عليه
الاسلام فابى فضر به بالسيف فحل كتافه وتم قتله من حضر ورميت جثته على باب
الخميمة . فلما رأى جفري ذلك وقع الرعب في قلبه . فكلمه السلطان وطيب خاطره وقال
له « لم تجر العادة ان يقتل الملوك الملوك اما هذا فقد تجاوز الحد وتجراً على الانبياء »
وفي اثناء هذه الحروب التقى صلاح الدين بريكاردس قلب الاسد



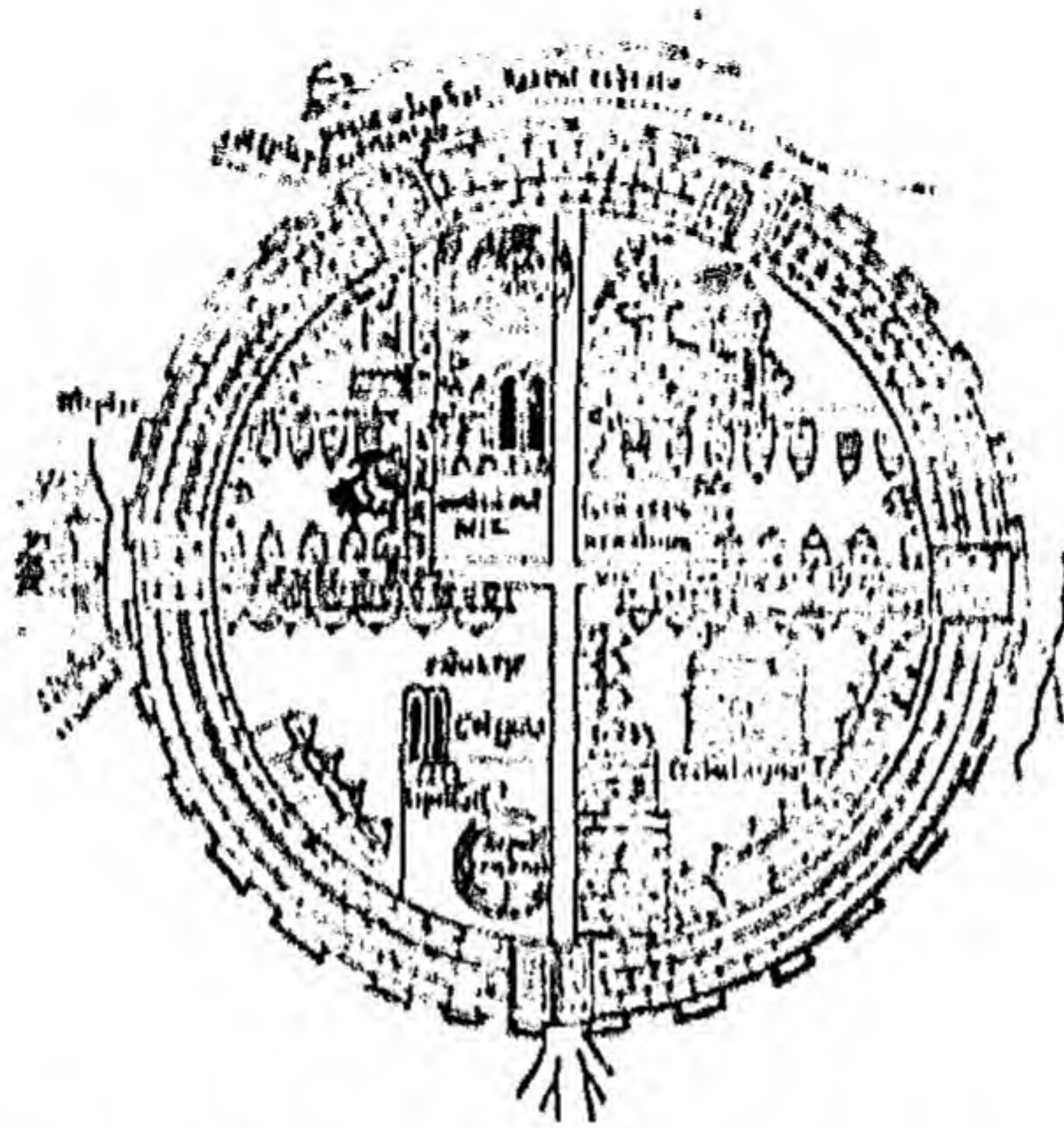
ش ٦٠ : ريكاردس قلب الاسد

وفي اليوم التالي نزل السلطان على طبرية فاستلم قاعاتها ثم رحل طالباً عكا فبلغها
يوم الاربعاء غاية ربيع آخر . وفي اليوم التالي حاربها واخذها وانقذ من كان فيها من

اسارى المسلمين وكانوا اكثر من ٤٠٠٠ واستولى على ما فيها من الاموال . ثم فرق السلطان صلاح الدين جيشه فرقاً في انحاء سوريا فاستولى على نابلس وحيفا وقيسارية وصفورية والناصرية . وسار هو يطلب تبينين فنزلها يوم الاحد ١١ جمادى الاولى وهي قلعة منيعة فحاصرها اسبوعاً ونصب عليها المنجنيق حتى فتحتها عنوة ثم رحل عنها الى صيدا فنزل عليها وتسلمها في غد نزوله ثم سار الى بيروت وركب عليها المنجنيق وما زال حتى اخذها في يوم الخميس ٢٩ جمادى الآخرة وسارت سرية من رجاله الى جبيل من اعمال لبنان فاستلمها . ثم حول شكيمة فتوجه جنوباً قاصداً عسقلان فرعلى مواضع كثيرة كالرملة والدارون فاستولى عاينها فلما وصل عسقلان نصب عليها المنجنيق وقائنها قتالاً شديداً حتى تسلمها ثم بعث من رجاله من استلم غزة وبيت جبريل والبترون بغير قتال

فتح بيت المقدس

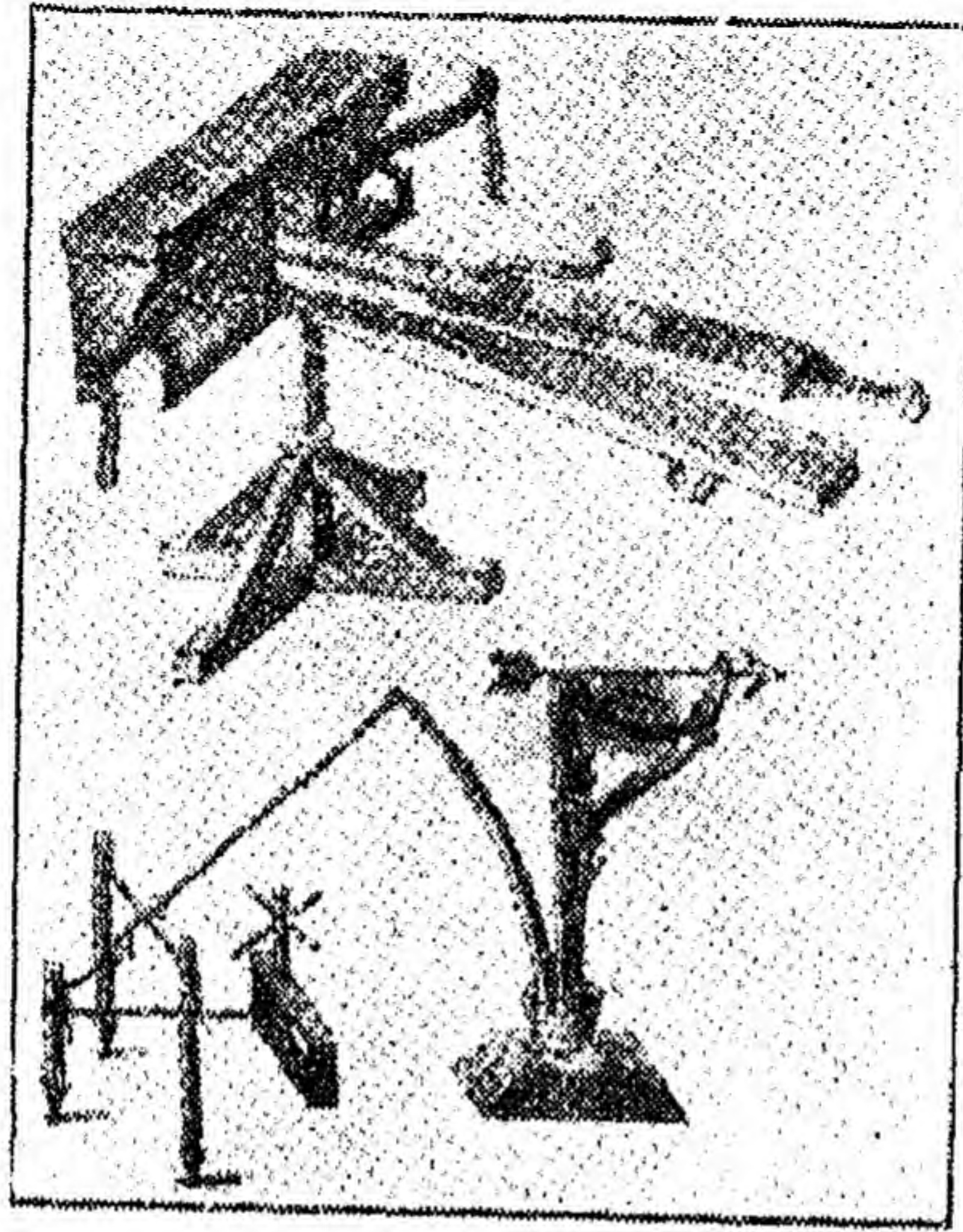
والا تم لصلاح الدين الاستيلاء على البلاد المحيطة ببيت المقدس شمر عن ساعد الجند في المسير اليه فجمع جنده وكانوا متفرقين في الساحل وسار بهم حتى اتى بيت المقدس يوم الاحد ١٥ رجب سنة ٥٨٣ هـ . وكان به البطريرك المعظم عندهم وهو اعظم شأناً من ملكهم . وبه ايضاً باليان بن بيرزان صاحب الرملة وكانت مرتبته عندهم



ش ٦١ : شكل بيت المقدس واسواره لما حاصره صلاح الدين

نقارب مرتبة الملك . وبه ايضاً من خواص من فرسانهم من حطين . وقد جمعوا وحشدوا واجتمع اهل تلك النواحي عسقلان وغيرها فاجتمع به كثير من الخلق كما هم يرى الموت ايسر عاينه من ان يملك المسلمون البيت المقدس وياخذوه منهم ويرى

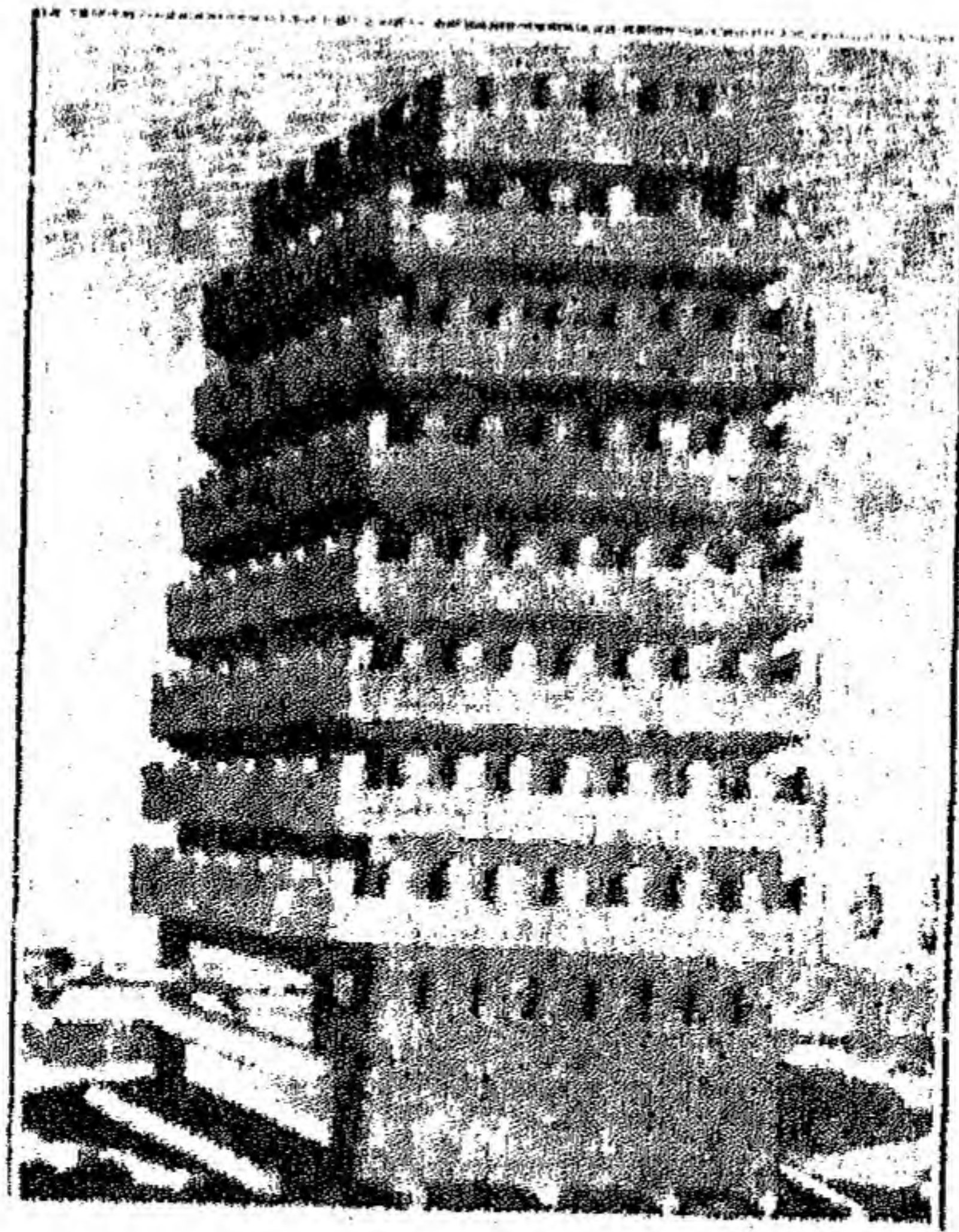
ان بذل نفسه وماله واولاده بعض ما يجب عليه من حفظه . وحصنوه تلك الايام بما وجدوا اليه سبيلاً . وصعدوا على سورهم بجدهم وحديدهم مجتمعين على حفظه والدفاع عنه بجهدهم وطاقاتهم مظهرين العزم على المناضلة دونه بحسب استطاعتهم ونصبوا المنجنيقات ليمنعوا الدنو منه والنزول عليه . ولما قرب صلاح الدين منه تقدم امير في جماعة من اصحابه غير محتاط ولا حذر فلقبه جمع من الصليبيين قد خرجوا من القدس فقاتلوه وقتلهم فقتلوه وقتلوا جماعة ممن معه . فاهم المسلمين قتله وفجعوا بفقده وساروا حتى نزلوا على القدس في منتصف رجب . فلما نزلوا عليه رأى المسلمون على سورهم من الرجال ما هالهم وسمعوا لاهله من الغلبة والضجيج من وسط المدينة ما استدلوا به على كثرة الجمع . وبقي صلاح الدين خمسة ايام يطوف حول المدينة لينظر من اين يقاتلها لانها في غاية الحصانة والامتناع فلم يجد عايتها موضع قتال الامن جهة الشمال نحو باب عمود او كنيسة صهيون فانتقل الى هذه الناحية في العشرين من رجب ونزلها ونصب تلك الليلة المنجنيقات فاصبح من الغد وقد فرغ من نصبها ورمى بها . ونصب



ش ٦٢ : منجنيقات لرمي النبال

الصليبيون على سور البلاد منجنيقات ورموا بها وقوتلوا اشد قتال رآه احد من الناس كل واحد من الفريقين يرى ذلك ديناً وحقاً واجباً فلا يحتاج فيه الى باعث سلطاني بل كانوا يمتنعون ولا يمتنعون ويزجرون ولا يزدجرون . وكان خيالة الصليبيين كل يوم

يخرجون الى ظاهر البلد يقاتلون ويبارزون فيقتل من الفريقين . وممن قتل من المسلمين الامير عز الدين عيسى بن مالك وهو من اكابر الامراء وكان ابوه صاحب قلعة جعبر وكان يصطلي القتال بنفسه كل يوم فقتل . وكان محبوباً الى الخاص والعام . فلما رأى المسلمون مصرعه عظم عليهم ذلك واخذ من قلوبهم شغلوا حملة رجل واحد . فزالوا الصليبيين عن مواقعهم فادخلوهم بلدهم . ووصل المسلمون الى الخندق فجاوزه والتصقوا الى السور فنقبوه وزحف الرماة يجمعونهم والمنجنيقات توالي الرمي لتكشف



ش ٦٣ : آلة لنقب الاسوار وهي برج يجر على محادل او عجل نحو السور . وفي اسفله رجال ينقبون السور بسود طرفه كراس الكباش وفي البرج رجال يشنون حماة السور برمي النبال

الصليبيين عن الاسوار ليتمكن المسلمون من النقب . فلما نقبوه حشوه بما جرت به العادة فلما رأى الصليبيون شدة قتال المسلمين وتحكم المنجنيقات بالرمي المتدارك وتمكن النفاين من النقب وانهم قد اشرفوا على الهلاك اجتمع مقدمهم يتشاورون فيما يأتون ويندرون . فاتفق رأيهم على طلب الامان وتسليم بيت المقدس الى صلاح الدين فارسلوا جماعة من كبرائهم واعيانهم في طلب الامان . فلما ذكروا ذلك للسلطان امتنع من اجابتهم وقال « لا افعل بكم الا كما فعلتم باهلك حين ملكتموه سنة ٤٩٢ هـ من القتل والسبي وجزاء السيئة بمثاها » . فلما رجع الرسل خائبين محرومين ارسل باليان بن بيزان وطلب الامان لنفسه ليحضر عند صلاح الدين في هذا الامر وتحريره . فاجيب الى ذلك وحضر عنده ورغب في الامان وسأل فيه فلم يجبه الى ذلك واستعطفه فلم يعطف عليه واسترحه فلم

يرحمه . فلما آيس من ذلك قال له « ايها السلطان اعلم اننا في هذه المدينة في خلق كثير لا يعلمهم الا الله تعالى وانما يفترون عن القتال رجاء الامان ظناً منهم انك تجيبهم اليه كما اجبت غيرهم وهم يكرهون الموت ويرغبون في الحياة فاذا راينا الموت لا بد منه فوالله لنقتلن ابناءنا ونساءنا ونحرق اموالنا وامتعتنا ولا نترككم تغفون منا ديناراً واحداً ولا درهماً ولا تسبون وتأسرون رجلاً ولا امرأة واذا فرغنا من ذلك اخرجنا الصخرة والمسجد الاقصى وغيرهما من المواضع ثم نقتل من عندنا من اسارى المسلمين وهم خمسة آلاف اسير ولا نترك لنا دابة ولا حيواناً الا قتلناه ثم خرجنا اليكم كلنا قانناكم قتال من يريد ان يحمي دمه ونفسه وحينئذ لا يقتل الرجل حتى يقتل امثاله ونموت اعزاء او نظفر كراماً »

شروط التسليم

فاستشار صلاح الدين اصحابه فاجمعوا على اجابتهم الى الامان وان لا يخرجوا ويحملوا على ركوب ما لا يدري عاقبة الامر فيه عن اي شيء تنجلي وقالوا « نحسب انهم اسارى بايدنا فنبيعهم نفوسهم بما يستقر بيننا وبينهم » فاجاب صلاح الدين حينئذ الى بذل الامان للصليبيين فاستقر ان يؤخذ من الرجل عشرة دنانير يستوي فيه الغني والفقير ويزن الطفل من الذكور والبنات دينارين وتزن المرأة خمسة دنانير فمن ادى ذلك في اربعين يوماً فقد نجا ومن انقضت الاربعون يوماً عنه ولم يؤد ما عليه فقد صار مملوكاً . فبذل باليان ابن بيرزان عن الفقراء ثلاثين الف دينار فاجيب الى ذلك وسامت المدينة يوم الجمعة السابع والعشرين من رجب . وكان يوماً مشهوداً ورفعت الاعلام الاسلامية على اسوارها ورتب صلاح الدين على ابواب البلد في كل باب اميناً من الامراء ليأخذوا من اهل ما استقر عليهم . فاستعملوا الخيانة ولم يؤدوا فيه الامانة واقتسم الامناء الاموال وتفرقت ايدي سبا . ولو اديت فيه الامانة للأخزائن وعم الناس فانه كان فيه على الضبط ستون الف رجل ما بين فارس وراجل سوى من يتبعهم من النساء والولدان . ولا يعجب السامع من ذلك فان البلد كبير واجتمع اليه من تلك النواحي من عسقلان وغيرها والدارون والرملة وغزة وغيرها من القرى بحيث امتلأت الطرق والكنائس . وكان الانسان لا يقدر ان يعيش . ومن الادلة على كثرة الخلق ان اكثرهم وزن ما استقر من القطيعة . واطلق باليان بن بيرزان ثمانية عشر الف رجل وزن عنهم ثلاثين الف دينار وبقي بعد هذا جميعه من لم يكن معه ويعطي واخذ اسيراً ستة عشر الف آدمي ما بين رجل وامرأة . ثم ان جماعة من الامراء ادعى كل واحد منهم ان جماعة من رعية اقطاعه مقيمون بالبيت المقدس فيطلبهم ويأخذ قطيعتهم

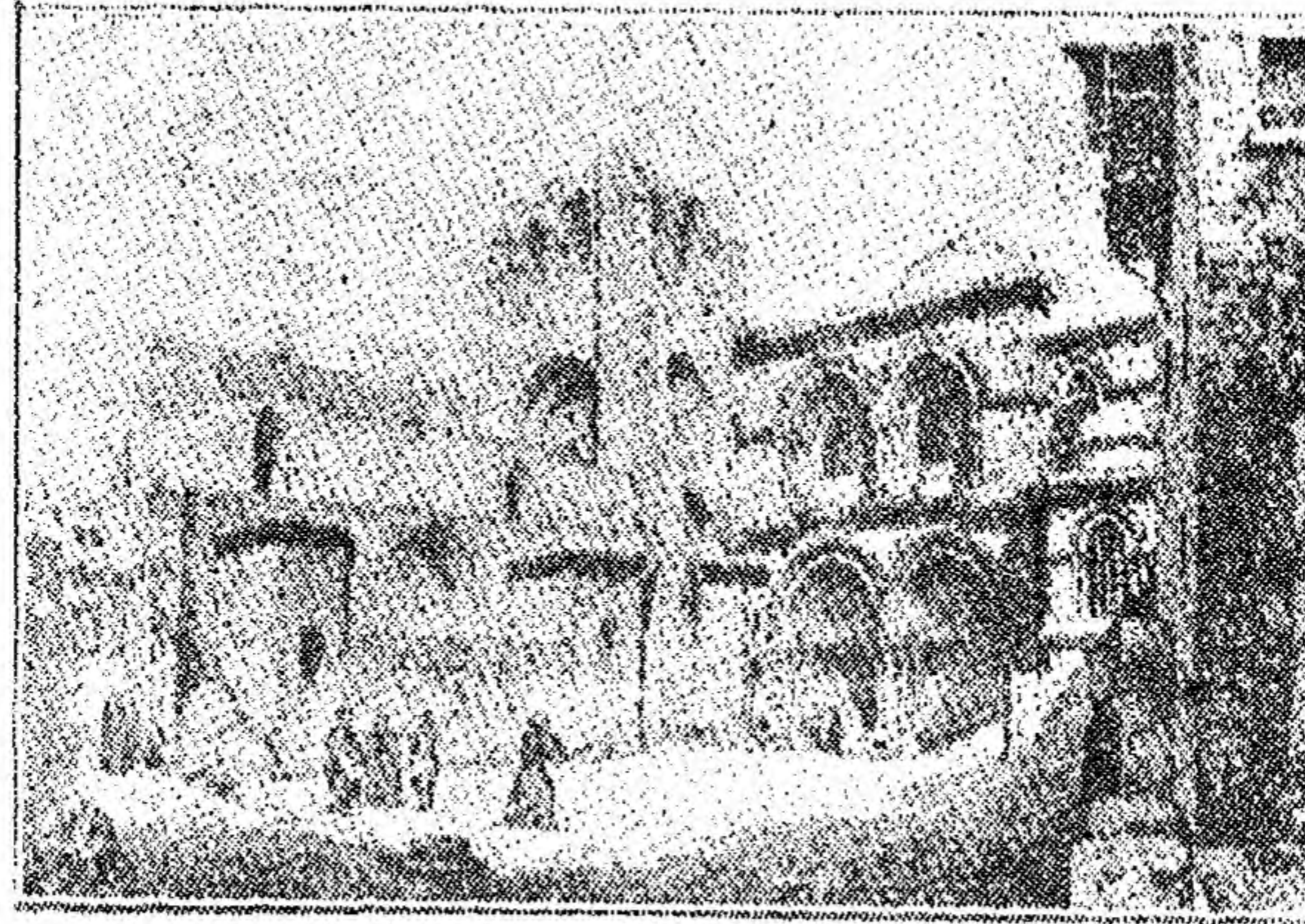
وكان جماعة من الامراء يلبسون الصليبيين زي الجند المسلمين ويخرجونهم
ويأخذون فيهم قطيعة قرروها واستوهب جماعة من صلاح الدين عدداً من الصليبيين
فوهبهم لهم فاخذوا قطيعتهم . وبالجمله فلم يصل الى خزائنه الا القليل . وكان بالقدس بعض
نساء الملوك من الروم وقد ترهبت واقامت به ومعها من الحشم والعبيد والجواري خلق
كثير ولها من الاموال والجواهر النفيسة شيء عظيم فطابت الامان لنفسها ومن معها
فامنها وسيرها . واطلق ايضاً ملكة القدس التي كان زوجها الذي اسره صلاح الدين
قد ملك الصليبيين بسببها وكان يقوم بالملك نيابة عنها . واطلق ما لها وحشمها واستأذنته
في المسير الى زوجها وكان حينئذ محبوساً بقلعة نابلس فاذن لها فأتته واقامت عنده

واتته ايضاً امرأة للبرنس ارباط صاحب السكرك الذي قتله صلاح الدين بيده في
حطين فشفعت في ولد لها مأسور فقال لها صلاح الدين « ان سلمت السكرك اطلقته »
فسارت الى السكرك فلم يسمع منها الصليبيون ولم يساموه فلم يطلق ولدها ولكنه اطلق
مالها ومن تبعها . وخرج البطريرك الكبير الذي للصليبيين ومعه من اموال البيع منها
الصخرة والاقصى وقامة وغيرها ما لا يعامه الا الله . وكان له من المال مثل ذلك فلم
يعرض له صلاح الدين فقبل له لياخذ ما معه يقوي به المسلمين فقال « لا اغدر به » ولم
يأخذ منه غير عشرة دنانير وسير الجميع ومعهم من يحميهم الى مدينة صور . وكان على راس
قبة الصخرة صليب كبير مذهب فلما دخل المسلمون البلد يوم الجمعة تسلق جماعة منهم
الى اعلى القبة ليقلعوا الصليب فحين صعدوا صاح الناس كلهم صوتاً واحداً من البلد
ومن ظاهره المسلمون والصليبيون . اما المسلمون فكبروا واما الصليبيون فصاحوا تنجيحاً
وتوجعاً فسمع الناس صيحة كادت الارض ان تميد بهم لعظمتها وشدها

فلما ملك البلد وفارقه الصليبيون امر صلاح الدين باعادة الابنية الى حالها القديم
فان الداوية بنوا غربي الاقصى ابنية ليسكنوها وعملوا فيها ما يحتاجون اليه من هري
ومستراح وغير ذلك وادخلوا بعض الاقصى في ابنتهم فاعيد الى حاله الاول . وامر بتطهير
المسجد والصخرة من الاقدار والانجاس ففعل ذلك اجمع . ولما كانت الجمعة الاخرى
رابع شعبان صلى المسلمون فيه الجمعة ومعهم صلاح الدين وصلى في قبة الصخرة وكان
الخطيب والامام محيي الدين ابن الزكي قاضي دمشق . ثم رتب فيه صلاح الدين خطيباً
واماماً برسم الصلوات الخمس وامر ان يعمل له منبر فقبل له ان نور الدين محموداً كان
قد عمل بمنبراً امر الصنائع بالمبالغة في تحسينه واتقانه وقال « هذا قد عملناه
لينصب بالبيت المقدس » فعمله النجارون في عدة سنين لم يعمل في الاسلام مثله فامر

باحضاره فحمل من حلب ونصب بالقدس وكان بين عمل المنبر وحمله ما يزيد على عشرين سنة

ولما فرغ صلاح الدين من صلاة الجمعة تقدم بعمارة المسجد الاقصى واستنفاذ الوسع في تحسينه وترصيفه وتدقيق نقوشه فاحضروا من الرخام الذي لا يوجد ومن الفص المذهب القسطنطيني وغير ذلك مما يحتاجون اليه وقد ادخر على طول السنين . فشرعوا في عمارته ومحو ما كان في تلك الابنية من الصور . وكان الصليبيون فرشوا الرخام فوق الصخرة وغيبوها فامر بكشفها وكان سبب تغطيتها بالفرش ان القيسيين باعوا كثيراً منها للصليبيين الواردين اليهم من داخل البحر للزيارة فكانوا



ش ٦٤ : كنيسة القيامة بالقدس عند فتحها

يشترونه بوزنه ذهباً وجاء بركتها . وكان احدهم اذا دخل الى بلاده باليسير منها بنى له الكنيسة وجعله في مذبجها . فخاف ملوكهم ان تفنى فامر بها ففرش فوقها حفظاً لها . فلما كشفت نقل اليها صلاح الدين المصاحف والربعات ورتب القراء وادر عليهم الوظائف الكثيرة

واما الافرنج من اهل بيت المقدس فانهم شرعوا في بيع ما لا يمكنهم حمله من امتعتهم وذخائرهم واموالهم ومالا يطيقون حمله وباعوا ذلك بارخص الثمن . فاشترأ التجار من اهل العسكر واشترأ النصارى من اهل القدس الذين ليسوا من الصليبيين فانهم طلبوا من صلاح الدين ان يمكنهم من المقام في مساكنهم ويأخذ منهم الجزية فاجابهم الى ذلك . فاستقروا فاشترأوا حينئذ من اوال الصليبيين وترك الصليبيون

ايضاً اشياء كثيرة لم يمكنهم بيعها من الاسرة والصناديق والبتيات وغير ذلك وتركوا
ايضاً من الرخام الذي لا يوجد مثله من الاساطين والالواح وغيره شيئاً كثيراً ثم ساروا
تهاني الشعراء بالفتح

وكانت ليلة المعراج وكان يوم نحر لجيش المسلمين فتقاطر الشعراء من سائر الانحاء
لتهنئة السلطان صلاح الدين بما اتاه الله من الفتح ونظموا القصائد وقالوا الخطب على
الجاهل وسالت اقلام الكتّاب وفاضت قرائعهم فكنت ترى فيهم اما خطيباً يبشر
ويحرض واما شاعراً يحمده الله ويمدح الفتح او مؤرخاً يذكر الحادثة بما فيها من الفخر
لجيش المسلمين وكان من جملة من كتب القاضي الفاضل صاحب السيرة الايوبية وعماد
الدين الاصبهاني . ومن الشد في هذا الشأن عبد الرحمن بن بدر النابلسي فقال
قصيدة منها

هذا الذي كانت الايام تنظر	فليوف الله اقواماً بما نذروا
بمثل ذا الفتح لا والله ما حكيت	في سالف الدهر اخبار ولا سير
الآن قرت جنوب في مضاجعها	ونام من لم يزل حافساً له السهر
يا بهجة القدس اذا ضحى به علم الا	سلام من بعد طي وهو منتشر
يا مالك الارض مهداهم فما احد	سواك من قائم للمهد ينتظر
ما اخضر هذا الطراز الساحلي ثمراً	الا اتعلو به اعلامك الصفر
افحى بنوا الاصفر الانكاس موعظة	فيها لاعدائك الآيات والندر
صاروا حديثاً وكانوا قبل حادثة	على الوري يتقيها البدو والحضر
هذا الذي سلب الافرنج دواتهم	وملكهم ياموك الارض فاعتبروا
ولا اصرح باسماء البلاد فقد	اسهبت والقائل المنطيق يختصر
يغنيك اجهال قولي عن مفصله	في لفظة البحر معنى تحته الدرر

وهي طويلة تزيد على مائة بيت يمدح بها السلطان ويهنئه بالفتح

فتح سائر سوريا

وبعد فتح بيت المقدس سار صلاح الدين لفتح صور فجاء عكا فنزل فيها وانظر في
امورها ثم سار عنها الى صور في يوم الجمعة ١٥ رمضان فنزل قريباً منها وارسل لاحتضار
آلات القتال ولما تكاملت نزل عليها وقاتلها برّاً واستقدم اسطول مصر ليقاثلها ببحراً ثم
ارسل من حاصره هوين فسامت . اما الصوريون فارسلوا اسطولهم الى اسطول المسلمين
فاسروا منه خمس قطع وقتلوا كثيراً من المسلمين فعظم ذلك على السلطان وضاق صدره

وكان الشتاء قد هجم وتراكت الامطار. واستشارهم فيما يفعلون فاشاروا عليه بالرحيل
لستريح الرجال ويجمعوا للقتال فساروا وحملوا من الات القتال ما امكن واحرقوا ما
بقي منها وسارت كل جماعة الى بلادهم وسار صلاح الدين الى عكا

وبقيت الهدنة الى ان دخلت سنة ٥٨٤ هـ وعند ذلك نزلوا على حصن كوكب وكان
منيعاً فاخذوه بعد قتال شديد ثم سار السلطان الى دمشق وبقي فيها خمسة ايام . ثم باغى
ان الافرنج قصدوا جبيل فسار نحوهم ثم علم انهم رحلوا عنها فتوقف وسار قاصداً اتمام
فتح سوريا فجاء ترسوس في ٦ جمادى الاولى سنة ٥٨٤ هـ وكان قد انضم اليه رجال
من سنجار والموصل تحت قيادة عماد الدين زنكي ومظفر الدين بن زين الدين ففتح
ترسوس ثم سار الى جبلة ففتحها ومنها توجه الى اللاذقية في ٢٤ جمادى الاولى
فاخذها في يوم واحد الاقلعتها على انهما اضطررا اخيراً للتسليم . ثم رحل من اللاذقية
الى صهيون فنزل عاينها في ٢ جمادى الآخرة فصالحه اهلها على ان يدفع الرجل منهم
عشرة دنانير والمرأة خمسة والصغير دينارين . ثم سير من رجاله من استولى على عدة
قرى منها بلاطس وغيرها من الحصون المنيعة . ثم رحل عنها واتى بكاس وهي قلعة
حصينة على نهر العاصي ففتحها عنوة وهدم قلعتها وتوجه بعدئذ الى قلعة برزنة
الشهيرة ففتحها وفتح غيرها من القلاع

وفي ٣ شعبان ارسل اهل انطاكية يطلبون الصالح فصالحهم ثم توجه الى حلب في
ضيافة ابنه الملك الظاهر ثم الى حماه في ضيافة عمر ابن اخيه فبات في حماه ليلة واحدة
ثم سار على طريق بعابك ودخل دمشق . وسار في اوائل رمضان يريد صفد فخار بها
واستولى عليها بالامان وفي هذا الشهر سلمت الكرك ايضاً
ثم نزل في الغور واقام بالخيم بقية الشهر واعطى الجماعة دستوراً وسار مع اخيه
العادل يريد زيارة القدس ووداع اخيه لانه كان متوجهاً الى مصر فدخل القدس في ٨
ذي الحجة وصلى بها العبدوسار منها الى عسقلان في ١١ منه ينظر في امورها فاخذها
من اخيه العادل وعوضه عنها الكرك . ثم مر على بلاد الساحل يتفقد احوالها ثم دخل
عكا فاقام بها معظم المحرم من سنة ٥٨٥ هـ واصلاح امورها ورتب بها الامير بهاء الدين
قراقوش والياً وامره بعمارة سورها وسار الى دمشق فدخلها في مستهل صفر واقام بها
الى ربيع اول ثم خرج الى شقيف اريون وهو موضع حصين نخيم في مرج عيون
بالقرب من الشقيف في ١٧ ربيع اول . واقام اياماً يباشر قتاله كل يوم والعساكر
تواصل اليه فتضايق صاحب الشقيف فنزل الى صلاح الدين بنفسه وطلب الامان

ووعده انه يسام السكان بشرط ان يعطى له موضع يسكنه في دمشق . لانه بعد ذلك لا يقدر على مساكنة الصليبيين واقطاع تقوم به وبأهلها وشروطاً غير هذه . فاجابه الى ما طلب وفي اثناء ذلك وصله الخبر بتسليم الشوبك وكان السلطان قد اقام عليها اناساً يحاصرونها مدة سنة كاملة الى ان نفذ زاد من كان فيها فسلموا

ثم ظهر بعد ذلك للسلطان ان جميع ما قاله صاحب الشقيف كان خديعة فسيره مهاناً الى دمشق . ثم ظهر له ان الصليبيين قصدوا عكا ونزلوا عليها في ١٣ رجب سنة ٥٨٥ هـ فسار اليها حالاً ونزل فيها بغتة ليقوي قلوب من بها وارسل يستدعي النجيدات من الانحاء وكان عند الصليبيين نحو الف فارس و ٣٠ الف راجل . ثم تكاثروا واستفحل امرهم واحاطوا بعكا وحاصروها في آخر رجب فضاقت صدر السلطان لذلك ثم اجتهد في فتح الطريق اليها لتستقر السابلة بالنجدة فتدكن وانفتح الطريق وسلكه المسلمون ودخل السلطان عكا وجرى بينه وبين الصليبيين مناوشات في عدة ايام . ثم تأخر المسلمون الى تل العياضة وهو مشرف على عكا . وفي هذه المنزلة توفي الامير حسام الدين طهان

وما زالت الحال كذلك والصليبيون يتشددون بما كان يأتيهم من المدد بجرأ الى ان قوا على فتح المدينة ودخلوها والسلطان خارجها فعظم ذلك عليه جداً . ثم بلغه ان الصليبيين سيخرجون من عكا للاستيلاء على عسقلان فأتى السلطان الرملة وتشاور وذوي شوره في امر عسقلان وهل الصواب اخرابها ام بقاؤها فانفذت اراؤهم ان يبقى الملك العادل قبالة العدو وان يسير صلاح الدين بنفسه لاخترابها خوفاً من وصول العدو اليها فيأخذ بها القدس فسار وشرع باخرابها بكل نشاط رغم ارادته لانه قال « لأن افقد ولدي جميعهم احب الي من ان اهدم منها حجراً ولكن اذا قضى الله تعالى ذلك وكان فيه مصالحة المسلمين فما الحيلة » وهاجر اهالي عسقلان الى الشام ومصر وغيرها حزاني تاركين اراضيهم وبيوتهم ومواسيهم بحالة يرثى لها . وبينما كان الاخراب قائماً اتى من الملك العادل ان الصليبيين تحدوا معه بامر الصالح طالين جميع البلاد الساحلية . فرأى السلطان ان موافقتهم على طلبهم هذا افضل لما رأى من الضرر الذي خامر قلوب المسلمين من المشاق المتوالية فكتب اليه يأذنه في ذلك وفوض الامر الى رأيه واصر على حريق عسقلان ففوض ذلك الى احد اولاده الافضل وسار الى الرملة ومنها الى اللد واشرف عليها وامر باخرابها واخراب قلعة الرملة ثم دار حول قلعة البترون وهي قلعة منيعة فامر باخرابها

وفي يوم الاربعاء ٢٢ شعبان سنة ٥٨٨ هـ تم الصلح بين صلاح الدين وكبير الصليبيين بعد مداولات ومخبرات بطول شرحها ونادى المنادون ان البلاد الاسلامية والنصرانية واحدة فمن احب من كل طائفة ان يتردد الى بلاد الطائفة الاخرى من غير خوف ولا محذور . وكان يوماً مشهوداً سرّت به الطائفتان وعادت الصلات الى مجاريها وعادت التجارة وجعل الزائرون يفدون الى بيت المقدس من كل صوب . وتوجه السلطان الى تلك المدينة يتفقد احوالها . وسار اخوه الملك العادل الى الكرك وابنه الملك الظاهر الى حلب وابنه الافضل الى دمشق وبقي السلطان صلاح الدين في القدس مدة يقطع الناس ويعطيهم دستوراً ويتأهب للمسير الى الديار المصرية . وكان في عزمه السفر للحج لكنه لم يستطع

ولما سار ملك الصليبيين الى بلاده رأى السلطان ان يعود لتفقد القلاع السورية ففعل وسار منها الى دمشق فوصلها في ١٦ شوال وفيها اولاده الافضل والظاهر والظافر المعروف بالشمس واولاده الصغار . وكان يحب تلك المدينة ويؤثر الإقامة فيها على سائر البلاد . ثم قدم الملك العادل من الكرك قاصداً البلاد الفراتية . فنزل دمشق واجتمعت هذه العائلة على رغد وسلام . وقد نسي السلطان صلاح الدين عزمه الى مصر وعرضت له امور اخرى غير ما تقدم

وفاة صلاح الدين ومناقبه

على ان المنية مع عجزها عن مهاجمة هذا الباسل في ساحة الحرب لم تخف مهاجمته على فراشه وبين اولاده واخوانه . ففي يوم الجمعة ١٥ صفر ركب السلطان لملاقاة الحج فعاد الى منزله كسلاً ثم غشيته حمى صفراوية . ثم اصبغ في اليوم التالي اكثر كسلاً وضعفاً وما زال المرض يتزايد يوماً فيوماً الى ان توفاه الله بعد صلاة الصبح من يوم الاربعاء ٢٧ صفر سنة ٥٨٩ هـ وكان يوم موته يوماً لم يصب الاسلام بمثله منذ فقد الخلفاء الراشدين وغشي القلعة والملك والدنيا وحشة عظيمة وكان الناس يتمنون فداء من يعز عليهم بنفوسهم . وكان عمره عند وفاته ٥٧ سنة ومدة حكمه ٢٤ سنة في مصر و١٩ سنة مع سوريا . فحضر الجميع وشيعوا جنازته ودفنوه في الدار التي كان مقرراً فيها وكانت بينهم شقيقة الفقيد المدعوة ست الشام وفرقت في الناس الصدقات العظيمة من جيبها الخاص لانه لم يترك في خزينته الخوصية الا ديناراً واحداً و٤٧ درهماً من الفضة . ولم يجدوا في جميع صناديقه اثراً للذهب او لغيره من الحجارة الكريمة وذلك بما يدل على فرط كرمه لانه اصاب اموالاً كثيرة جاد بها على آله وذويه

ومن آثاره في العدل والرفق ان الاموال الهلالية كانت قد اعيدت الى مصر في اثناء الدولة الفاطمية وصارت تعرف بالمكوس . فلما تولى السلطان صلاح الدين امر باسقاطها وكانت مداخيلها عظيمة جداً تباع بمائة الف دينار سنوياً الا انها كانت مغروبة على جميع انواع الاطعمة والالبسة والحيوانات من ماشية وخيول وغيرها . وعلى الحوانيت والاشباب والمصنوعات والمزروعات والابنية والاقمشة الى غير ذلك . جميع هذه امر صلاح الدين بالغائها . ورأى ان كثيرين من الاهالي لا يزالون مثقلين بالديون بسبب تلك المظالم فبما كان عاينهم . وكان بالغاً قدرأ عظيماً جنتاً من الدنانير والغلال وكان بين اقارب السلطان صلاح الدين رجل يدعى عز الدين موسك كان من حفظة القرآن ومحبي اهل العلم فابتنى قنطرة فوق الخليج الكبير دعاها قنطرة الموسكي ولما تم الصلح بين السلطان صلاح الدين والصلبيين اباح لهم ان يستوطنوا مصر وكان هو اول من فعل ذلك فجاء منهم بعض الباعة واستوطنوا في جهات الموسكي لانها خارج سور المدينة وافتتحوا حوانيت لمبيع الادوات الافرنجية . ثم اخذ شارع الموسكي بالظهور على تمادي الايام حتى وصل الى ما هو الآن

وترك صلاح الدين من الاولاد ١٧ ذكوراً . واثني واحدة اسمها مؤلثة خاتون تزوجت ابن عمها ناصر الدين محمد بن سيف الدين الذي لقب بعدئذ بالملك الكامل فلما توفي صلاح الدين اقتسم اولاده واخوته واولادهم مملكته فيما بينهم غير ان الحصص لم تكن متساوية لان ثلاثة من اولاده اخذوا اكبرها واقتنع الباقون بمقاطعات صغيرة . وتم كل ذلك بموافقة الامراء فتلقب اول اولاد صلاح الدين المدعو نور الدين بالملك الافضل وكان من نصيبه مملكة دمشق والشطوط البحرية واورشليم والبصرة وبانياس وسوريا الغربية . ولقب ابو الفتح غازي بالملك الظاهر غياث الدين فأخذ حلب وجميع سوريا الشرقية ومن ضمنها حران وتل ياسر وعيراز ومنبج . ولقب عماد الدين عثمان بالملك العزيز وتولى مصر

ومن هؤلاء الامراء الثلاثة تكونت ثلاث دول مختلفة هي الدول الايوبية الحلبية والدمشقية والمصرية . أما ما بقي من تلك العائلة فكانوا ولاية على بلاد اقطعهم اياها صلاح الدين الا انهم تحت سلطة هؤلاء الثلاثة . فسيف الدين ابو بكر الملقب بالملك العادل بن ايوب واخو صلاح الدين كان حاكماً في الكرك والشوبك . وناصر الدين محمد الملقب بالملك المنصور بن تقي الدين عمر بن شاهين شاه احد اخوي صلاح الدين كان اميراً على حماه والسلمية ومارا . وبهرام شاه الملقب بالملك الاعدح حفيد شاهين شاه



ش ٦٥ : نقود صلاح الدين
« ضربت في دمشق سنة ٥٨٣ »

ايضاً كان ملقباً بملك الرها . وشمس الدولة
طوران شاه بن ايوب الذي كان قد فتح اليمن
بامر ابيه سنة ٥٦٩ هـ كان قد اقام فيها مملكة .
وكان اخوه توغتن حاكماً فيها تحت اسم
الملك المعز



ش ٦٦ : نقود صلاح الدين «ضربت سنة ٥٨٤»

وترى في الاشكال ٦٥ و ٦٦ و ٦٧ صور
النقود التي ضربت في ايام السلاطين صلاح
الدين على احد وجهيها اسمه وعلى الوجه
الآخر اسم الامام الناصر الخليفة العباسي
لذلك العهد . فالصورة الاولى نقود ذهبية



ش ٦٧ : نقود صلاح الدين

ضربت في دمشق سنة ٥٨٣ هـ والثانية نقود
نحاسية ضربت سنة ٥٨٤ هـ . والثالثة مثل
ذلك

سلاطنة الملك العزيز بن يوسف

من سنة ٥٨٩ — ٥٩٥ هـ او من ١١٩٣ — ١١٩٨ م

وبعد ان قسمت الدولة الايوبية على ما تقدم عرف كل منهم نصيبه . وبعد يسير
نهض اعداء صلاح الدين وكانوا ينتظرون فرصة الانتقام منه لقهرة ايامهم . فلما لم
يستطيعوا ذلك في حياته قاموا على خلفائه واجمعوا على محاربتهم . فاتحد الايوبيون في
بادئ الرأي دفعاً لمناهيهم ثم تفرقت كلمتهم لما قام بينهم من التحاسد انقياداً للمطامع
واصغاءً لذوي المفاصد فاصبحوا بما بينهم في شغل عن دفع مهاجميهم
ففي سنة ٥٩٢ هـ رأى الملك العادل صاحب الكرك والشوبك ان حصته قليلة
ومنصبه حقير بالنسبة لغيره من الاسرة الايوبية فتواطأ مع الملك العزيز عثمان سلطان

مصر على خلع الملك الافضل نور الدين علي عن دمشق وتولية احدهما الملك العادل عايتها وفعلاً ذلك بسهولة . ففر الملك الافضل من دمشق الى بغداد مانتهجئاً الى الخليفة الناصر لدين الله العباسي . وكان كلاهما شاعراً ماجداً . فكتب الافضل الى الامام الناصر :

مولاي ان ابا بكر وصاحبه عثمان قد غصبا بالسيف حق علي
وهو الذي كان قد ولاء والده عليهما فاستقام الامر حين ولي
نخالفاه وحلاً عقد بيعته والامر بينهما والنص فيه جلي

فاجابه الامام الناصر بقوله :

وافي كتابك يا بن يوسف معلناً بالود يخبر ان اصلك طاهر
غصبا علياً حقه اذ لم يكن بعد النبي له يثرب ناصر
فابشر فان غداً عليه حسابهم واصبر فناصرك الامام الناصر

الا ان الملك العادل لم يلبث ان بكتته ضميره فاعاد الملك الى ابن اخيه الافضل وتنازل ايضاً عن حصته الاصلية . الا ان العزيز لم يتمتع بالملك مدة طويلة فتوفي في القاهرة في ٢١ محرم سنة ٥٩٥ هـ وكان ملكاً مباركاً كثير الخير واسع الكرم محسناً الى الناس يقرب ارباب الخير والعسلاخ . ولكنه كان ضعيف الرأي سهل الانقياد قليل التروي . وكان له عشراء من ذوي الخفة فاشاروا عليه يوماً ان يهدم اهرام الجيزة . فامر بهدمها حالاً وبعث اليها بالعملة فابتدأوا بالهرم الثالث منها وهو اقلها متانة ويعرف بالهرم الاحمر . قال عبد اللطيف البغدادي وقد زار مصر على اثر ذلك « وحينما شاهدت المشقة التي يجدونها في هدم كل حجر سألت مقدم الحجارين فقلت لو بذل لكم الف دينار على ان تردوا حجراً واحداً الى مكانه وهندامه هل كان يمكنكم ذلك ؟ فاقسم بالله انهم ليعجزون عن ذلك ولو بذل لهم اضعافه » وقد شوها وجه الهرم تشوهاً ولم يهدموا منه الا قسماً صغيراً جعل في الهرم خرقاً لا يزال ظاهراً فيه

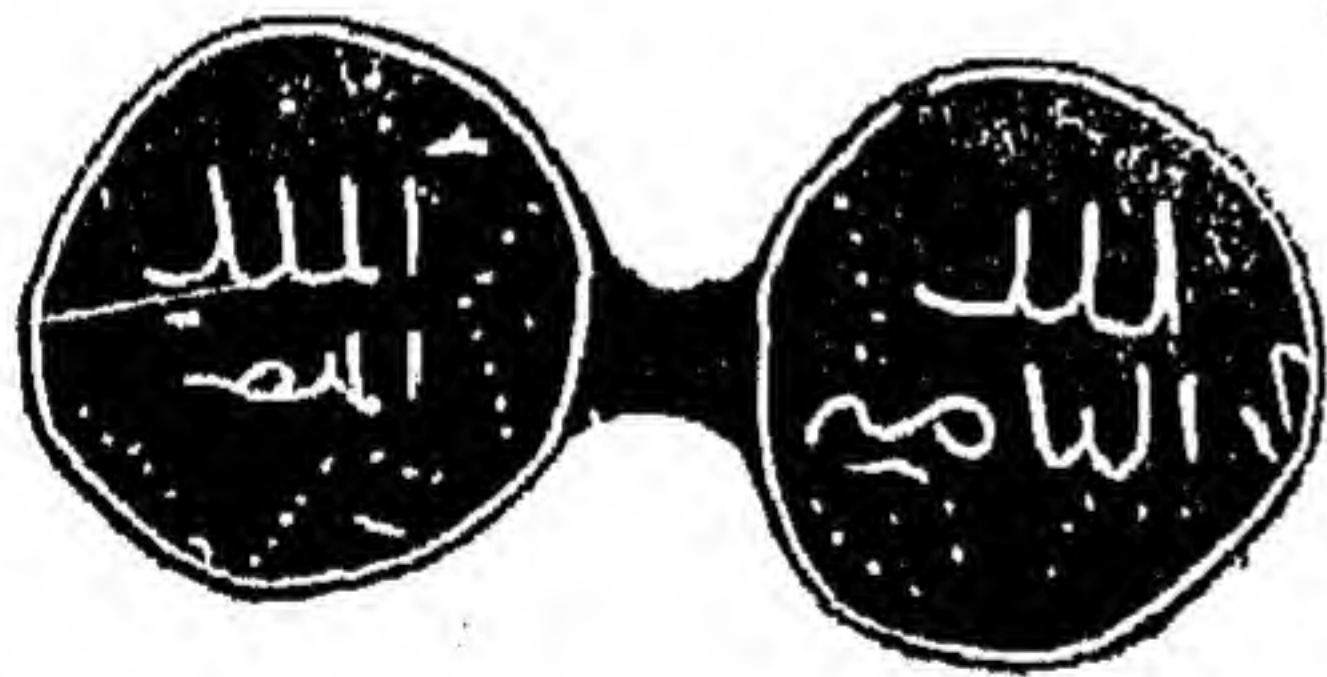
ثم ارتأى الملك العزيز مشروعاً آخر جاء بنتيجة اقبح من تلك . وذلك ان ايام الفيضان في مصر وخصوصاً في القاهرة تعد من ايام النزهة لجريان المياه في الترع والخلجان ولاسيما خليج مصر فانه يجري مخترقاً المدينة . فكان الناس يخرجون في ذلك الحين في صغار القوارب للنزهة في مجاري المياه ليلاً ونهاراً يتمتعون بنعمة ربهم فيقيمون الولائم ويضربون الموسيقى . وكان الحاكم بامر الله قد حاول مرات عديدة ابطال هذه العادة فلم يقدر لان الناس ابوا الا التمتع بما وهبتهم الطبيعة من اسباب السرور . فامر الملك

العزیز سنة ٥٩٤ هـ بالامتناع عن هذه الاحتفالات امتناعاً كلياً واستخدم لتنفيذ امره هذا طرقاً خشنه . فاسترحم الناس الغاء هذه الاوامر مرات عديدة فلم ينجحوا فجاهروا بالعصيان . ثم عاجلت المنية الملك العزیز فقطعت جهيذة قول كل خطيب ومما اتاه الملك العزیز في سلطنته من المظالم انه اعاد اليها المكوس الظلمة التي كان قد الغاها ابوه وزاد في شنائعها وزادت في ايامه المنكرات وترك الانكار لها وكثر شرب المسكر واباحه اولو الامر والنهي . وتفاحش الامر فيه الى ان غلا سعر العنب لكثرة من يعصره . واقامت في حارة المحمودية مطحنة لطحن الحشيش المزروا فردت برسمه وحيت بيوت المزروا قيمت عليها الضرائب الكثيرة . فنها ما انتهى امره في كل يوم الى ١٦ ديناراً . وحملت اواني الخمر على رؤوس الاشهاد في الاسواق فداهمهم غلاء الحبوب لوقوف زيادة النيل جزاء لفحشهم . وآل الامر الى وقوف وظيفة الدار العزیزية من خبز ولحم بحيث لم يعد لهم ما يأكلون . وكثر ضييجهم وشكواهم فجعل الملك العزیز يغتصب الارزاق ويضمها الى اقتيات عائلته . وصارت الاهالي في حال صعبة زادها ارتكاب المنكرات والمظالم صعوبة . الى ان جاءت المنية منصفة المظلوم من الظالم وسبب موته انه توجه الى الفيوم فساق فرسه وراء صيد فتقنطر به فاصابته الحمى فحمل الى القاهرة فتوفي في الساعة الرابعة من ليلة الاحد سنة ٥٩٥ هـ

سلطنة الملك المنصور بن العزیز

من ٥٩٥ - ٥٩٦ هـ او من ١١٩٨ - ١٢٠٠ م

وخلف العزیز ابنه ناصر الدين محمد وعمره ٨ سنوات فلقبوه بالملك المنصور ثم استقدموا عمه الملك الافضل من سوريا ليكون وصياً على ملكهم الجديد . فقبل وجاء القاهرة ونودي به اتابكاً اي وصياً على ابن اخيه الا انه لم يتمتع بهذا المنصب لان عمه الملك العادل قدم بجيش جرار الى القاهرة وبين حقوقه بالتوصية بنساء على انه جد الصبي الحاكم وعمه وصيه . فحاول الافضل مقاومته فلم ينجح . فحاصره في قصره في القاهرة ثم فرّ راجعاً الى حكومته في دمشق مكتفياً بما قسم له



وترى في الشكل ٦٨ صورة النقود النحاسية التي ضربت على عهد الملك المنصور ابن العزیز

سلطنة الملك العادل بن ايوب

من ٥٩٦ - ٦١٥ هـ أو من ١٢٠٠ - ١٢١٨ م

ولما خلا الجول للملك العادل خلع الملك المنصور في شوال سنة ٥٩٦ هـ بعد ان حكم ٢١ شهراً . وتولى سلطنة مصر وسوريا بنفسه وخلع الملك الافضل عن دمشق وما زال حتى جعل جميع من بقي من الحكام الايوبيين في الامارات الصغيرة خاضعين لسلطانه وفي جاتهم ابن اخيه الظاهر ملك حلب فعادت مملكة صلاح الدين بعد ان انقسمت حصصاً الى مملكة واحدة تحت سلطان واحد

سجاعة سنة ٥٩٧ هـ

وفي السنة التالية حدثت بمصر المجاعة الشهيرة التي وصفها عبد اللطيف البغدادي في رحلته فقال « وقد يئس الناس من زيادة النيل وارتفعت الاسعار واقحطت البلاد واشعر اهلها البلاء وهرجوا من خوف الجوع والضوى اهل السواد والريف الى امهات البلاد وانجلى كثير منهم الى الشام والمغرب والحجاز واليمن وتفرقوا في البلاد ايادي سبا ومزقوا كل ممزق ودخل الى القاهرة ومصر منهم خلق عظيم واشتد بهم الجوع ووقع فيهم الموت وعند نزول الشمس الحمل وبنى الهواء ووقع المرض والموتان واشتد بالفقراء الجوع حتى اكلوا الميتات والجيف والكلاب والبعر والارواث . ثم تعدوا ذلك الى ان اكلوا صغار بني آدم فكثيراً ما يعثر عليهم ومعهم صغار مشويون او مطبوخون فيأمر صاحب الشرطة باحراق الفاعل لذلك والآكل . ورأيت صغيراً مشوياً في قفة وقد احضر الى دار الوالي ومعه رجل وامرأة زعم الناس انهما ابواه فامر باحراقهما

« ووجد في رمضان بمصر رجل وقد جردت عظامه عن اللحم فاكل وبقي قفصاً كما يفعل الطباخون بالغنم - - - ومثل هذا اعوز جالينوس مشاهدته ولذلك تطلبه بكل حيلة وكذلك كل من أثر الاطلاع على علم التشريح . وحين ما نشم الفقراء في اكل بني آدم كان الناس يتناقلون اخبارهم ويفيضون في ذلك استفظاعاً لامره وتعجباً من ندوره ثم اشتد قرمهم اليه وضراوتهم عليه بحيث اتخذوه معيشة ومطيمة ومدخراً وتفننوا فيه وفشا عنهم ووجد بكل مكان من ديار مصر فسقط حينئذ التعجب والاستبشاع واستهجن الكلام فيه والسماع له

« واقدرأيت امرأة مشججة يسحبها الرعاع في السوق وقد ظفر معها بصغير مشوي تأكل منه واهل السوق ذاهلون عنها ومقبلون على شؤونهم لم ارفيهم من يعجب لذكر

ذلك او ينكره فعاد تعجبي منهم اشد وما ذلك الا لكثرة تكرره على احساسهم حتى صار في حكم المألوف الذي لا يستحق ان يتعجب منه . ورايت قبل ذلك بيومين صبياً نحو الرهاق مشوياً وقد اخذ به شابان اقرا بقتله وشيه واكل بعضه

« وفي بعض الليالي بعيد صلاة المغرب كان مع جارية فطيم تلاعبه لبعض المياسير فينبأ هو الى جانبها اغتذت غفلتها عنه صعلوكة فبقرت بطنه وجعلت تأكل منه نيتاً . وحكى لي عدة نساء انه يتوثب عليهن لاقتصاص اولادهن ويحامين عندهم بجهدهن

« ورايت مع امرأة فطياً لحياً فاستحسنته واوصيتها بحفظه فحكيت لي انها ينأى تمشي على الخليج انقض عليها رجل جاف ينازعها ولدها فترامت على الولد نحو الارض حتى ادركها فارس وطرده عنها وزعمت انه كان يهيم بكل عضويظهر منه ان يأكله وان الولد بقي مدة مريضاً لشدة تجاذبه المرأة والمفتس

« وتجد اطفال الفقراء وصبيانهم ممن لم يبق له كفيل ولا حارس منبئين في جميع اقطار البلاد وازقة الدروب كالجراد المنتشر ورجال الفقراء ونساءهم يتصيدون هؤلاء الصغار ويتغذون بهم وانما يعثر عليهم في الندرة واذا لم يحسنوا التحفظ

« واكثر ما كان يطلع من ذلك مع النساء وما اظن العلة فيه الا ان النساء اقل حيلة من الرجال واضعف عن التباعد والاستتار . ولقد احرق بمصر خاصة في ايام يسيرة ثلاثون امرأة كل منهن تقر انها اكلت جماعة فرايت امرأة قد احضرت الى الوالي وفي عنقها طفل مشوي فضربت اكثر من مائتي سوط على ان تقر فلا تحير جواباً بل تجدها قد انخلعت عن الطباع البشرية ثم سحبت فماتت » اه

عود الصليبيين الى الحرب

وفي سنة ٥٩٨ هـ ارسل الملك العادل ابنه ابا الفتح موسى الملقب بالملك الاشرف مظفر الدين الى الرها فتمالكها ثم اضيفت اليه حران وكان الاشرف رجلاً محبوباً من الناس مسعوداً مؤيداً في الحروب . وفي سنة ٦٠٠ هـ حصلت بينه وبين نور الدين ارسلان شاه صاحب الموصل موقعة حربية عظيمة وكان النصر له

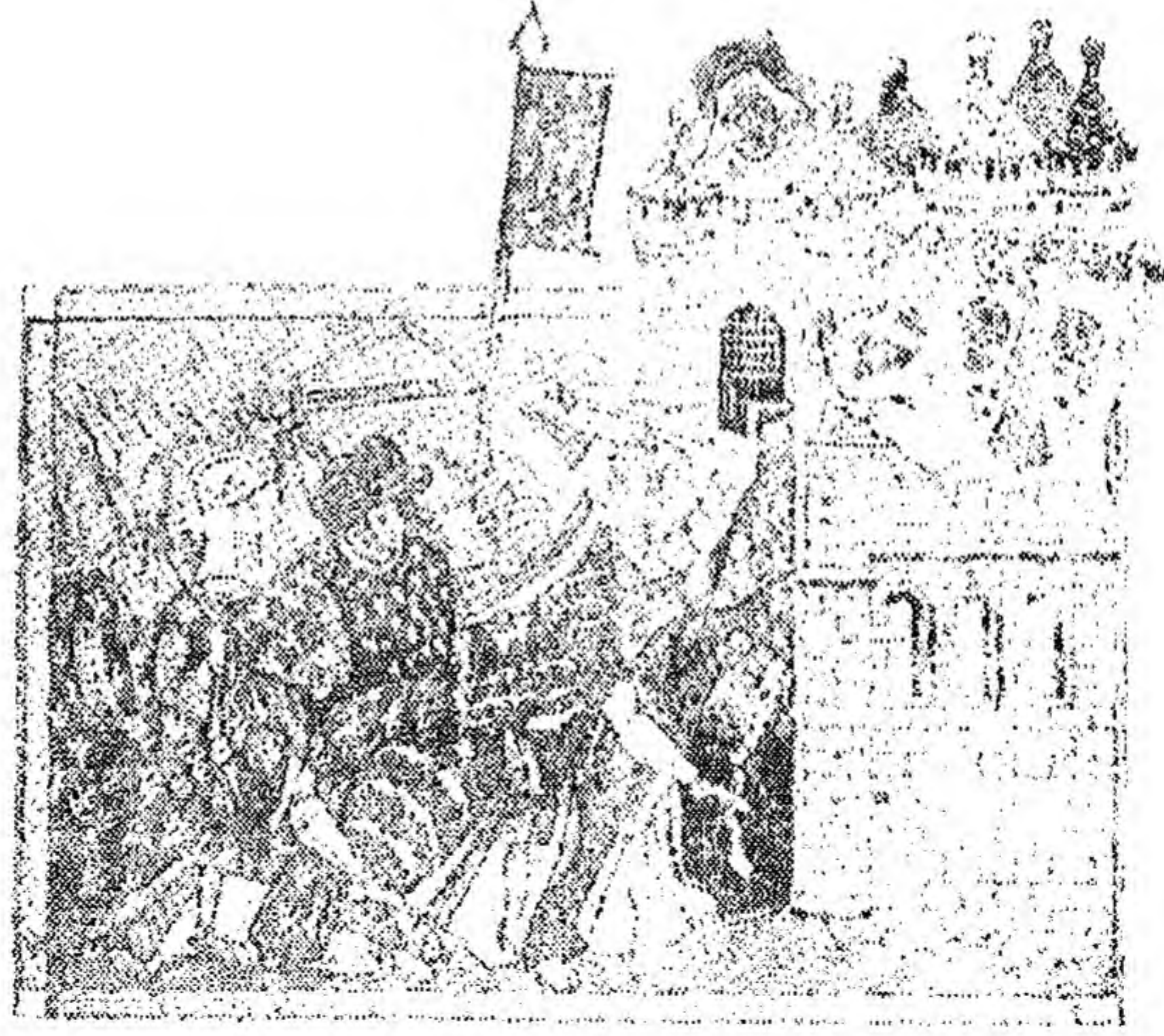
وكان الصليبيون عند انقسام الدولة الايوبية قد اغتخوا الفرصة لاعادة سلطتهم فاكثر من الجند وجاھروا بطلب الفتح فسار اليهم العادل وعسكر على جبل طابور امامهم . وكانوا قد استمدوا اوربا على امل ان تأتيهم الامدادات واملاك المسلمين منقسمة وكلهم متفرقة فيسهل قهرهم لكنهم لم تصل اليهم الا بعد ان اتحد المسلمون واصبحت بلادهم مملكة واحدة تحت سلطان واحد هو السلطان الملك العادل سيف الدين خازنهم

فعادوا على عقابهم وقد حبط مسعاهم فتعقبهم نحواً من شهر فجاءه مخبر يخبره بحصول زلزلة عظيمة في مصر شعر بها اهل سوريا وقبرص واسيا الصغرى حتى العراق وما بين النهرين . وهذه هي الزلزلة التي هدمت اسوار صور سنة ٦٠٠ هـ . وكانت تهدد مصر زلزلة اخرى سياسية وهي عمارة صليبية عظيمة احتلت سواحلها واخترقتها حتى بلغت فوه على فرع رشيد فاستولت عليها بعد ان نهبتها وذبحت اهلها فاضطرب العادل لهذين الخبرين فاسرع للملافة الامر فتخابر مع قواد الصليبيين وعقدوا معاهدة تقضي بانسحابهم من مصر على ان يتنازل لهم بمقابلة ذلك عن يافا ويسحب من كان في اللد والرملة من المسلمين فاجلى الصليبيون من مصر لكنهم لم ينفكوا عن المحاربة في سوريا وهم لم يقبلوا بتلك المعاهدة الا ليشغلوا السلطان العادل في مصر ويسيروا الى فتح حماء والاستيلاء على ما بطريقهم اليها . فاتصل ذلك بالسلطان العادل فبرح مصر في جيش للمدافعة عن حماء فحصلت بينه وبينهم مواقع كثيرة وبينما هم في ذلك جاء الخبر بقدم المدد الى الصليبيين وهي الحملة العظيمة التي ارسلها البابا وحطت رحالها عند عكا وغيرها فهرع الملك العادل الى نابلس ليقوم فيها حصناً فطردوه منها فرجع الى برج الصفر . فقطع الصليبيون المخبرات مع مصر حتى جاؤا على نهاية الحروب الصليبية في سوريا فحولوا اعنتها الى مصر

حصار دمياط

فجاؤا اليها بحراً وحاصروا دمياط في يوم الثلاثاء في ٤ ربيع اول سنة ٦١٥ هـ وهم نحو ٧٠ الف فارس و ٤٠٠ الف راجل نفخوا تنجاء دمياط في البر الغربي وحفروا على معسكرهم خندقاً واقاموا عليه سوراً وشرعوا في قتال برج دمياط فانه كان برجا منيعاً في سلاسل من حديد غلاظ تمتد على النيل لتمنع المراكب الواصلة في البحر المالح من الدخول الى ديار مصر في النيل . وكان البر الذي نزل عليه الصليبيون جزيرة محاطة بالنيل من جهة وبالبحر المالح من الاخرى يقال لها جزيرة دمياط وكان المسلمون في مدينة دمياط محاصرين حصاراً منيعاً من البحر والبر والسلسلة ممتدة بين البرج والسور فحاول الصليبيون امتلاك ذلك البرج لانهم اذا ملكوه تمكنوا من العبور في النيل الى القاهرة وكان هذا البرج مشحوناً بالمقاتلين تأتي اليه المؤن من دمياط على جسر خشبي منصوب في عرض النيل وبعد مدة انكسر ذلك الجسر فاغتم الصليبيون تلك الفرصة واصطنعوا برجاً خشبياً نصبوه على مركبين موسوقين قيوداً وانزلوا اليه اقوى رجالهم واحسن عدتهم وساروا في النيل لمهاجمة برج المسلمين . فلما رأى المسلمون ذلك تجمعوا من البرج والسور واخذوا برمي السهام والحرايب والحجارة والمنجنيق على برج الصليبيين

فلعبت النار به بخاف الذين فيه ثم انطفأت حالاً وتشدد الصليبيون حتى استولوا على
برج المسلمين وطعموا بالاستيلاء على دمياط



ش ٦٩ : دخول الصليبيين برج المسلمين عنوة

فبلغ قدوم الصليبيين الملك الكامل وكان يخلف اياه الملك العادل على ديار مصر
فخرج بمن معه في ثالث يوم من وقوع الطائر بخبر نزول الصليبيين وامر والي الغربية
بجمع العربان وسار هو في جمع كبير بمن معه من العساكر بمنزلة العادلية قرب دمياط
وامتدت عساكره الى دمياط لتمنع الصليبيين من السور والقتال مستقر اربعة اشهر
والعادل يسير العساكر من البلاد الشامية شيئاً بعد شيء حتى تكاملت عنده واشتد

خوفه من نزول الصليبيين على دمياط فرحل
من مرج الصفر الى عالفين فزل به المرض
ومات في جمادى الآخرة فكنم الملك المعظم
عيسى موته وحمله في محفة وجعل عنده خادماً
وطيباً راكباً الى جانب المحفة والشرابدار



ش ٧٠ : نقود العادل وعليها اسم الخليفة الناصر

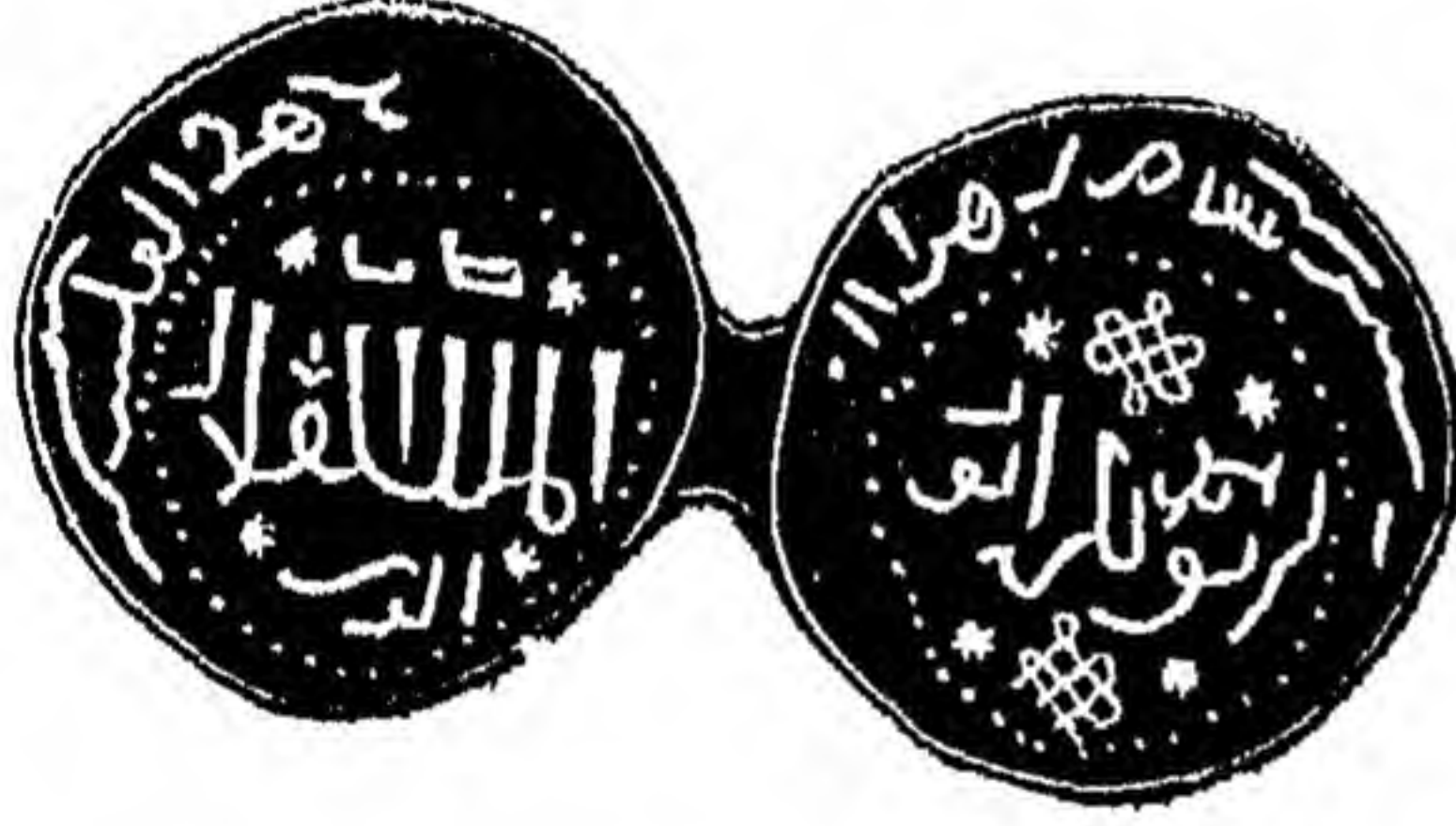
يصلح الشراب ويحمله الى الخادم فيشربه ويوهم
الناس ان السلطان شربه الى ان دخلوا به الى
قلعة دمشق وصارت اليها الخزائن والبيوتات
فاعلن موته وتسلم ابنه الملك المعظم جميع ما كان



ش ٧١ : نقود العادل وعليها اسم الخليفة الناصر

معه ودفنه بالقلعة ثم نقله الى مدرسة العادلية بدمشق

وترى في الاشكال ٧٠ و ٧١ و ٧٢ صور



النقود التي ضربت في عهد الملك العادل بن
ايوب فالاولى والثانية عليهما اسم الملك العادل
من الجهة الواحدة والخليفة الناصر لدين الله
من الجهة الاخرى والثالثة لا يظهر عليها الا
اسم الملك العادل فقط

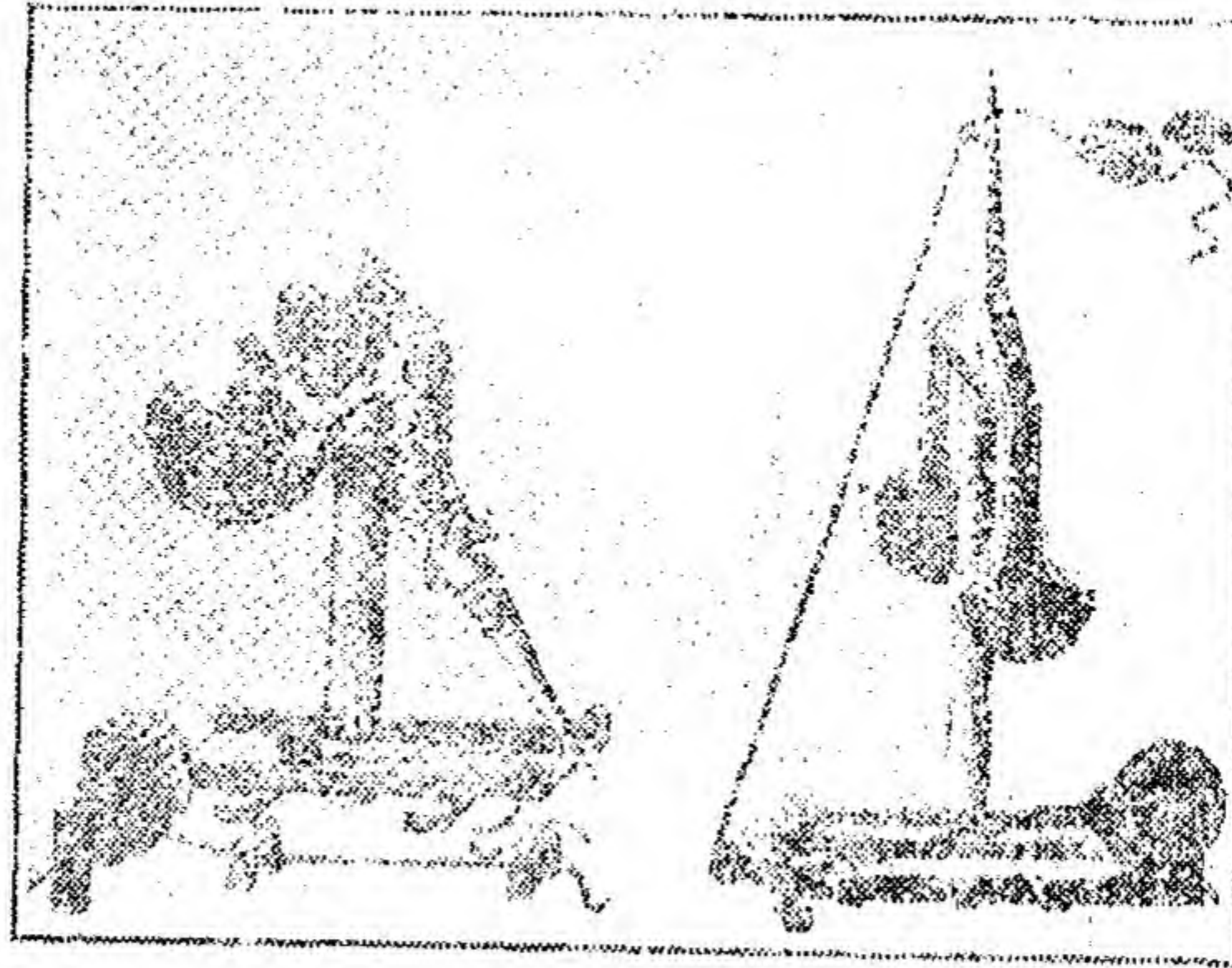
ش ٧٢ : نقود نحاسية للملك العادل

سلطنة الملك الكامل بن العادل

من سنة ٦١٥ — ٦٣٥ هـ او من ١٢١٨ — ١٢٣٨ م

وبلغ الملك الكامل موت ابيه وهو بمنزلة العادلية فاستلم زمام الاحكام اما الصليبيون
فالحوا في القتال ولا سيما عند ما علموا بموت الملك العادل وقطعوا السلاسل التي كانت
تتصل بالبرج لتجوز مراكبهم في بحر النيل ويتمكنوا من البلاد . فنصب الملك الكامل
بدل السلاسل جسراً عظيماً في عرض النيل فقاتل الصليبيون قتالاً شديداً الى ان
قطعوه وكان قد انفق عليه وعلى البرج ما ينيف على سبعين ألف دينار
وكان الكامل يركب في كل يوم عدة مرار من العادلية الى دمياط لتفقد الاحوال
واعمال الحيلة في مكيدة الاعداء فامر ان تغرق المراكب في النيل لتمنع الصليبيين من
سلوكهم فيه فعمد هؤلاء الى خليج هناك يعرف بالازرق كان النيل يجري فيه قديماً فحفروه
وعمقوا حفره واجروا فيه الماء الى البحر المالح واصعدوا مراكبهم فيه الى بؤرة على
ارض جزيرة دمياط مقابل المنزلة التي فيها السلطان ليقاتلوه من هناك . فلما صاروا في
البؤرة قاتلوه في الماء وزحفوا اليه مراراً فلم يظفروا منه بطائل . ولم يتغير على اهل
دمياط شيء لان الميرة والامداد متصلة اليهم والنيل يحجز بينهم وبين عدوهم وابواب
المدينة مفتوحة ليس عليها من الحصر ضيق ولا ضرر . وكانت العربان تنحطف
الصليبيين في كل ليلة حتى منعوهم من الرقاد خوفاً من غاراتهم فقوي طمع العرب في
الصليبيين حتى صاروا يخططونهم نهاراً وبأخذون الخيم بمن فيها . فكمن لهم الصليبيون
عدة كمناء وقتلوا منهم خلقاً كثيراً فكفوا عن ذلك . ثم ادرك الناس الشتاء وهاج

البحر على مخيم المسلمين واغرقهم فعظم البلاء وتزايد الغم والحال الافرنج في القتال حتى كادوا يملكون كل ذلك والملك الكامل يرسل الرسل الى الجبهات ينادي باخوته مدداً ويستنجد اهل الاسلام على النصارى ويخوفهم من غلبة الافرنج ولا من محيب وفي اثناء ذلك ظهر في رجال الملك الكامل ثورة زعيمها عماد الدين احمد بن المشطوب احد كبراء رجاله على ان لا يقبلوا الكامل عاينهم ساطاناً بعد ابيه وكان ذلك باتفاق مع اخيه الملك الفائز فوقع الملك الكامل في حيرة واوجس خيفة على مركزه ولم يرَ من ينجده فسار من العادلية الى قرية تدعى اشمون طنح (اشموم نطاح) فاصبح العسكر بغير سلطان فركب كل انسان منهم هواه ولحقوا بالكامل ولم يقفوا لاخت شيء من خيامهم وذخائرهم واموالهم واسلحتهم



ش ٧٣ : جنينقات لرمي الحجارة في الحرب كما ترمى القنابل بالمدافع اليوم
كل ذلك والصليبيون في البر الثاني لا يدرون . وفي ٢٠ ذي القعدة سنة ٦١٥ هـ بلغهم ما كان من امر المسلمين فعبروا النيل الى بر دمياط (البر الشرقي) آمنين بغير منازع وغنموا ما في عسكر المسلمين مما تركوه من امتعتهم وغيرها خارج المدينة وكان شيئاً لا يحيط به الوصف وحاصروا دمياط واهلها يرمونهم عن اسوارها بالنبال وهم يرمون اسوارها بالحجارة الضخمة من المجانيق . فلما بلغ السلطان الكامل ذلك داخله وهمٌ عظيم وكاد ان يفارق البلاد لانه لم يعد يثق بنفسه ولا بمن حوله
اما مدينة دمياط فبقيت محاصرة وقد شدد الصليبيون عليها الحصار برّاً وبحراً وكانت سنة ايس اشد منها وطأة على المسلمين وقد اخذ اليأس منهم مأخذاً عظيماً . وهم في ذلك الشأن وفدت عليهم نجدة من الشام تحت قيادة الملك المعظم عيسى اخي

الملك الكامل وكان قد تولى دمشق بعد أبيه العادل فلما علم بما حصل لجيوش أبيه بعد وفاته أتى في عدة من رجال الشام فاطلعه الكامل على صورة الحال سرّاً وأسرّ إليه أن راس هذه الطائفة ابن المشطوب فجاء الملك المعظم يوماً على غفلة إلى خيمة ابن المشطوب واستدعاه فخرج إليه فقال له «أريد أن أتحدث معك سرّاً في خلوة» وسار معه وقد جرد المعظم جماعة ممن يعتمد عليهم ويشقّ بهم وقال لهم «اتبعونا» ولم يزل المعظم يشاغله بالحديث ويخرج معه من شيء إلى شيء حتى أبعدته عن المعسكر ثم قال له «يا عماد الدين هذه البلاد لك ونشتهي أن تهبها لنا» ثم أعطاه شيئاً من النفقة وقال لا وائلك المجردين «تسلموه حتى تخرجوه من الرمل» فلم يسعه إلا امتثال الأمر لانفراده وعدم القدرة على الممانعة في تلك الحال. ثم عاد المعظم إلى أخيه الكامل وعرفه صورة ما جرى. ثم جهز أخاه الفائز المذكور إلى الموصل لأحضار النجدة منها ومن بلاد الشرق فمات بسنجار وكان ذلك خديعة لأخراجه من البلاد. فلما خرج هذان الشخصان من المعسكر تحللت عزائم من بقي من الأمراء الموافقين لهما ودخلوا في طاعة الملك الكامل كرهاً لا طوعاً

وبعد سير عاد الملك المعظم إلى دمشق لينظر في أحوال رعيته. ثم خشي من الصليبيين أن امتلكوا دمياط أن يمدوا يدهم إلى اورشليم فتقوى سلطتهم فأمر بهدم أسوارها حتى إذا ملكوها لا تزيد قوتهم شيئاً يستحق الاعتبار. هذا والصليبيون قد ضيقوا على دمياط ومنعوا القوات من الوصول إليها وحفروا على معسكرهم المحيط بدمياط خندقاً وبنوا عليه سورا. وأهل دمياط يقاتلونهم أشد القتال ويمالعونهم وقد غلت عندهم الأسعار لقلة الأقوات. والملك الكامل كان لا يزال في أشمون ينظر إلى دمياط وهي محصورة ولا يقدر أن يصل إليها. وخشي أخيراً أن يئس أهلها من المساعدة فيسلموا المدينة فانتدب أحد الجندارية المدعو شمائل للدخول إلى دمياط لينشط من فيها ويعيدهم بالإنقاذ. فكان يسبح في النيل إلى أن يصل إلى أهل دمياط فيوصل إليهم الأخبار ويطمئنه ويعود. وبقي على ذلك مدة فحظي عند الكامل وتقرب منه حتى جعله والياً على القاهرة واليه تنسب خزانة شمائل بالقاهرة. وفي أثناء حصار دمياط قاسى المسيحيون في داخلية البلاد اضطهاداً شديداً وكان في الاسكندرية كنيسة قديمة البناء على اسم القديس مرقس فهدمها المسلمون لئلا يباغت الصليبيون الاسكندرية من أجلها فيتخذونها حصناً لأنها كانت حصينة البناء كثيرة الأعمدة. وجعلوها بعد ذلك جامعاً ولا تزال آثارها إلى هذا العهد بقرب باب القباري

فتح الصليبيين دمياط

ثم دخلت سنة ٦١٦ هـ وقد غلت الاسعار في دمياط بما يفوق الحد فباغت البيضة عدة دنائير وكان رجال الملك الكامل ينفذون الاقوات الى اهل دمياط بحمل مختلفة مثل ان يأتوا بحمل ويشقوا جوفة ويملاوه فراخاً وفاكهة وبقلاً وغير ذلك ثم يخيطون عليه ويرمونه في النيل فيسير منحدرأ مع المجرى فاذا جاء امام دمياط نزل من فيها اليه واخذوه واقتاتوا على ما في جوفه . وكان الافرنج احيانا يظفرون بهذه الحيلة فيأخذون تلك المؤن . وفي آخر الامر زاد الضيق في المدينة وكثرت الموتى جوعاً وامتلأت مساكنهم وطرقات البلد منهم وعدمت الاقوات حتى لم يبق عندهم الا بعض القمح والشعير . وفي يوم الثلاثاء ٢٥ شعبان سنة ٦١٦ هـ هجم الصليبيون على دمياط فاستولوا عليها وكانت مدة الحصار جميعها ١٦ شهراً و٢٢ يوماً . قدخلوها واحكموا السيف فبقي فيها من الاحياء الى ان تجاوزوا الحد في القتل وكانت الابجرة الفاسدة تتصاعد عن جثث الموتى ما يلحق الاحياء بهم . وكانت تلك الجثث متراكمة في الاسواق والبيوت وعلى الاسرة فكان يموت الابن جوعاً وليس من يسعى في دفنه فيبقى في مكانه فيلحقه الاخ ثم الام ثم الاب وهكذا

مدينة المنصورة

واتصل ذلك بالسلطان الملك الكامل فرحل بعد سقوط دمياط بيومين ونزل قبالة طايخا على رأس بحر اشمووم ورأس بحر دمياط لينع الصليبيين من المسير الى داخلية القطر بجزراً وحيز في محلة المنزلة واقام معسكره هناك . اما الافرنج فحصنوا دمياط وجعلوا جامعها كنيسة على اسم القديسة مريم وبشوا رجالهم في القرى يقتلون وينهبون وبأسرون وبعثوا جميع من اسروا من المسلمين الى عكا بجزراً . اما الملك الكامل فاخذ في تحصين معسكره في المنزلة فامر ببناء الدور والفنادق والحمامات والاسواق وصارت تدعى بعد ذلك الحين «المنصورة» اشارة الى انتصاره على الصليبيين هناك وكتب الى المسلمين في سوريا يستحثهم على محاربة الافرنج واخراجهم من ديار المسلمين اما الصليبيون فتركوا امتعتهم ومؤنهم في دمياط بعد ان اقاموا فيها حامية وساروا الى ان وصلوا تجاه المنصورة في ما هو امام سراي المنصورة الان وعسكروا هناك وكان عدد الصليبيين اذ ذاك نحو مائتي الف راجل وعشرة الاف فارس . فقدم المسلمون شوانيتهم امام المنصورة وعدتها مائة قطعة . فاصبح المسلمون في ضيق . قاصر الملك الكامل ان ينادى بالمسلمين للجهاد من سائر انحاء القطر فاجتمع الناس من سائر النواحي من اصوان

الى القاهرة . ونودي بالنفير العام ايضاً فيما بين القاهرة الى آخر الحواف الشرقي فاجتمع
عالم لايقع عليه حصر . وانزل السلطان على ناحية شار مساح الف فارس في الاف من
العربان ليحولوا بين الافرنج ودمياط وسارت الشواني ومعها حراقة كبيرة على راس
بحر المحلة وعليها الامير بدر الدين بن حسون فانقطعت الميرة عن الافرنج من البر والبحر
وفي اثناء ذلك انت النجيدات للملك الكامل من الشام والشرق يتقدمها الملك
الاشرف موسى بن العادل وعلى ساقها الملك المعظم عيسى . فتلقاهم الملك الكامل وانزلهم
عنده بالمنصورة في ١٣ جمادى الآخرة . وتتابع مجيء الملوك حتى بلغت عدة جيوش
المسلمين نحو اربعين الف فارس فخاربوا الصليبيين في البحر والبر واخذوا منهم ست
شوان واسروا منهم الفين ونيفاً . فتضعضع الافرنج وضاق بهم المقام فخبرهم الملك
السامل بامر الصلح ليخرجهم من بلاده فعرض عليهم ان يعطيهم بيت المقدس
وعسقلان وطبرية وجبلة واللاذقية وسائر الاماكن التي فتحها السلطان صلاح الدين
الا الشوبك والكرك لانهما اصبحتا ملكاً خاصاً لهما نالهما بالارث من السلطان صلاح
الدين وطلب اليهم في مقابل ذلك ان يردوا له دمياط وينسحبوا من القطر المصري
فأصر الصليبيون على طلب تينك المدينتين ومبلغ ٣٠٠ الف دينار تعويضاً لما سببه
الملك المعظم عيسى صاحب دمشق بهدم اسوار بيت المقدس فامتنع المسلمون عن التسليم
لهم بذلك . ثم بعثوا سرية من رجالهم لتسير سرّاً من وراء معسكر الصليبيين وتخرق سد
ترعة المحلة وكان النيل في معظم ارتفاعه فطافت مياه الترعة حتى اغرقت جميع الارضين
التي تفصل جيش الصليبيين من دمياط فاصبحوا على مثل الجزيرة وقد حال الماء بينهم
وبين نجدة اصحابهم فخافوا سوء المصير وباتوا يشكون من قلة الطعام وكثرة المياه . ولم يكن
باقياً بينهم وبين دمياط الا طريق ضيق فامر السلطان بنصب الجسور عند اشمون
طناس فعبرت العساكر عليها وملك تلك الطريق فاضطرب الصليبيون وضائق
عليهم الارض

انسحاب الصليبيين من دمياط

واتفق مجيء مرمة عظيمة مدداً للصليبيين حولها عدة حراقات وقد ملئت كلها بالميرة
والاساحة فقاتلتها شواني المسلمين حتى ظفروا بها . فاتصل ذلك بالافرنج فزاد خوفهم
وندموا على رفضهم المعاهدة كما طلبت اليهم . فطلبوا الامان على ان ينسحبوا من القطر
المصري جميعه ولا يطلبوا لذلك مقابلاً فقبل السلطان الكامل في ٧ رجب سنة ٦١٨ هـ
بان يعطي كل من الفريقين رهائن فاعطى الصليبيون ملك عكا ونائب البابا رهناً واعطى

الملك الكامل ابنه الملك الصالح وكان سنه ١٥ سنة وجماعة من الامراء . فسار الصليبيون الى دمياط وساموها الى المسلمين في ١٩ رجب بعد ان كانوا قد اجهدوا انفسهم في تحصينها وخرجوا من القطر . وبعد خروجهم بقليل جاءت نجدة عظيمة في البحر الى الصليبيين فشكر المسلمون الله لتأخيرها الى ذلك الحين . واما بلغ الصليبيون مكانهم ارسلوا الملك الصالح ومن معه الى ابيه فارسل لهم رهنهم وتفرق الناس الى بلادهم ودخل الملك الكامل دمياط باخوته وعساكره وكان ليوم دخوله اليها احتفال عظيم ثم عاد الى المنصورة وجلس في قصره فيها وبين يديه اخواه الملك المعظم عيسى صاحب دمشق والملك الاشرف موسى صاحب بلاد الشرق وغيرهما من اهله وخواصه وهم في سرور واحتفال وبين يديهم المغنون فامر الملك الاشرف جاريته فغنت على عودها :

ولما طغى فرعون عكا وقومه وجاء الى مصر ليفسد في الارض
اتي نحوهم موسى وفي يده العصا فانقرقهم في اليم بعضاً على بعض
فطرب الاشرف وقال لها بالله كرري . فشق ذلك على الملك الكامل واسكتها
وقال لجاريته غني انت . فاخذت العود وغنت :

ايا اهل دين الكفر قوموا انتظروا لما قد جرى في وقتنا وتجددا
اعبّاد عيسى ابن عيسى وحزبه وموسى جميعاً ينصران محمداً
وهذا البيت من قصيدة اشرف الدين بن حبارة اولها (ابي الوجد الا ان ايت
مسهدا) فاعجب ذلك الملك الكامل وامر لكل من الجاريتين بجائزة
ثم نهض القاضي الرئيس هبة الله بن محاسن قاضي غزة . وكان من جملة
الجلساء وقال :

هنيئاً فان السعد جاء مخلداً	وقد انجز الرحمن بالنصر موعداً
حبانا الله الخلق فتحاً لنا بداً	مبيناً وانعاماً وعزاً مؤبداً
تهلل وجه الارض بعد قطوبه	واصبح وجه الشوك بالظلم اسودا
ولما طغى البحر الخضم باهله الط	غاة واضحى بالمرآكب مزبداً
اقام لهذا الدين من سل عزمه	صقيلاً كما سل الحسام المهندا
فلم ينج الا كل شلو مجدل	ثوى مبهم او من تراه مقيداً
ونادى لسان الكون في الارض رافعاً	عقيرته في الخافقين ومنشداً
اعبّاد عيسى ان عيسى وحزبه	وموسى جميعاً ينصران محمداً

فكانت هذه الليلة بالمنصورة من احسن الليالي التي مرت لملك من الملوك . ثم عاد

السلطان الى مقر ملكه في القاهرة . وانتقل من دارالوزارة التي كانت الى ذلك العهد منزلاً للخلفاء وسكن في قلعة الجبل واطلق جميع من كان في مصر من الاسرى . وكان منهم من له من ايام السلطان صلاح الدين ، وكانت مدة نزول الصليبيين على دمياط الى ان اقعوا عنها ثلاث سنين واربعة اشهر و ١٩ يوماً منها مدة استيلائهم على مدينة دمياط سنة وعشرة اشهر واربعة وعشرون يوماً

ولما استتب للملك الكامل المقام على سلطنة مصر اخرج زعماء الثورة منها وطهر البلاد منهم حتى لم بعد لديه من ينازعه في الملك . ثم عمد الى الصليبيين مغتناً فرصة ضعفهم وعقد معهم معاهدة على كيفية تمكنه من الاغتيال باخويه اللذين لولاهما لم تقم له قائمة في مصر فاغرى الامبراطور فريدريك ملك الصليبيين على الاغتيال باخيه الملك المعظم واستخراج دمشق من يده . فقدم هذا الامبراطور الى عكا فاتصل به خبر وفاة الملك المعظم سلطان دمشق وتنصيب ابنه الملك الناصر صلاح الدين داود مكانه . فاستبشر الملك الكامل ووضع يده على الشوبك وبيت المقدس وغيرها مما هو دن بمملكة دمشق فشق ذلك على الملك الناصر فاستنجد عمه الاشرف وكان متسلطاً على بلاد المشرق وما بين النهرين فجاءه حالاً في جيش كبير ولكن بدلاً من ان يدافع عنه ضد الملك الكامل جاء بعكس الامر

اما فريدريك فسار توتاً من عكا لافتتاح مملكة دمشق ففتح اولاً صور وسار فالتقى بالملك الاشرف فتخاصما على الفريسة تخصماً انتهى بموت الملك الاشرف . فخلا الجو للملك الكامل واصبح الوارث لكلا المسكين فأتى سوريا لهذه الغاية فوصل دمشق ومات فيها في رجب سنة ٦٣٥ هـ ودفن في قلعتها . وكان محباً للعظمة والافتخار متمسكاً بالسنة النبوية محباً للعلماء حسن الاعتقاد معاشراً لارباب الفضائل حازماً في اموره لا يضع الشيء الا في موضعه من غير اسراف ولا اقتار . وكان يبيت عنده كل

ليلة جمعة جماعة من الفضلاء ويشاركهم في مباحثاتهم كواحد منهم . تولى سلطنة مصر وخفض ضرائبها نحو الثلث واقام فيها الزينة

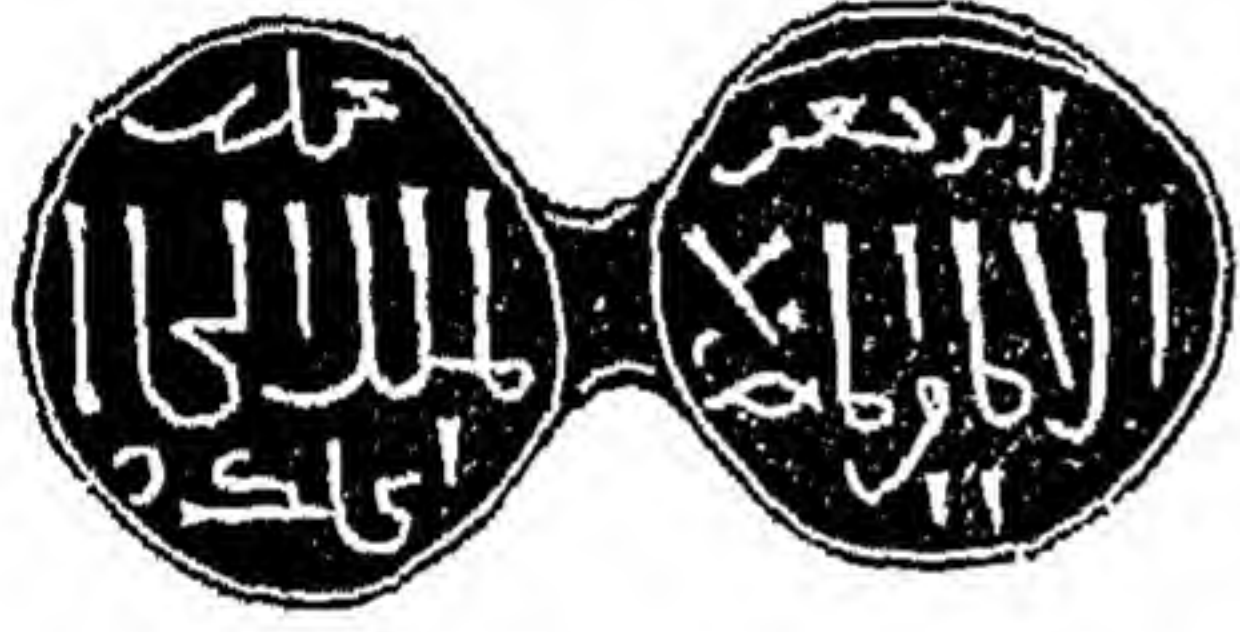
وترى في الشككين ٧٤ و ٧٥ صور النقود

التي ضربت في ايام الملك الكامل بن العادل على احد وجهيها اسم الملك الكامل وعلى



ش ٧٤ : نقود الملك الكامل

وعليها اسم المستنصر



ش ٧٥ : نقود الملك الكامل

الآخر اسم الامام المستنصر بالله الخليفة السادس
والثلاثين من بني العباس . فالأولى نقود ذهبية
ضربت في القاهرة سنة ٦٢٧ هـ والثانية نحاسية
ضربت في حلب

سلطنة الملك العادل بن الكامل

من سنة ٦٣٥ - ٦٣٧ هـ او من ١٢٣٨ - ١٢٤٠ م

ولما علم المصريون بوفاة الملك الكامل بايعوا ابنه سيف الدين ابا بكر الملقب بالملك
العادل (الثاني) وكان قد استخلفه ابوه على مصر عند ما سار الى سوريا . واقاموا
الامير يونس الملقب بالملك الجواد اميراً على سوريا تابعاً لمملكة مصر الا ان امارته هذه
لم تطل لانه اتفق في السنة التالية مع الملك الصالح نجم الدين ايوب شقيق سلطان مصر
وكان اميراً على ما بين النهرين على ان يتبادلا الامارات . فأتى الملك الصالح الى سوريا
وسار الامير يونس الى ما بين النهرين . وكان غرض الملك الصالح من هذه المبادلة
الاقتراب من مصر والسعي في اختلاس الملك من اخيه فتنبأ الملك العادل بذلك
واوجس خيفة فسار بجيوشه الى بلييس ليوقف سير اخيه اذا حاول المجيء الى مصر . فلما
وصل بلييس نزل فيها وما اصبغ الا وهو في قبضة امرائه مقيداً وذلك يوم الجمعة في ٨
ذي الحجة سنة ٦٣٧ هـ وفي الحال خلعوه واستقدموا اخاه الملك الصالح وبايعوه على
مصر فدخل القاهرة في موكب حافل واصوات الترحاب والدعاء مائة الجوفانتهت
سلطنة الملك العادل الثاني وكانت مدتها سنتين



سلطنة الملك الصالح بن الكامل

من سنة ٦٣٧ — ٦٤٧ هـ او من ١٢٤٠ — ١٢٤٩ م

ولما استوى الملك الصالح على سلطنة مصر اخذ في تمكين قدمه فيها فامر السنة التالية بالقبض على الامراء والمماليك الذين ساعدوه على خلع اخيه وبايعوه مكانه وقتلهم جميعاً وولى مكانهم من اختبر امانتهم نحوه . ثم عزل الملك الجواد يونس من امارته وحظر عليه القدوم الى مصر فاغتاز لهذه المعاملة فالتجأ الى الصليبيين في عكا فقبلوه من اجل ثروته راجين التقرب بواسطته من اسماعيل امير دمشق . وقد كانت تلك فرصة ثمينة لهم فتحالفوا مع امير دمشق والملك المنصور ابراهيم امير حمص وامير الكرك وتعهدوا لهم بمحاربة مصر وقهرها على ان يأخذوا في مقابل ذلك مدن الصعيد والشقيف وطبرية وعسقلان واورشليم . ولما تم التحالف المذكور احتل الصليبيون تلك الاماكن واخذوا في ترميم حصون طبرية وعسقلان ثم اخذوا يهتمون بمحاربة مصر

وفي خلال ذلك نشأ في شرقي سوريا مخاوف كثيرة سببها ان قبيلة الخوارزميين لما طردهم جنكيز خان من شرقي اسيا في اثناء فتوحه هناك جاؤا سوريا الشرقية ونزلوا على حدودها فانفذ اليهم الملك الصالح سلطان مصر رسلاً عقدوا معهم صلحاً وعاهدوهم على محاربة الصليبيين وامراء سوريا الذين على دعوتهم . فتنجد الخوارزميون واخترقوا سوريا الى ان بلغوا غزة فحاربوا الصليبيين عند اسوارها واجتهدهم سلطان مصر من الجهة الثانية فانهمز الصليبيون فتتبعوهم حتى استولوا على غزة وبيت المقدس باسم الملك الصالح . فارسل هذا الى مصر شيئاً كثيراً من الاسرى ورؤوس القتلى . ثم جمع مدداً وسار الى اسماعيل امير دمشق والى امير حمص وحاصرهما وحارب محاربات اخرى شغلته من سنة ٦٤٥ الى ٦٤٧ هـ وشفت عن خضوع دمشق . اما حمص فكانت لا تزال تدافع الى ذلك العهد فضجر من طول هذه المحاربات فسار بنفسه لقيادة جندها ففاجأه مرض ثقيل وهو تورم في مابضه تكون منه ناصور فتح وعسر برؤه وانضاف اليه قرحة في الصدر فلزم الفراش في دمشق . فجاءه منيئ يخبره بعزم الصليبيين على مهاجمة مصر واخذها وقد اكثروا من التجنيد ووردت اليهم التجديدات من اخوانهم في اوربا وكانت هذه التجريدة الصليبية السابعة على الاسلام . وكاني بهولاء الافرنج قد خجلوا لكثرة انكساراتهم امام جيش المسلمين بعد ان جردوا اليهم اولاً وثانياً وثالثاً ورابعاً وخامساً وسادساً فاقرروا المرة السابعة على تجريد قوة عظيمة يراسها ملك

فرنسا لويس التاسع وهي مؤلفة من خمسين الف مقاتل ومعهم من العدة والسلاح شيء كثير وعدد عديد من المراكب المذخرة وضباطها انتخبوهم من اشد رجال اوروبا فلما علم الملك الصالح بقدوم الصليبيين وهو في ما تقدم من المرض لم يسعه الا الخروج من دمشق فسار في محفة ونزل اشمون طناح في اول سنة ٦٤٧ هـ وجمع في مدينة دمياط من الاقوات والازواد والاساحة وآلات القتال شيئاً كثيراً خوفاً من ان يجري على دمياط ما جرى في ايام ابيه . واعد اسطولاً من دار الصناعة بصرو جعل فيه سائر ما يحتاج اليه الجند وسيره شيئاً فشيئاً وضم الى جنده كثيراً من العربان واكثرهم من بني كنانة جعلهم وراء متاريس دمياط وعهد بقيادة حامية هذه المدينة الى الامير نجر الدين يوسف بن شيخ الشيوخ . ففي صباح يوم الجمعة في ٢٠ صفر من تلك السنة وردت مراكب الصليبيين الى دمياط وفيها جموعهم وحال وصولهم بعث ملكهم لويس التاسع الى الملك الصالح كتاباً يقول فيه :

« أما بعد فانه لم يخف عليك اني امين الامة العيسوية كما انه لا يخفى عليّ انك امين الامة المحمدية . وغير خاف عليك ان عندنا اهل جزائر الاندلس وما يحملونه الينا من الاموال والهدايا ونحن نسوقهم سوق البقر ونقتل منهم الرجال ونرمل النساء ونستأسر البنات والصبيان ونخلي منهم الديار وانا قد ابدت لك ما فيه الكفاية وبذلت لك النصيح الى النهاية فلو حلفت لي بكل الايمان وادخلت علي الاقساء والرهبان وحملت قدامي الشمع طاعة للصلبان لكنت واصلاً اليك وقاتلك في اعز البقاع اليك . فاما ان تكون البلاد لي قياهدية حصلت في يدي واما ان تكون البلاد لك والغلبة عليّ فيدك العليا ممتدة الي . وقد عرفتك وحذرتك من عساكر حضرت في طاعتي تملأ السهل والجبل وعددهم كعدد الحصى وهم مرسلون اليك باسياف القضاء »

فلما قرئ الكتاب على السلطان الملك الصالح وقد اشتد به المرض بكى واسترجع فكذب القاضي بهاء الدين زهير بن محمد الجواب . « بسم الله الرحمن الرحيم وصلواته على سيدنا محمد رسول الله وآله وصحبه اجمعين . اما بعد فانه وصل كتابك وانت تهدد فيه بكثرة جيوشك وعدد ابطالك فنحن ارباب السيوف . وما قتل منا فرد الا جددناه ولا بغى علينا باغ الا دمرناه ولورات عينك ايها المغرور حشد سيوفنا وعظم حروبنا وفتحنا منك الحصون والسواحل وتخربنا ديار الأواخر منكم والاوائل لكان لك ان تعض على اناملك بالندم ولا بد ان تزل بك القدم في يوم اوله لنسا وآخره عليك فهناك تسي الظنون وسيعلم الذين ظلموا اي منقلب ينقلبون . فاذا قرأت كتابي هذا

فتكون فيه على اول سورة النحل اتى امر الله فلا تستعجلوه وتكون على آخر سورة (ص) واتعلمن نبأ بعد حين ونعود الى قول الله تعالى وهو اصدق القائلين كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله والله مع الصابرين وقول الحكماء ان الباغي له مصرع وبغيك يصرعك والى البلاء يقلبك والسلام»

وفي اليوم التالي حصلت بين الفريقين مناوشات قتل فيها بعض امراء المسلمين وفي المساء فرّ الامير نحر الدين اغير داع فتبعته بنو كنانة وخرجوا من المدينة ف تبعهم الاهلون في الليل على وجوههم لا يلتفتون الى شيء ولحقوا بالعسكر في اشمون فخلت المدينة للصليبيين فدخلوها بامان في ٢٢ صفر واستولوا على جميع ما فيها من المؤن والزخائر والاسلحة وعدة الحرب فخرس سلطان مصر بذلك خسارة لاتعوض . فاستشاط الملك الصالح غيظاً وجمع اليه بني كنانة وعنفهم لانهم زامهم على حين لم يكن داع للهزيمة فقالوا نحن لم نفعل ذلك الا بعد ان راينا الامير نحر الدين فارّاً ومن ورائه رجاله فامر الملك الصالح باعدام ٥٤ من امرائهم لانهم خرجوا من دمياط بغير اذنه

وفي ٢٤ صفر عسكر في المنصورة وحصنها الا انه لم يعيش بعد ذلك كثيراً فتوفاه الله في ١٤ شعبان وسنه اربعون سنة . وكان رجلاً مهيباً قليل التكلم يهابه من يجلس في مجلسه . وكان عنده عدد من المماليك لم يسبقه اليه احد قبله ولم يوص قبل موته بمن يأخذ السلطان بعده ولم يكن له من البنين الا غياث الدين طوران شاه وكان قد تركه في سوريا وكان من جملة جوارى الملك الصالح جارية تدعى شجرة الدر مربية غياث الدين فتواطأت مع الامير نحر الدين ورئيس الخصيان جمال الدين محسن على مبايعة ابنها وكانت عارفة بامور الحكومة وسياستها . ويقال ان الملك الصالح كثيراً ما عهد اليها ادارة الاحكام في اثناء غيابه عنها في حملاته الحربية . فلما توفي الملك الصالح كتبت امر موته ووقفت في جمهور الامراء والاعيان قائلة « ان السلطان يأمركم ان تباعوا بعده ابنه الملك المعظم غياث الدين طوران شاه وقد عين الامير فخر الدين اتابكا لادارة الاحكام » فبايع جميع الامراء . ثم ارسلت هذه الاوامر الى القاهرة فبايع جميع من فيها من القواد واعيان السلطنة وبعثت بالرسائل في ذلك مخنومة بحتم السلطان الملك الصالح الى جميع انحاء المملكة وكان الجميع يظنون ان الملك الصالح لا يزال حياً لكنهم عند ما علموا باستقدام الملك المعظم بسرعة الى القاهرة داخلهم الريب

اما الصليبيون فكانوا في خلال ذلك قد تقدموا قاصدين المنصورة وحاربوا في اثناء الطريق محاربات طفيفة ولما بلغوا المنصورة حاربوها محاربة قوية وكان الجيش الاسلامي

تحت قيادة الامير فخر الدين فخارب ببسالة كلية . كل ذلك وبين الجيشين بحر اشمون ولم يستطع الصليبيون العبور الى المنصورة ولم يكونوا يعلمون طريقاً اليها غير النيل . فأتى اليهم بعض من غدروا من المسلمين واخبروهم عن طريق يمكنهم سلكها بسهولة فسارت سرية من فرسانهم وهاجمت المنصورة بغتة . وكان الامير فخر الدين في الحمام فاتته الاخبار بهجوم الصليبيين على الحلة فبغت ونادى في رجاله وخرج للدفاع فادركه بعضهم فقتله وكادت الدائرة تدور على المسلمين لولا ممالك الملك الصالح فانهم دافعوا دفاعاً شديداً وانتهت الواقعة وقد اعيى الفريقين التعب ولم يكن احدهما يجسر على تجديد القتال لعظم ما قاسيا من الخسائر . وفي اثناء ذلك وصل الملك المعظم الى المنصورة قادماً من سوريا فاشتد عزم المسلمين به وهاجموا النصارى في البر والبحر فاسروا منهم ٣٢ مراكباً . فلما رأى الصليبيون ما كان من ضعفهم طالبوا المصالحة على ان ياخذوا بيت المقدس وضواحيه وينسحبوا من مصر بعد اخلاء دمياط . فلم يقبل المصريون فاقاموا في المنصورة حتى نفذ زادهم وقد انقطعت السابلة بينهم وبين دمياط . وفي ٢ محرم سنة ٦٤٨ هـ عزموا على التقهقر فتعقبهم المصريون حتى ادركوهم غربي فرسكور فاستلحموهم وألحقوا في قتلهم . ويقال انهم قتلوا منهم ٣٠ ألفاً واسروا الملك لويس التاسع وكثيراً من ضباطه وكبار جيشه وكانوا قبل ان قبض عليهم قد فروا الى منية ابي عبد الله فاسروهم هناك

سلطنة الملك المعظم بن الصالح

من سنة ٦٤٧—٦٤٨ هـ او من ١٢٤٩ — ١٢٥٠ م

فلما تأكد الفوز للمصريين شهرروا وفاة الملك الصالح ومبايعة الملك المعظم طوران شاه فاقام الملك المذكور في فرسكور احتفالاً لمبايعته وانتصاره معاً . ثم عزل كل من كان في يده ازمة الحكومة من المصريين وولى مكانهم رجالاً ممن جاؤا معه من بين النهرين لانه كان اشد ثقة فيهم فشغب الناس وتحدثوا في ذلك كثيراً . وفي غاية محرم ثار عليه المماليك وهموا بقتله وفي جملتهم مملوك يدعى بيبس . ففر الملك المعظم والتجأ الى برج من الخشب كان قد اقامه للحصار في فرسكور . فاحرقوا البرج فاتى بنفسه الى النيل لعله يجد قارباً يركبه فينجو بحياته . فادركه المماليك وقطعوه ارباً ارباً

وهكذا كانت نهاية الحملة الصليبية السابعة وموت السلطان الملك المعظم غياث الدين طوران شاه وهو آخر من ملك من الاسرة الايوبية وبموته انقضت دولتهم وقامت دولة المماليك الاولى

دولة المماليك الاولى

من سنة ٦٤٨ — ٧٨٤ هـ او من ١٢٥٠ — ١٣٨٢ م

منشأ المماليك ومبدأ امرهم في السلطنة

قد تقدم الكلام عن اصل استخدام المماليك الاتراك في الدولة في ايام المعتصم عند كلامنا عن مبدأ الدولة الطولونية . اما السلاطين المماليك فلهم تاريخ آخر في منشئهم وذلك انهم من قفجاق من شمالي اسيا . وكانت من المستعمرات الاسلامية فكانوا يجعلون عليها ولاية من امراء السلاف الذين كانوا من حكام روسيا . فلما غزا المغوليون تلك الاصقاع تحت قيادة باتوخان حفيد جنكيز خان اخرجوا منها سكان الولايات القزوينية والقوقاسية فتشتت قبائلهم وتفرقوا في القسرة . فالحوارزميون نزلوا اعالي سوريا وما بين النهرين وخطوا رحلهم هناك . اما ما بقي من تلك القبائل التائهة فلم يجدوا لهم مقراً يقيمون فيه . فجمعوا يطوفون البلاد باولادهم ونسائهم لا يستقرون على حال وكانت تجارة الرقيق في ابانها فاعثم تجارها فرصة ثمينة وجعلوا ينتقون من ابناء اولئك المساكين اجملهم صورة واقواهم بنية وانورهم عقلاً ويبيعونهم بيع السلع . اما الضعفاء وقبيحو الصورة فكانوا يندبحونهم . فاكثر امراء سوريا وملوكها من اقتناء اولئك الارقاء البيض ودعواهم بالمماليك

فالملك الصالح من سلاطين الدولة الايوبية كان قد ابتاع منهم نحو الالف حتى جعل منهم امراء دولته وخاصة بطانته والمحيطين بدهليزه . ودعاهم بالحلقة اشارة الى ان لا يبرح محاطاً بهم كيفما توجه كما فعل الخليفة المعتصم العباسي بالاستكثار من المماليك الاتراك

وكانت مماليك الملك الصالح صفوفاً يميز كلٌّ منهم بعلامات خصوصية يجعلونها على ثيابهم واسلحتهم . فكانت علامة بعضهم الورد وعلامة البعض اشكال الطيور . وكانوا

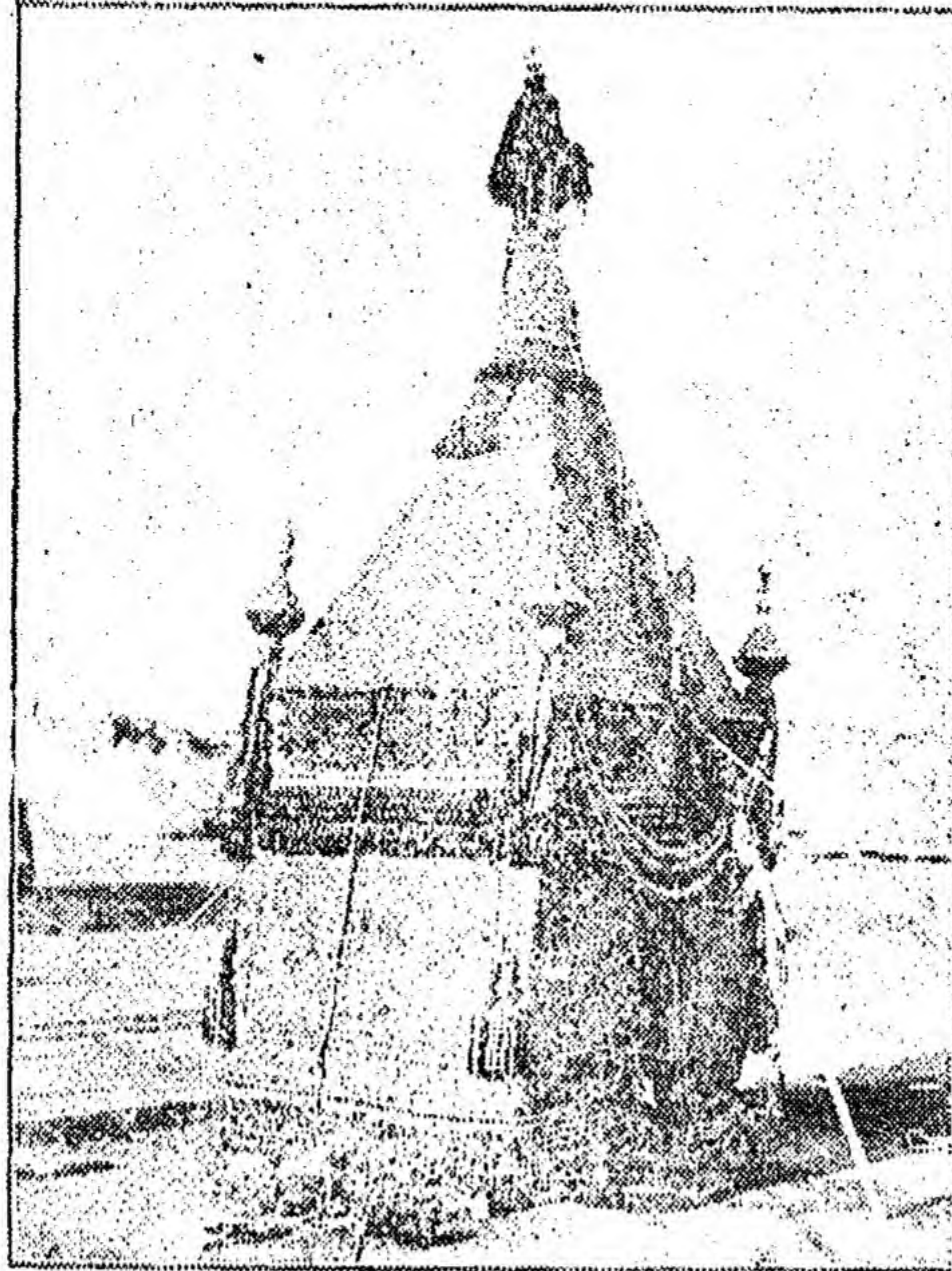
يتمنطقون بمناطق جميلة مختلفة الالوان فتألف منهم جيش مخصوص تسبب عنه قلاقل في سائر المملكة المصرية . وقد كانوا بالواقع ميالين الى الاستقلال بالحكم لا يمكنهم الرضوخ لسلطان من السلاطين باختيارهم لانهم كانوا كثيري العدد والعديد . وكانت اهم المناصب في ايديهم وامنع حصون البلاد في قبضتهم قد اتخذوها مستقراً لهم حتى اذا ضاقت ذراعاً عن الاحاطة بهم ابقنوا بامر الملك الصالح قصوراً عظيمة متقنة البناء منيعة الجانب في جزيرة الروضة قرب المقياس . وقد زادها مركزها الطبيعي مناعة وجمالاً لان النيل يتفرع هناك الى فرعين . وكان يدعى عند نقطة تفرعه بالبحر اعظم اتساعه فسمي هؤلاء بالماليك البحرية ومنها اسم دولتهم تميزاً لها من دولة المماليك الشراكسة وكانت سطوة المماليك البحرية تنتشر يوماً فيوماً الى انهم طمعوا بجناح السلطان وتولي الملك مكانه . فلما تولى الملك المعظم آخر سلاطين بني ابوب وكان على ما كان عليه من الاستبداد انفت نفوسهم من اعماله فسعوا بما سعوا الى ان قتلوه على ما تقدم . وكان الملك لويس التاسع والذين معه لايزالون اسرى في البرج الخشبي الذي التجأ اليه الملك المعظم قبل قتله . ولما لعبت النار بالبرج فر الملك لويس ومن معه ومروا بين المصريين وهم يقتلون ملكهم ثم نزلوا على مراكب كانت في انتظارهم واقبلوا بعد ان شاهدوا مقتل الملك المعظم . ثم جاءهم رجل من المصريين يدعى الفارس اقطاي حاملاً قلب الملك المعظم واعطاه الملك لويس وطاب اليه ان يكافئه على قتل عدوه . وقال بعض المؤرخين ولا اراه في مكان الثقة ان الامراء المصريين بعد قتلهم ملكهم طابوا الى لويس المذكور ان يتولى زمام الاحكام مكانه فرفض

سلطنة شجرة الدر

سنة ٦٤٨ هـ او ١٢٥٠ م

فلما قتل الملك المعظم اختلفت الاحزاب على من يبائعون بعده وكل فئة منهم تحاول استبقاء الحكم في يدها . وعلا الخصام حتى كاد يفضي الى الحرب فتداركت الامن شجرة الدر بعد ان رأت ما حل بالملك المعظم وتبصرت في امر من يجب ان يخلفه فرأت حزب المماليك اعز جانباً من الجميع . ونظراً لكونها من ابناء جلدتهم وافقتهم على رأيهم وكانت قبل ذلك قد تمكنت بطريقة غريبة لم يسبق لها مثيل في الاسلام

ان تستلم زمام الاحكام باقرار الجميع . وكيفية ذلك انها تواطأت مع ابيك عز الدين وكان من اعظم الامراء المماليك واقواهم نفوذاً وكان بينهما علاقات ودية منذ ايام الملك الصالح . ويقال انه من قتلة الملك المعظم فتمكن بذلك التواطؤ من مبايعة جميع الاعيان لها واقببت بعصمة الدين ام خليل في ١٠ صفر . وكانت توقع بما مثاله « والدة خليل » ونقشت اسمها على النقود بما هو « المستعصمة الصالحية ملكة المسلمين والدة المنصور خليل خليفة امير المؤمنين » وخطب لها على المنابر بعد الدعاء للخليفة وهذه صورة الخطبة : « واحفظ اللهم الجبهة الصالحية ملكة المسلمين عصمة الدنيا والدين ذات الحجاب الجميل والستر الجليل والدة المرحوم خليل زوجة الملك الصالح



ش ٧٦ : المحل المصري

نجم الدين ايوب » وعينت عز الدين اتابكاً عندها لتدير المملكة . ثم اخذت في التقرب من ارباب الدولة ووجهاء البلاد فجعلت تخلع عليهم الخلع الثمينة وتمنحهم المناصب والرتب وتخفف الضرائب . الا ان جميع هذه المساعي لم تأت بها بفائدة لان الناس لم يرتاحوا الى طاعتها . فانفذ السوريون الى الخليفة العباسي في بغداد يستفتونه في امر هذه الملكة . فكتب اليهم يقول : « من بغداد لامراء مصر . اعلامونا ان كان ما بقي عندكم

في مصر من الرجال من يصلح للسلطنة فنحن نرسل لكم من يصلح لها . اما سمعتم في الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال « لا افلح قوم ولوا امرهم امراة » فاستمسك بممالك مصر بهذه الفتوى ونار رفاقهم في دمشق وخلعوا طاعة شجرة الدر وبايعوا سلطان حلب الملك الناصر يوسف الايوبي في ٨ ربيع اول وقتلوا كل من في دمشق من المماليك على دعوة شجرة الدر . ومثل ذلك فعل اهل بعلبك وشميس وعجلون . فنشأ بسبب ذلك خصام بين ممالك سوريا وممالك مصر آل الى وقائع حربية . فتكن عز الدين ايبك في هذه الانقسامات من الاستقلال عن صديقه والجا الامراء شجرة الدر على الاستقالة فاستقالت . وهي اول من ارسل المحمل من مصر الى مكة ولا يزال ذلك جارياً الى الآن

سلطنة ايبك الجاشنكير والاشرف بن يوسف

من سنة ٦٤٨ — ٦٥٥ هـ او من ١٢٥٠ — ١٢٥٧ م

وفي سنة ٦٤٨ هـ بويع عز الدين ايبك على مصر واقب بالملك المعز الجاشنكير التركماني الصالح وتزوج بشجرة الدر فانضم حزبها الى حزبه واحتفلوا بتوليته السلطنة على جاري عادتهم في الاحتفالات الكبرى فركب هو بشعار وحملت على راسه القبة والطير ولعبوا قدامه بالغواشي الذهب وجلس على سرير الملك وجميع الامراء قبلوا الارض بين يديه . وبعد قليل انقسم المماليك الى قسمين عظيمين عرفا بالمعزيين نصبة الى الملك المعز ايبك والصالحين نسبة الى الملك الصالح نجم الدين وتنازعا النفوذ . ففاز الصالحيون وطلبوا ان يكون السلطان عليهم من سلالة الايوبيين وقالوا « لا بد لنا من واحد من ذرية بني ايوب نسلطنه علينا » وكان المتكلم يومئذ من الامراء الامير بلباي الرشيدى والامير فارس الدين اقطاعي والامير بيبرس ركن الدين البندقداري والامير سنقر الرومي وغيرهم جماعة من المماليك البحرية فوقع الاتفاق بينهم وبين المعز ايبك بان يحضروا بشخص من بني ايوب يقال له مظفر الدين يوسف من اولاد الملك مسعود صاحب بلاد الشرق

فاعتزل ايبك السلطنة وبايع مظفر الدين بن يوسف اتسز ملك اليمن وعمره نحو عشرين سنة فبايعه في ٥ جمادى الاولى وبايعه الناس ولقبوه بالملك الاشرف وتعين

عز الدين اتابكاً له غير ان ازمة الاحكام ما برحت في يده ولم يكن الاشراف الاسماً
بلا رسم ومن الغريب تألف هذه السلطة المزدوجة من احد سلاله الاسرة الايوبية
واحد مماليكها . واغرب من ذلك ان يخطب لهما معاً

وفي خلال ذلك نهض سلطان دمشق الجديد ناصر الدين يوسف الايوبي للاخذ
بشار الملك المعظم فدعى اليه اقرباءه امراء الاسرة الايوبية للتعاقد على ذلك وتأكيده
لنجاح مسعاه استمد لويس التاسع ملك فرنسا وكان اذ ذاك في عكا على ان يعيده في
مقابلة ذلك بيت المقدس . فارسل ملك فرنسا الى ناصر الدين راهباً لعقد المعاهدة وانفذ
الى المماليك في مصر مندوباً يطلب اليهم التعويض عن نكث المعاهدة التي عقدوها مع
الصليبيين وكان من مصلحتهم الاتفاق مع الصليبيين على سلطان دمشق فاجابوا مطالبه
واطلقوا عدداً كبيراً من الاسرى المسيحيين بعثوا بهم الى عكا وارفقوهم بمندوبين
لتجديد المعاهدة . فاقترح لويس التاسع ان يضاف اليها البنود الثلاثة الاتي ذكرها وهي :
اولاً ارجاع رؤوس الصليبيين التي كانت مغروسة على متاريس القاهرة

ثانياً ارجاع جميع الاولاد الذين كانوا قد اجبروا على الاسلام
ثالثاً التنازل عن المائتي الف دينار التي تعهد الصليبيون بدفعها بمقتضى معاهدة

المنصورة

فرضي المماليك بجميع ذلك واهدوه فوقها فيلاً جليلاً وكان هذا اول فيل ارسل
الى فرنسا ووعدوه ان يعيدوا اليه بيت المقدس اذا تغلبوا على سلطان دمشق . فاتصل
امر تلك الاخبارات بسلطان دمشق فانفذ عشرين الف مقاتل تحول دون اتحاد الجيشين
فعثروا بالمصريين في غزة فناهضوهم حتى ارجعوهم الى الصالحية فانجدهم الفارس اقطاي
فاعادوا السوريين على اعقابهم الى سوريا . ثم تشدد السوريون وعادوا بمدد كبير تحت
قيادة شمس الدين لولو صاحب دمشق ومعهم سلطان دمشق نفسه فالتقوا بالمماليك تحت
قيادة ايبك والفارس اقطاي يوم الخميس ١٠ ذي القعدة سنة ٦٤٩ هـ في العباسية وتقاتلا
فانكسر المصريون اولا فتعقبهم السوريون فجعل ايبك والفارس اقطاي انهزامهما نحو
سوريا ومعهما جماعة من الفرسان فالتقيا بشمس الدين لولو في شرذمة من رجاله فقتلاه
وشتت رجاله فاشتد ازرها فعادا لمهاجمة سلطان دمشق وكان في معسكره مع شرذمة
قايلة من الجند . اما باقي الجيش فكانوا يتعقبون الجيوش المصرية المنهزمة فاضطر
السلطان الى الفرار بنفسه فتبعاه فلم يدركاه فعادا الى مصر فرايا الجيوش السورية قد
دخلت القاهرة وخاف اهلهما ظناً منهم ان النصر لناصر الدين فبايعوه وخطبوا له . الا

ان الفقهاء لم يوافقوا على المبايعة شخصياً على انهم لم ينجوا من انتقام ايبك . فلما علم المصريون ان النصر لهم فرحوا جداً وابطلوا مبايعة ناصر الدين . اما هذا فلما رأى امر انكساره على ما تقدم لم يعد يمكنه استئناف الحرب فصالح المصريين على ان يتخلى لهم عن مصر وغزة وبيت المقدس وقد ربح من الجهة الثانية ما كان يرومه من فساد المعاهدة بين المصريين والصليبيين فاتفق مع المماليك على محاربة الصليبيين

خراب دمياط

ثم اتفق المماليك البحرية على تخريب مدينة دمياط خوفاً من مسير الافرنج اليها مرة اخرى فسيروا اليها الحجارين والفعلة فوقع الهدم في اسوارها يوم الاثنين ١٨ شعبان سنة ٦٤٨ هـ ومحيت اثارها ولم يبق منها سوى الجامع ويعرف بجامع الفتح واخصاص ابنتها بعض الفقراء للسكن في قبايلها ودعوا ذلك المكان المنشية . اما دمياط الباقية الى هذا العهد فابتنيت على انقاض تلك فبلغت جمالاً فائقاً وقد ساعدها على ذلك حسن مركزها الطبيعي واهميته للتجارة وقد بالغ المقريري في وصفها لانها كانت في ايامه ازهى واعمر مما هي الان فنظم في مدحها قصيدة اقتطفنا منها هذه الابيات

سقى عهد دمياط وحياء من عهد	فقد زادني ذكراه وجداً على وجد
وبشنيها الريان يحكي متجماً	تبدل من وصل الاحبة بالصد
فقام على رجليه في الدمع غارقاً	يراعي نجوم الليل من وحشة الفقد
وظل على الاقدام تحسب انه	لطول انتظار من حبيب على وعد
كان التقاء النيل بالبحر اذ غدا	مليكان سارا في الحجاقل من جند
وقد نزلا للحرب واحتدم اللقا	ولا طعن الا بالثقفة الملد

وعظم الفارس اقطاي في عيون المصريين لما اظهره من البسالة والاقدام في الحروب الاخيرة فلقبه احزابه بالملك وتزوج اخت المنصور سلطان حماء واسكنها في القلعة لاتصال حبل قرباها بالعائلة الملوكية فاوجس ايبك شراً من نفوذ الفارس المذكور حتى خشي مناظرته في الملك فاخذ يسعى في التخلص منه وكان الفارس زعيماً لحزب من المماليك الصالحين وكانوا يطلبون له المشاركة في الملك مع الملك الاشرف وما زالوا حتى نالوا مطلوبهم فرقى كثيرين منهم وفي جملةهم سيف الدين قطوز الذي صار بعد ذلك ملكاً . اما الفارس اقطاي فقتله ايبك وهو داخل بسراي القاعة ثم خشي الوقوع في سرايماله فامر باقفال القلعة وابواب المدينة ولبت يتوقع الحوادث فلم تمض برهة حتى جاء الامراء الصالحيون تحت رئاسة بيبرس وتجهروا على ابواب القلعة ولحبوا الفارس

اقتاي وهم يحسبونه مأسوراً فرمى اليهم براسه من على السور فلما علموا بقتله ارتفعت
قلوبهم فعمدوا الى الفرار نحو باب القراطين ففتحوه وساروا قاصدين سوريا وبقي منهم
شرذمة قبض عليهم واودعوا السجن
فلما تخلص الملك المعز ايبك من طائفة الصالحيين قبض على الملك الاشرف والقاء
في سجن مظلم فمات فيه تعساً بعد ان حكم سنة وشهراً



ش ٧٧ : نقود الملك الاشرف

وترى في الشكل السابع والسبعين صورة
النقود التي ضربت على عهد الملك الاشرف بن
يوسف وعليها اسمه واسم الامام المستعصم بالله
العباسي . والاشرف آخر من ملك مصر من
الايوبيين . وحكم بعض افراد هذه العائلة في

دمشق وحلب وحمص وميافرقين . الا ان هؤلاء لم تمض عليهم عشرين سنين حتى انقرضوا
ولم يبق منهم الا فرع واحد في حماه بقي حاكماً فيها قرناً بعد انقراض جميع الدولة
وكانت سلطته ضعيفة لانحصارها في تلك الامارة الصغيرة وقد جاء من نسله ابو الفدا
المؤرخ المشهور سنة ٧١٨ هـ . وقد نسي كثيرون منذ ذكر الدولة الايوبية وفتوحاتها
العظيمة ولكننا لم ننس ابا الفدا لانه ترك لنا ذكراً لا يمحي بتأليفه المشهور
واستوزر ايبك شخصاً من نظار الدواوين يدعى شرف الدين هبة الله بن صاعد
الفائزي احد كتاب الاقباط وكان قد اسلم من ايام الملك الكامل وترقى في الكتابة وكان
طبيباً للسلطان الايوبي الخامس مشهوراً بالطب والسياسة فلما صار وزيراً قرر على التجار
وذوي اليسار وارباب العقاقير اموالاً ورتب مكوساً و ضمانات سموها حقوقاً ومعاملات
ولما استتب المقام لايبك وتخلص من المماليك الصالحيين وغيرهم ممن كانوا ينازعونه
الملك حسب الجود خلا له وما دري ان شجرة الدر لاتزال واقفة له بالمرصاد بعد ان
صارت له زوجة فكانت تحول دون كثير من مقاصده ولم يكن يجسر على مقاومتها مع
علمه باستقلالها من مهام الملك على انه لم يستطع احتمال هذا التقييد والسلطان في يده وهي
تمن عليه بانها سبب وصوله الى ذلك المنصب فجعل يبحث عن طريقة تنقذه من هذه
القيود مع علمه ان مكايده النساء اشد وطأة من ملاقات الرجال . فادعى انها عقيمة لا يرجو
منها نسلاً فاقتنى عليها سراري اخريات فولدت له احداً هن ولداً دعاه نور الدين علي ثم
بلغها انه ساع في التزوج بابنة بدر الدين لولو ملك الموصل وكان قد امسك عن زيارتها
فاشتعلت حسداً لعلمها ان هذه الزوجة الاخيرة من بنات الملوك نخافت ان تحمل محلها

من العظمة فاقرت على الكيد به

وكانت شجرة الدر صعبة الخلق شديدة الغيرة قوية البأس سكرانة من خمرة العجب فلما ضاقت ايبك نزل من القلعة وهو غضبان فبعثت تتلطف به حتى عاد الى القلعة فلاقته وقامت اليه وقبلت يديه على غير عادة منها وكانت قد اضرمت له السوء فندبت له خمسة من الخدم الخصيان الروم وقالت لهم « اذا دخل الحمام فاقتلوه » فلما طلع الى القلعة اصطلم مع شجرة الدر وتراضيا ثم دخل الحمام فاما صار هو وشجرة الدر هناك دخل عليه اولئك الخدم وبايديهم السيوف فقام ايبك وقبل يد شجرة الدر واستغاث بها فقالت للخدم اتركوه فاغلظ عليها بعض الخدم في القول وقال لها « ان تركناه فلا يبق عليك ولا علينا » فقتلوه في الحمام خنقاً وقيل ربطوا محاشمه بوتر وجذبوه حتى مات . فلما حملوه واخرجوه من الحمام اشاعوا انه قد اغمى عليه في الحمام فوضعوه على فراش الحمام واشاعت انه مات مصروعاً . وكان ايبك ظلوماً غشوماً صفاً كالدماء

ولم تجسر شجرة الدر على تعاطي الاحكام بنفسها خوفاً من الايقاع بها فجاءت بخاتم الملك الى اميرين من كبار الامراء وطلبت اليهما امام جثة زوجها ان يستلما زمام الاحكام فابيا . وكان قتل ايبك في داخل السراي ليلاً ولم يشع الخبر في القاهرة الى الصباح التالي . فلما علم اصحابه من المماليك بما حل به اضرعوا الانتقام وكان سن ابنه نور الدين علي ١٥ سنة فبايعوه ولقبوه بالملك المنصور

وكانت مدة ايبك في الاحكام عشر سنوات واحد عشر شهراً شاد في خلالها بنايات عظيمة وفي جملتها مدرسة دعاها المدرسة المعزية نسبة اليه بناها على ضفة النيل في مصر القديمة وربط لها دخلاً مخصوصاً للنفقة عليها . وهو اول من اقام من ملوك الترك بقلعة الجبل

سلطنة نور الدين علي بن ايبك

من سنة ٦٥٥ — ٦٥٧ هـ او من ١٢٥٧ — ١٢٥٩ م

فالملك المنصور حالما بويع قبض على قاتلة ابيه وعهد بها الى نساء بيته فاماتوها ضرباً بالقباقيب على راسها وطرحوا جثتها في خندق القلعة فاكلت الكلاب نصفها

ودفن النصف الباقي قرب مدفن السيدة نفيسة
فانتهت حياة هذين الخادعين شجرة الدر وايبك كما رايت فجوزي كل منهما بما
فعل لانهما قتلا الملك المعظم . اما نور الدين علي فلم يحكم الا مدة قصيرة تحت مناظرة
وصيه شرف الدين هبة الله المتقدم ذكره .

وكان نور الدين قد استقر بالامير سيف الدين قطز المعزي نائب السلطنة بمصر
واتابك العساكر . وكان قطز شديد البأس صعب الخلق فقبض على الوزير شرف الدين
هبة الله وصادره واخذ جميع امواله ثم صلبه على باب القلعة وخلع على القاضي زين
الدين يعقوب بن الزبير واستقر به وزيراً عوضاً عن هبة الله .

وفي ايام هذا السلطان بمصر هجم هولاء الكوالتري على مدينة بغداد وقتل الخليفة
المستعصم بالله وخرب بغداد . ووصل الخبر الى مصر انه حامل على بلاد الشام ومصر
فخافوا وعقد قطز مجلساً من العلماء والقواد اقروا فيه ان الحالة تقتضي ان يتولى
السلطنة رجل حازم . فانزلوا نور الدين في ٤ ذي القعدة سنة ٦٥٧ هـ بعد ان حكم سنتين
وبايعوا سيف الدين قطز وكان نور الدين طائش العقل يلعب بالجمام مع الغلمان

سلطنة المظفر سيف الدين قطز

من ٦٥٧ - ٦٥٨ هـ او من ١٢٥٩ - ١٢٦٠

وسيف الدين هذا شريف الاصل من عائلة ملوكية خلافاً لسلفه فهو ابن مودود
شاه ابن اخي ملك خراسان فتح التتر بلادهم فنشئت اسرته . ولما تولى سلطنة مصر لقب
بالمملك المظفر وحالما استوى على السلطنة قبض على نور الدين وامر بقتله فحاول وصيه
شرف الدين المدافعة عنه فصلبه على باب القلعة

ثم لاح له ان دمياط بعد ان دكت اسوارها لم يبق ما يعيق مراكب العدو عن
المرور في النيل فامر بردم مصب النيل هناك وبعث بفرقة من الحجارين فمضوا وقطعوا
كثيراً من الحجارة والقوفا فيه حتى ضاق وتعذر سير المراكب منه الى دمياط وهو على
ذلك الى اليوم فان المراكب الكبيرة لا تستطيع المرور فيه فتتقل البضائع منها الى
الجروم والمتواتر على السنة البعض ان سبب ذلك وجود جبل او رمل متجمع هناك

محاربة التتر

وفي خلال ذلك جاء القاهرة قائد تترى ناقلاً منشوراً من هولاكو ملك المغول حفيد جنكيزخان وكان التتر قد انتشروا في جميع اسيا الشمالية الشرقية . وكان هولاكو قد غزا العراقيين بجيش عظيم واستولى على مدينتي الموصل وحلب وقتل الخليفة المستعصم بالله كما تقدم . ونزل هولاكو على سوريا ففتح دمشق والسواحل البحرية حتى قصد مصر فبعث اليها منشوراً مضمونه : من ملك الملوك شرقاً وغرباً القان الاعظم ونعت فيه نفسه بالفاظ معظمة وذكر في الكتاب شدة سطوته وكثرة عساكره وما جرى على اهل البلاد منه ولا سيما ما فعله في بغداد وما جرى على اهلها منه الى ان قال « يا اهل مصر انتم قوم ضعاف فصونوا دماءكم مني ولا تقاتلونني ابدأ فتدموا »

فلما قرأ قطوز ذلك المنشور وعلم ما كان من امر فتوح هذا التترى وما هو عليه من القوة والمنعة اوجس خيفة . غير ان جيوشه كانوا قد حاربوا الجيوش الصليبية وانتصروا عليها ولم يزل في نفوسهم عزة الظفر وانفة النصر فاستخفوا بقول هولاكو واصروا على القتال فحشدهم قطوز وجهم بما يلزم من العدة والسلاح واستقدم اليه قبائل العربان وفرق فيهم وفي سائر جيشه نحواً من ستماية الف دينار جمعها من الضرائب التي اقامها على المصريين مما دعاه تصقيع الاملاك وزكاتها واحداث على كل انسان ديناراً يؤخذ منه واخذ ثلث التركات الاهلية فكان يجمع منها ٦٠٠٠ دينار سنوياً . ثم سار من القاهرة لملاقاة التتر في غاية شعبان سنة ٦٥٨ هـ وما كاد الجيشان يلتقيان حتى اتصل بهولاكو خبر موت ابيه منجوخان ملك التتر فاضطر الى العود حالاً ليطالب بحقوق الوراثة . فعاد تاركاً في سوريا نحواً من عشرة الاف من نخبة فرسانه تحت قيادة نسييه ونائبه كتبغا لمحاربة قطز فالتقيا في فلسطين في عين الجالوت فالتحم الجيشان وحصلت بينهما واقعة كبيرة شفت عن هلاك كتبغا وكل رجاله والقبض على ابنه . وغنم المصريون غنيمة كبيرة تكفي لاغناء كل المشرق لانها تحتوي على اثنى مائه هولاكو من اغنى المدن في اثناء فتوحه . فعاد الملك المظفر الى القاهرة ظافراً ولم تتم سعادته لان المنية كانت في انتظاره على الطريق فقتله بعض رجاله الذين كانوا يترقبون فرصة لقتله فتمكنوا من ذلك يوم السبت في ١٧ ذي القعدة سنة ٦٥٨ هـ بعد ان حكم ١١ شهراً و١٣ يوماً

وتفصيل ذلك انه بينما كان عائداً بجيشه الى القاهرة مرّ من امامه ارنب بري وكان مولعاً بالصيد فسار على اثره في عرض الصحراء حتى امعن فيها ثم عاد وحده ولا صيد معه فتقدم لملاقاته احد امرائه المدعو ركن الدين بيبرس البندقداري فلما دنا منه هم

ليده كانه يريد تقبيلها فامسكها باحدى يديه وطعنه بالآخرى في قلبه فسقط صريعاً
يخبط الارض . فجاء باقي الامراء وكانوا متواطئين معه على هذه الفعلة فرفعوا جثة
سلطانهم ودفنوها في قبر صغير قرب قبر خلف نخشي ذوو الفقيد ان تبلغ موسى لحام
فتفرقوا في مصر السفلى لا يظهرون على احد . وكان الاتابك اذ ذاك في الصالحية مع
السواد الاعظم من الجيش فسار اليه قتلة قطوز واخبروه بما فعلوا فقال لهم « من
منكم ضربه الضربة الاولى » فاجاب بيبرس « انا هو » فقال له « فاحكم مكانه »
فبوع بيبرس للحال ولقب بالملك القاهر ثم تشاءم من هذا اللقب فابدله بالملك
الظاهر و اضاف اليه ابا الفتوح وكان يلقب ايضاً بالعلائي وبالبنقداري نسبة الى سيده
الذي كان يدعى علاء الدين بنقدار

سلطنة الظاهر بيبرس البنقداري

من سنة ٦٥٨ — ٦٧٦ هـ او من ١٢٦٠ — ١٢٧٧ م

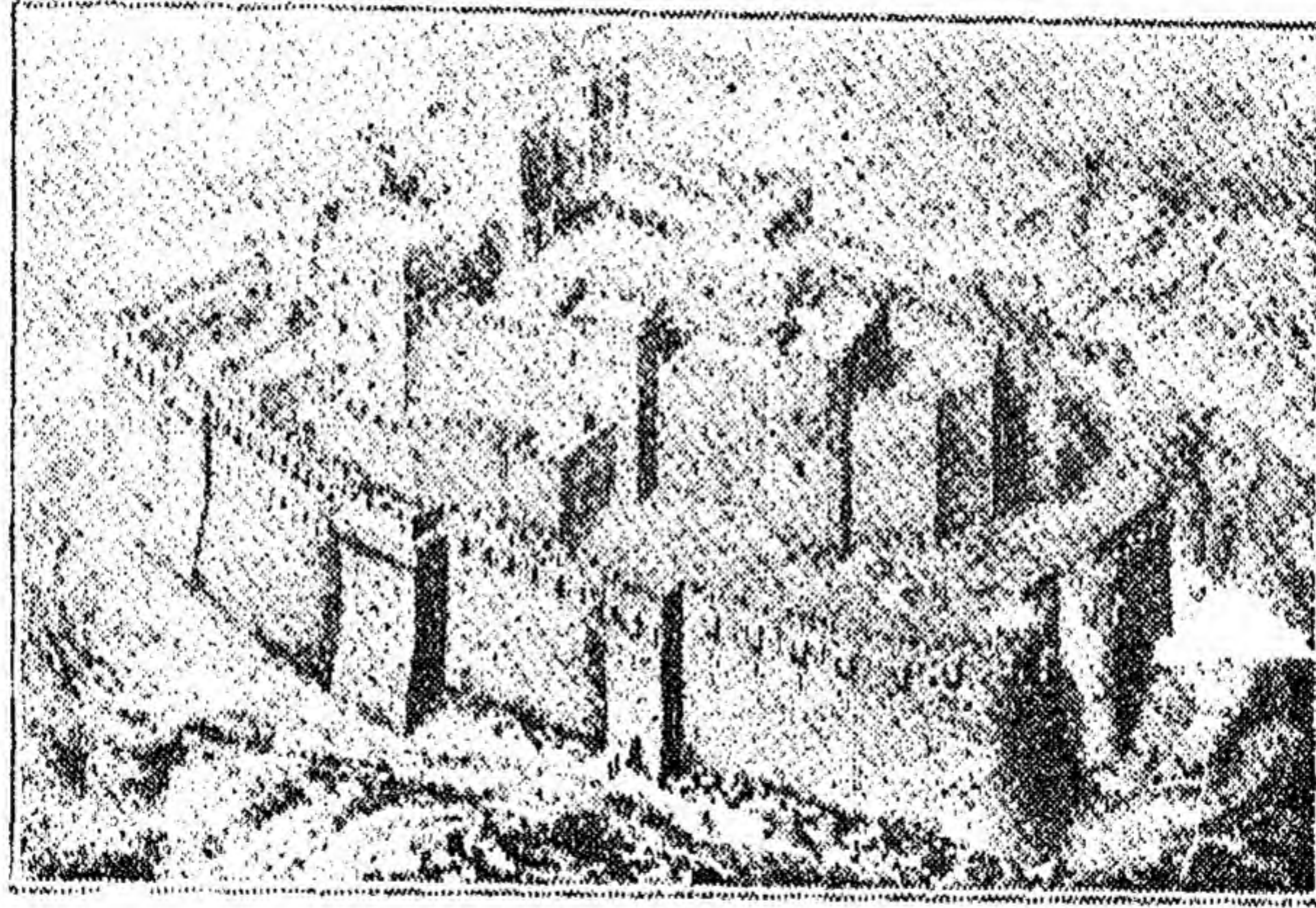
ولما تمَّ ابيبرس امر السلطنة سار الى القاهرة واستوزر بهاء الدين بن حنا واتخذ
بلباي (بيلي بك) الخازن دارو وهو من اعز اصدقائه بل هو صنيعته وجعله نائب السلطنة وصار
صاحب الحل والعقد فيها . واستقدم من بقي من عائلة قطوز فأمّنهم وضمهم اليه واطلق
من في السجون جميعاً بغير استثناء واكثر من العطايا لرجاله وابطل كثيراً من
الضرائب التي كان قد ضربها سلفه كتصقيع الاملاك وتقويتها واخذ زكاة ثمنها في كل
سنة وجباية دينار من كل انسان وغير ذلك . واعلن امره هذا على اسان الخطباء في المنابر
على انه مع ذلك لم ينل رضاء كل الرعية . فاهل الشام شقوا عصا الطاعة وبايعوا
الامير سنجر صاحب حلب ولقبوه بالملك المجاهد وعضدهم على ذلك التتر اصحاب
هولاكو . فسار بيبرس حالاً الى دمشق لاجناد الثورة فخارب التتر وتغلب عليهم في ٣
وقائع متوالية . فقنط الدمشقيون من المساعدة فساموا المدينة فدخلها وانتقم منها شر
الانتقام ومازال حتى اخضع بلاد الشام . ولما عاد الى القاهرة اخذ في اصلاح الداخلية
الحلفاء العباسيون بمصر

وفي سنة ٦٥٩ هـ قدم القاهرة رجل من بغداد قال انه من ذرية بني العباس واسمه
الامام احمد بن الخليفة الظاهر بامر الله بن الناصر بن المستنصر . فلما بلغ الملك الظاهر
قدومه خرج الى لقائه . فلما وصل الى المطرية تلاقي هناك هو والامام احمد المذكور

وكان الامام احمد هذا اسمر اللون وامه ام ولد حبشية . فلما وقعت عين الملك الظاهر عليه نزل عن فرسه ونزل الامام احمد عن فرسه ايضاً وتعانقا ثم ركبا ومرا في القاهرة ودخلا من باب النصر فزينت له القاهرة . وكان له موكب عظيم ويوم مشهود لم يسمع بمثله . فلما وصلا الى القاعة طلع الامام احمد مع السلطان الى القلعة فانزله السلطان في قاعة الاعمدة فاقام بها اياماً . ثم ان الملك الظاهر اراد ان يثبت نسب الامام احمد بانه من ذرية بني العباس لان الخلافة كانت خالية من حين قتل الخليفة المستعصم فعقد مجلساً من القضاة والعلماء والمشائخ وأثبتوا نسبه فاقامه خايضة في القاهرة ولقبه بالمستنصر بالله . فاصبحت القاهرة من ذلك الحين مقر الخلفاء العباسيين وقد ذهب نفوذهم الا من الوجه الديني وهو الذي كان الظاهر في حاجة اليه لتأييد سلطانه . فلما بويغ المستنصر ثبت الملك الظاهر في منصبه . ورافق نزول العباسيين في القاهرة قحط عم سائر القطر فتشامم الناس بحلوهم . أما بيبرس فلم يأل جهداً في استجلاب الاقوات من جهات سوريا وغيرها وتفريقها في الناس فانفذ بلاده من ضيق عظيم

ثم اراد بيبرس ان يسترجع بغداد للخلفاء العباسيين فانفذ مع الخليفة المستنصر بالله جنداً كبيراً لخراج التتر منها وتسليمها للخليفة المستنصر فلاقاهم التتر في الطريق فاربوهم وشتتوا شملهم وقتلوا الخليفة ولم يجلس على كرسي الخلافة الا خمسة اشهر وعشرين يوماً فبايعوا في القاهرة الخليفة الحاكم بأمر الله . ثم الجى بيبرس الى تجريدة أخرى انتقاماً من فتح الدين رئيس قلعة الكرك . وسبب ذلك ان بيبرس قبل توليه سلطنة مصر كان قد ترك امرأته عند فتح الدين وقاية لها مما كان يقاسيه من الاسفار والعذاب وعهد اليه رعايتها فلم يحترم هذا حرمة الدين والشرف ففتك بها بغير وجه الحق . فاتصل ذلك ببيبرس وكان قد تولى امور مصر فتارفيه حب الانتقام . فجرد الى الكرك وحاصر قلعتها وكانت منيعة الجانب طالما امتنعت على كبار الفاتحين ومنهم السلطان صلاح الدين . ثم تمكن بيبرس من القبض على فتح الدين احتيالا وسامه الى امرأته فقتلته على مثل ما قتلت عليه شجرة الدر . فامست الكرك بغير رئيس . فسلمت وصارت جزءاً من مملكة مصر

ولما عاد بيبرس الى القاهرة حشد جيشاً كبيراً لمناهضة الصليبيين وكانوا لا يزالون حاكمين في اماكن كثيرة من فلسطين فدارت الحرب بينهما سجالاً مدة سنتين (سنة ٦٦٣ و ٦٦٤) وانتهت باستيلاء بيبرس على قيصرية . وهو محاصر عكا الجى الى المسير لمحاربة التتر وكانوا قد استولوا على دمشق بمساعدة اهل ارمينيا وهددوا



ش ٧٨ : قلعة الكرك لما فتحها بيبرس

سائر سوريا . فاغفل حصار عكا وسار فلما وصل الى دمشق لم يجد عدواً لان هولاء كانوا قد ماتوا وتشتت جيوشه فسار بيبرس الى ارمينيا وكان عليها ملك مسيحي يقال له هينون فاستولى على عاصمتها سيس وعلى سائر مدنها وتابع فتوحه الى الاناضول فهاجمه ريكا خان بن هولاء وولي عهده فاعاده على اعقابه فرجع الى سوريا وفتح صفد وذبح اهلها . ثم رجع الى عاصمته بعد ان فتح ايلة على البحر الاحمر

الآداب العمومية

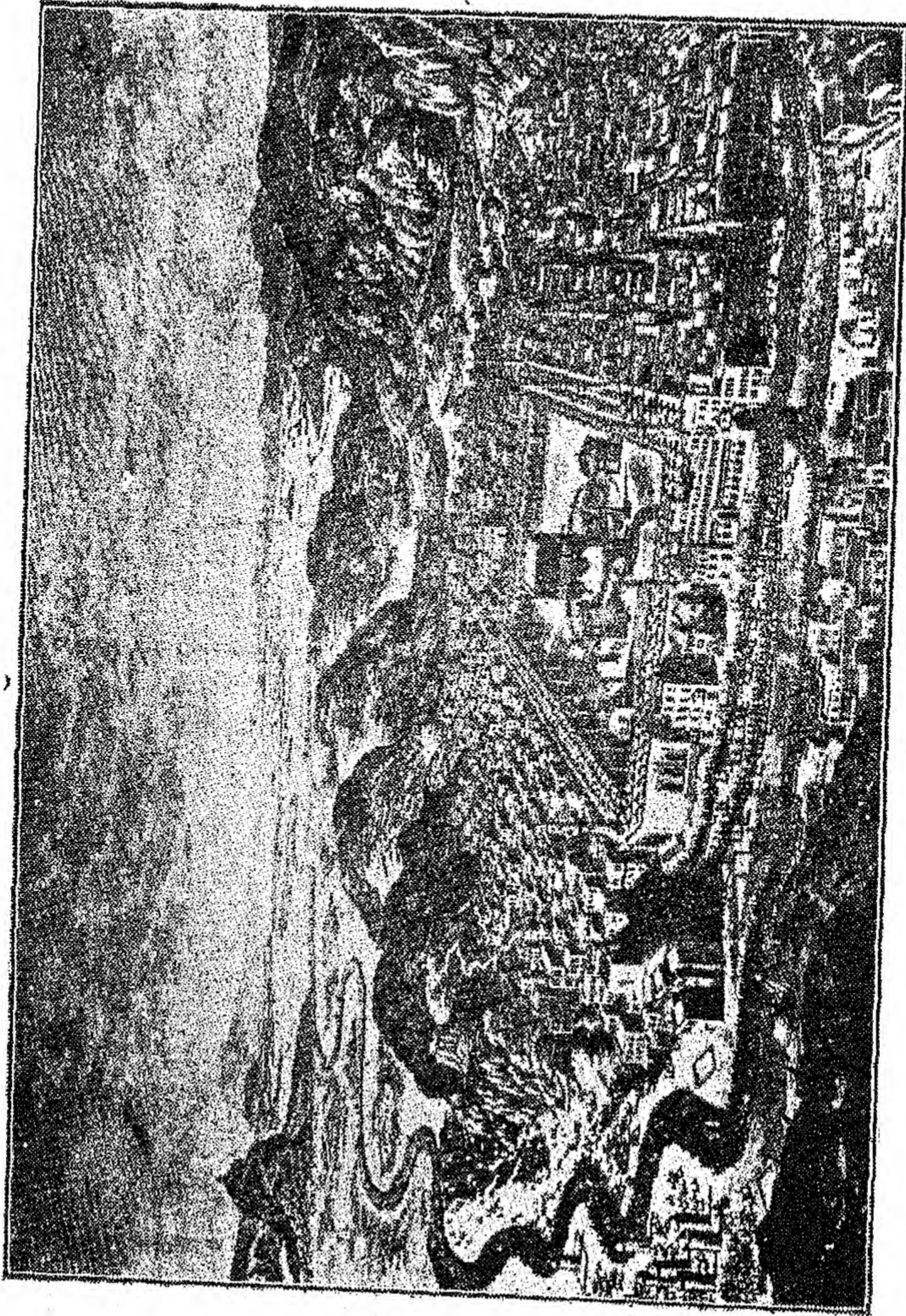
وقضى بيبرس سنة ٦٦٥ هـ في القاهرة يستعد لحرب جديدة وينظم داخلية فابطل ضمان الحشيش وجهاته وامر باراقة الخمر وابطال المنكرات وتعفية بيوت المسكرات ومنع الخانات والخواطى بجميع اقطار مملكة مصر والشام . فظهرت من ذلك البقاع وعادت البلاد الى الهدوء والرغد فقال احد الشعراء المعاصرين :

ليس لابلis عندنا ارب غير بلاد الامير مأواه
حرفته الخمر والحشيش معاً حرمتا مأوه ومرعاه

ثم رأى ان بعض الرعية لا يزالون على ما كانوا قد اعتادوه من الفواحش فامر بمنع النساء الخواطى من التعرض للبعاء ونهب الخانات التي كانت معدة لذلك وسلب اهلها جميع ما كان لهم ونفى بعضهم وحبس النساء حتى يتزوجن وكتب بجميع ذلك توقيعاً قرئ في المنابر وعلم بعد ذلك ان الطواشي شجاع الدين عنبر المعروف بصدر الباز يشرب المسكر فشنته تحت قلعة الجبل . ولا شك ان الملك الظاهر لم يشدد في

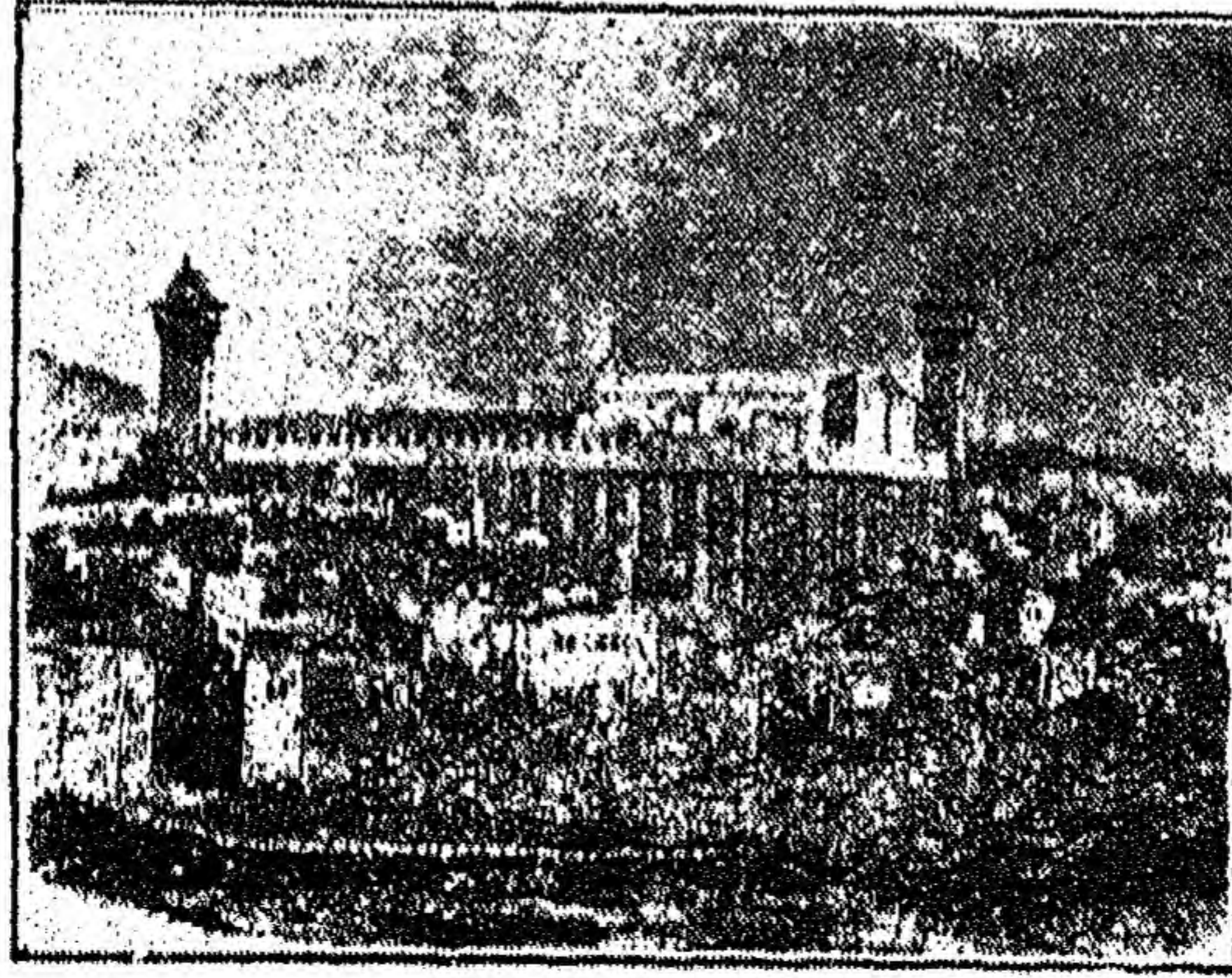
أبطال هذه المنكرات إلا لعلمه يقيناً أن استعمالها يورث الفقر والذل ويخمد الهمة
ويضعف عزة النفس ويغضب الله

وفي ٦٦٢ هـ بنى الملك الظاهر دار العدل القديمة تحت القلعة وعمار يجلس بها
لعرض العساكر في كل اثنين وخميس . وكان ينظر في أمر المتظالمين بنفسه فإذا كان
لاحد مظلمة يأتي رأساً ويشكوها للسلطان وهو يأمر بصرفها



وفي سنة ٦٦٦ هـ استأنف الحرب مع فلسطين فاستولى على يافا والشقيف وطبرية
وارصوف وانطاكية وبقراس والقرين وصافيتا ومرقية وإيباس وختم ذلك بفتح بغداد ثم
أحب بطريقه إلى مصر أن يمر بالحج إلى مكة مع ابنه بركة خان فمر بحلب فطرد التتر منها

ثم زار قبر ابراهيم الخليل في حبرون . وسار لزيارة بيت المقدس . ثم عاد الى مصر وقد اتم سياحته الجهادية والدينية معاً



ش ٨٠ : مسجد الخليل في حبرون

واصبح امر الشام يهيمه فاشتغل في تسهيل المواصلات بينها وبين مصر فرتب خيل البريد فكانت اخبار البلاد الشامية ترد عليه في الجمعة مرتين وقيل انه انفق على ذلك مالا كثيرا حتى تم له ترتيبه وكانت خيل البريد عبارة عن مراكز بين القاهرة ودمشق وفيها خيول جيدة وعندها رجال يعرفون بالسواقين ولا يقدر احد يركب خيل البريد الا بمرسوم سلاطاني وكان عند كل مركز ما يحتاج اليه المسافرين من زاد وعلف وغير ذلك

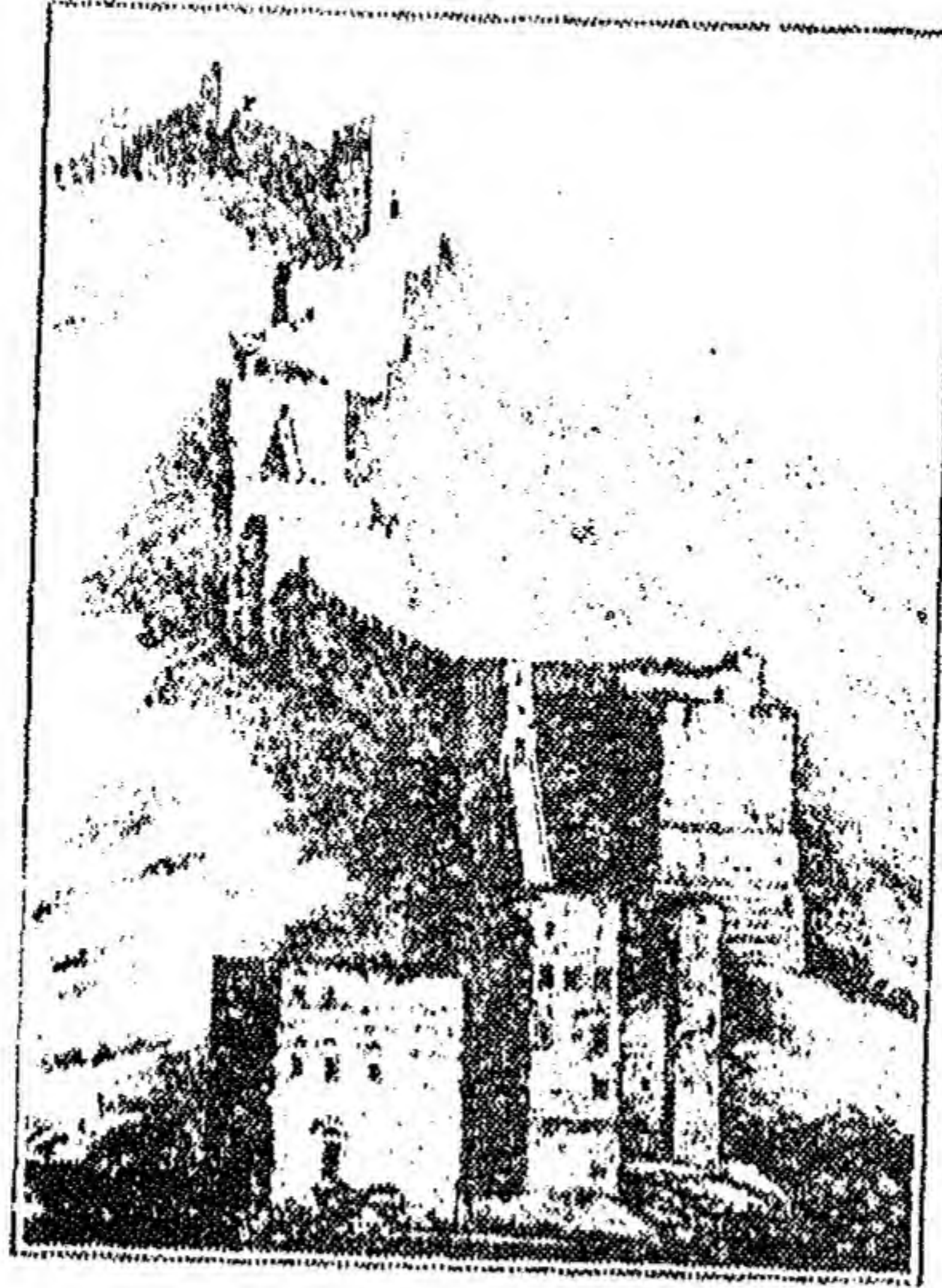
وكانت طريق الحج من مصر الى مكة عن طريق صحراء عيذاب يركبون النبل من ساحل الفسطاط الى قوص بمصر العليا ثم يركبون الابل من قوص فيطعمون صحراء عيذاب الى البحر الاحمر حيث ينزلون الى جدة ساحل مكة وهكذا يعودهم الى مصر . وكانت قوافل التجار من الهند واليمن والحبشة تأتي مصر على هذه الطريق ايضا وكانت صحراء عيذاب اذ ذاك آهلة بالسكان امينة المسالك . وبقيت طريق الحج على مثل ذلك الى السنة التي زار فيها السلطان الملك الظاهر مكة وكساها وعمل لها مفتاحا فصارت طريق الحج برا من ذلك الحين . أما التجار فما زالوا يقدمون مصر عن طريق الصحراء الى سنة ٧٦٠ هـ ومن ذلك الحين قلت اهمية مدينة قوص فصارت في حالة تشبه حالتها في الوقت الحاضر بعد ان كانت مدينة زاهرة بالتجارة والعمارة

وفي سنة ٦٧٠ هـ سار بيبرس لمحاربة من بقي من طائفة الباطنيين . وكان هولاء قد اهلك السواد الاعظم منهم في جهات العراق . فافتتح بيبرس قلعة الاكراد وقتل من فيها من الباطنيين فتفرقت جموعهم وهكذا كان انقراض دولتهم
وفي خلال ذلك عاد التتر الى سوريا وحاصروا البيرة فتجند اليهم بيبرس وسارت معه فرقة تحت قيادة الامير قلاون الالفى فالتقى الجيشان عند البيرة واشتدت الحروب بين المسلمين والتتر وانتهت بانتصار المسلمين فاستولوا على البيرة . ثم ساروا الى ارمينيا ففتحوها واغتنموا منها غنائم كثيرة ثم عاد بيبرس الى مصر ففرشوا له القاهرة بالبسط والسيجاد الثمين احتفالاً بعوده ظافراً وحملت القبة والطير على راسه وقد قرض الباطنيين وغلب التتر

ثم ان ابغاخان بن هولاء خان قدم سوريا وحاصر البيرة ثانية فلاقاه الامير قلاون بفرقة من الجيوش المصرية وارجمه على اعقابيه . فسر بيبرس من بسالته واتخذ ابنته زوجة لابنه ليكون ابنه في المستقبل آمناً في حمى حميه . فامنت سوريا بعد هذه الانتصارات ولم تعد تخشى اغتيالاً فانفذ بيبرس الامير اق سنقر الفرغني سنة ٦٧٤ هـ لافتتاح بلاد النوبة فافتتح اصوان بعد ان استولى على جميع مصر العليا
موت الملك الظاهر ومناقبه واعماله

وفي سنة ٦٧٥ هـ اتت الاخبار بان التتر زحفوا على البلاد فخرج اليهم السلطان وتوجه الى حلب وتقاتل مع التتر فكسروهم وقتل منهم خلائق لا تحصى . وكان ملك التتر ابغاخان فلما انكسر هرب فتبعه السلطان الى نحو الابليستين فكانت بينهما هناك وقعة عظيمة قتل فيها من الفريقين نحو مائة الف انسان فانكسر ابغا وهرب فتبعه السلطان نحو زبيد . ثم رجع السلطان من هناك الى قيسارية وحاصر اهلها فارسلوا يطلبون منه الامان فارسل لهم الامان على يد الامير بيسري فسلموا المدينة فدخلها السلطان وكان يوم دخوله يوماً مشهوداً . فنزل بدار السلطنة وصلى بها ركعتين وحكم بين الناس واقام بها اياماً ثم رحل الى دمشق وحلب سنة ٥٧٦ هـ فتوعدك واخذته الحمى فسقاه الحكماء مسهلاً فافرط في الاسهال وثقل عليه المرض فرحل من حلب وقصد الدخول الى دمشق فمات في بعض ضياعها . فلما مات كتم موته عن العسكر وحمل في محفة الى ان دخل دمشق فدفن هناك ليلاً . وكان موته في يوم الخميس ثامن عشر المحرم سنة ٦٧٦ هـ ومات وله من العمر نحو ستين سنة وكان ملكاً عظيماً جابلاً مهيباً كثير الغزوات خفيف الركاب يحب السفر والحركة في الشتاء والصيف وكان مشهوراً بالفروسية في الحرب وله اقدام وعزم في القتال وله ثبات عند التقاء الجيوش وكان يلقب

بابي الفتوحات لكثرة الفتوح في ايامه وكان له موكب بمصر وموكب بالشام وكان شعاره الاسد اشارة لشجاعته وقوة بأسه وكان كريماً سخياً على الرعية باسط اليد يفرق الغنائم التي تحصل من الفتوح على الرعية ترغيباً لهم في القتال وقت الحرب وكان محباً لجمع الاموال كثير المصادرات لاجل الغزوات والتجاريده وينفق ذلك على العسكر. وكان حسن الوجه طويل القامة مستدير اللحية الغالب في لحيته البياض . وكان مبعجلاً في موكله كفواً للسلطنة منقاداً للشرعية يحب العلماء والصالحين ويجب فعل الخير وله برٌّ ومعروف وآثار اهمها رده الخلافة لبني العباس بعد ان كادت تنقطع عنهم



ش ٨١ : اسوار انطاكية

وخائف من الذكور ثلاثة وهم السعيد محمد بركة خان وقد ملك بعده وسلامش وهذا ملك بعده ايضاً والمسعود خضر . وترك من البنات سبعاً . ومما استولى عليه من ايدي الصليبيين قيسارية وارصوف وصفد وطبرية ويافا والشقيف والطاكية وبقراس والقصير وحصن الاكراد والقرين وحصن عكا وصافيتا ومرقية وحلب . وقد ناصفهم على المرقب وبانياس وترسوس وادنة والمصيصة وغيرها من المدن في بر الاناضول . وصار الي يده مما كان في يد المسلمين دمشق وبلبيك وعجلون وبصرى وصرخد والسلط وحصن وتدمر والرحبة وتل ناشر وصهيون وبلاطس وقلعة الكهف والقدموس والعليقة والخواني والرصافة ومصيف والقلعة والكرك والشوبك . وفتح بلاد النوبة وربة

ومن اعماله الماثورة انه عمر الحرم النبوي وقبة الصخرة بيت المقدس وزاد في اوقاف الخليل وعمر قناطر شبرامنت بالجيزة وسور الاسكندرية ومنار رشيد . وردم فم بحر دمياط ووعر طريقه وعمر الشواني وعمر قلعة دمشق وقلع الصبيبة وبعليك والساط وصرخد وعجلون وبصرى وشيزر وحمص . وعمر المدرسة بين القصرين بالقاهرة والجامع الكبير بالحسينية وقد جعله الفرانساويون عند مجيئهم الى مصر قلعة . وهو البناء القديم في شارع الظاهر جعلته الحكومة مخازن للاقوات ويعرف بجامع الظاهر . وحفر خليج الاسكندرية القديم وبارسه بنفسه وبنى هناك قرية سماها الظاهرية وحفر بحر اشمون طناس وجدد الجامع الازهر بالقاهرة واعاد اليه الخطبة وعمر بلد السعيدية من الشرقية بمصر وبنى القصر الابلق في دمشق . ومن آثاره في القاهرة ايضاً قناطر السباع قرب ميدان الجبل والبرج الكبير في القلعة

وكان محباً لركوب الخيل الجياد ورمي النبال فانشأ ميداناً دعاه ميدان القبق ويقال له ايضاً الميدان الاسود وميدان العبد والميدان الاخضر وميدان السباق وكان شاغلاً بقعة من الارض تمتد بين النقرة التي ينزل اليها من قلعة الجبل وبين قبة النصر التي هي تحت الجبل الاحمر . وبنى فيه مصطبة

سنة ٦٦٦ هـ للاحتفال برمي الذشاب والتمرين على الحركات العسكرية . وكان يبحث الناس على لعب الرمح ورمي الذشاب ونحو ذلك . فكان ينزل كل يوم الى هذه المصطبة من الظهر فلا يركب منها الى العشاء وهو يرمي ويحرض الناس على الرمي والتضال والرهان فما بقي امير ولا مملوك الا وهذا شغله . وما برح من بعده اولاده ومن بعدهم يمارسون في هذا الميدان جميع الالعاب الحربية

وكان يقوم بنفقات جميع هذه الاعمال وقام يسلب الاهالي من المال فوق ما اعتادوا دفعه من



ش ٨٢ : نقود الملك الظاهر بيبرس

الضرائب لان الغنائم التي كان يكسبها من اعدائه كانت تساعد كشيئاً في النفقات
هذه هي اعمال الملك الظاهر بيبرس قد تركت له اثراً يبقو ذكره دهوراً طوالاً
وترى في الشكل الحادي والثمانين صور نقود الملك الظاهر بيبرس وعليها
صورة اسد

سلطنة بركة خان بن بيبرس

من سنة ٦٧٦ — ٦٧٨ هـ او من ١٢٧٧ — ١٢٧٩ م

فلما توفي بيبرس اقر الامراء على مبايعة ابنه البكر محمد ناصر الدين بركة خان .
ولكنهم كانوا قد اجمعوا بعد المشورة طويلاً على ان يكتفوا وفاة بيبرس لثلاً بطمع
فيهم العدو فارسلوا جيشه سرّاً الى دمشق واشاعوا هناك انه مريض فنقلوه الى القاهرة
في محفة ثم استقدموا الجيوش جميعها الى مصر فقدمت وحالما ادخلوا الجثة الى القلعة
بايعوا ابنه البكر بركة خان ولقبوه بالملك السعيد . واقاموا الامير بلباي اتابكاً
وكان بلباي في الاصل مملوكاً ابتاعه بيبرس بثمن بخس الا انه ارتقى في خدمته حتى
صار امين خزائنه ونائبه كما تقدم . ثم استحق بعد طول الخدمة الصادقة الامينة ان
يكون وصياً على ابنه في مهام السلطنة . وكان للملك السعيد ثقة كبرى في بلباي حتى انه
التي اليه كل مهام الدولة فسعدت مصر في بادئ الرأي لسكرتها ما لبثت ان تعمر كأس
صفائها بوفاة ذلك الوصي الامين الحكيم . ولم يكن الملك السعيد يشق باحد من امرائه
ليعهد اليه مهام الامة . وكان يظن انهم هم الذين سعوا في قتل وصيه ولكنه لم يتأكد
ذلك فنفر منهم فوق اختياره على اق سنقر فاتح النوبة فولاه الاتابكية وبعد سير خنقه
في احد ابراج الاسكندرية فتباعد الامراء عن هذا المنصب وارادوا بالسلطان سوءاً
لكنهم شغلوا عنه بثورة الدمشقيين . وذلك ان شرف الدين سنجر الملقب بالاشقر كان
والياً على دمشق تحت رعاية بركة خان فادعى الملك لنفسه فيبايعه اهلها ولقبوه بالملك
السامل فاسرع بركة خان الى دمشق ونزل بجيشه في القصر الابلق الذي كان قد بناه
ابوه وبعد التحري عن اسباب تلك الثورة علم انها دسيسة من امرائه . فلما علم هؤلاء
بظهور امرهم عادوا بمن كان على دعوتهم من المماليك الى القاهرة وتحصنوا فيها فتبعهم
بركة خان فامتنعوا عليه وعجز عن قهرهم لسكرتهم فالتجأ الى قلعة الجبل فحاصروه
فيها وشدوا عليه الحصار فسلم فانحط قدره عندهم وهموا بقتله فمنعهم الخليفة الحاكم

بأمر الله العباسي لكنهم اصرروا على خلعهم فخلعوه في ربيع اول سنة ٦٧٨ هـ بعد ان حكم سنتين وثلاثة اشهر فبعثوه الى قلعة الكرك منفياً وحبسوه فيها ثم عادوا الى قتله فانفذوا اليه من يقتله ثم بلغهم انه سقط عن جواده ومات

سلطنة سلامش بن بيبرس

من سنة ٦٧٨ — ٦٧٨ هـ لو من ١٢٧٩ — ١٢٧٩ م

فبايعوا اخاه بدر الدين سلامش وسنه سبع سنوات وبضعة اشهر ولقبوه بالملك العادل واقاموا الامير سيف الدين قلاون الالفى وصياً عليه ولم يكن هم هذا الوصي الا خلع ذلك السلطان الرضيع . وفي رجب من تلك السنة تمكن من مراده فبعثه الى قلعة الكرك منفياً واستلم هو زمام الاحكام وطلب المبايعة فبايعه الناس ولقبوه بالملك المنصور وهو لقب ثاني سلاطين هذه الدولة

سلطنة الملك المنصور قلاون

من سنة ٦٧٨ — ٦٨٩ هـ او من ١٢٧٩ — ١٢٩٠ م

وهو من مماليك اق سنقر الكامي وقدمه الى الملك الصالح فاعتقه سنة ٦٤٧ هـ فلما تولى السلطنة قرب انصاره وانعم عليهم واستوزر نجر الدين وكان كاتب سره الخاص وبعث الامير طرطاي الى دمشق لاجتماع ثورة اهلها . فسار في فرقة من الجند فلاقاه الملك الكامل ودافع دفاعاً حسناً ولكنه الجيء في سنة ٦٨٠ هـ الى التسليم فقبضوا عليه وجاؤا به الى القاهرة وادعوه سجيناً مظلماً وولوا على دمشق وسائر الشام الامير حسام الدين لاجين

وفي سنة ٦٨١ هـ عاد التتر الى الشام بجيشين الواحد تحت قيادة ابغا خان والآخر مؤلف من ثمانين الف فارس تحت قيادة اخيه منجوتيمور (منكوتر) فخار بهم المصريون وفازوا بهم وقتلوا منجوتيمور وفر ابغا خان الى حمدان فسمه اخوه الثالث تيكودار اوغلان وتولى الحكم بعده ثم اعتنق الاسلام ولقب باحمد خان . وكان اسلامه وسيلة لحقن الدماء لانه خابر قلاون مخبرة سامية وتعاهدا على حفظ الولاء . وما زال ذلك مرعياً الى ما بعد قتل احمد خان وتولية ارغون مكانه . فكانت مصر في خلال ذلك

مطمئنة في خارجيتها فنشأت القلاقل في داخليتها بسبب تمرد بعض العامة . فغضب السلطان غضباً اعمى بصره وامر بماليكه ان يضعوا السيف فيهم ولم يعد يميز المجرم من البري فساق الجميع بعضا واحدا واعمل فيهم السيف ثلاثة ايام متواليه حتى غصت الاسواق بجثثهم رجالاً ونساء واولاداً . فجاء العلماء الى السلطان واخذوا يخففون من غيظه ويدينون له وجه عسفه . فانتبه لما جاءه من الاستبداد الفاحش فندم ندماً لا مزيد عليه وتكفيراً لذلك امر ببناء البنايات والتكايا رحمة بالمساكين وذوي الاسقام . ومن اجل ذلك ايضاً بنى المستشفى الشهير بالبيمارستان المنصوري بخط بين القصريين (في شارع النحاسين) وكان في الاصل قاعة لست الملك بنت العزيز بالله ولها تاريخ ذكره المقرئ في صفحة ٤٠٦ ج ٢

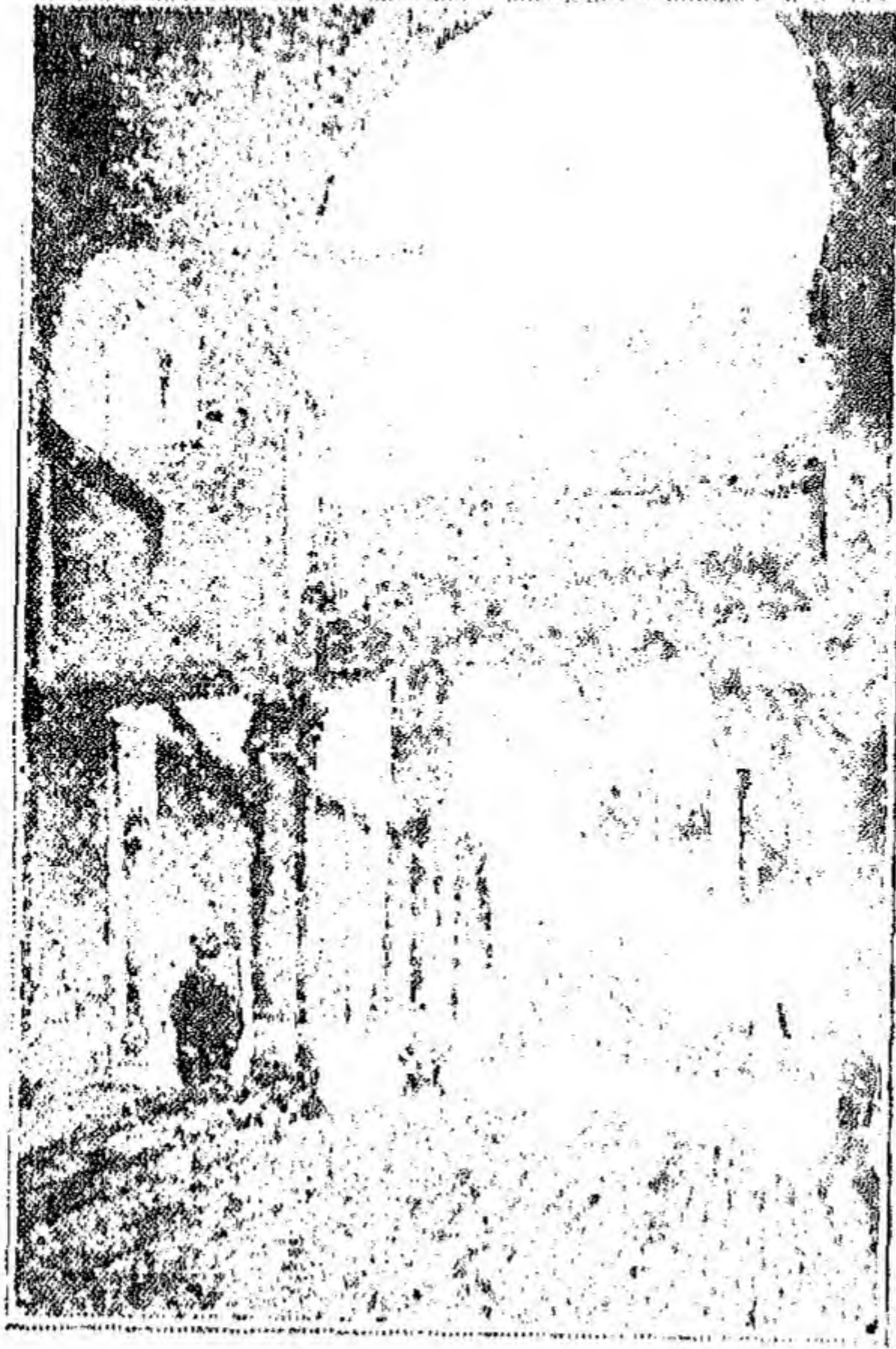
ملابس الممالك

وكان الممالك الى ذلك الحين يلبسون لباس الزينة بما يناسب جاهلهم كانت كلوتاتهم (للرأس) من الصوف الازرق الغميص وهي مضربة عريضة بغير شاش . وكانوا يربون ذوائب من الشعر خلفهم يجعلونها في اكياس حرير احمر او اصفر وكانوا يشدون في اوساطهم بنوداً بعلبكية عوضاً عن الحوائص . وكانت خفافهم برغالي اسود . وكانوا يشدون فوق قماشهم ابريم جلد وفيه حلق نحاس . وفي ذلك الابريم ملقعة من الخشب كبيرة وسكين كبيرة . وكانت لهم مناديل من الخام قدر فوطة كبيرة لمسح ايديهم . فلما تولى الملك المنصور قلاون امر العسكران يغيروا هذه الملابس الشنيعة ويدخلوا في الهيئة المطبوعة . وكانت خلع المقدمين من العنتابي فامر لهم بالخلع الحمل الاحمر والاخضر بالفرو والسمور . ثم سار الى حصن مرقد فحاصره ٣٣ يوماً فسلم . وفي سنة ٦٨٤ هـ افتتح قلعة الكرك وقبض على سلامش لانه كان يحاول الاستقلال عن مصر فقاده الى القاهرة واودعه سجناً مظلماً مكث فيه الى ما بعد وفاة قلاون

موت قلاون وآثاره

ولما اطمأن باله في داخلته عكف على تنظيم الوزارة وما زال يعزل ويولي حتى اقر على وزارة شمس الدين سنة ٦٨٥ هـ فبقي على دستها زمناً طويلاً . ثم اوصى قلاون بولاية العهد لابنه علي ولقبه بالملك الصالح (الثالث) واخذ منذ ذاك الحين في تدريبه على الاحكام وادارتها على ان يستخلفه عليها اذا طرأ عليه ما يستدعي غيابه عن مصر في حرب او غيرها فلم يصح تقديره لان علياً اصيب بحمى شديدة ذهبت بحياته سنة ٦٨٢ هـ فحزن قلاون حزناً شديداً وكثرت هواجسه حتى كره الاحكام . ثم رأى ان

يجرد حملة لافتح طرابلس الشام تساية له عن هواجسه . وكانت في حوزة الصاييين
منذ مائة وثمانين سنة لم ينازعهم احد عليها . فسار اليها قلاون وافتتحها وذبح من فيها
واخربها ثم اعاد بناءها وجعل عليها حامية
ولما عاد الى القاهرة جاءه وفد من قبل الفونس ملك ارغون عقدوا معه معاهدة
في ١٣ ربيع اول . غير ان ذلك لم يكن يشغله عن احزانه وما زال كثيراً حتى قضى
يوم السبت في ٦ ذي القعدة فاحتفل بجنازه احتفالاً حضره جمع غفير من جهادية
وملكية وشيعوه الى البيمارستان حيث واروه التراب ولا يزال مقامه هناك الى هذا العهد
وكانت مدة حكمه ١١ سنة و٣ اشهر و ٦ ايام



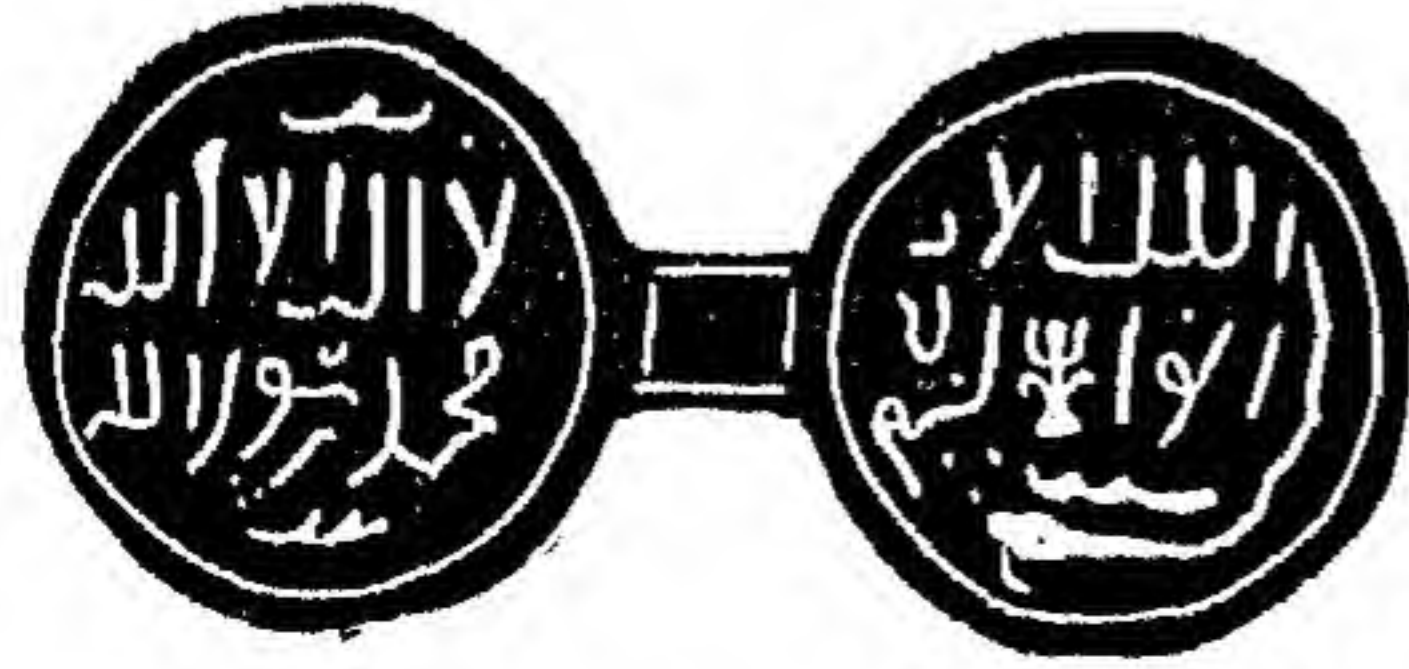
ش ٨٣ : بقايا البيمارستان المنصوري

ومن آثاره الباقية الى هذا اليوم جامع الشهير ومقامه وكلاهما داخلان في بناء
البيمارستان الذي يشاهده المار في شارع النحاسين شمالاً بعد ان يتجاوز خان الخليلي ولا
تزال هذه الابنية قوية العماد تتجلى فيها العظمة والقوة الا البيمارستان فانه اصبح اقرب
الى الاثر من العين . وقد زرت مقام هذا السلطان فرأيت فيه كما رأيت في غيره من امثاله
جماعات من النساء والاطفال هم في الغالب من ذوي الامراض قد جاؤا يطلبون الشفاء
وهم يأتون غالباً في ايام السبت ولهم في ذلك اساليب مختلفة . فرأيت بعضهم يضع الطفل

المريض تحت المحراب ويجلس مصلياً متضرعاً وآخر يأتي بقطعة من الليمون الحامض يمرح بها جدار المحراب او ما يقاربه ثم يلحسه بلسانه طلباً للشفاء . ورأيت آخرين تفعلون غير ذلك

وكان المنصور قلاون حسن الشكل ربع القامة دري اللون . وكان قليل الكلام بالعربية . وكان شجاعاً بطلاً مقداماً في الحرب مغرمًا بمشترى الممالك حتى قيل انه تكامل عنده اثنا عشر الف مملوك وقيل سبعة آلاف مملوك . ومما يدل على علو همته وحسن اعتقاده عمارة البيمارستان المذكور

وقد كان قلاون سبياً لاخراج السلطنة من نسله كما كان الملك الصالح الايوي باستكثاره من الممالك الشراكسة حتى جمع منهم نحواً من ١٢ الفاً جعل منهم بطانته وكان يلقب بعضهم بالالفي اي المبتاع بالف دينار وبعضهم بابي المعالي وغير ذلك وترى في شكل ٨٤ صورة نقود الملك المنصور قلاون مضروبة في حلب



ش ٨٤ : نقود الملك المنصور قلاون

سلطنة خليل بن قلاون ثم الملك القاهر بيدرا

من سنة ٦٨٩ - ٦٩٣ هـ او من ١٢٩٠ - ١٢٩٣ م

وتولى بعده على سلطنة مصر ابنه البكر صلاح الدين خليل ولقب بالملك الاشرف فاستوزر علم الدين سنجر وجرد للجهاد على الصليبيين فسار في سنة ٦٩٠ هـ حتى اتى عكا فحاصرها . وكانت الحصن الوحيد الذي بقي لهم فحصنوه تحصين اليأس لكنه لم يمتنع على جيوش المسلمين فهدموه ودخلوا المدينة وامعنوا فيها قتلاً ونهباً . وفي سنة ٦٩١ هـ عاد الى القاهرة واخرج سلامش منفياً الى القسطنطينية لانه كان سبياً للقلاقل . ثم سار الى ارمينيا وفتح ارضروم فذاع صيته حتى اذهب اعداءه فعاد الى القاهرة ليستريح من الاسفار فمأجأته المنية على فراشه . وسبب موته ان احدى نسائه تواطأت مع مملوك له يدعى بيدرا فقتلاه بنجر في جوفه في شهر محرم سنة ٦٩٣ هـ بعد ان حكم ثلاث سنوات وشهرين واربعة ايام . والى جهاز ركس الخليلي احد المنسوين اليه ينسب الخان المشهور بخان الخليلي في السكة الجديدة بالقاهرة . وكان في مكانه قبل

بنائه مدافن الخلفاء الفاطميين فبني على انقاضها . و اضاف الغوري الى بنائه في القسم العلوي كما يفهم ذلك مما هو مكتوب فوق مدخله . وفي الخان تباع الآن جميع انواع الاقشة السورية والهندية وما شاكل من طنافس ومطرزات واوان نحاسية وغيرها ومن آثاره البنائية قاعة الاشرفية التي بقلعة الجبل والمدرسة التي بالقرب من مزار السيدة نفيسة

وبويع بعده بيدرا واقب بالملك القاهر الا انه لم يحكم الا يوماً واحداً ثم قتله المماليك اخذوا بشار سلطانهم السابق . وبايعوا الملك الاشرف المدعو محمد بن قلاون وعمره ٩ سنوات واقب بالملك الناصر

سلطنة الملك الناصر بن قلاون (اولاً)

من سنة ٦٩٣ - ٦٩٤ هـ او من ١٢٩٣ - ١٢٩٤ م

وسلطنة هذا الملك اكثر اهمية من سلطنات سلفائه اكثر ما حصل فيها من التقلبات السياسية والثورات المتعددة . ونظراً لصغر سنه اقاموا له وصياً يدعى زين الدين كتبغا الملقب بالمنصوري لانه كان من مماليك الملك المنصور قلاون . فما استتب له الوصاية حتى تاقته نفسه الى السلطة وكان معه وزير آخر هو علم الدين سنجر وكانت تحذره نفسه بمثل ذلك ايضاً فاختلفا وتخاصما وانتهت المحاصمة بقتل سنجر . ولما خلا الجو لكتبغا ولم يعد من ينازعه عمد الى الملك الناصر نخلعه وتولى مكانه سلطاناً على مصر ونفاه الى الكرك ولم يحكم هذه المرة الا سنة واحدة

سلطنة الملك العادل كتبغا

من سنة ٦٩٤ - ٦٩٦ هـ او من ١٢٩٤ - ١٢٩٦ م

وفي شهر محرم سنة ٦٩٤ هـ بويع كتبغا واقب بالملك العادل وهو اللقب الذي لقب به قبله سلامش بن بيبرس الاول واستوزر نحر الدين وزير قلاون . ولما كان هذا الاختلاس داعياً لترك المصائب على مصر وتداخل الاجانب فيها فداهمها الطاعون ثم القحط فاهلك جزءاً كبيراً من اهلها ثم جاءت الحرب تمة لهذه الضربات وذلك ان قبيلة المغول التي كانت تحت قيادة بيدو بن طرغاي بن هولاكو

اصبحت بعد وفاته تحت قيادة الملك غازان محمود بن خربنده بن ايغاني فتخوفت منه طائفة من رجاله عرفوا باسم الاويراتية وفروا من بلاده الى نواحي بغداد . فنزلوا هناك مع كبيرهم طرغاي وجرت لهم خطوب آلت بهم الى اللحاق بالفرات فاقاموا بها هناك وبعثوا الى نائب حلب يستأذنه في قطع الفرات ليعبروا الى ممالك الشام فأذن لهم وعبروا الفرات الى مدينة بهنا فاكروهم نائبها وقام لهم بما ينبغي من العلوقة والضيافة فاتصل ذلك بالملك العادل زين الدين كتبغا فاستشار الامراء في ما يفعل بهم فاتفق الرأي على استقدام اكبرهم الى الديار المصرية وتفريق باقيهم في البلاد الساحلية وغيرها من بلاد الشام فجيء بثلاثمائة من اكبرهم الى القاهرة وفرق الباقيون بالبقاع العزيرية وببلاد الساحل . ولما قرب الجماعة الى القاهرة خرج الامراء بالعسكر الى لقاءهم واجتمع الناس من كل مكان حتى امتلأ الفضاء للفرجة عليهم . فكان لدخولهم يوم عظيم فساروا الى قلعة الجبل فانعم السلطان على مقدمهم طرغاي بامرة طبلخانة واجرى عليهم الرتب وانزلهم بالحسينية . وكانوا على غير الدين الاسلامي فشق ذلك على الناس وبلوا مع ذلك منهم بانواع البلاء لسوء اخلاقهم ونفرة نفوسهم وشدة جبروتهم وكان اذ ذاك في مصر والقاهرة غلاء عظيم فتضاعفت المضرة واشتد الامر على الناس . وقال في ذلك شمس الدين محمد بن دينار

ربنا اكشف عنا العذاب فانا قد تلفنا في الدولة المغلية

جاءنا المغل والغلا فانصلقنا وانطبخنا في الدولة المغلية

وفي اول رمضان سنة ٦٩٥ هـ لم يصم احد من الاويراتية فأعلن السلطان بذلك فابي ان يكرههم على الاسلام ومنع من معارضتهم ونهى ان يشوش عليهم احد . وكان مراده ان يجعلهم عوناً له فبالغ في اكرامهم فشق ذلك على امراء الدولة وخشوا ايقاعه بهم لان الاويراتية كانوا من موطني كتبغا وكانوا مع ذلك جميلي الصورة فاقتن بهم الامراء وتنافسوا فيهم وبالغوا في تقربهم حتى بعثوا الى البلاد الشامية استجلبوا طائفة كبيرة منهم فتكاثروا في القاهرة . واشتد التحاسد والتشاجر بسببهم بين أهل الدولة حتى آل الامر بسببهم وباسباب أخرى الى خلع السلطان الملك العادل كتبغا وذلك في صفر سنة ٦٩٦ هـ



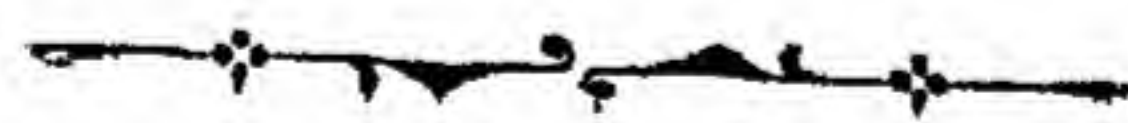
سلطنة الملك المنصور لاجين

من سنة ٦٩٦ - ٦٩٨ هـ أو من ١٢٩٦ - ١٣٩٩ م

وبويع حسام الدين لاجين المنصوري ولقب بالملك المنصور كما كان لقب سيده قلاون
فاذن لكتبغا ان يخرج الى صرخد في سوريا وقبض على طرغاي .مقدم الاويراتية
وعلى جماعة من اكابرهم وبعث بهم الى الاسكندرية فسيجنهم بها . ثم قتلهم وفرق
جميع الاويراتية على الامراء فاستخدموهم وجعلوهم من جندهم فصار اهل الحسينية
لذلك يوصفون بالحسن . وما برحوا ايضاً بوصفون بالزعارة والشجاعة وكان يقال لهم
البدورة فيقال البدر فلان والبدر فلان . وكانوا يعانون لباس الفتوة وحمل السلاح
ويؤثر عنهم حكايات كثيرة . وكانت الحسينية قد فاقت عمارتها على سائر اقطاط
مصر والقاهرة

اقطاعات القاهرة

وكانت ارض مصر ٢٤ قيراطاً يختص السلطان منها باربعة والاجناد بعشرة وكان
الامراء يأخذون كثيراً من اقطاعات الاجناد فلا يصل الى الاجناد منها شيء . وكان
يصير ذلك الاقطاع في دواوين الامراء ويحتمي بها قطاع الطريق وتشور بها الفتن
وتمنع منها الحقوق الديوانية وتصير طعمة لاعوان الامراء ومستخدميههم ومضرة على
اهل البلاد التي تجاورها . فعند ما تولى الملك المنصور لاجين راء البلاد ورد تلك
الاقطاعات على اربابها واخرجها باسرها من دواوين الامراء وجعل للامراء والاجناد
احد عشر قيراطاً وافرد تسعة قراريط ليعخدم بها العسكر او يقطعهم اياها . ثم رتب
اوراقاً بتكفية الامراء والاجناد بعشرة قراريط واقتصد قيراطاً لزيادة ما عساه يطلب
زيادة اقله متحصل اقطاعه . وافرد لبطانته عدة اعمال جليلة فتشكرت قلوب الامراء
وحقدوا عليه وما انفكوا حتى قتلوه في ١١ ربيع آخر سنة ٦٩٨ هـ فبقي كرسي
السلطنة خالياً ٤١ يوماً تمكن في خلالها الامير سيف الدين طقجي من دعوة الناس
الى حزبه فالتف عليه جماعة كبيرة فبايعوه ولقبوه بالملك القاهر كما لقب بيدرا قبله
وكان حظه من الملك كحظ سمية فلم يحكم الا يوماً واحداً ثم ذبحه المماليك



سلطنة الملك الناصر بن قلاون (ثانية)

من سنة ٦٩٨ — ٧٠٨ هـ او من ١٢٩٩ — ١٣٠٨ م

ففكر المماليك في انتخاب سلطان يحكم فيهم فاقروا على استقدام الملك الناصر بن قلاون من منفاه وقد بلغ الخامسة عشرة من العمر لبيايعوه . فبعثوا اليه وقدأ يبايعه ذلك القرار فقدموا اليه في الكرك . وكانت والدته عنده فلم تسمح بسفره معهم لئلا يكون تحت اقوالهم مقاصد خطيرة . فالحوا عليها وأكدوا لها صدقهم ثم جثوا امام الملك الناصر وبيايعوه فتأكدت اخلاصهم فازنت بمسيره معهم فساروا حتى اتوا القاهرة فحاول بعض دعاة لاجين الايقاع بحياة الملك الناصر لكنهم هددوا فبيايعوه

وكان غازان خان ملك التتر قد عاد ثانية الى افتتاح سوريا فجرد اليه الملك الناصر سنة ٧٠٠ هـ جيشاً جراراً واسرع حتى التقى به في حمص فتقهقر الناصر ثم جمع رجاله وامدهم بالعدة والرجال واستأنف الحرب . وكان التتر قد حسبوا ان الفوز تقرر لهم فوضعوا ايديهم على سوريا وضربوا عليها الضرائب واخذوا في ادارة احكامها . وبينما هم في ذلك وصل الملك الناصر بجيشه الى مرج الصفر بقرب دمشق فخرج اليهم التتر وانتشب القتال بين الفريقين فغلب المصريون في باديه الامر ثم ارتدوا على صفوف التتر كالسيل الهاطل بعزم اشد من الجبال ففرقوا جموعهم وأخذوا فيهم ضرباً بالسيف حتى تطهرت الشام منهم فعاد الملك الناصر الى القاهرة ظافراً ودخلها من باب النصر باحتفال عظيم

ولما لم يبق ما يشغله في سوريا عكف على اخضاع قبائل العربان الذين شقوا عصا الطاعة في مصر العليا فجرد اليهم فدانوا له واغتم منهم خمسة آلاف فرس ومائة الف رأس غنم وثلاثين الف من المواشي الكبيرة كالبحر والجواموس وعدداً وافراً من الاسلحة . فلما كانت سنة ٧٠٢ هـ داهمت الشرق زلزلة قوية اخرجت قسماً عظيماً من سوريا ومصر واخرجت المياه من الآبار الى سطح الارض وطافت الابحر على اليابسة فاغرقت خلقاً كثيراً . والظاهر ان هذا الحادث الطبيعي اثر في اخلاق المصريين فانقسموا احزاباً يضاد بعضها بعضاً ثم عادوا فاتحدوا على خلع الناصر فرأى انه لا يقوى على دفعهم وخاف على حياته فترك القاهرة مظهراً للحج وسار مع بطانته الى الكرك وكان له فيها ثروة تبلغ ٢٧ الف دينار ومليون وسبعمائة الف درهم فاستولى عليها

وحصن المدينة ثم بعث بالختم السلطاني الى المماليك مصرحاً بتنازله ومفوضاً لهم تولية من ارادوا

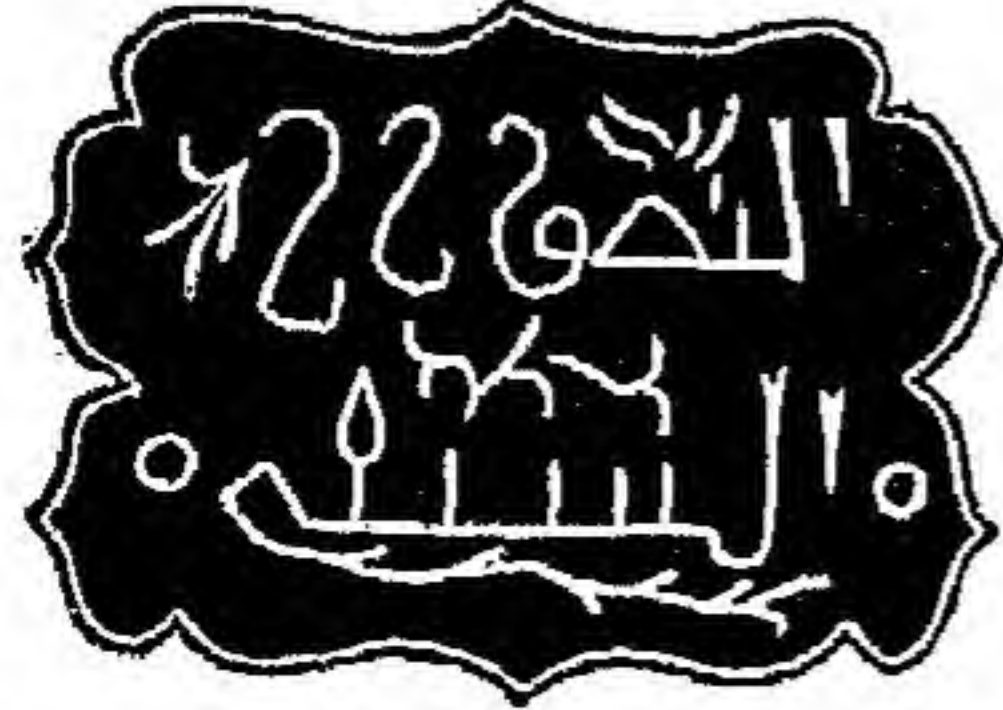
سلطنة بيبرس الجاشنكير

من سنة ٧٠٨ — ٧٠٩ هـ او من ١٣٠٨ — ١٣٠٩ م

فوصل كتابه اليهم في ٢٥ رمضان سنة ٧٠٨ هـ فبايعوا الامير ركن الدين بيبرس



الجاشنكير (بيبرس الثاني) ولقبوه بالملك المظفر وهو من ممالك الملك المنصور قلاوون ومما يؤكد ذلك أنهم وجدوا بين اسلحته سيفاً منقوشاً عليه اسمه مع لقب « المنصوري والسيفي » كما ترى في الشكل الخامس والثمانين



وفي اواخر هذه السنة قدم الصليبيون بموافقة صاحب قبرس لغزو دمياط بجزراً فاتفق الاسراء في القاهرة على انشاء

جسر يمتد من القاهرة الى دمياط خوفاً من قدوم الصليبيين ش ٨٥ : اسم بيبرس على سيفه بجزراً في ايام الفيضان فيتعذر الوصول الى دمياط فكتبوا بذلك الى العمال ان يخرجوا بالرجال والابقار لاتمام ذلك فاجتمع ستماية راس بقر و ٣٠ الف رجل وباشروا العمل واتموه في شهر واحد . فكان طوله من دمياط الى قايوب وعرضه اربع قصبات من اعلاه وست قصبات من اسفله تمشي عليه ستة رؤوس من الخيل صفّاً واحداً . ومن آثاره في القاهرة جامع المعروف بجامع جاشنكير في الجمالية مبني على مثال جامع السلطان حسن ولا يزال مسجداً الى هذه الغاية

ثم ندم الملك الناصر لاستقالته وتخليه عن مقاليد الاعمال لاحد مماليكه فجعل يترقب فرصة لتسليق العرش ثالثة . وفي شهر شعبان من سنة ٧٠٩ هـ برح الكرك مستخلفاً عليها ارغون احد مماليكه المقربين وجاء دمشق فبايعه امراؤها فيجند الى مصر ومعه رجال عديدون . وكان الامير برلك احد زعماء المماليك قد نبذ طاعة بيبرس ومعه كثيرون من نخبة رجاله فتشجع الناصر وقدم القاهرة . اما بيبرس فخاف ولم يرسيلاً لنجاته الا بالتنازل فاستقال واخذ معه مبلغاً مقداره ٣٠٠ الف دينار وكثيراً من

الجمال والخيول وخرج الى مصر العليا طامعاً في الاستيلاء عليها فلاقاه خارج القاهرة
سرب من الاسافل اوسعوه شتاً ورجماً فرشقهم بما كان معه من النقود وسار حتى جاء
اخميم فنزل فيها

سلطنة الملك الناصر بن قلاوون (ثالثة)

من سنة ٧٠٩ — ٧٤١ هـ او من ١٣٠٩ — ١٣٤١ م

وفي غد خروج يبرس من القاهرة دخلها الملك الناصر باحتفال عظيم وهي المرة
الثالثة لتوايه . وكان ذلك في يوم عيد رمضان فزاد العيد بهجة وبويع بالسلطة ولبس
خلعة السلطنة وهي جبة سوداء وعمامة سوداء بعذبة زركش وسيف بداوي . فجلس على
سبرير الملك وجميع الامراء من كبير وصغير قبلوا الارض بين يديه وهو جالس في الايوان
الاشرفي . ثم خلع على سائر الامراء والنواب الذين حضروا معه خلع الاستمرار . وخلع
على الخليفة المستكفي بالله سليمان والقضاة الاربع وارباب الدولة من اصحاب الوظائف
ثم تتبع الهاريين وقبض عليهم وجردهم مما اخذوه . وفي جملة الذين قتلهم الاميرسلار
النائب وضبط امواله سنة ٧١٠ هـ فكان في جملتها صناديق افرنجية مصفحة بنحاس
فيها فصوص ياقوت احمر بهرمان رطلان وفصوص بلخش رطلان ونصف وفصوص
زمرد بابي عشرون رطلاً وفصوص الماس وعين اهر ثلثماية قطعة ولؤلؤ كبير مدور
كل حبة وزن مثقال مائة وخمسون حبة . ووجد عنده صناديق فيها ذهب عين مائتا
الف دينار . ومن الفضة اربعمائة الف درهم وواحد وسبعون الف درهم . وفي يوم الاثنين
سابع عشره وجد له من الذهب العين خمسة وخمسون الف دينار ومن الفضة مليون
درهم ومن الفصوص المختلفة رطلان . ووجد له مصاغ من ذهب ما بين خلاخل
واساور وزن اربعة قناطير مصرية . ووجد عنده طاسات فضة واطباق واهوان ذهب
وطشوت فضة ستة قناطير . وفي يوم الثلاثاء ثامن عشر وجد له من الذهب العين
خمسة واربعون الف دينار ومن الفضة ثلثماية الف وثلاثون الف درهم ووجد
عنده طلعات فضة للمسناجق وقطريات فضة ثلاثة قناطير — وغير ذلك شيء كثير
ذكره ابن اباس في تاريخه مفصلاً مما يدهش لكثرة

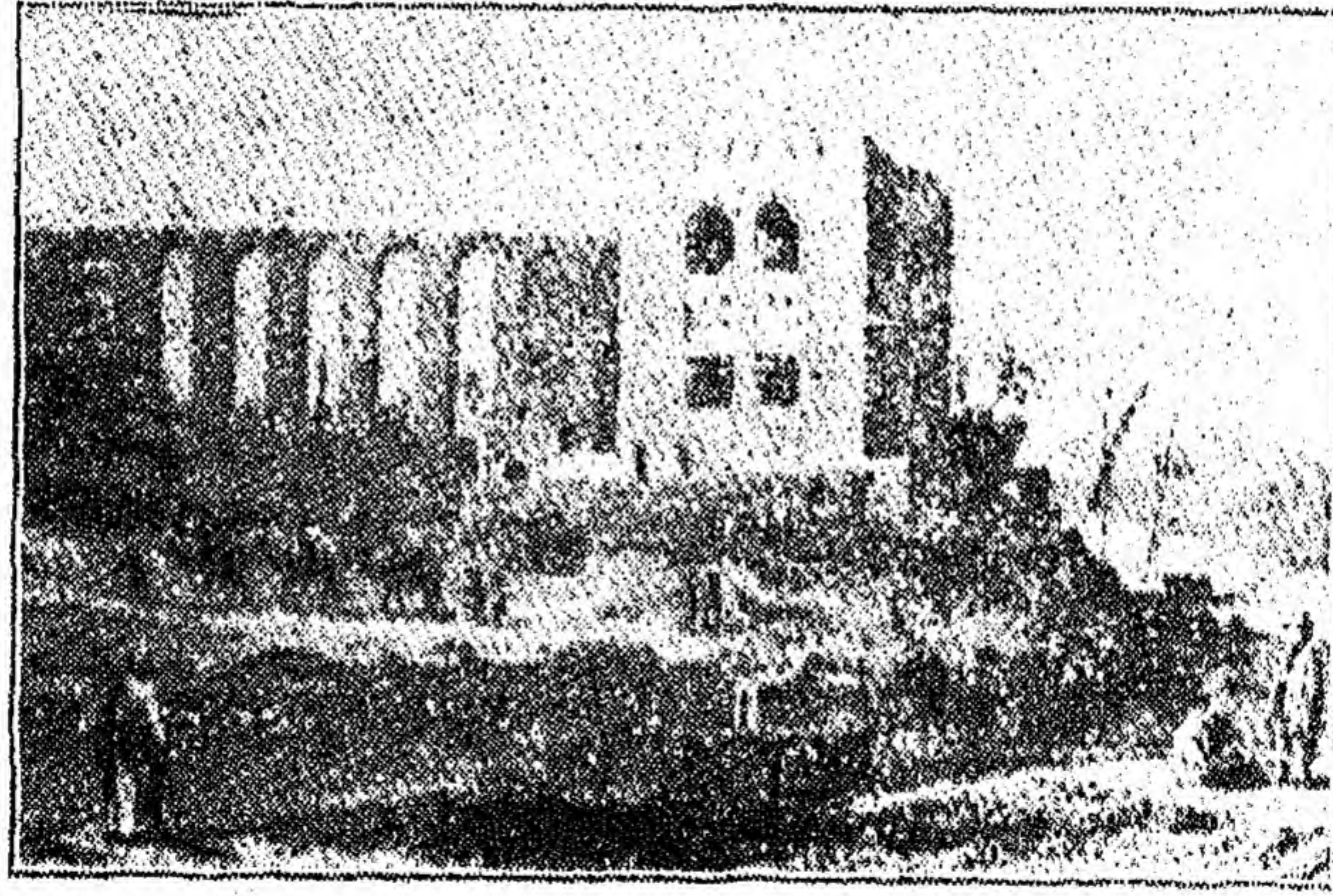
وكان سن الملك الناصر لما تولى للمرة الثالثة ٢٥ سنة صرف ١٦ منها في مقاساة الاهوال

حق عرف كيف تؤكل الكتف وكيف يجب ان ترسخ قدمه في الملك فكان ذلك بمثابة الامثلة له فكث على دست السلطنة هذه المرة حتى توفي اي مدة ٣٣ سنة وكان النصارى الى ايام هذا الملك يقيمون احتفالاً سنوياً في ٨ بشنس في ناحية شبرا من ضواحي القاهرة يسمونه احتفال عيد الشهيد زعماء منهم ان النيل لايفي الا اذا القوا فيه تابوتاً من خشب فيه اصبع من اصابع ابائهم المائتين . فكانوا يجتمعون من سائر القرى افواجا على اختلاف الدرجات والزرعات ويكثرون بسبب ذلك من الغناء وشرب المسكر . فكانوا ينفقون مبالغ فاحشة في هذا السبيل . وكان فلاحو شبرا يركنون في وفاء الخراج على ما يبيعونه من الحمر في ذلك العيد . فامر الملك الناصر بابطال هذه العادة . وابطل كثيراً من الضرائب الظلمة كزكاة الدولة وهو ما كان يؤخذ من الرجل عن زكاة ماله ابدأ ولو عدم منه واذا مات يؤخذ من ورثته . وابطل ما كان يجبي من اهل القاهرة وضواحيها اذا حضر بمبشر بفتح حصن او نحوه فانهم كانوا يأخذون من الناس كل واحد على قدر طاقته . وكان يجتمع من ذلك مال كثير . وابطل ما كان يجبي من اهل الذمة وهو دينار سوى الجالية برسم نفقة الاجناد في كل سنة وكانت العادة اذا كان وفاء النيل ان يجبوا من التجار والباعة ديناراً من كل واحد قياماً باحتفال كانوا يقيمونه عند المقياس يكثرون فيه من الشوى والحلوى والفاكهة فابطل الجباية وامر بصرف ذلك من بيت المال

اعماله

أما اعماله فاكثرها بناء وترميم فقد بنى في سنة ٧١٧ هـ جسراً بين بولاق وميت شيرج لحجز مياه النيل عند الفيضان وكانت الارض واطية ولم يكن فيها شيء من البناء فاذا ارتفع النيل جرى على مسافة قصيرة من المقس (تمن الازبكية) فلما بنى الجسر كف الماء الا يسيراً فتكوّن هناك جزيرة دعوها جزيرة بولاق فاقامت فيها المساكن ثم اتصلت بالبر الحقيقي فاصبحت جزءاً منه فاتخذوها مرسى للسفن الواردة الى مصر ولا تزال كذلك الى اليوم وهذا ما يعبر عنه الآن بتمن بولاق

ومن آثاره البنائية جامعته المسمى الجامع الجديد عند موردة الخلفاء . ويقال انه نقل حجارتها من صنم عند قصر الشمع اسمه السرية عمل منه قواعد للاعمدة الكبار وعمر القصر الابلق بالقلعة . وجر الماء الى قلعة القاهرة سنة ٧١٨ هـ في مجراة على قناطر مبنية بالحجر وركز للمياه آباراً وجعل عليها سواقي نقالة من عدة اماكن وهي الباقية الى الآن تعرف بالسبع سواقي عند فم الخليج وتمتد منها نحو القلعة قناطر



ش ٨٦ : مجراة الماء والسبع سقايات

تفصل بين القاهرة ومصر القديمة . وعمر الحوش الكبير في القلعة زرع فيه بستاناً نقل اليه الاشجار من الشام وغيرها . وبني قناطر عديدة في اماكن مختلفة والبركة الناصرية . وكان في القلعة ايوان يسمى الايوان الاشرفي فهدمه وبناء وعقد فوقه قبة عظيمة وكان يعمل فيه المواكب العظيمة والقصر الكبير عند البركة الناصرية . وعمل باب الكعبة من الخشب السنط الاحمر المصفتح بالفضة

وكانت مدة حكم الناصر هذه المرة كلها سكيئة وسلاماً خارجاً وداخلاً ولم يخرج من مصر كل هذه المدة الا مرتين لزيارة الحرمين ولم يتخبر مع دولة اخرى الا التتر وذلك بشأن تزوجه بابنة ازبك خان سنة ٧٢٠ هـ فكان معتكفاً بكليته الى ترقية شأن البلاد فاقام فيها ولا سيما في القاهرة مشروعات كلية الاهمية منها نزع الخليج المدعو باسمه (الخليج الناصري) سنة ٧٢٧ هـ وقد انشأ سنة ٧٢٨ هـ سبعة جسور وفي السنة التالية انشأ مرصداً في الميدان وشاد قصراً على انقاض قصر الاشرف فانهى منه في سنة ٧٣٤ هـ واقام جسور شيبين سنة ٧٣٥ هـ وابنى عدا عن الجامع الناصري المتقدم ذكره جامعاً آخر بجانب جامع ابيه في شارع النحاسين يشاهد فيه عند الدخول اليه اعمدة ملتفة يقال ان الملك الاشرف بن قلاون جاء بها من عكا تذكاراً للظفر . وهناك كتابة يقول فيها ان الذي بنى ذلك المشهد هو السلطان محمد بن الملك المنصور قلاون الصالحى سنة ٦٩٨ هـ والمقرىزي يقول ان بناءه تم سنة ٧٠٣ هـ وان الملك العادل كتبها هو الذي وضع اساسه ايام السلطنة . وشاد الناصر داراً كبيرة دطاها دار العدل وانشأ عيونا كثيرة ومدارس عالية متعددة

ومن أعماله الحميدة انه ابطل جميع الضرائب الظلمة التي كانت تؤخذ على ما يباع ويشترى من حيوانات ونبات وعقار فاحبته الرعية واجمعوا على طاعته . فاستتبّت الراحة وعمر الصعيد على وجه خاص . ولم يشب الراحة الا تنازع الوزراء على منصب الوزارة فالغاء حسماً للمشاكل

وفي سنة ٧٤٠ هـ توفي ابنه انوك فحزن عليه حزناً شديداً اورثه مرضاً رافقه حتى الموت فتوفي الناصر في ٢١ ذي الحجة سنة ٧٤١ هـ وعمره ٧٥ سنة ومدة حكمه ٤٤ سنة وبضعة اشهر عن ثمانية اولاد ذكور تناوبوا الملك بعده الواحد بعد الآخر الا ان تنصيبهم وخاعهم كانا منوطين باحزاب متضادة لا يستقرون على حال . فكانت مدات حكمهم قصيرة جداً

وتزايدت نفخامة ملك ابن قلاون في آخر حكمه وكثرت ممالكه حتى صار راتبه وراتب ممالكه كل يوم من اللحم الضاني ستة وثلاثين ألف رطل . وبالع في مشترى الممالك حتى قيل بلغت ممالكه اثني عشرة ألف مملوك . وهو اول من اتخذ الشاش والقماش للعسكر والاقبية المفتوحة واتخذ الطرز الذهب والحوائص الذهب والسيوف المسقطة بالذهب والاقبية القائم . ورتب المواكب في القصر ترتيباً حسناً . ورتب شرب السكر بعد السباط في القصر والامراء مجتمعون ورتب وقوف الامراء في المواكب على قدر منازلهم وكذلك ارباب الوظائف من المتعممين . وقد طالت ايامه في السلطنة بخلاف من تقدمه من الملوك وصفا له الوقت وصار اكثر الامراء والنواب ممالكه او ممالك والده قلاون ولا يعلم لاحد من الملوك آثار مثله ومثل ممالكه حتى قيل قد تزايدت في ايامه الديار المصرية والبلاد الشامية في العمار مقدار النصف

من جوامع وقناطر وجسور وغير ذلك من
العمار والانشاء

وترى في الشكل ٨٧ صورة نقود الملك
الناصر بن قلاون النحاسية



ش ٨٧: نقود الملك الناصر بن قلاون



سلطنة اولاد الناصر وهم ابو بكر وكجك واحمد واسماعيل

وشعبان وحاجي وحسن وصلاح الدين

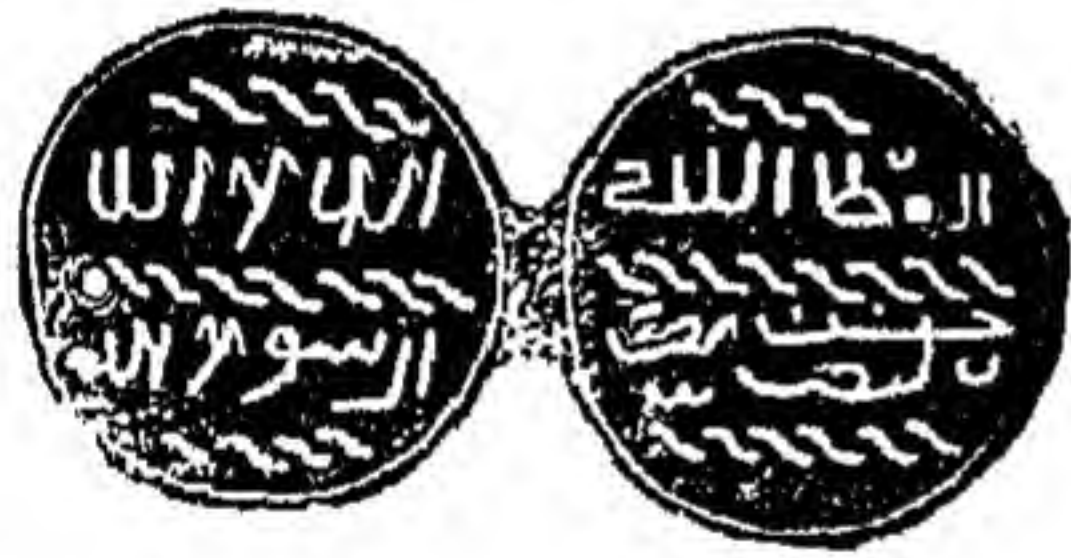
من سنة ٧٤١ - ٨٧٦٢ او من ١٣٤١ - ١٣٦٢ م

فاول من تولى بعد الملك الناصر ابنه البكر سيف الدين ابو بكر ولقب بالملك المنصور (الرابع) وبعد اربعين يوماً عزل ونفي الى قوص في مصر العليا وتوفي سنة ٧٤٢ هـ وفي يوم خلعه سطا المماليك على نساء ابيه واهانوهن ونهبوا متاعهن . فبويغ اخوه علاء الدين كجك وله من العمر ست سنوات فقط ولقب بالملك الاشرف وبعد خمسة اشهر اي في رمضان من تلك السنة خلع الاشرف وسجن في قلعة القاهرة فتوفي هناك . فبويغ اخوه شهاب الدين احمد وكان متغيباً في السكرك فاستقدم وبويغ ولقب بالملك الناصر (الثاني) وفي ١٢ محرم سنة ٧٤٣ هـ اعيد الى السكرك منفاه الاول . فبويغ اخوه عماد الدين اسماعيل ولقب بالملك الصالح وهذا بقي على كرسى السلطنة اكثر قليلاً من اخوته السابقين اي ثلاث سنوات وشهرين وبضعة ايام . واهم ما حصل في ايامه انه اعاد منصب الوزارة الى حكمه سنة ٧٤٤ هـ وكان قد الغاه ابوه كما رايت . وانه قتل اخاه شهاب الدين احمد سنة ٧٤٦ هـ وكان منفياً في السكرك ثم انتهت سلطته بموته في ٤ ربيع آخر سنة ٧٤٦ هـ . فبويغ اخوه الخامس زين الدين شعبان ولقب بالملك الكامل ولكنه لم يكن اسماً على مسمى فابغضته الرعية وهجاء الشعراء . ومكث حاكماً سنة وبضعة اشهر وفي جمادى الاولى سنة ٧٤٧ هـ عزل . فبويغ اخوه السادس زين الدين حاجي ولقب بالملك المظفر (الثالث) وكان اكثر استبداداً من سلفه فلم تطل مدة حكمه اكثر من سنة وثلاثة اشهر فذبح في ١٢ رمضان سنة ٧٤٨ هـ فبويغ اخوه السابع ناصر الدين حسن ولقب بالملك الناصر (الثالث) وقد كان من سيره في الملك ما كان لابييه فحكم ثلاث سنوات وعشرة اشهر بمساعدة نائبه الامير الطمش وخلع في غرة رجب سنة ٧٥٢ هـ وسجن في قلعة القاهرة . فبويغ اخوه الثامن صالح صلاح الدين ولقب بالملك الصالح وكان على وزارته الامير شيخو العمري والى هذا الامير ينسب الجامع المعروف بجامع شيخون او شيخو في الصليبة غربي الرملة ويقابله خانقاه . وبقي الصالح على دست السلطنة ثلاث سنوات وثلاثة اشهر و ١٤ يوماً وفي سنة ٧٥٤ هـ دهم القطر طاعون وانتشر حتى عمّ البلاد واختطف الامام

الحاكم بأمر الله (الثاني) وصي الخلافة فبويع عمه المعتضد بالله
وفي أوائل سنة ٧٥٥ هـ رفع المسلمون إلى الملك الصالح تقارير مفصلة بما للنصارى
من الاملاك الموقوفة للأديرة فاحيات هذه التقارير إلى ديوان الاحباس فوجد ان
للعنصارى اوقافاً تبلغ ٢٥ الف فدان من الطين كلها موقوفة للكنائس والاديرة . فعرضت
على الامير شيخو والامير صرغتمش والامير طاز وكانوا قائمين بتدبير الدولة فقرروا ان
ينعم بذلك على الامراء زيادة على اقطاعاتهم وهدموا للنصارى عدة كنائس . وفي اواخر
رجب من هذه السنة خرج الحاجب والامير علاء الدين علي بن السكوراني وكان
والياً على القاهرة إلى ناحية شبرا الخيام من ضواحي مصر فهدم كنيسة للنصارى واخذ
منها اصبع الشهيد في صندوق واحضره إلى الملك الصالح فاحرق بين يديه في الميدان
وذرى رماده في البحر حتى لا ياخذ النصارى فبطل عيد الشهيد من يومئذ . وكان
من المترشحين للوزارة وزيران قبطين مرتدان هما موفق الدين وعلم الدين فتنازعا عليها
والضم إلى كل منهما احزاب فانتهي الخصام بنحج الملك الصالح في ٢٢ شوال سنة ٧٥٥ هـ
وكان منشأ هذا النزاع دسيسة من اخيه الملك الناصر حسن باتفاق مع الامير تاج الدين
وكان الناصر مسجوناً ففاز بمراة وخلع اخاه فأخرج من السجن وبويع وبقي الملك
الناصر حسن على دست السلطنة هذه المرة ست سنوات وسبعة اشهر وبضعة ايام
يمساعدة الامير تاج الدين فولاه الوزارة مكافأة لمساعدته . وفي ٩ جمادى الاولى سنة ٧٦٢ هـ
قتل بمكيدة من كبار امراءه

ومن آثاره الباقية إلى هذا العهد جامع في الرملة مقابل قلعة الجبل في القاهرة
وهو المعروف بجامع السلطان حسن او بجامع الحسنية وهو من اجمل جوامع القاهرة
واتقنها اقضى لبنائه ٣ سنوات انفق عليه في خلالها مايساوي ستمائة جنيه كل يوم وقد
جاء بالحجارة الكبيرة من انقاض الاهرام ونقش عليه الكتابات السكوفية والعربية
فزادته رونقاً وجمالاً وقد اصبح الآن وعلى وجهه ملامح الشيخوخة لكنها لم تزده الا

عظمة ووقاراً



وترى في الشكل الثامن والثمانين صورة النقود
الذهبية للملك الناصر ناصر الدين حسن

ش ٨٨ : نقود الملك ناصر الدين حسن

سلطنة محمد بن حاجي

من ٧٦٢ - ٧٦٤ هـ او من ١٣٦٠ - ١٣٦٢ م

ولما قتل السلطان حسن بويق ابن اخيه محمد بن الملك المظفر حاجي وسنه ١٤ سنة
ولقب بالملك المنصور (الخامس) وفي منتصف شعبان سنة ٧٦٤ هـ اضطر الى التنازل
عن الملك لابن عمه شعبان بن حسن وسنه عشر سنوات فبويق ولقب بالملك الاشرف
(الثالث)



وترى في الشكل التاسع
والثمانين صورة النقود الذهبية للملك
المنصور محمد ضربت في القاهرة
سنة ٧٦٤ هـ

ش ٨٩: نقود الملك المنصور ضربت في القاهرة سنة ٧٦٤

سلطنة شعبان بن حسن

من سنة ٧٦٤ - ٧٧٨ هـ او من ١٣٦٢ - ١٣٧٦ م

وحكم الاشرف شعبان ١٤ سنة وشهرين وبضعة ايام معظمها سكينه وسلام وفي
السنة الثالثة من حكمه اصبحت مصر وسوريا بقحط ضيق على الناس حتى اكلوا
الكلاب والقطط واكل بعضهم اولاده من شدة الجوع . واستقر الامر كذلك في بعض
الاماكن ٣ سنوات والما كانت السنة الحادية عشرة من حكمه اصاب البلاد حروب اهلية
اشد وطأة من الجوع . وسببها ان يلبغا العمري احد امراء المماليك كان نائباً للملك . ففي
سنة ٧٧٦ هـ سطت عليه عصبة من مماليكه في قصره فقتلوه وساروا يريدون مثل ذلك
من السلطان نفسه فردهم بعد حرب هائلة قتل فيها زعيمهم فتشتتوا فولى على النيابة
الجاي اليوسفي وكان طماعاً فتقرب من السلطان حتى تزوج بوالدته فنال منها ثروة
عظيمة ففويت شوكته وكثر اشياعه فطمع بالسلطة فقتل زوجته المذكورة وتواطأ
مع قاتلي يلبغا على قتل السلطان فهاجموه فدفعهم ورئيسهم وقتل منهم جمعاً كبيراً وتبعهم
رجالهم حتى اغرقوهم في النيل . ولم يكذب طمعاً من هذا القبيل حتى اجتمع عليه اعداء

يريدون قتله فتربصوا ينتظرون فرصة حتى اذا كان عائداً من زيارة الحرمين كنوا له في مضيق العقبة فقتلوا من معه من الحاشية ولم يقفوا للسلطان على اثر فظنوه قتل فعادوا الى القاهرة وعهدوا الى الخليفة المتوكل بالله العباسي وكان قد تولى الخلافة بعد المعتضد بالله سنة ٧٦٣ هـ ان يبائع من يشاء فكتب اليهم « اختاروا من بينكم من تشاؤون وانا اصادق على بيعته » ثم علم الامراء ان الاشرف لا يزال حياً مخبئاً في القاهرة فقبضوا عليه وخنقوه في ١٥ ذي الحجة سنة ٧٧٨ هـ



وترى في الشكل التسعين نقود الملك الاشرف شعبان

ش ٩٠ : نقود الملك الاشرف شعبان

سلطنة علي بن شعبان

من سنة ٧٧٨ - ٧٨٣ هـ او من ١٣٧٦ - ١٣٨١ م

وبايعوا ابنه علاء الدين علي وسنه سبع سنوات فسر بذلك المنصب لصغر سنه ولم يعلم انه مدفن ابيه ولا يابث حتى يلحق به . فلقبوه بالملك المنصور (السادس) واقاموا له الامير لاين بك وصياً . ثم ابدل لاين بالامير قرطاي ثم ابدل هذا بالامير برقوق . وهو الذي اتى على ختام هذه الدولة وتأسيس دولة جديدة وكانت هذه مقاصده منذ ولي الوصاية لكنه بقي محافظاً على ولاء مولاه الى ان توفاه الله في شهر ربيع اول سنة ٧٨٣ هـ وكانت مدة حكمه اربع سنوات واربعة اشهر

سلطنة حاجي بن شعبان

من سنة ٧٨٣ - ٧٨٤ هـ او من ١٣٨١ - ١٣٨٢ م

فبويغ اخوه زين الدين حاجي وسنه ست سنوات ولقب بالملك الصالح ولم تمض على مبايعته سنة ونصف حتى مل برقوق من اخفاء مقاصده فخلعه ونفاه في ١٩ رمضان سنة ٧٨٤ هـ واستام مقاليد الملك . وكان الملك المنصور هذا آخر من حكم من دولة المماليك الاولى المسماة بالبحرية او التركمانية فانقرضت دولتهم بعد ان حكمت نحواً من مائة وست وثلاثين سنة اولها امرأة وآخرها صبي وقامت دولة المماليك الثانية او الشراكسة

دولة المماليك الثانية

من سنة ٧٨٤ - ٩٢٣ هـ ا.د من ١٣٨٢ - ١٥١٧ م

منشأ المماليك الشراكسة

دعيت هذه الدولة بدولة المماليك الشراكسة نسبة الى منشأ سلاطينها فانهم من الشعب الشركسي ويدعى ايضا كركس أو جر كس أو كرغز. وهم لم ينشأوا في اسيا العليا انما جاؤا اليها من سيبيريا ونواحي بحيرة بيغال منذ القرن السادس للميلاد . ثم هاجروا الى غربي بحر قزوين يحملون من بلادهم للتجار بهم في جهات العالم فاقتنى منهم سلطان المماليك البحرية الاخير عدداً وافراً فضلاً عن المماليك البحرية اقتداء بأسلافه . وكانوا يستخدمونهم في مصالح الدولة فارتقوا فيها تبعاً لما خصتهم به الطبيعة من الجمال والذكاء حتى صارت اليهم حماية الحصون والقلاع فجعلوا سكناهم في الابراج فلبسوا بالبرجية . وما زالوا يزدادون عدداً وقوة ومنعة حتى تآقت نفوسهم الى تسليق كرسي الملك يجعلونه ارثاً لنسلهم . وقد رأينا انهم تمكنوا مما ارادوا فخلعوا حاجي ابن شعبان وبايعوا برقوق

أما برقوق فهو ابن مرتد شركسي اسمه انس من قبيلة كسا استملك في شركاسيا وقيد الى القرم فاشتراه رجل مسلم يقال له عثمان وجاء به الى مصر سنة ٧٦٢ هـ وباعه للامير يلغا فجعله في عداد مماليكه الا ان نباهة برقوق وجماله ومهابته استلفتت انتباه سيده فبالغ في ترقيته حتى ادخله في بطانته ولقبه بالشيخ اشارة الى براعته بالفقه وسائر العلوم الاسلامية وجعله في مصاف الامراء وكان يلقب بالعثماني واليلغاوي . وما زال في خدمته الى ان قضى الله على يلغا بما قضى وتشتت مماليكه فبقي برقوق وامير آخر يقال له بركة لانهما كانا في السجن ثم اطلقا فدخلوا في خدمة منجك صاحب دمشق . ثم عادا الى مصر بطاب الملك الاشرف شعبان فتمكن برقوق بوسائط مختلفة من الحصول على رتبة باش امير ياخور وقيادة الف رجل فاصبح من الذين يطمعون في نيابة الملك فتولواها ولقب باتابك الجيوش . وتولى رفيقه بركة رئاسة الاعمال (المديريات) وما زالت الحال كذلك حتى خلع الملك الصالح حاجي . فتمكن برقوق بمساعدة احزابه ان يتسلق كرسي الملك في ١٩ رمضان سنة ٧٨٤ هـ كما رايت

سلطنة الملك الظاهر برقوق

من سنة ٧٨٤ — ٨٠١ هـ او من ١٣٨٢ — ١٣٩٨ م

فاقر الخليفة المتوكل على الله على تولية برقوق وبايعه جميع القضاة والمشايخ والعلماء والامراء ولقبوه بالملك الظاهر وهو لقب اعظم من حكم مصر من دولة المماليك الاولى نعني به ركن الدين بيبرس البندقداري . واول شيء خالف فيه اسلافه انه ابطل حمل القبة والطير على رأس السلطان عند توليه وابطل ما كان يعمل في يوم النيروز اول السنة القبطية . ومما كان يعمل في ذلك اليوم بالديار المصرية انه كان يجتمع السواد الاعظم من الناس الاسافل فيقفون على ابواب الاكابر من اعيان الدولة فيكتب امير النيروز وصولاً بالجملة الثقال وكل من امتنع عن الاعطاء من الاكابر سبوه سباً قبيحاً ولا يزالون قائمين على بابه حتى يأخذوا منه ما يقرؤون عليه من الدراهم بحسب ما يقرره عليه امير النيروز . فيأخذون منه ذلك غصباً ويمضون . وكان ذلك السواد الاعظم العياق يقفون في الطرق ويتراشون بالماء المتنجس ويتراجون بالبعض النجس في وجوههم ويتصافعون بالانطاع والاختفاف ويقطعون الطريق حتى يمتنع الناس من الخروج الى الاسواق وتغلق في ذلك اليوم ايضاً اسواق القاهرة ودكاكينها وكل من ظفروا به في الطرق سبوه

وكان تيمورلنك القائد التتري الشهير اذ ذاك قد ملأ الارض بافتتاحاته حتى سمع دويها في سوريا اذ جاء يهدد حدودها فنهض اليه برقوق في جيش عظيم فاوقفه عند حده لكنه لم يكف يتخلص منه حتى ظهر له عدو في بيته نعني به الخليفة المتوكل على الله فانه دعا الى خلع برقوق فالتف حوله دعاة عديدون فاجتمع برقوق بالمشايخ والائمة والعلماء واجمع معهم على خلع الخليفة نخلعه وحبسه في القلعة سنة ٧٨٧ هـ ونصب عمراً اخا ابراهيم ولقبه بالوائق بالله . ثم توفي الوائق في ١٩ شوال سنة ٧٨٨ هـ فنصب ابا يحيى زكريا عمر بن الخليفة المستنصر بالله . وهذا لم يلبث طويلاً لانه اساء السلطان برقوق نخلعه في جمادى الاولى سنة ٧٩١ هـ واعاد المتوكل على الله لكنه ندم بعد ذلك لما رأى من سعيه في خلعه فحاول تنزيله ثانية فلم يستطع لان المتوكل كان قد تواطأ مع احد الامراء المسمي منطاش على خلعه ووافقها سائر الامراء ورجال الدولة نخلعوه بعد ان حكم ست سنوات وسبعة اشهر وبضعة ايام وارسلوه منفيين الى قلعة الكرك منفي السلاطين في تلك الايام واستقعدوا السلطان حاجي آخر سلاطين دولة المماليك



ش ٩١ : تيمورلنك القائم التتري

البحرية وهو الذي خاعه برقوق . فبايعوه في ٦ جمادى الآخرة سنة ٧٩١ هـ . وكان يلقب بالملك الصالح فابدله بالملك المنصور لكنه لم يهنأ بهذه التولية الثانية لان المتوكل ومنطاش بعد ان سعي في توليته ندما فازلاه واعادا برقوق في ٤ صفر سنة ٧٩٢ هـ فتعلم برقوق هذه المرة كيف يستبقي الملك في يده فبادر حالاً الى المنصور حاجي واماته وقتل كل من كان على دعوته منعاً لدسائسهم . ثم عمد الى الخارجية فوطد الامن في انحاءها ولم يكن يشق بمقاصد اعوان الخلفاء فدخل في احزابهم يتحد تارة مع هؤلاء وطوراً مع هؤلاء ليدوم الشقاق بينهم فلا يتفقوا على خلعه

وفي سنة ٧٩٤ هـ اهداه قرا يوسف امير فارس مدينة تبريز فبعث اليه برقوق خلعة وفوض اليه ان يفتح ما استطاع من المدن على ان يكون والياً عليها . لكنه ما لبث ان جاء القاهرة في السنة التالية مع احد محالفيه احمد بن اويس فارين من وجه تيمورلنك وكانا قد التجأ الى منويل امبراطور القسطنطينية فلم يؤمنهما لانه كان في ريب من امره مع دولة اخرى قارب صبيحها الانفجار - وهي الدولة العثمانية نسبة الى عثمان الغازي اول سلاطينها . وجرى ذلك في عهد بيازيد بن مراد رابع سلاطين هذه الاسرة النافرة . وكان قد غزا معظم ايلات المملكة الرومانية الشرقية (مملكة الروم)

واعظمها حتى هدد القسطنطينية فجاءه التتر من ورائه بقيادة تيمورلنك فاوقفوه عن مقصده واصبحت قارة اسيا بين مناظرين عظيمين يتنازعانها وكل منهما ذو بأس شديد وهما تيمورلنك التتري وبيازيد التركي فتلاطمت الزوبعتان فارتعدت لهما افريقيا واضطربت مصر من دويهما

وطمحت انظار هذين الفاتحين الى مصر فبعث كل منهما وفداً الى القاهرة فطلب وفد بيازيد الى برقوق ان يعاهده على السلم والى الخليفة المقيم في القاهرة ان يقرب بيازيد رسمياً على سلطنة الاناطول فاجابهم الى ما طلبوه . اما وفد تيمورلنك فاتخذوا خطة اخرى لانهم استعملوا الخشونة والفظاظة في اقوالهم ومطالبهم فطلبوا اليه ان يسلم لهم قرا يوسف واحمد بن اويس اللذين قد التجأ اليه . فطيب برقوق خاطرهم واخذهم بالماليسة فازدادوا فجوراً فأمر بقتلهم . فشق ذلك على تيمورلنك فساق جيشه وقدم للانتقام فر بالرها فافتتحها وقتل من فيها ثم جاء حلب فانكى فيها . ثم توقف عن مسيره لغرض في نفسه ليسهل عليه افتتاح مصر . فلم يغفل برقوق عن ذلك فاكثر من الجند والسلاح وتأهب للدفاع أو الهجوم لكنه لم يكد يتم هذه التأهبات حتى ادركته الوفاة بداء الصرع في يوم الجمعة ١٥ شوال سنة ٨٠١ هـ وعمره ستون سنة فاسف عليه الناس اسفاً شديداً لما كان من عدله ويقظته ورفقه برعيته

اعماله

ومن ادلة ذلك انه خفف ضرائب الجبوب وابطل الضرائب التي كانت تؤخذ على الاثمار والفواكه الواردة عن طريق بولاق . وكان كثير التصديق على الفقراء محبباً للعلم والعماء فبنى مدرسة دعاها المدرسة الظاهرية نسبة اليه . وابتنى جامعاً لا يزال معروفاً باسم جامع السلطان برقوق بجانب جامع الملك الناصر في شارع النحاسين . وكان له ولع خاص في اقتناء الاسلحة والخيول الجياد والاستكثار من الممالك الشراكية فنظم منهم فرقة يركن اليها عند الحاجة . وقد رتب مراتب الدولة في ايامه على هذه الصورة :

١ اتابك العساكر

٢ رأس نوبة الامراء

٣ امير السلاح

٤ امير المجلس

٥ امير الياخور

٦ دوا دار

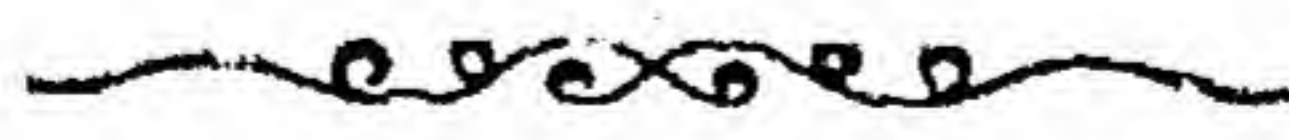
٧ رأس النوبة الثاني

٨ حاجب الحجاب

٩ النائب

وكانت مقاليد الحل والعقد بيد هؤلاء التسعة فاذا اجمعوا على امر انفذوه ولا مرد لقضائهم

ومما انشأه في ايامه من العماثر جسر الشريعة بالغورية وجدد بناء خزائن السلاح بشعر الاسكندرية وجدد عمارة زريبة البرزخ بشعر دمياط بعد ان ظهر منها عظام الشهداء وبني سوراً على مدينة دمنهور وعمر قنطرة العروب بالقدس وجدد عمارة الجحرة التي تجر الماء من بحر النيل الى قلعة الجبل



سلطنة فرج بن برقوق (اولاً)

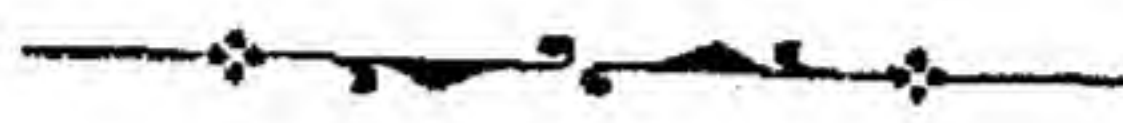
من سنة ٨٠١ — ٨٠٨ هـ او من ١٣٩٨ — ١٤٠٥ م

فلما توفي السلطان برقوق بايعوا بكر ابنائه فرج زين الدين الملقب بابي السعادات وسنه ست وعشرون سنة واقبوه بالملك الناصر . وفي اول حكمه ثار الاتابك ايتش وتم الفرساني حاكم سوريا فتواطأ هذا الاخير مع يابغا السالمي حاكم حلب فاستولى على مضايق فلسطين على نية الاستيلاء على سائر مدنها . الا ان حدسه لم يتحقق فأخذت منه المضايق وضويق عليه حتى قيد اسيراً وقتل هو وكل دعاته . ولم تكد تنجو مصر من هذه النازلة حتى داهمتها نازلة اشد وطأة واصعب مراساً . فان تيمورلنك بعد ان اتم حروبه في الهند وبغداد وسيواس وملاطية سنة ٨٠٣ هـ امعن في سوريا فاستولى على حلب وحصص بعد حروب شديدة . وفر فرج الى مصر فجمع اليه رجاله وتأهب للدفاع فبلغه ان عدوه شغل عنه بمحاربة بيازيد في الاناطول فسكن روعه ثم جاءته الأنباء بفوز تيمور وانكسار بيازيد واسره سنة ٨٠٤ هـ في وقعة انقرة فخارت قواه ويئس من الفرج . فبعث اليه تيمورلنك فيلاً هندياً وطلب اليه ان يبايعه ويبعث اليه باحد وقرا يوسف حالاً . فلم يسع فرج الا الاذعان لقضاء الله . فاجابه الى طلبه صاغراً واهداً زرافة حبشية وبايعه واعترف بسيادة التتر على مصر وانه قائم باحكامها بالنيابة عنهم . اما احمد وقرا يوسف فقال انهما احتميا به وحقوق الضيافة تمنعه من تسليمهما

فيكون هو الجاني عليهما لكنه وعد ان يسجنهما عنده فاستقرت سيادة تيمور على مصر وفي سنة ٨٠٦ هـ شرقت مصر بقصور النيل فدهى اهل الصعيد من ذلك بما لا يوصف حتى انه مات في مدينة قوص وحدها ١٧ الف انسان ومات في مدينة اسيوط ١١ الفاً ونحو ذلك في مدن اخرى . وفي ١٧ شعبان من السنة التالية ادرك تيمور القضاء المبرم في اوترار وتخاصم ابناؤه على الملك فتخلصت مصر من سلطة التتر وذهب الحذر عن احمد وقرأ يوسف فافرج عنهما فسارا الى بلادهما

ثم اخذ فرج بالتأهب لاسترجاع سوريا بنفسه فلم يكد يتم الاستعداد حتى ضيق عليه في قصره . لان المصريين لما راوا اذعانه لتيمور وتسليمه بسيادته حسبوا ذلك خيانة وضعفاً وايقنوا انه لا يصلح لادارة الاعمال فاقروا على خلعه وتولية اخيه عز الدين عبد العزيز وكان اعظم في عيونهم منه . فاجتمعوا تحت لوائه وساروا لمحاصرة اخيه في قصره في ١٦ ربيع اول سنة ٨٠٨ هـ وما زالوا يهددونه حتى تنازل حفظاً لحياته وقد حكم ست سنوات وخمسة اشهر و ١١ يوماً

وكانت ايامه كثيرة الفتن والشرو وفقد طرق الشام فيها تيمور لنك كما رايت فاخر بها واحرقها وعمها بالقتل والنهب والاسر حتى فقد منها جميع انواع الحيوانات وتفرق اهلها في جميع اقطار الارض ثم دهمها بعد رحيله عنها جراد لم يترك بها خضراء فاشتد بها الغلاء على من تراجع اليها من اهلها وشنع موتهم واستمرت بها مع ذلك الفتن وقصر مد النيل بمصر حتى شرقت الارض اقليلاً وعظم الغلاء والفناء فباع اهل الصعيد اولادهم من الجوع وصاروا ارقاء مملوكين وشمل الخراب الشنيع عامة ارض مصر وبلاد الشام من مصب النيل عند الجنادل الى حيث مجرى الفرات



سلطنة عبد العزيز بن برقوق

من سنة ٨٠٨ ٨٠٩ هـ او من ١٤٠٥ - ١٤٠٥ م

ثم خرج من قصره واختفى في مكان غير معلوم فظن الناس انه قتل من الضوضاء والازدحام فباعوا اخاه واقبوه بالملك المنصور . ولم يمض شهران على توليته حتى تحققوا خيبة ظنهم به فلوا من طاعته ومالوا بكليتهم الى سافه فاتصل ذلك بفرج فخرج من خبائه فتقدم اليه الناس ورجال الدولة ان يعود الى منصبه فعاد في جمادي الاخرة ونفى

اخاه عز الدين الى الاسكندرية فعاش فيها اشهرأ قليلة وتوفي في ٧ ربيع آخر
سنة ٨٠٩ هـ

سلطنة فرج بن برقوق (ثانية)

من سنة ٨٠٩ - ٨١٥ هـ او من ١٤٠٥ - ١٤١٢ م

فلما عاد فرج الى منصبه وجه انتباهه خصوصاً الى استرجاع ثقة الاهلين فيه
فغزى دمشق وافتتحها ثم فتح غيرها من مدن سوريا واهتم براحة الرعية ونخم الامن
وسكنت القلوب . فاذا كانت سنة ٨١٣ هـ ظهرت في القاهرة ثورة دينية ذهبت بحياته .
وذلك ان احد امراء المماليك المدعو ابا نصر الملقب بالشيخ الحمودي الظاهري نسبة
الى سيده الامير محمود احد امراء الملك الظاهر برقوق . وكان الملك الظاهر قد اعتقه
ووعده بالمنصب الحربية فطمحت ابصاره الى السلطنة فاستخدم هذه الغاية الخليفة
المستعين بالله وكان قد ولي الخلافة بعد الخليفة المتوكل على الله منذ خمس سنوات . وكان
الخلفاء العباسيون منذ استئصال شوكتهم من بغداد وانتقلهم الى القاهرة لا يخرجون
في اعتبار الاهالي عن حد السلطة الدينية وكانوا يلقبونهم بالائمة . فاسر الشيخ
الحمودي الى المستعين انه يقدر ان يعيد السلطة السياسية كما كانت لاسلافه وقال له « ان
الناس ميالون الى ذلك بكليتهم وهم مستعدون لمبايعتك وتنفيذ اوامركم » . فتنبه في قلب
الخليفة حب السيادة فوافق الشيخ الحموي . وكان فرج اذ ذاك في دمشق فاتفقا على
استقدامه فاتفقا اليه اولا ان يتنازل عن الملك فاجاب ان لا جواب عنده غير السيف
واخذ في اعداد مهمات الحرب ومثل ذلك فعل الخليفة والشيخ الحمودي وتقدم
الجيشان لكنهما لم يتلاحما حتى اصدر امراً بتوقيعه فجاء بما لا يحجب به السيف ونصه
« من الامام ابي الفضل المستعين بالله امير المؤمنين الى اهل مصر . اعلما اننا قد
خلعنا فرج بن برقوق عن سلطنة مصر والشام لان سيدهما الحقيقي انما هو الخليفة
خليفة الرسول (صلعم) فويل لمن خالفه »

فلما دار ذلك بين الجيوش اعرضوا عن فرج ولم يبق له نصير فحاول الفرار فلم
ينجح فقبض عليه وقيد الى الخليفة فانتحل له ذنباً يستوجب عليه المحاكمة — وهوانه كان
قد اضطر لكثرة ما انفق في محاربة التتر ان يضرب ضرائب فوق العادة فرفعت عليه

عرأض التشكي الى مجلس الائمة والفقهاء انه اختلس الاموال وخرب البلاد وانه تمرد على الخليفة ظل الله على الارض فاتخذ الخليفة ذلك ذريعة للحكم على فرج بالاعدام فقتلوه في ٢٥ محرم سنة ٨١٥ هـ خارج اسوار دمشق وتركوا جثته ملقاة على دمنة هناك

سلطنة الامام المستعين بالله

من سنة ٨١٥ — ٨١٥ هـ او من ١٤١٢ — ١٤١٢ م

فاجتمعت السلطتان الروحية والسياسية للمستعين بالله فبايعه الامراء وقواد الجند ولقبوه بالملك العادل فاستلم مقاليد الاحكام وجعل الشيخ المحمودي اتابك العساكر ومدبر المملكة . واخذ في اصلاح الاحوال ووجه انتباهه الى ما يكتسب قلوب الرعية فاعاد الامن الى البلاد بمقاصدة المعتدين واطهر لياقته لما عهد اليه فشرع في تنظيم الاحكام والصف المظلومين وبذل العطاء فاجبه الناس . اما الشيخ المحمودي فانه قام بهذه الثورة خدمة لاغراضه وليس للخليفة فرأى انه اصبح آلة بيده فاضمر له شرًا ونوى على خلعه لكنه استخدم الحزم والتأني واغتنام الفرص خوفًا من الوقوع في شر اعماله فعمل على توطيد العلاقات الودية بينه وبين امراء المماليك والتقرب منهم واقناعهم تحت طي البساطة والاخلاص ان في هذا الخليفة شيئًا من ضعف الراي والحمول فضلاً عن كونه غريباً عنهم . فاستمال قلوبهم واشتد ازره بهم فاخذ يشكو من منصبه فولاه الخليفة نيابة الملك في ٨ ربيع اول من تلك السنة فصار اقدر على تنفيذ ما ربه وما زال ساعياً الى مطمح انظاره حتى كثرت احزابه واصبحت ازمة البلاد في يده فاجبر الخليفة على مشاركته في السلطة فاجاب ولقبه بالملك المؤيد ثم خطا خطوة اخرى نخلع الخليفة وحبسه في بعض غرف القصر

سلطنة الشيخ المحمودي

من سنة ٨١٥ — ٨٢٤ هـ او من ١٤١٢ — ١٤٢١ م

فلم يستطع المستعين بالله مقاومة لكنه كتب سرًا الى نوروز احد اصدقائه القدماء وكان قد ولاه سوريا يستنجد به فقدم نوروز مسرعاً الى القاهرة في جيش فرأى انه

يقصر عن مناوأة الحمودي فاعزأ الى الخليفة ان يستخدم الوسائط الدينية كما فعل المرة الماضية . وكان الشيخ الحمودي في دمشق فاصدر منشوراً بخلعه فانغم المشائخ والامراء فرصة غيابه وجأهروا بخلعه . وبلغ ذلك الشيخ الحمودي فاسرع الى القاهرة نخافه المشائخ والعلماء وانكروا خلعه وقالوا ان الخليفة اولى بذلك الخلع والحوا على معاقبته لانه تمرد على سلطانهم فخلعوه من السلطنة والخلافة وسيجنوه ثم نفوه الى الاسكندرية سنة ٨١٨ هـ واقاموا اخاه داود خليفة مكانه ولقبوه بالامام المعتضد بالله . فعاد الشيخ الحمودي الى كرسي السلطنة واخذ يسمى في اكتساب ثقة الاهلين فاتبع خطة الخليفة المستعين فانصف ورفق فأمنت الرعية وسعدت البلاد . وما زالت الحال كذلك ثماني سنوات وخمسة اشهر وفي ٩ محرم سنة ٨٢٤ هـ توفي السلطان الشيخ الحمودي . وكان محبا للعلماء يكرم مثواهم . وله بنايات جميلة من جملة الجوامع المسمى جامع المؤيد بالقرب من باب زويلة وقد جدد بناؤه وهو كثير النقوش ولم يبق من البناء القديم الا ليوان القبلة . وبعد وفاته طادت الامور الى مجراها الاول من القلاقل فتولى السلطنة بعده ثلاثة سلاطين لم يحكموا الا مدة قصيرة

سلطنة احمد بن الحمودي ثم سيف الدين ططر ثم محمد بن ططر

من سنة ٨٢٤ - ٨٢٥ هـ او من ١٤٢١ - ١٤٢٢ م

اولهم ولده شهاب الدين احمد الملقب بالملك المظفر وفي شوال من تلك السنة تخلى عن الملك لوصيه وحميه سيف الدين ططر الملقب بالملك الظاهر وهذا توفي في ذي الحجة من السنة المذكورة فبوع ابنه ناصر الدين محمد ولقب بالملك الصالح وبعد اربعة اشهر خلعه وصيه سيف الدين برس باي فقضى باقي حياته في الشقاء

سلطنة الملك الأشرف برس باي

من سنة ٨٢٥ - ٨٤١ هـ او من ١٤٢٢ - ١٤٣٧ م

وبعد خلعه اختلفت الامراء في من يخلفه فتنحى برس باي حتى اهلك الاحزاب بعضها بعضاً فالتقم السلطنة غنيمة باردة . فبوع في ٨ ربيع آخر سنة ٨٢٥ هـ ولقب

بالمملك الاشرف وقد كان برس باي مملوكاً احبه سيده المملك الظاهر ططر فاعتقه وورقه
حق جعله وصياً على ابنه . وفي اول حكمه فاض النيل حق غمر الارض بالخيرات
فكثرت الحبوب وشبع الفقراء . وكان برس باي كاشيخ المحمودي حكمة ورفقاً وقد
رهم عدة مدن وشاد في القاهرة عدة بنايت منها الجامع المعروف بجامع الاشرفية تجاه
سوق العطارين ابتداء في بنائه سنة ٨٢٦ هـ . وقد تمكن برس باي لحسن سياسته وحزمه
من استبقاء السلطة بيده مدة طويلة والبلاد في سكون الا في سنة ٨٢٧ هـ اذ ثار الامير
بنيق النجاشي نائبه في دمشق . غير ان تلك الثورة ما لبثت ان ظهرت حتى اضمحلت
وعوقب الثائرون بمساعدة امير زنخي يقال له عبد الرحمن فولاه برس باي على سوريا
بدلاً من النجاشي وكانت هذه الثورة اول القلاقل وآخرها في ايامه

اما محارباته مع الدول الاخرى فجديرة بالاعتبار لانه جرد على الافرنج عدة
تجريدات وتغلب عليهم فاضع جزيرة قبرص وحمل المملك جان لوسينيان الثالث على
الاعتراف بسلطانه واداء الجزية . وعقد مع ملوك الصليبيين وسلطان آل عثمان اذ ذاك
مراد بن محمد معاهدات سلمية تدل على عظيم شوكته . فكانت مصر في ايامه سعيدة
داخلاً وخارجاً وقال بعض المؤرخين ان المملك الاشرف برس باي اجدر الملوك
الشراكة بالمدح لانه كان اعلام همه واشدهم عزيمة واكثرهم تدرباً في الاحكام .
ومما يمدح عليه انه ابدل جميع التذلات التي كانت تقدم للملوك قبله بتقيل اليد فقط .
لكنه اصاب في اواخر ايامه بمرض في عقله كما اصاب الحاكم بامر الله فاصدر اوامر
غريبة منها انه امر بنفي الكلاب الى بر الجزيرة . فصار كل من امسك كلباً يأخذ نصف
فضة من صير في باب السلسلة فامسك العياق من الكلاب نحو الف كلب فنقوها الى
بر الجزيرة . ثم انه امر بان لا تخرج امرأة من بيتها الا باذن من الحكومة فكانت
الفاصلة اذا ارادت التوجه الى ميتة تأخذ ورقة من المحتسب تجعلها في راسها وتمشي
في السوق . ثم انه نادى في القاهرة بان لا يلبس الفلاحون زمطاً مطلقاً فامتل الناس
امره . ثم انه رسم بتوسيط الحكماء فوسط الرئيس خضر . ووسط الرئيس شمس
الدين بن العفيف واستمر على امثال ذلك الى ان مات بعد ان حكم ١٧ سنة و٨ اشهر
و٦ ايام . قضى يوم السبت ١٣ ذي الحجة سنة ٨٤١ هـ وعمره ستون سنة

سلطنة يوسف بن برس باي

من سنة ٨٤١ — ٨٤٢ هـ او من ١٤٣٧ — ١٤٣٨ م

فبويج ابنه جمال الدين يوسف الملقب بابي المحاسن ولقب بالملك العزيز وبعد ثلاثة شهر من مبايعته تخاصم مماليكه وسيف الدين جقمق اتاك جيشه خصاماً انتهى بعزله بمبايعة جقمق في ١٩ ربيع اول سنة ٨٤٢ هـ

سلطنة الملك الظاهر جقمق

من سنة ٨٤٢ — ٨٥٧ هـ او من ١٤٣٨ — ١٤٥٣ م

وكان سن جقمق اذ ذاك ٦٩ سنة ولقب بالملك الظاهر وبعد سنتين من حكمه اصيبت مصر بطاعون تفشى في انحاءها . وفي سنة ٨٤٦ هـ توفي الامام المعتضد بالله وكان باراً تقياً واوصى بالخلافة بعده لاختيه بالرحم فبايعوه ولقبوه بالمستكني بالله وكان صديقاً للسلطان جقمق وبعد ثمان سنوات من خلافته توفي سنة ٨٥٤ هـ وكان كاختيه تقياً وباراً حتى تخاصم الاعيان والكبراء في المسابقة الى حمل نعشه وقت الجنازة حتى السلطان جقمق فانه حمل به على منكبيه . فبويج اخوه ولقب بالقائم بامر الله . وكان سير هذا الخليفة مغايراً لسير اسلافه فابغضه السلطان وخاف دسائسه وكان قد تجاوز الثمانين من سنه ولم تبق فيه عزيمة على مقاومة الدسائس فتنازل عن السلطة لابنه نحر الدين عثمان وتوفي في ٢٩ صفر سنة ٨٥٧ هـ وهي السنة التي فتح فيها السلطان محمد الثاني القسطنطينية

سلطنة عثمان بن جقمق

من سنة ٨٥٧ — ٨٥٧ هـ او من ١٤٥٣ — ١٤٥٣ م

وبويج نحر الدين عثمان ولقب بالملك المنصور اما الخليفة فلم ينفك عن دسائسه طمعاً

بالسلطة فدعا اليه زمرة من الامراء وحملهم على نبذ طاعة الخليفة على امل ان ينال بذلك ما ناله المستعين بالله فانتشبت الثورة وخلع الملك المنصور عثمان في غرة شهر ربيع آخر من تلك السنة بعد ان حكم شهراً ويوماً . اما الخليفة فخاب انتظاره وحبطت مساعيه فغادرته الاحزاب وبايعوا مملوكاً مسناً اسمه ابو النصر اينال ولقبوه بالملك الاشرف

سلطنة الملك الاشرف اينال

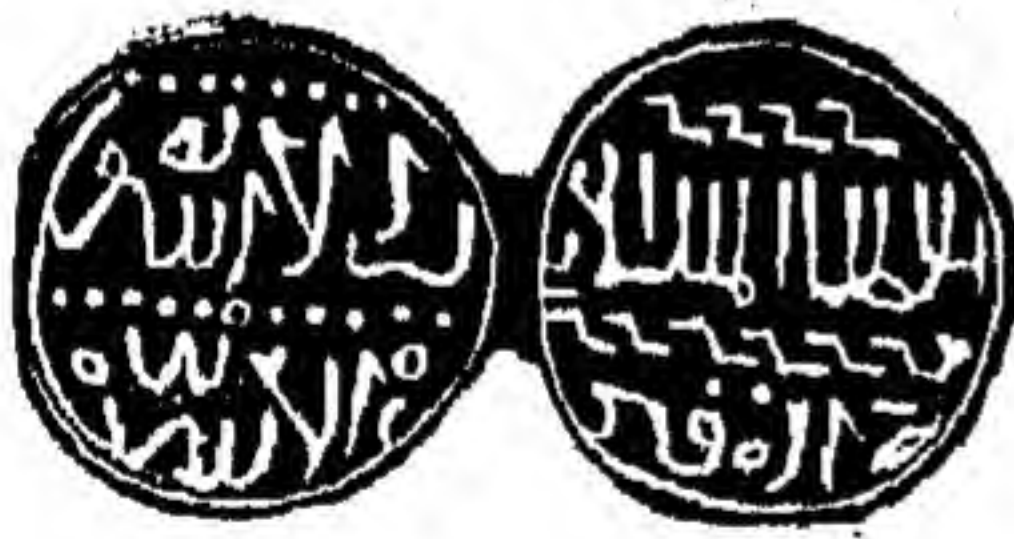
من سنة ٨٥٧ - ٨٦٥ هـ او من ١٤٥٣ - ١٤٦٠ م

فقال الخليفة في نفسه ان هذا السلطان شيخ فلننتظر وفاته انه لا يلبث ان يصيب حتفه . فانتظر ست سنوات فلم يمت فعمد الى الدسيسة فانصل ذلك بالوزير بلجيو في فاعلم السلطان بامرهم فاستحضر الخليفة وقرعته ثم امر بخلعه عن الخلافة . فقال الخليفة « من اين لك ان تخلع الخلفاء ولهم وخدمهم ان يولوا ويعزلوا » فلم يجبه الا بالنفي الى الاسكندرية فبقي فيها مدة ثم مات . فبايعوا يوسف اخا المعتضد بالله ولقبوه بالمستنجد بالله وكان حكيماً معتدلاً وعاش السلطان اينال بعد ذلك سنتين ولي وعزل في اثنا عشر شهراً من الوزراء ثم توفي يوم الخميس ١٥ جمادي الاولى سنة ٨٦٥ هـ بعد ان حكم ٨ سنوات وشهرين وستة عشر يوماً

سلطنة احمد بن اينال

من سنة ٨٦٥ - ٨٦٥ هـ او من ١٤٦٠ - ١٤٦١ م

فتولى بعده ابنه شهاب الدين احمد الملقب بابي الفتح وكان قد تعاطى الاحكام في اخر ايام ابيه . وترى في شكل ٩٢ صورة نقود مضروبة في عهد شهاب الدين احمد يوم كان يتعاطى الاحكام في حياة ابيه فلما بوبع لقب بالملك المؤيد ولكنه لم يحكم الا اربعة اشهر فعزل في ١٨ رمضان من تلك السنة وبوبع سيف الدين خوش قدم ولقب بالملك الظاهر



ش ٩٢: نقود ابي الفتح والاشرف

سلطنة الظاهر خوش قدم

من سنة ٨٦٥ - ٨٧٢ هـ او من ١٤٦١ - ١٤٦٧ م

ويعرف خوش قدم هذا بالرومي لانه يوناني الاصل وبالناصري لانه كان من ممالك الملك الناصر وكان محباً للاداب اليونانية محافظاً عليها . وكان حكيماً باراً حليماً محباً لرعيته ساهراً على راحتهم ولم يكن يستوزر الا الذين اختبر نزاهتهم ونشاطهم فاحبته الرعية واجمعوا على طاعته والاخلاص له . ويقال بالجملة ان هذا السلطان من افضل سلاطين مصر وقد اقتدى به رجال دولته . اما الخليفة فلم يكن يتجاوز سلطته الدينية فحكم خوش قدم ست سنوات ونصف كلها سلام ونعيم وتوفي في ١٠ ربيع اول سنة ٨٧٢ هـ وسنه ستون سنة فاسف عليه الناس كثيراً

وكان حسن الشكل معتدل القامة مترك الوجه احمر اللون مستدير اللحية ضخمة الجسم شائب اللحية فصيح اللسان بالعربية وكان ماشياً على النظام القديم تابعاً لطريقة الملوك السالفين في اقامة المواكب في القصر الكبير والمبيت به في كل ليلة . وكان سائراً على خطة استأذه الملك المؤيد شيخ في كسر السد بنفسه ولبس الصوف في المطعم وكان كثير الرمايات في كل سنة ويشق في القاهرة المواكب الجليلة . وكان يطيف المحمل في كل سنة في رجب وتسوق الرماحة على جاري العادة اربعين يوماً ثم يلبسون الاحمر وتزين القاهرة ثلاثة ايام ويخرج الناس في ذلك عن الحد بالقصف والخلاعة وكانت ايامه كلها لهواً ولم يجيء في ايامه الطاعون بمصر ولا جرد تجريدة الى البلاد الشامية . وكان متأنقاً في ملبسه فصنع ركباً ومهاميز من ذهب . وكان يلبس السمر الاسود بلون الحبر وكان يلبس القباء الصوف الفاخر ويبطنه بالخمير الاحمر الكفوي

سلطنة الملك الظاهر بلباي ثم الظاهر تمر بغا

من ٨٧٢ - ٨٧٢ هـ او من ١٤٦٧ - ١٤٦٧ م

فبايعوا ابا سعيد بلباي ولقبوه بالملك الظاهر فكان سميّاً لسابقه بالاسم لا بالفعل فجاء من السيئات اكثر مما جاء من الحسنات لانه كان مستبدّاً عاتياً لا يغادر كبيراً ولا

صغيراً فكرهته الناس ولم يمض ٦٦ يوماً من توليته حتى خلعوه وذلك في ١٧ جمادى الأولى من تلك السنة وبايعوا الأمير أباسعيد تمرغا الملقب بالظاهري ولقبوه بالملك الظاهر أيضاً فكان حظه من الملك كحظ سلفه لأنه خلع بعد شهرين من توليته وبايعوا الأمير قايت باي الملقب بالمحمودي وبالظاهري ولقبوه بالملك الأشرف

سلطنة الملك الأشرف قايت باي

من سنة ٨٧٢ هـ - ٩٠١ هـ من ١٤٦٧ - ١٤٩٥ م

فتوالى على مصر في سنة ٨٧٢ هـ أربعة سلاطين . أما السلطان الأخير فكث على سرير السلطنة مدة طويلة رغم ما كانت عليه البلاد من الاضطراب . وكان قايت باي مملوكاً محرراً من ممالك جقمق وكان اعلوهمته وحسن سياسته قابضاً على ازمة الاحزاب فكانت البلاد آمنة مطمئنة الا انها اضطربت بخبر انتصار محمد الثاني العثماني على اوزون حسن ملك الفرس . وكان بين الفرس والمصريين تحالف فتنبأ قايت باي ان ذلك التحالف سيكون سبباً لعزم العثمانيين على فتح سوريا . فارسل حامية كبيرة الى الحدود فاجل العثمانيون عزمهم لاشتغالهم بحروبهم في اوربا . اما قايت باي فخاف سوء العقبى ولم ير سيلاً لرفع التبعة عنه الا بالتنازل عن الملك فادرك الامراء شدة احتياجهم اليه في مثل تلك الاحوال فاجبروه على قبول السلطنة . ولم يكديعلوها حتى جاءته الانباء بانتصار محمد الثاني على الافرنج وعزمه على فتح سوريا وذلك سنة ٨٨٥ هـ لكنه لم يخرج من برالاناطول حتى داهمته المنية في مدينة طيقور جابر . وتخاصم ابنه بيازيد وجم (اوزيزم) على الملك فشغلا عن الفتح فاغشم قايت باي تلك الفرصة وانسحب بجيشه الى مصر

وما زال الخصام يتعاضم بين ابني محمد حتى كانت بينهما واقعة يكي شهر فانهزم جم حتى اتى مصر فالتجأ الى قايت باي فاکرم وفادته ثم علم ان ذلك الاكرام يهيج حاسة الانتقام في بيازيد . فقال في نفسه « اذا كان لا بد لنا من محاربة العثمانيين فلنكن مهاجمين اولى من ان نكون مدافعين » فجعل بناويء الاتراك ويقطع السبل على قوافلهم الناقلة الحجاج الى الحرمين حتى قبض على وفد هندي مرسل في مهمة سياسية الى

بيازيد واستولى على اذنة وترسوس وكانتا في حوزة العثمانيين . أما بيازيد فكان واقفاً بالمرصاد ينتحل حجة لمهاجمة المصريين فجاءت تلك الاجراءات طينة على عجيبة الا انه رأى ان يأتيهم من باب الحزم فانفذ اليهم رسلاً في طلب التعويض عما سببوه من الخسائر والاضرار . فارجع قايت باي الرسل وبعث يهاجم الجيوش العثمانية فقاومتها اشد مقاومة وارجعت جيشه الى ملاطية فانجدهم قايت باي بخمسة آلاف رجل فعادوا الى العثمانيين وهم في مضايق الجبال فهجموا عليهم بغتة وذبخوا منهم عدداً كبيراً وفر الباقون وتحصنوا في ترسوس واذنة . فاتصل ذلك بقايت باي فارسل الامير الازبكي في نجدة لاجراج العثمانيين من تينك المدينتين فسار وحارب وفاز فشق ذلك على بيازيد وآلى على نفسه الا ان يسترجع ترسوس واذنة فانفذ جيشاً كبيراً تحت قيادة صهره احمد وهو ابن امير البوسنة - ولد في البانيا ثم اسلم واخذ يرتقي في اعمال الدولة حسب استحقاقه حتى تمكن مع صغر سنه وكونه غير مولود في الاسلام من قيادة هذه الحملة لمحاربة الجيوش المصرية . فلما وصل الى معسكر الازبكي اقتتل الجيشان فهجم احمد هجمة قوية لكن رجاله لم يستطيعوا الثبات ففازت الجيوش المصرية واسر احمد بعد ان جاهد جهاداً حسناً فعاد الازبكي باسيره الى مصر ظافراً فبنى جامعته المشهور المعروف بجامع الازبكية وكانت في ايامه بركة يتجمع اليها الماء في ايام الفيضان وستأتي كيفية تحويلها الى ما هي عليه الآن

فلما بلغ بيازيد ما كان من انكسار جيوشه استشاط غضباً وجند جنداً كبيراً جعله تحت قيادة علي باشا لمحاربة المصريين فسارت تلك الحملة من الاستانة فعبرت البوسفور في ٣ ربيع آخر سنة ٨٩٣ هـ ونزلت في قرمان . فاتصل خبرها بقايت باي فاجس خيفة فعمد الى المصالحة فانفذ الى بيازيد صهره احمد واسطة لعقد شروط المصالحة . فرفض بيازيد ذلك رفضاً كلياً وسار حتى التقى بالمصريين في اذنة وترسوس فخاربهم وفاز عليهم واسترجع المدينتين الواحدة بعد الاخرى بعد ان اهرق دماء غزيرة . ثم سار الى ارمينيا واخضعها وحاصر عاصمتها فافتتحها بعد ان دافعت دفاعاً قوياً واسر حاكمها وارسله بعد ذلك الى مصر بدلاً من الامير احمد . فبعث قايت باي الازبكي ثانياً لدفع العثمانيين فواقعهم في ترسوس فغلبوه اولاً ثم عاد اليهم وفاز بهم واعادهم القهقري وعاد الى القاهرة ظافراً فخاع عليه قايت باي . ثم رأى ان يغتم كونه ظافراً لمصالحة العثمانيين فبعث الى بيازيد في ذلك فاجابه مهدداً وطلب اليه ان يتنازل له عن ترسوس واذنه وانه اذا لم يفعل يدعو الناس الى الجهاد فيجتمع تحت لوائه

كل من يدعو لآل عثمان فيجيء مصر ويفتحها فتحاً مبيناً . نخاف قايت باي وتنازل عن المدينتين اكتفاء باهون الشرين وكان ذلك سنة ٨٩٦ هـ وعاش قايت باي بعد مصالحته الدولة العثمانية خمس سنوات وتوفي في ٢٢ ذي القعدة سنة ٩٠١ هـ بعد ان حكم ٢٩ سنة واربعة اشهر وعشرين يوماً فبكاه الناس . ومن آثاره جامعته المعروف باسمه الى هذا العهد في القرافة خارج القاهرة . وفيه مقام قايت باي وهو مثال لما بقي من مدافن المماليك في تلك الجهة . وبني قايت باي جامعاً في جزيرة الروضة لا يزال يشاهد هناك الى هذا اليوم

سلطة محمد بن قايت باي ثم قنسو خمس مئة ثم قنسو ابني سعيد
ثم قنسو جانبلاط ثم الملك العادل طومان باي

من سنة ٩٠١ — ٩٠٦ هـ او من ١٤٩٥ — ١٥٠١ م

وتولى بعد قايت باي ابنه ابو السعادة محمد واقب بالملك الناصر ولم يجلس على سلطنة مصر رجل اقل لياقة لها منه فانه كان احمق جبيصاً وحشياً لا يدن له الا الانعام في المماليك الحيوانية ولو كلفه ذلك ارتكاب شر الآثم . وقد زادت قبحته حتى سلخ جلد احد مماليكه حياً فنار عليه المماليك وخلعوه بعد ان حكم ستة اشهر . وبايعوا الامير قنسو الملقب بخمس مئة لانه ابتاع بالاصل بخمس مئة دينار ولقبوه بالملك الاشرف . وبعد خمسة اشهر تنازل عن الملك عجزاً فاعادوا الملك الناصر محمد ثانية لكنه لم يبق الا ١٨ شهراً ونصف فذبحه المماليك في ١٦ ربيع اول سنة ٩٠٤ هـ وبايعوا عم قنسو واسمه قنسو الثاني الملقب بأبي سعيد ولقبوه بالملك الظاهر ولم يقبل هذا المنصب الا بالمرغم عنه . وبعد عشرين شهراً وبضعة ايام عزلوه وبايعوا قنسو الثالث جانبلاط ولقبوه بالملك الاشرف ولم يحكم الا سبعة اشهر ثم خلع في ١٨ جمادى الآخرة سنة ٩٠٦ هـ فاقام امراء دمشق الامير سيف الدين طومان باي وكان من مماليك قايت باي ولقبوه بالملك العادل . فوافقتهم امراء القاهرة على ذلك . وبعد ثلاثة اشهر اضر له المماليك مكيدة يقتلونه بها فعلم هو بذلك ففر طلباً للنجاة فأوى الى مكان ظنه ملجأً حصيناً مكث فيه اربعين يوماً ثم اكتشف عليه المماليك وقتلوه في ذي القعدة سنة ٩٠٦ هـ ثم اجتمع المماليك

والاعيان وارباب الدولة وتداولوا فيمن يجب ان يختاروا ليحكم فيهم من اهل اللياقة فاقروا على الامير قنسو الرابع الملقب بالغوري وكان هو ايضاً من مهاليك قايت باي وكان رجلاً تقياً مخلصاً محترماً عفيفاً غير عالم بما كان يتخاصم عليه الامراء وما كانوا يدسونه من الدسائس . فلما بلغه امر مبايعته انذهل ورفض قائلاً للذين انتخبوه « لا اخالف لكم امراً انما اراني غير لائق بهذا المنصب لاني لم اعتد معاناة الاحكام والامر والنهي » فاجابوه ان صدق نيته واخلاصه وثقة الناس فيه كافية لاستحقاقه هذا المنصب . فلم ير بدءاً من القبول لكنه قال لهم « اكون في غاية السرور اذا جئتموني يوماً تنبئوني بالاقالة من هذا المنصب فارجع الى ما اعتدته من معيشة السكينة » فولوه في غرة شوال من تلك السنة ولقبوه بالملك الاشرف ايضاً

سلطنة قنسو الغوري

من سنة ٩٠٦ — ٩٢٢ هـ او من ١٥٠١ — ١٥١٦ م

فاستلم الغوري مقاليد الاحكام واخاص في الحكم فاطمات البلاد وسكن حالها فاخذ في اصلاح شأنها فابتنى في القاهرة جامعاً ومدرسة ينسبان اليه وهما مدرسة الغورية وجامع الغورية في اول شارع الغورية في السكة الجديدة كل منهما الى جانب من الطريق . فالى الشرق البناية التي كانت فيها المدرسة ويايها الى الجنوب مدفن فيه مقام بعض اهله . والى الغرب الجامع ويظهر للناظر عندما يشرف عليه انه هائل وهو مبني على مثال جامع قايت باي وعلى القبلة كتابة كوفية . وقد رمم بمساعي جمعية حفظ الآثار والى الشمال سبيل جميل . ثم كانت الحوادث السياسية فتوقف الغوري عن اتمام ما كان يقصده من البناء والتحسين فان البرتغاليين لما استولوا على بعض بلاد الهند انقلوا على العلاقات التجارية بينها وبين مصر فجهز قنسو الغوري الى محاربتهم حملة عظيمة ذهبت غنيمة باردة لجيوش الافرنج في البحر الاحمر

وفي سنة ٩١٨ هـ جاء كركود اخو السلطان سليم بن بيازيد « سليم الاول » الى مصر ملتجئاً اليها بعد ان تخاصم مع اخيه على الملك كما حصل بحجم وبيازيد المتقدم ذكرهما فرحب به قنسو الغوري ترحاباً عظيماً وجهزه بعشرين بارجة بحرية لافتتاح

القسطنطينية فذهبت هذه العمارة غنيمة اراكب اورشليم في البحر المتوسط ولم تكن النتيجة الا اثاره غضب السلطان سليم على مصر فجزأها وابتدأ بافتتاح الحدود السورية واصل الى مصر رسائل التهديد . فأتحد الغوري مع ملك الفرس اسماعيل شاه على قهر العثمانيين وكان الفرس في حرب معهم الا ان الجيوش العثمانية لم تبال بكثرة العدد فشنت الجيوش واي تشيت . فعمد قنسو الغوري الى مخابرة العثمانيين بأمر الصالح على اي وجه كان وبعث الى السلطان سليم بذلك فسارت الرسل حتى اتوا السلطان سليم نفروا ساجدين وخاطبوه بأمر الصالح فقال لهم وقد استشاط غيظاً « لقد فات الاوان انهضوا وارجعوا الى سلطانكم وقولوا له ان الرجل لا تعثر بحجر واحد مرتين . وها انا ذاهب الى القاهرة فليستعد للدفاع ان كان له اهلا » فعادوا واخبروا بما كان فجمع اليه رجاله وسار لملاقاة الجيوش العثمانية فالتقى بها في مرج دابق قرب حلب فانتشبت الحرب هناك وظهر الغوري بسالة واقداماً عظيمين حتى اوشكت رجاله ان تستظهر فمنعتها مدافع العثمانيين من ذلك ولم يكن سلاح المصريين الا الرماح والحراب والسيوف فتشوش نظامهم ووقع الرعب في قلوبهم وانحاز قائد جناحيهم الى العثمانيين وكان الغوري قائداً لقلب الجيش فاضطر الى الفرار فحول شكيمة جواده فسقط عنه لشدة الازدحام وذهب قتيلاً تحت ارجل الخيل في ٢٥ رجب سنة ٩٢٢ هـ بعد ان حكم ١٥ سنة وتسعة اشهر و ٢٥ يوماً

سلطنة الملك الاشرف طومان باي

من سنة ٩٢٢—٩٢٣ هـ او من ١٥١٦—١٥١٧ م

وكان السلطان قنسو الغوري قبل خروجه من القاهرة هذه المرة قد استخاف عايبها ابن اخيه طومان باي (الثاني) فلما اتصل خبر تلك الموقعة بالامراء بايعوا طومان باي ولقبوه ايضاً بالملك الاشرف وكان حازماً بأسلاً . فلما وصلت بقية الجيوش المنهزمة الى القاهرة امر باعداد حملة اخرى لمحاربة العثمانيين . وكان العثمانيون في سوريا قد توقفوا للاستراحة فظن طومان باي ان الرمال المتراكمة بين سوريا ومصر تحول بين العثمانيين وما يريدون . الا ان الامر لم يكن كما ظن لانه لم يكذبتم اعداداته حتى اتاه كتاب السلطان سليم الى القاهرة ونصه :

« من السلطان سليم خان بن السلطان بيازيد خان سلطان البرين وخاقان البحرين السلطان الخ . الى طومان باي الشركسي

« الحمد لله . اما بعد فقد تمت ارادتنا الشاهانية وباد اسماعيل شاه الهرطوقي . اما قنسو الكافر الذي حملته القعدة على مناواة الحجاج فقد نال جزاءه منا ولم يبق لدينا الا ان نتخلص منك فانك جارٌّ معادٍ والله سبحانه وتعالى يساعدنا على معاقبتك فاذا اردت اكتساب رحمتنا الملوكانية اخطب لنا واضرب النقود باسمنا وتعال الى اعتابنا واقسم على طاعتنا والاخلاص لنا والا »

فلما قرا طومان باي الكتاب وما في ذيله من التهديد المستتر استشاط غيظاً واصر على المقاومة وكان عالماً بعجزه لكنه فضل الموت في ساحة الحرب على التسليم . فزاد في حصون دمياط وغيرها من الحدود السورية وجمع كل ما امكنه جمعه من الرجال وسار لملاقاة العثمانيين حتى اتى الصالحية فعسكر هناك . اما السلطان سليم فسار من مرج دابق وافتتح غزة والعريش والقطيفة . ثم علم بمقر الجيوش المصرية في الصالحية وما هم فيه من العزم على المدافعة لشدة اليأس فخرج بجيشه تاركاً الصالحية عن يمينه وسار حتى اتى الخانكة على بضع ساعات من القاهرة

فلما بلغ طومان باي تقدم العثمانيين الى هذا القدر عاد بجيشه لمهاجمتهم من الورا فالتقى الجيشان في سهل قرب بركة الحج يوم الجمعة في ٢٩ ذي الحجة سنة ٩٢٢ هـ واقتلا طويلاً والمصريون يحاربون ببسالة شديدة لكنهم لم يكونوا يعرفون البارود ولا المدافع كما قدمنا فكانت الغلبة للعثمانيين ففر المصريون الى القاهرة وعسكر العثمانيون في الروضة . فجمع اليه طومان باي عدداً كبيراً من العربان بعد ان ارضاهم بالمال وهجم على معسكر السلطان سليم هجمة اليأس فلم ينل هذه المرة غير ما نال في ارات الماضية فعاد الى القاهرة على نية الحصار فزاد في حصونها واستحكاماتها وحصن القلعة تحصيناً عظيماً واقام في كل شارع وفي كل بيت طابية للدفاع وحمل السلاح كل من يستطيع حمله للمدافعة عن الوطن . ولكن رغم كل هذه الاعدادات وما عا اظهره طومان باي من البسالة والاقدام وما سعى اليه امرؤه لم تنج القاهرة من يد العثمانيين فانهم دخلوها عنوة وامعنوا فيها قتلاً ونهباً وحرقاً واستلموا القلعة

اما طومان باي فتمكن من الفرار على معدية قطع بها الى الجيزة ثم سار منها قاصداً الاسكندرية فقبض عليه بعض العربان الرحل وباعوه للعثمانيين . فاستحضره السلطان سليم مغلولاً وانظر اليه فاذا هو في حالة الكدر وقد علا وجهه القنوط لما حل

بيلاده من الذل والدمار فتحركت عواطف السلطان سليم فامر بان تحمل قيوده وان يؤذن له بالحضور في مؤتمرات كان يعقدها السلطان سليم لاجل المداولة في امر البلاد فكان يسأله مسائل كثيرة تتعلق بمحصولات البلاد وخراجها وادارتها وبقي الحال كذلك نحو عشرة ايام وفي اليوم العاشر رأى السلطان سليم انه لم يعد في احتياج الى مشورة طومان باي فامر بشنقه في ١٩ ربيع اول سنة ٩٢٣ هـ فعلقوه تحت رواق باب زويله بكلاّب من حديد كان باقياً هناك الى عهد قريب

وبقتل طومان باي انتهت دولة المماليك الشراكسة او البرجية بعد ان تسلطوا نحو ١٣٩ سنة واصبحت مصر احدى الايالات العثمانية الكبيرة . وبقيت جثة طومان باي ثمانية ايام معلقة ليراها الناس

تم الجزء الاول

من تاريخ مصر الحديث



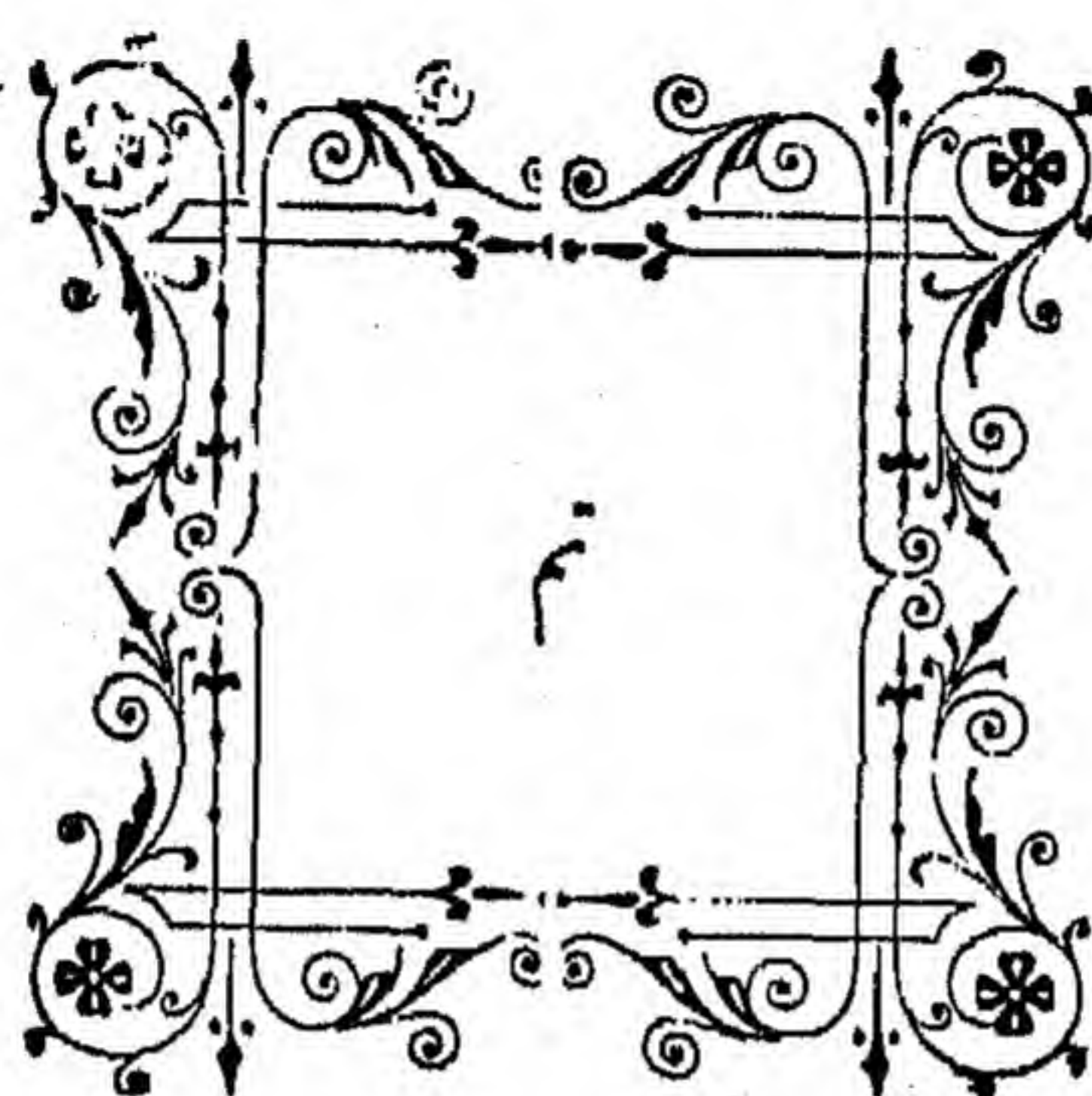
فهرس الجزء الاول

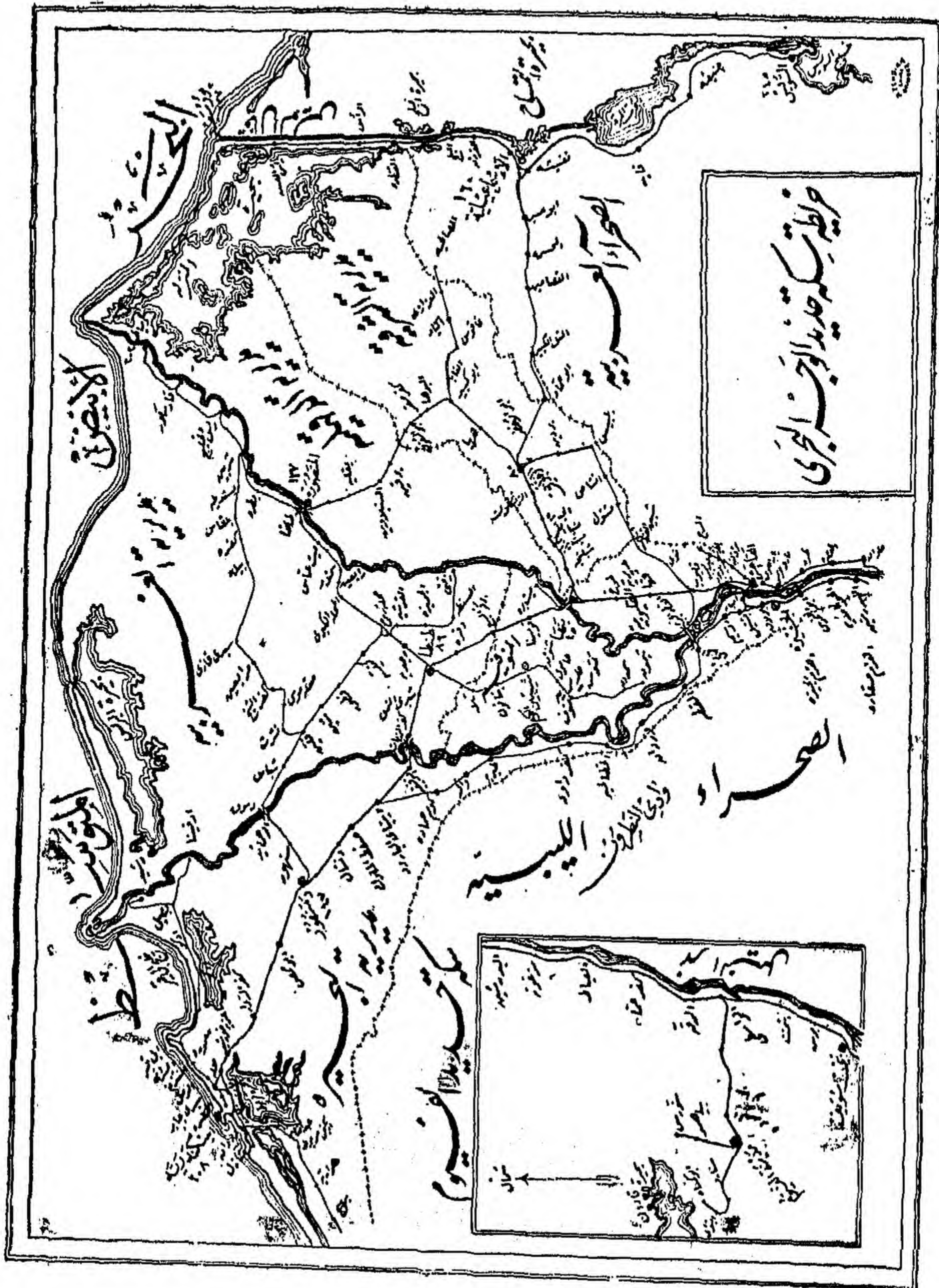
من تاريخ مصر الحديث

صفحة		صفحة	
١١٤	خلافة يزيد بن معاوية	٣	المقدمة
١١٥	« مروان بن الحكم	٩	اقسام تاريخ مصر العام
١٢٠	« عبد الملك بن مروان	١١	مصادر تاريخ مصر القديم
١١٩	« الوليد بن عبد الملك	١٥	جغرافية مصر القديمة
١٢٠	« سليمان بن عبد الملك	١٨	ديانة المصريين القدماء
١٢١	« عمر بن عبد العزيز		فدلكة تاريخ مصر القديم
١٢٢	« يزيد بن عبد الملك	٢٣	الدولة الملكية الاولى
١٢٣	« هشام بن عبد الملك	٢٨	« « الوسطى
١٢٤	« الوليد بن يزيد	٣٥	« « الاخيرة
١٢٥	« مروان بن محمد	٥٣	« « الفارسية الاولى
	الدولة العباسية للمرة الاولى	٥٧	« اليونانية — والبطالسة
١٢٧	خلافة ابي العباس السفاح	٦٥	« الرومانية
١٢٨	« المنصور بن محمد	٦٧	الدور المسيحي
١٣٠	« محمد المهدي		تاريخ مصر الحديث
١٣٢	« هارون الرشيد	٦٩	مصادر تاريخ مصر الحديث
١٣٥	« محمد الامين	٧١	جغرافية مصر الحديثة
١٣٧	« عبد الله المأمون		دولة الخلفاء الراشدين
١٤١	« محمد المعتصم	٧٥	خلافة عمر بن الخطاب
١٤٢	مبدأ الدولة الطولونية	١٠٠	« عثمان بن عفان
١٤٤	خلافة الواثق	١٠٥	« علي بن ابي طالب
١٤٦	« المنتصر بن المتوكل		الدولة الايوبية
١٤٧	« المستعين بن محمد		
١٤٨	« المعز بن المتوكل	١١٣	خلافة معاوية بن ابي سفيان

صفحة		صفحة	
٢٣٥	خلافة الأمر بن المستعلي	١٥١	خلافة المهدي والمعتمد
٢٣٨	» الحافظ بن محمد		الدولة الطولونية
٢٤٠	» الظافر بن الحافظ	١٥٤	احمد بن طون
٢٤١	» الفائر بن الظافر	١٧٢	خارويه بن احمد
٢٤٢	» العاضد بن يوسف	١٧٥	جيش بن خارويه
	دولة الاديويين	١٧٧	هارون « «
٢١٦	سلطنة صلاح الدين الاديوي	١٧٩	شيبان بن احمد
٢٨٩	« العزيز بن يوسف		الدولة العباسية للمرة الثانية
٢٠١	« المنصور بن العزيز	١٧١	خلافة المكتفي والمقتدر
٢١٢	« العادل بن ايوب	١٨٢	» القاهر
٢١٦	« الكامل بن العادل	١٨٢	مبدأ الدولة الاخشيدية
٣٠٣	« العادل بن الكامل	١٨٣	خلافة الراضي
٣٠٤	« الصالح بن الكامل		الدولة الاخشيدية
٣٠٧	« المعظم بن الصالح	١٨٥	محمد الاخشيد
	دولة المماليك الاولى	١٨٩	انوجور بن الاخشيد
٣٠٨	منشأ المماليك	١٩٠	ابو الحسن بن الاخشيد
٣٠٩	سلطنة شجرة الدر	١٩١	كافور الاخشيد و ابو الفوارس
٣١١	« ايبك والاشرف		الدولة الفاطمية
٣١٥	« نور الدين بن ايبك	١٩٢	خلافة المعز لدين الله
٣١٦	« المظفر سيف الدين	٢٠٣	» العزيز بالله
٣١٨	« الظاهر بيبرس	٢٠٧	» الحاكم بامر الله
٣٢٦	« بركة خان بن بيبرس	٢١١	» الظاهر بن الحاكم
٣٢٧	« سلامش بن بيبرس	٢١٢	» المستنصر بن الظاهر
٣٢٧	« المنصور قلاون	٢٣١	» المستعلي بن المستنصر
٣٣٠	« خليل بن قلاون والقاهر		
٣٣١	« الملك الناصر بن قلاون اولاً		

صفحة		صفحة	
٣٥٠	سلطنة فرج بن برقوق ثانية	٣٣١	سلطنة الملك العادل كتبغا
٣٥٠	« الامام المستعين بالله	٣٣٣	« المنصور لاجين
٣٥١	« الشيخ المحمودي	٣٣٤	« الناصر بن قلاوون ثانية
٣٥٢	« احمد بن المحمودي وغيره	٣٣٥	« بيبرس الجاشنكير
٣٥٢	« الملك الاشرف برسباي	٣٣٦	« الملك الناصر ثالثة
٣٥٤	« يوسف بن برسباي	٣٤٠	« اولاد الناصر
٣٥٤	« الظاهر جقمق وابنه عثمان	٣٤٢	« محمد بن حاجي وشعبان
٣٥٥	« الاشرف اينال وابنه احمد	٣٤٣	« علي بن شعبان وحاجي اخيه
٣٥٦	« الظاهر خوش قدم		رواة المماليك الثانية
٣٥٦	« بلباي وتمر بغا		منشأها
٣٥٧	« الاشرف قايت باي	٣٤٤	
٣٥٩	« محمد بن قايت باي وغيره	٣٤٥	سلطنة الملك الظاهر برقوق
٣٦٠	« قسوة الغوري	٣٤٨	« فرج بن برقوق اولاً
٣٦١	« الاشرف طومان	٣٤٩	« عبد العزيز بن برقوق





تم الجزء الأول
ويليه الجزء الثاني والأخير

هذه السلسلة تضم :

- ١- فتح العرب لمصر
- ٢- تاريخ مصر إلى الفتح العثماني
- ٣- الجيش المصري البري والبحري في عهد محمد علي
- ٤- تاريخ مصر من أقدم العصور إلى الفتح الفارسي
- ٥- تاريخ مصر من عهد المماليك إلى نهاية حكم اسماعيل
- ٦- تاريخ مصر من الفتح العثماني إلى قبيل الوقت الحاضر
- ٧- ذكرى البطل الفاتح ابراهيم باشا
- ٨- تاريخ مصر في عهد الخديوا اسماعيل باشا (مجلدات)
- ١- فتوح مصر وأخبارها
- ١١- تاريخ مصر الحديث مع فذلكة في تاريخ مصر القديم (ج ١) (ج ٢)
- ١٢- قوانين الدواوين
- ١٣- تاريخ مصر من محمد علي إلى العصر الحديث
- ١٤- الحاكم المصري في الشام
- ١٥- تاريخ الخديوي محمد
- ١٦- آثار الزعيم سعد

Bibliotheca Alexandrina



0354359

MADBOULI BOOKSHOP

مكتبة مدبولي

٦ ميدان طلعت حرب - القاهرة - ت : ٥٧٥٦٤٢١ Tel 5756421 6 Talat Harb SQ